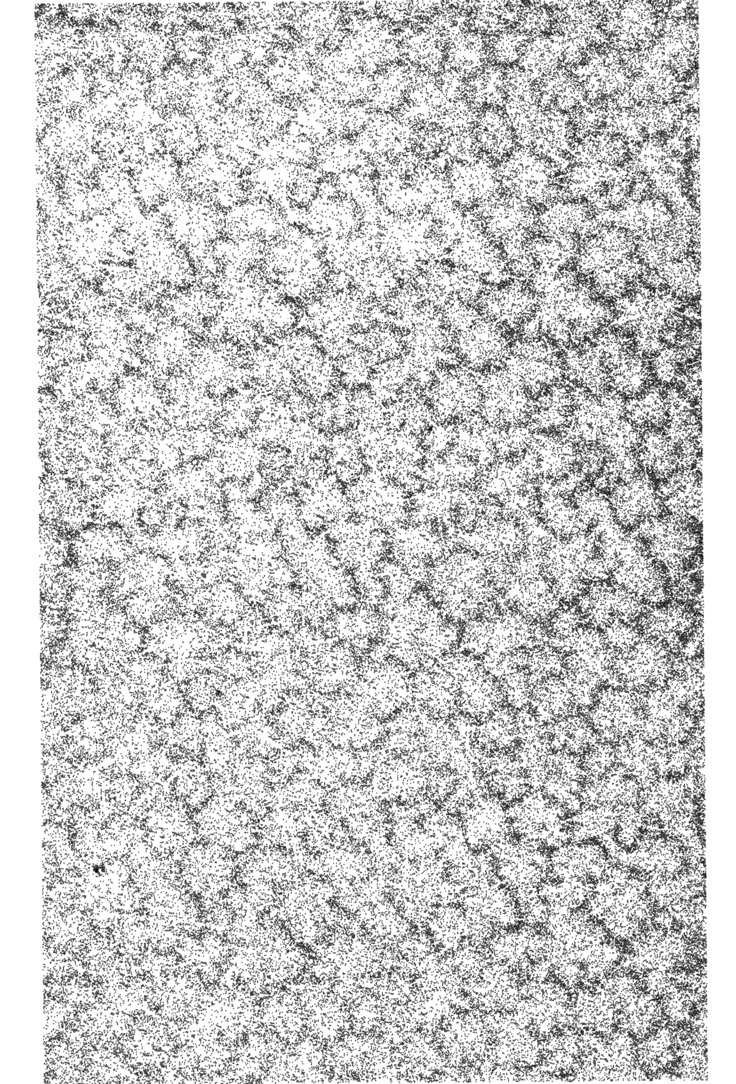
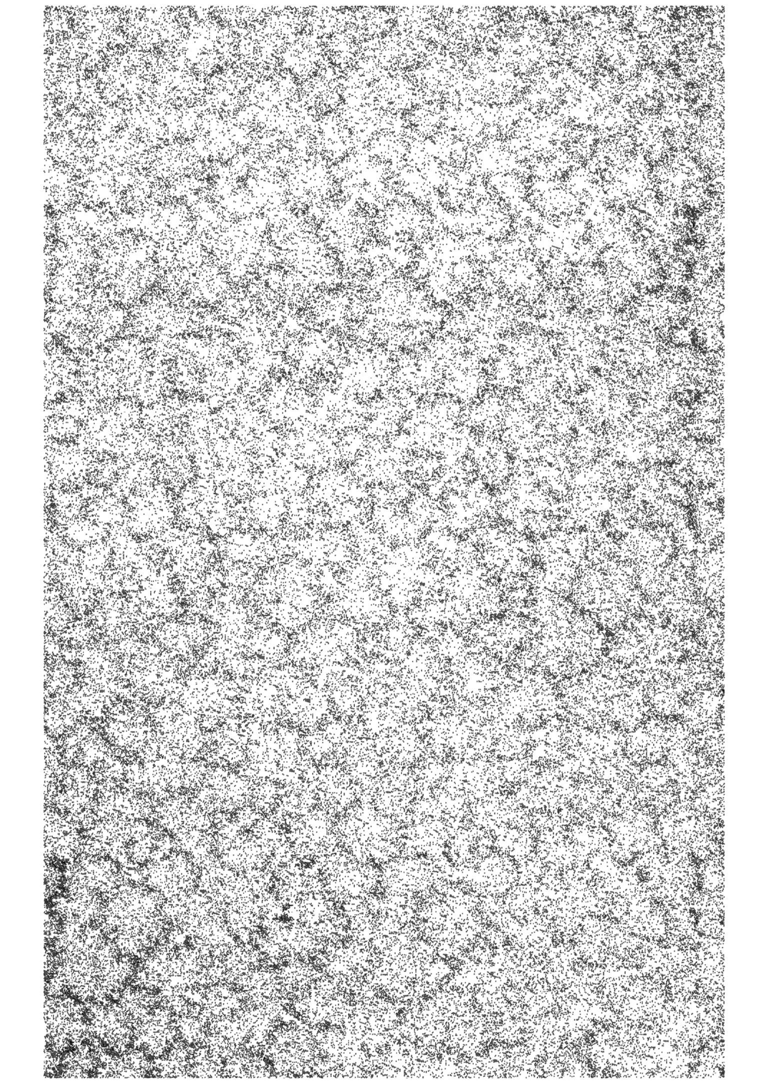






دار الكتب المصرية

القسم الأدبي







القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٨ هـ — ١٩٣٩ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

---

# فهـــرس الجـزء التاسـع

## تفسـير سـورة هـود

صفحة

صفحة

*

## تفسير سورة يوسف عليه السلام

صفحة

صفحة

صفحة

## سورة الرعد

صفحة

## تفسير سـورة إبراهيم عليـه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

# سورة هود عليه السلام

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آية ؛ وهى قوله تعالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ » . وأسند أبو محمد الدارمى فى مسنده عن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اقرءوا سورة هود يوم الجمعة" . وروى الترمذى عن ابن عباس قال قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله قد شِبْتَ ! قال : "شيبتنى هودٌ والواقعةُ والمرسلاتُ وعَمَّ يتساءلون وإذا الشمس كُوِّرت" . قال : هذا حديث حسن غريب ، وقد رُوى شىء من هذا مرسلا . وأخرجه الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى « نوادر الأصول » : حدّثنا سفيان بن وكيع قال حدّثنا محمد بن بشر عن علىّ بن صالح عن أبى إسحق عن أبى جُحَيْفة قال : قالوا يارسول الله نراك قد شِبتَ ! قال : "شيبتنى هودٌ وأخواتُها" . قال أبو عبد الله : فالفزع يورث الشيب وذلك أن الفزع يُذهِل النفس فينشِّف رطوبة الجسد ، وتحت كل شعرة مَنْبع ، ومنه يَعْرَق ، فإذا نَشَّف الفزعُ رطوبتَه يبست المنابع فيبس الشعر وابيضّ ؛ كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضّ ؛ وإنما يبيضّ شعر الشيخ لذهاب رطوبته ويُبْس جلده ، فالنفس تَذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، ويُنَشِّف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ؛ فمنه تشيب . وقال الله تعالى : « يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا » فإنما شابوا من الفزع . وأمّا سورة « هود » فإنما فيها ذكر الأمم ، وماحلّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطشُ بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يَلْطُف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه . وأمّا أخواتها فما أشبهها من السور ؛ مثل « الحاقة » و « سأل سائل » و « إذا الشمس كورت »

و « القارعة » ، ففى تلاوة هذه السّور ما يَكشف لقلوب العارفين سلطانَه و بطشَه فتذهل منه النفوس ، وتَشيب منه الرءوس . وقد قيل إن الذى شيّب النبيّ صلى الله عليه وسلم من سورة « هـود » قوله : « فَٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى . وقال يزيد بن أَبَان : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامى فقرأت عليه سورة « هود » فلما ختمتها قال : "يا يزيد هذه القراءة فأين البكاء" . قال علماؤنا قال أبو جعفر النحاس : يقال هذه هودُ فاعلم بغير تنوين على أنه ٱسم للسورة؛ لأنك لو سميت ٱمرأة بزيد لم تصرف؛ وهذا قول الخليل وسيبويه . وعيسى بن عمر يقول : هذه هودٌ بالتنوين على أنه ٱسم للسورة؛ وكذا إن سمى ٱمرأة بزيد؛ لأنه لما سكن وسطه خفّ فصرف ، فإن أردت الحذف صرفت على قول الجميع ، فقلت : هذه هودٌ وأنت تريد سورة هود؛ قال سيبويه : والدليل على هذا أنك تقول هذه الرحمن ، فلولا أنك تريد هذه سورة الرحمن ما قلت هذه .

قوله تعالى : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

قوله تعالى: ﴿ الٓر ﴾ . تقدّم القول فيه (١) . ﴿ كِتَابٌ ﴾ بمعنى هذا كتاب . ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ فى موضع رَفع نعت لكتاب . وأحسن ماقيل فى معنى «أحكمت آياته» قول قَتادة ؛ أى جعلت محكمة كلها لا خَلَل فيها ولا باطل . والإحكام منع القول من الفساد ، أى نُظمت نظما مُحكما لا يلحقها تناقض ولا خلل . وقال ٱبن عباس : أى لم ينسخها كتاب ، بخلاف التوراة والإنجيل . وعلى هـذا فالمعنى ؛ أُحكم بعض آياته بأن جعـل ناسخا غير منسوخ . وقد تقدّم القول فيه (٢) .

(١) راجع تفسير الآية الأولى من سورة « يونس » . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٠ طبعة أولى أو ثانية .

وقد يقــع ٱسم الجنس على النــوع ؛ فيقال : أكلت طعام زيد ؛ أى بعض طعامه . وقال الحسن وأبو العاليــة : « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » بالأمر والنهى ﴿ ثُمَّ فُصِّلَتْ ﴾ بالوعد والوعيــد والثواب والعقاب . وقال قَتادة : أحكمها الله من الباطل ، ثم فصّلها بالحلال والحرام . مجاهــد : أحكمت جملة ، ثم بُيِّنت بذكر آية آية بجميع مايُحتاج إليه من الدليل على التوحيــد والنبوّة والبعث وغيرها . وقيــل : جُمعت فى اللوح المحفوظ ، ثم فُصِّلت فى التنزيل . وقيل : « فُصِّلت » نزلت نَجْما نَجْما لتُتَدبَّر . وقرأ عكرمة « فَصَلَتْ » مخففا أى حَكَمت بالحق . ﴿ مِنْ لَدُنْ ﴾ أى من عند . ﴿ حَكِيمٍ ﴾ أى محكم للأمور . ﴿ خَبِيرٍ ﴾ بكل كائن وغير كائن .

قوله تعــالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُــدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ قال الكسائىّ والفرّاء : أى بألا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت بألا تعبــدوا إلا الله . قال الزجاج : لئلا ؛ أى أحكمت ثم فصّلت لئلا تعبدوا إلا الله . قيل : أمر رسوله أن يقول للناس ألا تعبدوا إلا الله . ﴿ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ ﴾ أى من الله . ﴿ نَذِيرٌ ﴾ أى مخوِّف من عذابه وسطوته لمن عصاه . ﴿ وَبَشِيرٌ ﴾ بالرضوان والجنة لمن أطاعه . وقيل : هو من قول الله أولا وآخرا ؛ أى لا تعبــدوا إلا الله إننى لكم منه نذير ؛ أى الله نذير لكم من عبادة غيره ، كما قال : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ » .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْــتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ عطف على الأوّل . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْــهِ ﴾ أى ٱرجعوا إليه بالطاعة والعبادة . قال الفرّاء : « ثم » هنا بمعنى الواو ؛ أى وتوبوا إليه ؛ لأن الاستغفار هو التــوبة ، والتوبة هى الاســتغفار . وقيــل : ٱستغفروه من سالف ذنوبكم ، وتوبوا إليه من المستأنف متى وقعت منكم . قال بعض الصلحاء : الاستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين . وقد تقــدّم هذا المعنى فى « آل عمران »(١) مستوفى . وفى « البقرة »(٢) عند قوله : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا » . وقيل : إنما قــدم ذكر الاستغفار لأن المغفرة هى الغرض المطلوب ، والتوبة هى السبب إليها ؛ فالمغفرة أوّل فى المطلوب وآخر فى السبب . ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر ، وتوبوا إليــه من الكبائر . ﴿ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا ﴾

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية .

هذه ثمرة الاستغفار والتوبة ، أى يمتّعكم بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلكم بالعذاب كما فعل بمن أهلك قبلكم . وقيل : يمتّعكم يعمّركم؛وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه أمتع اللهُ بك ومتّع . وقال سهـل بن عبـد الله : المتاع الحسن ترك الخَلق والإقبال على الحق . وقيل : هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود . ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : هو الموت . وقيل : القيامة . وقيل : دخول الجنة . والمتاع الحسن على هذا وقاية كلّ مكروه وأمرٍ مَخُوف ، مما يكون فى القـبر وغيره من أهوال القيامة وكُرَبها ؛ والأول أظهر لقوله فى هـذه السورة : « وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ » وهذا ينقطع بالموت وهو الأجل المسمى . والله أعلم . قال مقاتل : فأبوا فدعا عليهم رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ، فابتُلوا بالقحط سبع سنين حتى أكلوا العظام المحرقة والقذَر والجيف والكلاب . ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ أى يؤت كلّ ذى عمل من الأعمال الصالحات جزاء عمله . وقيل : ويؤت كلّ من فضلت حسـناته على سيئاته « فَضْـلَهُ » أى الجنـة ، وهى فضـل الله؛ فالكناية فى قوله : « فَضْلَهُ » ترجع إلى الله تعـالى . وقال مجـاهد : هو ما يحتسبه الإنسان من كلام يقوله بلسانه ، أو عمل يعمله بيده أو رجله ، أو ماتطوع به من ماله فهو فضل الله ، يؤتيه ذلك إذا آمن، ولا يتقبله منه إن كان كافرا . ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ أى يوم القيامة ، وهو كبير لمـا فيه من الأهوال . وقيل : اليوم الكبير هو يوم بَدْر وغيره : و« تَوَلَّوْا » يجـوز أن يكون ماضيا ويكون المعنى : وإن تولّوا فقل لهم إنى أخاف عليكم . ويجوز أن يكون مستقبلا حذفت منه إحدى التاءين والمعنى : قل لهم إن تتولّوا فإنى أخاف عليكم .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ﴾ أى بعد الموت . ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ من ثواب وعقاب .

قوله تعـالى : أَلَآ إِنَّهُـمْ يَثْنُونَ صُـدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْـهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُـمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ﴾ أخبر عن معاداة المشركين للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم . « يثنون صدورهم » أى يطوونها على عداوة المسلمين ففيه هذا الحذف ، قال ٱبن عباس : يخفون ما فى صدورهم من الشّحناء والعداوة ، ويظهرون خلافه . نزلت فى الأَخْنَس بن شَرِيق ، وكان رجلا حُلو الكلام حُلو المنطق ، يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يحب ، وينطوى له بقلبه على ما يسوء . وقال مجاهد : « يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » شكًّا وٱمتراء . وقال الحسن : يثنونها على ما فيها من الكفر . وقيل : نزلت فى بعض المنافقين ، كان إذا مرّ بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ثَنَى صدره وظهره ، وطأطأ رأسه وغطّى وجهه ، لكيلا يراه النبيّ صلى الله عليه وسلم فيدعوه إلى الإيمان ؛ حكى معناه عن عبد الله بن شدّاد فالهاء فى « منه » تعود على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : قال المنافقون إذا غلقنا أبوابنا ، وٱستغشينا ثيابنا ، وثَنَينا صدورنا على عداوة محمد فمن يعلم بنا ؟ فنزلت الآية . وقيل : إن قوما من المسلمين كانوا يَتَنَسَّكون بستر أبدانهم ولا يكشفونها تحت السماء ، فبيّن الله تعالى أن التَّنَسُّك ما ٱشتملت عليه قلوبهم من معتقد ، وأظهروه من قول وعمل . وروى ٱبن جَرير عن محمد بن عبّاد بن جعفر قال سمعت ٱبن عباس رضى الله عنهما يقول : «ألا إنهم تَثْنَونِي صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ » (١) قال : كانوا لا يجامعون النساء ، ولا يأتون الغائط وهم يُفضون إلى السماء ، فنزلت هذه الآية . وروى غير محمد بن عبّاد عن ٱبن عباس : « أَلَا إِنَّهُمْ تَثْنَوِي صُدُورُهُمْ » بغير نون بعد الواو ، فى وزن تنطوى ؛ ومعنى « تثنوى » والقراءتين الأخريين متقارب ؛ لأنها لا تَثْنَوِى حتى يَثْنُوها . وقيل : كان بعضهم ينحنى على بعض يسارّه فى الطّعن على المسلمين ، وبلغ من جهلهم أن توهموا أن ذلك يخفى على الله تعالى .

(١) فى الأصل : « تثنوى » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ، وهو يخالف ما فى صحيح البخارى وتفسير الطبرى عن محمد بن عباد ؛ فلذا صوبناه عنهما ؛ وأما رواية « تثنوى » المذكورة بالأصل فقد نسبها ٱبن عطية إلى ٱبن عيينة ، ويعضده ما فى (إعراب القرآن للنحاس) حيث قال : وروى غير محمد بن عباد عن ابن عباس «ألا إنهم تثنوى صدورهم » بغير نون بعد الواو فى وزن تنطوى ... الخ ، وهى العبارة الآتية بالأصل . وتعقب بعض المفسرين هذه القراءة بأنها غلط فى النقل لا تتجه . راجع روح المعانى والبحر وتفسير ابن عطية .

« لِيَسْتَخْفُوا » أى ليتواروا عنه ؛ أى عن محمد أو عن الله . « أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ » أى يغطّون رءوسهم بثيـابهم . قال قتادة : أخفى ما يكون العبد إذا حَنَى ظهره ، وآستغشى ثوبه، وأضمر فى نفسه همّه .

قوله تعـالى : وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَـا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ « ما » نفى و « مِن » زائدة و «دابة» فى موضع رفع ؛ التقدير : وما دابةٌ . « إِلَّا عَلَى اللَّهِ » « على » بمعنى « مِن » ؛ أى من الله رزقها؛ يدل عليه قول مجاهد : كُلُّ ماجاءها من رزق فمن الله . وقيل : «على الله» أى فضلا لا وجوبا . وقيل : وعدا منه حقا . وقد تقدّم بيـان هذا المعنى فى « النسـاء »(١) وأنه سبحانه لا يجب عليه شىء . « رِزْقُهَا » رفع بالابتداء، وعند الكوفيين بالصفة؛ وظاهر الآية العموم ومعناها الخصوص؛ لأن كثيرا من الدواب هلك قبل أن يُرزق . وقيل : هى عامة، وكل دابة لم ترزق رزقا تعيش به فقد رُزقت رُوحها؛ ووجه النظم بما قبلُ : أنه سبحانه أخبر برزق الجميـع ، وأنه لا يَغفُل عن تربيته ، فكيف تخفى عليـه أحوالكم يا معشر الكفار وهو يرزقكم؟! والدّابة كل حيوان يَدِبّ . والرزق حقيقته ما يتغذّى به الحىّ، ويكون فيـه بقاء رُوحه ونمـاء جسده . ولا يجوز أن يكون الرزق بمعنى المِلك ؛ لأن البهائم تُرزق وليس يصح وصفها بأنها مالكة لعَلَفها ؛ وهكذا الأطفال تُرزق اللّبن ولا يقال إن اللّبن الذى فى الثّـدى ملك للطفل . وقال تعـالى : « وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ » وليس لنا فى السماء مِلك ؛ ولأن الرزق لوكان مِلكا لكان إذا أكل الإنسان من ملك غيره أن يكون قد أكل من رزق غيره ، وذلك محال ؛ لأن العبد لا يأكل إلا رزق نفسه . وقد تقدّم فى «البقرة»(٢) هـذا المعنى والحمد لله . وقيـل لبعضهم : من اين تأكل ؟ فقال : الذى خلق الرّحى يأتيها بالطّحين ، والذى شدق

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

الأشداق هو خالق الأرزاق . وقيل لأبى أسيد : من أين تأكل ؟ فقال : سبحان الله والله أكبر ! إن الله يرزق الكلب أفلا يرزق أبا أسيد ! . وقيل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : من عند الله؛ فقيل له : الله ينزل لك دنانير ودراهم من السماء ؟ فقال : كأن ما له إلا السماء ! يا هذا الأرض له والسماء له؛ فإن لم يؤتنى رزقى من السماء ساقه لى من الأرض؛ وأنشد :

وكيف أخافُ الفقـرَ واللهُ رازقِى * ورازقُ هذا الخلقِ فى العُسْرِ واليُسْرِ

تَكَفَّلَ بالأرزاقِ للخلقِ كُلِّهـمْ * وللضَّبِّ فى البيداءِ والحُوتِ فى البحرِ

وذكر الترمذىّ الحكيم فى «نوادر الأصول» بإسناده عن زيد بن أسلم : أن الأشعريين أبا موسى وأبا مالك وأبا عامر فى نفر منهم، لما هاجروا وقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك وقد أَرْمَلوا[1] من الزاد، فأرسلوا رجلا منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله . فلما انتهى إلى باب رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعه يقرأ هذه الآية « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » فقال الرجل : ما الأشعريّون بأهون الدواب على الله؛ فرجع ولم يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال لأصحابه : أبشروا أتاكم الغَوْث، ولا يظنون إلا أنه قد كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعده؛ فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجلان يحملان قَصْعة بينهما مملوءة خبزا ولحما فأكلوا منها ما شاءوا، ثم قال بعضهم لبعض : لو أنا رددنا هذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضى به حاجته؛ فقالوا للرجلين : اذهبا بهذا الطعام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنا قد قضينا منه حاجتنا، ثم إنهم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله ما رأينا طعاما أكثر ولا أطيب من طعام أرسلت به ؛ قال : " ما أرسلت إليكم طعاما " فأخبروه أنهم أرسلوا صاحبهم، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ما صنع، وما قال لهم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك شىء رزقكموه الله " .

(١) أرملوا من الزاد : أى نفد زادهم؛ وأصله من الرمل كأنهم لصقوا بالرمل؛ كما قيل للفقير الترب .

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ﴾ أى من الأرض حيث تأوى إليه . ﴿ وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ أى الموضع الذى تموت فيه فتدفن؛ قاله مِقْسَم عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال الربيع ابن أنس : « مستقرّها » أيام حياتها ، « ومستودعها » حيث تموت وحيث تبعث . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : « مستقرّها » فى الرّحم ، « ومستودعها » فى الصُّلب . وقيل : « يعلم مستقرّها » فى الجنة أو فى النار ، « ومستودعها » فى القبر؛ يدل عليه قوله تعالى فى وصف أهل الجنة وأهل النار : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » « وَسَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » . ﴿ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تقدّم فى « الأعراف » (١) بيانه والحمد لله . ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء . قال كعب : خلق الله ياقوتة خضراء فنظر إليها بالهيبة فصارت ماء يرتعد من مخافة الله تعالى؛ فلذلك يرتعد الماء إلى الآن وإن كان ساكنا، ثم خلق الريح فجعل الماء على متْنها ، ثم وضع العرش على الماء . وقال سعيد بن جُبير عن ابن عباس : إنه سئل عن قوله عز وجل : « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » فقال : على أى شىء كان الماء ؟ قال : على متْن الرِّيح . وروى البخارىّ عن عِمْران بن حُصَين ، قال : كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : "اقبلوا البشرى يابنى تميم" قالوا : بَشَّرتَنا فأعطنا [ مرتين ] (٢) فدخل ناس من أهل اليمن فقال : "اقبلوا البشرى ياأهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم" قالوا : قَبِلنا ، جئنا لنتفقه فى الدِّين ، ولنسألك عن هذا الأمر ما كان ؟ قال : "كان الله ولم يكن شىءٌ غيرُه وكان عرشه على الماء ثم خلق السموات والأرض وكتب

(١) راجع ج ٧ ص ٢١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة عن صحيح البخارى .

فى الذِّكْر كلَّ شيء " ثم أتانى رجل فقال : يا عمران أدرك ناقتك فقـد ذَهبتْ ، نا نطاقت أطلبها فإذا هى يقطَعُ دونها السَّرابُ، وأيمُ اللهِ لودِدْتُ أنها قد ذهبتْ ولم أقم .

قوله تعـالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى خلق ذلك ليبتلى عبـاده بالاعتبـار والاستـدلال على كمال قدرته وعلى البعث . وقال قَتَـادة : معنى « أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أتمّ عقلا . وقال الحسن وسفيان الثَّورىّ : أيكم أزهد فى الدنيـا . وذكر أن عيسى عليه السلام مرّ برجل نائم فقال : يانائم قم فتعبَّدْ، فقال : ياروح الله قد تعبَّدتُ، فقال : « وما تعبَّدتَ »؟ قال : قد تركت الدنيا لأهلها؛ قال : نَمْ فقد فقتَ العابدين . الضّحاك : أيكم أكثر شكرا . مقاتل : أيكم أتق لله . ابن عباس : أيكم أعمل بطاعة الله عز وجل . وروى عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليــه وسلم تلا « أيكم أحسن عملا » قال : " أيكم أحسن عقلا وأروع عن محارم الله وأسرع فى طاعة الله " فجمع الأقاويل كلها؛ وسيأتى فى « الكهف » [(١)] هذا أيضا إن شاء الله تعالى . وقد تقدّم معنى الابتلاء . ﴿ وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ﴾ أى دللت يا محمد على البعث ﴿ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ ﴾ وذكرت ذلك للشركين لقالوا : هذا سحر . وكسرت « إنّ » لأنها بعد القول مبتدأة . وحكى سيبويه الفتح . ﴿ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فتحت اللام لأنه فعل متقدم لا ضمير فيه، وبعده « لَيَقُولُنَّ » لأن فيه ضميرا . و ﴿ سِحْرٌ ﴾ أى غرور باطل، لبطلان السحر عندهم . وقرأ حمزة والكسائى « إِنْ هَذَا إِلَّا سَاحِرٌ مُبِينٌ » كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْـدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُـمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ ﴾ اللام فى « لئن » للقسم، والجواب « لَيَقُولُنَّ » . ومعنى « إِلَى أُمَّةٍ » إلى أجل معـدود وحين معـلوم ؛ فالأمّة هنا

(١) راجع المسألة الثانية فى تفسير قوله تعـالى : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » . آية ٧ .

المدّة ؛ قاله آبن عباس ومجاهد وقتادة وجمهور المفسّرين . وأصـل الأمّة الجماعة ؛ فعبّر عن الحين والسنين بالأمّة لأن الأمّة تكون فيها . وقيل : هو على حذف المضاف ؛ والمعنى إلى مجيء أمّة ليس فيها من يؤمن فيستحقون الهلاك . أو إلى آنقراض أمّة فيها من يؤمن فلا يبقى بعد آنقراضها من يؤمن . والأمّة آسم مشترك يقال على ثمانية أوجه ؛ فالأمّة تكون الجماعة ؛ كقوله تعالى : « وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ » . والأمّة أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام . والأمّة الرجل الجامع للخير الذي يُقتدى به ؛ كقوله تعالى : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا » . والأمة الدّين والملّة ؛ كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أمة » . والأمّة الحين والزمان ؛ كقوله تعالى : « وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وكذلك قوله تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » . والأمّة القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ؛ يقال من ذلك : فلان حسن الأُمّة أي القامة . والأمّة الرجل المنفرد بدينه وحده لا يَشْرَكه فيه أحد ؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "يُبعَث زيدُ بن عمرو بن نُفَيْل أمّة وحده"(١) . والأمة الأم ؛ يقال : هذه أمّة زيد ، يعني أمّ زيد . ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ يعني العذاب ؛ وقالوا هذا إما تكذيبا للعذاب لتأخره عنهم ، أو استعجالا وآستهزاء ؛ أي ما الذي يحبسه عنا . ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ قيل : هو قتل المشركين ببدر ؛ وقتل جبريل المستهزئين على ما يأتي . ﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾ أي نزل وأحاط . ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي جزاء ما كانوا به يستهزئون ، والمضاف محذوف .

قوله تعالى : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ الإنسان آسم شائع للجنس في جميع الكفار . ويقال : إن الإنسان هنا الوليد بن المغيرة وفيه نزلت . وقيل : في عبد الله بن أبي

(١) (يبعث زيد أمة) لأنه كان تبرأ من أديان المشركين ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه .

أميّة المخزومىّ . « رحمة » أى نعمة . ﴿ ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ ﴾ أى سلبناها إياه . ﴿ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ ﴾ أى يائس من الرحمة ﴿ كَفُورٌ ﴾ للنعم جاحد لها ؛ قاله ٱبن الأعرابى . النحاس : « ليؤوس » من يَئِس يَيْأَس ؛ وحكى سيبويه يَئِس يَيْأَس على فَعِل يفعَل ، ونظيره حَسِب يحسَب ونَعِم يَنْعَم ، ويَئِس يَيْئِس ؛ وبعضهم يقول : يَئِس يَئِسُ ؛ لا يعرف فى الكلام إلا هذه الأربعة الأحرف من السالم جاءت على فَعِل يفعِل ؛ وفى واحد منها ٱختلاف . وهو يَئِسٌ و « يؤوس » على التكسير كفخور للمبالغة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ ﴾ أى صحة ورخاء وسعة فى الرزق . ﴿ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ أى بعد ضُرّ وفقر وشدّة . ﴿ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ﴾ أى الخطايا التى تسوء صاحبها من الضُّر والفقر . ﴿ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ أى يفرح ويفخر بما ناله من السَّعة وينسى شكر الله عليه ؛ يقال : رجل فاخر إذا افتخر — وفخور للمبالغة — قال يعقوب القارئ : وقرأ بعض أهل المدينة « لَفَرُحٌ » بضم الراء كما يقال : رجل فَطُن وحَذُر ونَدُس . ويجوز فى كلتا اللغتين الإسكان لثقل الضمة والكسرة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ يعنى المؤمنين ، مدحهم بالصبر على الشدائد . وهو فى موضع نصب . قال الأخفش : هو ٱستثناء ليس من الأوّل ؛ أى لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فى حالتى النعمة والمحنة . وقال الفراء : هو ٱستثناء من « وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ » أى من الإنسان ، فإن الإنسان بمعنى الناس ، والناس يشمل الكافر والمؤمن ؛ فهو ٱستثناء متصل وهو حسن . ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ ٱبتداء وخبر . ﴿ وَأَجْرٌ ﴾ معطوف . ﴿ كَبِيرٌ ﴾ صفة .

قوله تعالى : فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ أى فلعلك لعظيم ما تراه منهم من الكفر والتكذيب تتوهم أنهم يزيلونك عن بعض ما أنت عليه . وقيل: إنهم لمـا قالوا « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْـهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » همّ أن يدع سبّ آلهتهم فنزلت هذه الآية ؛ فالكلام معناه الاستفهام؛ أى هل أنت تارك ما فيه سبّ آلهتهم كما سالوك؟ وتأكد عليه الأمر فى الإبلاغ؛ كقوله : « يَأَيُّهَـا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . وقيـل : معنى الكلام النفى مع آستبعاد؛ أى لا يكون منك ذلك، بل تبلغهم كل ما أنزل إليك؛ وذلك أن مشركى مكة قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : لو أتيتنا بكتاب ليس فيه سبّ آلهتنا لاتبعناك ، فهمّ النبى صلى الله عليه وسلم أن يدع سبّ آلهتهم؛ فنزلت .

قوله تعـالى : ﴿ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ عطف على « تارك » و « صدرك » مرفوع به ، والهاء فى « به » تعود على «ما» أو على بعض، أو على التبليغ، أو التكذيب. وقال : «ضائق» ولم يقل ضيّق ليشاكل « تارك » الذى قبله ؛ ولأن الضّائق عارض، والضيّق ألزم منه . ﴿ أَنْ يَقُولُوا ﴾ فى موضع نصب؛ أى كراهية أن يقولوا ، كقوله : « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا » أى لئلا تضلّوا . أو لأن يقولوا. ﴿لَوْلَا﴾ أى هلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴾ يصدقه؛ قاله عبد الله بن أبى أميّة بن المغيرة المخزوميّ؛ فقال الله تعالى: يامحمد ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ﴾ إنما عليك أن تنذرهم، لابأن تأتيهم بما يقترحونه من الآيات. ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أى حافظ وشهيد.

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ آفْتَرَاهُ ﴾ « أم » بمعنى بل ، وقد تقدّم فى « يونس »[1] أى قد أزحت عِلّتهم وإشكالهم فى نبوّتك بهذا القـرآن ، وحججتهم به ؛ فإن قالوا : افتريته — أى آختلقته — فليأتوا بمثله مفترى بزعمهم. ﴿وَآدْعُوا مَنِ آسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أى من لاينفعهم من دون الله من الكهنة والأعوان .

قوله تعـالى : فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

(١) فى تفسير قوله تعالى : « أم يقولون آفتراه ... » آية ٣٨ .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ أى فى المعارضة ولم تتهيأ لهم فقد قامت عليهم الحجة؛ إذ هم اللُّسْن البلغاء، وأصحاب الألسن الفصحاء . ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ واعلموا صدق محمد، وآعلموا ﴿ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ استفهام معناه الأمر . وقد تقدّم القول فى معنى هذه الآية، وأن القرآن معجز فى مقدمة الكتاب . والحمد لله . وقال : « قُلْ فَأْتُوا » وبعده « فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ » ولم يقل لك ؛ فقيل : هو على تحويل المخاطبة من الإفراد ، إلى الجمع تعظيما وتفخيما ؛ وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة . وقيل : الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للجميع؛ أى فليعلم الجميع « أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ »؛ قاله مجاهد. وقيل: الضمير فى « لكم » وفى « فاعلموا » للشركين؛ والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيأت لكم المعارضة « فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » . وقيل: الضمير فى «لكم» للنبي صلى الله عليه وسلم وللؤمنين، وفى « فاعلموا » للشركين .

قوله تعالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾

فيـــه ثلاث مســـائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ ﴾ كان زائدة[(١)] ، ولهـذا جزم الجواب فقال : ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ ﴾ قاله الفراء . وقال الزجاج : « مَنْ كَانَ » فى موضع جزم بالشرط ، وجوابه « نُوَفِّ إِلَيْهِمْ » أى من يكن يريد؛ والأول فى اللفظ ماض والثانى مستقبل ، كما قال زهير :

وَمَنْ هابَ أسبابَ المنيةِ يَلْقَها * ولو رامَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ

واختلف العلماء فى تأويل هذه الآية ؛ فقيل : نزلت فى الكفار ؛ قاله الضحاك ، واختاره النحاس ؛ بدليل الآية التى بعدها « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ » أى من أتى منهم بصلة رَحِم أو صدقة نكافئه بها فى الدنيا ، بصحة الجسم ، وكثرة الرزق ، لكن لا حسنة

---

(١) قال فى البحر : ولعله لا يصح إذ لو كانت زائدة لكان فعل الشرط «يريد» ، وكان يكون مجزوما .

له فى الآخرة . وقد تقدم هذا المعنى فى « براءة »[1] مستوفى . وقيل المراد بالآية المؤمنون ؛ أى من أراد بعمله ثواب الدنيا عُجّل له الثواب ولم يُنقص شيئا فى الدنيا، وله فى الآخرة العذاب لأنه جرد قصده إلى الدنيا ، وهذا كما قال صلى الله عليه وسلم : " إنما الأعمال بالنيات " فالعبد إنما يُعطى على وجه قصده، و بحكم ضميره؛ وهذا أمر متفق عليه فى الأمم بين كل مِلّة. وقيل : هو لأهل الرياء؛ وفى الخبر أنه يقال لأهل الرياء " صُمتم وصليتم وتصدقتم وجاهدتم وقرأتم ليقال ذلك فقد قيل ذلك " ثم قال : " إن هؤلاء أولُ مَن تُسْعَر بهم النارُ " . رواه أبو هريرة، ثم بكى بكاء شديدا وقال : صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا » وقرأ الآيتين، خرّجه مسلم بمعناه والترمذى أيضا . وقيل : الآية عامة فى كل من ينوى بعمله غير الله تعالى ، كان معه أصل إيمان أو لم يكن ؛ قاله مجاهد وميمون بن مِهْران، و إليه ذهب معاوية رحمه الله تعالى . وقال ميمون بن مِهران : ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفّى ثوابها ؛ فإن كان مسلما مخلصا وُفّى فى الدنيا والآخرة ، و إن كان كافرا وُفّى فى الدنيا . وقيل : من كان يريد [ الدنيا ] بغزوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وُفِّيها، أى وُفّى أجر الغَزاة ولم يُنقص منها ؛ وهذا خصوص والصحيح العموم .

الثانية — قال بعض العلماء: معنى هذه الآية قوله عليه السلام: "إنما الأعمال بالنيات". وتدلك هذه الآية على أن من صام فى رمضان لا عن رمضان لا يقع عن رمضان، وتدل على أن مَن توضأ للتبرّد والتنظف لا يقع قربة عن جهة الصلاة، وهكذا كل ما كان فى معناه .

الثالثة — ذهب أكثر العلماء إلى أن هذه الآية مطلقة؛ وكذلك الآية التى فى «الشورى» « مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » الآية . وكذلك « مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا » قيدها وفسرها التى فى « سبحان » « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » إلى قوله : « محظورا » فأخبر سبحانه أنّ العبد ينوى و يريد والله سبحانه يحكم ما يريد، وروى الضّحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما

(١) راجع المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعا أو كرها » . آية ٥٤ .

فى قوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » أنها منسوخة بقوله : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ » . والصحيح ما ذكرناه ؛ وأنه من باب الإطلاق والتقييد؛ ومثله قوله : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » فهذا ظاهره خبر عن إجابة كل داع دائما على كل حال، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ » . والنسخ فى الأخبار لا يجوز ؛ لاستحالة تبدّل الواجبات العقلية، ولاستحالة الكذب على الله تعالى ؛ فأما الأخبار عن الأحكام الشرعية فيجوز نسخها على خلاف فيه ، على ما هو مذكور فى الأصول؛ ويأتى فى « النحل »[1] بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾ إشارة إلى التخليد، والمؤمن لا يُخلَّد؛ لقوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ » الآية . فهو محمول على مالو كانت موافاة هذا المرائى على الكفر . وقيل : المعنى ليس لهم إلا النار فى أيام معلومة ثم يخرج؛ إما بالشفاعة ، وإما بالقبضة . والآية تقتضى الوعيد بسلب الإيمان ؛ وفى الحديث [ الماضى[2] ] يريد الكفر وخاصة الرياء، إذ هو شرك على ما تقدّم بيانه فى «النساء»[3] ويأتى فى آخر « الكهف »[4] . ﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ابتداء وخبر؛ قال أبو حاتم : وحذف الهاء؛ قال النحاس : هذا لا يحتاج إلى حذف؛ لأنه بمعنى المصدر؛ أى وباطل عمله . وفى حرف أبىّ وعبد الله « وَبَاطِلًا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وتكون « ما » زائدة ؛ أى وكانوا يعملون باطلا .

---

(١) فى المسئلة الثانية من تفسير قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ... » آية ٦٧ .

(٢) فى الأصل ( المعاصى ) وهو تحريف ، والمراد بالحديث الماضى حديث أبى هريرة المتقدم فى عمل المرائى "صمتم وصليتم ... " .

(٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٤) فى تفسير قوله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ... » آية ١١٠ .

قوله تعـالى : أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١٧)

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ آبتداء والخبر محذوف؛ أى أفمن كان على بينة من ربه فى آتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ومعه من الفضل ما تَبيّن به كغيره ممن يريد الحياة الدنيا وزينتها؟! عن على بن الحسين والحسن بن أبى الحسن . وكذلك قال آبن زيد : إن الذى على بيّنة من آتبع النبيّ صلى الله عليـه وسلم . ﴿ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ﴾ من الله ، وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل المراد بقوله : « أفمن كان على بيّنة من ربه » النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والكلام راجع إلى قوله : « وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » ؛ أى أفمن كان معه بيان من الله ، ومعجزة كالقرآن ، ومعه شاهد كجبريل — على ما يأتى — وقد بشرت به الكتب السالفة يضيق صدره بالإبلاغ ، وهو يعـلم أن الله لا يُسْلِمه . والهـاء فى « ربّه » تعود عليـه . وقوله : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » روى عِكرمة عن آبن عباس أنه جبريل ؛ وهو قول مجاهد والنخعيّ . والهـاء فى « منـه » لله عز وجل ؛ أى ويتلو البيان والبرهان شاهـد من الله عز وجل . وقال مجاهد : الشاهد ملَك من الله عزّ وجلّ يحفظه ويُسدّده . وقال الحسن البصرى وقَتَادة : الشاهد لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال محمد بن على بن الحنفية : قلت لأبى أنت الشاهد ؟ فقال : وددت أن أكون أنا هو ، ولكنه لسان رسول الله صلى الله عليـه وسلم . وقيـل : هو على بن أبى طالب ؛ روى عن آبن عباس أنه قال : هو على بن أبى طالب ؛ وروى عن علىّ أنه قال : ما من رجل من قريش إلا وقد أنزلت فيه الآية والآيتان ؛ فقال له رجل : أى شىء نزل فيك ؟ فقال علىّ : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » . وقيل : الشاهد هى صورة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووجهه ومخائله ؛ لأن من كان له فضل وعقل فنظر إلى

النبيّ صلى الله عليه وسلم علم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالهاء على هذا ترجع إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، على قول ابن زيد وغيره . وقيل : الشاهد القرآن في نظمه وبلاغته، والمعاني الكثيرة منه في اللفظ الواحد ؛ قاله الحسين بن الفضل، فالهاء في « منه » للقرآن . وقال الفرّاء قال بعضهم : « وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ » الإنجيل، وإن كان قبله فهو يتلو القرآن في التصديق؛ والهاء في « منه » لله عزّ وجلّ. وقيل : البيّنة معرفة الله التي أشرقت لها القلوب ، والشاهد الذي يتلوه العقل الذي رُكّب في دماغه وأشرق صدره بنوره . ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ ﴾ أي من قبل الإنجيل. ﴿ كِتَابُ مُوسَى ﴾ رفع بالابتداء، قال أبو إسحق الزجاج: والمعنى ويتلوه من قبله كتاب موسى ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم موصوف في كتاب موسى « يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ». وحكى أبو حاتم عن بعضهم أنه قرأ « وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابَ مُوسَى » بالنصب؛ وحكاها المهدويّ عن الكلبيّ؛ يكون معطوفا على الهاء في « يتلوه » والمعنى : ويتلو كتابَ موسى جبريلُ عليه السلام ؛ وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما ؛ المعنى من قبله تلا جبريلُ كتابَ موسى على موسى . ويجوز على ما ذكره ابن عباس أيضا من هذا القول أن يُرفع « كتاب » على أن يكون المعنى : ومن قبله كتاب موسى كذلك ؛ أي تلاه جبريل على موسى كما تلا القرآن على محمد . ﴿ إِمَامًا ﴾ نصب على الحال . ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ معطوف . ﴿ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ إشارة إلى بني إسرائيل، أي يؤمنون بما في التوراة من البشارة بك ؛ وإنما كفر بك هؤلاء المتأخرون فهم الذين موعدهم النار؛ حكاه القشيريّ . والهاء في « به » يجوز أن تكون للقرآن، ويجوز أن تكون للنبيّ صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ﴾ أي بالقرآن أو بالنبيّ عليه السلام. ﴿ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴾ يعني من الملل كلها ؛ عن قتادة؛ وكذا قال سعيد بن جُبَير : « الأحزاب » أهل الأديان كلها ؛ لأنهم يتحازبون . وقيل : قريش وحلفاؤهم . ﴿ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾ أي هو من أهل النار ؛ وأنشد حسّان :

أوردتموها حياضَ الموتِ ضاحيةً * فالنارُ موعدُها والموتُ لاقيها

وفى صحيح مسلم من حديث أبى يونس عن النبى صلى الله عليه وسلم : " والذى نفس محمد بيده لا يَسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودىٌّ ولا نصرانىٌّ [ثم يموت] (١) ولم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أهل النار " . ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شك . ﴿ مِنْهُ ﴾ أى من القرآن . ﴿ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى القرآن من الله ؛ قاله مقاتل . وقال الكلبىّ : المعنى فلا تك فى مرية فى أن الكافر فى النار . « إِنَّهُ الْحَقُّ » أى القول الحق الكائن؛ والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم، والمراد جميع المكلفين .

قوله تعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ أى لا احد أظلم منهم لأنفسهم لأنهم افتروا على الله كذبا ، فأضافوا كلامه إلى غيره، وزعموا أن له شريكا وولدا، وقالوا للأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند الله . ﴿ أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ ﴾ أى يحاسبهم على أعمالهم . ﴿ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ ﴾ يعنى الملائكة الحفظة؛ عن مجاهد وغيره؛ وقال سفيان : سألت الأعمش عن « الأشهاد » فقال: الملائكة. الضّحاك : هم الأنبياء والمرسلون؛ دليله قوله : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » . وقيل: الملائكة والأنبياء والعلماء الذين بلّغوا الرسالات . وقال قتادة : عنى الخلائق أجمع . وفى صحيح مسلم من حديث صفوان بن مُحرز عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيه قال : " وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على الله " . ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾، أى بعده وسخطه وإبعاده من رحمته على الذين وضعوا العبادة فى غير موضعها .

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يجوز أن تكون «الذين» في موضع خفض نعتا للظالمين، ويجوز أن تكون في موضع رفع؛ أي هم الذين . وقيل : هو ابتداء خطاب من الله تعالى؛ أي الذين يصدون أنفسهم وغيرهم عن الإيمان والطاعة . ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يعدلون بالناس عنها إلى المعاصي والشرك . ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أعاد لفظ « هم » تأكيدا .

قوله تعالى : أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فائتين من عذاب الله . وقال ابن عباس : لم يُعجزوني أن آمر الأرض فتنخسف بهم . ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعني أنصارا، و « مِنْ » زائدة . وقيل : « ما » بمعنى الذي تقديره : أولئك لم يكونوا معجزين لا هم ولا الذين كانوا لهم من أولياء من دون الله ؛ وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي على قدر كفرهم ومعاصيهم . ﴿ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ﴾ « ما » في موضع نصب على أن يكون المعنى : بما كانوا يستطيعون السمع . ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾ ولم يستعملوا ذلك في استماع الحق وإبصاره . والعرب تقول : جزيته ما فعل وبما فعل؛ فيحذفون الباء مرة ويثبتونها أخرى؛ وأنشد سيبويه[(١)] :

أَمَرْتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرتَ بهِ * فقـــد تركْتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

ويجوز أن تكون « ما » ظرفا، والمعنى : يضاعف لهم أبدا، أي وقت استطاعتهم السمع والبصر ، والله سبحانه يجعلهم في جهنم مستطيعي ذلك أبدا . ويجوز أن تكون « ما » نافية لا موضع لهـا ؛ إذ الكلام قد تمّ قبلها ، والوقف على العـذاب كافٍ ؛ والمعنى : ما كانوا

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزّبيديّ . أراد (بالخير) فحذف ووصل الفعل ونصب . والنشب : المال الثابت كالضياع ونحوها . وقيل : النشب جميع المال؛ فيكون عطفه على الأول مبالغة وتأكيدا . (شواهد سيبويه) .

يستطيعون فى الدنيا أن يسمعوا سمعا ينتفعون به، ولا أن يبصروا إبصار مهتد . قال الفرّاء : ما كانوا يستطيعون السمع؛ لأن الله أضلّهم فى اللوح المحفوظ . وقال الزجاج : لبغضهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وعداوتهم له لا يستطيعون أن يسمعوا منه ولا يفقهوا عنه . قال النحاس : وهــذا معروف فى كلام العرب ؛ يقال : فلان لا يســتطيع أن ينظر إلى فلان إذا كان ذلك ثقيلا عليه .

قوله تعـالى : أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ٱبتــداء وخبر . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى ضاع عنهم ٱفتراؤهم وتلِف .

قوله تعالى : ﴿ لَا جَرَمَ ﴾ للعلماء فيها أقوال ؛ فقال الخليل وسيبويه : « لَا جَرَمَ » بمعنى حَقّ ، « فَلَا » و « جَرَم » عندهما كلمة واحدة ، و « أنّ » عندهما فى موضع رفع ؛ وهذا قول الفرّاء ومحمد بن يزيد؛ حكاه النحاس . قال المهدوىّ : وعن الخليل أيضا أن معناها لا بدّ ولا محالة ، وهو قول الفرّاء أيضا ؛ ذكره الثعلبيّ . وقال الزّجاج : « لا » هاهنا نفى ؛ وهو ردّ لقولهم : إن الأصنام تنفعهم؛ كأنّ المعنى لا ينفعهم ذلك، وجَرَم بمعنى كَسَب؛ أى كَسَب ذلك الفعلُ لهم الخسران ، وفاعل كسب مضمر، و « أنّ » منصوبة بجرم، كما تقول : كَسَب جفاؤك زيدا غضبه عليك؛ وقال الشاعر :

نَصبنا رأسه فى جِذْع نَخْلٍ * بما جَرَمتْ يداه وما ٱعتدينا

أى بمــا كَسَبت . وقال الكسائىّ : معنى « لَا جَرَمَ » لا صَــدّ ولا مَنْع عن أنهم . وقيــل : المعنى لا قَطْعَ قاطعٌ ، فحُــذف الفاعل حين كثر استعماله ؛ والجَــرْم القَطْع ؛ وقد جَرَم النَّخلَ وٱجترَمه أى صَرَمه فهو جارِمٌ، وقومٌ جُرَّمٌ وجُرّامٌ وهذا زمن الجَرَام والجِرَام، وجَرَمتُ صوف الشاة أى جززتُه، وقد جَرَمتُ منه أى أخذتُ منه؛ مثــل جَلَمْت الشيء جَلْمًا أى قطعتُ،

وجَلَمت الجزورَ أجلِمها جَلْما إذا أخذتَ ما على عظامها من اللحم، وأخذت الشيء بجَلْمته ــ ساكنة اللام ــ إذا أخذته أجمع، وهــذه جَلَمة الجزور ــ بالتحريك ــ أى لحمها أجمع؛ قاله الجوهرى . قال النحاس : وزعم الكسائى أن فيها أربع لغات : لا جَرَمَ، ولا عن ذا جَرَمَ، ولا أنْ ذا جَرَمَ، قال : وناس من فَزارة يقولون : لا جَرَ أنّهم بغــير ميم . وحكى الفــرّاء فيه لغتين أخريين قال : بنو عامر يقولون لا ذا جَرَمَ، قال : وناس من العرب يقولون : لا جُرْمُ بضم الجيم .

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَـٰٓئِكَ أَصْحَابُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

قوله تعــالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » آسم « إنّ » و « آمنوا » صلة، أى صــدّقوا . ﴿ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِــمْ ﴾ عطف على الصلة . قال آبن عباس : أخبتوا أنابوا . مجاهد : أطاعوا . قَتَادة : خشعوا وخضعوا . مقاتل : أخلصوا . الحسن : الإخبات الخشوع للخافة الثابتة فى القلب؛ وأصــل الإخبات الآســتواء، من الخَبْت وهو الأرض المســتوية الواسعة؛ فالإخبات الخشوع والاطمئنان ، أو الإنابة إلى الله عزّ وجلّ المستمرة ذلك على استواء . « إِلَى رَبِّهِمْ » قال الفرّاء : إلى ربهم ولربهم واحد، وقد يكون المعنى : وجهوا إخباتهم إلى ربهم . ﴿ أُولَئِكَ ﴾ خبر « إنّ » .

قوله تعــالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ ابتداء، والخبر ﴿ كَٱلْأَعْمَىٰ ﴾ وما بعده . قال الأخفش : أى كمثل الأعمى . النحاس : التقدير مثل فريق الكافر [ كالأعمى ][1] والأصم ، ومثل فريق المؤمن كالسميع والبصير؛ ولهذا قال : ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ ﴾ فرد إلى الفريقين وهمــا آثنان ؛

(١) الزيادة عن النحاس .

روى معناه عن قتادة وغيره. قال الضحّاك : الأعمى والأصمّ مثلٌ للكافر . والسميع والبصير مثــل للؤمن . وقيل : المعنى هل يستوى الأعمى والبصير ، وهل يستوى الأصمّ والسميع . ﴿ مَثَلًا ﴾ منصوب على التمييز . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ في الوصفين وتنظرون .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام للنبي صلى الله عليه وسلم تنبيها له على ملازمة الصبر على أذى الكفار إلى أن يكفيه الله أمرهم . ﴿ إِنِّي ﴾ أى فقال : إنى ؛ لأن فى الإرسال معنى القول. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى «أَنِّى» بفتح الهمزة؛ أى أرسلناه بأنى لكم نذير مبين. ولم يقل «إنه» لأنه رجع من الغيبة إلى خطاب نوح لقومه؛ كما قال[1]: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» ثم قال: «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ» .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ أى اتركوا الأصنام فلا تعبدوها ، وأطيعوا الله وحده . ومن قرأ « إنّى » بالكسر جعله معترضا فى الكلام ، والمعنى أرسلناه بألا تعبــدوا [إلا الله] . ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

قوله تعـالى : فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : المــلأ الرؤساء ؛ أى هم مليئون بما يقولون . وقــد تقدّم هذا فى « البقــرة »[2] وغيرها . ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا ﴾ أى

(١) قال ابن عطية : وفى هــذا نظر ، وإنما هى حكاية مخاطبة لقومه ، وليس هــذا حقيقة الخروج من غيبــة إلى مخاطبة ، ولو كان الكلام أن أنذرهم أو نحوه لصح ذلك .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .

آدميًّا. ﴿ مِثْلَنَا ﴾ نصب على الحال. و « مثلنا » مضاف إلى معرفة وهو نكرة يقدر فيه التنوين؛ كما قال الشاعر (١) :

* يارُبَّ مِثْلِكِ فى النِّساءِ غَرِيرةٍ *

الثانيــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ أَرَاذل جمــع أَرْذُل وأَرْذُل جمــع رَذْل ؛ مثل كَلْب وأَكْلُب وأَكالب . وقيل : الأراذل جمع الأَرْذل ، كأَساود جمــع الأَسْوَد من الحيّات . والرَّذْل النَّــذْل ؛ أرادوا آتبعك أخسّاؤنا وسَقَطُنا وسفلتنا . قال الزجاج : نسبوهم إلى الحياكة؛ ولم يعلموا أن الصناعات لا أثر لها فى الديانة . قال النحاس : الأراذل هم الفقراء، والذين لا حسب لهم، والخسيسو الصناعات . وفى الحديث " إنهم كانوا حاكَة وحَجّامين " . وكان هذا جهلا منهم؛ لأنهم عابوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم بما لا عيب فيــه؛ لأن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، إنمــا عليهم أنــ يأتوا بالبراهين والآيات، وليس عليهم تغيير الصور والهيئات ، وهم يرسلون إلى الناس جميعا ، فإذا أسلم منهــم الدنىء لم يلحقهم من ذلك نقصان؛ لأن عليهم أن يقبلوا إسلام كل من أسلم منهم .

قلت : الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء؛ كما قال هِرَقْل لأبى سفيان : أشراف الناس آتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم؛ فقال : هم أتباع الرسل . قال علماؤنا : إنمــا كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف ، وصعوبة الآنفكاك عنهــا ، والأَنَفة من الآنقياد للغير؛ والفقير خَلِيٌّ عن تلك الموانع ، فهو سريع إلى الإجابة والآنقياد . وهذا غالب أحوال أهل الدنيــا .

الثالثــــة ــ اختلف العلماء فى تعيين السّفلة على أقوال؛ فذكر آبن المبارك عن سفيان أن السّــفلة هم الذين يَتَقَلَّسون (٢) ، ويأتون أبواب القضاة والسلاطين يطلبــون الشهادات .

---

(١) هو أبو مِحْجَن الثَّقفى ، وتمام البيت :

* بيضاءَ قد مَتَّعتُها بطلاق *

الغريرة : المغترة بلين العيش . ومتّعها : أعطاها ما تستمتع به عند طلاقها .

(٢) التقليس : استقبال الولاة عند قدومهم بأصناف اللهو .

وقال ثعلب عن آبن الأعرابي: السّفلة الذى يأكل الدنيا بدينه؛ قيل له : فمن سفلة السّفلة ؟ قال : الذى يُصلح دنيا غيره بفساد دينه . وسئل على رضى الله عنه عن السّفلة فقال : الذين إذا آجتمعوا غَلَبوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا . وقيل لمـالك بن أنس رضى الله عنه : مَن السّفلة؟ قال : الذى يسبّ الصحابة . وروى عن آبن عبـاس رضى الله عنهما : الأرذلون الحاكة والحجّامون . يحيى بن أكْثَم : الدّبّاغ والكنّاس إذا كان من غير العرب .

الرابعـــة — إذا قالت المرأة لزوجها : يا سَفِلة، فقال : إن كنتُ منهم فأنتِ طالق ؛ فحكى النقاش أن رجلا جاء إلى التّرمذى فقال : إن آمرأتى قالت لى يا سَفِلة ، فقلت : إن كنتُ سَفِلة فأنت طالق ؛ قال التّرمذىّ : ما صناعتك ؟ قال : سمّاك ؛ قال : سَفلة والله، سَفلة والله .

قلت : وعلى ما ذكره ابن المبـارك عن سـفيان لا تطلق ، وكذلك على قول مالك وابن الأعرابي لا يلزمه شيء .

قوله تعـالى : ﴿ بَادِىَ الرَّأْىِ ﴾ . أى ظاهر الرأى، و باطنهم على خلاف ذلك . يقال : بدا يبدو إذا ظهر؛ كما قال :

* فاليوم حين بَدَوْن للنُّظار *

ويقال للبرّية بادية لظهورها . وبدا لى أن أفعل كذا ، أى ظهر لى رأى غير الأوّل . وقال الأزهرى : معناه فيما يبـدو لنا من الرأى . ويجوز أن يكون « بَادِىَ الرَّأْىِ » من بدأ يبدأ وحذف الهمزة. وحقّق أبو عمرو الهمزة فقرأ « بَادِئَ الرأى » أى أوّل الرأى؛ أى آتبعوك حين آبتـدءوا ينظرون ، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك ؛ ولا يختلف المعنى ها هنا بالهمز وترك الهمز . وانتصب على حذف « فى » كما قال عز وجل : « وَآخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » . ﴿ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ ﴾ أى فى آتباعه؛ وهذا جحد منهم لنبوّته . ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ الخطاب لنوح ومن آمن معه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ أي على يقين ؛ قاله أبو عمران الجَوْنيّ . وقيل : على معجزة ؛ وقد تقدّم في « الأنعام »(1) هذا المعنى . ﴿ وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ﴾ أي نبوّة ورسالة ؛ عن ٱبن عباس ؛ وهي رحمة على الخلق . وقيل : الهداية إلى الله بالبراهين . وقيل : الإيمان والإسلام . ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ أي عَميت عليكم الرسالة والهداية فلم تفهموها . يقال : عَميتُ عن كذا ، وعَمِي عليّ كذا أي لم أفهمه . والمعنى : فعَميت الرحمةُ ؛ فقيل : هو مقلوب ؛ لأن الرحمة لا تَعمَى إنما يُعمَى عنها ؛ فهو كقولك : أدخلت في القَلَنْسُوة رأسي ، ودخل الخفُّ في رجلي . وقرأها الأعمش وحمزة والكسائي « فعُمِّيَتْ » بضم العين وتشديد الميم على مالم يُسمَّ فاعله ؛ أي فعمّاها الله عليكم ؛ وكذا في قراءة أُبيّ « فعَمَّاها » ذكرها الماورديّ . ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ قيل : شهادة أن لا اله إلا الله . وقيل : الهاء ترجع إلى الرحمة . وقيل : إلى البينة ؛ أي أنلزمكم قبولها ، وأُوجبها عليكم ؟! وهو استفهام بمعنى الإنكار ؛ أي لا يمكنني أن أضطركم إلى المعرفة بها ؛ وإنما قصد نوح عليه السلام بهذا القول

---

(1) راجع ج ٦ ص ٤٣٨ طبعة أولى أو ثانية .

أن يردّ عليهم . وحكى الكسائيّ والفرّاء «أَنُلْزِمْكُمُوهَا» بإسكان الميم الأولى تخفيفا؛ وقد أجاز مثل هذا سيبويه ، وأنشد[1] :

فاليومَ أَشربْ غيرَ مُستَحْقِبٍ * إثمًا من الله ولا واغِلِ

وقال النحاس : ويجوز على قول يونس [ في غير القرآن ][2] أنلزمكمها يجرى المضمر مجرى المظهر؛ كما تقول : أنلزمكم ذلك . ﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أى لا يصح قبولكم لها مع الكراهة عليها . قال قَتَادة : والله لو آستطاع نبيّ الله نوح عليه السلام لألزمها قومه ، ولكنه لم يملك ذلك .

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أى على التبليغ ، والدعاء إلى الله ، والإيمان به ﴿مَالًا﴾ فيثقل عليكم . ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أى ثوابى فى تبليغ الرسالة . ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سألوه أن يطرد الأراذل الذين آمنوا به ، كما سألت قريش النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرد الموالى والفقراء ، حسب ما تقدّم « فى الأنعام »[3] بيانه ؛ فأجابهم بقوله : ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون قال هذا على وجه الإعظام لهم بلقاء الله عزّ وجلّ ، ويحتمل أن يكون قاله على وجه الآختصام ؛ أى لو فعلت ذلك لخاصمونى عند الله ، فيجازيهم على إيمانهم ، ويجازى من طردهم . ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ فى آسترذالكم لهم ، وسؤالكم طردهم .

قوله تعالى : ﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ قال الفرّاء : أى يمنعنى من عذابه . ﴿إِنْ طَرَدْتُهُمْ﴾ أى لأجل إيمانهم . ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أدغمت التاء فى الذّال . ويجوز حذفها فتقول : تذكرون .

قوله تعالى : ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ أخبر بتذلّله وتواضعه لله عزّ وجلّ ، وأنه لا يدّعى ما ليس له من خزائن الله ؛ وهى إنعامه على من يشاء من عباده ؛

---

(١) البيت لامرىء القيس ، والشاهد فيه تسكين الباء من قوله ( أشرب ) فى حال الرفع والوصل . احتقب الإثم واستحقبه احتمله . والواغل الداخل على الشراب ولم يدع له . يقول : حلت لى الخمر فلا آثم بشربها إذ قد وفيت بنذرى فيها . وكان قد نذر ألا يشربها حتى يدرك ثأر أبيه .

(٢) الزيادة عن النحاس . (٣) راجع جـ ٦ ص ٤٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وأنه لا يعلم الغيب ؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا الله عزّ وجلّ . ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أى لا أقول إن منزلتى عند الناس منزلة الملائكة . وقد قالت العلماء : الفائدة فى الكلام الدلالة على أن الملائكة أفضل من الأنبياء؛ لدوامهم على الطاعة، واتصال عباداتهم إلى يوم القيامة، صلوات الله عليهم أجمعين . وقد تقدم هذا المعنى فى « البقرة »[1] . ﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ﴾ أى تستثقل وتحتقر أعينكم ؛ والأصل تزدريهم حذفت الهاء والميم لطول الاسم . والدّال مبدلة من تاء؛ لأن الأصل فى تزدرى تَزْتَرِى، ولكن التّاء تبدل بعد الزّاى دالا؛ لأن الزّاى مجهورة والتّاء مهموسة، فأبدل من التاء حرف مجهور من مخرجها . ويقال : أَزْرَيْتُ عليه إذا عِبْتَه . وزَرَيْتُ عليه إذا حقّرته . وأنشد الفرّاء :

يُباعِدُه الصديقُ وتَزْدَرِيهِ * حَليلتُهُ ويَنْهَرُه الصَّغيرُ

﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا﴾ أى ليس لاحتقاركم لهم تبطل أجورهم ، أو ينقص ثوابهم . ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فيجازيهم عليه ويؤاخذهم به . ﴿إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى إن قلت هذا الذى تقدم ذكره . « وإِذًا » ملغاة ؛ لأنها متوسطة .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ أى خاصمتنا فأكثرت خصومتنا وبالغت فيها . والجَدَل فى كلام العرب المبالغة فى الخصومة ؛ مشتق من الجَدْل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

وهو شدّة الفَتْل؛ و يقال للصَّقْر أيضا أَجْدَل لشدّته فى الطّير؛ وقد مضى هذا المعنى فى «الأنعام»[(١)] بأشبع من هــذا . وقرأ ٱبن عبـاس « فَأَكْثَرْتَ جَدَلَنَا » ذكره النحاس . والجَدَل فى الدين محمود؛ ولهذا جادل نوح والأنبيـاء قومهم حتى يظهر الحق، فمن قَبِله نجح وأفلح، ومن ردّه خاب وخَسِر . وأما الجدال لغير الحقّ حتى يظهر الباطل فى صورة الحقّ فمذموم، وصاحبــه فى الدّارين ملوم.﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أى من العذاب. ﴿ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فى قولك .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَـا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ ﴾ أى إن أراد إهلاككم عذّبكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى بفائتين . وقيل : بغـالبين بكثرتكم، لأنهــم أعجبوا بذلك؛ كانوا مَلئوا الأرض سهلا وجبلا على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى ﴾ أى إبلاغى وٱجتهادى فى إيمـانكم . ﴿ إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ ﴾ أى لأنكم لاتقبلون نصحا؛ وقد تقدّم فى «براءة»[(٢)] معنى النصح لغة. ﴿ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ أى يضلّكم . وهذا مما يدلّ على بطلان مذهب المعتزلة والقَدَرية ومن وافقهما؛ إذ زعموا أن الله تعـالى لا يريد أن يَعصى العاصى ، ولا يَكفر الكافر، ولا يَغوى الغاوى؛ وأنه يفعل ذلك، والله لا يريد ذلك؛ فردّ الله عليهم بقوله : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ » . وقد مضى هذا المعنى فى «الفاتحة»[(٣)] وغيرها . وقد أكذبوا شيخهم اللعين إبليس على ما بيّناه فى « الأعراف » فى إغواء الله تعالى إياه حيث قال : « فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى » ولا محيص لهم عن قول نوح عليه السلام : « إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ» فأضاف إغواءهم إلى الله سبحانه وتعالى؛ إذ هو الهادى المضلّ؛ سبحانه عمـا يقول الجاحدون والظالمون عُلُوًّا كبيرا .
وقيل : « أَنْ يُغْوِيَكُمْ » يهلككم؛ لأن الإضلال يُفضى إلى الهلاك . الطَّبرى : « يغويكم » يهلككم بعذابه؛ حكى عن طيء : أصبح فلان غاويا أى مريضا، وأغويتــه أهلكته؛ ومنه « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » . ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ ﴾ فإليه الإغواء ، و إليه الهداية . ﴿ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ تهديد ووعيد .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) فى تفسير قوله تعالى : «ليس على الضعفاء .... ...» آية ٩١ (٣) راجع جـ ١ ص ١٤٩ طبعة ثانية أو ثالثة ، جـ ٤ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ يعنون النبي صلى الله عليـه وسلم . ٱفترى افتعل ؛ أى اختلق القرآن من قِبَـل نفســه ، وما أخبر به عن نوح وقومه ؛ قاله مقاتل . وقال آبن عباس : هو من محاورة نوح لقومه وهو أظهر؛ لأنه ليس قبله ولا بعده إلا ذكر نوح وقومه؛ فالخطاب منهم ولهم . ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ ﴾ أى اختلقته وافتعلته ، يعنى الوحى والرسالة . ﴿ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ﴾ أى عقاب إجرامى ، وإن كنت مُحقًّا فيما أقوله فعليـكم عقاب تكذيبى . والإجرام مصــدر أجرم؛ وهو اقتراف السّيئة . وقيــل : المعنى أى جزاء جُرْمى وكَسْبى . وجَرَم وأَجْرَم بمعنى ؛ عن النحاس وغيره . قال(١) :

طَرِيدُ عَشِيرةٍ ورَهِينُ جُرْمٍ * بما جَرَمتْ يَدِى وجَنَى لِسَانِى

ومن قرأ « وأَجْرَامِي » بفتح الهمزة ذهب إلى أنه جمع جُرْم ؛ وذكره النحاس أيضا . ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ ﴾ أى من الكفر والتكذيب .

قوله تعـالى : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَـدْ آمَنَ ﴾ « أنه » فى موضع رفـع على أنه آسم ما لم يُسمَّ فاعله . ويجوز أن يكون فى موضع نصب ، ويكون التقدير بأنه . و « آمن » فى موضع نصب « بيؤمن » ومعنى الكلام الإياس من إيمـانهم ، واستدامة كفرهم، تحقيقا لنزول الوعيد بهم . قال الضَّحاك : فدعا عليهم لمـا أُخبر بهذا فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » الآيتين . وقيل : إن رجلا من قوم نوح حمل آبنه على كتفه ، فلما رأى الصبيُّ نوحا قال لأبيه : أعطنى حجرا؛ فأعطاه حجرا ، ورمى به نوحا عليه السلام فأدماه ؛ فأوحى الله تعالى إليه « أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ

(١) البيت للهيردان السعدى أحد لصوص بنى سعد . ( اللسان ) .

آمن» . ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أى فلا تغتم بهلاكهم حتى تكون بائسا؛ أى حزينا . والبؤس الحزن؛ ومنه قول الشاعر :

وكم مِن خليلٍ أو حَميم رُزِئتُه * فلم أبتئسْ والرُّزءُ فيه جَليلُ

يقال ٱبتأس الرجل إذا بلغه شيء يكرهه . والآبتئاس حزن فى ٱستكانة .

قوله تعالى : ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أى ٱعمل السفينة لتركبها أنت ومن آمن معك . « بأعيننا » أى بمرأى منا وحيث نراك . وقال الرّبيع بن أنس : بحفظنا إياك حفظ من يَراك . وقال ٱبن عباس رضى الله عنهما : بحراستنا؛ والمعنى واحد؛ فعبّر عن الرؤية بالأعين؛ لأن الرؤية تكون بها . ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير؛ كما قال تعالى : «فَنِعْمَ ٱلْقَادِرُونَ» « فَنِعْمَ ٱلْمَاهِدُونَ » « وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ » . وقد يرجع معنى الأعين فى هذه الآية وغيرها إلى معنى عين؛ كما قال : «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» وذلك كله عبارة عن الإدراك والإحاطة، وهو سبحانه منزّه عن الحواسّ والتشبيه والتكييف؛ لا ربّ غيره . وقيل : المعنى «بأعيننا» أى بأعين ملائكتنا الذين جعلناهم عيونا على حِفظك ومعونتك؛ فيكون الجمع على هذا التكثير على بابه . وقيل : « بأعيننا » أى بعلمنا؛ قاله مقاتل : وقال الضّحاك وسفيان : « بأعيننا » بأمرنا . وقيل : بوحينا . وقيل : بمعونتنا لك على صنعها . « ووحينا » أى على ما أوحينا إليك من صنعتها . ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى لا تطلب إمهالهم فإنى مُغْرِقهم .

قوله تعالى : وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ﴾ أى وطفق يصنع . قال زيد بن أسلم : مكث نوح صلى الله عليه وسلم مائة سنة يَغرس الشّجر ويقطعها وييبسها، ومائة سنة يعملها . وروى آبن القاسم عن آبن أشرس عن مالك قال : بلغنى أن قوم نوح مَلَئوا الأرض، حتى مَلَئوا السّهل والجبل، فما يستطيع هؤلاء أن ينزلوا إلى هؤلاء، ولا هؤلاء أن يَصعدوا إلى هؤلاء؛ فمكث نوح يَغرس الشّجر مائة عام لعمل السّفينة ، ثم جمعها ييبسها مائة عام ، وقومه يسخرون ؛ وذلك لما رأوه يصنع من ذلك؛ حتى كان من قضاء الله فيهم ما كان . وروى عن عمرو بن الحارث قال : عمل نوح سفينته ببقاع دمشق ، وقطع خشبها من جبل لبنان . وقال القاضى أبو بكر بن العربى : لما آستنقذ الله سبحانه وتعالى مَن فى الأصلاب والأرحام من المؤمنين أوحى الله إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فآصنع الفلك » قال : يارب ما أنا بنجّار، قال : « بلى فإن ذلك بعينى » فأخذ القدوم فجعله بيده ، وجعلت يده لا تُخطئ ، فجعلوا يمرّون به ويقولون : هذا الذى يزعم أنه نبىّ صار نجّارا ؛ فعملها فى أربعين سنة .

وحكى الثعلبىّ وأبو نصر القشيرىّ عن آبن عباس قال: اتخذ نوح السّفينة فى سنتين. زاد الثّعلبىّ : وذلك لأنه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن آصنعها كجُؤْجُؤ الطائر . وقال كعب : بناها فى ثلاثين سنة، والله أعلم. المهدوىّ: وجاء فى الخبر أن الملائكة كانت تعلّمه كيف يصنعها، وآختلفوا فى طولها وعرضها ؛ فعن آبن عباس رضى الله عنهما كان طولها ثلثمائة ذراع، وعرضها خمسون، وسمكها ثلاثون ذراعا؛ وكانت من خشب السّاج . وكذا قال الكلبىّ وقَتَادة وعِكْرمة كان طولها ثلثمائة ذراع . والذّراع إلى المَنْكب قاله سلمان الفارسىّ . وقال الحسن البصرىّ : إن طول السّفينة ألف ذراع ومائتا ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع . وحكاه الثعلبىّ فى كتاب العرائس . وروى علىّ بن زيد عن يوسف بن مِهران عن ابن عباس قال قال الحواريون لعيسى عليه السلام : لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة يحدثنا عنها، فآنطلق بهم حتى آنتهى إلى كَثِيب من تراب فأخذ كفًّا من ذلك التُّراب، قال أتدرون ما هذا ؟

قالوا : الله ورسـوله أعلم . قال : [هـذا كعب[(١)] حام بن نوح] قال فضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسـه ، وقد شاب ؛ فقـال له عيسى : أهكذا هلكت؟ قال : لابل متّ وأنا شاب ،ولكننى ظننت أنها الساعة فمن ثمّ شبت . قال : أخبرنا عن سفينة نوح ؟ قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، طبقة فيها الدوابّ والوحش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير. وذكر باقى الخبر[(٢)] على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وقال الكلبىّ فيما حكاه النقاش : ودخل المـاء فيها أربعة أذرع ،وكان لها ثلاثة أبواب ؛ باب فيه السبّاع والطّير ،و باب فيه الوحش ، وباب فيه الرجال والنساء . ٱبن عبـاس : جعلها ثلاث بطون ؛ البطن الأسـفل للوحوش والسباع والدواب ، والأوسـط للطعام والشراب ، وركب هو فى البطن الأعلى ، وحمل معه جسد آدم عليه السلام معترضا بين الرجال والنساء ، ثم دفنه بعدُ ببيت المقدس ؛ وكان إبليس معهـم فى الكَوْثَل[(٣)] . وقيل : جاءت الحية والعقرب لدخول السفينة فقال نوح : لا أحملكما ؛ لأنكما سبب الضرر والبـلاء ، فقالتا : احملنا فنحن نضمن لك ألا نضرّ أحدا ذَكَرك ؛ فمن قـرأ حين يخاف مَضَرَّتهما « سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ » لم تضرّاه ؛ ذكره القشيرىّ وغيره . وذكر الحافظ بن عساكر فى التاريخ له مرفوعا من حديث أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " من قال حين يمسى صلى الله على نوح وعلى نوح السـلام لم تلدغه عقرب تلك الليلة " . قوله تعـالى : ﴿ وَكُلَّمَا ﴾ ظرف . ﴿ مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ﴾ . قال الأخفش والكسائى يقال : سَخِرتُ به ومنه . وفى سخريتهم منه قولان : أحدهما ـــ أنهم كانوا يرونه يبنى سفينته فى البر ، فيسخرون به و يستهزئون و يقولون : يانوح صرت بعد النبوّة نجارا . الثـانى ـــ لمـا رأوه يبنى السـفينة ولم يشاهـدوا قبلها سفينة بنيت قالوا : يانوح

(١) كذا فى الطبرى والدر المنثور والكشاف ، وفى الأصل ( قبر سام بن نوح ) .

(٢) جاء فى البحر : وٱختلفوا فى هيئتها من التربيع والطول ، وفى مقـدار مدّة عملها ، وفى المكان الذى عملت فيه ، ومقدار طولها وعرضها على أقوال متعارضة لم يصح منها شىء .

وقال الفخر الرازى : اعلم أن هذه المباحث لا تعجبنى ، لأنها أمور لا حاجة إلى معرفتها ألبتة ، ولا يتعلق بمعرفتها فائدة أصلا .

(٣) الكوثل : مؤخر السفينة وفيه يكون الملاحون ومتاعهم . وقيل : هو السكان .

ما تصنع ؟ قال : أبني بيتا يمشي على الماء؛ فعجبوا من قوله وسخروا منه . قال ٱبن عباس: ولم يكن في الأرض قبل الطوفان نهر ولا بحر؛ فلذلك سخروا منه؛ ومياه البحار هي بقية الطوفان . ﴿ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا ﴾ أي من فعلنا اليوم عند بناء السفينة .﴿ فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ ﴾ غدا عند الغرق . والمراد بالسخرية هنا الاستجهال ؛ ومعناه إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم كما تستجهلونا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ تهديد، و « مَن » متصلة بـ«سوف تعلمون » و « تعلمون » هنا من باب التعدية إلى مفعول ؛ أي فسوف تعلمون الذي يأتيه العذاب . ويجوز أن تكون « مَن » ٱستفهامية ؛ أي أيّنا يأتيه العذاب ؟ . وقيل : « مَن » في موضع رفع بالابتدا و « يأتيه » الخبر ، و « يخزيه » صفة لعذاب . حكى الكسائي أن أناسا من أهل الحجاز يقولون: سوف تعلمون؛ وقال من قال : « ستعلمون » أسقط الواو والفاء جميعا . وحكى الكوفيون : سَفِ[(1)] تعلمون؛ ولا يعرف البصريون إلا سوف تفعل ، وستفعل لغتان ليست إحداهما من الأخرى . ﴿ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي يجب عليه وينزل به . ﴿ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ أي دائم، يريد عذاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ ٱختلف في التّنور على أقوال سبعة : الأول — أنه وجه الأرض ، والعرب تسمي وجه الأرض تنّورا ؛ قاله ٱبن عباس وعكرمة والزّهري وٱبن عُيينة ؛ وذلك أنه قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فٱركب أنت ومن معك . الثاني — أنه تنّور الخبز الذي يخبز فيه؛ وكان تنّورا من حجارة؛ وكان لحوّاء حتى صار لنوح ؛ فقيل له : إذا رأيت الماء يفور من التنور فٱركب أنت وأصحابك . وأنبع الله الماء من التنّور ، فعلمت به ٱمرأته فقالت : يانوح فار الماء من التّنور؛ فقال : جاء وعد ربي حقا . هذا قول الحسن ؛ وقاله مجاهد وعطية عن ٱبن عباس . الثالث — أنه

(١) ورد في اللسان : قد قالوا سو يكون فحذفوا اللام ، وسا يكون فحذفوا اللام وأبدلوا العين طلب الخفة ، وسف يكون فحذفوا العين .

موضع اجتماع المـاء فى السـفينة ؛ عن الحسن أيضـا . الرابع — أنه طلوع الفجر ، ونور الصبح ؛ من قولهم نور الفجر تنويرا؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الخـامس — أنه مسجد الكوفة ؛ قاله علىّ بن أبى طالب أيضا، وقاله مجاهد . قال مجاهد : كان ناحيـة التّنور بالكوفة . وقال : اتخـذ نوح السفينة فى جوف مسجد الكوفة، وكان التّنور على يمين الدّاخل مما يلى كـندة . وكان فوران المـاء منه علما لنوح ، ودليلا على هلاك قومه . قال الشاعر وهو أمية :

فار تنورُهم وجَاش بماءٍ * صار فوق الجبالِ حتّى عَلاهَا

السادس — أنه أعالى الأرض، والمواضع المرتفعة منها؛ قاله قتادة .

السـابع — أنه العين التى بالجـزيرة « عين الوردة » رواه عِكرمة . وقال مقاتل : كان ذلك تنور آدم، وإنمـا كان بالشام بموضع يقال له « عين وَرْدة » . وقال ابن عباس أيضا : فار تنور آدم بالهند . قال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأن الله عز وجل أخبرنا أن المـاء جاء من السماء والأرض؛ قال : « فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا » . فهذه الأقوال تجتمع فى أن ذلك كان علامة . والفَوَران الغَلَيان . والتّنور اسم أعجمىّ عربته العرب، وهو على بناء فَعّـل ؛ لأنّ أصل بنائه تَنَر ، وليس فى كلام العرب نون قبل راء . وقيل: معنى « فار التنور » التمثيل لحضور العـذاب ؛ كقولهم حَمِى الوَطِيسُ إذا اشتد الحرب . والوطيس التّنور . ويقال : فارت قِدر القوم إذا اشتد حربهم؛ قال شاعرهم :

تركتم قِدْرَكم لاشىء فيها * وقِدْرُ القوم حاميـةٌ تفورُ

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ يعنى ذكرا وأنثى؛ لبقاء أصل النّسل بعد الطّوفان . وقرأ حفص « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ » بتنوين « كلّ » أى من كل شىء زوجين . والقراءتان ترجعان إلى معنًى واحد معه آخر لا يستغنى عنـه . ويقال للاثنين : هما زوجان ، فى كل اثنين لا يستغنى أحدهما عن صاحبـه ؛ فإن العرب تسمى كل واحد منهما زوجا . يقال : له زوجا نعلٍ إذا كان له نعلان . وكذلك عنده زوجا حمام ، وعليـه زوجا

قيود ؛ قال الله تعالى : « وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » . ويقال للرأة هي زوج الرجل ، وللرجل هو زوجها . وقد يقال للاثنين هما زوج ، وقد يكون الزوجان بمعنى الضّربين والصّنفين ، وكل ضرب يدعى زوجا ؛ قال الله تعـالى : « وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيـجٍ » أى من كل لون وصنف . وقال الأعشى :

وكُلُّ زوجٍ من الدّيبـاجِ يَلْبَسه * أبو قُدامـــةَ محبـوٌّ بذاكَ مَعـا

أراد كل ضرب ولون . و « مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ » فى موضع نصب بـ « آحمل » . « آثنين » تأكيد . ﴿ وَأَهْلَكَ ﴾ أى وآحمـل أهلك . ﴿ إِلَّا مَنْ سَبَقَ ﴾ . « مَن » فى موضع نصب بالآستثناء . ﴿ عَلَيْهِ الْقَوْلُ ﴾ منهم أى بالهلاك ؛ وهو آبنه كنعان وآمرأته واعلة كانا كافرين . ﴿ وَمَنْ آمَنَ ﴾ قال الضحاك وآبن جريج : أى آحمل من آمن بى ، أى من صدّقك ؛ فـ« مَن » فى موضع نصب بـ « ـاحمل » . ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ قال آبن عباس رضى الله عنهما : آمن من قومه ثمـانون إنسانا ، منهم ثلاثة من بنيه ؛ سام وحام ويافث ، وثلاث كَنائن[(١)] له . ولمـا خرجوا من السفينة بنوا قرية وهى اليـوم تدعى قرية الثمانين بناحيـة الموصل . وورد فى خبر أنه كان فى السفينة ثمـانية أنفس ؛ نوح وزوجتـه غير التى عوقبت ، وبنوه الثـلاثة وزوجاتهم ؛ وهو قول قَتادة والحكم بن عُيينة وابن جُريج ومحمد بن كعب ؛ فأصاب حام آمرأته فى السفينة ، فدعا نوح الله أن يغير نطفته فجاء بالسودان . قال عطاء : ودعا نوح على حام ألا يعدو شعر أولاده آذانهم ، وأنهم حيثما كان ولده يكونون عبيدا لولد سام ويافث . وقال الأعمش : كانوا سبعة ؛ نوح وثلاث كَنائن وثلاثة بنين ؛ وأسقط امرأة نوح . وقال آبن إسحق : كانوا عشرة سوى نسائهم ؛ نوح وبنوه سام وحام ويافث ، وستة أناس ممن كان آمن به ، وأزواجهم جميعا . و « قليلٌ » رفع بآمن ، ولا يجوز نصبه على الآستثناء ؛ لأن الكلام قبله لم يتم ، إلا أن الفائدة فى دخول « إلا » و « ما » أنك لو قلت : آمن معه فلان وفلان جاز أن يكون غيرهم قد آمن ؛ فإذا جئت بما و إلا ، أوجبت لمـا بعد إلا ونفيت عن غيرهم .

---

(١) الكَنّة ( بالفتح ) : امرأة الابن أو الأخ .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٤٢) قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٤٤)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا فِيهَا ﴾ أمرٌ بالركوب ؛ ويحتمل أن يكون من الله تعالى ، ويحتمل أن يكون من نوح لقومه . والركوب العلوّ على ظهر الشيء . ويقال : ركبه الدين . وفى الكلام حذف؛ أى آركبوا الماء فى السفينة . وقيل : المعنى آركبوها . و « فى » للتأكيد كقوله تعالى : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » وفائدة « فى » أنهم أمروا أن يكونوا فى جوفها لا على ظهرها . قال عِكرمة : ركب نوح عليه السلام فى الفلك لعشر خلون من رجب، وآستوت على الجُودىّ لعشر خلون من المحرم؛ فذلك ستة أشهر؛ وقاله قَتَادة و زاد؛ وهو يوم عاشوراء؛ فقال لمن كان معه : من كان صائما فليتم صومه، ومن لم يكن صائما فليصمه . وذكر الطَّبَرىّ فى هذا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحا ركب فى السفينة أول يوم فى رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، ففيه أَرست على الجُودىّ، فصامه نوح ومن ومعه . وذكر الطَّبَرىّ عن آبن إسحق ما يقتضى أنه أقام على الماء نحو السنة ، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد رفعها الله عن الغرق فلم ينلها غرق، ثم مضت إلى اليمن ، ورجعت إلى الجُودىّ فاستوت عليه .

قوله تعالى: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ قراءة أهل الحرمين وأهل البصرة بضم الميم فيهما إلا من شذ، على معنى بسم الله إجراؤها و إرساؤها ؛ فمُجراها ومُرساها فى موضع رفع

بالابتـداء ؛ ويجوز أن تكون فى موضع نصب ، ويكون التقـدير : بسم ٱلله وقت إجرائها ثم حذف وقت ، وأقيم « مجراها » مقامه . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « بسم ٱلله مَجريها » بفتح الميم و « مُرساها » بضم الميم . وروى يحي بن عيسى عن الأعمش عن يحيى بن وثاب « بِسمِ ٱللهِ مَجْرَاهَا وَمَرْسَاهَا » بفتح الميم فيهما ؛ على المصدر من جَرت تَجرى جريا ومَجرى ، ورَست رُسوًّا ومَرْسى إذا ثبتت . وقرأ مجاهد وسليمان بن جُنْدُب وعاصم الجَحْدَرىّ وأبو رجاء العُطارِدِىّ « بِسمِ اللهِ مُجْرِيها ومُرْسِيها » نعت لله عز وجل فى موضع جر . ويجوز أن يكون فى موضع رفع على إضمار مبتدأ ؛ أى هو مُجريها ومُرسيها . ويجوز النصب على الحال . وقال الضّحاك : كان نوح عليه السلام إذا قال بسم الله مَجراها جرت ، وإذا قال بسم الله مَرساها رَست . وروى مروان بن سالم عن طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز عن الحسين بن علىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " أمانٌ لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى الفلك بسم الله الرحمن الرحيم « وَمَا قَدَرُوا ٱللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ » « بِسمِ ٱللهِ مَجْرِيهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » ". وفى هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل ؛ كما بيناه فى البسملة[1] ، والحمد لله . ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى لأهل السفينة . وروى عن ابن عباس قال : لمـا كثرت الأرواث والأقذار أوحى الله إلى نوح اغمز ذنب الفيل ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ؛ فقال نوح : لو غمزت ذنب هذا الخنزير ! ففعل ، فخرج منه فأر وفأرة فلما وقعا أقبلا على السـفينة وحبالها تقرضها ، وتقرض الأمتعة والأزواد حتى خافوا على حبال السفينة ؛ فأوحى الله إلى نوح أن امسح جبهة الأسد فمسحها ، فخرج منها سِنّوران فأكلا الفئرة ، ولمـا حمل الأسد فى السفينة قال : يارب من أين أطعمه ؟ قال : سوف أشغله ، فأخذته الحُمَّى ؛ فهو الدهر محموم . قال ابن عباس : وأوّل ما حمل نوح من البهائم فى الفلك حمل الأوزّة ، وآخر ما حمل حمل الحمار ؛ قال : وتعلق إبليس بذنبـه ، ويداه قد دخلتا فى السفينة ، ورجلاه خارجة بعـد ، فجعل الحمار يضطرب

(١) راجع جـ ١ ص ٩٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

ولا يستطيع أن يدخل ، فصاح به نوح : ٱدخل ويلك ! فجعل يضطرب ؛ فقال : ٱدخل ويلك ! وإن كان معك الشيطان؛ كلمة زلّت على لسانه، فدخل ووثب الشيطان فدخل ، ثم إن نوحا رآه يغنى فى السفينة، فقال له : ياالعين ما أدخلك بيتى ؟ ! قال : أنت أذنت لى؛ فذكر له ؛ فقال له : قم فاخرج . قال : مالك بدّ فى أن تحملنى معك ؛ فكان فيما يزعمون فى ظهر الفلك. وكان مع نوح عليه السلام خرزتان مضيئتان، واحدة مكان الشمس، والأخرى مكان القمر . ٱبن عباس : إحداهما بيضاء كبياض النهار ، والأخرى سوداء كسواد الليل ؛ فكان يعرف بهما مواقيت الصلاة؛ فإذا أمسوا غلب سواد هذه بياض هذه ، وإذا أصبحوا غلب بياض هذه سواد هذه؛ على قدر الساعات .

قوله تعـالى : ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الموج جمع موجة؛ وهى ما ارتفع من جملة المـاء الكثير عند اشتداد الريح . والكاف للتشبيه ، وهى فى موضع خفض نعت للموج . وجاء فى التفسير أن المـاء جاوز كل شيء بخمسة عشر ذراعا . ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ﴾ قيل : كان كافرا وٱسمه كنعان . وقيل : يام . ويجوز على قول سيبويه « ونادى نوح ٱبنه » بحذف الواو من « ابنه » فى اللفظ، وأنشد[1] :

* لَهُ زَجَلٌ كَأَنَّهُ صَـوتُ حادٍ *

فأما « وَنَادَى نُوحٌ ٱبْنَهَ وَكَانَ » فقراءة شاذة، وهى مروية عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعروة بن الزبير . وزعم أبو حاتم أنهـا تجوز على أنه يريد « ابنها » فحذف الألف كما تقول : «ٱبنه»؛ فتحذف الواو . وقال النحاس : وهذا الذى قاله أبو حاتم لايجوز على مذهب سيبويه؛ لأن الألف خفيفة فلا يجوز حذفها، والواو ثقيلة يجوز حذفها . ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ أى من دين أبيه . وقيل : عن السفينة . وقيل : إن نوحا لم يعلم أن ٱبنه كان كافرا ، وأنه

---

(١) البيت للشماخ ، والشاهد فى (كأنه) حيث حذف الواو ضرورة . وتمامه :

* إذا طلبَ الوسـيقةَ أوزَميرُ *

يصف حمار وحش هائجا يطلب وسيقته ، وهى أتانه التى يضمها ويجمعها ؛ من وسقت الشىء أى جمعته . (شواهد سيبويه) .

ظن أنه مؤمن؛ ولذلك قال له : ﴿ وَلَا تَكُنْ مَعَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ وسيأتى . وكان هذا النداء من قبل أن يستيقن القوم الغرق؛ وقبل رؤية اليأس ، بل كان فى أوّل ما فار التنور، وظهرت العلامة لنوح . وقرأ عاصم ﴿ يَا بُنَيَّ ٱرْكَبْ مَعَنَا ﴾ بفتح اليـاء، والباقون بكسرها . وأصـل « يا بنىّ » أن تكون بثلاث ياءات؛ ياء التصغير، وياء الفعـل، وياء الإضافة؛ فأدغمت ياء التصغير فى لام الفعل، وكسرت لام الفعل من أجل ياء الإضافة، وحذفت ياء الإضافة لوقوعها موقع التنوين، أو لسكونها وسكون الراء فى هذا الموضع؛ هـذا أصل قراءة من كسر اليـاء، وهو أيضا أصل قراءة من فتح؛ لأنه قلب ياء الاضافة ألفا لخفة الألف، ثم حذف الألف لكونها عوضا من حرف يحذف، أو لسكونها وسكون الراء . قال النحاس : أما قراءة عاصم فمشكلة؛ قال أبو حاتم : يريد يا بُنَيّاه ثم يَحذف؛ قال النحاس : رأيت علىّ بن سليمان يذهب إلى أن هذا لا يجوز؛ لأن الألف خفيفة . قال أبو جعفر النحاس : ما علمت أن أحدا من النحويين جوز الكلام فى هذا إلا أبا إسحق؛ فإنه زعم أن الفتح من جهتين، والكسر من جهتين؛ فالفتح على انه يبدل من الياء ألفا؛ قال الله عز وجل إخبارا : « يا ويلتا » وكما قال الشاعر :

* فياعجبا مِن رَحْلها المتحمَّلِ *

فيريد يا بنيّا، ثم حذف الألف لالتقاء الساكنين، كما تقول جاءنى عبدا الله فى التثنية . والجهة الأخرى أن تحذف الألف؛ لأن النداء موضع حذف . والكسر على أن تحذف الياء للنداء . والجهة الأخرى على أن تحذفها لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ سَآوِي ﴾ أى أرجع وأنضم . ﴿ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي ﴾ أى يمنعنى من المـاء فلا أغرق . ﴿ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ أى لا مانع؛ فإنه يوم حقّ فيه العذاب على الكفار . وٱنتصب «عاصم» على التبرئة . ويجوز « لا عاصمُ اليوم » تكون لا بمعنى ليس . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ﴾ فى موضع نصب استثناء ليس من الأوّل؛ أى لكن من رحمه الله فهو يعصمه؛ قاله الزجاج . ويجوز أن يكون فى موضع رفع، على أن عاصما بمعنى معصوم؛ مثل «ماء دافق» أى مدفوق؛ فالاستثناء على هذا متصل؛ قال الشاعر :

بطيءُ القيامِ رخيمُ الكلا * مِ أَمسَى فؤادِي بِهِ فَاتِنَـا

أى مفتونا . وقال آخر[1]:

دَعِ المكارِمَ لا تَنهضْ لبغيتها * واقعدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعمُ الكاسِي

أى المطعوم المكسوّ . قال النحاس : ومن أحسن ماقيل فيه أن تكون «مَن» فى موضع رفع؛ بمعنى لا يعصم اليوم من أمر الله إلا الراحم؛ أى إلا الله . وهـذا اختيار الطَّبَرىّ . ويُحسِّن هذا أنك لم تجعل عاصما بمعنى معصوم فتخرجه من بابه، ولا «إلّا» بمعنى «لكن» . ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ يعنى بين نوح وابنه . ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ قيل : إنه كان راكبا على فرس قد بطر بنفسه، وأعجب بها؛ فلما رأى المـاء جاء قال : يا أبت فار التنور؛ فقال له أبوه : «يا بنى اركب معنا» فما استتمّ المراجعة حتى جاءت مَوْجة عظيمة فالتقمته هو وفرسه، وحيل بينه و بين نوح فغرق . وقيل : إنه اتخذ لنفسه بيتا من زجاج يتحصّن فيه من المـاء، فلما فار التّنور دخل فيه وأقفله عليه من داخل، فلم يزل يتغوّط فيه و يبول حتى غرق بذلك . وقيل : إن الجبل الذى آوى إليه «طورسيناء» .

قوله تعـالى : ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ هـذا مجاز لأنها موات . وقيل : جعل فيها ما تُميّز به . والذى قال إنه مجاز قال : لو فُتِّش كلام العرب والعجم ما وجد فيه مثل هـذه الآية على حسن نظمها، و بلاغة رصفها، واشتمال المعانى فيهـا . وفى الأثر : أن الله تعالى لا يخلى الأرض من مطر فى عام أو عامين، وأنه ما نزل من السماء ماء قطّ إلا بحفظ مَلك موكّل به إلا ما كان من ماء الطوفان؛ فإنه خرج منـه ما لا يحفظه الملَك . وذلك قوله تعالى : «إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ» فجرت بهم السفينة إلى أن تناهى الأمر؛ فأمر الله المـاء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع . يقال : بلَع المـاء يبلَعه مثل منـع يمنع و بلِـع يبلَع مثل حمِد يحمَد؛ لغتان حكاهما الكسائىّ والفراء . والبالُوعة

(١) البيت للحطيئة يهجو الزِّبرقان .

الموضع الذى يشرب المـاء . قال آبن العربى : التقى المـاءان على أمر قد قـدر ، ما كان فى الأرض وما نزل من السماء؛ فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع، فلم تمتصّ الأرض منـه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط . وذلك قوله تعالى : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ المَـاءُ » . وقيل : ميّز الله بين المـاءين، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحارا .

قوله تعـالى : ﴿ وَغِيضَ المَـاءُ ﴾ أى نقص؛ يقال : غاض الشيءُ وغضته أنا؛ كما يقال : نَقَص بنفســه ونَقَصه غيره، ويجوز « غيض » بضم الغـين[1] . ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ أى أحكم وفرغ منه ؛ يعنى أهلك قوم نوح على تمـام وإحكام . ويقال : إن الله تعالى أعقم أرحامهم أى أرحام نسائهم قبل الغرق بأربعين سنة، فلم يكن فيمن هلك صغير . والصحيح أنه أهلك الوِلدان بالطّوفان، كما هلكت الطير والسباع، ولم يكن الغرق عقوبة للصبيان والبهائم والطير، بل ماتوا بآجالهم . وحكى أنه لمـا كثر المـاء فى السّكك خشيت أمّ صبيّ عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا، فخرجت به إلى الجبل، حتى بلغت ثلثــه ، فلما بلغها المـاء خرجت حتى بلغت ثلثيه، فلما بلغها المـاء آستوت على الجبل؛ فلما بلغ المـاء رقبتها رفعت يديها بآبنها حتى ذهب بها المـاء؛ فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أمّ الصبى .

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى الجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أى هلاكا لهم . الجُوديّ جبل بقرب المَوْصل؛ استوت عليه فى العاشر من المحرّم يوم عاشوراء؛ فصامه نوح وأمر جميع من معه من الناس والوحش والطير والدواب وغيرها فصاموه، شكرا لله تعالى ؛ وقد تقدّم هذا المعنى . وقيل : كان ذلك يوم الجمعة . وروى أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أن السفينة ترسى على واحد منها فتطاولت ، وبقى الجُوديّ لم يتطاول تواضـعا لله، فاستوت السفينة عليه، وبقيت عليــه أعوادها . وفى الحديث أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "لقد بقى منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة" . وقال مجاهد : شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق ، فعلا

(١) أى باشمام الكسرة الضم .

المـاء فوقها خمسة عشر ذراعا، وتطامن الجودىّ، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق، ورست السفينة عليه . وقد قيل : إن الجودىّ آسم لكل جبل ؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل[(١)] :

سُـبحانه ثم سُبحاناً يعودُ له * وقبلَنـا سبّحَ الجُودىُّ والجُمُـد

ويقال : إن الجُودىّ من جبال الجنة؛ فلهذا آستوت عليه . ويقال : أكرم الله ثلاثة جبال بثلاثة نفر؛ الجودىّ بنوح، وطورسيناء بموسى، وحِراء بمحمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : لمـا تواضع الجودىّ وخضع عزّ ، ولمـا آرتفع غيره وآستعلى ذلّ ، وهـذه سنّة الله فى خلقه، يرفع من يخشع، ويضع من ترفّع؛ ولقد أحسن القائل :

وإذا تذلّلتِ الرّقابُ تخضُّعـا * مِنّـا إليكَ فعِـزُّها فى ذلّهـا

وفى صحيح البخارى ومسلم عن أنس بن مالك قال : كانت ناقة للنبى صلى الله عليه وسلم تُسمّى العَضْباء، وكانت لا تُسبق؛ فجاء أعرابىّ على قعودٍ له فسـبقها، فاشتد ذلك على المسلمين؛ وقالوا : سُبِقت العضباءُ ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن حقّا على الله ألا يَرفع شيئا من الدنيا إلا وَضعه " . وخرج مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما نَقَصت صدقةٌ من مالٍ وما زاد الله عبـدا بعفوٍ إلا عزّا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله " . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن الله أوحى إلىّ أن تواضعوا حتى لا يَبغِى أحد على أحد ولا يَفخر أحد على أحد " . خرجه البخارىّ .

مسئلةٌ : — نذكر فيها من قصة نوح مع قومه و بعض ذكر السفينة . ذكر الحافظ آبن عساكر فى التـاريخ له عن الحسن أن نوحا أوّل رسول بعثـه الله إلى الأرض؛ فذلك قـوله تعـالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا » . وكان قد كثرت فيهم المعاصى، وكثرت الجبابرة وعَتَوْا عُتُوّا كبيرا، وكان نوح يدعوهم ليلا ونهارا، سرّا وعلانية، وكان صبورا حليما، ولم يلق أحد من الأنبياء أشدّ مما لقى نوح؛ فكانوا يدخلون عليه

---

(١) نسبه اللسان لأمية بن أبى الصلت؛ وفى (معجم ياقوت) : هو لزيد بن عمرو، وقيل لورقة بن نوفل . والجمد كعنق : جبل لبنى نصر بنجد .

فيخنقونه حتى يترك وقيذا، ويضربونه في المجالس ويطرد، وكان لا يدعو على من يصنع به بل يدعوهم ويقول: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارا منه، حتى أنه ليكلم الرجل منهم فيلف رأسه بثوبه، ويجعل أصبعيه في أذنيه لكيلا يسمع شيئا من كلامه، فذلك قوله تعالى: «وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ». وقال مجاهد وعُبيد بن عمير: كانوا يضربونه حتى يغشى عليه فإذا أفاق قال: «رَبِّ ٱغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». وقال ٱبن عباس: إن نوحا كان يضرب ثم يُلف في لِبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات، ثم يخرج فيدعوهم؛ حتى إذا يئس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ٱبنه وهو يتوكأ على عصا؛ فقال: يابُنَيّ ٱنظر هذا الشيخ لا يغرّنك، قال: يا أبت أمكنّي من العصا، فأخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه، فمشى إليه بالعصا فضربه فشجه شجة مُوضِحة في رأسه، وسالت الدماء؛ فقال نوح: «ربِّ قد ترى مايفعل بي عبادك فإن يك لك في عبادك خيرية فاهدهم وإن يك غير ذلك فصبّرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين» فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه، وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال، ولا في أرحام النساء مؤمن؛ قال: «وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ»؛ أي لا تحزن عليهم؛ «وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا» قال: يارب وأين الخشب؟ قال: ٱغرس الشجر. قال: فغرس السّاج عشرين سنة، وكفّ عن الدعاء، وكفّوا عن الاستهزاء، وكانوا يسخرون منه؛ فلما أدرك الشجرُ أمره ربه فقطعها وجفّفها، فقال: يارب كيف أتخذ هذا البيت؟ قال: ٱجعله على ثلاثة صور؛ رأسه كرأس الدّيك، وجؤجؤه كجؤجؤ الطير، وذَنَبه كذَنَب الديك؛ وٱجعلها مطبقة وٱجعل لها أبوابا في جنبها، وشدّها بدُسُر، يعني مسامير الحديد. وبعث الله جبريل فعلمه صنعة السفينة، وجعلت يده لا تخطئ. قال ٱبن عباس: كانت دار نوح عليه السلام دمشق، وأنشأ سفينة من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام، فلما كملت حمل فيها السباع والدواب في الباب الأوّل، وجعل الوحش والطير في الباب الثاني، وأطبق عليهما،

وجعل أولاد آدم أربعين رجلا وأربعين آمرأة فى الباب الأعلى وأطبق عليهـم، وجعل الذّر معه فى الباب الأعلى لضعفها ألا يطأها الدوابّ .

قال الزُّهرىّ : إن الله عز وجل بعث ريحـا فحمل إليـه من كل زوجين آثنين ؛ من السباع والطير والوحش والبهائم . وقال جعفر بن محمـد : بعث الله جبريل فحشرهم ، فجعل يضرب بيـديه على الزوجين فتقع يده اليمنى على الذكر واليسرى على الأنثى، فيدخله السفينة . وقال زيد بن ثابت : استصعبت على نوح المـاعزة أن تدخل السفينة، فدفعها بيده فى ذنبها؛ فمن ثم انكسر ذنبها فصار مَعْقوفا وبدا حَياؤها . ومضت النعجة حتى دخلت فمسح على ذنبهـا فستر حياءها ؛ قال إسحق : أخبرنا رجل من أهل العلم أن نوحا حمل أهـل السفينة ، وجعل فيها من كل زوجين آثنين، وحمـل من الهدهد زوجين، فماتت الهدهدة فى السفينة قبـل أن تظهر الأرض، فحملها الهدهد فطاف بها الدنيا ليصيب لها مكانا، فلم يجد طينا ولا ترابا، فرحمه ربه فحفر لها فى قفاه قبرا فدفنها فيه، فذلك الريش الناتئ فى قفا الهدهد موضع القبر؛ فلذلك نتأت أقفية الهداهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كان حمل نوح معه فى السفينة من جميع الشجر وكانت العجوة من الجنة مع نوح فى السفينة". وذكر صاحب كتاب «العروس» وغيره أن نوحا عليه السلام لمـا أراد أن يبعث من يأتيه بخبر الأرض قال الدّجاج : أنا؛ فأخذها وختم على جناحها وقال لها : أنت مختومة بخاتمى لا تطيرى أبدا، أنت ينتفع بك أمتى؛ فبعث الغراب فأصاب جيفة فوقع عليها فاحتبس فلعنه ، ولذلك يقتل فى الحَرَم، ودعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت . وبعث الحمامة فلم تجـد قرارا فوقعت على شجرة بأرض سبأ فحملت ورقة زيتونة، ورجعت إلى نوح فعلم أنها لم تستمكن من الأرض، ثم بعثها بعد ذلك فطارت حتى وقعت بوادى الحرم، فإذا المـاء قـد نضب من مواضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء، فاختضبت رجلاها ، ثم جاءت إلى نوح عليـه السـلام فقالت : بشراى منكَ أن تهب لى الطوق فى عنق ، والخضاب فى رجلى ، وأسكنُ الحَرَم؛ فمسح يده على عنقها وطوقها ، ووهب لها الحمرة فى رجليها، ودعا لهـا ولذريتها بالبركة . وذكر الثعلبىّ أنه بعث بعد الغراب

التُّدْرُج[1] وكان من جنس الدّجاج ؛ وقال : إياك أن تعتذر ، فأصاب الخضرة والفرجة فلم يرجع ، وأخذ أولاده عنده رهنا إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ أى دعاه . ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أى من أهلي الذين وعدتهم أن تنجيهم من الغرق؛ ففى الكلام حذف . ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ يعنى الصدق . وقال علماؤنا : وإنما سأل نوح ربه ٱبنه لقوله : « وأهلك » وترك قوله : « إلا من سبق عليه القول » فلما كان عنده من أهله قال : « رب إن ٱبنى من أهلى » يدل على ذلك قوله : « ولا تكن مع الكافرين » أى لا تكن ممن لست منهم؛ لأنه كان عنده مؤمنا فى ظنه ، ولم يك نوح يقول لربه : « إن ٱبنى من أهلى » إلا وذلك عنده كذلك ؛ إذ محال أن يسأل هلاك الكفار ، ثم يسأل فى إنجاء بعضهم؛ وكان ٱبنه يُسرّ الكفر ويظهر الإيمان ؛ فأخبر الله تعالى نوحا بما هو منفرد به من علم الغيوب ؛ أى علمت من حال ٱبنك ما لم تعلمه أنت . وقال الحسن : كان منافقا ؛ ولذلك ٱستحل نوح أن يناديه . وعنه أيضا : كان ٱبن ٱمرأته . دليله قراءة علىّ « ونادى نوح ابنها » . ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ ابتداء وخبره أى حكمت على قوم بالنجاة، وعلى قوم بالغرق .

---

(١) التدرج كجهج : طائر يغرد فى البساتين بأصوات طيبة ؛ وموطنه بلاد فارس . (حياة الحيوان) .

الثانيـــة ـــ قوله تعـالى: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذيـن وعدتهم أن أنجيهم ؛ قاله سـعيد بن جُبير . وقال الجمهور : ليس من أهل دينك ولا ولايتك ؛ فهو على حذف مضاف؛ وهذا يدل على أن حكم الاتفاق فى الدّين أقوى من النّسب . ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ قرأ ٱبن عباس وعُروة وعكرمة ويعقوب والكسائى « إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِحٍ » أى من الكفر والتكذيب؛ وٱختاره أبو عُبيـد . وقرأ الباقون « عَمَلٌ » أى ابنك ذو عمل غير صالح فحذف المضاف؛ قاله الزجاج وغيره . قال[1] :

تَرْتَعُ ما رَتَعتْ حتّى إذا ادَّكَرتْ * فإنمـا هى إقبـالٌ وإدبـار

أى ذات إقبال وإدبار . وهـذا القول والذى قبـله يرجع إلى معنى واحد . ويجـوز أن تكون الهـاء للسؤال ؛ أى إن سؤالك إياى أن أنجيه عمل غير صالح . قاله قتادة . وقال الحسن : معنى عمـل غير صالح أنه ولد على فراشه ولم يكن ٱبنه . وكان لغير رشـدة ؛ وقاله أيضا مجاهد . قال قتادة سألت الحسن عنه فقال : والله ما كان ٱبنه ؛ قلت إن الله أخبر عن نوح أنه قال : « إن ٱبنى من أهلى » فقال : لم يقـل منى ، وهـذه إشارة إلى أنه كان ٱبن ٱمرأته من زوج آخر؛ فقلت له : إن الله حكى عنه أنه قال : «إن ٱبنى من أهلى» « ونادى نوح ٱبنه » ولا يختلف أهـل الكتابين أنه ٱبنه ؛ فقال الحسن : ومن يأخذ دينـه عن أهل الكتاب ! إنهـم يكذبون . وقرأ « بخانتاهمـا » . وقال ٱبن جريج : ناداه وهو يحسب أنه ٱبنه، وكان ولد على فراشه، وكانت ٱمرأته خانته فيه؛ ولهذا قال : «فخانتاهما» . وقال ٱبن عباس : ما بغت ٱمرأة نبى قط، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وكذلك قال الضّحاك وعكرمة وسعيد ٱبن جُبير وميمون بن مِهران وغيرهم، وأنه كان ٱبنه لصُلْبه . وقيل لسعيد بن جُبير يقول نوح: « إن ٱبنى من أهلى» أكان من أهله ؟ أكان ٱبنه؟ فسبّح اللهَ طويلا ثم قال: لا إله إلا الله! يحدث الله محمدا صلى الله عليه وسـلم أنه ٱبنه ، وتقول إنه ليس ٱبنه ! نعم كان ٱبنه ؛ ولكن كان مخالفا فى النية والعمل والدين ، ولهذا قال الله تعالى : « إنه ليس من أهلك » ؛ وهذا

(١) البيت للخنساء. تصف ناقة ذهب عنها ولدها ؛ وهو من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا .

هو الصحيح فى الباب إن شاء الله تعالى لجلالة من قال به؛ وإن قوله : « إنه ليس من أهلك » ليس مما ينفى عنه أنه ابنه . وقوله : « فخانتاهما » يعنى فى الدّين لا فى الفراش، وذلك أن هذه كانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له : أما ينصرك ربك ؟ فقال لها : نعم . قالت : فمتى ؟ قال : إذا فار التّنور؛ فخرجت تقول لقومها : يا قوم والله إنه لمجنون ، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التّنور، فهذه خيانتها . وخيانة الأخرى أنها كانت تدل على الأضياف على ما سيأتى إن شاء الله . والله أعلم . وقيل : الولد قد يسمى عملا كما يسمى كَسْبا ، كما فى الخبر " أولادكم من كَسْبكم " . ذكره القشيرىّ .

الثالثة — فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين . وروى أن ابن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطّاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس؛ فقال مالك : الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات . وفيها أيضا دليل على أن الابن من الأهل لغة وشرعا، ومن أهل البيت؛ فمن وصّى لأهله دخل فى ذلك ابنه، ومن تضمنه منزله، وهو فى عياله . وقال تعالى فى آية أخرى . « وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ . وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ» فسمى جميع من ضمنه منزله من أهله .

الرابعة — ودلّت الآية على قول الحسن ومجاهد وغيرهما أن الولد للفراش؛ ولذلك قال نوح ما قال آخذا بظاهر الفراش . وقد روى سفيان بن عُيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع عبيد بن عمير يقول : نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قضى بالولد للفراش من أجل ابن نوح عليه السلام ؛ ذكره أبو عمر فى كتاب « التمهيد » . وفى الحديث الصحيح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الولدُ للفراش وللعاهر الحَجَر " يريد الخيبة . وقيل : الرّجم بالحجارة . وقرأ عُروة بن الزّبير « ونادى نوح ابنها » يريد ابن امرأته، وهى تفسير القراءة المتقدّمة عنه وعن علىّ رضى الله عنه ، وهى حجة للحسن ومجاهد ؛ إلا أنها قراءة شاذة، فلا نترك المتفق عليها لها . والله أعلم .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى أنهـاك عن هذا السؤال، وأحذرك لئلا تكون، أو كراهية أن تكون من الجاهلين؛ أى الآثمين. ومنه قوله تعالى : « يَعِظُكُمُ اللهُ أن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا » أى يحذركم الله و ينهاكم . وقيل : المعنى أرفعك أن تكون من الجاهلين . قال ٱبن العربى : وهـذه زيادة من الله وموعظة يرفع بها نوحا عن مقام الجاهلين ، و يعليه بها إلى مقام العلماء والعارفين؛ فقال نوح : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ وهذه ذنوب الأنبياء عليهـــم السلام، فشكر الله تذلله وتواضعه . ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي ﴾ ما فرط من السؤال.﴿ وَتَرْحَمْنِي ﴾ أى بالتوبة .﴿ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أى أعمالا . فقال : « يا نوح ٱهبط بسلام منا » .

قوله تعـالى : قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ أى قالت الملائكة، أو قال الله تعالى له : ٱهبط من السفينة إلى الأرض ، أو من الجبل إلى الأرض؛ فقـد ٱبتلعت المـاءَ وجفّت . « بسلام منا » أى بسلامة وأمن . وقيل : بتحيـة . ﴿ وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ أى نعم ثابتـة ؛ مشتق من بروك الجمل وهو ثبوته و إقامتـه . ومنه البِركة لثبوت المـاء فيها . وقال ٱبن عباس رضى الله عنهما : نوح آدم الأصغر، فجميع الخلائق الآن من نسله ، ولم يكن معه فى السفينة من الرجال والنساء إلا من كان من ذريته؛ على قول قَتَاد وغيره، حسب ما تقدّم؛ وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَـهُ هُمُ الْبَاقِينَ » . ﴿ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ ﴾ قيل : دخل فى هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة . ودخل فى قوله : ﴿ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كل كافر إلى يوم القيـامة؛ روى ذلك عن محمـد بن كعب . والتقدير على هـذا : وعلى ذرية أمم ممن معك ، وذرية أمم سنمتعهم . وقيل : « مِن » للتبعيض، وتكون لبيان الجنس . « وأمم سنمتعهم » ارتفع « وأمم » على معنى وتكون أمم . قال الأخفش سعيد كما تقول : كلمت زيدا وعمـرو جالس . وأجاز الفراء فى غير القراءة وأمما ، وتقـديره : ونمتّع أممـا . وأعيدت « على » مع

« أمم » لأنه معطوف على الكاف من « عليك » وهى ضمير المجرور، ولا يعطف على ضمير المجرور إلا بإعادة الجار على قول سيبويه وغيره . وقد تقدّم فى « النساء » بيان هذا مستوفى[1] فى قوله تعالى : « وَٱتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامِ » بالخفض . والباء فى قوله : « بسلام » متعلقة بمحذوف؛ لأنها فى موضع الحال؛ أى اهبط مسلَّماً عليك . و « منّا » فى موضع جر متعلق بمحذوف؛ لأنه نعت للبركات . «وعلى أمم» متعلق بما تعلق به «عليك»؛ لأنه أعيد من أجل المعطوف على الكاف . و « من » فى قوله « ممن معك » متعلق بمحذوف؛ لأنه فى موضع جر نعت للأمم . و « معك » متعلق بفعل محذوف؛ لأنه صلة « لمن » أى ممن استقر معك ، أو آمن معك، أو ركب معك .

قوله تعالى : تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى تلك الأنباء ؛ وفى موضع آخر « ذلك » أى ذلك النبأ والقصص من أنباء ما غاب عنك . ﴿ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ أى لتقف عليها . ﴿ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ ﴾ أى كانوا غير عارفين بأمر الطوفان ؛ والمجوس الآن ينكرونه، وقيل: أزاد جهلهم بقصة ابن نوح وإن سمعوا أمر الطوفان على الجملة . ﴿ فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته، وما تلق من أذى العرب الكفار، كما صبر نوح على قومه . ﴿ إِنَّ الْعَاقِبَةَ ﴾ فى الدنيا بالظَّفَر ، وفى الآخرة بالفوز . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عن الشرك والمعاصى .

قوله تعالى : وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا

(١) راجع جـ ٥ ص ٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ أى وأرسلنا ؛ فهو معطوف على « أرسلنا نوحا » . وقيل له أخوهم لأنه منهم، وكانت القبيلة تجمعهم؛ كما تقول : ياأخا تميم . وقيل : إنما قيل له أخوهم لأنه من بنى آدم كما أنهم من بنى آدم ؛ وقد تقدّم هذا فى « الأعراف »[1] وكانوا عبدة الأوثان . وقيل : هم عادان، عاد الأولى وعاد الأخرى، فهؤلاء هم الأولى؛ وأما الأخرى فهو شدّاد ولقمان المذكوران فى قوله تعالى : « إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ » . وعاد اسم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

رجل ثم ٱستمر على قوم ٱنتسبوا إليه . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ ﴾ بالخفض على اللفظ، و « غيرُه » بالرفع على الموضع، و « غيرَه » بالنصب على الآستثناء . ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ أى ما أنتم فى اتخاذكم إلها غيره إلا كاذبون عليه جل وعز .

قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ تقدّم معناه . والفِطرة ٱبتداء الخلق . ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ما جرى على قوم نوح لما كذّبوا الرسل .

قوله تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ تقدم أوّل السورة . ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ ﴾ جزم لأنه جواب وفيه معنى المجازاة . ﴿ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ نصب على الحال، وفيه معنى التكثير ؛ أى يرسل السماء بالمطر متتابعا يتلو بعضه بعضا؛ والعرب تحذف الهاء فى مِفعال على النسب ، وأكثر ما يأتى مِفعال من أَفعل، وقد جاء هاهنا من فَعَل ؛ لأنه من درّت السماء تَدِر وتَدُر فهو مدرار . وكان قوم هود أعنى عادا أهل بساتين وزروع وعمارة، وكانت مساكنهم الرمال التى بين الشام واليمن كما تقدّم فى « الأعراف »[1] . ﴿ وَيَزِدْكُمْ ﴾ عطف على يرسل . ﴿ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ قال مجاهد : شدّة على شدّتكم . الضّحاك : خصبا إلى خصبكم . على بن عيسى : عزّا على عزّكم . عِكرمة : ولدا إلى ولدكم . وقيل : إن الله حبس عنهم المطر ثلاث سنين فلم يولد لهم ولد؛ فقال لهم هود : إن آمنتم أحيى الله بلادكم ورزقكم المال والولد ؛ فتلك القوة . وقال الزجاج : المعنى يزدكم قوة فى النِّعم . ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ أى لا تعرضوا عما أدعوكم إليه، وتقيموا على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ أى حجة واضحة .﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إصرار منهم على الكفر .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ ﴾ أى أصابك . ﴿ بَعْضُ آلِهَتِنَا ﴾ أى أصنامنا . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ أى بجنون لسبِّك إياها، عن ٱبن عباس وغيره . يقال : عراه الأمر واعتراه إذا ألمّ به . ومنه « وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ » . ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ ﴾ أى على نفسى .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٦ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَٱشْهَدُوا ﴾ أى وأشهدكم؛ لأنهم كانوا أهــل شهادة، ولكنــه نهاية للتقرير؛ أى لتعرفوا ﴿ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أى من عبادة الأصنام التى تعبدونها . ﴿ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ﴾ أى أنتم وأوثانكم فى عداوتى وضرّى . ﴿ ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أى لا تؤخرون . وهــذا القول مع كثرة الأعداء يدل على كمال الثقة بنصر الله تعالى ، وهو من أعلام النبوّة، أن يكون الرسول وحده يقول لقومه : « فَكِيدُونِى جَمِيعًا » . وكذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لقريش ، وقال نوح صلى الله عليه وسلم : « فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ » الآية .

قوله تعالى: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ أى رضيت بحكمه، ووثقت بنصره. ﴿ مَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أى نفس تدبّ على الأرض؛ وهو فى موضع رفع بالابتداء . ﴿ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ أى يصرفها كيف يشاء، ويمنعها مما يشاء؛ أى فلا تصلون إلى ضرّى . وكل ما فيه رُوح يقــال له دابّ ودابّة؛ والهــاء للمبالغة . وقال الفراء : مالكها، والقادر عليها . وقال القتبىّ : قاهرها؛ لأن من أخذتَ بناصيته فقد قهرتَه . وقال الضحاك : يحييهــا ثم يميتها؛ والمعنى متقارب . والناصية قُصاص الشّعر فى مقــدم الرأس . ونَصوتُ الرجل أَنصوه نَصْوًا أى مددت ناصيته . قال ابن جريج : إنمــا خص الناصية؛ لأن العرب تستعمل ذلك إذا وصفت إنسانا بالذّلة والخضوع؛ فيقولون : ما ناصية فلان إلا بيــد فلان؛ أى أنه مطيع له يصرفه كيف يشاء . وكانوا إذا أسروا أسيرا وأرادوا إطلاقه والمنّ عليــه جزّوا ناصيته ليعرف بذلك فخرا عليه؛ فخاطبهم بما يعرفونه فى كلامهم. وقال الترمذىّ الحكيم فى « نوادر الأصول» قوله تعالى : « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وجهه عندنا أن الله تعالى قدّر مقادير أعمال العبــاد، ثم نظر إليها، ثم خلق خلقه، وقد نفذ بصره فى جميع ما هم فيه عاملون من قبل أن يخلقهم، فلما خلقهم وضع نور تلك النظرة فى نواصيهم؛ فذلك النور آخذ بنواصيهم، يجريهم إلى أعمالهم المقدّرة عليهم يوم المقادير . وخلق الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة؛ رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " قدّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف ســنة " . ولهذا

قويت الرسل وصاروا من أولى العزم لأنهم لاحظوا نور النواصى ، وأيقنوا أن جميع خلقه منقادون بتلك الأنوار إلى ما نفذ بصره فيهم من الأعمال، فأوفرهم حظا من الملاحظة أقواهم فى العزم، ولذلك ما قوِى هود النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال : « فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ . إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » . وإنما سميت ناصية لأن الأعمال قد نصّت وبرزت من غيب الغيب فصارت منصوصة فى المقادير، قد نفذ بصر الخالق فى جميع حركات الخلق بقدرة ، ثم وضعت حركات كل من دبّ على الأرض حيا فى جبهته بين عينيه، فسمى ذلك الموضع منه ناصية ؛ لأنها تنص حركات العباد بما قدّر ؛ فالناصية مأخوذة بمنصوص الحركات التى نظر الله تعالى إليها قبل أن يخلقها . ووصف ناصية أبى جهل فقال : « نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ » يخبر أن النواصى فيها كاذبة خاطئة ؛ فعلى سبيل ما تأوّلوه يستحيل أن تكون الناصية منسوبة إلى الكذب والخطأ . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ قال النحاس : الصّراط فى اللغة المنهاج الواضح ؛ والمعنى أن الله جلّ ثناؤه وإن كان يقدر على كل شى فإنه لا يأخذهم إلا بالحق . وقيل : معناه لا خلل فى تدبيره، ولا تفاوت فى خلقه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ فى موضع جزم؛ فلذلك حذفت منه النون، والأصل تتولوا، فحذفت التاء لاجتماع تاءين . ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ بمعنى قد بيّنت لكم . ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ ﴾ أى يهلككم ويخلق من هو أطوع له منكم يوحدونه ويعبدونه . «ويستخلفُ» مقطوع مما قبله فلذلك ارتفع؛ أو معطوف على ما يجب فيما بعد الفاء من قوله : « فقد أبلغتكم » . وروى عن حفص عن عاصم « ويَستخلفْ » بالجزم حملا على موضع الفاء وما بعدها؛ مثل « ويَذَرْهُم[(١)] فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أى بتوليكم وإعراضكم . ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى لكل شيء حافظ . « على » بمعنى اللام؛ فهو يحفظنى من أن تنالونى بسوء .

---

(١) بالياء وسكون الراء قراءة ؛ كما فى (فتح المقفلات) .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا بهلاك عاد . ﴿ نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ لأن أحدا لا ينجو إلا برحمة الله تعـالى، وإن كانت له أعمـال صالحة . وفى صحيح مسلم والبخارى وغيرهما عن النبي صلى الله عليه وسلم "لن يُنجى أحدًا منكم عملُه" قالوا ولا أنت يارسول الله ؟! قال : "ولا أنا إلا أن يتغمّدنى الله برحمته" . وقيل : معنى « برحمـة منا » بأن بيّنا لهم الهدى الذى هو رحمـة . وكانوا أربعة آلاف . وقيل : ثلاثة آلاف . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى عذاب يوم القيامة . وقيل : هو الريح العقيم كما ذكر الله فى « الذاريات » وغيرها وسيأتى . قال القُشيرى أبو نصر : والعذاب الذى يتوعد به النبي أمته إذا حضر ينجى الله منه النبي والمؤمنين معه؛ نعم ! لا يبعد أن يبتلى الله نبيا وقومه فيعمهم ببلاء فيكون ذلك عقوبة للكافرين، وتمحيصا للؤمنين، إذا لم يكن مما توعدهم النبي به .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ ابتداء وخبر . وحكى الكسائى أن من العرب من لا يصرف « عادا » فيجعله اسمـا للقبيلة . ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أى كذّبوا بالمعجزات وأنكروها . ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ يعنى هودا وحده ؛ لأنه لم يرســل إليهم من الرسل ســواه . ونظيره قوله تعـالى : « يأيها الرسل كلوا من الطيبات » يعنى النبي صلى الله عليه وسلم وحده؛ لأنه لم يكن فى عصره رسول سواه ؛ وإنما جمع هذا لأن من كذّب رسولا واحدا فقد كفر بجميع الرسل . وقيل : عصوا هودا والرسل قبله ، وكانوا بحيث لو أرسل إليهم ألف رسول لجحدوا الكل . ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أى اتبع سقاطُهم رؤساءهم . والجبـار المتكـبر . والعنيد الطاغى الذى لا يقبل الحق ولا يذعن له . قال أبو عبيد : العنيد والعَنود والعاند والمعـاند المعارض بالخلاف . ومنه قيل للعِرْق الذى ينفجر بالدم عاند . قال الراجز :

* إنّى كبيرٌ لا أُطيقُ العُنَّدَا[1] *

قوله تعـالى : ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ أى ألحقوها . ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ أى وأتبعوا يوم القيامة مثل ذلك؛ فالتمـام على قوله : « ويوم القيامة » . ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا

(١) صدرالبيت : * إذا رحلتُ فاجعلونى وَسَطَا *

رَبَّهُمْ ﴾ قال الفراء : أى كفروا نعمة ربهم ؛ قال : ويقال كَفَرته وكَفَرت به، مثل شكرته وشكرت له . ﴿ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ أى لا زالوا مبعدين عن رحمة الله . والبعد الهلاك . والبُعد التّباعد من الخير. يقال: بَعُد يَبعُد بُعْدا إذا تأخر وتباعد . وبَعِد يبعَد بَعَدًا إذا هلك؛ قال: (١)

لا يَبعَدَنْ قومى الذين هُمُ * سَمُّ العُداة وآفةُ الجُزُرِ

وقال النابغة :

فلا تَبعَدَنْ إنّ المنيةَ مَنْهلٌ * وكلُّ آمرىء يومًا به الحالُ زائلُ

قوله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ .

فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ ﴾ أى أرسلنا إلى ثمود ﴿ أَخَاهُمْ ﴾ أى فى النسب . ﴿ صَالِحًا ﴾. وقرأ يحيى بن وثاب «وَإِلَى ثَمُودٍ» بالتنوين فى كل القرآن؛ وكذلك روى عن الحسن . وآختلف سائر القرّاء فيه فصرفوه فى موضع ولم يصرفوه فى موضع . وزعم أبو عبيدة أنه لولا مخالفة السواد لكان الوجه ترك الصرف؛ إذ كان الأغلب عليه التأنيث . قال النحاس : الذى قال أبو عبيدة ــ رحمه الله ــ من أن الغالب عليه التأنيث كلام مردود؛ لأن ثمودا يقال له حىّ، ويقال له قبيلة، وليس الغالب عليه القبيلة، بل الأمر على ضدّ ما قال عند سيبويه . والأجود عند سيبويه فيما لم يُقل فيه بنو فلان الصّرف، نحو قريش وثقيف وما أشبههما، وكذلك ثمود، والعلة فى ذلك أنه لما كان التذكير الأصل، وكان يقع له مذكر ومؤنث كان الأصل الأخف أولى . والتأنيث جيد بالغ حسن . وأنشد سيبويه فى التأنيث : (٢)

غَلبَ المساميحَ الوليدُ سَماحةً * وكَفَى قريشَ المعضلاتِ وسادَهَا

(١) تقدّم شرح البيت فى هامش ج ٦ ص ١٤ .

(٢) البيت لعدى بن الرقاع يمدح الوليد بن عبد الملك ؛ والشاهد فيه ترك صرف قريش حملا على معنى القبيلة ؛ والصرف فيها أكثر وأعرف لأنهم قصدوا بها قصد الحى، وغلب ذلك عليها . ( شواهد سيبويه ) .

الثـانيـــة ـ قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقـدّم . ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى ابتدأ خلقكم من الأرض ، وذلك أن آدم خلق من الأرض على ما تقدّم فى « البقرة »(١) و « الأنعام »(٢) وهم منه . وقيل : أنشأكم فى الأرض . ولا يجوز إدغام الهاء من « غيره » فى الهـاء من « هو » إلا على لغة من حذف الواو فى الإدراج . ﴿ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أى جعلكم عُمّارها وسكّانها . قال مجاهد : ومعنى « آستعمركم » أعمركم من قوله : أَعْمـر فلان فلانا داره ؛ فهى له عُمْرى . وقال قتَادة : أسكنكم فيها ؛ وعلى هذين القولين تكون آستفعل بمعنى أفعل ؛ مثـل آستجاب بمعنى أجاب . وقال الضّحاك : أطـال أعماركم، وكانت أعمـارهم من ثلثمائة إلى ألف . آبن عباس : أعاشكم فيها . زيد بن أسلم : أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها من بنـاء مساكن، وغرس أشجار . وقيل : المعنى ألهمكم عمارتها من الحرث والغرس وحفر الأنهار وغيرها .

الثـالثـــة ـــ قال آبن العربى: قال بعض علمـاء الشافعية : الاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب؛ قال القاضى أبو بكر : تأتى كلمة استفعل فى لسان العرب على معان : منها؛ آستفعل بمعنى طلب الفعل كقوله : آستحملته أى طلبت منه حملانا؛ وبمعنى آعتقـد ، كقولهم : استسهلت هـذا الأمر آعتقدته سهلا، أو وجدته سهـلا ؛ وآستعظمته أى آعتقدته عظيما ووجدته ؛ ومنه استفعلت بمعنى أصبت، كقولهم : آستجدته أى أصبته جيـدا ؛ ومنهـا بمعنى فَعـل ؛ كقوله : قرّ فى المكان وآستقرّ ؛ وقالوا وقوله : « يستهزئون » « ويستسخرون » منـه؛ فقوله تعـالى : « استعمركم فيها » خلقكم لعمارتها، لا على معنى استجدته وآستسهلته؛ أى أصبته جيدا وسهلا، وهذا يستحيل فى الخالق، فيرجع إلى أنه خلق؛ لأنه الفائدة، وقد يعبر عن الشىء بفائدته مجازا؛ ولا يصح أن يقال إنه طلبٌ من الله تعـالى لعمارتها ، فإن هذا اللفظ لا يجوز فى حقه ، أما أنه يصح أن يقال أنه آستدعى

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عمارتها فإنه جاء بلفظ ٱستفعل، وهو ٱستدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه إذا كان أمرا، وطلب الفعل إذا كان من الأدنى إلى الأعلى [ رغبة ] (١) .

قلت: لم يذكر ٱستفعل بمعنى أفعل، مثل قوله : استوقد بمعنى أوقد، وقد ذكرناه (٢)؛ وهي :

الرابعة (٣) — ويكون فيها دليل على الإسكان والعمرى وقد مضى القول في « البقرة » في السُّكنى والرُّقبى. وأما العُمْرى فاختلف العلماء فيها على ثلاثة أقوال : أحدها — أنها تمليك لمنافع الرقبة حياةَ المُعْمَر مدة عمره؛ فإن لم يذكر عقبا فمات المعمَر رجعت إلى الذى أعطاها أو لورثته؛ هذا قول القاسم بن محمد و يزيد بن قُسيط والليث بن سعد، وهو مشهور مذهب مالك، وأحد أقوال الشافعي ، وقد تقدّم في «البقرة» حجة هذا القول . الثاني — أنها تمليك الرقبة ومنافعها وهي هبة مبتولة (٤)؛ وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأصحابهما والثّوري والحسن بن حيّ وأحمد ابن حَنْبل وٱبن شُبْرمة وأبي عُبيد؛ قالوا : من أعمر رجلا شيئا حياته فهو له حياته، وبعد وفاته لورثته ؛ لأنه قد ملك رقبتها، وشرط المعطي الحياة والعمر باطل؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العمرى جائزة " و " العمرى لمن وُهبت له " . الثالث — إن قال عُمرك ولم يذكر العقب كان كالقول الأوّل ؛ وإن قال لعقبك كان كالقول الثاني ؛ وبه قال الزهريّ وأبو ثور وأبو سلَمة بن عبد الرحمن وابن أبي ذئب ، وقد روى عن مالك ؛ وهو ظاهر قوله في الموطأ . والمعروف عنه وعن أصحابه أنها ترجع إلى المُعْمِر ؛ إذا انقرض عقب المُعْمَر ؛ إن كان المُعْمِر حيّا ، وإلا فإلى من كان حيّا من ورثته ، وأولى الناس بميراثه . ولا يملك المُعْمَر بلفظ العمرى عند مالك وأصحابه رقبة شيء من الأشياء، وإنما يملك بلفظ العُمْرى المنفعة دون الرقبة . وقد قال مالك في الحبس أيضا : إذا حبس على رجل وعقبه أنه لا يرجع إليه . وإن حبس على رجل بعينه حياته رجع إليه، وكذلك العُمْرى قياسا، وهو ظاهر الموطأ. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله

---

(١) الزيادة عن ابن العربي . (٢) راجع جـ ١ ص ٢١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) مبتولة : ماضية غير راجعة إلى الواهب .

عليه وسلم قال : " أيّمـا رجلٍ أُعْمِر رجلًا عُمْرى له ولعقبه فقال قد أعطيتُكها وعقبَك ما بقى منكم أحد فإنها لمن أعطيها وأنها لا ترجع إلى صاحبهـا من أجل أنه أعطى عطاء وقعت فيـه المواريث " . وعنه قال : إن العمرى التى أجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : هى لك ولعقبك، فأما إذا قال : هى لك ما عِشتَ فإنها ترجع إلى صاحبها ؛ قال مَعْمَر : وبذلك كان الزّهرى يفتى .

قلت : معنى القرآن يجرى مع أهل القول الثانى ؛ لأن الله سبحانه قال : « وآستعمركم » بمعنى أعمركم ؛ فأعمر الرجل الصالح فيها مدة حياته بالعمل الصالح ، وبعد موته بالذكر الجميل والثنـاء الحسن؛ وبالعكس الرجل الفاجر؛ فالدنيـا ظرف لها حياة وموتا . وقد يقال : إن الثناء الحسن يجرى مجرى العقِب . وفى التنزيل : « وآجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ » أى ثناء حسنا . وقيل : هو محمد صلى الله عليه وسلم . وقال : «وجعلنا ذريته هم الباقين» وقال : «وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ» .

الخامسـة — قوله تعالى : ﴿ فَآسْتَغْفِرُوهُ ﴾ أى سلوه المغفرة من عبادة الأصنام . ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ أى آرجعوا إلى عبادته . ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ أى قريب الإجابة لمن دعاه . وقد مضى فى « البقرة » عند قوله : « فإنى قريب أُجيب »[1] القولُ فيه .

قوله تعـالى : قَالُوا يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّـا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَـا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَـةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَـذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية .

بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ﴾ أى كنا نرجو أن تكون فينا سيّدا قبل هذا ؛ أى قبل دعوتك النبوّة . وقيل كان صالح يعيب آلهتهم و يشنؤها، وكانوا يرجون رجوعه إلى دينهم، فلما دعاهم إلى الله قالوا : انقطع رجاؤنا منك . ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ استفهام معناه الإنكار . ﴿ أَنْ نَعْبُدَ ﴾ أى عن أن نعبد . ﴿ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ فأن فى محل نصب بإسقاط حرف الجر . ﴿ وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ ﴾ وفى سورة « إبراهيم » « وإنّا » والأصل وإنّنا، فاستثقل ثلاث نونات فأسقط الثالثة . ﴿ مِمَّا تَدْعُونَا ﴾ الخطاب لصالح . وفى سورة « إبراهيم » « تدعوننا » لأن الخطاب للرسل . ﴿ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ من أربته فأنا أريبه إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة . قال الهذلىّ (١) :

كنتُ إذا أتوتُه من غَيْبِ * يَشُمُّ عِطْفِى ويَبُزُّ ثوبِى (٢)

* كأنّما أربتُه بِرَيْبِ *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ تقدّم معناه فى قول نوح . ﴿ فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ استفهام معناه النفى؛ أى لا ينصرنى منه إن عصيته أحد . ﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ أى تضليل و إبعاد من الخير؛ قاله الفرّاء .

---

(١) هو خالد بن زهير الهذلىّ كما فى اللسان؛ وصدر البيت الأوّل :

* يا قوم مالى وأبا ذؤيب *

(٢) (يبز ثوبى) : يجذبه إليه .

والتخسير لهم لا له صلى الله عليه وسلم؛ كأنه قال : غير تخسير لكم لا لى . وقيل : المعنى ما تزيدوننى باحتجاجكم بدين آبائكم غير بصيرة بخسارتكم؛ عن ٱبن عباس .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ لَكُمْ آيَةً ﴾ نصب على الحال ، والعامل معنى الإشارة أو التنبيه فى «هذه» . و إنما قيل ناقة الله؛ لأنه أخرجها لهم من جبل — على ما طلبوا — على أنهم يؤمنون . وقيل : أخرجها من صخرة صماء منفردة فى ناحية الحِجْـر يقال لها الكاثبة، فلما خرجت الناقة — على ما طلبوا — قال لهم صالح : «هذه ناقة الله لكم آية» . ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ ﴾ أمر وجوابه ؛ وحذفت النون من « فذروها » لأنه أمر . ولا يقال وذِرَ ولا وَاذِرٌ إلا شاذّ . وللنحويين فيه قولان ؛ قال سيبويه : استغنوا عنه بتَرَكَ . وقال غيره : لمـا كانت الواو ثقيلة وكان فى الكلام فِعل بمعناه لا واو فيه ألغوه ؛ قال أبو إسحٰق الزجاج : ويجوز رفع « تأكل » على الحـال والاستئناف . ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا ﴾ جزم بالنهى . ﴿ بِسُوءٍ ﴾ قال الفرّاء : بعَقْر . ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ جواب النهى . ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ أى قريب من عَقْرِها .

قوله تعـالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ إنمـا عقرها بعضهم ؛ وأضيف إلى الكل لأنه كان برضا البـاقين . وقد تقدّم الكلام فى عقرها فى « الأعراف »(1) ويأتى أيضا . ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُوا ﴾ أى قال لهم صالح تمتعوا ؛ أى بنعم الله عز وجل قبـل العذاب . ﴿ فِي دَارِكُمْ ﴾ أى فى بلدكم، ولو أراد المنزل لقال فى دوركم . وقيل : أى يتمتع كل واحد منكم فى داره ومسكنه؛ كقوله : « يخرجكم طفلا » أى كل واحد طفلا . وعبر عن التمتع بالحياة لأن الميت لا يتلذذ ولا يتمتع بشىء؛ فعقرت يوم الأربعاء ، فأقاموا يوم الخميس والجمعـة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد . وإنما أقاموا ثلاثة أيام؛ لأن الفصيل رغا ثلاثا على ما تقدّم فى « الأعراف » فاصفرّت ألوانهـم فى اليوم الأول، ثم ٱحمـرّت فى الثانى ، ثم ٱسودّت فى الثالث، وهلكوا فى الرابع؛ وقد تقدّم فى « الأعراف » .

---

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الثـانيـــة — استدل علماؤنا بإرجاء الله العذاب عن قوم صالح ثلاثة أيام على أن المسافر إذا لم يُجمِع على إقامة أربع ليال قَصَر؛ لأن الثلاثة الأيام خارجة عن حكم الإقامة. وقد تقدم في « النساء » (1) ما للعلمـاء في هذا .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ أي غير كذب . وقيل : غير مكذوب فيه .

قوله تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا . ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ تقدّم . ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ أي ونجينـاهم من خزى يومئـذ ؛ أي من فضيحته وذلّته . وقيل : الواو زائدة ؛ أي نجيناهم من خزى يومئـذ . ولا يجوز زيادتها عند سيبويه وأهـل البصرة، وعند الكوفيين يجوز زيادتها مع « لمـا » و « حتى » لا غير . وقرأ نافع والكسائى « يَوْمَئِـذٍ » بالنصب . الباقون بالكسر على إضافة « يوم » إلى « إذ » . وقال أبو حاتم : حدّثنـا أبو زيد عن أبى عمـرو أنه قرأ « ومن خِزى يومِئِذٍ » أدغم الياء فى الياء، وأضاف، وكسر الميم فى « يومئـذ » . قال النحاس : الذى يرويه النحويون — مثـل سيبويه ومن قاربه عن أبى عمرو فى مثل هذا — الإخفـاء؛ فأما الإدغام فلا يجوز ، لأنه يلتقى ساكنان، ولا يجوز ، كسر الزاى .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ ﴾ أى فى اليوم الرابع صِـيح بهم فماتوا ؛ وذَكَّر لأن الصّيحة والصِّياح واحد . قيـل : صيحة جبريل . وقيل : صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء فى الأرض، فتقطعت قلوبهـم وماتوا . وقال هنا : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » وقال فى « الأعراف » « فأخذتهم الرجفة » وقد تقدم بيانه هناك (2) . وفى التفسير : أنهم لمـا أيقنوا بالعذاب قال بعضهم لبعض ما مقامكم أن يأتيكم الأمر بغتـة ؟ ! قالوا : فمـا نصنع ؟ فأخذوا سيوفهم ورماحهم وعُدَدهم، وكانوا فيما يقال اثنى عشر ألف قبيـلة، فى كل قبيـلة اثنا عشر ألف مقاتل ، فوقفوا على الطرق والفِجاج ، زعموا يلاقون العـذاب؛ فأوحى الله تعـالى إلى المَلَك الموكل بالشمس أن يعـذبهم بحرّها،

(1) راجع جـ ٥ ص ٣٥٧ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

فأدناها من رءوسهم فاشتوت أيديهم، وتدلت ألسنتهم على صدورهم من العطش، ومات كل ما كان معهم من البهائم . وجعل الماء يتفوّر من تلك العيون من غليانه حتى يبلغ السماء، لا يسقط على شيء إلا أهلكه من شدّة حره ، فما زالوا كذلك، وأوحى الله إلى ملك الموت ألا يقبض أرواحهم تعذيبا لهم إلى أن غربت الشمس ؛ فصيح بهم فأهلكوا . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أى ساقطين على وجوههم، قد لصقوا بالتراب كالطير إذا جثمت . ﴿ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ (٧١)

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ﴾ هـذه قصة لوط عليه السلام، وهو ٱبن عم إبراهيم عليه السلام لحًّا[(١)] ، وكانت قرى لوط بنواحى الشام ، و إبراهيم ببلاد فلسطين، فلما أنزل الله الملائكة بعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم ونزلوا عنده، وكان كل من نزل عنده يحسن قِراه ، وكانوا مروا ببشارة إبراهيم، فظنهم أضيافا . وهم جبريل وميكائيل و إسرافيل عليهم السلام ؛ قاله ٱبن عباس . الضّحاك : كانوا تسعة . السّدى : أحد عشر مَلكا على صورة الغلمان الحسان الوجوه، ذوو وضاءة وجمال بارع . ﴿ بِالْبُشْرَى ﴾ قيل : بالولد . وقيل : بإهلاك قوم لوط . وقيل : بشروه بأنهم رسل الله عز وجل ، وأنه لا خوف عليه . ﴿ قَالُوا سَلَامًا ﴾ نصب بوقوع الفعل عليه؛ كما تقول : قالوا خيرا . وهذا ٱختيار الطّبرى . وأما قوله : « سيقولون ثلاثةٌ » فالثلاثة ٱسم غير مقول . ولو رفعا جميعا

(١) أى لازق النسب منه .

أو نصبا جميعــا « قالوا سلاما قال سلاما » جاز في العربية . وقيل : آنتصب على المصدر .
وقيل : «قالوا سلاما» أي فاتحوه بصواب من القول . كما قال : « وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما » أي صوابا؛ فسلاما معنى قولهم لا لفظه؛ قال معناه آبن العربي وآختاره .
قال : ألا ترى أن الله تعالى لمــا أراد ذكر اللفظ قاله بعينه فقال مخبرا عن الملائكة : « سلام
عليكم بما صبرتم » « سلام عليكم طِبتم » . وقيل : دَعَوا له؛ والمعنى سَلِمتَ سَلاماً . ﴿ قال
سلام ﴾ في رفعه وجهان : أحدهمــا — على إضمــار مبتدأ أي هو سلام ، وأمري سلام .
والآخر بمعنى سلام عليكم إذا جعل بمعنى التحية؛ فأضمر الخبر . وجاز سلام على التنكير لكثرة
اســتعماله ، فحـــذف الألف واللام كما حذفت من لا هُمّ في قولك اللهم . وقرئ « سِلْمٌ » قال
الفرّاء : السّلم والسّلام بمعنى؛ مثل الحِلّ والحلال .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ فيه أربع عشرة مسئلة[1] :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ ﴾ « أن » بمعنى حــتى ، قاله كبراء
النحويين ؛ حكاه آبن العربي . التقدير : فمــا لبث حتى جاء . وقيل : « أن » في موضع
نصب بسقوط حرف الجر؛ التقدير : فمــا لبث عن أن جاء ؛ أي ما أبطأ عن مجيئه بعجل ؛
فلمــا حذف حرف الجــر بقي « أن » في محل النصب . وفي « لبث » ضمير آسم إبراهيم .
و « ما » نافية ؛ قاله سيبويه . وقال الفراء : فما لبث مجيئه ؛ أي ما أبطأ مجيئه ؛ فأن
في موضع رفع ، ولا ضمير في « لبث » ، و « ما » نافية؛ ويصح أن تكون « ما » بمعنى الذي ،
وفي « لبث » ضمير إبراهيم و « أن جاء » خبر « ما » أي فالذي لبث إبراهيم هو مجيئه بعجل
حنيذ . و « حنيــذ » مشويّ . وقيــل : هو المشوي بحرّ الحجارة من غير أن تمسه النــار .
يقال : حنذت الشاة أحنِذها حنذا أي شويتها ، وجعلت فوقها حجارة مُحْمَاة لتنضجها فهي
حنيذ . وحَنَذت الفرس أحنِذه حَنْذا ، وهــو أن تُحضره شوطا أو شوطين ثم تُظاهِر عليه
الجلال في الشمس ليعــرَق ، فهو محنوذ وحنيذ ؛ فإن لم يعرق قيل كَبَا . وحَنَذٌ موضع قريب

(١) كذا في الأصل والمسائل المذكورة هي في آية ٧٠ و ٧١ أيضا لا في هذه الآية فحسب .

من المدينـة[1] . وقيل : الحنيذ السَّميط . ابن عبـاس وغيره : حنيذ نضيج . وحنيذ بمعنى محنوذ؛ وإنمـا جاء بعجل لأن البقر كانت أكثر أمواله .

الثانيـــة ـــ فى هـذه الآية من أدب الضّيف أن يُعجّل قِراه ، فيقدّم الموجود الميسّر فى الحـال، ثم يتبعه بغـيره إن كان له جِدَة ، ولا يتكلف ما يضرّ به . والضّيافة من مكارم الأخلاق ، ومن آداب الإسلام ، ومن خلق النبيّين والصالحين . وإبراهيم أوّل من أضاف على ما تقدّم فى « البقرة »[2] وليست بواجبة عند عامة أهل العلم ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الضّيافة ثلاثة أيام وجائزته يوم وليلة فمـا كان وراء ذلك فهو صدقة " . والجـائزة العطية والصلة التى أصلها على النّدب . وقال صلى الله عليه وسلم : " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه " . وإكرام الجار ليس بواجب إجماعا ، فالضيافة مثله . والله أعلم . وذهب الليث إلى وجوبها تمسكا بقوله صلى الله عليـه وسلم : " ليـلة الضّيف حقّ " إلى غير ذلك من الأحاديث . وفيما أشرنا إليـه كفاية ، والله الموفق للهداية . قال ابن العربىّ : وقد قال قوم : إن وجوب الضِّيافة كان فى صـدر الإسلام ثم نسخ ، وهـذا ضعيف؛ فإن الوجوب لم يثبت ، والناسخ لم يرد ؛ وذكر حديث أبى سعيد الخـدرىّ خرجه الأئمة ، وفيه : « فاستضفناهم فأبوا أن يُضيِّفونا فلُدِغ سيّد ذلك الحىّ» الحديث . وقال هذا ظاهر فى أن الضيافة لو كانت حقا لَلامَ النبىّ صلى الله عليه وسلم القوم الذين أبَوا ، ولَبيّن لهم ذلك .

الثالثـــة ـــ اختلف العلماء فيمن يخاطب بها ؛ فذهب الشافعى ومحمد بن عبد الحكم إلى أن المخاطب بها أهل الحضر والبادية . وقال مالك : ليس على أهل الحضر ضيافة . قال سُحْنون : إنمـا الضّيافة على أهل القُرى ، وأما الحضر فالفُنْـدق ينزل فيه المسافر . واحتجوا بحديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الضّيافة على أهل الوَبَر وليست على أهل المَدَر" . وهذا حديث لا يصح، وإبراهيم ابن أخى عبد الرزاق متروك الحديث منسوب

---

(١) وحنذ موضع قريب من مكة أيضا . (٢) راجع جـ ٢ ص ٩٨ طبعة ثانية .

إلى الكذب ، وهذا مما انفرد به ، ونسب إلى وضعه ؛ قاله أبو عمر بن عبـد البر . قال ابن العربي : الضيافة حقيقة فرض على الكفاية ، ومن الناس من قال : إنها واجبة في القرى حيث لا طعام ولا مأوى ، بخلاف الحواضر فإنها مشحونة بالمأواة والأقوات ؛ ولا شك أن الضيف كريم ، والضيافة كرامة ؛ فإن كان غريبا فهي فريضة .

الرابعـــة — قال ابن العربي قال بعض علمائنا : كانت ضيافة إبراهيم قليلة فشكرها الحبيب من الحبيب ، وهـذا حكم بالظن في موضع القطع ، وبالقياس في موضع النقل ؛ من أين علم أنه قليل ؟ ! بل قد نقل المفسرون أن الملائكة كانوا ثلاثة ؛ جبريل وميكائيـل و إسرافيل صلى الله عليهم وسلم ؛ وعجل الثلاثة عظيم ؛ فما هـذا التفسير لكتاب الله بالرأي ؟ ! هذا بأمانة الله هو التفسير المذموم فاجتنبوه فقد علمتموه .

الخامســـة — السنة إذا قُدِّم للضيف الطعام أن يبادر المقدَّم إليه بالأكل ؛ فإن كرامة الضيف تعجيل التقديم ، وكرامة صاحب المنزل المبادرة بالقبول ؛ فلما قبضوا أيديهم نكرهم إبراهيم ؛ لأنهم خرجوا عن العادة ، وخالفوا السنة ، وخاف أن يكون وراءهم مكروه يقصدونه . وروى أنهم كانوا يَنكُتون بقِداح (1) كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل أيديهم إلى اللحم ، فلما رأى ذلك منهم " نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً " أي أضمر . وقيـل : أحس ؛ والوجوس الدخول ؛ قال الشاعر :

جاء البـــريدُ بقرطاسٍ يَخُبُّ بهِ * فأوجسَ القلبُ من قرطاسه جَزَعَا

«خيفة» خوفا ؛ أي فزعا . وكانوا إذا رأوا الضيف لا يأكل ظنوا به شرا ؛ فقالت الملائكة ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

السادســـة — من أدب الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر في ضيفه هل يأكل أم لا ؟ وذلك ينبغي أن يكون بتلفت ومسارقة لا بتحديد النظر . روى أن أعرابيا أكل مع

(1) قداح (جمع قدح بالكسر) : السهم قبل أن ينصل ويراش .

سليمان بن عبد الملك ، فرأى سليمان فى لقمة الأعرابى شعرة فقال له : أزل الشعرة عن لقمتك ؛ فقال له : أتنظر إلىّ نظر من يرى الشّعرة فى لقمتى ؟! والله لا أكلت معك .

قلت : وقد ذُكر أن هذه الحكاية إنما كانت مع هشام بن عبد الملك لا مع سليمان ، وأن الأعرابى خرج من عنده وهو يقول :

ولَلْـموتُ خيرٌ من [ زيارة ][1] باخل * يُلاحظُ أطرافَ الأَكِيل على عَمْد

السابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ﴾ يقول أنكرهم ؛ تقول : نَكِرتك وأنكرتك واستنكرتك إذا وجدته على غير ما عهدته ؛ قال الشاعر[2] :

وأَنكرتني وما كان الذى نَكِرتْ * من الحوادث إلا الشَّيبَ والصَّلَعَا

فجمع بين اللغتين . ويقال : نكِرت لمـا تراه بعينك . وأنكرت لمـا تراه بقلبك .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ ﴾ ابتداء وخبر، أى قائمة بحيث ترى الملائكة . قيـل : كانت من وراء الستـر . وقيـل : كانت تخدم الملائكة وهو جالس . وقال محمد بن إسحٰق : قائمة تصلى . وفى قراءة عبد الله بن مسعود « وٱمرأته قائمة وهو قاعد » .

التاســـعة — قوله تعالى : ﴿ فَضَحِكَتْ ﴾ قال مجاهد وعِكرمة : حاضت ، وكانت آيسة ؛ تحقيقا للبشارة ؛ وأنشد على ذلك اللغويون :

وإنى لآتى العِرسَ عند طُهورها * وأهجـرُها يومًا إذا تَكُ ضاحكَا

وقال آخـــر :

وضِحْـــكُ الأرانبِ فوق الصَّفَا * كمثلِ دمِ الجـــوفِ يوم اللِّقَا

والعرب تقـول : ضحكت الأرنب إذا حاضت ؛ وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعِكرمة ؛ أخذ من قولهم : ضحكت الكافورة — وهى قشرة الطلعة — إذا انشقّت . وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون فى كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت . وقال الجمهـور : هو الضحك المعروف ، واختلفوا فيه ؛ فقيل : هو ضحك التعجّب ؛ قال أبو ذؤيب :

---

(١) كذا فى العقد الفريد ، وفى الأصول ( بسارة ) . (٢) البيت للأعشى .

فجـاءَ بمزجٍ لم يَرَ الناسُ مثـلَه * هو الضَّحْكُ[1] إلا أنه عملُ النَّحْلِ

وقال مقاتل : ضحكت من خوف إبراهيم ، ورعدته من ثلاثة نفر ، وإبراهيم فى حشمه وخدمه ؛ وكان إبراهيم يقـوم وحده بمـائة رجل . قال : وليس الضحك الحيض فى اللغـة بمستقيم . وأنكر أبو عبيد والفراء ذلك ؛ قال الفراء : لم أسمعه من ثقة ؛ وإنمـا هو كناية . وروى أن الملائكة مسحت العجل ، فقام من موضعه فلحق بأمه ، فضحكت سارة عنـد ذلك فبشّروها بإسحق . ويقال : كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يكرم أضيافه أقام سارة تخدمهم ، فذلك قوله : « وٱمرأته قائمة » أى قائمة فى خدمتهم . ويقال : « قائمة » لروع إبراهيم « فضحكت » لقـولهم : « لا تخف » سرورا بالأمن . وقال الفراء : فيه تقـديم وتأخير ؛ المعنى : فبشرناها بإسحق فضحكت ؛ أى ضحكت سرورا بالولد ، وقد هرِمت ؛ والله أعلم أىّ ذلك كان . قال النحاس فيه أقوال : أحسنها — أنهم لمـا لم يأكلوا أنكرهم وخافهم ؛ فلمـا قالوا لاتخف ، وأخبروه أنهم رُسُل ، فرح بذلك ، فضحكت ٱمرأته سرورا بفرحه . وقيل : إنها كانت قالت له : أحسب أن هؤلاء القوم سـينزل بهم عذاب فضم لوطا إليك ، فلما جاءت الرسـل بما قالته سرّت به فضحكت ؛ قال النحاس : وهـذا إن صح إسناده فهو حسن . والضحك ٱنكشاف الأسنان . ويجوز أن يكون الضحك إشراق الوجه ؛ تقول : رأيت فلانا ضاحكا ؛ أى مشرقا ، وأتيت على رَوْضة تضحك ؛ أى مشرقة . وفى الحديث " إن الله يبعث السّحاب فيضحك أحسنَ الضَّحِك " . جعل ٱنجلاءه عن البرق ضَحِكا ؛ وهذا كلام مستعار . وروى عن رجل من قرّاء مكة يقال له محمد بن زياد الأعرابى «فضَحَكت» بفتح الحاء ؛ قال المهدوى : وفتح «الحاء» من «فضحكت» غير معروف . وضَحِك يَضحَك ضَحْكا وضِحْكا وضِحِكا [وضَحِكا][1] أربع لغات . والضَّحْكة المرّة الواحدة ، ومنه قول كُثيّر :

* غَلِقت لضَحْكته رقابُ المـالِ *[2]

قاله الجوهرى :

---

(١) وفسر الضحك هنا بالعسل أو الشهد . راجع اللسان مادة (ضحك) .　　(١) الزيادة عن كتب اللغة .

(٢) صدر البيت :　　* غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا *

العـاشرة — روى مسلم عن سهل بن سعد قال : دعا أبو أُسَيد الساعدىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عُرْسه، فكانت آمرأته يومئذ خادمهم وهى العَروس . قال سهل : أتدرون ما سقت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أنقعت له تمراتٍ من الليل فى تَوْر(١)، فلما أكل سقته إياه . وأخرجه البخارىّ وترجم له « باب قيام المرأة على الرجال فى العُرْس وخدمتهم بالنفس » . قال علماؤنا : فيه جواز خدمة العَروس زوجها وأصحابه فى عُرْسها . وفيه أنه لا بأس أن يعرض الرجل أهله على صالح إخوانه، ويستخدمهنّ لهم . ويحتمل أن يكون هذا قبل نزول الحجاب . والله أعلم .

الحادية عشرة — ذكر الطبرىّ أن إبراهيم عليه السلام لما قدّم العجل قالوا: لا نأكل طعاما إلا بثمن؛ فقال لهم : « ثمنه أن تذكروا الله فى أوله وتحمدوه فى آخره » فقال جبريل لأصحابه : بحقٍّ آتخذ الله هذا خليلا . قال علماؤنا : ولم يأكلوا لأنّ الملائكة لا تأكل . وقد كان من الجائزكما يَسَّر الله للملائكة أن يتشكّلوا فى صفة الآدمى جسدا وهيئة أن ييسّر لهم أكل الطعام؛ إلا أنه فى قول العلماء أرسلهم فى صفة الآدمى وتكلّف إبراهيم عليه السلام الضيافة [حتى إذا رأى التوقف وخاف جاءته البشرى فَجْأَة](٢) .

الثانيـة عشرة — ودلّ هذا على أن التسمية فى أول الطعام، والحمد فى آخره مشروع فى الأمم قبلنا؛ وقد جاء فى الإسرائيليات أن إبرهيم عليه السلام كان لا يأكل وحده؛ فإذا حضر طعامه أرسل يطلب من يأكل معه، فلقى يوما رجلا، فلما جلس معه على الطعام، قال له إبراهيم : سمّ آلله، قال الرجل لا أدرى ما آلله؟ فقال له : فاخرج عن طعامى. فلما خرج نزل إليه جبريل فقال له يقول الله : إنه يرزقه على كفره مدى عمره وأنت بخلت عليه بلقمة؛ فخرج إبراهيم فزعا يجرّ رداءه ، وقال : آرجع، فقال : لا أرجع حتى تخبرنى لم تردّنى لغير معنى ؟ فأخبره بالأمر؛ فقال : هذا رب كريم، آمنت؛ ودخل وسمّى الله وأكل مؤمنا .

---

(١) التور : إناء تشرب فيه العرب، وقد يتوضأ منه؛ ويصنع من صفر أو حجارة .

(٢) الزيادة عن ابن العربى .

الثـالثـة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ ﴾ لما ولد لإبراهيم إسمعيل من هاجر تمنّت سارّة أن يكون لها ابن، وأيست لكبر سنّها، فبشرت بولد يكون نبيا و يلد نبيا ، فكان هذا بشارة لها بأن ترى ولد ولدها .

الرابعـــة عشرة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴾ قرأ حمزة وعبد الله بن عامر « يعقوبَ » بالنصب . ورفع الباقون ؛ فالرفع على معنى : ويحدث لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالفعل الذى يعمل فى « من » كأن المعنى : وثبت لها من وراء إسحق يعقوبُ . ويجوز أن يرتفع بالابتـداء، ويكون فى موضع الحال؛ أى بشّروها بإسحق مقابلا له يعقوب . والنصب على معنى : ووهبنا لها من وراء إسحق يعقوبَ . وأجاز الكسائى والأخفش وأبو حاتم أن يكون «يعقوب» فى موضع جرّ على معنى : وبشرناها من وراء إسحق بيعقوب . قال الفرّاء : ولا يجوز الخفض إلا بإعادة الحرف الخافض؛ قال سيبويه ولوقلت : مررت بزيد أوّل من أمس وأمس عمرٍو (1) كان قبيحا ؛ لأنك فرقت بين المجـرور وما يشركه وهو الواو، كما تفـرق بين الجار والمجرور ؛ لأن الجارّ لا يفصل بينه وبين المجرور، ولا بينه وبين الواو .

قوله تعـالى : قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَا وَيْلَتَا ﴾ قال الزجاج : أصلها يا ويلتى؛ فأبدل من الياء ألف، لأنها أخفّ من الياء والكسرة؛ ولم ترد الدعاء على نفسها بالويل، ولكنها كلمة تخفّ على أفواه النساء إذا طرأ عليهنّ ما يعجبن منه؛ وعجبت من ولادتها وكون بعلها شيخا لخروجه عن العادة ، وما خرج عن العادة مستغرب ومستنكر . و﴿ أَأَلِدُ ﴾ آستفهام معناه التعجب . ﴿ وَأَنَا عَجُوزٌ ﴾ أى شيخة . ولقد عَجَزت تَعجِزُ عَجْزا وعَجَّزت تعجيزا؛ أى طعنت فى السنّ .

(1) والوجه عنده (وأمس بعمرو) .

وقد يقال : عجوزة أيضا . وعجِزت المرأة بكسر الجيم، عظمت عجيزتها عُجْزا وعَجَزا بضم العين وفتحها . قال مجاهد : كانت بنت تسع وتسعين سنة . وقال ابن إسحق : كانت بنت تسعين . وقيل غير هذا .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَهَذَا بَعْلِي ﴾ أى زوجى . ﴿ شَيْخًا ﴾ نصب على الحال ، والعامل فيه التنبيه أو الأشارة . « وهـذا بعلى » ٱبتداء وخبر . وقال الأخفش : وفى قراءة ٱبن مسعود وأبىّ « وهذا بعلى شيخ » قال النحاس : كما تقول هذا زيد قائم؛ فزيد بدل من هذا ، وقائم خبر الابتداء . ويجوز أن يكون « هذا » مبتدأ « وزيد قائم » خبرين؛ وحكى سيبويه : هذا حلوٌ حامضٌ . وقيل : كان إبراهيم ٱبن مائة وعشرين سنة . وقيل : ٱبن مائة؛ فكان يزيد عليها فى قول مجاهد سنة . وقيل : إنها عرّضت بقولها : « وهذا بعلى شيخا » أى عن ترك غِشْيانه لها . وسارة هذه ٱمرأة إبراهيم بنت هاران بن ناحور بن شاروع بن أرغو بن فالغ، وهى بنت عمّ إبراهيم . ﴿ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ أى الذى بشرتمونى به لشيء عجيب .

قوله تعـالى : قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ لمـا قالت : « وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا » وتعجبت أنكرت الملائكة عليها تعجّبها من أمر الله ، أى من قضائه وقـدره ؛ أى لا عجب من أن يرزقكما الله الولد، وهو إسحق . وبهذه الآية ٱستدلّ كثير من العلماء على أن الذّبيح إسمعيل ، وأنه أسنّ من إسحق ؛ لأنهـا بشّرت بأن إسحق يعيش حتى يولد له يعقوب . وسيأتى الكلام فى هذا ؛ وبيانه فى « الصّافّات »[1] إن شاء الله تعالى .

(١) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معــه السعى » آية ١٠٢ إلى قوله تعالى : « ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » آية ١١٣ .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ رَحْمَـةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ﴾ مبتدأ ، والخبر ﴿ عَلَيْكُمْ ﴾ . وحكى سيبويه « عليكِم » بكسر الكاف لمجاورتها الياء . وهل هو خبر أو دعاء؟ وكونه إخبارا أشرف؛ لأن ذلك يقتضى حصول الرحمـة والبركة لهم ؛ المعنى : أوصـل الله لكم رحمته وبركاته أهل البيت . وكونه دعاء إنمـا يقتضى أنه أمر يُترجّى ولم يتحصّل بعد . ونصب « أهل البيت » على الاختصاص؛ وهذا مذهب سيبويه . وقيل على النداء .

الثالثـــة — هذه الآية تعطى أن زوجة الرجل من أهل البيت؛ فدل هذا على أن أزواج الأنبياء من أهل البيت ؛ فعائشة رضى الله عنها وغيرها من جملة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم؛ ممن قال الله فيهم : « وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا » وسيأتى[1] .

الرابعـــة — ودلّت الآية أيضا على أنّ منتهى السلام «وبركاته» كما أخبر الله عن صالحى عباده « رحمـة الله وبركاته عليكم أهل البيت » . والبركة النمو والزيادة؛ ومن تلك البركات أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا فى ولد إبراهيم وسارة . وروى مالك عن وهب بن كَيْسان عن أبى نعيم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال : كنت جالسا عند عبـد الله بن عباس فدخل عليه رجل من أهل اليمن فقال : الســلام عليك ورحمة الله وبركاته ؛ ثم زاد شيئا مع ذلك؛ فقال ابن عباس — وهو يومئذ قد ذهب بصره — مَن هذا ؟ فقالوا اليمانىّ الذى يغشاك؛ فعرّفوه إياه ، فقال : إن السلام انتهى إلى البركة . وروى عن علىّ رضى الله عنه أنه قال : دخلت المسجد فإذا أنا بالنبى صلى الله عليه وسـلم فى عصبة من أصحابه ، فقلت : الســلام عليكم ؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله عشرون لى وعشر لك" . قال : ودخلت الثانية؛ فقلت : السلام عليكم ورحمة الله فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وعشرون لك". فدخلت الثالثـة فقلت : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فقال : "وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ثلاثون لى وثلاثون لك أنا وأنت فى الســلام سواء" . ﴿ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أى محمود ماجد . وقد بيناهما فى « الأسماء » .

---

(١) فى آية ٣٣ من سورة « الأحزاب » .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ﴾ أى الخوف؛ يقال : ٱرتاع من كذا إذا خاف؛ قال النابغة :

فارتاعَ من صَـوْتِ كَلَّابٍ[1] فبـاتَ لهُ * طوعَ الشَّوامِتِ من خوفٍ ومن صَرَدِ

﴿ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى ﴾ أى بإسحق و يعقوب . وقال قَتَادة : بشروه بأنهم إنمـا أتوا بالعذاب إلى قوم لوط، وأنه لا يخاف . ﴿ يُجَادِلُنَا ﴾ أى يجادل رسلنا؛ وأضاف إلى نفسه، لأنهم نزلوا بأمره . وهذه المجادلة رواها حميد بن هلال عن جُنْدب عن حُذَيفة؛ وذلك أنهم لمـا قالوا : « إنا مهلكو أهل هـذه القرية » قال لهم : أرأيتم إن كان فيهـا خمسون مـن المسلمين أتهلكونهم ؟ قالوا : لا . قال : فأربعون؟ قالوا : لا . قال : فثلاثون ؟ قالوا : لا . قال : فعشرون؛ قالوا : لا . قال : فإن كان فيهـا عشرة — أو خمسة شك حميـد — قالوا : لا قال قتادة : نحوا منـه ؛ قال فقال يعنى إبراهيم : قوم ليس فيهـم عشرة من المسلمين لا خير فيهم . وقيل إن إبراهيم قال : أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا . فقال إبراهيم عنـد ذلك : « إنّ فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمـن فيها لننجينه وأهـله إلا آمرأته كانت من الغابرين» . وقال عبد الرحمن بن سَمُرة : كانوا أربعمائة ألف . آبن جريج : وكان فى قرى قوم لوط أربعة آلاف ألف . ومذهب الأخفش والكسائى أنّ «يجادلنا» فى موضع « جادلنا » . قال النحاس : لمـا كان جواب «لمّـا» يجب أن يكون بالمـاضى جعل المستقبل مكانه؛ كما أن الشرط يجب أن يكون بالمستقبل فجعل المـاضى مكانه . وفيه جواب آخر — أن يكون « يجادلنا » فى موضع الحال ؛ أى أقبل يجادلنا؛ وهذا قول الفراء . ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ

(١) الكلاب : صاحب الكلاب . يصف الشاعر ثورا وحشيا بأنه بات من الخوف الذى أدركه ، والبرد الذى أصابه مبيت سوء، ومبيته على ذلك الحال يسر أعداءه .

﴿أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ تقدم في « براءة » معنى « لأواه حليم »(١) . والمنيب الراجع ؛ يقال : أناب إذا رجع . وإبراهيم صلى الله عليه وسلم كان راجعا إلى الله تعالى في أموره كلها . وقيل : الأواه المتأوه أسفا على ما قد فات قوم لوط من الإيمان .

قوله تعالى : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ أي دع عنك الجدال في قوم لوط . ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي عذابه لهم . ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ﴾ أي نازل بهم . ﴿عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ﴾ لما خرجت الملائكة من عند إبراهيم ، وكان بين إبراهيم وقرية لوط أربعة فراسخ بصرت بنتا لوط — وهما تستقيان — بالملائكة

(١) تفسير آية ١١٤ .

ورأتا هيئة حسنة؛ فقالتا: ما شأنكم؟ ومن أين أقبلتم؟ قالوا: من موضع كذا نريد هذه القرية. قالتا: فإن أهلها أصحاب الفواحش؛ فقالوا: أبها من يضيفنا؟ قالتا: نعم! هـذا الشيخ؛ وأشارتا إلى لوط؛ فلما رأى لوط هيئتهم خاف قومه عليهم. ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أى ساءه مجيئهم؛ يقال: ساء يسوء فهو لازم، وساءه يسوءه فهو متعد أيضا، وإن شئت ضممت السين؛ لأن أصلها الضمّ، والأصل سُوِئَ بهم من السّوء؛ قلبت حركة الواو على السين فانقلبت ياء، وإن خففت الهمزة ألقيت حركتها على الياء فقلت: «سِيَ بِهِم» مخففا، ولغة شاذة بالتشديد. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أى ضاق صدره بمجيئهم وكرهه. وقيل: ضاق وسعه وطاقته. وأصله أن يَذْرَع البعيرُ بيديه فى سيره ذَرْعا على قدر سَعة خَطْوِه؛ فإذا حُمِل على أكثر من طوْقه ضاق عن ذلك، وضعف ومدّ عنقـه؛ فضيق الذّرع عبارة عن ضيق الوُسع. وقيل هو من ذَرَعه القىء أى غلبه؛ أى ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه، وإنمـا ضاق ذرعه بهم لمـا رأى من جمالهم، وما يعلم من فسق قومه. وقال: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أى شديد فى الشر. وقال الشـاعر:

وإنّكَ إلّا تُرضِ بكرَ بن وائلٍ * يكنْ لكَ يومٌ بالعراقِ عصيبُ

وقال آخـــر:

يومٌ عصِيبٌ يَعصِبُ الأبطالَا * عَصْبَ القَـوِيِّ السَّلَمَ الطِّوالَا

ويقال: عصِيبٌ وعَصَبْصَبٌ على التكثير؛ أى مكروه مجتمع الشر وقد عصب؛ أى عصب بالشر عِصابة؛ ومنه قيل: عُصبة وعِصابة أى مجتمعو الكلمة؛ أى مجتمعون فى أنفسهم. وعَصَبة الرجل المتجمعون معه فى النسب؛ وتعصّبت لفلان صرت كعصبته، ورجل معصوب، أى مجتمع الخَلْق.

قوله تعـالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ فى موضع الحال. «يُهرعون» أى يسرعون. قال الكسائى والفراء وغيرهما من أهل اللغة: لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعدة؛ يقال: أُهْرِعَ الرجل إهراعا أى أسرع فى رِعدة من بَرْد أو غضب أو حُمّى، وهو مُهرَع؛ قال مُهلهِل:

فجاءوا يُهرَعون وهُــمْ أسارَى * تقودُهــمُ عـلى رَغْـمِ الأنوف

وقال آخـــر :

* بمعجَلاتٍ نحـوه مَهـارِع *

وهــذا مثل : أولِـع فلان بالأمر ، وأُرعِد زيد ، وزُهِي فلان . وتجيء ولا تسـتعمل إلا على هذا الوجه . وقيل : أهرِع أي أهرعه حِرصُه ؛ وعلى هذا « يُهرعون » أي يُستحثّون عليـه . ومن قال بالأول قال : لم يسـمع إلا أهرِع الرجلُ أي أسرع ؛ على لفظ ما لم يسمّ فاعله . قال ٱبن القوطيّـة : هُرِع الإنسـان هَرَعا ، وأُهرِع : سِيق وٱسـتعجِل . وقال الهروىّ يقال : هُرِع الرجلُ وأهرِع أى ٱستُحِثّ . قال ٱبن عباس وقتَادة والسـدّىّ : « يُهرعون » يهرولون . الضّحاك : يَسـعون . ٱبن عُيينة : كأنهـم يدفعون . وقال شِمر بن عطية : هو مشى بين الهرولة والجَمَزى . وقال الحسن : مشيٌ بين مشيين ؛ والمعنى متقارب . وكان سبب إسراعهم ماروى أن ٱمرأة لوط الكافرة ، لمـا رأت الأضياف وجمالهم وهيئتهم ، خرجت حتى أتت مجالس قومها ، فقالت لهم : إن لوطا قد أضاف الليلة فتية ما رؤى مثلهم جمالا ، وكذا وكذا ، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه . ويذكر أن الرسـل لمـا وصلوا إلى بلد لوط وجدوا لوطا فى حرث له . وقيـل : وجدوا ٱبنته تستقى ماء فى نهر سَدوم ؛ فسألوها الدلالة على من يضيفهم ، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط ، وقالت لهم : مكانكم! وذهبت إلى أبيها فأخبرته ؛ فخرج إليهم ؛ فقالوا : نريد أن تضيفنا الليلة ؛ فقال لهم : أوما سمعتم بعمل هؤلاء القوم ؟ فقالوا : وما عملهم ؟ فقال أشهد بالله إنهـم لشر قوم فى الأرض — وقد كان الله عز وجل قال لملائكته لا تعذبوهم حتى يشهد لوط عليهم أربع شهادات — فلما قال لوط هذه المقالة ، قال جبريل لأصحابه : هذه واحدة ، وتردّد القول بينهم حتى كرر لوط الشهادة أربع مرات ، ثم دخل بهم المدينة .

قوله تعالى : ﴿ ومِنْ قَبل ﴾ أى ومن قبل مجيء الرسل . وقيل : من قبل لوط . ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ أى كانت عادتهم إتيان الرجال . فلما جاءوا إلى لوط وقصـدوا أضيافه

قام إليهـم لوط مدافعا ، وقال : ﴿ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي ﴾ ٱبتداء وخبر . وقد اختلف فى قوله : « هؤلاءِ بنـاتِى » فقيل : كان له ثلاث بنات من صُلبه . وقيل : بنتان ؛ رثيا و زعوراء ؛ فقيل : كان لهم سيّدان مطاعان فأراد أن يزوجهما ٱبنتيه . وقيل : ندبهم فى هذه الحالة إلى النكاح ، وكانت سنتهم جواز نكاح الكافر المؤمنة ؛ وقد كان هذا فى أول الإسـلام جائزا ثم نسخ ؛ فزوج رسول الله صـلى الله عليه وسلم بِنتا له من عُتْبَة بن أبى لهب ، والأخرى من أبى العاص بن الربيع قبل الوحى ، وكانا كافرين . وقالت فرقة ــ منهم مجاهد وسعيد بن جُبير ــ أشار بقوله : « بناتِى » إلى النسـاء جملة ؛ إذ نبيّ القوم أب لهم ؛ و يقوّى هذا أن فى قراءة ٱبن مســعود « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم » . وقالت طائفة : إنما كان الكلام مدافعة ولم يرد إمضـاءه ؛ روى هذا القول عن أبى عبيدة ؛ كما يقال لمن ينهى عن أكل مال الغير : الخنزير أحل لك من هـذا . وقال عكرمة : لم يعرض عليهم بناته ولا بنات أمته ، و إنمـا قال لهم هذا لينصرفوا .

قوله تعـالى : ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ ٱبتداء وخبر ؛ أى أزوجكموهن ؛ فهو أطهر لكم مما تريدون ، أى أحلّ . والتطهّر التنزّه عما لا يحل . وقال ٱبن عباس : كان رؤساؤهم خطبوا بناته فلم يجبهم ، وأراد ذلك اليوم أن يفدى أضيافه ببناته . وليس ألِف « أطهر » للتفضيل حتى يتوهم أن فى نكاح [ الرجال[(١)] ] طهارة ، بل هو كقولك : الله أكبر وأعلى وأجل ، و إن لم يكن تفضيلا ؛ وهذا جائز شائع فى كلام العرب ، ولم يكابر الله تعالى أحد حتى يكون الله تعالى أكبر منه . وقد قال أبو سفيان بن حرب يوم أحد : ٱعْلُ هُبَلُ[(٢)] ٱعْلُ هُبَل ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لعمر : " قل الله أعلى وأجلّ " . وهبل لم يكن قط عاليا ولا جليلا . وقرأ العامة برفـع الراء . وقرأ الحســن وعيسى بن عمرو « هُنَّ أطهرَ » بالنصب على الحال . و « هن » عِماد . ولا يجيز الخليل وسيبويه والأخفش أن يكون « هن » هاهنا عمادا ، و إنما يكون عمادا فيما لا يتم الكلام إلا بما بعدها ، نحو كان زيد هو أخاك ، لتدل بها على أن الأخ ليس بنعت .

---

(١) فى الأصل (النساء) وهو تحريف . (٢) أى أظهر دينك .

قال الزّجاج : و يدل بهـا على أن كان تحتاج إلى خبر . وقال غيره : يدل بهـا على أن الخبر معرفة أو ما قاربها .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أى لا تهينونى ولا تذلّونى . ومنه قول حسان :

فأخزاكَ ربى يا عُتيبَ بن مالكٍ * ولَقّاك قبل الموت إحدى الصّواعقِ

مددتَ يمينًا للنبىّ تعمُّدًا * ودَمَّيْتَ فاهُ قُطِّعتْ بالبَوَارق

و يجوز أن يكون من الخَزَاية؛ وهو الحياء ، والخجل ؛ قال ذو الرُّمة :

خَزَايةً[1] أَدركتْهُ بعدَ جَوْلَتِهِ * من جانبِ الحَبْلِ مخلوطًا بها الغضبُ

وقال آخر :

من البيضِ لا تَخزَى إذا الريحُ أَلصقتْ * بها مِرْطَها أو زايلَ الحَلْىُ جِيدَهَا

وضيف يقع للاثنين والجميع على لفظ الواحد؛ لأنه فى الأصل مصدر ؛ قال الشاعر :

لا تَعدمى الدهرَ شِفار الجازرِ * للضَّيفِ والضَّيفُ أحقّ زائر

و يجوز فيه التثنية والجمع؛ والأول أكثر كقولك : رجالٌ صَوْمٍ وفِطر وزَوْرٍ . وخَزِى الرجلُ خَزَايةً ؛ أى آستحيا مثل ذَلّ وهان . وخَزِى خِزْيًا إذا افتضح ؛ يَخْزَى فيهما جميعا . ثم وبخهم بقوله : ﴿ أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ أى شديد يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر. وقيل : « رشيد » أى ذو رَشَد . أو بمعنى راشد أو مرشِد، أى صالح أو مصلح . ابن عباس : مؤمن . أبو مالك : ناه عن المنكر. وقيل : الرشيد بمعنى الرّشَد؛ والرَّشَد والرّشاد الهدى والاستقامة . و يجوز أن يكون بمعنى المرشد؛ كالحكيم بمعنى المحكِم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ روى أن قوم لوط خطبوا بناته فردّهم ، وكانت سنتهم أن من رُدّ فى خِطبة آمرأة لم تحل له أبدا ؛ فذلك قوله تعالى :

---

(١) (خزاية) أى من الخزاية . والحبل هو حبل الرمل . والكلام فى وصف ثور وحشى تطارده الكلاب . وقبله :

حتى إذا دوّمت فى الأرض راجعه * كبر ولو شاء نجى نفسه الهرب

يعنى أن الثور أنف من الهرب فرجع إلى الكلاب .

« قالوا لقد علمتَ ما لنا فِي بناتِك مِن حقٍّ » وبعد ألّا تكون هذه الخاصيّة فوجه الكلام أنه ليس لنا إلى بناتك تعلق، ولا هنّ قصدنا، ولا لنا عادة نطلب ذلك . ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ إشارة إلى الأضياف .

قوله تعـالى : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لمـا رأى استمرارهم فى غيهم، وضعف عنهم، ولم يقدر على دفعهم، تمنى لو وجد عونا على ردهم؛ فقال على جهة التفجع والاستكانة : «لو أن لى بِكم قوة» أى أنصارا وأعوانا . وقال ابن عباس : أراد الولد . و «أنّ» فى موضع رفع بفعل مضمر، تقديره: لو اتفق أو وقع . وهذا يطرد فى « أن » التابعة لـ«لو» . وجوابُ «لو» محذوف؛ أى لرددت أهل الفساد، وحلت بينهم وبين ما يريدون . ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ أى ألجأ وأنضوى . وقرئ « أو آوِيَ » بالنصب عطفا على « قوة » كأنه قال : لو أن لى بكم قوة أو إيواء إلى ركن شديد؛ أى وأن آوى؛ فهو منصوب بإضمار «أن» ومراد لوط بالركن العشيرة، والمنعة بالكثرة . وبلغ به قبيح فعلهم إلى قوله هذا مع علمه بما عند الله تعالى؛ فيروى أن الملائكة وَجدت عليه حين قال هذه الكلمات، وقالوا : إن ركنك لشديد . وفى البخاريّ عن أبى هُريرة أن رسول الله صـلى الله عليه وسلم قال : " يرحم الله لوطا لقـد كان يأوى إلى ركن شديد " الحديث؛ وقـد تقدّم فى « البقرة »[1] . وخرجه الترمذيّ وزاد " ما بعث الله بعده نبيّا إلا فى ثروة من قومه". قال محمد بن عمرو : والثروة الكثرة والمنعة؛ حديث حسن . ويروى أن لوطا عليـه السلام لمـا غلبه قومه ، وهمّوا بكسر البـاب وهو يمسكه ، قالت له الرسل : تنحّ عن الباب ؛ فتنحّى وانفتح الباب ؛ فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، وعَمُوا وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء؛ قال الله تعالى : «ولقد راودوه عن ضـيفه فطمسنا أعينهم»[2] . وقال ابن عباس وأهل التفسير: أغلق لوط بابه والملائكة معه فى الدار، وهو يناظر قومه ويناشدهم من وراء الباب، وهم يعالجون تسوّر الجدار؛ فلما رأت الملائكة مالقى من الجهد والكرب والنّصب بسببهم، قالوا: يالوط إن ركنك لشديد ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود،

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٩٨ طبعة أولى أو ثانية .    (٢) آية ٣٧ من سورة القمر .

وإنا رسل ربك ؛ فافتح الباب ودعنا وإياهم ؛ ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه على ما تقدّم . وقيل : أخذ جبريل قبضة من تراب وأذراها في وجوههم ، فأوصل الله إلى عين من بعد ومن قرب من ذلك التراب فطمس أعينهم ، فلم يعرفوا طريقا ، ولا آهتدوا إلى بيوتهم ، وجعلوا يقولون : النجاء النجاء ! فإن في بيت لوط قوما هم أسحر من على وجه الأرض ، وقد سحرونا فأعموا أبصارنا . وجعلوا يقولون : يالوط كما أنت حتى نصبح فسترى ؛ يتوعدونه .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ لما رأت الملائكة حزنه وآضطرابه ومدافعته عرّفوه بأنفسهم ، فلما علم أنهم رسل مكّن قومه من الدخول ، فأمرّ جبريل عليه السلام يده على أعينهم فعموا ، وعلى أيديهم فجفّت . ﴿ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ أي بمكروه . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ ﴾ قرئ « فآسرِ » بوصل الألف وقطعها ؛ لغتان فصيحتان . قال الله تعالى : « والليلِ إذا يسر » وقال : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى » . وقال النابغة : فجمع بين اللغتين :

أَسْرَتْ[1] عليه من الجوزاء ساريةٌ * تُزجي الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ

وقال آخر :

حَيِّ النَّضيرةَ ربَّةَ الخِدْرِ * أَسْرتْ إليكَ ولم تَكُنْ تَسْرِي

وقد قيل : « فَأَسْرِ » بالقطع إذا سار من أوّل الليل ، وسرى إذا سار من آخره ؛ ولا يقال في النهار إلا سار . وقال لبيد :

إذا المرءُ أَسْرَى ليلةً ظَنَّ أنّهُ * قَضَى عملًا والمرءُ ما عاش عاملُ

وقال عبد الله بن رَوَاحةَ :

عند الصّباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرَى * وتَنْجَلِي عنهم غَيَايَاتُ الكَرَى

﴿ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ قال آبن عبّاس : بطائفة من الليل . الضّحاك : ببقية من الليل . قَتَادة : بعد مضي صدر من الليل . الأخفش : بعد جنح من الليل . آبن الأعرابي : بساعة من الليل . وقيل : بظلمة من الليل . وقيل : بعد هدءٍ من الليل . وقيل : هزيع من

---

(١) ويروى (سرت) . يقول : إن السحابة سرت في الجوزاء ، فلذلك شبهها بالجوزاء .

الليل . وكلها متقاربة؛ وقيل : إنه نصف الليـل ؛ مأخوذ من قطعه نصفين ؛ ومنه قول الشاعر[1] :

ونائحةٍ تَنوحُ بِقطعِ ليـلٍ * على رجلٍ بقارعة الصّعيدِ

فإن قيـل : السُّرى لا يكون إلا بالليل، فـا معنى « بقطع من الليـل » ؟ فالجواب : أنه لو لم يقل : « بقطع من الليل» جاز أن يكون أوّله . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أى لا ينظر وراءه منكم أحد؛ قاله مجـاهد . آبن عباس : لا يتخلف منكم أحد . عليّ بن عيسى : لا يشتغل منكم أحد بما يخلفه من مال أو متاع . ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ بالنصب ؛ وهى القـراءة الواضحة البينـة المعنى ؛ أى فأسر بأهلك إلا آمرأتك . وكذا فى قراءة آبن مسـعود « فأسر بأهلك إلا آمرأتك » فهو آستثناء من الأهل . وعلى هذا لم يخرج بها معه . وقد قال الله عز وجل : « كانت من الغابرين » أى من الباقين . وقرأ أبو عمرو وآبن كثير « إلا آمرأتُك » بالرفع على البدل من « أحد » . وأنكر هـذه القراءة جماعة منهم أبو عبيد؛ وقال : لا يصح ذلك إلا برفع «يلتفت» ويكون نعتا؛ لأن المعنى يصير — إذا أبدلت وجزمت — أن المرأة أبيح لها الآلتفات، وليس المعنى كذلك . قال النحاس : وهذا الحمل من أبى عبيد وغيره على مثل أبى عمرو مع جلالته ومحله من العربية لا يجب أن يكون ؛ والرفع على البدل له معنى صحيح . والتأويل له على ما حكى محمد بن الوليد عن محمد بن يزيد أن يقول الرجل لحاجبه : لا يخرج فلان؛ فلفظ النهى لفلان ومعناه للمخاطب؛ أى لا تدعه يخرج ؛ ومثـله قولك : لا يقم أحد إلا زيد؛ يكون معناه : انههم عن القيام إلا زيدا؛ وكذا النهى للوط ولفظه لغيره؛ كأنه قال : انههم لا يلتفت منهـم أحد إلا آمرأتك . ويجوز أن يكون استثناء من النهى عن الالتفات لأنه كلام تام؛ أى لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك فإنهـا تلتفت وتهلك ، وأن لوطا خرج بها، ونهى من معه ممن أسرى بهـم ألا يلتفت، فلم يلتفت منهم أحد سوى زوجتـه؛ فإنها لمـا سمعت هدّة العذاب التفتت وقالت : واقوماه! فأدركها حجر فقتلها . ﴿ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا ﴾

---

(١) هو مالك آبن كنانة

أى من العذاب . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن ؛ أى فإن الأمر والشأن والقصة . ﴿ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ﴾ لما قالت الملائكة : « إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ » قال لوط : الآن الآن . ٱستعجلهم بالعذاب لغيظه على قومه ؛ فقالوا : ﴿ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ وقرأ عيسى ٱبن عمر « أليس الصُّبُحُ » بضم الباء وهى لغة . ويحتمل أن يكون جعل الصبح ميقاتا لهلاكهم ؛ لأن النفوس فيه أودع ، والناس فيه أجمع . وقال بعض أهل التفسير : إن لوطا خرج بابنتيه ليس معه غيرهما عند طلوع الفجر ، وأن الملائكة قالت له : إن الله قد وكل بهذه القرية ملائكة معهم صوت رعد ، وخطف برق ، وصواعق عظيمة ، وقد ذكرنا لهم أن لوطا سيخرج فلا تؤذوه ؛ وأمارته أنه لا يلتفت ، ولا تلتفت ٱبنتاه فلا يهولنّك ما ترى ؛ فخرج لوط وطوى الله له الأرض فى وقته حتى نجا ووصل إلى إبراهيم .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أى عذابنا . ﴿ جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا ﴾ وذلك أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت قرى قوم لوط ، وهى خمس : سدوم — وهى القرية العظمى — وعامورا ، ودادوما ، وضعوه ، وقتم[(١)] ، فرفعها من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ؛ حتى سمع أهل السماء نهيقَ حمرهم وصياح دِيكتهم ، لم تنكفئ لهم جرّة ، ولم ينكسر لهم إناء ، ثم نكسوا على رءوسهم ، وأتبعهم الله بالحجارة . مقاتل : أهلكت أربعة ، ونجت ضعوه . وقيل : غير هذا ؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴾ دليل على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف[(٢)] » . وفى التفسير : أمطرنا فى العذاب ، ومطرنا فى الرحمة . وأما كلام العرب فيقال : مطرت السماء وأمطرت ؛ حكاه الهروى . واختلف فى « السجيل » فقال النحاس[(٣)] : السجيل الشديد الكثير ؛ وسجيل وسجين اللام والنون أختان . وقال أبو عبيدة : السجيل الشديد الكثير ؛ وأنشد[(٤)] :

* ضَرْباً تَوَاصَى به الأبطالُ سِجِّيناَ *

(١) فى ضبط هذه القرى اختلاف ؛ لذا أهمل ذكرها بعض المفسرين . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى بعض الأصول ، وفى البعض الآخر (البخارى) . (٤) سيأتى البيت بتمامه فى ص ٨٣ .

قال النحاس : وردّ عليه هــذا القول عبد الله بن مسلم وقال : هذا سجين وذلك سجيل فكيف يستشهد به ؟ ! قال النحاس : وهــذا الرد لا يلزم؛ لأن أبا عبيدة ذهب إلى أن اللام تبــدل من النون لقرب إحداهما من الأخرى ؛ وقول أبى عبيدة يردّ من جهة أخرى ؛ وهى أنه لو كان على قوله لكان حجارة سجيلا؛ لأنه لا يقال حجارة من شديد ؛ لأن شديدا نعت . وحكى أبو عبيدة عن الفراء أنه قد يقال لحجارة الأرحاء سجيل . وحكى عنه محمد بن الجهم أن سجيلا طين يطبخ حتى يصير بمنزلة الأرحاء. وقالت طائفة منهم آبن عباس وسعيد بن جبير وابن إسحق : إن سجيلا لفظة غير عربية عُرِّبت، أصلها سَنْج وجِيلْ . و يقال : سَنْك وكِيلْ؛ بالكاف موضع الجيم ، وهما بالفارسية حجر وطين عربتهما العــرب فجعلتهــما اسما واحدا . وقيل : هو من لغة العرب . وقال قتادة وعكرمة : السجيل الطين بدليــل قوله : « لِنرسِل عليهم حِجارة مِن طِين » . وقال الحسن : كان أصل الحجارة طينا فشــدّدت . والسجيل عند العرب كل شديد صُلْب . وقال الضحاك : يعنى الآجرّ . وقال آبن زيد : طين طبخ حتى كان كالآجرّ؛ وعنه أن سجيلا آسم السماء الدنيا؛ ذكره الهروى؛ وحكاه الثعلبى عن أبى العالية؛ وقال آبن عطية : وهذا ضعيف يرده وصفه بـ « مَنضود » . وعن عكرمة أنه بحر معلق فى الهواء بين السماء والأرض منه نزلت الحجارة . وقيل : هى جبال فى السماء، وهى التى أشار الله تعالى إليها بقوله : « وينزّل مِن السماءِ مِن جِبالٍ فِيها مِن بَرَدٍ » . وقيل : هو مما سجّل لهم أى كتب لهم أن يصيبهم؛ فهو فى معنى سِجين؛ قال الله تعالى : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ . كِتَابٌ مَرْقُومٌ » قاله الزجاج وآختاره . وقيــل : هو فِعِّيل من أسجلته أى أرسلته ؛ فكأنها مرسَــلة عليهم . وقيل : هو من أسجلته إذا أعطيتَه؛ فكأنه عذاب أعطوه؛ قال (1) :

مَنْ يُساجِلْنِى يُساجِلْ مَاجِدًا * يَمْـلأُ الدَّلْوَ إلى عَقْدِ الكَرَبْ

---

(1) البيت للفضل بن عبـاس بن عتبة بن أبى لهب . وأصل المساجلة أن يستــقى ساقيــان فيخرج كل واحد منهما فى سجله ( دلوه ) مثل ما يخرج الآخر فأيهما نكل فقد غلب؛ فضربته العرب مثلا للفاخرة . والكرب : الحبــل الذى يشد على الدلو بعد المنين وهو الحبل الأوّل .

وقال أهل المعاني : السجّيل والسجّين الشديد من الحَجَر والضَّرب؛ قال ٱبن مُقْبل :

ورَجْلَةٍ يضربون البَيْضَ ضَاحِيَةً (١) * ضَرْباً تَواصَى بِه الأبطالُ سِجِّيناَ

﴿ مَنْضُودٍ ﴾ قال ٱبن عبـاس : متتابع . وقال قتادة : نُضِـد بعضها فوق بعض . وقال الرّبيع : نُضِد بعضه على بعض حتى صار جسدا واحدا . وقال عكرمة : مصفوف . وقال بعضهم مرصوص ؛ والمعـنى متقارب . يقال : نَضَدت المتاع واللّبِن إذا جعلت بعضه على بعض، فهو منضود ونَضِيد ونَضَدٌ؛ قال :

* ورفّعتْه إلى السِّجْفَين فالنَّضَـدِ *

وقال أبو بكر الهُذَلي : مُعدّ ؛ أي هو مما أعدّه الله لأعدائه الظّلمة . ﴿ مُسَوَّمَةً ﴾ أي معلّمة ، من السِّيما وهي العلامة؛ أي كان عليها أمثال الخواتيم . وقيل : مكتوب على كل حجر ٱسم من رُمي به ، وكانت لاتشا كل حجارة الأرض . وقال الفرّاء : زعموا أنها كانت مخططة بحمرة وسواد في بياض، فذلك تسويمها . وقال كعب : كانت معلمة ببياض وحمرة، وقال الشاعر(٢) :

غلامٌ رماه اللهُ بالحسنِ يافِعاً * له سِيمِياءُ لا تَشقُّ على البَصَر

و « مسومةٍ » من نعت حجارة . و « منضودٍ » من نعت « سِجيل » . وفي قوله : ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ دليل على أنها ليست من حجارة الأرض؛ قاله الحسن . ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ يعني قوم لوط ؛ أي لم تكن تخطئهم . وقال مجاهـد : يُرهب قريشا؛ المعنى : ما الحجارة من ظالمي قومك يا محمد ببعيد . وقال قتادة وعكرمة : يعني ظالمي هـذه الأمة؛ والله ما أجار الله منها ظالمـا بعد . وروى عن النبي صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " سيكون في آخر أمتي قوم يكتفي رجالهم بالرجال ونسـاؤهم بالنساء فإذا كان ذلك فارتقبوا عذاب قـومِ لوط أن يرسل الله عليهـم حجارة من سجيل " ثم تلا رسـول الله صلى الله عليه وسـلم « وما هِي مِن الظالِمين

---

(١) وروى في اللسان : ( يضربون البيض عن عرض ) .

(٢) البيت لأسيد بن عنقاء الفزاري يمدح عميلة حين قاسمه ماله ؛ و بعده :

كأنّ الثريا علقت فوق نحـره * وفي جيده الشعرى وفي وجهه القمر

وقوله : (له سيمياء لا تشق على البصر) أي يفرح به من يراه .

بِبَعِيدٍ » . وفى رواية عنه عليه الســلام " لا تذهب الليالى والأيام حتى تستحلّ هذه الأمة أدبار الرجال كما آستحلوا أدبار النساء فتصيب طوائف هذه الأمة حجارة من ربك ". وقيل : المعنى ما هــذه القرى من الظالمين ببعيد؛ وهى بين الشام والمدينة . وجاء « ببعيد » مذكرا على معنى بمكان بعيد . وفى الحجارة التى أمطرت قولان : أحدهما — أنها أمطرت على المدن حين رفعها جبريل . الثانى — أنها أمطرت على من لم يكن فى المدن من أهلها وكان خارجا عنها .

قوله تعـالى : وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ

وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (٩٥)

قوله تعـالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ أى وأرسـلنا إلى مدين ، ومدين هم قوم شعيب . وفى تسميتهم بذلك قولان : أحدهما — أنهم بنو مدين بن إبراهيم؛ فقيل : مدين والمراد بنو مدين . كما يقال مُضَر والمراد بنــو مُضَر . الثـانى — أنه آسم مدينتهم، فنسبوا إليها . قال النحاس : لا ينصرف مدين لأنه آسم مدينة ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[1] هذا المعنى وزيادة . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ تقدّم . ﴿ وَلَا تَنْقُصُوا ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ كانوا مع كفرهم أهــل بخس وتطفيف؛ كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، وآسـتوفوا بغاية ما يَقدِرون وظلموا ؛ وإن جاءهم مشـترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشَحّوا له بغاية ما يَقدِرون؛ فأُمِروا بالإيمان إقلاعا عن الشرك، وبالوفاء نهيا عن التطفيف. ﴿ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ﴾ أى فى سَـعة من الرزق، وكثرة من النِّعم . وقال الحسن : كان سـعرهم رخيصا . ﴿ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ وصف اليوم بالإحاطة، وأراد وصف ذلك اليوم بالإحاطة بهم ؛ فإن يوم العذاب إذا أحاط بهم فقد أحاط العذاب بهم، وهو كقولك: يوم شديد؛ أى شديد حرّه . وآختلف فى ذلك العذاب؛ فقيل : هو عذاب النار فى الآخرة.

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

وقيل : عذاب الاستئصال فى الدنيـا . وقيل : غلاء السـعر؛ روى معناه عن ابن عباس .
وفى الحديث عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم : " ما أظهر قوم البخس فى المكيال والميزان إلا آبتلاهم الله بالقحط والغلاء " . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أمر بالإيفاء بعد أن نهى عن التطفيف تأكيدا . والإيفاء الإتمـام . « بالقسط » أى بالعدل والحق، والمقصود أن يصل كل ذى نصيب إلى نصيبه ؛ وليس يريد إيفاء المكيل والموزون لأنه لم يقل : أوفوا بالمكيال وبالميزان ، بل أراد لا تنقصوا حجم المكيال عن المعهود، وكذا الصّنجات . ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أى لا تنقصوهم ممـا آستحقوه شيئا . ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بين أن الخيانة فى المكيال والميزان مبالغة فى الفساد فى الأرض ؛ وقد مضى فى « الأعراف »(1) زيادة لهذا ، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبّر والظلم؛ قال معناه الطّبرى وغيره . وقال مجاهد : « بقية الله خير لكم » يريد طاعته . وقال الرّبيع : وصية الله . وقال الفرّاء : مراقبة الله . بن زيد : رحمة الله . قتادة والحسن : حظكم من ربكم خير لكم . وقال آبن عباس : رزق الله خير لكم . ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ شرط هذا لأنهم إنما يعرفون صحة هذا إن كانوا مؤمنين . وقيل : يحتمل أنهم كانوا يعترفون بأن الله خالقهم فخاطبهم بهذا . ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ أى رقيب أرقبكم عند كيلكم ووزنكم ؛ أى لا يمكننى شهود كل معاملة تصدر منكم حتى أؤاخذكم بإيفاء الحق . وقيل : أى لا يتهيأ لى أن أحفظكم من إزالة نعم الله عليكم بمعـاصيكم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ ﴾ وقرئ « أَصَلَاتُكَ » من غير جمع . ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ «أن» فى موضع تفسير؛ قال الكسائىّ : موضعها خفض على إضمار الباء .

(1) راجع جـ ٧ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية .

وروى أن شعيبا عليه السلام كان كثير الصلاة، مواظبا على العبادة فرضها ونفلها ويقــول : الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ فلما أمرهم ونهاهم عيّروه بما رأوه يستمر عليه من كثرة الصلاة، واستهزءوا به فقالوا ما أخبر الله عنهم . وقيــل : إن الصلاة هنا بمعنى القراءة ؛ قاله سـفيان عن الأعمش، أي قراءتك تأمرك؛ ودلّ هذا على أنهم كانوا كفارا . وقال الحسن: لم يبعث الله نبيا إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ زعم الفراء أن التقدير: أو تنهانا أن نفعل في أموالنا ما نشاء. وقرأ السُّلَمِيّ والضّحاك ابن قيس «أو أن تفعل في أموالنا ما تشاء» بالتاء في الفعلين، والمعنى: ما تشاء أنت يا شعيب. وقال النحاس: «أو أن» على هذه القراءة معطوفة على «أن» الأولى. وروى عن زيد بن أسلم أنه قال: كان مما نهاهم عنه حَذْف[1] الدراهم . وقيل : معنى « أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء » إذا تراضينا فيما بيننا بالبخس فلِمَ تمنعنا منه ؟! . ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴾ يعنون عند نفسك بزعمك ؛ ومثله في صفة أبي جهل : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » أي عنــد نفسك بزعمك . وقيــل : قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية، قاله قتادة . ومنه قولهم للحبشي : أبو البيضاء، وللأبيض أبو الجَون[2]؛ ومنه قول خزنة جهنم لأبي جهل : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » . وقال سفيان بن عُيينة: العرب تصف الشيء بضدّه للتطيّر والتفاؤل؛ كما قيل للّديغ سَليم، وللفلاة مَفازة . وقيل: هو تعريض أرادوا به السبّ ؛ وأحسن من هــذا كله، ويدلّ ما قبله على صحته، أي إنك أنت الحليم الرشيد حقا ، فكيف تأمرنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ! ويدلّ عليــه « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا » أنكروا لمـا رأوا من كثرة صلاته وعبادته، وأنه حليم رشيد بأن يكون يأمرهم بترك ما كان يعبد آباؤهم، وبعده أيضا ما يدلّ عليه « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أي أفلا أنهاكم عن الضلال؟! وهذا كله يدلّ على أنهم قالوه على وجه الحقيقة ، وأنه اعتقادهم فيه . ويشبه هذا المعنى قول اليهود من بني قُريظة للنبي صلى الله عليه وسلم حين قال لهم : « يا إخوة القِردة » فقالوا : يا محمد ما علمناك جهولا ! .

---

(١) حَذف الشيء قطعه من أطرافه . (٢) الجون هنا الأسود .

مســـئلة — قال أهل التفسير: كان مما ينهاهم عنه، وعُذبوا لأجله قطع الدنانير والدراهم؛ كانوا يَقرضون من أطراف الصحاح لتفضل لهم القُراضة، وكانوا يتعاملون على الصحاح عدّا، وعلى المقروضة وزنا، وكانوا يبخسون فى الوزن . وقال ابن وهب قال مالك : كانوا يكسرون الدنانير والدراهم، وكذلك قال جماعة من المفسرين المتقـدمين كسعيد بن المسيّب، وزيد بن أسلم وغيرهما؛ وكسرهما ذنب عظيم . وفى كتاب أبى داود عن علقمة بن عبد الله عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكسر سَكّة المسلمين الجائزة بينهم إلا من بأس؛ فإنها إذا كانت صحاحا قام معناها، وظهرت فائدتهـا، وإذا كسرت صارت سلعـة، وبطلت منها الفائدة؛ فأضر ذلك بالناس، ولذلك حرم . وقد قيل فى تأويل قوله تعالى: « وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ » أنهم كانوا يكسرون الدراهم؛ قاله زيد بن أسلم . قال أبو عمر بن عبد البر : زعموا أنه لم يكن بالمدينـة أعلم بتأويل القرآن من زيد بن أسلم بعد محمد بن كعب القُرَظىّ .

مســـئلة : قال أَصْبغ قال عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جُنادة مولى زيد بن الحارث العُتَقىّ : من كسرها لم تقبل شهادته، وإن آعتذر بالجهالة لم يعذر، وليس هذا موضع عذر؛ قال آبن العربى : أما قوله : لم تقبـل شهادته فلأنه أتى كبيرة، والكبائر تسـقط العـدالة دون الصغائر؛ وأما قوله : لا يقبـل عذره بالجهالة فى هذا فلأنه أمر بيّن لا يخفى على أحد، وإنما يقبل العـذر إذا ظهر الصدق فيه، أو خفى وجه الصدق فيـه، وكان الله أعلم به من العبد؛ كما قال مالك .

مســـئلة : إذا كان هـذا معصية وفسادا تردّ به الشهادة فإنه يعاقب من فعل ذلك . ومرّ آبن المسيّب برجل قـد جُلد فقال : ما هذا ؟ قال : رجل يقطع الدنانير والدراهم؛ قال آبن المسيّب : هـذا من الفساد فى الأرض؛ ولم ينـكر جلده؛ ونحـوه عن سـفيان . وقال أبو عبد الرحمن النُّجيبى : كنت قاعدا عند عمر بن عبد العزيز وهو إذ ذاك أمير المدينة فأتى برجل وقد شُهد عليه فضربه وحَلَقه، وأمر فطيف به، وأمره أن يقول : هذا جزاء من يقطع

الدراهم ، ثم أمر أن يُرَدّ إليـه ، فقال : إنه لم يمنعنى أن أقطع يدك إلا أنى لم أكن تقدّمت فى ذلك قبل اليوم ، وقد تقدّمت فى ذلك فمن شاء فليقطع . قال القاضى أبو بكر بن العربى : أما أدبه بالسوط فلا كلام فيـه ، وأما حلقه فقد فعله عمر ؛ وقد كنت أيام الحكم أضرب وأحلق ، وإنما كنت أفعل ذلك بمن يرى شعره عونا له على المعصية ، وطريقا إلى التجمل به فى الفساد ، وهذا هو الواجب فى كل طريق للمعصية ، أن يقطع إذا كان غير مؤثر فى البدن ، وأما قطع يده فإنما أخذ ذلك عمر من فصـل السرقة ؛ وذلك أن قرض الدراهم غير كسرها ، فإن الكسر إفساد الوصف ، والقرض تنقيص للقدر ، فهو أخذ مال على جهة الاختفاء ؛ فإن قيل : أليس الحرز أصلا فى القطع ؟ قلنا : يحتمل أن يكون عمر يرى أن تهيئتها للفصل بين الخلق دينارا أو درهما حرزلها ، وحرز كل شىء على قدر حاله ؛ وقـد أنفذ ذلك ٱبن الزبير ، وقطع يد رجل فى قطع الدنانير والدراهم . وقد قال علماؤنا المـالكية : إن الدنانير والدراهم خواتيم الله عليهـا ٱسمه ؛ ولو قطع على قول أهـل التأويل من كسر خاتما لله كان أهلا لذلك ، أو من كسر خاتم سلطان عليه ٱسمه أُدِّب ، وخاتم الله تُقضى به الحوائج فلا يستويان فى العقوبة . قال ٱبن العربى : وأرى أن يقطع فى قرضها دون كسرها ، وقد كنت أفعل ذلك أيام توليتى الحكم ، إلا أنى كنت محفوفا بالجهال ، فلم أجب بسبب المقال للحسدة الضّلال ، فمن قدر عليه يوما من أهل الحق فليفعله ٱحتسابا لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ﴾ تقـدّم . ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ أى واسعا حلالا ، وكان شعيب عليه السلام كثير المـال ؛ قاله ٱبن عباس وغيره . وقيل : أراد به الهدى والتوفيق ، والعلم والمعرفة ؛ وفى الكلام حذف ، وهو ما ذكرناه ؛ أى أفلا أنهاكم عن الضلال ! وقيل : المعنى «أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتبع الضلال . وقيل : المعنى « أرأيتم إن كنت على بينة من ربى» أتأمرونى بالعصيان فى البخس والتطفيف ، وقد أغنانى الله . ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ﴾ فى موضع نصب بـ « أريد » . ﴿ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أى ليس أنهاكم عن شىء وأرتكبـه ، كما لا أترك ما أمرتكم به . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أى ما أريد إلا فعـل الصلاح؛ أى أن تصلحوا دنيا كم بالعــدل، وآخرتكم بالعبادة؛ وقال : « ما ٱستطعت » لأن الاستطاعة من شروط الفعل دون الإرادة . و « ما » مصدرية؛ أى إن أريد إلا الإصلاح جهــدى واستطاعتى . ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى ﴾ أى رشدى ، والتوفيق الرشــد . ﴿ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى اعتمدت . ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أى أرجع فيما ينزل بى من جميع النوائب.وقيل : إليه أرجع فى الآخرة . وقيل : إن الإنابة الدعاء؛ ومعناه وله أدعو .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ ﴾ وقرأ يحيى بن وثّاب « يُجْرِمَنَّكُمْ » . ﴿ شِقَاقِى ﴾ فى موضع رفع . ﴿ أَنْ يُصِيبَكُمْ ﴾ فى موضع نصب ؛ أى لا يحملنكم معاداتى على ترك الإيمـان فيصيبكم ما أصاب الكفـار؛ قاله الحسن وقتـادة . وقيل : لا يكسبنكم شقـاق إصابتكم العذاب، كما أصاب من كان قبلكم؛ قاله الزجاج . وقد تقدّم معنى « يجرمنكم » فى « المـائدة »[1] و « الشقاق » فى « البقرة »[2] وهو هنا بمعنى العداوة؛ قاله السدّى؛ ومنه قول الأخطل :

ألَا مَن مُبلغ عنّى رســولًا[3] * فكيف وجدتمُ طعمَ الشِّقاقِ

وقال الحسن : إضرارى . وقال قتادة : فراقى . ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴾ وذلك أنهـم كانوا حديثى عهد بهلاك قوم لوط . وقيل : وما ديار قوم لوط منكم ببعيد؛ أى بمكان بعيد ؛ فلذلك وحد البعيد . قال الكسائى : أى دورهم فى دوركم .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ ﴾ تقدّم . ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ٱسمان من أسمـائه سبحانه، وقد بيّناهما فى كتاب «الأسنى فى شرح الأسمـاء الحسنى» . قال الجوهرى : وَدِدت الرجل أَوَدّه ودًّا إذا أحببته، والودود المحبّ، والوُدّ والوِدّ والوَدّ والمودّة المحبة . وروى عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه كان إذا ذكر شعيبا قال : " ذاك خطيب الأنبيـاء " .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٤٣ طبعة ثانية .
(٣) الرسول هنا بمعنى الرسالة .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ ﴾ أى ما نفهم؛ لأنك تحملنا على أمور غائبة من البعث والنشور، وتعظنا بما لا عهد لنا بمثله . وقيل : قالوا ذلك إعراضا عن سماعه، واحتقارا لكلامه؛ يقال : فقِه يفقَه إذا فهم فِقْها؛ وحكى الكسائى فَقُه فَقَهاً وفِقها إذا صار فقيها[(١)] . ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ﴾ قيل : إنه كان مصابا ببصره؛ قاله سعيد ابن جبير وقتادة . وقيل : كان ضعيف البصر؛ قاله الثورى، وحكى عنه النحاس مثل قول سعيد بن جبير وقتادة . قال النحاس : وحكى أهل اللغة أن حمير تقول للأعمى ضعيف؛ أى قد ضعف بذهاب بصره؛ كما يقال له ضرير؛ أى قد ضرّ بذهاب بصره؛ كما يقال له : مكفوف؛ أى قد كُفّ عن النظر بذهاب بصره . قال الحسن : معناه مهين . وقيل : المعنى ضعيف البدن؛ حكاه علىّ بن عيسى . وقال السدى : وحيدا ليس لك جند وأعوان تقدر بها على مخالفتنا . وقيل : قليل المعرفة بمصالح الدنيا وسياسة أهلها . «وضعيفا» نصب على الحال . ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ ﴾ رفع بالابتداء؛ ورهط الرجل عشيرته الذى يستند إليهم ويتقوّى بهم؛ ومنه الراهطاء لجحر اليربوع؛ لأنه يتوثّق به ويَخبأ فيه ولده . ومعنى ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ لقتلناك بالرّجم؛ وكانوا إذا قتلوا إنسانا رجموه بالحجارة، وكان رهطه من أهل ملتهم . وقيل : معنى «لرجمناك» لشتمناك؛ ومنه قول الجعدىّ :

تَرَاجمنا بمُرّ القولِ حتّى * نصير كأننا فَرَسا رِهانِ

والرجم أيضا اللعن؛ ومنه الشيطان الرجيم . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ أى ما أنت علينا بغالب ولا قاهر ولا ممتنع .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي ﴾ «أرهطى» رفع بالابتداء؛ والمعنى أرهطى فى قلوبكم ﴿ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ وأعظم وأجلّ وهو يملككم . ﴿ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ﴾ أى اتخذتم ما جئتكم به من أمر الله ظهريا؛ أى جعلتموه وراء ظهوركم، وامتنعتم من قتلى مخافة قومى؛

---

(١) عبارة الأصول هنا مضطربة، وصوبت عن كتب اللغة؛ وعبارة الأصل : فقه يفقه إذا فهم فقها وفقها؛ وحكى الكسائى فقها؛ وفقه فقها إذا صار فقيها .

يقال : جعلت أمره بِظَهْرٍ إذا قصرت فيه، وقد مضى فى «البقرة»[1] . ﴿ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أى من الكفر والمعصية . ﴿ مُحِيطٌ ﴾ أى عليم . وقيل : حفيظ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَاقَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ تهديد ووعيد ؛ وقد تقدّم فى « الأنعـام »[2] . ﴿ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أى يهلكه . و « من » فى موضع نصب، مثل « يَعْـلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ » . ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ عطف عليها . وقيل : أى وسـوف تعلمون من هو كاذب منا . وقيل : فى محـل رفع ؛ تقديره : ويخزى من هو كاذب . وقيـل : تقديره ومن هو كاذب فسيعلم كذبه ، ويذوق وبال أمره . وزعم الفراء أنهم إنمـا جاءوا بـ«هو» فى « ومن هو كاذِب » لأنهـم لا يقولون مَن قائم؛ إنما يقولون : مَن قام، ومَن يقوم، ومَن القائم؛ فزادوا « هو » ليكون جملة تقوم مقام فَعَل ويَفْعَلُ . قال النحاس : ويدل على خلاف هذا قوله[3] :

مَنْ رَسُـــولِى إلى الثُّرَيَّا بِأَنِّى * ضِقْتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالْكِتَابِ

﴿وَٱرْتَقِبُوا إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أى ٱنتظروا العذاب والسّخطة، فإنى منتظر النصر والرحمة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ قيل : صاح بهـم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم . ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلصَّيْحَةُ ﴾ أى صيحة جبريل . وأنث الفعل على لفظ الصيحة ، وقال فى قصة صالح : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة » فذكّر على معنى الصياح . قال ٱبن عباس : ما أهلك الله أمتين بعـذاب واحد إلا قوم صالح وقوم شعيب ، أهلكهم الله بالصيحة ؛ غير أن قوم صالح أخذتهم الصيحة من تحتهم ، وقوم شعيب أخذتهـم الصيحة من فوقهم . ﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ. كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ تقـدم معناه . وحكى الكسائى أن أبا عبد الرحمن السلمى قرأ « كما بَعُدت ثمود » بضم العين . قال النحاس : المعروف فى اللغة أنه يقال بعِـد

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٤٠ طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) هو عمر بن أبى ربيعة .

يَبْعَدُ بَعَـدًا و بُعْدا إذا هَلَكَ . وقال المهدوى : من ضم العين من «بعدت» فهى لغة تستعمل فى الخير والشر، ومصدرها البُعْد ؛ وبَعِدت تستعمل فى الشر خاصة؛ يقال : بَعِد يَبْعَد بَعَدًا ؛ فالبعد على قراءة الجماعة بمعنى اللّعنة ؛ وقد يجتمع معنى اللغتين لتقاربهما فى المعنى ؛ فيكون مما جاء مصدره على غير لفظه لتقارب المعانى .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ بين أنه أتبع النبى النبىّ لإقامة الحجة، و إزاحة كل علة « بِآياتنا » أى بالتوراة . وقيل : بالمعجزات . ﴿ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى حجة بيّنه ؛ يعنى العصا . وقد مضى فى « آل عمران » (١) معنى السلطان واشتقاقه فلا معنى للإعادة . ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ ﴾ أى شأنه وحاله ، حتى اتخذوه إلهـا ، وخالفوا أمر الله تعالى . ﴿ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ أى بسديد يؤدى إلى صواب . وقيل : « برشيد » أى بمرشد إلى خير .

قوله تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يومَ الْقِيَامَةِ ﴾ يعنى أنه يتقدمهم إلى النـار إذ هو رئيسهم . يقال : قَدَمهم يقدُمُهم قَدْما وقُدُوما إذا تقدّمهم . ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ أى أدخلهم فيها . ذُكر بلفظ المـاضى؛ والمعنى فيوردهم النار؛ وما تحقق وجوده فكأنه كائن؛ فلهذا يعبر عن المستقبل بالمـاضى . ﴿ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ أى بئس المدخل المدخول؛ ولم يقل بئست لأن الكلام يرجع إلى المورود؛ وهو كما تقول: نعم المنزل دارك، ونعمت المنزل دارك . والمورود المـاء الذى يورد ، والموضع الذى يورد ؛ وهو بمعنى المفعول .

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً﴾ أى فى الدنيا . ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أى ولعنة يوم القيامة ؛ وقد تقدم هذا المعنى . ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ حكى الكسائى وأبو عبيدة: رَفَدْتُه أَرْفِدُه رَفْدًا؛ أى أعنته وأعطيته . وآسم العطية الرِّفْد؛أى بئس العطاء والإعانة . والرفد أيضا القدح الضخم؛ قاله الجوهرى ، والتقدير: بئس الرفد رِفد المرفود . وذكر المــاوردى أن الرفد بفتح الراء القدح ، والرِّفد بكسرها ما فى القدح من الشراب؛ حكى ذلك عن الأصمعى؛ فكأنه ذمّ بذلك ما يسقونه فى النار . وقيل : إن الرفد الزيادة؛ أى بئس ما يرفدون به بعد الغرق النار؛ قاله الكلبى .

قوله تعــالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ۖ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ﴾ «ذلك» رفع على إضمار مبتدأ، أى الأمر ذلك . وإن شئت بالابتداء؛ والمعنى: ذلك النبأ المتقدّم من أنباء القرى نقصه عليك . ﴿ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ قال قتادة : القائم ما كان خاويا على عروشه، والحصيد ما لا أثر له . وقيل : القائم العامر، والحصيد الخراب؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد : قائم خاوية على عروشها، وحصيد مستأصل؛ يعني محصودا كالزرع إذا حصد؛ قال الشاعر :

والنــاس فى قَسْم المنيّة بينهم * كالزّرع منـــه قائمٌ وحَصيدُ

وقال آخـــر (١) :

إنمــا نحن مثلُ خَامَةِ زَرْعٍ * فمتى يَأْنِ يَأْتِ مُحْتَصِــدُه

قال الأخفش سعيد : حصيد أى محصود، وجمعه حَصْدى وحِصَاد مثل مَرْضى ومِرَاض؛ قال : يكون فيمن يعقل حصدى، مثل قتيل وقتلى . ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أصل الظــلم فى اللغة وضع الشيء فى غير موضعه، وقــد تقدم فى « البقرة » (٢) مستوفى . ﴿ وَلَٰكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ بالكفر والمعاصى . وحكى سيبويه أنه يقال : ظلم إياه . ﴿ فَمَا أَغْنَتْ ﴾ أى دفعت . ﴿ عَنْهُمْ آلِهَتُهُــمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى التى كانوا يدعون؛ أى يعبدون . ﴿ لَمَّـا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ أى غير تخسير؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال لبيـــد :

فلقــد بَليتُ وكلُّ صاحبِ جِدّةٍ * لبِــلًى يَعُودُ وذاكُمُ التَّتْبِيبُ

والتَّبابُ الهلاك والخسران، وفيه إضمار؛ أى ما زادتهم عبادة الأصنــام، فحذف المضاف؛ أى كانت عبادتهم إيّاها قد خسّرتهم ثواب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أى كما أخذ هذه القرى التى كانت لنوح وعاد وثمود يأخذ جميع القرى الظالمة . وقرأ عاصم الجحدرىّ وطلحة بن مصرف « وكذلك أَخَذَ ربك إذْ أَخَذَ القرى » . وعن الجحدرىّ أيضا « وكذلك أَخْذُ رَبِّك » كالجماعة «إذْ أَخَذَ

---

(١) البيت للطرماح؛ كما فى اللسان .　　(٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

القرى » . قال المهدوى : من قرأ « وكذلك أخذ ربك إذ أخذ » فهو إخبـار عما جاءت به العادة فى إهلاك من تقدّم من الأمم ؛ والمعنى : وكذلك أَخَذَ ربك من أخذه من الأمم المهلكة إذ أَخَذهم . وقراءة الجماعة على أنه مصدر، والمعنى : كذلك أخذ ربك من أراد إهلاكه متى أخذه ؛ فإذ لما مضى؛ أى حين أخذ القرى؛ و إذا للستقبل . ﴿ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾ أى وأهلها ظالمون؛ فحذف المضاف مثل : « وآسأل القرية » . ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ أى عقوبته لأهل الشرك موجعة غليظة . وفى صحيح مسلم والترمذى من حديث أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه " ثم قرأ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى » الآية . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى لعبرة وموعظة . ﴿ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ . ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ مَجْمُوعٌ ﴾ من نعته . ﴿ لَهُ النَّاسُ ﴾ آسم ما لم يسم فاعله ؛ ولهذا لم يقل مجموعون؛ فإن قدرت آرتفاع «الناس» بالابتداء، والخبر «مجموع له» فإنما لم يقل : مجموعون على هذا التقدير؛ لأن « له » يقوم مقام الفاعل . والجمع الحشر؛ أى يحشرون لذلك اليوم . ﴿ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ أى يشهده البر والفاجر، ويشهده أهل السماء . وقد ذكرنا هذين الآسمين مع غيرهما من أسماء القيامة فى كتاب « التذكرة » وبيّناهما والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ ﴾ أى ما نؤخر ذلك اليوم . ﴿ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾ أى لأجل سبق به قضاؤنا، وهو معدود عندنا . ﴿ يَوْمَ يَأْتِ ﴾ وقرئ «يوم يأتِ» لأن الياء تحذف إذا كان قبلها كسرة ؛ تقول : لا أدر ؛ ذكره القشيرى . قال النحاس : قرأه أهل المدينة وأبو عمرو والكسائى بإثبات الياء فى الإدراج، وحذفها فى الوقف؛ وروى أن أُبيًّا وابن مسعود قرأا « يوم يأتى » بالياء فى الوقف والوصل . وقرأ الأعمش وحمزة « يوم يأتِ » بغير ياء فى الوقف والوصل ؛ قال أبو جعفر النحاس : الوجه فى هذا ألا يوقف عليه ، وأن يوصل بالياء؛ لأن جماعة من النحويين قالوا : لا تحذف الياء، ولا يجزم الشىء بغير جازم؛ فأما الوقف بغير ياء ففيه قول الكسائى ؛ قال : لأن الفعل السالم يوقف عليه كالمجزوم ، فحذف الياء ، كما

تحذف الضمة . وأما قراءة حمزة فقد احتج أبو عبيد لحذف الياء فى الوصل والوقف بحجتين ؛ إحداهمـا — أنه زعم أنه رآه فى الإمام الذى يقال له إنه مصحف عثمان رضى الله عنه بغير ياء . والحجة الأخرى — أنه حكى أنها لغة هُذَيل ؛ تقول : ما أدرِ ؛ قال النحاس : أما حجته بمصحف عثمان رضى الله عنه فشىء يردّه عليه أكثر العلمـاء ؛ قال مالك بن أنس رحمه الله : سألت عن مصحف عثمان رضى الله عنه فقيل لى ذَهَب ؛ وأما حجته بقولهم : « ما أدرِ » فلا حجة فيه ؛ لأن هذا الحذف قد حكاه النحويون القدماء ، وذكروا علته ، وأنه لا يقاس عليه . وأنشد الفراء فى حذف الياء :

كَفَّاكَ كَفٌّ ما تُلِيقُ دِرهمـا * جوداً وأخرى تُعْـطِ بالسيفِ الدَّمَا

أى تعطى . وقد حكى سيبويه والخليل أن العرب تقول : لا أدرِ ، فتحذف الياء وتجتزئ بالكسرة ، إلا أنهم يزعمون أن ذلك لكثرة الاستعمال . قال الزجاج : والأجود فى النحو إثبات الياء ؛ قال : والذى أراه اتباع المصحف وإجماع القراء ؛ لأن القراءة سنّة ؛ وقد جاء مثله فى كلام العرب . ﴿ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ الأصل تتكلم ؛ حذفت إحدى التاءين تخفيفا . وفيه إضمار ، أى لا تتكلم فيه نفس إلا بالمأذون فيه من حسن الكلام ؛ لأنهم ملجئون إلى ترك القبيح . وقيل : المعنى لا تكلم بحجة ولا شفاعة إلا بإذنه . وقيل : إن لهم فى الموقف وقتـا يمنعون فيه من الكلام إلا بإذنه . وهذه الآية أكثر ما يسأل عنها أهل الإلحاد فى الدِّين ، فيقول لم قال : « لَا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بِإِذْنِهِ » و « هَٰذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » . وقال فى موضـع من ذكر القيامة : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ » . وقال : « يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نفسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا » . وقال : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ » . وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ » . والجواب ما ذكرناه ، وأنهم لا ينطقون بحجة تجب لهم وإنمـا يتكلمون بالإقرار بذنوبهم ، ولوم بعضهم بعضا ، وطرح بعضهم الذنوب على بعض ؛ فأما التكلم والنطق بحجة لهم فلا ؛ وهـذا كما تقول للذى يخاطبك كثيرا ، وخطابه فارغ عن الحجة : ما تكلمت بشىء ، وما نطقت بشىء ؛ فسمّى من يتكلم بلا حجة فيه له غير متكلم . وقال

قوم : ذلك اليوم طويل ، وله مواطن ومواقف فى بعضهـا يمنعون من الكلام، وفى بعضها يطلق لهم الكلام ؛ فهــذا يدل على أنه لا تتكلم نفس إلا بإذنه . ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ أى من الأنفس ، أو من الناس ؛ وقد ذَكَرهم فى قوله : « يوم مجموع له الناس » . والشقى الذى كتبت عليه الشّقاوة . والسّعيد الذى كتبت عليه السّعادة ؛ قال لَبيد :

فمنهـم سـعيدٌ آخذٌ بنصيبه * ومنهـم شَقِيٌّ بالمعيشـةِ قانعُ

وروى الترمذىّ عن ٱبن عمر عن عمر بن الخطاب قال : لمـا نزلت هـذه الآية « فمنهـم شقى وسعيد » سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : يا نبىّ الله فعلام نعمل ؟ على شىء قد فُرِغ منه ، أو على شىء لم يُفرَغ منه ؟ ! فقال : "بل على شىء قد فُرغ وجرت به الأقلامُ يا عُمر ولكن كل مُيسَّر لمـا خُلِق له ". هذا حديث حسن غريب من هـذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن عمر ؛ وقد تقدّم فى « الأعراف »[(١)] .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ﴾ ٱبتداء . ﴿ فَفِي النَّارِ ﴾ فى موضع الخبر ، وكذا ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ قال أبو العالية : الزّفير من الصدر ، والشّهيق من الحلق ؛ وعنه أيضا ضدّ ذلك . وقال الزجاج : الزّفير من شدّة الأنين ، والشّهيق من الأنين المرتفع جدّا ؛ قال : وزعم أهل اللغـة من الكوفيين والبصريين أن الزّفير بمنزلة ٱبتـداء صوت الحمير فى النّهيق ، والشهيق بمنزلة [ آخر ] صوت الحمار فى النهيق . وقال ٱبن عباس عكسه ؛ قال : الزّفير الصوت الشديد ، والشّهيق الصوت الضعيف . وقال الضّحاك ومقاتل : الزّفير مثل أول نهيق الحمار ، والشّهيق مثل آخره حين فرغ من صوته ؛ قال الشاعر[(٢)] :

حَشْرَجَ فى الجوفِ سَحِيلًا[(٣)] أو شَهَقْ * حتى يُقـالَ ناهـقٌ وما نَهَـقْ

وقيل : الزّفير إخراج النفس ، وهو أن يمتلئ الجوف غمًّا فيخرج بالنفَس ، والشهيق ردّ النفَس . وقيـل : الزفير ترديد النفَس من شدّة الحزن ؛ مأخوذ من الزِّفْر وهو الحَمْل على الظهر لشدّته ؛

(١) راجع جـ ٧ ص ٣١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج والبيت من قصيدة له يصف فيها المفازة مطلعها :

وقاتم الأعمـاق خاوى المخترق * مشتبه الأعلام لمـاع الخفـق

(٣) السحيل : الصوت الذى يدور فى صدر الحمار .

والشهيق النفس الطويل الممتدّ، مأخوذ من قولهم : جبل شاهق ؛ أى طويل . والزفير والشهيق من أصوات المحزونين .

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ « ما دامت » فى موضع نصب على الظرف؛ أى دوام السموات والأرض، والتقدير : وقت ذلك . وآختلف فى تأويل هذا ؛ فقالت طائفة منهم الضحاك : المعنى مادامت سموات الجنة والنار وأرضهما . والسماء كل ما علاك فأظلك، والأرض ما استقر عليه قدمك؛ وفى التنزيل : « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنةِ حيث نشاء » . وقيل : أراد به السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ، وأجرى ذلك على عادة العرب فى الإخبار عن دوام الشيء وتأبيده ؛ كقولهم : لا آتيك ما جَنَّ ليلٌ ، أو سَالَ سيلٌ، وما آختلف الليل والنهار، وما ناح الحمام ، وما دامت السموات والأرض، ونحو هذا مما يريدون به طولا من غير نهاية ؛ فأوهمهم الله تخليد الكفرة بذلك ، وإن كان قد أخبر بزوال السموات والأرض . وعن آبن عباس أن جميع الأشياء المخلوقة أصلها من نور العرش ، وأن السموات والأرض فى الآخرة تردّان إلى النور الذى أخذتا منه ؛ فهما دائمتان أبدا فى نور العرش .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴾ فى موضع نصب ؛ لأنه آستثناء ليس من الأوّل ؛ وقد آختلف فيه على أقوال عشرة : الأوّل — أنه آستثناء من قوله : « ففى النار » كأنه قال : إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ؛ وهذا قول رواه أبو نَضْرة عن أبى سعيد الخُدْرىّ أو جابر رضى الله عنهما . وإنما لم يقل من شاء ؛ لأن المراد العدد لا الأشخاص؛ كقوله : « ما طاب لكم » . وعن أبى نَضْرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ”إلا من شاء ألا يدخلهم وإن شَقُوا بالمعصية“ . الثانى — أن الاستثناء إنما هو للعصاة من المؤمنين فى إخراجهم بعد مدّة من النار؛ وعلى هذا يكون قوله : « فأما الذين شقوا » عاماً فى الكفرة والعصاة ، ويكون الآستثناء من « خالدين »؛ قاله قَتادة والضّحاك وأبو سنان وغيرهم . وفى الصحيح من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يدخل

ناس جهنم حتى إذا صاروا كالحممة[1] أخرجوا منها ودخلوا الجنـة فيقال هؤلاء الجهنميّون "
وقد تقدّم هـذا المعنى فى « النساء » وغيرها . الثالث — أن الاستثناء من الزفير والشهيق ؛
أى لهم فيهـا زفير وشهيق إلا ما شاء ربك من أنواع العذاب الذى لم يذكره ، وكذلك لأهل
الجنـة من النعيم ما ذكر ، ومالم يذكر . حكاه ٱبن الأنبارىّ . الرابع — قال ٱبن مسعود :
« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ » لا يموتون فيها ، ولا يخرجون منها « إِلَّا مَا شَاءَ
رَبُّكَ » وهو أن يأمر النار فتأكلهم وتفنيهم ، ثم يجدّد خلقهم .

قلت : وهذا القول خاص بالكافر ، والاستثناء له فى الأكل ، وتجديد الخلق . الخامس —
أن « إلّا » بمعنى «سوى» كما تقول فى الكلام : ما معى رجل إلّا زيد ، ولى عليك ألفا درهم
إلا الألف التى لى عليك . قيـل : فالمعنى ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء ربك
من الخلود . السادس — أنه استثناء من الإخراج ، وهو لا يريد أن يخرجهم منها ، كما تقول
فى الكلام : أردت أن أفعل ذلك إلا أن أشاء غيره ، وأنت مقيم على ذلك الفعـل ؛ فالمعنى
أنه لو شاء أن يخرجهم لأخرجهم ؛ ولكنه قد أعلمهم أنهم خالدون فيها ؛ ذكر هذين القولين
الزجاج عن أهل اللغة ؛ قال : ولأهل المعانى قولان آخران ؛ فأحد القولين : « خالدين فيهـا
ما دامت الســموات والأرض إلا ما شاء ربك » من مقـدار موقفهم على رأس قبورهم ،
وللمحاسبة ، وقدر مكثهم فى الدنيـا ، والبرزخ ، والوقوف للحساب . والقول الآخر — وقوع
الاستثناء فى الزيادة على النعيم والعذاب ، وتقديره : « خالدين فيها مادامت السموات والأرض
إلا ما شاء ربك » من زيادة النعيم لأهل النعيم ، وزيادة العذاب لأهل الجحيم .

قلت : فالاستثناء فى الزيادة من الخلود على مدّة كون السماء والأرض المعهودتين فى الدنيا ؛
واختاره الترمذىّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن على ؛ أى خالدين فيها مقـدار دوام السموات
والأرض ، وذلك مدّة العالم ، وللسماء والأرض وقت يتغيران فيه ؛ وهو قوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ
الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ » فخلق الله سبحانه الآدميين وعاملهم ، وٱشترى منهم أنفسهم وأموالهم

(١) الحمم : الرماد والفحم وكل ما احترق من النار ، والواحدة حممه .

بالجنة ، وعلى ذلك بايعهم يوم الميثاق، فمن وفى بالعهد فله الجنة ، ومن ذهب برقبته يخلّد في النار بمقدار دوام السموات والأرض ؛ فإنما دامتا للمعاملة ؛ وكذلك أهل الجنة خلود في الجنة بمقدار ذلك ؛ فإذا تمت هذه المعاملة وقع الجميع في مشيئة الله؛ قال الله تعالى : « وَمَا خَلَقْنَا السَّمواتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ . ما خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ » فيخلّد أهل الدارين بمقدار دوامهما، وهو حق الربوبية بذلك المقدار من العظمة؛ ثم أوجب لهم الأبد في كلتا الدارين لحقّ الأحدية ،فمن لقيه موحّدا لأحديته بقي في داره أبدا ،ومن لقيه مشركا بأحديته إلهـا بقي في السجن أبدا ؛ فأعلم الله العباد مقدار الخلود ، ثم قال : « إلا ما شاء ربك » من زيادة المدّة التي تعجز القلوب عن إدراكها لأنه لا غاية لها ؛ فبالاعتقاد دام خلودهم في الدارين أبدا . وقد قيل : إن « إلّا » بمعنى الواو ، قاله الفرّاء وبعض أهل النظر وهو — الثامن — والمعنى : وما شاء ربك من الزيادة في الخلود على مدّة دوام السموات والأرض في الدنيا . وقد قيل في قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا »[1] أي ولا الذين ظلموا . وقال الشاعر :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخــوه * لَعمرُ أبيكَ إلا الفرْقَدانِ

أي والفرقدان . وقال أبو محمد مكيّ : وهذا قول بعيد عند البصريين أن تكون « إلا » بمعنى الواو ، وقد مضى في « البقرة »[2] بيانه . وقيل : معناه كما شاء ربك؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » أي كما قد سلف ،وهو — التاسع . العاشر — وهو أن قوله تعالى : « إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » إنما ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى آستعماله في كل كلام ؛ فهو على حدّ قوله تعالى: « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » فهو استثناء في واجب ، وهذا الاستثناء في حكم الشرط كذلك ؛ كأنه قال : إن شاء ربك ، فليس يوصف بمتصل ولا منقطع ؛ ويؤيده ويقويه قوله تعالى : « عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ » ونحوه عن أبي عُبيد قال : تقدّمت عزيمة المشيئة من الله تعالى

---

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب . وقيل : هو لحضرمي بن عامر . ويجوز أن تكون « إلا » هنا بمعنى غير . قال سيبويه : كأنه قال وكل أخ غير الفرقدين مفارقه أخوه ؛ فقد نعت « كلا » بها .

(٢) راجع ج ٢ ص ١٦٩ طبعة ثانية .

فى خلود الفريقين فى الدارين ؛ فوقع لفظ الاستثناء ، والعزيمـة قد تقـدّمت فى الخـلود ؛ قال : وهـذا مثل قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ » وقد علم أنهم يدخلونه حتما، فلم يوجب الاستثناء فى الموضعين خيـارا ؛ إذ المشيئة قد تقدّمت بالعـزيمة فى الخلود فى الدارين والدخول فى المسجد الحرام؛ ونحوه عن الفراء. وقول ــ حادى عشر ــ وهو أن الأشقياء هم السعداء، والسعداء هم الأشقياء لاغيرهم، والاستثناء فى الموضعين راجع إليهم؛ وبيانه أن « ما » بمعنى « من »، استثنى الله عز وجل من الداخلين فى النار المخلدين فيها الذين يخرجون منها من أمة محمـد صلى الله عليه وسلم بما معهم من الإيمان ؛ واستثنى من الداخلين فى الجنة المخلدين فيها الذين يدخلون النار بذنوبهم قبل دخول الجنة ثم يخرجون منها إلى الجنة، وهم الذين وقع عليهم الاستثناء الثانى ؛ كأنه قال تعالى : فأمّا الذين شقوا ففى النار لهم فيهـا زفير وشهيق خالدين فيهـا ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ألّا يخلده فيها ، وهم الخارجون منها من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فهم بدخولهم النار يسمون الأشقياء ، وبدخولهم الجنة يسمون السـعداء ؛ كما روى الضّحاك عن ابن عباس إذ قال : الذين سعدوا شَقُوا بدخول النـار ثم سعدوا بالخروج منها ودخولهم الجنة .

وقرأ الأعمش وحفص وحمـزة والكسائى « وأَمَّا الَّذِينَ سُـعِدُوا » بضم السين . وقال أبو عمرو : والدليل على أنه سَعِدوا أن الأول شَقُوا ولم يقل أشقوا . قال النحاس : ورأيت علىّ بن سليمان يتعجب من قراءة الكسائى « سُعِدوا » مع علمه بالعربية ! إذ كان هذا لحنـا لا يجوز؛ لأنه إنما يقال : سَعِد فلان وأسعده الله، وأُسعد مثل أُمرِض؛ وإنما احتجّ الكسائى بقولهم : مسعود ولا حجة له فيه؛ لأنه يقال : مكان مسعود فيه، ثم يحذف فيه ويسمى به . قال المهدوى : ومن ضمّ السين من « سعِدوا » فهو محمول على قولهم : مسعود ، وهو شاذ قليل ؛ لأنه لا يقال سعده الله، إنمـا يقال : أسعده الله . وقال الثعلبى : « سُعِدوا » بضم السين أى رزقوا السعادة؛ يقال : سُعِد وأسعِد بمعنى واحد . وقرأ الباقون « سَعِدوا » بفتح

السين قياسا على «شَقُوا» وٱختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وقال الجوهرىّ : والسعادة خلاف الشّقاوة؛ تقول: منه سَعِد الرجل بالكسر فهو سعيد، مثل سَلِم فهو سليم، وسُعِد فهو مسعود؛ ولا يقال فيه مُسْعَد، كأنهم ٱستغنوا عنه بمسعود . وقال القُشيرىّ أبو نصر عبد الرحيم : وقد ورد سَــعَده الله فهو مسعود، وأســعده الله فهو مسعد؛ فهذا يقوى قول الكوفيين . وقال سيبويه : لا يقال سُعِد فلان كما لا يقال شُقِى فلان؛ لأنه مما لا يتعدّى . ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أى غير مقطوع؛ من جَذّه يَجُذّه أى قطعه؛ قال النّـابغة :

تَجُذُّ السَّــلُوقِىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ ٱلحُبَـاحِبِ (١)

قوله تعـالى : ﴿ فَلَا تَكُ ﴾ جزم بالنهى؛ وحذفت النون لكثرة الاستعمال . ﴿ فِى مِرْيَةٍ ﴾ أى فى شـك . ﴿ مِمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ﴾ من الآلهة أنها باطل . وأحسن من هذا : أى قل يا محمد لكل من شك « لاتك فى مرية ممـا يعبد هؤلاء » أن الله عز وجل ما أمرهم به ، وإنمـا يعبدونها كما كان آباؤهم يفعلون تقليـدا لهم . ﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها — نصيبهم من الرزق ؛ قاله أبو العالية . الثانى — نصـيبهم من العذاب؛ قاله ٱبن زيد . الثـالث — ما وُعِدوا به من خير أو شر؛ قاله ٱبن عباس رضى الله عنهما .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ الكلمة : أنّ الله عز وجل حكم أن يؤخرهم إلى يوم القيامة لمـا علم فى ذلك من الصـلاح؛ ولولا ذلك لقضى بينهـم أجلهم بأن يثيب المؤمن ويعاقب الكافر . قيل المراد بين المختلفين فى كتاب موسى؛ فإنهم كانوا بين مصدّق ومكذّب . وقيل : بين هؤلاء المختلفين فيك يا محمد بتعجيل العقـاب ، ولكن سبق

(١) البيت للنابغة الذبيانى يصف فيه السيوف . ويروى ( ويوقدن ) . والسلوق : الدرع المنسوب الى سلوق؛ قرية باليمن . والمضاعف : الذى نسج حلقتين . والصفاح . الحجارة العراض . والحباحب : ذباب له شعاع بالليل ، وقيل : نار الحباحب ما اقتدح من شرر النار فى الهواء بتصادم حجرين .

الحكم بتأخير العقـاب عن هذه الأمة إلى يوم القيـامة . ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴾ إن حملت على قوم موسى؛ أى لفى شك من كتاب موسى فهم فى شك من القرآن .

قوله تعـالى : وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أى إنّ كلا من الأمم التى عددناهم يرون جزاء أعمالهم؛ فكذلك قومك يا محمد . وآختلف القراء فى قراءة ﴿ وإنّ كُلًّا لَمَّا ﴾ فقراء أهل الحرمين — نافع وآبن كثير وأبو بكر معهم — « وَإِنْ كُلًّا » بالتخفيف، على أنها « إن » المخففة من الثقيلة معملة؛ وقد ذكر هـذا الخليل وسيبويه، قال سـيبويه : حدثنا من أثق به أنه سمع العرب تقول : إنْ زيدا لمنطلقٌ؛ وأنشد قول الشاعر[1] :

* كأنْ ظبيةً تَعْطُو إلى وَارِقِ السَّلَمْ *

أراد كأنها ظبية فخفّف ونصب ما بعدها؛ والبصريون يجوزون تخفيف « إنّ » المشدّدة مع إعمالها؛ وأنكر ذلك الكسائىّ وقال : ما أدرى على أى شىء قرئ « وَإِنْ كُلًّا » ! وزعم الفرّاء أنه نصب « كلّا » فى قراءة من خفّف بقوله : « ليوفّينّهم » أى وإن ليوفينهم كلّا؛ وأنكر ذلك جميع النحويين، وقالوا : هذا من كبير الغلط؛ لا يجوز عند أحد زيدا لأضربنه[2] . وشدّد الباقون «إنّ» ونصبوا بها « كلّا» على أصلها. وقرأ عاصم وحمزة وآبن عامر « لَمَّا » بالتشديد، وخفّفها الباقون على معنى : وإن كلّا ليوفينهم، جعلوا «ما» صلة . وقيل : دخلت لتفصل بين اللامين اللتين تتلقيان القسم ، وكلاهما مفتوح ففصل بينهما بـ«ما» . وقال الزجاج : لام « لمّا » لام « إنّ » و « ما » زائدة مؤكدة؛ تقول : إن زيدا لمنطلق؛ فإنّ

---

(١) هو : آبن صريم اليشكرى؛ وصدر البيت :

* ويوما توافينا بوجه مقسم *

يجوز نصب الظبية بكأن تشبيها بالفعل إذا حذف وعمل، والخبر محذوف لعلم السامع . ويجوز جر الظابية على تقدير: كظبية، وأن زائدة مؤكدة . (٢) قال الطبرى : وذلك أن العرب لا تنصب بفعل بعد لام اليمين اسما قبلها .

تقتضي أن يدخل على خبرها أو آسمها لام كقولك : إنّ الله لغفـور رحيم ، وقـوله : « إن في ذلك لذكرى » . واللام في « ليوفينهم » هي التي يُتلقّى بها القسم ، وتدخل على الفعل ويلزمها النون المشـدّدة أو المخففة ؛ ولما اجتمعت اللامان فصـل بينهما بـ« ما » و « ما » زائدة مؤكدة . وقال الفـراء : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » أي وإنّ كلّا لمن ليوفينهم ، واللام في « ليوفينهم » للقسم ؛ وهذا يرجع معناه إلى قول الزجاج ، غير أن « ما » عند الزجاج زائدة وعنـد الفراء آسم بمعنى « مَن » . وقيـل : ليست بزائدة ، بل هي آسم دخل عليها لام التأكيد ، وهي خبر « إنّ » و « ليوفينهم » جواب القسم ؛ التقدير : وإنّ كلا خَلْق ليوفينهم ربك أعمالهم . وقيـل : « ما » بمعنى « مَن » كقوله : « فَآنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » أي مَنْ ؛ وهذا كله هو قول الفرّاء بعينه . وأما من شدّد « لمـا » وقرأ « وَإِنَّ كُلًّا لَمَّـا » بالتشديد فيهما — وهو حمزة ومن وافقه — فقيل : إنه لحن ؛ حكي عن محمد بن يزيد أن هذا لا يجوز ؛ ولا يقـال : إنّ زيدا إلّا لضربته ، ولا لَمّـا لضربته . وقال الكسائي : الله أعلم بهذه القراءة ، وما أعرف لها وجها . وقال أيضا هو وأبو علي الفارسيّ : التشديد فيهما مشكل . قال النحاس وغيره : وللنحويين في ذلك أقوال : الأوّل — أن أصلها «لمن ما» فقلبت النون ميما ، واجتمعت ثلاث ميمات ، فحذفت الوسطى فصارت «لمـا» و«ما» على هذا القول بمعنى « من » تقديره : وإن كلا لمن الذين ؛ كقولهم :

وإنّي لَمَّـا أُصـدِرُ الأمرَ وجهَهُ * إذا هو أعْيَا بالسَّبيلِ مَصَـادِرُه

وزيّف الزجاج هذا القول ، وقال : « من » آسم على حرفين فلا يجوز حذفه . الثاني — أن الأصل لَمِن ، فحذفت الميم المكسورة لاجتماع الميات ، والتقدير : وإنْ كُلًّا لَمِنْ خَلْقٍ ليوفينّهم . وقيل : «لَمّـا» مصدر « لَمَّ » وجاءت بغير تنوين حملا للوصل على الوقف ؛ فهي على هـذا كقوله : « وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّـا » أي جامعا للمـال المأكول ؛ فالتقـدير على هذا : وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم توفية لمًّـا ؛ أي جامعة لأعمالهم جمعا ، فهو كقولك : قياما لأقومنّ . وقد قرأ الزهري « لَمًّـا » بالتشديد والتنوين على هـذا المعنى . الثالث —

أن « لمّـا » بمعنى « إلّا » حكى أهل اللغة: سألتك بالله لمّـا فعلت، بمعنى إلّا فعلت؛ ومثله قوله تعـالى : « إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ » أى إلا عليها ؛ فمعنى الآية : ما كل واحد منهم إلا ليوفينهم؛ قال القُشيرى: وزيّف الزجاج هذا القول بأنه لا نفى لقوله : « وَإِنْ كُلًّا لمـا » حتى تقـدّر « إلا » ولا يقـال : ذهب الناس لمـا زيد . الرابع — قال أبو عثمان المـازنى : الأصل وإن كلًّا لَمَا بتخفيف « لمّـا » ثم ثقلت، كقوله :[(1)]

لقـد خَشِيتُ أَنْ أَرى جَدَبًّا * فى عامنا ذا بعـدَ مَا أَخْصَبًّا

وقال أبو إسحـق الزجاج : هذا خطأ! إنمـا يخفّف المثقّـل، ولا يثقّل المخفّف . الخـامس — قال أبو عبيد القاسم بن سـلّام . يجوز أن يكون التشديد من قولهم : لَمَمْتُ الشيءَ أَلُمُّـه لَمًّا إذا جمعته، ثم بنى منه فَعْلَى، كما قرئ «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُـلَنَا تَتْرَى » بغير تنوين وبتنوين: فالألف على هذا للتأنيث، وتمال على هذا القول لأصحاب الإمالة؛ قال أبو إسحق: القول الذى لا يجوز غيره عندى أن تكون مخففة من الثقيلة، وتكون بمعنى « ما » مثل : «إن كل نفسٍ لمـا عليها حافظ » وكذا أيضا تشدّد على أصلها، وتكون بمعنى « ما » و « لمـا » بمعنى« إلا » حكى ذلك الخليل وسيبويه وجميع البصريين؛ وأن « لمـا »يستعمل بمعنى« إلا » .

قلت : هـذا القول الذى ارتضاه الزّجاج حكاه عنـه النحاس وغيره؛ وقد تقـدم مثله وتضعيف الزجاج له، إلا أن ذلك القول « إِنْ » فيه نافية، وهنا مخففة من الثقيلة فافترقا .[(1)] وبقيت قراءتان؛ قال أبو حاتم : وفى حرف أبىّ « وَإِنْ كُلٌّ إِلَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ » . وروى عن الأعمش « وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا » بتخفيف « إن » ورفع « كل » وبتشديد « لمـا » . قال النحاس : وهذه القراءات المخالفة للسواد تكون فيها « إِنْ » بمعنى « ما » لا غير، وتكون على التفسير؛ لأنه لا يجوز أن يقرأ بما خالف السواد إلا على هذه الجهة . ﴿ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ تهديد ووعيـــد .

---

(١) البيت لرؤبة . (١) وردت العبارة الآتية بإحدى النسخ تصويبا لعبارة القرطبى، ومذيلة بكلمة (حاشية) : (صواب ما ذكره الشيخ رحمه الله أن يقول : إلا أن هذا القول « إن » فيه نافية والقول المتقدم « إن » فيه مخففة من الثقيلة فافترقا ) .

قوله تعالى : فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره . وقيل : له والمراد أمته؛ قاله السُّدّيّ . وقيل : « استقم » ٱطلب الإقامة على الدِّين من الله وٱسأله ذلك . فتكون السين سين السؤال، كما تقول : ٱستغفر الله ٱطلب الغفران . والٱستقامة الٱستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال؛ أي فاستقم على ٱمتثال أمر الله . وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفيّ قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك! قال : " قل آمنت بالله ثم ٱستقم ". وروى الدّارِميّ أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزديّ قال : دخلت على ٱبن عباس فقلت أوصني! فقال : نعم! عليك بتقوى الله والاستقامة ، ٱتبع ولا تبتدع . ﴿ وَمَن تَابَ مَعَكَ ﴾ أي ٱستقم أنت وهم؛ يريد أصحابه الذين تابوا من الشّرك ومن بعده ممن ٱتبعه من أمته . قال ٱبن عباس : ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشدّ ولا أشق من هذه الآية عليه ؛ ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب! فقال : " شيّبتني هودٌ وأخواتها " وقد تقدم في أوّل السورة . وروى عن أبي عبد الرحمن السُّلَميّ قال سمعت أبا علي السَّرِيّ[(1)] يقول: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله! روى عنك أنك قلت : " شيّبتني هودٌ " فقال : " نعم " فقلت له : ما الذي شيّبك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم ؟ فقال : " لا ولكن قوله : « فاستقم كما أمرت » " . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا۟ ﴾ نهي عن الطّغيان . والطّغيان مجاوزة الحدّ؛ ومنه « إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَآءُ » . وقيل : أي لا تتجبروا على أحد .

قوله تعالى : وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

(١) في الأصل ( الشتوى ) وصوب عن ( الدر المنثور ) .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ الركون حقيقته الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به؛ قال قَتادة : معناه لا تودّوهم ولا تطيعوهم . ابن جريج : لا تميلوا إليهم . أبو العالية : لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب . وقال ابن زيد : « الركون هنا الإدْهان[1] وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم .

الثانيـة — قرأ الجمهور «تَرْكَنُوا» بفتح الكاف؛ قال أبو عمرو : هي لغة أهل الحجاز . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وقَتَادة وغيرهما « تَرْكُنُوا » بضم الكاف؛ قال الفرّاء : وهي لغة تميم وقيس . وجوز قوم رَكَنَ يركَن مثل مَنَعَ يَمْنَع .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ قيل : أهل الشرك . وقيل : عامة فيهم وفي العصاة، على نحو قوله تعالى: « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية؛ وقد تقدم . وهذا هو الصحيح في معنى الآية، وأنها دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي من أهل البدع وغيرهم ؛ فإن صحبتهم كفر أو معصية ؛ إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودّة ؛ وقد قال حكيم[2] :

عن المرء لا تَسأل وسَل عن قَرينه * فكلُّ قرينٍ بالمُقارِن يَقْتَـدِي

فإن كانت الصحبة عن ضرورة وتَقيّة فقد مضى القول فيها في « آل عمران »[3] و « المائدة »[4] . وصحبة الظالم على التَّقية مستثناة من النهي بحال الاضطرار . والله أعلم .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾ أي تحرقكم بمخالطتهم ومصاحبتهم وممالأتهم على إعراضهم وموافقتهم في أمورهم .

قوله تعالى : وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

(١) الإدهان : المصانعة . (٢) هو طرفة بن العبد . (٣) راجع ج ٤ ص ٥٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع ج ٦ ص ٢١٧ طبعة أولى أو ثانية .

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية يراد بها الصلوات المفروضة ؛ وخصها بالذكر لأنها ثانية الإيمان، وإليها يُفزع فى النوائب ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبه[1] أمر فزع إلى الصلاة . وقال شيوخ الصّوفية : إن المراد بهذه الآية ٱستغراق الأوقات بالعبادة فرضا ونفلا ؛ قال ٱبن العربيّ : وهذا ضعيف، فإن الأمر لم يتناول ذلك لا واجبا [فإنها خمس صلوات[2] و] لا نفلا فإن الأوراد معلومة، وأوقات النوافل المرغب فيها محصورة، وما سواها من الأوقات يسترسل عليها الندب على البدل لا على العموم، وليس ذلك فى قوة بشر .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ طَرَفَيِ النَّهَارِ ﴾ قال مجاهد : الطّرف الأول صلاة الصبح، والطرف الثانى صلاة الظهر والعصر ؛ واختاره ٱبن عطية . وقيل : الطّرفان الصبح والمغرب ؛ قاله ٱبن عباس والحسن . وعن الحسن أيضا : الطّرَف الثانى العصر وحده ؛ وقاله قَتادة والضّحاك . وقيل : الطّرَفان الظهر والعصر . والزُّلَف المغرب والعشاء والصّبح ؛ كأن هذا القائل راعى جهر القراءة . وحكى الماورديّ أن الطّرَف الأول صلاة الصبح باتفاق .

قلت : وهذا الاتفاق ينقضه القول الذى قبله . ورجح الطّبَرىّ أن الطرفين الصبح والمغرب ، وأنه ظاهر؛ قال ٱبن عطية : ورد عليه بأن المغرب لاتدخل فيه لأنها من صلاة الليل . قال ٱبن العربيّ : والعجب من الطّبَرىّ الذى يرى أن طرف النهار الصبح والمغرب وهما طَرَفا الليل ! فقَلَب القوس رَكْوَة[3] ، وحاد عن البُرْجاس[4] غَلْوة ؛ قال الطّبَرىّ : والدليل عليه إجماع الجميع على أن أحد الطّرَفين الصّبح ، فدلّ على أن الطرف الآخر المغرب ؛ ولم يجمع معه على ذلك أحد .

---

(١) (حزبه) : نزل به مهم، أو أصابه غم . (٢) الزيادة عن ٱبن العربى . (٣) لفظ المثل كما فى الصحاح وغيره (صارت القوس ركوة) و يضرب فى الأدبار وانقلاب الأمور . (٤) البرجاس (بالضم) : غرض على رأس رمح أو نحوه مولد . والغلوة : قدر رمية بسهم .

قلت : هـذا تحامل من آبن العربيّ فى الرد ، وأنه لم يجمـع معه على ذلك أحد؛ وقـد ذكرنا عن مجاهد أن الطرف الأوّل صلاة الصبح ، وقد وقع الاتفاق — إلا من شذ — بأن من أكل أو جامع بعد طلوع الفجر متعمدا أن يومه ذلك يوم فطر ، وعليه القضاء والكفارة ، وما ذلك إلا وما بعد طلوع الفجر من النهار ؛ فدلّ على صحة ما قاله الطبريّ فى الصبح؛ وتبقى عليه المغرب والرّد عليه فيه ما تقدّم . والله أعلم .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أى فى زلف من الليل ، والزّلف الساعات القريبة بعضها من بعض ؛ ومنه سميت المزدلفة ؛ لأنها منزل بعد عَرَفة بقرب مكة . وقرأ آبن القَعْقاع وآبن أبى إسحق وغيرهما « وزُلُفًا » بضم اللام جمع زَلِيف لأنه قد نطق بزليف ، ويجوز أن يكون واحده « زُلُفة » لغــة ؛ كبُسُرة و بُسُر ، فى لغة من ضمّ السين . وقرأ آبن محيصن « وَزُلْفًا » من الليــل بإسكان اللام ؛ والواحدة زُلْفة تجمـع جمع الأجناس التى هى أشخاص كدُرّة ودُرّ و بُرّة و بُرّ . وقرأ مجاهــد وآبن مُحيصن أيضا « زُلْفَى » مثل قُربى . وقرأ الباقون « وزُلَفًا » بفتح اللام كغُرْفة وغُرَف . قال ابن الأعرابى : الزّلف الساعات ، واحدها زُلْفة . وقال قوم : الزّلفة أوّل ساعة من الليل بعــد مغيب الشمس ؛ فعلى هذا يكون المراد بزلف الليل صــلاة العَتَمة ؛ قاله ابن عباس . وقال الحسن : المغرب والعشاء . وقيــل : المغرب والعشاء والصبح ؛ وقد تقدّم . وقال الأخفش يعنى صلاة الليل ولم يعيّن .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ ذهب جمهور المتأوّلين من الصحابة والتابعين إلى أن الحسنات هاهنا هى الصلوات الخمس . وقال مجاهد : الحسنات قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا آله إلا الله والله أكبر؛ قال آبن عطية : وهذا على جهة المثـال فى الحسنات ، والذى يظهــر أن اللفظ عام فى الحسنات خاص فى السيئات ؛ لقــوله صلى الله عليه وسلم : " ما آجتنبتَ الكبائر " .

قلت : سبب النزول يعضــد قول الجمهور ؛ نزلت فى رجل من الأنصار ، قيــل : هو أبو اليَسَر بن عمرو . وقيل : آسمه عباد ؛ خلا بآمرأة فقبّلها وتلذّذ بها فيما دون الفرج . روى

الترمذي عن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " إني عالجتُ امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أَمَسَّها وأنا هـذا فاقضِ فيّ ما شئت " فقال له عمر : لقد سترك الله! لو سترت على نفسك؛ فلم يردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلق الرجل فأتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا فدعاه ، فتلا عليه : « أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » إلى آخر الآية ؛ فقال رجل من القوم : هذا له خاصة؟ قال : " [ لا ][1] بل للناس كافة ". قال الترمذي : حديث حسن صحيح . وخرّج أيضا عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلةَ حرامٍ فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن كفارتها فنزلت « أَقِمِ الصلاة طرفِي النهارِ وزلفا مِن الليلِ إن الحسناتِ يذهِبن السيئاتِ » فقال الرجل : أَلِي هذه يا رسول الله ؟ فقال : " لك ولمن عمل بها من أمّتي " . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . ورَوى عن أبي اليَسَر قال : أتتني امرأة تبتاع تمرا فقلت : إن في البيت تمرا أطيب من هذا فدخلت معي في البيت فأهويت إليها فقبلتها ، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتُبْ ولا تُخْبِر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال : استر على نفسك وتُبْ ولا تُخبر أحدا فلم أصبر ؛ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال : " أَخَلَفْتَ غازيا في سبيل الله في أهله بمثل هـذا " حتى تمنى أنه لم يكن أسلم إلا تلك الساعة ، حتى ظن أنه من أهل النار . قال : وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أوحى الله إليه « أَقِمِ الصلاة طرفِي النهارِ وزلفا مِن الليلِ إن الحسناتِ يذهِبن السيئاتِ ذلِك ذِكرى لِلذاكِرين » . قال أبو اليَسَر : فأتيته فقرأها عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحابه : يارسول الله! أَلِهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال : " بل للناس عامة " . قال أبو عيسى : هـذا حديث حسن غريب[2] ، وقيس بن الربيع ضعفه وكيع وغيره ؛ وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم أعرض عنه ، وأقيمت صلاة العصر فلما فرغ منها نزل جبريل عليه السلام عليه بالآية فدعاه فقال له :

(١) الزيادة عن الترمذي .	(٢) الذي في صحيح الترمذي ( صحيح ) بدل ( غريب ) .

" أشهدت معنا الصــلاة " قال نعم ؛ قال : " آذهب فإنها كفارة لمـا فعلت " . وروى أن النبيّ صــلى الله عليه وسلم لمـا تلا عليه هذه الآية قال له : " قم فصل أربع ركعات ". والله أعلم . وخرج الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث آبن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لم أر شيئا أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم، « إن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ذلِك ذِكرى لِلذاكِرين » " .

الخامســـة — دلت الآية مع هـذه الأحاديث على أن القبـلة الحرام واللمس الحرام لا يجب فيهما الحدّ ؛ وقـد يستدل به على أن لا حدّ ولا أدب على الرجل والمرأة وإن وجدا فى ثوب واحد، وهو آختيار ابن المنذر ؛ لأنه لمـا ذكر آختلاف العلماء فى هذه المسئلة ذكر هـذا الحديث مشيرا إلى أنه لا يجب عليهما شيء، وسيأتى ما للعلماء فى هـذا فى « النور »[(1)] إن شاء الله تعالى .

السادســـة — ذكر الله سبحانه فى كتابه الصلاة بركوعها وسجودها وقيامها وقراءتها وأسمائها فقال : « أقِمِ الصلاة » الآية . وقال : « أقِمِ الصــلاة لِدلوكِ الشمسِ » الآية . وقال : « فسبحان اللهِ حِين تمسون وحِين تصبِحون . وله الحمد فِى السمواتِ والأرض وعشِيا وحِين تظهِرون » . وقال : « وسبح بِحمـدِ ربك قبل طلوعِ الشمسِ وقبــل غروبِها » . وقال : « واركعوا واسجدوا » . وقال : «وقوموا للهِ قانِتِين» . وقال : « وإذا قرِئ القرآن فاستمِعوا له وأنصِتوا » على ما تقدّم . وقال : « ولا تجهر بِصلاتِك ولا تخافِت بِها» أى بقراءتك ؛ وهذا كله مجمل أجمله فى كتابه، وأحال على نبيه فى بيانه ؛ فقال جل ذكره : « وأنزلنا إليــك الذكر لِتبين لِلنـاسِ ما نزل إليهــم » فبيّن صلى الله عليه وســلم مواقيت الصــلاة ، وعدد الركعات والسّجدات ، وصــفة جميع الصلوات فرضها وسنتها ، وما لا تصــح إلا به من الفرائض ، وما يستحب فيها من السنن والفضائل؛ فقال فى صحيح البخارى : "صلّوا كما رأيتمونى أصلى". ونقل ذلك عنه الكافة عن الكافة، على ما هو معلوم ، ولم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى

(١) راجع المسئلة السابعة فى تفسير آية ٢ .

بيّن جميع ما بالناس الحاجة إليه؛ فكمل الدِّين، وأوضح السبيل؛ قال الله تعالى: « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا » .

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ أى القرآن موعظة وتوبة لمن اتعظ وتذكر؛ وخص الذاكرين بالذكر لأنهـم المنتفعون بالذكرى . والذكرى مصـدر جاء بألف التأنيث .

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَآ أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ أى على الصلاة؛ كقوله: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا» . وقيــل : المعنى وٱصبر يا محمد على ما تلقى من الأذى . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المصلين .

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ أى هلّا كان . ﴿ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ أى من الأمم التى قبلكم . ﴿ أُولُو بَقِيَّةٍ ﴾ أى أصحاب طاعة ودين وعقل وبصر . ﴿ يَنْهَوْنَ ﴾ قومهم . ﴿ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ﴾ لمـا أعطاهم الله تعالى من العقول وأراهم من الآيات؛ وهـذا توبيخ للكفار . وقيل: لولا هاهنا للنفى؛ أى ما كان من قبلكم؛ كقوله: فلولا كانت قرية آمنت أى ما كانت . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن قليلا . ﴿ مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ نهوا عن الفساد فى الأرض . قيل : هم قوم يونس؛ لقوله : « إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ » . وقيل : هم أتباع الأنبياء وأهل الحق . ﴿ وَٱتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا وعصوا . ﴿ مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴾ أى من الاشتغال بالمـال واللذات، وإيثار ذلك على الآخرة . ﴿ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى ﴾ أى أهـل القرى . ﴿ بِظُلْمٍ ﴾ أى بشرك وكفر . ﴿ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ أى فيما بينهم فى تعاطى الحقوق؛ أى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليـه الفساد ، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان ، وقوم لوط باللواط ؛ ودل هــذا على أن المعاصى أقرب إلى عذاب الاستئصال فى الدنيـا من الشّرك ، وإن كان عذاب الشّرك فى الآخرة أصعب . وفى صحيح التّرمذىّ من حديث أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنـده" وقد تقـدّم (1) . وقيل : المعنى وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مسلمون ، فإنه يكون ذلك ظلما لهم ونقصا من حقهـم، أى ما أهلك قوما إلا بعـد إعذار وإنذار . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ما كان ربك ليهلك أحدا وهو يظلمــه وإن كان على نهاية الصلاح ؛ لأنه تصرف فى ملكه؛ دليله قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا » . وقيل : المعنى وما كان الله ليهلكهم بذنوبهم وهم مصلحون؛ أى مخلصون فى الإيمان . فالظلم المعاصى على هذا .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّـاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ قال سعيد بن جُبير : على ملّة الإسلام وحدها . وقال الضّحاك : أهل دين واحد، أهل ضلالة أو أهل هدى . ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أى على أديان شتى؛ قاله مجاهـد وقتادة . ﴿ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ استثناء منقطع؛ أى لكن من رحم ربك بالإيمان والهـدى فإنه لم يختلف . وقيل : مختلفين فى الرزق، فهذا

(1) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

غنىّ وهذا فقير « إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ » بالقناعة؛ قاله الحسن . ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قال الحسن ومقاتل وعطاء : إيماء الإشارة للاختلاف؛ أى وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضّحاك : ولرحمته خلقهم؛ وإنما قال : « ولذلك » ولم يقل ولتلك، والرحمة مؤنثة لأنه مصدر؛ وأيضا فإن تأنيث الرحمة غير حقيقى، فحملت على معنى الفضل . وقيل : الإشارة بذلك للاختلاف والرحمة ، وقد يشار بـ«ذلك» إلى شيئين متضادين ؛ كقوله تعالى : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ » ولم يقل بين ذينك ولا تينك ، وقال : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا » وقال : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا » وكذلك قوله : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » وهذا أحسن الأقوال إن شاء الله تعالى؛ لأنه يعم، أى ولما ذُكر خَلَقهم؛ وإلى هذا أشار مالك رحمه الله فيما روى عنه أشهب؛ قال أشهب : سألت مالكا عن هذه الآية قال: خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السّعير ؛ أى خلَق أهل الاختلاف للاختلاف، وأهل الرحمة للرحمة . وروى عن ابن عباس أيضا قال : خَلَقهم فريقين، فريقا يرحمه وفريقا لا يرحمه . قال المهدوىّ : وفى الكلام على هذا التقدير تقديم وتأخير ؛ المعنى : ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، وتمت كلمة ربك لأملأنّ جهنم من الجنة والناس أجمعين؛ ولذلك خلقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » والمعنى : ولشهود ذلك اليوم خلَقهم . وقيل هو متعلق بقوله : « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » أى للسّعادة والشّقاوة خلَقهم .

قوله تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ معنى « تمت » ثبت ذلك كما أخبر وقدّر فى أزله؛ وتمام الكلمة امتناعها عن قبول التغيير والتبديل . ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ « مِن » لبيان الجنس؛ أى من جنس الجنة وجنس الناس . « أجمعين » تأكيد؛ وكما أخبر أنه يملأ ناره كذلك أخبر على لسان نبيه أنه يملأ جنته بقوله : "ولكل واحدة منكما ملؤها". خرجه البخارىّ من حديث أبى هريرة وقد تقدّم .

قوله تعـالى : وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ «كلا» نصب بـ«نقصّ» معناه وكلّ الذى يحتاج إليه من أنباء الرسل نقصّ عليك . وقال الأخفش : «كُلًّا» حال مقدمة، كقولك : كُلًّا ضربت القوم . ﴿عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ﴾ أى من أخبارهم وصبرهم على أذى قومهم . ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أى على أداء الرسالة، والصبر على ما ينالك فيها من الأذى . وقيل : نزيدك به تثبيتا ويقينا . وقال ٱبن عباس : ما نشدّ به قلبك . وقال ٱبن جُريج : نُصبّر به قلبك حتى لا تجزع . وقال أهل المعانى : نُطيّب، والمعنى متقارب . و «ما» بدل من «كلا» المعنى : نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك . ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ أى فى هذه السورة ؛ عن ٱبن عباس وأبى موسى وغيرهما ؛ وخصّ هذه السّورة لأنّ فيها أخبار الأنبياء والجنة والنار . وقيل : خصّها بالذّكر تأكيدا وإن كان الحقّ فى كلّ القرآن . وقال قَتادة والحسن : المعنى فى هذه الدنيا يريد النبوة . ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموعظة ما يُتّعظ به من إهلاك الأمم الماضية، والقرون الخالية المكذبة؛ وهذا تشريف لهذه السّورة؛ لأن غيرها من السّور قد جاء فيها الحقّ والموعظة والذّكرى ولم يقل فيها كما قال فى هذه على التّخصيص . «وذِكرى لِلمؤمنين» أى يتذكرون ما نزل بمن هلك فيتوبون ؛ وخصّ المؤمنين لأنهم المتّعظون إذا سمعوا قصص الأنبياء .

قوله تعـالى : وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ ﴾ تهديد ووعيد . ﴿ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ تهديد آخر ، وقد تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى غيبهما وشهادتهما ؛ فحذف لدلالة المعنى . وقال ابن عباس : خزائن السموات والأرض . وقال الضحّاك : جميع ما غاب عن العباد فيهما . وقال الباقون : غيب السموات والأرض نزول العذاب من السماء وطلوعه من الأرض . وقال أبو على الفارسيّ : « ولله غيب السمواتِ والأرضِ » أى علم ما غاب فيهما ؛ أضاف الغيب وهو مضاف إلى المفعول توسعا ؛ لأنه حذف حرف الجر ؛ تقول : غبت فى الأرض وغبت ببلد كذا . ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ أى يوم القيامة ؛ إذ ليس لمخلوق أمر إلا بإذنه . وقرأ نافع وحفص « يُرْجَعُ » بضم الياء وفتح الجيم ؛ أى يُرَدّ . ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ أى الجأ إليه وثق به . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أى يجازى كلّا بعمله . وقرأ أهل المدينة والشام وحفص بالتاء على المخاطبة . الباقون بياء على الخبر . قال الأخفش سعيد : « يعملون » إذا لم يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم معهم ؛ قال : وقال بعضهم « تعملون » بالتاء لأنه خاطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قل لهم « وما ربك بغافلٍ عما تعملون » . وقال كعب الأحبار : خاتمة التوراة خاتمة « هـود » من قوله : « ولله غيب السمواتِ والارض » إلى آخر السورة . تمت سورة « هود » ويتلوها سورة « يوسف » عليه السلام .

بسم الله الرحمن الرحيم

# ســورة يوســف عليه السلام

وهى مكية كلها . وقال ابن عباس وقتادة : إلا أربع آيات منها . وروى أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قصة يوسف فنزلت السورة ؛ وسيأتى . وقال سعد ابن أبى وقاص : أنزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو قصصت علينا ؛ فنزل « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ » فتلاه عليهم زمانا فقالوا : لو حدثتنا ؛ فأنزل : « اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ » . قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل .

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ الٓر ﴾ تقدم القول فيه[1] ؛ والتقدير هنا : تلك آيات الكتاب ، على الابتداء والخبر . وقيل : « الٓر » اسم السورة ؛ أى هذه السورة المسماة « الر » . ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ يعنى القرآن المبين ؛ أى المبين حلاله وحرامه ، وحدوده وأحكامه وهداه وبركته . وقيل : أى هذه تلك الآيات التى كنتم توعدون بها فى التوراة .

قوله تعالى : إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ يجوز أن يكون المعنى : إنا أنزلنا القرآن عربيا ؛ نصب « قرآنا » على الحال ؛ أى مجموعا . و « عربيا » نعت لقوله قرآنا . ويجوز أن يكون توطئة للحال ، كما تقول : مررت بزيد رجلا صالحا ، و « عربيا » على الحال ،

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أى يُقرأ بلغتكم يا معشر العرب . أَعْرَبَ بَيَّنَ ، ومنه "الثَّيِّبُ تُعْرِب عن نفسها" .
﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أى لكى تعلموا معانيه ، وتفهموا ما فيه . وبعض العرب يأتى بأن مع « لعل » تشبيها بعسى . واللام فى « لعل » زائدة للتوكيد ؛ كما قال الشاعر[1] :

* يا أَبَتَا عَلَّكَ أَوْ عَسَاكَا *

وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتكونوا على رجاء من تدبّره؛ فيعود معنى الشّك إليهم لا إلى الكتاب ، ولا إلى الله عز وجل . وقيل : معنى « أنزلناه » أى أنزلنا خبر يوسف؛ قال النحاس : وهذا أشبه بالمعنى ؛ لأنه يروى أن اليهود قالوا : سلوه لم آنتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ؛ فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقا لما فى التوراة، وفيه زيادة ليست عندهم . فكان هذا للنبى صلى الله عليه وسلم — إذ أخبرهم ولم يكن يقرأ كتابا ولا هو فى موضع كتاب — بمنزلة إحياء عيسى عليه السلام الميت على ما يأتى فيه .

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ بمعنى المصدر ، والتقدير: قصصنا أحسن القَصَص. وأصل القَصَص تتبع الشيء، ومنه قوله تعالى: « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ؛ فالقاصّ يتبع الآثار فيخبر بها . والحسن يعود إلى القَصَص لا إلى القصّة . يقال : فلان حسن الاقتصاص للحديث أى جيّد السِّياقة له . وقيل : القَصَص ليس مصدرا، بل هو فى معنى الاسم، كما يقال : الله رجاؤنا ، أى مرجوّنا ؛ فالمعنى على هذا: نحن نخبرك بأحسن الأخبار . ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى بوحينا فـ « ما » مع الفعل بمنزلة المصدر . ﴿ هَٰذَا الْقُرْآنَ ﴾ نصب القرآن على أنه نعت لهذا، أو بدل منه، أو عطف بيان . وأجاز الفراء الخفض؛ قال : على التكرير ؛ وهو عند البصريين على البدل من « ما ».

---

(١) الرجز للعجاج ؛ وصدر البيت .

* تقول بنتى قد أنى أناكا *

وأجاز أبو إسحق الرفع على إضمار مبتدأ ؛ كأن سائلا سأله عن الوحى فقيل له : هو القرآن .
﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾ أى من الغافلين عما عرّفناك .

مسئلة — واختلف العلماء لم سُميت هذه السورة أحسن القَصص من بين سائر الأقاصيص؟ فقيل : لأنه ليست قصّة فى القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصّة؛ وبيانه قوله فى آخرها : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ » . وقيل : سماها أحسن القصص بحسن مجاوزة يوسف عن إخوته، وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم — بعد إلتقائهم — عن ذكر ما تعاطوه ، وكرمه فى العفو عنهم، حتى قال : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ » . وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين، والجنّ والإنس والأنعام والطّير، وسير الملوك والممالك، والتّجار والعلماء والجهّال، والرجال والنّساء وحيلهنّ ومكرهنّ، وفيها ذكر التّوحيد والفقه والسِّيَر وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، وجمل الفوائد التى تصلح للدّين والدّنيا . وقيل : لأن فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما . وقيل : « أحسن » هنا بمعنى أعجب . وقال بعض أهل المعانى : إنما كانت أحسن القَصص لأن كل من ذكر فيها كان مآله السعادة؛ انظر إلى يوسف وأبيه و إخوته، وآمرأة العزيز؛ قيل : والملك أيضا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقى ، والشاهد فيما يقال ؛ فما كان أمر الجميع إلا إلى خير .

قوله تعالى : إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ ﴾ « إذ » فى موضع نصب على الظرف؛ أى اذكر لهم حين قال يوسف . وقراءة العامة بضم السين . وقرأ طلحة آبن مُصَرِّف « يُؤْسِف » بالهمزة وكسر السين . وحكى أبو زيد « يؤسَف » بالهمزة وفتح السين . ولم ينصرف لأنه أعجمىّ؛ وقيل : هو عربىّ . وسئل أبو الحسن الأقطع — وكان حكيما — عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة

الحزن، والأسيف العبد، وقد آجتمعا فى يوسف؛ فلذلك سُمى يوسف. ﴿ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ ﴾ بكسر التاء قراءة أبى عمرو وعاصم ونافع وحمزة والكسائى، وهى عند البصريين علامة التأنيث أدخلت على الأب فى النداء خاصة بدلا من ياء الإضافة، وقد تدخل علامة التأنيث على المذكر فيقال: رجل نُكَحة وهُزَأة؛ قال النحاس: إذا قلت «يَا أَبَتِ» بكسر التاء فالتاء عند سيبويه بدل من ياء الإضافة؛ ولا يجوز على قوله الوقف إلا بالهاء، وله على قوله دلائل: منها — أن قولك: «يا أبه» يؤدّى عن معنى «يا أبى»؛ وأنه لا يقال: «يا أبت» إلا فى المعرفة؛ ولا يقال: جاءنى أبت، ولا تستعمل العرب هذا إلا فى النداء خاصة، ولا يقال «يا أبتى» لأن التاء بدل من الياء فلا يُجمع بينهما. وزعم الفراء أنه إذا قال: «يا أبتِ» فكسر دل على الياء لاغير؛ لأن الياء فى النية. وزعم أبو إسحق أن هذا خطأ، والحق ما قال؛ كيف تكون الياء فى النية وليس يقال: «يا أبتى»؟! وقرأ أبو جعفر والأعرج وعبد الله بن عامر «يا أبتَ» بفتح التاء؛ قال البصريون: أرادوا «يا أبتى» بالياء، ثم أبدلت الياء ألفا فصارت «يا أبتا» فحذفت الألف وبقيت الفتحة على التاء. وقيل: الأصل الكسر، ثم أبدل من الكسرة فتحة، كما يبدل من الياء ألف فيقال: يا غلاما أقبل. وأجاز الفراء «يا أبتُ» بضم التاء. ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا ﴾ ليس بين النحويين آختلاف أنه يقال: جاءنى أحدَ عشرَ، ورأيت ومررت بأحدَ عشرَ، وكذلك ثلاثةَ عشرَ وتسعةَ عشرَ وما بينهما؛ جعلوا الاسمين آسما واحدا وأعربوهما بأخفّ الحركات. قال السّهيلى: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا؛ رواه الحرث بن أبى أسامة قال: جاء بستانة — وهو رجل من أهل الكتاب — فسأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الأحد عشر كوكبا الذى رأى يوسف فقال: الحرثان والطارق والذيال وقابس والمصبح والضروح[1] وذو الكنفات وذو القرع والفليق ووثاب والعمودان؛ رآها يوسف عليه السلام تسجد له. قال آبن عباس وقتادة: الكواكب إخوته، والشمس أمه، والقمر أبوه. وقال قتادة أيضا: الشمس خالته، لأن أمه كانت قد ماتت، وكانت خالته تحت

(١) كذا فى «عقد الجمان» للعينى، وفى الأصل «النطح».

أبيــه . ﴿ رَأَيْتُهُـمْ ﴾ توكيد . وقال : « رَأَيْتُهُـمْ لِي سَاجِدِينَ » بجاء مذكرا ؛ فالقول عنــد الخليل وسيبويه أنه لمـا أخبر عن هــذه الأشـياء بالطاعة والسّـجود وهمـا من أفعـال من يعقل أخبر عنهما كما يخـبر عمن يعقل . وقد تقدّم هــذا المعنى فى قوله : « وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْـكَ » . والعرب تجمع ما لا يعقل جمع من يعقل إذا أنزلوه منزلتــه ، وإن كان خارجا عن الأصل .

قوله تعـالى : قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾

فيه إحدى عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ﴾ أى يحتـالوا فى هلاكك؛ لأن تأويلها ظاهر؛ فربما يحملهم الشيطان على قصدك بسوء حينئذ . واللام فى « لك » تأكيد، كقوله : « إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ » .

الثانيــة — الرؤيا حالة شريفة ، ومنزلة رفيعـة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "لم يبق بعدى من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة الصادقة يراها الرجل الصـالح أو تُرى له" . وقال : "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا" . وحكم صلى الله عليه وسلم بأنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة ، وروى "من سـبعين جزءا" . وروى من حديث ٱبن عبـاس رضى الله عنهما "جزء من أربعين جزءا من النبوّة" . ومن حديث ٱبن عمـر "جزء من تسعة واربعين جزءا" . ومن حديث العبـاس "جزء من خمسين جزءا من النبوّة" . ومن حديث أنس "من ستة وعشرين" وعن عُبادة بن الصّامت "من أربعة وأربعين من النبوّة" . والصحيح منها حديث الستة والأربعين ، ويتلوه فى الصحة حديث السبعين ؛ ولم يخرج مسلم فى صحيحه غير هــذين الحديثين ، وأما سائرها فمن أحاديث الشيوخ ؛ قاله ٱبن بَطّال . قال أبو عبد الله المـازَرىّ : والأكثر والأصح عنــد أهل الحديث "من سـتة وأربعين" . قال الطّبرىّ : والصواب أن

يقال إن عامة هذه الأحاديث أو أكثرها صحاح، ولكل حديث منها مخرج معقول؛ فأما قوله : "إنها جزء من سبعين جزءا من النبوّة" فإن ذلك قول عام فى كل رؤيا صالحة صادقة، ولكل مسلم رآها فى منامه على أى أحواله كان؛ وأما قوله : " إنها من أربعين ـ أو ـ ستة وأربعين " فإنه يريد بذلك من كان صاحبها بالحال التى ذكرت عن الصدّيق — رضى الله عنه — أنه كان بهـا؛ فمن كان من أهل إسباغ الوضوء فى السَّبَرات[1]، والصبر فى الله على المكروهات، وانتظار الصلاة بعـد الصلاة، فرؤياه الصالحة — إن شاء الله — جزء من أربعين جزءا من النبوّة، ومن كانت حاله فى ذاته بين ذلك فرؤياه الصـادقة بين الجزءين؛ ما بين الأربعـين إلى الستين، لا تنقص عن سبعين ، وتزيد على الأربعين ؛ وإلى هذا المعنى أشار أبو عمر بن عبد البر فقال : اختلاف الآثار فى هذا الباب فى عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندى اختلاف تضاد وتدافع — والله أعلم — لأنه يحتمل أن تكون الرؤيا الصالحة من بعض من يراها على حسب ما يكون من صدق الحديث، وأداء الأمانة، والدِّين المتين، وحسن اليقين؛ فعلى قدر اختلاف النـاس فيما وصفنا تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد؛ فمن خلصت نيتـه فى عبادة ربه ويقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوّة أقرب؛ كما أن الأنبياء يتفاضلون؛ قال الله تعالى : « وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ » .

قلت : فهـذا التأويل يجمع شتات الأحاديث ، وهو أولى من تفسير بعضها دون بعض وطرحه؛ ذكر أبو سعيد الأَسْفاقُسِىّ عن بعض أهل العلم قال : معنى قوله : " جزء من ستة وأربعـين جزءا من النبوّة " فإن الله تعـالى أوحى إلى محمد صـلى الله عليه وسـلم فى النبـوّة ثلاثة وعشرين عاما — فيما رواه عِكرمة وعمرو بن دينار عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما — فإذا نسبنا سـتة أشهر من ثلاثة وعشرين عاما وجدنا ذلك جزءا من ستة وأربعين جزءا ؛ وإلى هذا القول أشار المـازَرىّ فى كتابه « المعلم »، واختاره القونوىّ فى تفسيره من سورة « يونس » عند قوله تعالى : « لهم البشرى » . وهو فاسد من وجهين : أحدهما — ما رواه

(١) السبرات (جمع سبرة) بسكون الباء : شدة البرد .

أبو سَـلَمة عن ابن عباس وعائشة أن مدّة الوحى كانت عشرين سـنة ، وأن النبى صـلى الله عليه وسلم بعث على رأس أربعين ، فأقام بمكة عشر سنين ؛ وهو قول عروة والشعبى وابن شهاب والحسن وعطاء الخراسانى وسعيد بن المسيّب على اختلاف عنه ، وهى رواية ربيعة وأبى غالب عن أنس ، وإذا ثبت هـذا الحديث بطـل ذلك التأويل : الثـانى — أن سائر الأحاديث فى الأجزاء المختلفة تبقى بغير معنى .

الثالثـــة — إنما كانت الرؤيا جزءا من النبوّة ؛ لأن فيها ما يعجز ويمتنع كالطيران ، وقلب الأعيان ، والاطلاع على شىء من علم الغيب ؛ كما قال عليه السلام : " إنه لم يبق من مبشِّرات النبوّة إلا الرؤيا الصادقة فى النوم " الحديث . وعلى الجملة فإن الرؤيا الصادقة من الله ، وأنها من النبوّة ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " الرؤيا من الله والحُلْم من الشيطان " وأن التصديق بها حقّ ، ولها التأويل الحسن ، وربما أغنى بعضها عن التأويل ، وفيها من بديع الله ولطفه ما يزيد المؤمن فى إيمانه ؛ ولا خلاف فى هذا بين أهل الدّين والحقّ من أهل الرأى والأثر ، ولا ينكر الرؤيا إلا أهل الإلحاد وشِرذمة من المعتزلة .

الرابعـــة — إن قيل : إذا كانت الرؤيا الصادقة جزءا من النبوّة فكيف يكون الكافر والكاذب والمخلِّط أهلا لها ؟ وقد وقعت من بعض الكفار وغيرهم ممن لا يرضى دينه منامات صحيحة صادقة ؛ كمنام رؤيا الملك الذى رأى سبع بقرات ، ومنام الفتيين فى السجن ، ورؤيا بُخْتُنَصَّر الذى فسّرها دانيال فى ذهاب ملكه ، ورؤيا كسرى فى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنام عاتكة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمره وهى كافرة ، وقد ترجم البخارىّ « باب رؤيا أهل السجن » فالجواب — أن الكافر والفاجر والفاسق والكاذب وإن صدقت رؤياهم فى بعض الأوقات لا تكون من الوحى ولا من النبوّة ؛ إذ ليس كل من صدق فى حديث عن غيب يكون خبره ذلك نبوّة ؛ وقد تقدّم فى « الأنعام »(١) أن الكاهن وغيره قد يخبر بكلمة الحق فيصدق ، لكن ذلك على الندور والقلة ، فكذلك رؤيا هؤلاء ؛ قال المهلَّب : إنما ترجم البخارىّ

(١) راجع جـ ٧ ص ٣ وما بعدها طبعة أولى .

بهذا الجواز أن تكون رؤيا أهل الشرك رؤيا صادقة، كما كانت رؤيا الفتيين صادقة، إلا أنه لا يجوز أن تضاف إلى النبوّة إضافة رؤيا المؤمن إليها ، إذ ليس كل ما يصح له تأويل من الرؤيا حقيقة يكون جزءا من النبوّة .

الخامسة — الرؤيا المضافة إلى الله تعالى هي التي خلصت من الأضغاث والأوهام ، وكان تأويلها موافقا لما في اللوح المحفوظ، والتي هي من خبر الأضغاث هي الحُلْم ، وهي المضافة إلى الشيطان ، و إنما سميت ضِغثا؛ لأن فيها أشياء متضادة ؛ قال معناه المهلَّب . وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا أقساما تغني عن قول كل قائل؛ روى عوف بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "الرؤيا ثلاثة منها أهاويل الشيطان ليحزن ٱبن آدم ومنها ما يهتم به في يقظته فيراه في منامه ومنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوّة". قال قلت : سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم! سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ ﴾ الآية . الرؤيا مصدر رأى في المنام رؤيا على وزن فُعلى كالسُّقْيا والبُشْرى؛ وألفه للتأنيث ولذلك لم ينصرف . وقد ٱختلف العلماء في حقيقة الرؤيا؛ فقيل : هي إدراك في أجزاء لم تحلّها آفة، كالنوم المستغرق وغيره؛ ولهذا أكثر ما تكون الرؤيا في آخر الليل لقلة غلبة النوم، فيخلق الله تعالى للرائي علما ناشئا، ويخلق له الذي يراه على ما يراه ليصح الإدراك، قال ٱبن العربي: ولا يرى في المنام إلا ما يصح إدراكه في اليقظة، ولذلك لا يرى في المنام شخصا قائما قاعدا بحال، و إنما يرى الجائزات المعتادات . وقيل : إن لله ملكا يعرض المرئيات على المحل المدرك من النائم، فيمثل له صورا محسوسة ؛ فتارة تكون تلك الصور أمثلة موافقة لما يقع في الوجود ، وتارة تكون لمعاني معقولة غير محسوسة، وفي الحالتين تكون مبشرة أو منذرة؛ قال صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم وغيره : "رأيتُ سوداء[1] ثائرةَ الرأس تخرج من المدينة إلى مَهْيَعة[2] فأوّلتها الحُمَّى".

(١) أي ٱمرأة سوداء، كما في رواية النسائي . (٢) المهيعة : هي الجحفة ؛ ميقات أهل الشأم .

و "رأيت سيفى قد آنقطع صدرُه و بَقَرا تُنحَر فأولتُهما رجلٌ من أهل بيتى يُقتل والبقر نفر من أصحابى يُقتلون". و"رأيت أنى أدخلت يدى فى دِرع حصينة فأولتها المدينة". و"رأيت فى يدىّ سُوَارين فأولتُهما كذّابين يَخرجان بعدى". إلى غير ذلك مما ضربتُ له الأمثال؛ ومنها ما يظهر معناه أوّلا ، ومنها ما لا يظهر إلا بعد الفكر؛ وقد رأى النائم فى زمن يوسف عليه السلام بقرا فأولها يوسف السنين، ورأى أحد عشر كوكبا والشمس والقمر فأولها بإخوته وأبويه .

السابعــة — إن قيل : إن يوسف عليه السلام كان صغيرا وقت رؤياه، والصغير لا حكم لفعله، فكيف تكون له رؤيا لها حكم حتى يقول له أبوه: « لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ » ؟ فالجواب — أن الرؤيا إدراك حقيقة على ما قدّمناه، فتكون من الصغير كما يكون منه الإدراك الحقيق فى اليقظة، و إذا أخبر عما رأى صدق، فكذلك إذا أخبر عما يرى فى المنام؛ وقد أخبر الله سبحانه عن رؤياه وأنها وجدت كما رأى فلا آعتراض ؛ روى أن يوسف عليه السلام كان آبن آثنتى عشرة سنة .

الثامنــة — هـذه الآية أصل فى ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها ؛ روى أبو رَزِين العُقَيلىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "الرؤيا جزء من أربعين جزءا من النبوّة والرؤيا معلقة برجل طائر ما لم يحدّث بها صاحبها فإذا حدّث بها وقعت فلا تحدّثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا" أخرجه الترمذىّ وقال فيه : حديث حسن صحيح؛ وأبو رَزِين آسمه لَقِيط بن عامر. وقيل لمـالك : أيعبر الرؤيا كلّ أحد؟ فقال : أَبِالنبوّة يُلعب؟ وقال مالك : لا يعبّر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت؛ قيل : فهل يعبّرها على الخير وهى عنده على المكروه لقول من قال إنها على ما تأولت عليـه ؟ فقال : لا ! ثم قال : الرؤيا جزء من النبوّة فلا يتلاعب بالنبوّة .

التاسـعة — وفى هذه الآية دليل على أن مباحا أن يحذّر المسلم أخاه المسلم ممن يخافه عليه، ولا يكون داخلا فى معنى الغيبة؛ لأن يعقوب — عليه السلام — قد حذّر يوسف أن

يقص رؤياه على إخوته فيكيدوا له كيدا، وفيها أيضا ما يدل على جواز ترك إظهار النعمة عند من تخشى غائلته حسدا وكيدا ؛ وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "استعينوا على [ إنجاح ](1) حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود". وفيها أيضا دليل واضح على معرفة يعقوب عليه السلام بتأويل الرؤيا ؛ فإنه علم من تأويلها أنه سيظهر عليهم، ولم يبال بذلك من نفسه ؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيرا منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه . ويدل أيضا على أن يعقوب عليه السلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه ؛ فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن تَغِلّ بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة فى هلاكه ؛ ومن هذا ومن فعلهم بيوسف يدل على أنهم كانوا غير أنبياء فى ذلك الوقت ، ووقع فى كتاب الطّبرىّ لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنيوىّ، وعن عقوق الآباء، وتعريض مؤمن للهلاك ، والتآمر فى قتله ، ولا التفات لقول من قال إنهم كانوا أنبياء، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبىّ ، إلا أن هذه الزلّة قد جمعت أنواعا من الكبائر ، وقد أجمع المسلمون على عصمتهم منها، وإنما اختلفوا فى الصغائر على ما تقدّم ويأتى .

العاشرة — روى البخارىّ عن أبى هُريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لم يبق من النبوّة إلا المبشِّرات" قالوا : وما المبشِّرات ؟ قال : "الرؤيا الصالحة" وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق وليس كذلك ؛ فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى لا تسر رائيها ، وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا به ورحمة، ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه؛ فإن أدرك تأولها بنفسه ، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك . وقد رأى الشافعى رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا لأحمد بن حَنْبل تدل على محنته فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك ، وقد تقدّم فى « يونس » فى تفسير قوله تعالى : «لَهُمُ الْبُشْرَى فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخارىّ مخرجه على الأغلب، والله أعلم .

---

(1) الزيادة عن « الجامع الصغير » .

الحـادية عشرة — روى البخاري عن أبي سَلَمة قال : لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قَتَادة يقول ، وأنا كنت لأرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " الرؤيا الحسـنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب وإذا رأى ما يكره فليتعوّذ بالله من شرها وليتفل ثلاث مرات ولا يحدّث بها أحدا فإنها لن تضره ". قال علماؤنا : فجعل الله الاستعاذة منها مما يرفع أذاها ؛ ألا ترى قول أبي قَتَادة : إني كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل ، فلما سمعت بهذا الحديث كنت لا أعدها شيئا . وزاد مسلم من رواية جابر عن رسـول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها فليبصق عن يساره ثلاثا وليتعوّذ بالله من الشيطان ثلاثا وليتحوّل عن جنبه الذي كان عليه " . وفي حديث أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسـلم قال : " إذا رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل " . قال علماؤنا : وهذا كله ليس بمتعارض ، وإنما هـذا الأمر بالتحوّل ، والصلاة زيادة ، فعلى الرائي أن يفعل الجميع ، والقيام إلى الصلاة يشمل الجميع ؛ لأنه إذا صلى تضمن فعله للصـلاة جميع تلك الأمور ؛ لأنه إذا قام إلى الصـلاة تحوّل عن جنبه ، وإذا تمضمض تَفَل وبَصَق ، وإذا قام إلى الصلاة تعوّذ ودعا وتضرع لله تعالى في أن يكفيه شرها في حال هي أقرب الأحوال إلى الإجابة ، وذلك السَّحَر من الليل .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ الكاف في موضع نصب ؛ لأنها نعت لمصدر محذوف ، وكذلك الكاف في قوله : « كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ » و « ما » كافة . وقيل : « وكذلك » أي كما أكرمك بالرؤيا فكذلك يجتبيك ، ويحسن إليك بتحقيق الرؤيا . قال مقاتل : بالسجود لك . الحسن : بالنبوّة . والاجتباء اختيار معالي الأمور للمجتبَى ، وأصله من جَبَيتُ

الشيء أي حصّلته ، ومنه جَبيتُ المـاء في الحوض ؛ قاله النحاس . وهذا ثناء من الله تعالى على يوسف عليه السـلام، وتعديد فيما عدده عليه من النعم التي أتاه الله تعـالى ؛ التمكين في الأرض ، وتعليم تأويل الأحاديث ؛ وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا . قال عبد الله بن شدّاد بن الهاد : كان تفسير رؤيا يوسف صلى الله عليه وسلم بعد أربعين سنة ؛ وذلك منتهى الرؤيا . وعَنَى بالأحاديث ما يراه الناس في المنام، وهي معجزة له ؛ فإنه لم يلحقه فيها خطأ . وكان يوسف عليه السلام أعلم الناس بتأويلها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم نحو ذلك ، وكان الصـدّيق رضي الله عنه من أعبر النـاس لها ، وحصـل لابن سيرين فيهـا التقدم العظيم ، والطبع والإحسان ، ونحوه أو قريب منـه كان سـعيد بن المسيّب فيما ذكروا . وقد قيـل في تأويل قوله : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ أي أحاديث الأمم والكتب ودلائل التوحيد ، فهو إشارة إلى النبوّة ، وهو المقصود بقوله : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ أي بالنبوّة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك؛ وقيل : بإنجائك من كل مكروه . ﴿ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْـلُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالخُلّة ، وإنجائه من النـار ﴿ وَ إِسْحَٰقَ ﴾ بالنبوّة . وقيـل : من الذّبح ؛ قاله عكرمة . وأعلمه الله تعالى بقوله : ﴿ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أنه سيعطي بني يعقوب كلهم النبوّة؛ قاله جماعة من المفسرين . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بمـا يعطيك . ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في فعله بك .

قوله تعـالى : لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ يعني من سأل عن حديثهم . وقرأ أهل مكة « آيةٌ » على التوحيد؛ واختار أبو عبيد « آياتٌ » على الجمع؛ قال: لأنها خبر كثير . قال النحاس : و «آية» هنا قراءة حسنة، أي لقد كان للذين سألوا عن خبر

يوسف آية فيما خبّروا به؛ لأنهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فقالوا : أخبرنا عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ٱبنــه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى؟ — ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ،ولا من يعرف خبر الأنبياء؛ و إنمـا وَجّه اليهودُ من المدينة يسألونه عن هذا — فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة؛ فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة؛ فكان ذلك آية للنبيّ صلى الله عليــه وسلم ، بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت . « آيات » موعظة؛ وقيــل : عبرة . وروى أنها فى بعض المصاحف « عبرة » . وقيل : بصيرة . وقيل : عجب ؛ تقول فلان آية فى العـلم والحسن أى عجب . قال الثعلبيّ فى تفسيره : لمـا بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه؛ قال ٱبن زيد : كانوا أنبياء، وقالوا : ما يرضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه! فبغوه بالعداوة، وقد تقدّم ردّ هذا القول. قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَ إِخْوَتِهِ ﴾ وأسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم، وشمعون ولاوى ويهوذا وزبالون ويساخر، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر؛ دان ونفتالى وجاد وآشر، ثم توفيت ليا فتزوّج يعقوب أختها راحيل، فولدت له يوسف وبنيامين، فكان بنو يعقوب ٱثنى عشر رجلا . قال السّهيلى : وأُمّ يعقوب ٱسمها رفقا، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين، وليان بن ناهر بن آزر هو خال يعقوب. وقيل : فى ٱسم الأَمَتين ليــا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل، والأخرى لأختها ليــا ، وكانتا قد وهبتاهما ليعقوب ، وكان يعقوب قد جمع بينهما ، ولم يحل لأحد بعده ؛ لقول الله تعــالى : «وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ» . وقد تقدّم الردّ على ما قاله ٱبن زيد، والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ ﴾ « يُوسُفُ » رفع بالابتداء ؛ واللام للتأكيد ، وهى التى يتلقى بها القسم ؛ أى والله ليوسف . ﴿ وَأَخُوهُ ﴾ عطف عليه . ﴿ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ خبره ، ولا يثنّى ولا يجمع لأنه بمعنى الفعل؛ و إنمـا قالوا هــذا لأن خبر المنام بلغهم فتآمروا فى كيده . ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة، وكانوا عشرة . والعصبة ما بين الواحد إلى العشرة، وقيل: إلى الخمسة عشر . وقيل : ما بين الأربعين إلى العشرة؛ ولا واحد لها من لفظها كالنفر

والرهط . ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ لم يريدوا ضلال الدّين، إذ لو أرادوه لكانوا كفارا؛ بل أرادوا لفى ذهاب عن وجه التدبير، فى إيثار آثنين على عشرة مع استوائهـم فى الآنتساب إليه . وقيل : لفى خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخاه علينا .

قوله تعـالى : ﴿ ٱقْتُلُوا يُوسُفَ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى قال قائل منهـم : « آقتلوا يوسف » ليكون أحسم لمـادة الأمر . ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴾ أى فى أرض، فأسقط الخافض وانتصب الأرض؛ وأنشد سيبويه فيما حذف منه « فى » :

لَدْنٌ بِهَزِّ الكَفِّ يَعْسِلُ مَتْنُهُ * فيه كما عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ (١)

قال النحاس : إلا أنه فى الآية حسن كثير؛ لأنه يتعدّى إلى مفعولين، أحدهما بحرف، فإذا حذفت الحرف تعدّى الفعل إليه . والقائل قيـل : هو شمعون ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال كعب الأحبـار ؛ دان . وقال مقاتل : روبيـل ؛ والله أعلم . والمعنى أرضا تبعـد عن أبيه؛ فلا بد من هذا الإضمار لأنه كان عند أبيـه فى أرض. ﴿ يَخْلُ ﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ معناه : يخلص ويصفو ﴿ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيقبـل عليكم بكليته . ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعـد الذنب ، وقيل : من بعـد يوسف . ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ أى تائبين؛ أى تحدثوا توبة بعـد ذلك فيقبلها الله منكم ؛ وفى هذا دليل على أن توبة القاتل مقبولة، لأن الله تعـالى لم ينكر هذا القول منهم . وقيل : « صالحين » أى يصلح شأنكم عنـد أبيكم من غير أثرة ولا تفضيل .

قوله تعـالى : قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾

(١) البيت لساعدة بن جؤية وقد وصف فيه رمحا لين الهز ؛ فشبه اضطرابه فى نفسه أو فى حال هزه بعسلان الثعلب فى سـيره؛ والعسلان : سـير سريع فى اضطراب . واللدن : الناعم اللين . ويروى : لذ؛ أى مستلذ عند الهز للينه . (شواهد سيبويه) .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ ﴾ القائل هو يهوذا، وهو أكبر ولد يعقوب؛ قاله آبن عباس . وقيل: روبيل، وهو آبن خالته، وهو الذى قال : « فلن أبرح الأرض » . وقيل: شمعون . ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ ﴾ قرأ أهل مكة وأهل البصرة وأهل الكوفة « فى غيابةِ الجبّ » . وقرأ أهل المدينة « فى غَيَابَاتِ الجُبِّ » وآختار أبو عبيد التوحيد؛ لأنه على موضع واحد ألقوه فيه ، وأنكر الجمع لهذا . قال النحاس : وهذا تضييق فى اللغة؛ « وغيابات » على الجمع [يجوز من وجهين](1): حكى سيبويه سِيرَ عليه عشيّاناتٍ وأصيلاناتٍ، يريد عشِية وأصيلا، فجعل كل وقت منها عشية وأصيلا ؛ فكذا جعل كل موضع مما يُغيّب غَيابة . [والآخر ــ أن يكون فى الجبّ غيابات (جماعة) . ويقال : غاب يَغيب](1) غَيْبا وغَيابة وغِيَابا ؛ كما قال الشاعر :

ألَا فالبَثَا شهرين أو نصفَ ثالثٍ * أنَا ذاكُمَا قد غَيَّبتْنِي غِيَابِيَا

قال الهروى: والغَيابة شبه لَجَفٍ(2) أو طاق فى البئر فويق الماء، يغيّب الشىء عن العين . وقال آبن عزيز: كل شىء غيّب عنك شيئا فهو غَيابة . قلت : ومنه قيل للقبر غَيابة ؛ قال الشاعر :

فإن أنا يومًا غيّبتنِي غَيَابَتِي * فَسِيروا بسَيْرِى فى العَشيرةِ والأَهلِ

والجبّ الرَّكِيّة التى لم تُطوَ، فإذا طُويت فهى بئر؛ قال الأعشى :

لئن كنتَ فى جُبٍّ ثمانين قامةً * ورُقِّيتَ أسبابَ السَّماءِ بسُلَّمِ(3)

وسميت جبّا لأنها قُطِعت فى الأرض قَطْعا؛ وجمع الجبّ جِبَبة وجِبَاب وأَجْباب؛ وجمع بين الغَيابة والجبّ لأنه أراد ألقوه فى موضع مظلم من الجبّ حتى لا يلحقه نظر الناظرين . قيل :

---

(1) الزيادة عن النحاس . (2) الجف : الناحية من الحوض أو البئر يأكله الماء فيصير كالكهف .

(3) بعده :

ليَستدرِجنْكَ القولُ حتى تَهُزّه * وتعلَمَ أنى عنكمُ غيرُ ملجَمِ

وتَشرَقَ بالقول الذى قد أذعتَه * كما شرِقت صدرُ القناة من الدمِ

هو بئر ببيت المقدس ، وقيل : هو بالأُرْدُن ؛ قاله وهب بن منبّـه . مقاتل : هو على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب .

الثـانيـــة — قوله تعالى : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴾ جزم على جواب الأمر . وقرأ مجاهد وأبو رجاء والحسن وقتادة : « تَلْتَقِطْهُ » بالتاء ، وهـذا محمول على المعنى ؛ لأن بعض السيّارة سيّارة ؛ وقال سيبويه : سقطت بعض أصابعه ، وأنشد (١) :

وتَشْرَق بالقولِ الّذى قـد أَذعتَه * كما شَرِقتْ صَدْرُ القَناةِ من الدَّمِ

وقال آخـــر :

أَرَى مَرَّ السِّنينَ أَخَذْنَ مِنّى * كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ (٢) مِنَ الهِـلَالِ

ولم يقـل شَرِق ولا أخذت . والسيّارة الجمع الذين يسيرون فى الطريق للسفر ؛ وإنمـا قال القائل هـذا حتى لا يحتـاج إلى حمله إلى موضع بعيد ويحصل المقصود ؛ فإن من التقطـه من السـيّارة يحمله إلى موضع بعيد ؛ وكان هـذا وجها فى التدبير حتى لا يحتاجوا إلى الحركة بأنفسهم ، فربمـا لا يأذن لهم أبوهم ، وربمـا يطلع على قصدهم .

الثالثـــة — وفى هذا ما يدل على أن إخوة يوسف ما كانوا أنبياء لا أوّلا ولا آخرا ؛ لأن الأنبياء لا يدبرون فى قتل مسلم ، بل كانوا مسلمين ، فارتكبوا معصية ثم تابوا . وقيل : كانوا أنبياء ، ولا يستحيل فى العقل زلّة نبيّ ، فكانت هذه زلّة منهم ؛ وهذا يرده أن الأنبياء معصومون من الكبائر على ما قدّمناه . وقيل : ما كانوا فى ذلك الوقت أنبياء ثم نبأهم الله ؛ وهذا أشبه ، والله أعلم .

الرابعـــة — قال ٱبن وهب قال مالك : طُرِح يوسف فى الجبّ وهو غلام ، وكذلك روى ٱبن القاسم عنه ، يعنى أنه كان صغيرا ؛ والدليل عليه قوله تعالى : « لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ

---

(١) البيت للأعشى ، وهو يخاطب يزيد بن مسهر الشـيبانى ، وكانت بينهما مباينة ومهاجاة ؛ فيقول له : يعود عليـك مكروه ما أذعت عنى من القول ونسبته إلى من القبيح ، فلا تجد منه مخلصا . والشرق بالماء كالغصص بالطعام .

(٢) سرار الشهر ( بفتح السين المهملة وكسرها ) وسرره : آخر ليلة منه .

فِي غَيَابَةِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » قال : ولا يلتقط إلا الصـغير ؛ وقوله : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » وذلك يختص بالصغار ؛ وقولهم : « أَرْسِـلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

الخامســـة ـــ الالتقاط تناول الشيء من الطريق؛ ومنه اللّقيط واللّقطة، ونحن نذكر من أحكامها ما دلت عليه الاية والسنة، وما قال فى ذلك أهل العلم واللغة ؛ قال ٱبن عرفة: الالتقاط وجود الشيء على غير طلب؛ ومنه قوله تعالى: « يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ » أى يجده من غير أن يحتسبه . وقد ٱختلف العلماء فى اللّقيط؛ فقيل : أصله الحرّية لغلبة الأحرار على العبيـد ؛ وروى عن الحسن بن على أنه قضى بأن اللّقيط حُرّ ، وتلا « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وإلى هـذا ذهب أشهب صاحب مالك ؛ وهـو قول عمر بن الخطاب ، وكذلك روى عن علىّ وجماعة . وقال إبراهيم النّخعى : إن نوى رِقه فهـو مملوك، وإن نوى الحسبة فهو حرّ . وقال مالك فى موطّئه : الأمر عندنا فى المنبوذ أنه حرّ ، وأن ولاءه لجماعة المسلمين، هم يرثونه ويعقلون عنه، وبه قال الشافعى؛ واحتج بقوله عليه السلام: « وإنمـا الوَلَاء لمن أعتق » قال : فنفى الوَلَاء عن غير المعتِق . واتفق مالك والشـافعى وأصحابهما على أن اللقيط لا يُوالى أحدا، ولا يرثه أحد بالوَلَاء . وقال أبو حنيفة وأصحابه وأكثر الكوفيين: اللقيط يوالى من شاء، فمن والاه فهو يرثه ويعقِل عنه ؛ وعند أبى حنيفة له أن ينتقل بولائه حيث شاء ، ما لم يعقِل عنه الذى والاه، فإن عقل عنه جناية لم يكن له أن ينتقل عنه بولائه أبدا . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة عن علىّ رضى الله عنه : المنبوذ حرّ ، فإن أحبّ أن يوالى الذى التقطه والاه، وإن أحبّ أن يوالى غيره والاه؛ ونحوه عن عطاء، وهو قول ابن شهاب وطائفة من أهل المدينة ، وهو حرّ . قال ٱبن العربىّ : إنمـا كان أصل اللّقيط الحرّية لغلبة الأحرار على العبيد ، فقضى بالغالب ، كما حكم أنه مسلم أخذا بالغالب؛ فإن كان فى قرية فيها نصارى ومسلمون قال ٱبن القاسم : يحكم بالأغلب ؛ فإن وجد عليه زِىّ اليهود فهو يهودىّ، وإن وجد عليه زِىّ النّصارى فهو نصرانىّ، وإلا فهو مسلم، إلا أن يكون أكثر أهل القرية

على غير الإسلام . وقال غيره : لو لم يكن فيها إلا مسلم واحد قضى لِلقيط بالإسلام تغليبا لحكم الإسلام الذى يعلو ولا يُعلَى عليه ، وهو مقتضى قول أشهب ؛ قال أشهب : هو مسلم أبدا ، لأنى أجعله مسلما على كل حال ، كما أجعله حرا على كل حال . وآختلف الفقهاء فى المنبوذ تدل البيّنة على أنه عبد ؛ فقالت طائفة من أهل المدينة : لا يقبل قولها فى ذلك ، و إلى هذا ذهب أشهب لقول عمر هو حرّ ؛ ومن قضى بحريته لم تقبل البيّنة فى أنه عبد . وقال آبن القاسم : تقبل البيّنة فى ذلك ؛ وهو قول الشافعى والكوفى .

السادسة — قال مالك فى اللقيط إذا أنفق عليه الملتقط ثم أقام رجل البينة أنه ابنه فإن الملتقط يرجع على الأب إن كان طرحه متعمدا ، و إن لم يكن طرحه ولكنه ضلّ منه فلا شىء على الأب ، والملتقط متطوع بالنفقة . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللقيط فهو متطوع ، إلا أن يأمره الحاكم . وقال الأوزاعى : كل من أنفق على من لا تجب له عليه نفقة رجع بما أنفق . وقال الشافعى : إن لم يكن للقيط مال وجبت نفقته فى بيت المال ، فإن لم يكن ففيه قولان : أحدهما — يستقرض له فى ذمته . والثانى — يقسط على المسلمين من غير عوض .

السابعة — وأما اللّقطة والضوالّ فقد اختلف العلماء فى حكمهما ؛ فقالت طائفة من أهل العلم : اللقطة والضوالّ سواء فى المعنى ، والحكم فيهما سواء ؛ و إلى هذا ذهب أبو جعفر الطحاوى ، وأنكر قول أبى عُبيد القاسم بن سلّام — أن الضالّة لا تكون إلا فى الحيوان واللّقطة فى غير الحيوان — وقال هذا غلط ؛ واحتج بقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث الإفك للسلمين : « إن أمّكم ضلّت قِلادتُها » فاطلق ذلك على القِلادة .

الثامنة — أجمع العلماء على أن اللّقطة ما لم تكن تافها يسيرا أو شيئا لا بقاء لها فإنها تُعرَّف حولا كاملا ، وأجمعوا أن صاحبها إن جاء فهو أحقّ بها من ملتقطها إذا ثبت له أنه صاحبها ، وأجمعوا أن ملتقطها إن أكلها بعد الحول وأراد صاحبها أن يضمّنه فإن ذلك له ، و إن تصدق بها فصاحبها مخير بين التضمين و بين أن ينزل على أجرها ، فأى ذلك تخير كان ذلك له بإجماع ؛

ولا تنطلق يد ملتقطها عليها بصدقة، ولا تصرف قبل الحول . وأجمعوا أن ضالّة الغنم المخوف عليها أن له أكلهـا .

التـاســـعة — وآختلف الفقهاء فى الأفضل من تركها أو أخذها؛ فمن ذلك أن فى الحديث دليلا على إباحة التقاط اللّقطة وأخذ الضالّة مالم تكن إبلا . وقال فى الشاة: "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" يحضّه على أخذها ، ولم يقل فى شىء دعوه حتى يضيع أو يأتيـه ربه . ولو كان ترك اللّقطة أفضل لأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال فى ضالّة الإبل ، والله أعلم . وجملة مذهب أصحاب مالك أنه فى سعة، إن شاء أخذها و إن شاء تركها؛ هذا قول إسمعيل آبن إسحق رحمه الله . وقال المُزَنِىّ عن الشافعى : لا أحب لأحد ترك اللّقطة إن وجدها إذا كان أمينا عليها؛ قال : وسواء قليل اللّقطة وكثيرها .

العــاشـــرة — روى الأئمة مالك وغيره عن زيد بن خالد الجُهَنِىّ قال: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن اللقطة فقال : "آعْرِف عِفَاصَها(١) ووِكَاءَها ثم عَرِّفها سـنةً فإن جاء صاحبُها وإلا فشأْنُك بهـا" قال : فضـالّة الغنم يا رسول الله ؟ قال : "لكَ أو لأخيكَ أو للذئب" قال : فضالّة الإبل؟ قال : "ما لَكَ ولَهَـا معهـا سِقاؤُها وحِذاؤُها تَرِدُ المـاءَ وتأكل الشجر حتى يلقاها ربُّها" . وفى حديث أُبَىّ قال: "آحفظ عَدَدها ووِعاءَها ووِكاءَها فإن جاء صاحبُها وإلّا فآستمتِع بها" ففى هذا الحديث زيادة العدد؛ خرجه مسلم وغيره . وأجمع العلماء أن عِفاص اللّقطة ووكاءها من إحدى علاماتها وأدلّها عليها ؛ فإذا أتى صاحب اللّقطة بجميع أوصافها دفعت له؛ قال ابن القاسم : يُجْبَر على دفعها ؛ فإن جاء مستحق يستحقها ببيّنة أنهـا كانت له لم يضمن الملتقط شيئا ، وهـل يحلف مع الأوصاف أو لا ؟ قولان : الأوّل لأشهب ، والثانى لآبن القاسم ، ولا تلزمه بيّنة عند مالك وأصحابه وأحمد بن حَنْبل وغيرهم . وقال أبو حنيفة والشافعى : لا تدفع له إلا إذا أقام بينة أنها له؛ وهو بخلاف نص الحديث ؛

(١) العفاص : الوعاء الذى يكون به النفقة ، جلدا كان أو غيره . والوكاء هو الخيط الذى يشد به الوعاء . والمراد بالعفاص والوكاء أن يعلم الملتقط صدق واصفها من كذبه ، وبالحذاء خفها ، فهى تقوى بأخفافها على السير وورود المـاء والشجر .

ولو كانت البيّنة شرطا فى الدّفع لما كان لذكر العفاص والوكاء والعَدَد معنى ؛ فإنه يستحقها بالبيّنة على كل حال؛ ولَمَا جاز سكوت النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فإنه تأخير البيان عن وقت الحاجة . والله أعلم .

الحادية عشرة — نص الحديث على الإبل والغنم وبين حكمهما، وسكت عما عداهما من الحيوان . وقد اختلف علماؤنا فى البقر هل تلحق بالإبل أو بالغنم؟ قولان؛ وكذلك آختلف أئمتنا فى التقاط الخيل والبغال والحمير، وظاهر قول آبن القاسم أنها تلتقط، وقال أشهب وآبن كنانة : لا تلتقط ؛ وقول آبن القاسم أصح لقوله عليه السلام : " احفظ على أخيك المؤمن ضالّته " .

الثانية عشرة — وآختلف العلماء فى النفقة على الضّوالّ؛ فقال مالك فيما ذكر عنه آبن القاسم : إن أنفق الملتقط على الدوابّ والإبل وغيرها فله أن يرجع على صاحبها بالنفقة، وسواء أنفق عليها بأمر السلطان أو بغير أمره ؛ قال : وله أن يحبس بالنفقة ما أنفق عليه ويكون أحق به كالرهن . وقال الشافعى : إذا أنفق على الضوالّ مَن أَخَذها فهو متطوّع؛ حكاه عنه الرّبيع . وقال المُزَنىّ عنه : إذا أمره الحاكم بالنفقة كانت دينا، وما آدّعى قُبِل منه إذا كان مثله قَصْدا . وقال أبو حنيفة : إذا أنفق على اللّقطة والإبل بغير أمر القاضى فهو متطوّع ، وإن أنفق بأمر القاضى فذلك دين على صاحبها إذا جاء ، وله أن يحبسها إذا حضر صاحبها . والنفقة عليها ثلاثة أيام ونحوها، حتى يأمر القاضى ببيع الشاة وما أشبهها ويقضى بالنفقة .

الثالثة عشرة — ليس فى قوله صلى الله عليه وسلم فى اللّقطة بعد التعريف : " فآستمتع بها " أو " فشأنك بها " أو " فهى لك " أو " فآستنفقها " أو " ثم كُلْها " أو " فهو مال الله يؤتيه من يشاء " على ما فى صحيح مسلم وغيره ما يدل على التمليك، وسقوط الضّمان عن الملتقط إذا جاء ربها؛ فإن فى حديث زيد بن خالد الجُهَنىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " فإن لم تعرف[1]

(١) (إن لم تعرف) : أى إن لم تعرف صاحبها .

فاستنفقها ولتكن وديعة عنـدك فإن جاء صاحبها يوما من الدهر فأدّها إليه " فى رواية " ثم كُلْها فإن جاء صاحبها فأدّها إليه " خرجه البخارىّ ومسلم . وأجمع العلماء على أن صاحبها متى جاء فهو أحق بها ، إلا ما ذهب إليه داود من أن الملتقط يملك اللّقطة بعد التعريف ؛ لتلك الظواهر ، ولا التفات لقوله ، لمخالفة الناس ، ولقوله عليه السلام : " فأدّها إليه " .

قوله تعـالى : قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُـفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ (١٢)

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ﴾ قيل للحسن : أيَحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك ببنى يعقوب ! ولهذا قيـل : الأب جلّاب والأخ سلّاب ؛ فعنـد ذلك أجمعوا على التفريق بينـه وبين ولده بضرب من الاحتيال . وقالوا ليعقـوب : « يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » وقيل : لمـا تفاوضوا وافترقوا على رأى المتكلم الثـانى عادوا إلى يعقوب عليـه السلام وقالوا هـذا القول . وفيـه دليل على أنهم سألوه قبـل ذلك أن يخرج معهم يوسف فأبى على ما يأتى . قرأ يزيد بن القَعْقَاع وعمرو بن عُبيد والزّهرىّ « لَا تَأْمَنَّا » بالإدغام ، وبغير إشمـام وهو القياس ؛ لأن سـبيل ما يدغم أن يكون ساكنا . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « لَا تَأْمَنُنَا » بنونين ظاهرتين على الأصل . وقرأ يحيى بن وثّاب وأبو رَزِين — وروى عن الأعمش — « لَا تِيمَنَّا » بكسر التاء ، وهى لغة تميم ؛ يقولون : أنت تِضرب ؛ وقد تقدّم . وقرأ سائر الناس بالإدغام والإشمام ليدل على حال الحرف قبل إدغامه . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴾ أى فى حفظه وغفلته حتى نردّه إليك . قال مقاتل : فى الكلام تقديم وتأخير ؛ وذلك أن إخوة يوسف قالوا لأبيهم : « أَرْسِـلْهُ مَعَنَا غَدًا » الآية ؛ فحينئذ قال أبوهم : « إِنِّى لَيَحْزُنُنِى أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ » فقالوا حينئذ جوابا لقوله : « مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ » الاية . ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا ﴾ إلى الصحراء ﴿ يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ ﴾ « غدا » ظرف ، والأصل عنـد سيبويه غَدْوٌ ، وقد نطق به على الأصـل ؛ قال النّضر بن شميل : ما بين الفجر وصلاة الصبح يقال له غُدْوة ،

وكذا بُكرة . « نرتع ونلعب » بالنون وإسكان العين قراءة أهل البصرة . والمعروف من قراءة أهل مكة « نَرْتَعِ » بالنون وكسر العين . وقراءة أهل الكوفة « يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ » بالياء وإسكان العين . وقراءة أهل المدينة بالياء وكسر العين ؛ القراءة الأولى من قول العرب رَتَع الإنسان والبعير إذا أكلا كيف شاءا ؛ والمعنى : نتسع في الخِصب ؛ وكل مخصِب راتع ؛ قال :

* فارعَىْ[1] فزارةُ لاهَنَاكِ المَرْتَعُ *

وقال آخر[2] :

تَرْتَعُ ما غَفَلَتْ حتى إذا ادّكرتْ * فإنما هي إقبالٌ وإدبارُ

وقال آخر[3] :

أكفرًا بعد رَدّ الموتِ عنّي * وبعد عَطائكَ المائةَ الرِّتاعَا

أي الراتعة لكثرة المرعى . وروى مَعْمر عن قَتَادة «نرتع» تسعى ؛ قال النحاس : أخذه من قوله : « إنا ذهبنا نستبق » لأن المعنى : نستبق في العَدْو إلى غاية بعينها ؛ وكذا «يرتع» بإسكان العين ، إلا أنه ليوسف وحده صلى الله عليه وسلم . « ويرتع » بكسر العين من رعي الغنم ، أي ليتدرب بذلك ويترجّل ؛ فمرّة يرتع ، ومرة يلعب لصغره . وقال القُتَبيّ « نرتع » نَتَحارس ونَتَحافظ ، ويرعى بعضنا بعضا ؛ من قولك : رعاك الله ، أي حفظك . «ونلعب» من اللعب . وقيل لأبي عمرو بن العلاء : كيف قالوا «ونلعب» وهم أنبياء ؟ فقال : لم يكونوا يومئذ أنبياء . وقيل : المراد باللعب المباح من الانبساط ، لا اللعب المحظور الذي هو ضدّ الحق ؛ ولذلك لم ينكر يعقوب قولهم « ونلعب » . ومنه قوله عليه السلام : " فهلّا بِكْرًا تُلاعبها وتُلاعبك[4] " .

---

(١) في الأصل ( فارعيني ) وهو تحريف . (٢) البيت للخنساء من قصيدة ترثي بها أخاها صخرا . ومعنى (ترتع) ترعى . تصف ناقة أو بقرة فقدت ولدها ، فكلما غفلت عنه رتعت ، فاذا ادكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ؛ فضربتها مثلا لفقدها أخاها صخرا . (٣) هو القطامي . (٤) الخطاب لجابر بن عبد الله ؛ وذكر ملا علي عن الطيبي : أن الملاعبة عبارة عن الألفة التامة ، فان الثيب قد تكون معلقة القلب بالزوج الأول ، فلم تكن محبتها كاملة ، بخلاف البكر .

وقرأ مجاهد وقتادة : « يُرتِع »[1] على معنى يُرتِع مطيته ، فحذف المفعول ؛ « ويلعبُ » بالرفع على الاستئناف ؛ والمعنى : وهو ممن يلعب . ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من كل ما تخاف عليه . ثم يحتمل أنهـم كانوا يخرجون ركبانا ، ويحتمل أنهم كانوا رجّالة . وقد نقل أنهـم حملوا يوسف على أكتافهم ما دام يعقوب يراهم ، ثم لما غابوا عن عينه طرحوه ليعـدو معهم إضرارا به .

قوله تعـالى : قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ ﴾ في موضع رفع؛ أى ذهابكم به . أخبر عن حزنه لغيبته . ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنه رأى فى منامه أن الذئب شدّ على يوسف ، فلذلك خافه عليه؛ قاله الكَلْبيّ . وقيل : إنه رأى فى منامه كأنه على ذروة جبل ، وكأن يوسف فى بطن الوادى ، فإذا عشرة من الذئاب قد آحتوشته تريد أكله ، فدرأ عنه واحد ، ثم انشقّت الأرض فتوارى يوسف فيها ثلاثة أيام؛ فكانت العشرة أخوته ، لما تمالئوا على قتله ، والذى دافع عنه أخوه الأكبر يهوذا ، وتواريه فى الأرض هو مقامه فى الجبّ ثلاثة أيام . وقيل : إنما قال ذلك لخوفه منهم عليـه ، وأنه أرادهم بالذئب؛ فخوفه إنما كان من قتلهم له ، فكنى عنهم بالذئب مساترة لهم؛ قال آبن عباس : فسماهم ذئابا . وقيل : ماخافهم عليه ، ولو خافهم ما أرسله معهم ، وإنما خاف الذئب؛ لأنه أغلب ما يخاف فى الصّحارى . والذئب مأخوذ من تَذَاءبت الريح[2] إذا جاءت من كل وجه ؛ كذا قال أحمـد بن يحيى؛ قال : والذئب مهموز

(١) (يرتع) من أرتع ؛ وقد ورد فى الأصول بالياء؛ والذى فى تفسير ابن عطية والألوسى وأبى حيان عن مجاهد وقتادة هو (بالنون) وجزم (نلعب) قال ابن عطية : (وقراءة مجاهد وقتادة «نرتع» بضم النون وكسر التاء ، و «نلعب» بالنون والجزم) . (٢) ورد فى روح المعانى أن هذا الاشتقاق عند الزمخشرى ، وقال الأصمعى : إن تذاءبت مشتق من الذئب؛ لأن الذئب يفعله فى عدوه؛ وتعقب بأن أخذ الفعل من الأسماء الجامدة قليل مخالف للقياس .

لأنه يجىء من كل وجه . وروى ورش عن نافع « الذِّيبُ » بغير همز ، لما كانت الهمزة ساكنة وقبلها كسرة فخففها صارت ياء . ﴿ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴾ أى مشتغلون بالرعى .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أى جماعة نرى الذئب ثم لا نرده عنه . ﴿ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ ﴾ فى حفظنا أغنامنا ؛ أى إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا . وقيل : « لخاسرون » لجاهلون بحقه . وقيل لعاجزون .

قوله تعالى : فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ ﴾ « أن » فى موضع نصب ؛ أى على أن يجعلوه فى غيابة الجبّ . قيل فى القصة : إن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقا غليظا ليحفظُنّه ، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل ! إنه صغير ، وتعلم يا بنىّ شفقتى عليه ؛ فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فآسقه ، وإن أَعْيا[1] فآحمله ثم عَجِّل بردّه إلىّ . قال : فأخذوا يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر ، ويعقوب يُشيِّعهم ميلا ثم رجع ؛ فلما انقطع بصر أبيهم عنهم رماه الذى كان يحمله إلى الأرض حتى كاد ينكسر ، فالتجأ إلى آخر فوجد عند كل واحد منهم أشدّ مما عند الآخر من الغيظ والعسف ؛ فاستغاث بروبيل وقال : « أنت أكبر إخوتى ، والخليفة من بعد والدى علىّ ، وأقرب الأخوة إلىّ ، فارحمنى وآرحم ضعفى » فلطمه لطمة شديدة وقال : لا قرابة بينى وبينك ، فادع الأحد عشر كوكبا فلتنجك منا ؛ فعلم أن حقدهم من أجل رؤياه ، فتعلق بأخيه يهوذا وقال : يا أخى ! ارحم ضعفى وعجزى وحداثة سنى ، وارحم قلب أبيك يعقوب ؛ فما أسرع ما تناسيتم وصيته ونقضتم عهده ؛ فرقّ قلب يهوذا فقال : والله لا يصلون إليك أبدا ما دمتُ حيّا ، ثم قال : يا إخوتاه ! إن قتل النفس التى حرم الله من أعظم الخطايا ، فردوا هذا الصبىّ إلى أبيه ، ونعاهده

---

(١) أعيا الرجل فى المشى : كَلَّ

ألا يحـدّث والده بشيء ممـا جرى أبدا ؛ فقال له إخوته : والله ما تريد إلا أن تكون لك المكانة عنـد يعقوب ، والله لئن لم تدعه لنقتلنّك معه، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فهاهنا هذا الجبّ الموحش القفر، الذى هو مأوى الحيات والهوام فألقُوه فيه، فإن أصيب بشيء من ذلك فهو المراد، وقد استرحتم من دمه ، و إن انفلت على أيدى سيّارة يذهبون به إلى أرض فهو المراد؛ فأجمع رأيهـم على ذلك؛ فهو قول الله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ ﴾ وجواب « لمـا » محذوف؛ أى فلما ذهبوا به وأجمعوا على طرحه فى الجب عظمت فتنتهم . وقيل : جواب « لمـا » قولهم : « قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ » . وقيل التقدير : فلما ذهبوا به من عنـد أبيهم وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب جعلوه فيها، هـذا على مذهب البصريين؛ وأما على قول الكوفيين فالجواب « أوحينا » والواو مقحمة، والواو عندهم تزاد مع لمـّا وحتى؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا » أى فتحت، وقوله : « حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ » أى فار . قال امرئ القيس :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى (١) *

أى انتحى؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى ناديناه . وفى قوله : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ دليل على نبوّته فى ذلك الوقت . قال الحسن ومجاهد والضحاك وقَتَادة : أعطاه الله النبوّة وهو فى الجبّ على حجر مرتفع عن المـاء . وقال الكَلْبيّ : ألقى فى الجبّ وهو ابن ثمانى عشرة سنة، فما كان صغيرا؛ ومن قال كان صغيرا فلا يبعد فى العقل أن يتنبأ الصغير ويوحى إليه . وقيل : كان وحى إلهام كقوله : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » . وقيل : كان مناما، والأوّل أظهر ــ والله أعلم ــ وأن جبريل جاءه بالوحى .

قوله تعـالى : ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا ﴾ فيه وجهان : أحدهما ــ أنه أوحى إليه أنه سيلقاهم و يوبخهم على ما صنعوا ؛ فعلى هـذا يكون الوحى بعد إلقائه فى الجبّ تقوية لقلبه، وتبشيرا له بالسلامة . الثانى ــ أنه أوحى إليه بالذى يصنعون به؛ فعلى هذا الوحى قبل إلقائه

(١) تمـام البيت : * بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

فى الجبّ إنذارا له . ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أنك يوسف ؛ وذلك أن الله تعالى أمره لمـا أفضى إليه الأمر بمصر ألا يخبر أباه وأخوته بمكانه . وقيل : بوحى الله تعالى بالنبوة ؛ قاله ٱبن عباس ومجاهد . وقيل : « الهاء » ليعقوب ؛ أوحى الله تعالى إليه ما فعلوه بيوسف ، وأنه سيعرفهم بأمره ، وهم لا يشعرون بما أوحى الله إليه ، والله أعلم . ومما ذكر من قصته إذ ألقى فى الجبّ — ما ذكره السدّىّ وغيره — أن إخوته لمـا جعلوا يدلونه فى البـئر تعلق بشفير البـئر ، فربطوا يديه ونزعوا قميصه ؛ فقال : يا إخوتاه ! ردّوا علىّ قميصى أتوارى به فى هذا الجبّ ، فإن متّ كان كفنى ، وإن عشت أوارى به عورتى ؛ فقالوا : ٱدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا فلتؤنسك وتكسك ؛ فقال : إنى لم أر شيئا ، فدلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصـفها ألقوه إرادة أن يسـقط فيموت ؛ فكان فى البئر ماء فسقط فيه ، ثم آوى إلى صخرة فقام عليهـا . وقيـل : إن شمعون هو الذى قطع الحبل إرادة أن يتفتت على الصخرة ، وكان جبريل تحت ساق العرش ، فأوحى الله إليـه أن أدرك عبـدى ؛ قال جبريل : فأسرعت وهبطت حتى عارضته بين الرمى والوقوع فأقعـدته على الصخرة سالمـا . وكان ذلك الجبّ مأوى الهوام ؛ فقـام على الصّخرة وجعـل يبكى ، فنادوه ، فظن أنهـا رحمة عليـه أدركتهم ، فأجابهـم ؛ فأرادوا أن يرضخوه بالصخرة فمنعهم يهوذا ، وكان يهوذا يأتيه بالطعام ؛ فلمـا وقع عريانا نزل جبريل إليه ؛ وكان إبراهيم حين ألقى فى النار عريانا أتاه جبريل بقميص من حرير الجنـة فألبسـه إياه ، فكان ذلك عند إبراهيم ، ثم ورثه إسحق ، ثم ورثه يعقوب ، فلما شَبَّ يوسف جعـل يعقوب ذلك القميص فى تعويذة وجعـله فى عنقـه ، فكان لا يفارقه ؛ فلمـا ألقى فى الجبّ عريانا أخرج جبريل ذلك القميص فألبسـه إياه . قال وهب : فلمـا قام على الصّخرة قال : يا إخوتاه ! إن لكل ميت وصية ، فاسمعوا وصيتى ، قالوا : وما هى ؟ قال : إذا اجتمعتم كلكم فآنس بعضـكم بعضـا فاذكروا وحشـتى ، وإذا أكلتم فاذكروا جوعى ، وإذا شربتم فاذكروا عطشى ، وإذا رأيتم غريبا فاذكروا غربتى ، وإذا رأيتم شابا فاذكروا شـبابى ؛ فقال له جبريل : يا يوسف ! كُفّ عن هذا واشتغل بالدعاء ، فإن الدعاء عند الله

بمكان ؛ ثم علمه فقال : قل اللهم يا مؤنس كلّ غريب، ويا صاحب كلّ وحيد ، ويا ملجأ كلّ خائف، ويا كاشف كل كربة، ويا عالم كل نجوى، ويا منتهى كل شكوى، ويا حاضر كل ملإ، يا حيّ يا قيوم! أسألك أن تقذف رجاءك فى قلبي، حتى لا يكون لى همّ ولا شغل غيرك، وأن تجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا، إنك على كل شيء قـدير؛ فقالت الملائكة : إلهنـا ! نسمع صوتا ودعاء ، الصوت صوت صبيّ ، والدعاء دعاء نبيّ . وقال الضّحاك : نزل جبريل عليه السـلام على يوسف وهو فى الجبّ فقـال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هـذا الجب ؟ فقال : نعم ! فقـال له : قل يا صانع كلّ مصنوع ، ويا جابر كل كَسير ، ويا شاهد كل نَجْوى ، ويا حاضر كل ملإ ، ويا مفرّج كل كُربة، وياصاحب كل غريب، ويامؤنس كل وحيد، ٱيتنى بالفرج والرجاء، واقذف رجاءك فى قلبي حتى لا أرجو أحدا سـواك ؛ فرددها يوسف فى ليلته مرارا؛ فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ .

قوله تعـالى : وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾

فيــه مسئلتانـــ :

الأولى ـــ قوله تعالى : « وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً » أى ليلا ، وهو ظرف يكون فى موضع الحال؛ وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار فى الظّلمة؛ ولذا قيل: لا تطلب الحاجة بالليل ، فإن الحيـاء فى العينين ، ولا تعتذر بالنهار من ذنب فتتلجلج فى الاعتذار ؛ فروى أن يعقوب عليه السلام لمـا سمع بكاءهم قال : ما بكم ؟ أجرى فى الغنم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فأين يوسف ؟ قالوا : ذهبنا نسـتبق فأكله الذئب ؛ فبكى وصاح وقال : أين قميصه ؟ على ما يأتى بيانه. وقال السدىّ وابن حبّان : إنه لمـا قالوا أكله الذئب خرّ مغشيا عليه، فأفاضوا عليه المـاء فلم يتحرك ، ونادوه فلم يجب ؛ قال وهب : ولقد وضع يهوذا يده على مخارج نَفَس يعقوب فلم يحسّ بنفَس، ولم يتحرّك له عِرْق؛ فقال لهم يهوذا : ويل لنا من ديّان يوم الدّين! ضيّعنا أخانا ، وقتلنا أبانا ، فلم يفق يعقوب إلا ببرد السّحر ، فأفاق ورأسه فى حجر روبيل ؛

فقال : ياروبيل ! ألم آتمنك على ولدى؟ ألم أعهد إليك عهدا ؟ فقال : يا أبت ! كُفَّ عنّى بكاءك أخبرك ؛ فكفّ يعقوب بكاءه فقال : يا أبت « إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » .

الثانيـــة ـــ قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنّعا ؛ فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ؛ كما قال حكيم :

إذا ٱشتبكتْ دمـوعٌ فى خُدودٍ * تبيّنَ مَنْ بَكى مِمَّنْ تباكى

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فيـــه ســـبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : « نستبق » نفتعل ، من المسابقة . وقيل : أى نَنْتَضِل ؛ وكذا فى قراءة عبد الله «إنا ذهبنا نَنْتَضِل» وهو نوع من المسابقة؛ قاله الزجاج . وقال الأزهرىّ : النِّضال فى السّهام ، والرِّهان فى الخيل ، والمسابقة تجمعهما . قال القُشيرىّ أبو نصر : «نستبق» أى فى الرّمى ، أو على الفرس ، أو على الأقدام ؛ والغرض من المسابقة على الأقدام تدريب النفس على العَدْو ، لأنه الآلة فى قتال العدوّ ، ودفع الذئب عن الأغنام . وقال السّدّى وٱبن حبّان : «نستبق» نشتد جريا لنرى أينا أسبق . قال ٱبن العربى : المسابقة شِرْعة فى الشّريعة ، وخَصْلة بديعة ، وعَون على الحرب ؛ وقـد فعلها صلى الله عليه وسلم بنفسه وبخيله ، وسابق عائشة رضى الله عنها على قدميـه فسبقها ؛ فلمـا كبر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم سابقها فسبقته ؛ فقال لهـا : " هذه بتلك " .

قلت : وسابق سَلَمة بن الأكوع رجلا لمـا رجعوا من ذى قَرَد إلى المدينة فسبقه سَلَمة ؛ خرجه مسلم .

الثانيـــة — وروى مالك عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سابق بين الخيل التي قد أُضْمِرت(١) [من الحَفْيَاء](٢) وكان أمدها ثَنِيَّة الوَدَاع(٣)، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثَّنِيَّة إلى مسجد بني زُرَيق؛ وأن عبد الله بن عمر كان ممن سابق بها؛ وهذا الحديث مع صحته في هـذا الباب تضمن ثلاثة شروط؛ فلا تجوز المسابقـة بدونها، وهي: أن المسافة لا بد أن تكون معلومة. الثاني — أن تكون الخيل متساوية الأحوال. الثالث — ألا يسابق المضمَّر مع غير المضمَّر في أمد واحد وغاية واحدة. والخيـل التي يجب أن تُضمَّر ويسابق عليها، وتقام هذه السنّة فيها هي الخيل المعدّة لجهاد العدوّ لا لقتال المسلمين في الفتن.

الثالثـــة — وأما المسابقة بالنّصال والإبل؛ فروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: سافرنا مع رسول صـلى الله عليه وسـلم فنزلنا منزلا فمنّا من يصلح خِباءه، ومنا من يَنْتَضِل، وذكر الحديث. وخرج النّسائيّ عن أبي هُريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا سَبَق(٤) إلا في نَصْـل أو خُفّ أو حافر". وثبت ذكر النّصل من حديث ابن أبي ذئب عن نافع بن أبي نافع عن أبي هُريرة، ذكره النّسائي؛ وبه يقـول فقهاء الحجاز والعراق. وروى البخاريّ عن أنس قال: كان للنبي صلى الله عليـه وسلم ناقة تسمى العَضْباء لا تُسبق — قال حُمَيد: أو لا تكاد تُسبَق — فجاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين حتى عرفه؛ فقال: "حقّ على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه".

الرابعـــة — أجمع المسـلمون على أن السَّبَق لا يجـوز على وجه الرِّهان إلا في الخفّ والحافر والنّصل؛ قال الشافعي: ما عدا هذه الثلاثة فالسَّبَق فيها قِمار. وقد زاد أبو البَخْتَريّ

---

(١) تضمير الخيل: هو أن يظاهر عليها بالعلف حتى تسمن، ثم لا تعلف إلا قوتا لتخف. وقيل: تشـد عليها سروجها، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها، فيذهب رهلها ويشتد لحمها، ويكون ذلك لغزو أو سباق.

(٢) الزيادة عن (موطأ مالك). والحفياء (بالمد ويقصر): موضع بالمدينـة بينه وبين ثنية الوداع ستة أميال أو سـبعة. (٣) الثنية في الجبل كالعقبة فيه، وقيل: هو الطريق العالي فيه، وقيل: أعلى المسيل في رأسه؛ وثنية الوداع مشرفة على المدينة سميت بذلك؛ لأن من سافر إلى مكة كان يودع ثم؛ ومنها إلى مسجد بني زريق ميل.

(٤) «لا سبق»: هو بفتح البـاء ما يجعل للسابق على سبقه من المـال؛ وبالسكون مصـدر. قال الخطابي: الصحيح رواية الفتح؛ أي لا يحل أخذ المـال بالمسابقة إلا في هذه الثلاثة.

القاضي في حديث الخفّ والحافر والنّصل «أو جَناح» وهي لفظة وضعها للرشيد، فترك العلماء حديثه لذلك ولغيره من موضوعاته؛ فلا يكتب العلماء حديثه بحال. وقد روى عن مالك أنه قال: لا سَبَق إلا في الخيل والرمي؛ لأنه قوة على أهل الحرب؛ قال: وسَبَق الخيل أحبّ إلينا من سبَق الرمي. وظاهر الحديث يسوّى بين السّبق على النُّجُب والسّبق على الخيل. وقد منع بعض العلماء الرّهان في كل شيء إلا في الخيل؛ لأنها التي كانت عادة العرب المراهنة عليها. وروى عن عطاء أن المراهنة في كل شيء جائزة؛ وقد تُؤُوِّل قوله؛ لأن حمله على العموم يؤدّي إلى إجازة القمار، وهو محرّم باتفاق.

الخامســة — لا يجوز السَّبَق في الخيل والإبل إلا في غاية معلومة وأمد معلوم، كما ذكرنا؛ وكذلك الرمي لا يجوز السَّبَق فيه إلا بغاية معلومة ورَشْق معلوم، ونوع من الإصابة؛ مشترط خَسْقًا[(1)] أو إصابة بغير شرط. والأسباق ثلاثة: سَبَق يعطيه الوالي والرجل غير الوالي من ماله متطوعا فيجعل للسابق شيئا معلوما؛ فمن ســبق أخذه. وسَبَق يخرجه أحد المتسابقين دون صاحبه، فإن سبقه صاحبه أخذه، وإن سبق هو صاحبه أخذه؛ وحسن أن يمضيه في الوجه الذي أخرجه له، ولا يرجع إلى ماله؛ وهذا مما لا خلاف فيه. والسَّبَق الثالث — اختلف فيه؛ وهو أن يخرج كل واحد منهما شيئا مثل ما يخرجه صاحبه، فأيهما سبق أحرز سبَقه وسبَق صاحبه؛ وهذا الوجه لا يجوز حتى يُدخلا بينهما محلِّلا لا يأمنا أن يسبقهما؛ فإن سبق المحلِّل أحرز السَّبَقين جميعا وأخذهما وحده، وإن ســبق أحد المتسابقين أحرز سبَقه وأخذ سبَق صاحبه، ولا شيء للمحلِّل فيه، ولا شيء عليه. وإن سبق الثاني منهما الثالث كان كمن لم يسبق واحد منهما. وقال أبو علي بن خيران — من أصحاب الشافعي —: وحكم الفرس المحلِّل أن يكون مجهولا جريه؛ وسُمى محلِّلا لأنه يحلّل السَّبَق للمتسابقين أو له. واتفق العلماء على أنه إن لم يكن بينهما محلِّل واشــترط كل واحد من المتسابقين أنه إن ســبق أخذ سبَقه وسبَق صاحبــه أنه قمار، ولا يجوز. وفي سنن أبي داود عن أبي هُرَيرة عن النبي صــلى الله

(1) خسق السهم وخزق إذا أصاب الرمية ونفذ فيها.

عليه وسلم قال : " من أدخل فرسا بين فرسين وهو لا يأمن أن يَسبق فليس بقِمار ومن أدخله وهو يأمن أن يَسبق فهو قِمار " . وفى الموطأ عن سعيد بن المسيّب قال : ليس برِهان الخيل بأس إذا دخل فيها محلِّل، فإن سَبق أخذ السَّبَق ، و إن سُبق لم يكن عليه شيء ؛ وبهذا قال الشافعى وجمهور أهل العلم . وٱختلف فى ذلك قول مالك ؛ فقال مرة لا يجب المحلّل فى الخيل ، ولا نأخذ فيه بقول سعيد ، ثم قال : لا يجوز إلا بالمحلّل ؛ وهو الأجود من قوله .

السادسة — ولا يحمل على الخيل والإبل فى المسابقة إلا محتلم ، ولو ركبها أربابها كان أولى؛وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لا يركب الخيل فى السباق إلا أربابها . وقال الشافعى : وأقل السَّبَق أن يسبق بالهادى[1] أو بعضه، أو بالكَفَل أو بعضه . والسَّبَق من الرماة على هذا النحو عنده؛ وقول محمد بن الحسن فى هذا الباب نحو قول الشافعى .

السابعة — روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سابق أبا بكر وعمر، فسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصَلَّى أبو بكر وثَلَّثَ عمر ؛ ومعنى وصلى أبو بكر : يعنى أن رأس فرسه كان عند صَلَا فرس رسول الله صلى الله عليه وسلم، والصَّلَوان موضع العَجُز .

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا ﴾ أى عند ثيابنا وأقمشتنا حارسا لها . ﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ وذلك أنهم لما سمعوا أباهم يقول : « وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ » أخذوا ذلك من فيه فتحرّموا به ؛ لأنه كان أظهر المخاوف عليه . ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ﴾ أى بمصدق . ﴿ وَلَوْ كُنَّا ﴾ أى وإن كنا ؛ قاله المبرّد وٱبن إسحق . ﴿ صَادِقِينَ ﴾ فى قولنا ؛ ولم يصدّقهم يعقوب لما ظهر منهم من قوّة التّهمة ، وكثرة الأدلة ، على خلاف ما قالوه ؛ على ما يأتى بيانه . وقيل : « ولو كنا صادِقين » أى ولو كنا عندك من أهل الثقة والصدق ما صدقتنا، ولاتّهمتنا فى هذه القضية، لشدة محبتك فى يوسف؛ قال معناه الطبرىّ والزجاج وغيرهما .

---

(١) الهادى : العنق لتقدمه ؛ والجمع ( هواد ) .

قوله تعالى : وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « بِدَمٍ كَذِب » قال مجاهد : كان دم سَخْلة أو جَدْى ذبحوه . وقال قَتَادة : كان دم ظبية ؛ أى جاءوا على قميصه بدم مكذوب فيه ؛ فوصف الدم بالمصدر ، فصار تقديره : بدم ذى كذب ؛ مثل : « وَٱسأل القرية » والفاعل والمفعول قد يسميان بالمصدر ؛ يقال : هذا ضَرْب الأمير ، أى مضروبه ، وماء سَكْب أى مسكوب ، وماء غَوْر أى غائر ، ورجل عَدْل أى عادل .

وقرأ الحسن وعائشة : « بِدَمٍ كَدِبٍ » بالدّال غير المعجمة ، أى بدم طرِىّ ؛ يقال للدّم الطرىّ ٱلكَدِب . وحكى أنه المتغير ؛ قاله الشّعبى . والكَدَبُ أيضا البياض الذى يخرج فى أظفار الأحداث ؛ فيجوز أن يكون شبه الدّم فى القميص بالبياض الذى يخرج فى الظُّفر من جهة ٱختلاف اللونين .

الثانية — قال علماؤنا رحمة الله عليهم : لما أرادوا أن يجعلوا الدم علامة على صدقهم قَرَن الله بهذه العلامة علامة تعارضها ، وهى سلامة القميص من التَّنْيِيب ؛ إذ لا يمكن ٱفتراس الذئب ليوسف وهو لابس القميص ويسلم القميص من التخريق ؛ ولما تأمل يعقوب عليه السلام القميص فلم يجد فيه خَرْقا ولا أثرا ٱستدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيما يأكل يوسف ولا يخرق القميص ! قاله ٱبن عباس وغيره ؛ روى إسرائيل عن سِمَاك بن حرب عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال : كان الدم دم سَخْلة . وروى سفيان عن سِماك عن عِكرمة عن ابن عباس قال : لما نظر إليه قال كذبتم ؛ لو كان الذئب أكله لخرق القميص . وحكى الماوردىّ أن فى القميص ثلاث آيات : حين جاءوا عليه بدم كذب ، وحين قُدّ قميصه من دبر ، وحين أُلقى على وجه أبيه فارتدّ بصيرا .

قلت : وهذا مردود؛ فإن القميص الذى جاءوا عليه بالدم غير القميص الذى قُدّ، وغير القميص الذى أتاه البشير به . وقد قيل: إن القميص الذى قُدّ هو الذى أتى به فارتدّ بصيرا، على ما يأتى بيانه آخر السورة إن شاء الله تعالى . وروى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه؛ فاختلف قولهم، فاتّهمهم، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده، وما أرى بالقميص من شقّ؛ وتزعمون أن اللصوص قتلوه، ولو قتلوه لأخذوا قميصه؛ هل يريدون إلا ثيابه ؟ ! فقالوا عنـد ذلك : « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ» عن الحسن وغيره؛ أى لو كنا موصوفين بالصدق لاتهمتنا .

الثالثـــة : آستدل الفقهاء بهذه الآية فى إعمال الأمارات فى مسائل من الفقه كالقَسامة وغيرها ، وأجمعوا على أن يعقوب عليه الســلام آستدل على كذبهـم بصحة القميص؛ وهكذا يجب على الناظر أن يلحظ الأمارات والعلامات إذا تعارضت، فما ترجح منهـا قضى بجانب الترجيح ، وهى قوة التهمة؛ ولا خلاف بالحكم بها، قاله آبن العربى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ روى أن يعقوب لمـا قالوا له : « فأكله الذئب » قال لهم : لم يترك الذئب له عضوا فتأتونى به أستأنس به؟ ! ألم يترك لى ثوبا أشم فيه رائحته ؟ قالوا: بلى! هذا قميصه ملطوخ بدمه ؛ فذلك قوله تعالى : «وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ » فبكى يعقوب عند ذلك وقال لبنيه : أرونى قميصه، فأروه فشّمه وقبّله ، ثم جعل يقلبه فلا يرى فيه شقّا ولا تمزيقا ؛ فقال : والله الذى لا إله إلا هو ما رأيت كاليوم ذئبـا أحكم منـه ؛ أكل آبنى واختلسه من قميصه ولم يمزقه عليــه ؛ وعلم أن الأمر ليس كما قالوا ، وأن الذئب لم يأكله، فأعرض عنهم كالمغضب باكيا حزينا وقال : يامعشر ولدى! دلونى على ولدى؛ فإن كان حيا رددته إلىّ، وإن كان ميتا كفّنته ودفنته ؛ فقيــل قالوا حينئـذ : ألم تروا إلى أبينـا كيف يكذبنـا فى مقالتنا! تعالوا نخرجه من الجبّ ونقطعه عضوا عضوا، ونأت أبانا بأحد أعضائه فيصدقنا

فى مقالتنا ويقطع بأسه ؛ فقال يهوذا : والله لئن فعلتم لأكوننّ لكم عدوا ما بقيت ، ولأخبرنّ أباكم بسوء صنيعكم ؛ قالوا : فإذا منعتنا من هذا فتعالوا نصطد له ذئبا ، قال : فاصطادوا ذئبا ولطخوه بالدم، وأوثقوه بالحبال، ثم جاءوا به يعقوب وقالوا : يا أبانا ! إن هذا الذئب الذى يحل بأغنامنا ويفترسها ، ولعله الذى أفجعنا بأخينا لا نشك فيه ، وهذا دمه عليه؛ فقال يعقوب : أطلقوه ؛ فأطلقوه ، وتبصبصَ له الذئب ، فأقبل يدنو ويعقوب يقول له : آدن آدن ؛ حتى ألصق خدّه بخـدّه فقال له يعقوب : أيهـا الذئب ! لم فجعتنى بولدى وأورثتنى حزنا طويلا؟ ! ثم قال: اللهم أنطقه، فأنطقه الله تعالى فقال : والذى آصطفاك نبيا ما أكلت لحمه ، ولا مزّقت جلده، ولا نتفت شعرة من شعراته ، ووالله ! مالى بولدك عهد، وإنمـا أنا ذئب غريب أقبلت من نواحى مصر فى طلب أخ لى فُقِد ، فلا أدرى أحى هو أم ميت ، فاصطادنى أولادك وأوثقونى، وإن لحوم الأنبياء حرمت علينا وعلى جميع الوحوش ، وتالله! لا أقمت فى بلاد يكذب فيها أولاد الأنبياء على الوحوش ؛ فأطلقه يعقوب وقال : والله لقد أتيتم بالحجة على أنفسكم؛ هذا ذئب بهيم خرج يتبع ذِمام أخيه، وأنتم ضيّعتم أخاكم، وقد علمت أن الذئب برىء مما جئتم به . ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أى زينت . ﴿لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ غير ما تصفون وتذكرون . ثم قال توطئة لنفسه : ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ وهى :

الثانيـــة — قال الزجاج : أى فشأنى والذى أعتقده صبر جميـل . وقال قُطْرُب : أى فصبرى صبرٌ جميل . وقيـل : أى فصبر جميل أولى بى ؛ فهو مبتـدأ وخبره محذوف . ويروى أن النبى صلى الله عليـه وسلم سئل عن الصبر الجميل فقـال : " هو الذى لا شكوى معه " . وسيأتى له مزيد بيـان آخر السورة إن شاء الله . قال أبو حاتم : قرأ عيسى بن عمر فيما زعم سهل بن يوسـف « فصبرا جميـلا » قال : وكذا قرأ الأشهب العُقَيلى ؛ قال وكذا فى مصحف أنس وأبى صالح . قال المبرّد « فصبر جميـل » بالرفع أولى من النصب؛ لأن المعنى : قال رب عندى صبر جميل؛ قال : وإنمـا النصب على المصدر، أى فلا صبرنّ صبرا جميلا ؛ قال :

شَـكَا إلىّ جَمَـلى طولَ السُّرى * صَـبْرًا[1] جميلًا فكِلانا مُبْتَلَى

والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ولا شكوى . وقيل : المعنى لا أعاشركم على كآبة الوجه وعبوس الجبين ، بل أعاشركم على ما كنت عليـه معكم ؛ وفى هـذا ما يدل على أنه عفا عن مؤاخذتهم . وعن حبيب بن أبى ثابت أن يعقوب كان قـد سقط حاجباه على عينيه ، فكان يرفعهما بخرقة ؛ فقيل له : ما هذا ؟ قال : طول الزمان وكثرة الأحزان ؛ فأوحى الله إليه أتشكونى يايعقوب؟ ! قال : يارب! خطيئة أخطأتها فاغفر لى . ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ ابتداء وخبر . ﴿ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى على احتمال ما تصفون من الكذب .

الثالثـــة ـــ قال ابن أبى رفاعة : ينبغى لأهل الرأى أن يتهموا رأيهم عند ظن يعقوب صلى الله عليه وسلم وهو نبيّ؛ حين قال له بنوه : « إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ » قال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ » فأصاب هنـا؛ ثم قالوا له : « إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ » قال : « بل سوّلت لكم أنفسكم أمرا » فلم يصب .

قوله تعـالى : وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أى رفقة مارّة يسيرون من الشام إلى مصر فأخطئوا الطريق وهاموا حتى نزلوا قريبا من الجبّ ، وكان الجبّ فى قفرة بعيدة من العمران ، إنمـا هو للرّعاة والمجتاز ، وكان ماؤه ملحا فعذب حين ألقى فيه يوسف . ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ فذكر على المعـنى ؛ ولو قال : فأرسـلت واردها لكان على اللفظ ، مثـل « وجاءت » . والوارد الذى يرد المـاء يستق للقوم؛ وكان اسمه ـــ فيما ذكر المفسرون ـــ مالك بن دُعْر[2] ،

---

(١) ويروى ( صبر جميل ) فى البيت ، ويحمل على إضمار مبتدأ أو خبر . ويروى ( صبرا جميل ) على نداء الجمل .

(٢) دعر : هو بالدال المهملة وبالذال تصحيف كما فى القاموس .

من الغرب العاربة . ﴿ فَأَدْلَى دَلْوَهُ ﴾ أى أرسـله ؛ يقال : أدلى دلوه إذا أرسلها ليملأها ، ودَلّاها أى أخرجها ؛ عن الأصمعى وغيره . ودَلَا — من ذوات الواو — يدلو دلوا ، أى جذب وأخرج ، وكذلك أدلى إذا أرسـل ، فلما ثقل ردوه إلى اليـاء ، لأنها أخف من الواو ؛ قاله الكوفيون . وقال الخليل وسيبويه : لمـا جاوز ثلاثة أحرف رجع إلى الياء ؛ اتباعا للمستقبل . وجمع دَلْو فى أقل العدد أَدْلٍ فإذا كثرت قلت : دُلِيّ ودِلِيّ ؛ فقلبت الواو ياء ، إلا أن الجمع بابه التغيـير ، وليفرق بين الواحد والجمع ؛ ودِلاء أيضا . فتعلق يوسف بالحبـل ، فلما خرج إذا غلام كالقمر ليلة البدر ، أحسن ما يكون من الغلمان . قال صلى الله عليه وسلم فى حديث الإسراء من صحيح مسلم : " فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أعطى شَطْر الحسن " . وقال كعب الأحبـار : كان يوسف حسن الوجه ، جَعْد الشّعر ، ضخم العينين ، مسـتوى الخلق ، أبيض اللون ، غليظ الساعدين والعضدين ، خَميص البطن ، صغير السُّرة ، إذا ابتسم رأيت النور من ضواحكه ، و إذا تكلم رأيت فى كلامه شُعاع الشمس من ثناياه ، لا يستطيع أحد وصفه ؛ وكان حسنه كضوء النهار عند الليـل ، وكان يشبه آدم عليه السـلام يوم خلقه الله ونفخ فيه من روحه قبل أن يصيب المعصية . وقيل : إنه ورث ذلك الجمال من جدته سارة ؛ وكانت قد أعطيت سدس الحسن ؛ فلمـا رآه مالك بن دُعْر قال : « يَا بُشْرَايَ هَـذَا غُلَامٌ » هذه قراءة أهل المدينـة وأهل البصرة ؛ إلا آبن أبى إسحق فإنه قرأ « يَا بُشْرَيَّ هَذَا غُلَامٌ » فقلب الألف ياء ، لأن هـذه الياء يكسر ما قبلها ، فلما لم يجز كسر الألف كان قلبها عوضا . وقرأ أهل الكوفة « يَا بُشْرَى » غير مضاف ؛ وفى معناه قولان : أحدهما — آسم الغلام ، والثانى — يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قَتادة والسُّدىّ : لمـا أدلى المدلى داوه تعلق بهـا يوسف فقال : يا بشرى هذا غلام ؛ قال قَتادة : بشر أصحابه بأنه وجد عبدا . وقال السُّـدىّ : نادى رجلا آسمـه بشرى . قال النحاس : قول قَتادة أولى ؛ لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسـيرا ؛ وإنمـا يأتى بالكناية كما قال عز وجل : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ » وهو عُقْبة آبن أبى مُعَيط ، وبعده « يَالَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا » وهو أمية

ابن خلف ؛ قاله النحاس والمعنى فى نداء البشرى : التبشير لمن حضر ؛ وهو أوكد من قولك تبشرت، كما تقول : يا عجباه ! أى يا عجب هـذا من أيامك ومن آياتك، فاحضر ؛ هذا مذهب سيبويه ، وكذا قال السُّهيلى . وقيل هو كما تقول : وا سروراه ! وأن البشرى مصدر من الاستبشار ؛ وهـذا أصحّ لأنه لو كان اسما علما لم يكن مضافا إلى ضمير المتكلم ؛ وعلى هذا يكون «بشراى» فى موضع نصب، لأنه نداء مضاف؛ ومعنى النداء ها هنا التنبيه، أى انتبهوا لفرحتى وسرورى؛ وعلى قول السُّدى يكون فى موضع رفع كما تقول : يا زيد هذا غلام . ويجوز أن يكون محله نصبا كقولك يارجلا، وقوله : « يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ » ولكنه لم ينون « بشرى » لأنه لا ينصرف. ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾ الهاء كناية عن يوسف عليه السلام؛ فأما الواو فكناية عن إخوته . وقيل : عن التجار الذين آشتروه، وقيل عن الوارد وأصحابه . « بضاعة » نصب على الحال . قال مجاهد : أسرّه مالك بن دُعْر وأصحابه من التجار الذين معهم فى الرفقة ، وقالوا لهم : هو بضاعة آستبضعناها بعضُ أهل الشام أو أهل هذا الماء إلى مصر ؛ وإنما قالوا هـذا خيفة الشركة . وقال آبن عباس أسرّه إخوة يوسف بضاعة لما آستخرج من الجبّ ؛ وذلك أنهم جاءوا فقالوا : بئس ما صنعتم ! هذا عبد لنا أَبِق ؛ وقالوا ليوسف بالعبرانية : إما أن تُقرّ لنا بالعبودية فنبيعك من هؤلاء ، وإما أن نأخذك فنقتلك؛ فقال : أنا أقرّ لكم بالعبودية، فأقرّ لهم فباعوه منهم . وقيل : إن يهوذا وصى أخاه يوسف بلسانهم أن آعترف لأخوتك بالعبودية فإنى أخشى إن لم تفعل قتلوك؛ فلعل الله أن يجعل لك مخرجا ، وتنجو من القتل ، فكتم يوسف شأنه مخافة أن يقتله إخوته؛ فقال مالك : والله ما هذه سمة العبيد! ، قالوا : هو تربّى فى حجورنا ، وتخلق بأخلاقنا ، وتأدب بآدابنا؛ فقال : ما تقول ياغلام ؟ قال : صدقوا ! تربيت فى حجورهم، وتخلقت بأخلاقهم؛ فقال مالك : إن بعتموه منى آشتريته منكم؛ فباعوه منه؛ فذلك :

قوله تعالى : وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ يقال : شريت بمعنى ٱشتريت، وشريت بمعنى بعت لغة؛ قال الشاعر(١) :

وشَرِيتُ بُرْدًا لَيْتَنِـي * مِن بَعْـدِ بُرْدٍ كنتُ هَامَهْ

أي بعت . وقال آخر :

فلما شَرَاها فاضتِ العينُ عَبرةً * وفي الصَّـدرِ حُزّازٌ من اللَّومِ حَامِزُ(٢)

﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي نقص؛ وهو هنا مصدر وضع موضع الاسم ؛ أي باعوه بثمن مبخوس ، أي منقوص.ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم عنه . وقيل : إن يهوذا رأى من بعيد أن يوسف أخرج من الجبّ فأخبر إخوته فجاءوا وباعوه من الواردة . وقيل : لا ! بل عادوا بعد ثلاث إلى البئر يتعرّفون الخبر، فرأوا أثر السيارة فاتبعوهم وقالوا : هذا عبدنا أبق منا فباعوه منهم . وقال قَتادة : « بخس » ظلم . وقال الضّحاك ومقاتل والسُّــدي وابن عطاء : « بخس » حرام . وقال ابن العربي : ولا وجه له ، وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة ؛ لأن إخوته إن كانوا باعوه فلم يكن قصدهم ما يستفيدونه من ثمنه، وإنما كان قصدهم ما يستفيدون من خلو وجه أبيهم عنه ؛ وإن كان الذين باعوه الواردة فإنهم أخفوه مقتطَعا؛ أو قالوا لأصحابهم : أرسل معنا بضاعة فرأوا أنهم لم يُعطُوا عنه ثمنا وأنّ ما أخذوا فيه ربح كلّه .

قلت : قوله «وإنما الإشارة فيه إلى أنه لم يستوف ثمنه بالقيمة» يدل على أنهم لو أخذوا القيمة فيه كاملة كان ذلك جائزا وليس كذلك ؛ فدل على صحة ما قاله السدي وغيره ؛ لأنهم أوقعوا البيع على نفس لا يجوز بيعها ، فلذلك كان لا يحل لهم ثمنه . وقال عِكرمة والشّعبي : قليل . وقال ٱبن حبان : زَيْف . وعن ٱبن عباس وٱبن مسعود باعوه بعشرين درهما أخذ كل واحد من إخوته درهمـين ، وكانوا عشرة ؛ قاله قَتادة والسُّــدي . وقال أبو العاليـة

(١) هو : يزيد بن مفرغ الحميري؛ و( برد ) اسم عبد كان له ندم على بيعه . (٢) البيت للشماخ، قاله في رجل باع قوسه من رجل . وحامز : عاصر، وقيل : أي مُمِضّ محرق . ( اللسان ) .

ومقاتل : اثنين وعشرين درهما، وكانوا أحد عشر أخذ كل واحد درهمين ؛ وقاله مجاهد .
وقال عِكرمة : أربعين درهما ؛ وما روى عن الصحابة أولى . و « بخسٍ » من نعت
« ثمنٍ » . « دراهِم » على البـدل والتفسير له . ويقال : دراهيم على أنه جمع دِرهام ، وقد
يكون اسمـا للجمع عند سيبويه ، ويكون أيضا عنده على أنه مدّ الكسرة فصارت ياء، وليس
هـذا مثل مدّ المقصور ؛ لأن مدّ المقصور لا يجوز عند البصريين فى شعر ولا غيره . وأنشد
النحويون :

تَنْـفِى يداها الحَصَى فى كلِّ هَاجِرةٍ * نَفْىَ الدَّراهِـيمِ تَنْقَادُ الصَّـيَارِيفِ (١)

﴿ مَعْدُودَةٍ ﴾ نعت ؛ وهذا يدل على أن الأثمان كانت تجرى عندهم عدّا لاوزنا بوزن . وقيل :
هو عبارة عن قلة الثمن ؛ لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها ؛ وذلك أنهم كانوا لا يزنون
ما دون الأوقية، وهى أربعون درهما .

الثانيـــة — قال القاضى ابن العربى : وأصل النقدين الوزن؛ قال صلى الله عليه وسلم:
" لاتبيعوا الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة إلا وزنا بوزن من زاد أو ازداد فقد أربى " .
والزنة لا فائدة فيها إلا المقدار ؛ فأما عينها فلا منفعة فيـه ، ولكن جرى فيها العدّ تخفيفا عن
الخلق لكثرة المعاملة، فيشق الوزن ؛ حتى لو ضرب مثاقيل أو دراهم لجاز بيع بعضها ببعض
عدّا إذا لم يكن فيها نقصـان ولا رجحان ؛ فإن نقصت عاد الأمر إلى الوزن ؛ ولأجل ذلك
كان كسرها أو قرضها من الفساد فى الأرض حسب ما تقدّم .

الثالثـــة — وآختلف العلمـاء فى الدراهم والدنانير هل تتعـين أم لا ؟ وقـد آختلفت
الرواية فى ذلك عن مالك ؛ فذهب أشهب إلى أن ذلك لا يتعين ، وهو الظـاهر من قول
مالك ؛ وبه قال أبو حنيفة . وذهب آبن القاسم إلى أنها تتعـين، وحكى عن الكَرْخىّ؛ وبه
قال الشـافعى . وفائدة الخـلاف أنا إذا قلنا لا تتعـين فإذا قال : بعتك هـذه الدنانير بهذه

(١) البيت للفرزدق؛ وصف ناقة سريعة السير فى الهواجر؛ فشبه خروج الحصى من تحت مناسمها بارتفاع الدراهم عن الأصابع إذا نقدت .

الدراهم تعلقت الدنانير بذمة صاحبها، والدراهم بذمة صاحبها؛ ولو تعينت ثم تلفت لم يتعلق بذمتهما شيء، وبطل العقد كبيع الأعيان من العروض وغيرها .

الرابعـــة — روى عن الحسن بن على رضى الله عنهما أنه قضى فى اللقيط أنه حر، وقرأ : « وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ » وقد مضى القول فيه .

الخامســـة — قوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴾ قيل : المراد إخوته . وقيل: السيّارة . وقيل : الواردة ؛ وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطا، لا عند الإخوة؛ لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولاعند السيارة لقول الأخوة إنه عبد أَبِق منا — والزهد قلة الرغبـة — ولا عند الواردة لأنهم خافوا ٱشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنـه فى الانفراد أولى .

السادســـة — فى هـذه الآية دليل واضح على جواز شراء الشيء الخطير بالثمن اليسير ، ويكون البيع لازما؛ ولهذا قال مالك: لو باع دُرّة ذات خطر عظيم بدرهم ثم قال لم أعلم أنها درّة وحسبتها مَخْشَلَبَة (١) لزم البيع ولم يلتفت إلى قوله . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ» أى فى حسنه ؛ لأن الله تعالى و إن أعطى يوسف شَطْر الحسن صرف عنه دواعى نفوس القوم إليه إكراما له . وقيل : « وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » لم يعلموا منزلته عند الله تعالى. وحكى سيبويه والكسائى زَهِدت وزَهَدت بكسر الهـاء وفتحها .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

---

(١) المخشلبة : خرز أبيض يشا كل اللؤلؤ .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ﴾ قيل : الاشـتراء هنا بمعنى الاستبدال؛ إذ لم يكن ذلك عقدا، مثل: « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَالَةَ بِٱلْهُدَىٰ » . وقيل : إنهم ظنوه فى ظاهر الحال ٱشتراء، فجرى هذا اللفظ على ظاهر الظن . قال الضّحاك: هذا الذى ٱشتراه ملك مصر، ولقبه العزيز . السُّهيلى : وٱسمه قطفير . وقال ٱبن إسحق : إطفير بن رويحب ٱشتراه لأمرأته راعيل ؛ ذكره الماوردىّ . وقيل : كان اسمها زليخا . وكان الله ألقى محبـة يوسف على قلب العزيز ، فأوصى به أهله ؛ ذكره القُشيرىّ . وقد ذكر القولين فى اسمها الثعلبىّ وغيره . وقال ٱبن عباس : إنما اشتراه قطفير وزير ملك مصر، وهو الريان بن الوليد . وقيل : الوليـد بن الريان، وهو رجل من العمالقة . وقيـل : هو فرعون موسى؛ لقول موسى: « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَاتِ » وأنه عاش أربعمائة سنة . وقيل فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف، على ما يأتى فى « غافر »[1] بيـانه . وكان هذا العزيز الذى ٱشترى يوسف على خزائن الملك؛ واشـترى يوسف من مالك بن دُعْر بعشرين دينارا، وزاده حلة ونعلين . وقيل : اشتراه من أهل الرفقة . وقيل : تزايدوا فى ثمنـه فبلغ أضعاف وزنه مِسْكا وعَنْبرا وحريرا وورِقا وذهبا ولآلئ وجواهر لايعلم قيمتها إلا الله؛ فابتاعه قطفير من مالك بهـذا الثمن ؛ قاله وهب بن منبّه . وقال وهب أيضا وغيره : ولمـا ٱشترى مالك بن دُعْر يوسف من إخوته كتب بينهم وبينه كتابا : « هذا ما ٱشترى مالك بن دُعْر من بنى يعقوب ، وهم فلان وفلان مملوكا لهم بعشرين درهما ، وقد شرطوا له أنه آبق ، وأنه لا ينقلب به إلا مقيدا مسلسلا ، وأعطاهم على ذلك عهد الله » قال : فودّعهم يوسف عند ذلك، وجعل يقول: حفظكم الله وإن ضيعتمونى، نصركم الله وإن خذلتمونى، رحمكم الله وإن لم ترحمونى ؛ قالوا : فألقت الأغنام ما فى بطونها دما عَبِيطا[2] لشدّة هـذا التوديع، وحملوه على قتب بغير غطاء ولا وطاء، مقيدا مكبلا مسلسلا، فمرّ على مقبرة آل كنعان فرأى قبر أمّه — وقد كان وكل به أسود يحرسـه فغفل الأسود — فألقى يوسف نفسـه على قبر أمّه وجعل يتمرّغ

---

(١) راجع تفسير آية ٣٤ . (٢) الدم العبيط : الطرى .

و يعتنق القبر و يضطرب و يقول : يا أماه! آرفعي رأسك ترى ولدك مكبلا مقيــدا مسلسلا مغلولا؛ فرّقوا بيني و بين والدي، فاسألي الله أن يجمع بيننا في مستقر رحمته إنه أرحم الراحمين، فتفقده الأسود على البعير فلم يره، فقفا أثره، فإذا هو ببياض على قبر، فتأمله فإذا هو إياه، فركضه برجله في التراب ومرغه وضربه ضربا وجيعا؛ فقال له : لاتفعل! والله ماهربت ولا أبِقت، وإنمــا مررت بقبر أمي فأحببت أن أودّعها ، ولن أرجع إلى ما تكرهون ؛ فقال الأســود : والله إنك لعبد سوء، تدعو أباك مرة وأمك أخرى! فهلا كان هذا عند مواليك ؛ فرفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن كانت لي عنــدك خطيئة أخلقت بهــا وجهي فأسألك بحق آبائي إبراهيم و إسحق و يعقوب أن تغفــر لي وترحمني ؛ فضجّت الملائكة في السماء ، ونزل جبريل فقال له : يا يوسف ! غُضّ صوتك فلقد أبكيت ملائكة السماء ! أفتريد أن أقلب الأرض فأجعل عاليها سافلها؟ قال : تثبت يا جبريل، فإن الله حليم لايعجل؛ فضرب الأرض بجناحه فأظلمت ، وآرتفع الغبار، وكسفت الشمس، و بقيت القافلة لا يعرف بعضها بعضا ؛ فقال رئيس القافلة : من أحدث منكم حدثا؟ — فإني أسافر منذ كيت وكيت ما أصابني قطّ مثل هذا — فقال الأسود : أنا لطمت ذلك الغلام العبراني فرفع يده إلى السماء وتكلّم بكلام لاأعرفه، ولا أشــك أنه دعا علينا ؛ فقال له : ما أردت إلا هلا كنا ! آيتنا به، فأتاه به ، فقال له : يا غلام! لقد لطمك فجاءنا ما رأيت ؛ فإن كنت تقتص فاقتص ممن شئت، و إن كنت تعفو فهو الظنّ بك؛ قال : قد عفوت رجاء أن يعفو الله عني؛ فانجلت الغبرة، وظهرت الشمس، وأضاء مشارق الأرض ومغاربها، وجعل التاجر يزوره بالغداة والعشي و يكرمه، حتى وصل إلى مصر فاغتسل في نيلها وأذهب الله عنه كآبة السفر ، وردّ عليه جمــاله ، ودخل به البلد نهارا فسطع نوره على الجدران ، وأوقفوه للبيع فاشــتراه قطفير وزير الملك ؛ قاله آبن عباس على ما تقدّم . وقيل : إن هذا الملك لم يمت حتى آمن وآتبع يوسف على دينــه ، ثم مات الملك و يوسف يومئــذ على خزائن الأرض؛ فملك بعــده قابوس وكان كافرا، فدعاه يوســف إلى الإسلام فأبى . « اكرمي مثواه » أي منزله ومقامه بطيب المطعم واللباس الحسن ؛ وهــو

مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به؛ وقد تقدّم فى «آل عمران»[(1)] وغيره. ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ ﴾ أى يكفينا بعض المهمات إذا بلغ. ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ قال ٱبن عباس: كان حَصُورا لا يولد له، وكذا قال ٱبن إسحق: كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له. فإن قيل: كيف قال «أو نتخذه ولدا» وهو ملكه، والوَلَدية مع العبدية تتناقض؟ قيل له: يعتقه ثم يتخذه ولدا بالتبنّى؛ وكان التبنّى فى الأمم معلوما عندهم، وكذلك كان فى أوّل الإسلام، على ما يأتى بيانه فى «الأحزاب»[(2)] إن شاء الله تعالى. وقال عبد الله بن مسعود: أحسن الناس فراسة ثلاثة؛ العزيز حين تفرّس فى يوسف فقال: «عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا»، وبنت شعيب حين قالت لأبيها فى موسى «ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ»، وأبو بكر حين ٱستخلف عمر. قال ٱبن العربى: عجبا للمفسرين فى اتفاقهم على جلب هذا الخبر! والفراسة هى علم غريب على ما يأتى بيانه فى سورة «الحجر»[(3)] وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأن الصدّيق إنما وَلّى عمر بالتجربة فى الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم والمنّة، وليس ذلك من طريق الفراسة؛ وأما بنت شعيب فكانت معها العلامة البينة على ما يأتى بيانه فى «القصص»[(4)]. وأما أمر العزيز فيمكن أن يجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الكاف فى موضع نصب؛ أى وكما أنقذناه من إخوته ومن الجبّ فكذلك مكنّا له؛ أى عطفنا عليه قلب الملك الذى ٱشتراه حتى تمكن من الأمر والنهى فى البلد الذى الملك مستول عليه. ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أى فعلنا ذلك تصديقا لقول يعقوب: «وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ». وقيل: المعنى مكناه لنوحى إليه بكلام منا، ونعلمه تأويله وتفسيره، وتأويل الرؤيا، وتم الكلام. ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أى لا يغلب الله شىء، بل هو الغالب على أمر

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٣٣ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع المسئلة الأولى والثانية فى تفسير آية ٥.
(٣) راجع تفسير آية ٧٥. (٤) راجع تفسير آية ٢٦.

نفسه فيما يريده أن يقول له : كن فيكون . وقيل : ترجع إلى يوسف ؛ أى الله غالب على أمر يوسف يدبّره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيد كائد . ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لا يطلعون على غيبه . وقيل: المراد بالأكثر الجميع؛ لأن أحدا لا يعلم الغيب . وقيل : هو مجرى على ظاهره ؛ إذ قد يُطلِع من يريد على بعض غيبه . وقيل : المعنى « وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أن الله غالب على أمره،وهم المشركون ومن لا يؤمن بالقدر . وقالت الحكماء فى هذه الآية : « وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ » حيث أمره يعقوب ألا يقص رؤياه على إخوته فغلب أمرالله حتى قص، ثم أراد إخوته قتله فغلب أمرالله حتى صار ملكا وسجدوا بين يديه،ثم أراد الإخوة أن يخلو لهم وجه أبيهم فغلب أمر الله حتى ضاق عليهم قلب أبيهم ، وآفتكره بعد سبعين سنة أو ثمانين سنة، فقال : « يَا أَسَفَا عَلَىٰ يُوسُفَ » ثم تدّبروا أن يكونوا من بعده قوما صالحين، أى تائبين فغلب أمرالله حتى نسوا الذنب وأصروا عليه حتى أقرّوا بين يدى يوسف فى آخر الأمر بعد سبعين سنة، وقالوا لأبيهم: « إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » ثم أرادوا أن يخدعوا أباهم بالبكاء والقميص فلم ينخدع وقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا» ثم احتالوا فى أن تزول محبته من قلب أبيهم فغلب أمر الله فازدادت المحبة والشوق فى قلبه، ثم دبرت آمرأة العزيز أنها إن آبتدرته بالكلام غلبته، فغلب أمرالله حتى قال العزيز : « آستغفري لِذنبِك إنِك كنتِ مِن الخاطِئِين » ، ثم دبر يوسف أن يتخلص من السجن بذكر الساقى فغلب أمر الله فنسى الساقى، ولبث يوسف فى السجن بِضع سنين .

قوله تعالى : وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾ « أشدّه » عند سيبويه جمع، واحده شِدّة . وقال الكسائى : واحده شَدّ ؛ كما قال الشاعر[1] :

عَهْدِى به شَدَّ النَّهارِ كأنَّمَا * خُضِبَ اللَّبانُ ورأسُه بالعِظْلِمِ

(١) هو عنترة العبسى . وشد النهار : أى أشده ؛ يعنى أعلاه . واللبان : الصدر؛ وقيل : وسطه ، وقيل : ما بين الثديين، ويروى : «البنان» . والعظلم عصارة شجر أو نبت يصبغ به، أو الوسمة، وهى شجرة ورقها خضاب .

وزعم أبو عبيد أنه لا واحد له من لفظه عند العرب؛ ومعناه ٱستكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقَتادة : الأَشُدّ ثلاث وثلاثون سنة . وقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك ابن أنس : الأَشُدّ بلوغ الحُلُم؛ وقد مضى ما للعلماء فى هذا فى «النساء»[1] و «الأنعام»[2] مستوفى . ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا ﴾ قيل : جعلناه المستولى على الحُكْم، فكان يحكم فى سلطان الملك ؛ أى وآتيناه عِلما بالحُكْم . وقال مجاهد : العقل والفهم والنبوّة . وقيل : الحُكْم النبوّة، والعِلم عِلم الدين؛ وقيل : علم الرؤيا ؛ ومن قال أوتى النبوّة صبيا قال : لما بلغ أشدّه زدناه فهما وعلما . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يعنى المؤمنين . وقيل : الصابرين على النوائب كما صبر يوسف؛ قاله الضحاك . وقال الطبرى : هذا وإن كان مخرجه ظاهرا على كل محسِن فالمراد به محمد صلى الله عليه وسلم ؛ يقول الله تعالى : كما فعلت هذا بيوسف بعد أن قاسى ما قاسى ثم أعطيته ما أعطيته ، كذلك أنجيك من مشركى قومك الذين يقصدونك بالعداوة ، وأمكّن لك فى الأرض .

قوله تعـالى : وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وهى ٱمرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها . وأصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين . والرَّوْد والرِّياد طلب الكلأ ؛ وقيل : هى من رُوَيد ؛ يقال : فلان يمشى رُوَيدا، أى برفق؛ والمراودة الرفق فى الطلب؛ يقال

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانيـة . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

فى الرجل : راودها عن نفسها، وفى المرأة راودته عن نفسه. والرَّود التأنى؛ يقال : أرودنى أمهلنى . ﴿ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوابَ ﴾ غلّق للكثير، ولا يقال : غَلَق البابَ ؛ وأَغلَق يقع للكثير والقليل؛ كما قال الفَرَزْدق فى أبى عمرو بن العلاء :

ما زلتُ أُغلق أبوابا وأفتحُها * حتى أتيتُ أبا عمرو بن عمّار

يقال : إنها كانت سبعة أبواب غلّقتها ثم دعته إلى نفسها . ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ﴾ أى هَلُمَّ وأقبل وتَعالَ ؛ ولا مصدر له ولا تصريف . قال النحاس : فيها سبع قراءات ؛ فمن أجلّ ما فيها وأصحه إسنادا ما رواه الأعمش عن أبى وائل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقرأ « هَيْتَ لَكَ » قال فقلت : إن قوما يقرءونها « هيت لك » فقال : إنما أقرأ كما عُلّمت . قال أبو جعفر : وبعضهم يقول عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا يبعد ذلك ؛ لأن قوله : إنما أقرأ كما علّمت يدل على أنه مرفوع ، وهذه القراءة بفتح التاء والهاء هى الصحيحة من قراءة ابن عباس وسعيد بن جُبير والحسن ومجاهد وعكرمة؛ وبها قرأ أبو عمرو بن العلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائىّ . قال عبد الله بن مسعود: لا تقطعوا فى القرآن؛ فإنما هو مثل قول أحدكم : هَلمّ وتَعالَ . وقرأ ابن أبى إسحق النحوى « قالت هَيْتِ لَكَ » بفتح الهاء وكسر التاء . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ وابن كثير « هَيْتُ لَكَ » بفتح الهاء وضم التاء؛ قال طَرَفة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العَشيرة هَيْتُ

فهذه ثلاث قراءات الهاء فيهنّ مفتوحة . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع « وَقَالَتْ هِيتَ لَكَ » بكسر الهاء وفتح التاء . وقرأ يحيى بن وثّاب « وَقَالَتْ هِيتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها ياء ساكنة والتاء مضمومة . وروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وابن عباس ومجاهد وعكرمة « وَقَالَتْ هِئْتُ لَكَ » بكسر الهاء وبعدها همزة ساكنة والتاء مضمومة . وعن ابن عامر وأهل الشام «وَقَالَتْ هِئْتَ» بكسر الهاء وبالهمزة وبفتح التاء؛ قال أبو جعفر: « هِئْتَ لَكَ » بفتح التاء لالتقاء الساكنين، لأنه صوت نحو مَهْ وصَهْ يجب ألّا يعرب ،

والفتح خفيف ، لأن قبل التاء ياء مثل أين وكيف ؛ ومن كسر التاء فإنما كسرها لأن الأصل الكسر ؛ لأن الساكن إذا حرّك حرّك إلى الكسر ، ومن ضم فلأن فيه معنى الغاية ؛ أى قالت : دعائى لك ، فلمـا حذفت الإضافة بنى على الضم ؛ مثل حيثُ وبعدُ . وقراءة أهل المدينة فيها قولان : أحدهما — أن يكون الفتح لالتقاء الساكنين كما مرّ . والآخر — أن يكون فعلا من هَاءَ يَهِيء مثل جاء يجيء ؛ فيكون المعنى فى «هِئْتَ» أى حسنت هيئتك ، ويكون «لَكَ» من كلام آخر ، كما تقول : لكَ أعنى . ومن همز وضم التاء فهو فعل بمعنى تهيأتُ لك ؛ وكذلك من قرأ « هِيتُ لَكَ » . وأنكر أبو عمرو هذه القراءة ؛ قال أبو عبيدة — مَعْمَر بن المُثَنَّى : سئل أبو عمرو عن قراءة من قرأ بكسر الهـاء وضم التاء مهموزا فقال أبو عمرو : باطل ؛ جعلها من تهيأت ! اذهب فاستعرِض العرب حتى تنتهى إلى اليمن هل تعرف أحدا يقول هـذا ؟ ! وقال الكسائى أيضا : لم تُحكَ « هِئتُ » عن العرب . قال عِكرمة : «هِئتُ لك» أى تهيأت لك وتزينت وتحسنت ، وهى قراءة غير مرضية ، لأنها لم تسمع فى العربيـة . قال النحاس : وهى جيدة عند البصريين ؛ لأنه يقال : هَاءَ الرجلُ يَهاء ويَهِيء هيأةً فهاء يَهِيء مثل جاء يجيء ، وهِئتُ مثل جئت . وكسر الهـاء فى « هيت » لغـة لقوم يؤثرون كسر الهـاء على فتحها . قال الزجاج : أجود القراءات « هَيْتَ » بفتح الهـاء والتاء ؛ قال طَرَفَة :

ليس قومى بالأبعدين إذا ما * قال داعٍ من العشيرة هَيْتَ

بفتح الهـاء والتـاء .

وقال الشاعر فى على بن أبى طالب رضى الله عنه :

أَبلغْ أميرَ المؤمنـــينَ * أخا العراقِ إذا أَتيتَا

إنّ العراقَ وأهلَهُ * سِلْمٌ إليكَ فَهَيْتَ هَيْتَا

قال ابن عباس والحسن : « هيت » كلمة بالسريانيـة تدعوه إلى نفسها . وقال السُّدّىّ : معناها بالقبطية هلمّ لك . قال أبو عبيـد كان الكسائىّ يقول : هى لغة لأهل حَوْران وقعت إلى أهـل الحجاز معناه تعال ؛ قال أبو عبيد : فسألت شـيخا عالمـا من حَوْرَان فذكر أنهـا

لغتهم؛ وبه قال عِكْرِمة . وقال مجاهــد وغيره : هى لغة عربيــة تدعوه بها إلى نفسها ، وهى كلمة حثّ وإقبال على الأشــياء ؛ قال الجوهرىّ : يقــال هَوَّتَ به وهَيَّتَ به إذا صاح به ودعاه ؛ قال :

قــد رَابَنِي أَنَّ الْكَرِيَّ أَسْكَتَا * لو كانــ مَعْنِيًّا بهــا لَهَيَّتَا

أى صاح ؛ وقال آخر :

* يَحْدُو بهــا كُلُّ فَتًى هَيَّاتِ *

قوله تعالى : ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أى أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتنى إليه؛ وهو مصدر، أى أعوذ بالله مَعاذا؛ فيحذف المفعول وينتصب المصدر بالفعل المحذوف، ويضاف المصدر إلى آسم الله كما يضاف المصــدر إلى المفعول ، كما تقــول : مررت بزيد مرور عمرو أى كمرورى بعمرو. ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعنى زوجها، أى هو سيّدى أكرمنى فلا أخونه ؛ قاله مجاهد وآبن إسحق والسدّى . وقال الزّجاج : أى إن الله ربى تولانى بلطفه ، فلا أركب ما حرّمه . ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ وفى الخبر أنها قالت له : يا يوسف ! ما أحسن صورة وجهك ! قال : فى الرَّحِم صوّرنى ربِّى ؛ قالت : يا يوسف ما أحسن شَــعْرك ! قال : هو أول شىء يَبْــلى منّى فى قبرى ؛ قالت : يا يوسف ! ما أحسن عينيك ؟ قال : بهما أنظــر إلى ربّى . قالت : يا يوسف ! آرفع بصرك فآنظــر فى وجهى ، قال : إنى أخاف العمى فى آخرتى . قالت : يا يوسف ! أدنو منك وتتباعد منى ؟ ! قال : أريد بذلك القرب من ربى . قالت : يا يوسف ! القَيْطون[1] فآدخل معى، قال: القَيْطُون لا يسترنى من ربّى . قالت : يا يوسف ! فراش الحرير قــد فرشته لك ، قم فاقض حاجتى ، قال : إذًا يذهب من الجنة نصيبى ؛ إلى غير ذلك من كلامها وهو يراجعها؛ إلى أن همّ بها . وقد ذكر بعضهم ما زال النساء يَمِلْن إلى يوسف مَيْــل شهوة حتى نبأه الله ، فألق عليــه هيبة النبوّة ؛ فشغلت هيبته كل من رآه عن حسنه . وآختلف العلماء فى همّه ؛ ولا خلاف أن همّها كان المعصية ، وأما يوسف فهمّ بها

(١) القيطون : المخدع ، أعجمىّ ، وقيل : بلغة أهل مصر وبربر .

﴿لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ ولكن لما رأى البرهان ما همّ؛ وهذا لوجوب العصمة للأنبياء؛ قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ فإذًا في الكلام تقديم وتأخير؛ أي لولا أن رأى برهان ربه همّ بها. قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا» الآية، قال أبو عبيدة: هذا على التقديم والتأخير؛ كأنه أراد ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها. وقال أحمد بن يحيى: أي همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة، وهمّ يوسف ولم يواقع ما همّ به؛ فبين الهمتين فرق، ذكر هذين القولين الهروىّ في كتابه. قال جميل:

هَمَمْتُ بِهَمٍّ من بُثينةَ لو بَدَا * شَفيتُ غَليلاتِ الهوَى من فُؤاديَا

آخر:

هَمَمْتُ ولم أفعلْ وكدتُ وليتني * تركتُ على عثمانَ تبكي حلائلُهْ

فهذا كله حديث نفس من غير عزم. وقيل: همّ بها تمنى زوجيتها. وقيل: همّ بها أي بضربها ودفعها عن نفسه، والبرهان كفه عن الضرب؛ إذ لو ضربها لأوهم أنه قصدها بالحرام فامتنعت فضربها. وقيل: إن همّ يوسف كان معصية، وأنه جلس منها مجلس الرجل من امرأته؛ وإلى هذا القول ذهب معظم المفسرين وعامتهم، فيما ذكر القُشيريّ أبو نصر، وابن الأنباريّ والنحاس والماورديّ وغيرهم. قال ابن عباس: حلّ الهِمْيان[1] وجلس منها مجلس الخاتن، وعنه: استلقت على قفاها وقعد بين رجليها ينزع ثيابه. وقال سعيد ابن جُبَير: أطلق تِكّة سراويله. وقال مجاهد: حلّ السراويل حتى بلغ الأليتين، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته. قال ابن عباس: ولما قال: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» قال له جبريل: ولا حين هممت بها يا يوسف؟! فقال عند ذلك: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي». قالوا: والانكفاف في مثل هذه الحالة دالّ على الإخلاص، وأعظم للثواب.

(١) الهميان شداد السراويل.

قلت : وهذا كان سبب ثناء الله تعالى على ذى الكفل حسب ما يأتى بيانه فى «ص»[1] إن شاء الله تعالى . وجواب «لولا» على هذا محذوف ؛ أى لولا أن رأى برهان ربه لأمضى ما همّ به ؛ ومثله « كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ » وجوابه لم تتنافسوا ؛ قال آبن عطية : روى هذا القول عن آبن عباس وجماعة من السلف ، وقالوا : الحكمة فى ذلك أن يكون مثلا للمذنبين ليروا أن توبتهم ترجع إلى عفو الله تعالى كما رجعت ممن هو خير منهم ، ولم يوبقه القرب من الذنب ، وهذا كله على أن همّ يوسف بلغ فيما روت هذه الفرقة إلى أن جلس بين رجلى زليخا وأخذ فى حل ثيابه وتِكّته ونحو ذلك ، وهى قد آستلقت له ؛ حكاه الطبرىّ . وقال أبو عبيد القاسم بن سلّام : وآبن عباس ومن دونه لا يختلفون فى أنه همّ بها ، وهو أعلم بالله وبتأويل كتابه ، وأشدّ تعظيما للأنبياء من أن يتكلموا فيهم بغير علم . وقال الحسن : إن الله عز وجل لم يذكر معاصى الأنبياء ليعيرهم بها ؛ ولكنه ذكرها لئلا ييئسوا من التوبة . الغزنوىّ : مع أن لزلة الأنبياء حِكَمًا ؛ زيادة الوجل ، وشدّة الحياء بالخجل ، والتخلّى عن عجب العمل ، والتلذذ بنعمة العفو بعد الأمل ، وكونهم أئمة رجاء أهل الزلل . قال القُشيرىّ أبو نصر : وقال قوم جرى من يوسف همّ ، وكان ذلك حركة طبع من غير تصميم للعقد على الفعل ؛ وما كان من هذا القبيل لا يؤاخذ به العبد ، وقد يخطر بقلب المرء وهو صائم شرب الماء البارد ، وتناول الطعام اللذيذ ، فإذا لم يأكل ولم يشرب ، ولم يصمم عزمه على الأكل والشرب لا يؤاخذ بما هجس فى النفس ؛ والبرهان صرفه عن هذا الهمّ حتى لم يصر عزما مصمما .

قلت : هذا قول حسن ؛ وممن قال به الحسن . قال آبن عطية : الذى أقول به فى هذه الآية إن كون يوسف فى هذه النازلة لم يصح كونه نبيا ، ولا تظاهرت به رواية ؛ وإذا كان كذلك فهو مؤمن قد أوتى حُكما وعلما ، ويجوز عليه الهمّ الذى هو إرادة الشىء دون مواقعته وأن يستصحب الخاطر الردىء على ما فى ذلك من الخطيئة ؛ وإن فرضناه نبيا فى ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندى إلا الهمّ الذى هو خاطر ، ولا يصح عليه شىء مما ذكر من حلّ تِكّته

(١) راجع تفسير آية ٤٨ من السورة المذكورة ، آية ٨٥ من سورة « الأنبياء » .

ونحوه؛ لأن العصمة مع النبوّة . وما روى من أنه قيل له : « تكون فى ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء » فإنمـا معناه العِدَة بالنبوة فيما بعد .

قلت : ما ذكره من التفصيل صحيح؛ لكن قوله تعالى: «وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ» يدل على أنه كان نبيًّا على ما ذكرناه، وهو قول جماعة من العلماء؛ و إن كان نبيّا فلم يبق إلا أن يكون الهمّ الذى همّ به ما يخطر فى النفس ولا يثبت فى الصدر ؛ وهو الذى رفع الله فيه المؤاخذة عن الخلق ، إذ لا قدرة للمكلف على دفعه ؛ ويكون قوله : «وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِى» — إن كان من قول يوسف — أى من هـذا الهمّ ، ويكون ذلك منه على طريق التواضع والاعتراف ، لمخـالفة النفس لمـا زكّى به قبل و برئ ؛ وقد أخبر الله تعالى عن حال يوسف من حين بلوغه فقال : « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا » على ما تقدّم بيانه ، وخبر الله تعالى صدق ، ووصفه صحيح ، وكلامه حق ؛ فقد عمل يوسف بما علمه الله من تحريم الزنى ومقدماته ، وخيانة السيد والجار والأجنبى فى أهله ؛ فما تعرّض لامرأة العزيز، ولا أجاب إلى المراودة ، بل أدبر عنهـا وفرّ منها ؛ حكمة خُصّ بهـا ، وعملًا بمقتضى ما علّمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " قالت الملائكة رب ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقـال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها و إن تركها فاكتبوها له حسنة إنمـا تركها من جرّاى"(١) . وقال عليه السلام مخبرا عن ربه : "إذا همّ عبدى بسيئة فلم يعملها كتبت حسنة" فإذا كان ما يهم به العبد من السيئة يكتب له بتركها حسنة فلا ذنب ؛ وفى الصحيح : "إن الله تجاوز لأمتى عما حدّثت به نفسها ما لم تعمل أو تكلّمُ به" وقد تقدّم . قال ابن العربى : كان بمدينة السلام إمام من أئمة الصوفية ، — وأىّ إمام — يعرف بابن عطاء ! تكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما نسب إليه من مكروه ؛ فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشـحون بالخليقة من كل طائفة فقال : يا شيخ ! يا سيدنا ! فإذًا يوسف همّ وما تمّ ؟ قال : نعم ! لأن العناية من ثَمّ . فانظر إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وانظر إلى فطنة العامى فى سؤاله ،

(١) من جراى : أى من أجلى ؛ وفى نسخة من صحيح مسلم " من جرائى " .

وجواب العالم فى آختصاره وآستيفائه؛ ولذلك قال علماء الصوفية : إن فائدة قوله « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وعِلْمًا » إنما أعطاه ذلك إبان غلبة الشهوة لتكون له سببا للعصمة .

قلت : وإذا تقررت عصمته وبراءته بثناء الله تعالى عليه فلا يصح ما قال مُصْعَب بن عثمان : إن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجها ، فاشتاقته آمرأة فسامته نفسها فامتنع عليها وذكّرها، فقالت : إن لم تفعل لأشهرنك؛ فخرج وتركها، فرأى فى منامه يوسف الصديق عليه السلام جالسا فقال : أنت يوسف ؟ فقال : أنا يوسف الذى هممتُ، وأنتَ سليمان الذى لم تهمّ ؟ ! فإن هذا يقتضى أن تكون درجة الولاية أرفع من درجة النبوّة وهو محال؛ ولو قدّرنا يوسف غير نبي فدرجته الولاية، فيكون محفوظا كهو؛ ولو غلقت على سليمان الأبواب، وروجع فى المقال والخطاب ، والكلام والجواب مع طول الصحبة لخيف عليه الفتنة، وعظيم المحنة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والجواب محذوف لعلم السامع؛ أى لكان ما كان . وهذا البرهان غير مذكور فى القرآن ؛ فروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أن زليخا قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت فى زاوية البيت فسترته بثوب ، فقال : ما تصنعين ؟ قالت : أستحى من إلهى هذا أن يرانى فى هذه الصورة؛ فقال يوسف : أنا أولى أن أستحى من الله؛ وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأن فيه إقامة الدليل . وقيل : رأى مكتوبا فى سقف البيت « وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا » . وقال آبن عباس : بدت كفّ مكتوب عليها « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ » وقال قوم : تذكّر عهد الله وميثاقه . وقيل : نودى يا يوسف ! أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء ؟ ! وقيل : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضا على أنملته يتوعده فسكن، وخرجت شهوته من أنامله ؛ قاله قَتادة ومجاهد والحسن والضّحاك وأبو صالح وسعيد بن جُبير . وروى الأعمش عن مجاهد قال : حلّ سراويله فتمثل له يعقوب، وقال له : يا يوسف ! فولّى هاربا . وروى سفيان عن أبى حصين عن سعيد بن جُبير قال : مثل له يعقوب فضرب

صـدره فخرجت شهوته من أنامله ؛ قال مجاهد : فولد لكل واحد من أولاد يعقوب ٱثنـا عشر ذكرا إلا يوسف لم يولد له إلا غلامان ، ونقص بتلك الشهوة ولده ؛ وقيـل غير هذا . وبالجملة : فذلك البرهان آية من آيات الله أراها الله يوسف حتى قوى إيمانه ، وٱمتنع عن المعصية .

قوله تعـالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْـهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ الكاف من « كذلك » يجوز أن تكون رفعا ، بأن يكون خبراً ٱبتداء محذوف ، التقدير : البراهين كذلك ، ويكون نعتا لمصدر محذوف ؛ أى أريناه البراهين رؤية كذلك . والسوء الشهوة ، والفحشاء المباشرة . وقيل : السوء الثناء القبيح ، والفحشاء الزنى . وقيل : السوء خيانة صاحبه ، والفحشاء ركوب الفاحشة . وقيل : السوء عقوبة الملك العزيز . وقرأ ٱبن كثير وأبو عمرو وٱبن عامر « المخلِصين » بكسر اللام ؛ وتأويلها الذين أخلصوا طاعة الله . وقرأ الباقون بفتح اللام ، وتأويلها : الذين أخلصهم الله لرسالته ؛ وقد كان يوسف صلى الله عليه وسلم بهاتين الصفتين ؛ لأنه كان مخلِصا فى طاعة الله تعالى ، مستخلَصا لرسالة الله تعالى .

قوله تعـالى : وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وٱستبقا الباب وقدّت قميصه مِن دبرٍ ﴾ .

فيـــه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ قالت العلماء : وهذا من ٱختصار القرآن المعجز الذى يجتمع فيه المعانى ؛ وذلك أنه لمـا رأى برهان ربه هرب منهـا فتعاديا ، هى لتردّه إلى نفسها ، وهو ليهرب عنها ، فأدركته قبل أن يخرج « وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ » أى من خَلْفه ؛ قبضت فى أعلى قميصه فتخرّق القميص عنـد طوقه ، ونزل التخريق إلى أسفل القميص .

والاستباق طلب السّبق إلى الشيء ؛ ومنه السّباق . والقدّ القطع ، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولا ؛ قال النابغة [١] :

تَقُدُّ السَّلُوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ * وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُبَاحِبِ

والقَطُّ بالطاء يستعمل فيما كان عَرْضا . وقال المفضّل بن حرب : قرأت في مصحف « فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ عُطَّ مِنْ دُبُرٍ » أي شُقّ . قال يعقوب : العَطّ الشّق في الجلد الصحيح والثوب الصحيح . وحذفت الألف من «ٱستبقا» في اللفظ لسكونها وسكون اللام بعدها ؛ كما يقال : جاءني عبدا الله في التثنية ؛ ومن العرب من يقول : جاءني عبدا الله بإثبات الألف بغير همز ، ويجمع بين ساكنين ؛ لأن الثاني مدغم ، والأوّل حرف مدّ ولين . ومنهم من يقول : عبدا الله بإثبات الألف والهمز ، كما تقول في الوقف .

الثانيــة — في الآية دليل على القياس والٱعتبار ، والعمل بالعرف والعادة ؛ لما ذكر من قدّ القميص مقبلا ومدبرا ، وهذا أمر ٱنفرد به المالكية في كتبهم ؛ وذلك أن القميص إذا جُبِذ من خلف تمزّق من تلك الجهة ، وإذا جُبِذ من قدّام تمزق من تلك الجهة ، وهذا هو الأغلب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ أي وجدا العزيز عند الباب ، وعَنَى بالسيّد الزوج ؛ والقبط يسمّون الزوج سيّدا . يقال : ألفاه وصادفه ووارطه ووالطه ولاطه كله بمعنى واحد [٢] ؛ فلما رأت زوجها طلبت وجها للحيلة وكادت فقالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا ﴾ أي زِنًى . ﴿ إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تقول : يُضرب ضربا وجيعا . و « ما جزاء » ابتداء ، وخبره « أن يسجن » . « أو عذاب » عطف على موضع «أن يسجن» لأن المعنى : إلا السّجن . ويجوز أو عذابا أليما بمعنى : أو يعذّب عذابا أليما ؛ قاله الكسائي .

---

(١) يصف السيوف ، وقد تقدّم شرح البيت بهامش ص ١٠٣ من هذا الجزء .

(٢) كذا العبارة في الأصل وفي « البحر المحيط » ، ولم نقف على مادة ( وارط و والط ولاط ) بمعنى ( ألفى ) في معاجم اللغة .

قوله تعالى : قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هِىَ رَاوَدَتْنِى عَنْ نَفْسِى وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال العلماء : لما برأت نفسها، ولم تكن صادقة فى حبه — لأن من شأن المحبّ إيثار المحبوب — قال « هى راودتنى عن نفسى » نطق يوسف بالحق فى مقابلة بهتها وكذبها عليه . قال نوف الشامىّ وغيره : كأن يوسف عليه السلام لم يبن عن كشف القضية، فلما بَغَت به غضب فقال الحق .

الثانية — ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ لأنهما لما تعارضا فى القول ٱحتاج الملك إلى شاهد يعلم الصادق من الكاذب ، فشهد شاهد من أهلها ، أى حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة . وقد ٱختلف فى هذا الشاهد على أقوال أربعة : الأول — أنه طفل فى المهد تكلم؛ قال السهيلى : وهو الصحيح؛ للحديث الوارد فيه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو قوله : "لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة" وذكر فيهم شاهد يوسف . وقال القشيرىّ أبو نصر : قيل كان صبيا فى المهد فى الدار وهو ٱبن خالتها ؛ وروى سعيد بن جبير عن ٱبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تكلم أربعة وهم صغار" فذكر منهم شاهد يوسف؛ فهذا قول . الثانى — أن الشاهد قدّ القميص ؛ رواه ابن أبى نجيح عن مجاهد، وهو مجاز صحيح من جهة اللغة ؛ فإن لسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛

وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات وتخبر عنها بمـا هى عليه من الصفات، وذلك كثير فى أشعارها وكلامها؛ ومن أحلاه قول بعضهم: قال الحائط للوتد لِمَ تَشقُّنى؟ قال له: سَلْ من يَدقُّنى. إلا أن قول الله تعالى بعد « من أهلها » يبطل أن يكون القميص. الثـالث — أنه خَلْق من خَلْق الله تعالى ليس بإنسيّ ولا بجنيّ؛ قاله مجاهد أيضا؛ وهذا يرده قوله: « من أهلها ». الرابع — أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره فى أموره، وكان من جملة أهل المرأة، وكان مع زوجها فقال: قد سمعت الاستبدار والجلبة من وراء البـاب، وشق القميص، فلا يدرى أيكما كان قدّام صاحبه؛ فإن كان شقّ القميص من قدامه فأنت صادقة، وإن كان من خلفه فهو صادق؛ فنظروا إلى القميص فإذا هو مشقوق من خلف؛ هذا قول الحسن وعكرمة وقتـادة والضحّاك ومجاهـد أيضا والسدّى. قال السدّى: كان ابن عمها؛ وروى عن ابن عبـاس، وهو الصحيح فى البـاب، والله أعلم. وروى عن ابن عبـاس — رواه إسرائيل عن سِماك عن عِكرمة — قال: كان رجلا ذا لحية. وقال سفيان عن جابر عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس أنه قال: كان من خاصـة الملك. وقال عكرمة: لم يكن بصبيّ، ولكن كان رجلا حكيما. وروى سفيان عن منصور عن مجاهد قال: كان رجلا. قال أبو جعفر النحاس: والأشبه بالمعنى — والله أعلم — أن يكون رجلا عاقلا حكيما شاوره الملك فجاء بهذه الدلالة؛ ولو كان طفلا لكانت شهادته ليوسف صلى الله عليه وسلم تغنى عن أن يأتى بدليل من العادة؛ لأن كلام الطفل آية معجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة؛ وليس هذا بمخالف للحديث " تكلم أربعة وهم صغار " منهم صاحب يوسف؛ يكون المعنى: صغيرا ليس بشيخ؛ وفى هذا دليل آخر وهو: أن ابن عباس رضى الله عنهما روى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم، وقد تواترت الرواية عنه أن صاحب يوسف ليس بصبيّ.

قلت: قد روى عن ابن عباس وأبى هُريرة وابن جُبير وهلال بن يِساف[1] والضّحاك أنه كان صبيا فى المهد؛ إلا أنه لو كان صبيا تكلم لكان الدليل نفس كلامه، دون أن يحتاج إلى

(١) هو بالكسر وقد يفتح.

استدلال بالقميص، وكان يكون ذلك خرق عادة، ونوع معجزة ؛ والله أعلم . وسيأتى من تكلم فى المهد من الصبيان فى سورة « البروج » إن شاء الله .

الثالثـــة ــ إذا تنزلنا على أن يكون الشاهد طفلا صغيرا فلا يكون فيه دلالة على العمل بالأمارات كما ذكرنا ؛ وإذا كان رجلا فيصح أن يكون حجة بالحكم بالعلامة فى اللقطة وكثير من المواضع ؛ حتى قال مالك فى اللصوص : إذا وجدت معهم أمتعة فجاء قوم فادعوها ، وليست لهم بيّنة فإن السلطان يتلوّم[1] لهم فى ذلك ؛ فإن لم يأت غيرهم دفعها إليهم . وقال محمد فى متاع البيت إذا اختلفت فيه المرأة والرجل : إن ما كان للرجال فهو للرجل، وما كان للنساء فهو للمرأة ، وما كان للرجل والمرأة فهو للرجل . وكان شُرَيح وإياس بن معاوية يعملان على العلامات فى الحكومات ؛ وأصل ذلك هذه الآية، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ﴾ كان فى موضع جزم بالشرط، وفيه من النحو ما يشكل ؛ لأن حروف الشرط تردّ المـاضى إلى المستقبل ، وليس هذا فى كان ؛ فقال المبرد محمد بن يزيد : هذا لقوّة كان، وأنه يعبر بها عن جميع الأفعال . وقال الزجاج : المعنى إن يكن ؛ أى إن يُعلَم ، والعلم لم يقع ، وكذا الكون لأنه يؤدى عن العلم . « قُدَّ مِنْ قُبُـلٍ » نخبّر عن « كان » بالفعل المـاضى ؛ كما قال زهير :

وكان طَوَى كَشْحًا على مُسْتَكِنَّةٍ * فلا هـــو أبداهَا ولم يَتَقــدَّمِ[2]

وقرأ يحيى بن يعمر وابن أبى إسحق « مِنْ قُبُـلُ » بضم القاف والباء واللام ، وكذا « دُبُرُ » قال الزجاج : يجعلهما غايتين كقبلُ وبعـدُ ؛ كأنه قال : من قُبُلِه ومن دُبُرِه ، فلما حذف المضاف إليه ــ وهو مراد ــ صار المضاف غاية نفسه بعد أن كان المضاف إليه غاية له . ويجوز « من قُبُلَ » « ومن دُبُرَ » بفتح الراء واللام تشبيها بما لا ينصرف؛ لأنه معرفة ومزال عن بابه . وروى محبوب عن أبى عمرو « من قُبْلٍ » « ومن دُبْرٍ » مخفّفان مجروران .

---

(١) التلوم : التنظر للأمر تريده . (٢) الكشح : الجنب؛ ويقال : طوى كشحه على كذا إذا أضمره . والمستكنة : الحقد . ويروى : (ولم يتجمجم) .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ ﴾ قيل : قال لها ذلك العزيز عند قولها « مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا » . وقيل : قاله لها الشاهد . والكيد : المكر والحيلة ، وقد تقدم في « الأنفال »(1) . ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وإنما قال « عظيم » لعظم فتنتهنّ وآحتيالهنّ في التخلّص من ورطتهنّ . وقال مقاتل عن يحيى بن أبي كثير عن أبي هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله تعالى يقول « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » وقال « إن كيدكن عظيم » " .

قوله تعالى : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ القائل هذا هو الشاهد . و « يوسف » نداء مفرد ، أي يا يوسف ، فحذف . « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أي لا تذكره لأحد وآكتمه . ثم أقبل عليها فقال : وأنتِ ﴿ ٱسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ ﴾ يقول : استغفرى زوجك من ذنبك لا يعاقبك . ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ ولم يقل من الخاطئات لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث ، فغلّب المذكر ؛ والمعنى : من الناس الخاطئين ، أو من القوم الخاطئين ؛ مثل « إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ » « وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ » . وقيل : إن القائل ليوسف آعرض ولها آستغفرى زوجُها الملك ؛ وفيه قولان : أحدهما — أنه لم يكن غيورا ؛ فلذلك كان ساكنا . وعدم الغيرة في كثير من أهل مصر موجود . الثاني — أن الله تعالى سلبه الغيرة وكان فيه لطف بيوسف حتى كُفي بادرته وعفا عنها .

قوله تعالى : وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(1) راجع جـ ٧ ص ٣٨٦ طبعة أولى أو ثانية .

وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ ويقال : «نُسْوَةٌ» بضم النون، وهى قراءة الأعمش والمفضّل والسُّلَمىّ، والجمع الكثير نسـاء . ويجوز : وقالت نسوة، وقال نسوة، مثل قالت الأعراب وقال الأعراب؛ وذلك أن القصة ٱنتشرت فى أهل مصر فتحدّث النساء . قيل : ٱمرأة ساقى العزيز، وٱمرأة خبازه، وٱمرأة صاحب دوابه، وٱمرأة صاحب سجنه . وقيل : ٱمرأة الحاجب ؛ عن ٱبن عباس وغيره . ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِـهِ ﴾ الفتى فى كلام العرب الشاب، والمرأة فتاة . ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ قيل : شغفها غلبها . وقيل : دخل حبه فى شَغافها؛ عن مجاهد وغيره . وروى عمرو بن دينار عن عِكرمة عن ٱبن عباس قال: دخل تحت شَغافها . وقال الحسن : الشّغف باطن القلب . السدّى وأبو عبيد : شغاف القلب غلافه، وهو جلدة عليه . وقيل : هو وسط القلب؛ والمعنى فى هذه الأقوال متقارب، والمعنى : وصل حبه إلى شَغافها فغلب عليه؛ قال النابغة :

وقـد حال همٌّ دون ذلك داخلٌ * دخولَ الشّغافِ تبتغيه الأصـابعُ [(١)]

وقد قيل : إن الشّغاف داء؛ وأنشد الأصمعى للراجز :

* يتبعها وهى له شَغافُ *

وقرأ أبو جعفر بن محمد وٱبن محيصن والحسن «شَعَفَهَا» بالعين غير معجمة؛ قال ٱبن الأعرابى : معناه أحرق حبه قلبها ؛ قال : وعلى الأول العمل . قال الجوهرىّ : وشَعفه الحبُّ أحرق قلبه . وقال أبو زيد : أمرضه . وقد شُعِف بكذا فهو مشعوف . وقرأ الحسن « قَدْ شَعَفَهَا » قال : بطَنها حبًّا . قال النحاس : معناه عند أكثر أهل اللغة قـد ذهب بها كل مذهب ؛

(١) يعنى أصابع المطببين؛ يقول : قد حال عن البكاء على الديار هم دخل فى الفؤاد، حتى أصابه منه داء .

لأن شِعَاف الجبال أعاليها ؛ وقد شُغِف بذلك شَغْفا بإسكان الغين إذا أُولع به ؛ إلا أن أبا عبيدة أنشد بيت آمرئ القيس :

لتقتلُنى وقــد شَعَفْتُ فؤادَها * كما شَعَفَ الْمَهْنُوءَةَ الرَّجُلُ الطَّالِى[1]

قال : فشبهت لوعةُ الحبّ وجواه بذلك . وروى عن الشَّعْبي أنه قال : الشَّغف بالغين المعجمة حبّ ، والشّعف بالعين غير المعجمة جنون . قال النحاس : وحكى « قد شَغِفَها » بكسر الغين، ولا يعرف فى كلام العرب إلا « شَغَفها » بفتح الغين،وكذا « شَعَفها » أى تركها مشعوفة . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن : الشَّغاف حجاب القلب ، والشّعاف سويداء القلب ، فلو وصل الحبّ إلى الشّعاف لماتت ؛ وقال الحسن : ويقال إن الشَّغاف الجلدة اللاصقة بالقلب التى لا ترى، وهى الجلدة البيضاء، فلصق حبه بقلبها كلصوق الجلدة بالقلب .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى هذا الفعل . وقال قَتَادة : « فتاها » وهو فتى زوجها، لأن يوسف كان عندهم فى حكم المماليك، وكان ينفذ أمرها فيه . وقال مقاتل عن آبن عثمان النَّهْدىّ عن سلمان الفارسىّ قال : إن آمرأة العزيز آستوهبت زوجها يوسف فوهبه لها، وقال : ما تصنعين به ؟ قالت : أتخذه ولدا؛ قال : هو لك؛ فربّته حتى أيفع وفى نفسها منه ما فى نفسها، فكانت تنكشف له وتتزين وتدعوه من وجه اللطف فعصمه الله .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أى بغيبتهنّ إياها ، وآحتيالهنّ فى ذمها . وقيل : إنها أطلعتهنّ واستأمنتهنّ فأفشين سرها ، فسمى ذلك مكرا . وقوله : ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ فى الكلام حذف؛ أى أرسلت إليهن تدعوهنّ إلى وليمة لتُوقعهنّ فيما وقعت فيه؛ فقال مجاهد عن آبن عباس إن آمرأة العزيز قالت لزوجها : إنى أريد أن أتخذ طعاما فأدعو هؤلاء النسوة؛ فقال لها : افعلى؛ فاتخذت طعاما، ثم نَجَّدت لهن البيوت؛ نَجَّدت أى زينت؛ والنَّجْد ما يُنَجَّد

(١) المهنوءة : المطلية بالقطران ، وإذا هنىء البعير بالقطران يجد له لذة مع حرقة ، كحرقة الهوى مع لذته .

به البيت من المتاع أى يُزيّن،والجمع نُجُود؛ عن أبى عُبيد؛ والتنجيد التزيين؛ وأرسلت إليهنّ أن يحضُرن طعامها، ولا تتخلف منكنّ آمرأة ممن سميتُ . قال وهب بن مُنَبِّه : إنهنّ كنّ أربعين آمرأة بجئن على كُرْه منهنّ، وقد قال فيهنّ أُميّة بن أبى الصّلْت :

حـتى إذا جئنهـا قسـرا * ومهدت لهن أنضـادا وكِبابا (١)

ويُروى أنمـاطا . قال وهب : بجئن وأخذن مجالسهنّ . ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أى هيأت لهنّ مجالس يتكئن عليهـا . قال آبن جُبَير : فى كل مجلس جَامٌ فيـه عسل وأُتْرُجّ وسكّين حاد . وقرأ مجاهد وسعيد بن جُبير « مُتْكًا » مخففا غير مهموز ؛ والمُتْك هو الأُتْرُجّ بلغة القبط، وكذلك فسره مجاهـد . روى سفيان عن منصور عن مجاهد قال : المُتَّكَأ مثقلا الطعام، والمُتْك مخففا الأُتْرُجّ؛ وقال الشاعر :

نَشْرَبُ الإثْمَ بالصُّواعِ جِهَارًا * وتَرَى المُتْـك بَيْنَنَا مُسْتعارَا

وقد تقول أَزْدُ شَنُوءة : الأُترجّة المُتْكة؛ قال الجوهرى: المُتْك ما تُبقيه الخاتنة. وأصل المُتْك الزُّمَاوَرْد (٢) . والمَتْكَاء من النساء التى لم تُخْفَض (٣) . قال الفرّاء : حدّثنى شيخ من ثقات أهل البصرة أن المُتك مخففا الزُّمَاوَرْد . وقال بعضهم : إنه الأُترجّ ؛ حكاه الأخفش. ٱبن زيد : أترجًّا وعسلا يؤكل به ؛ قال الشاعر (٤) :

فَظِلْنـا بنعمـةٍ وآتّـكأْنَا * وشَرِبْنـا الحلالَ من قُلَله

أى أكلنا .

النحاس : قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَدَتْ﴾ من العَتاد؛ وهو كل ما جعلته عُدّة لشيء. ﴿مُتَّكَأً﴾ أصح ما قيـل فيه ما رواه علىّ بن أبى طلحة عن آبن عباس قال : مجلسا ، وأما قول جمـاعة من أهل التفسير إنه الطعام فيجوز على تقدير: طعام متكأ، مثل « وَٱسْأَلِ الْقَرْيَةَ » ؛ ودل على

(١) كذا البيت فى الأصل . (٢) الزماورد : الرقاق الملفوف باللحم وغيره ، أو هو شىء يشبه الأترج . (٣) خفض الجارية : ختنها ، وكذا الصبى ، والأعرف أن الخفض للجارية والختان للصبى . (٤) هو جميل ابن معمر ، والقلل جمع قلة ، والقلة الحب العظيم . وقيل : الجرة الكبيرة . وقيل : الكوز الصغير . وقيل غير ذلك .

هذا الحذف « وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا » لأن حضور النساء معهن سكاكين إنما هو لطعام يُقطع بالسكاكين ؛ كذا قال فى كتاب « إعراب القرآن » له . وقال فى كتاب « معانى القرآن » : وروى مَعْمَر عن قتادة قال : « المتكأ » الطعام . وقيل : « المتكأ » كل ما آتكئ عليه عند طعام أو شراب أو حديث ؛ وهذا هو المعروف عند أهل اللغة، إلا أن الروايات قد صحت بذلك . وحكى القُتبىّ أنه يقال : آتكأنا عند فلان أى أكلنا ، والأصل فى «متكأ» موتكأ ، ومثله مُتَّزِن ومُتَّعِد؛ لأنه من وزنت ووعدت ووكأت، ويقال : آتَّكَأَ يَتَّكِئُ آتِّكاء. ﴿ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ مفعولان؛ وحكى الكسائى والفراء أن السِّكين يذكر ويؤنث ، وأنشد الفراء :

فَعَيَّثَ فِى السَّنَامِ(١) غَداةَ قُرٍّ * بسكّينٍ مُوَثَّقَةِ النِّصابِ

الجوهرىّ : والغالب عليه التذكير، وقال :

يُرَى ناصحًا فيما بَدا فإذا خَلا * فذلك سكّينٌ على الحَلْقِ حَاذِقُ

الأصمعى : لا يعرف فى السكّين إلا التذكير .

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتُ آخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ بضم التاء لالتقاء الساكنين؛ لأن الكسرة تثقل إذا كان بعدها ضمة ، وكسرت التاء على الأصل . قيل إنها قالت لهن : لا تقطعن ولا تأكلن حتى أعلمكن ، ثم قالت لخادمها : إذا قلت لك آدع لى إيلا فادع يوسف؛ وإيل : صنم كانوا يعبدونه ، وكان يوسف عليه السلام يعمل فى الطين ، وقد شدّ مئزره ، وحَسَر عن ذراعيه؛ فقالت للخادم : آدع لى إيلا ؛ أى آدع لى الربّ ؛ وإيل بالعبرانية الربّ ؛ قال : فتعجب النسوة وقلن : كيف يجىء ؟ ! فصعدت الخادم فدعت يوسف ؛ فلما انحدر قالت لهن : آقطعن ما معكن . ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالمُدَى حتى بلغت السكاكين إلى العظم ؛ قاله وهب بن مُنَبِّه . سعيد بن جُبير : لم يخرج عليهن حتى زينته ، فخرج عليهن فجأة فدهشن فيه ، وتحيّرن لحسن وجهه وزينته وما عليه ، فجعلن يقطعن أيديهن ، ويحسبن أنهن يقطعن الأُتْرُجّ ؛ واختلف

(١) عيث فى السنام بالسكين أثر .

فى معنى « أَكْبَرْنَهُ » فروى جُوَيبر عن الضحّاك عن ٱبن عباس: أعظمنه وهِبْنه؛ وعنه أيضا أَمْنين وأَمْذين من الدّهَش؛ وقال الشاعر :

إذا ما رأين الفحلَ من فوق قَارةٍ [(١)] * صَهَلْنَ وأَكْبَرنَ المنِىَّ المدفقَا

وقال ٱبن سمعان عن عدة من أصحابه : إنهم قالوا أمذين عشقا؛ وهب بن مُنبّه : عشقنه حتى مات منهن عشرة فى ذلك المجلس دَهَشا وحيرة ووَجْدا بيوسف . وقيل : معناه حضْن من الدّهش؛ قاله قَتادة ومقاتل والسّدىّ؛ قال الشاعر :

نأتى النساءَ على أطهارهنّ ولا * نأتى النّساءَ إذا أَكْبَرنَ إكْبارَا

وأنكر ذلك أبو عبيدة وغيره وقالوا: ليس ذلك فى كلام العرب، ولكنه يجوز أن يكنّ حضْن من شــدّة إعظامهن له، وقــد تفزع المرأة فتسقط ولدها أو تحيض . قال الزجاج : يقــال أكبرنه، ولا يقال حِضْنه ، فليس الإكبار بمعنى الحيض؛ وأجاب الأزهرى فقال : يجوز أَكْبرت بمعنى حاضت؛لأن المرأة إذا حاضت فى الابتداء خرجت من حَيِّز الصغر إلى الكبر؛ قال : والهاء فى « أكبرنه » يجوز أن تكون هاء الوقف لا هاء الكناية؛ وهذا مزيّف، لأن هاء الوقف تسقط فى الوصل، وأمثل منه قول ٱبن الأنبارى: إن الهاء كناية عن مصدر الفعل؛ أى أكبرن إكبارا، بمعنى حِضْن حَيْضا . وعلى قول ٱبن عباس الأول تعود الهاء إلى يوسف؛ أى أعظمن يوسف وأجْلَلْنه .

قوله تعالى : ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ قال مجاهد : قطّعنها حتى ألقينها . وقيل : خَدشْنها . وروى ٱبن أبى نَجيح قال : حَزًّا بالسكّين، قال النحاس : يريد مجاهــد أنه ليس قطعا تَبِين منه اليد، إنما هو خَدْش وحزّ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده . وقال عِكرمة : « أيديهنّ » أكمامهنّ، وفيه بُعْد . وقيل : أناملهنّ؛ أى ما وجدن ألمــا فى القطع والجرح ، أى لشغل قلوبهن بيوسف ، والتقطيع يشير إلى الكثرة، فيمكن أن ترجع الكثرة إلى واحدة جرحت يدها فى مواضع ، ويمكن أن يرجع إلى عَددهنّ .

(١) القارة : الجبيل الصغير المنقطع عن الجبال، وقيل : الصخرة العظيمة؛ وقيل غير ذلك .

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أى معاذ الله. وروى الأصمعيّ عن نافع أنه قرأ كما قرأ أبو عمرو بن العلاء « وَقُلْنَ حَاشَا لِلَّهِ » بإثبات الألف وهو الأصل، ومن حذفها جعل اللام فى « لله » عوضا منها . وفيها أربع لغات؛ يقال : حَاشَاكَ وحَاشَا لَكَ وحاشَ لَكَ وحَشَا لكَ . ويقال: حَاشَا زيدٍ وحاشا زيدًا ؛ قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : النصب أولى؛ لأنه قد صحّ أنها فعلٌ لقولهم حاش لزيد، والحرف لا يحذف منه؛ وقد قال النابغة :

* وَلَا أُحاشِى من الأقوامِ من أَحَدِ [(١)] *

وقال بعضهـم : حاشَ حرف ، وأُحاشِى فعل . ويدل على كون حاشا فعلا وقوع حرف الجر بعدها . وحكى أبو زيد عن أعرابىّ [(٢)] : اللهم اغفر لى ولمن يسمع، حاشا الشيطانَ وأبا الأصبغ؛ فنصب بها . وقرأ الحسن « وَقُلْنَ حَاشْ لِلَّهِ » بإسكان الشين، وعنه أيضا « حاش الإله » . ابن مسعود وأبىّ : « حَاشَ اللهِ » بغير لام، ومنه قول الشاعر [(٣)] :

حاشا أبى ثَوْبانَ إنّ بهِ * ضَنًّا عنِ الْمَلْحَاةِ والشَّتْمِ

قال الزّجاج : وأصل الكلمة من الحاشـية ، والحَشَا بمعنى النـاحية، تقول : كنت فى حَشَا فلانٍ أى فى ناحيته ؛ فقولك : حاشا لزيدٍ أى تَنحَّى زيدٌ من هـذا وتباعد عنه ، والاستثناء إخراج وتنحية عن جملة المذكورين . وقال أبو على : هو فاعل من المحاشاة؛ أى حاشا يوسف وصار فى حاشية وناحية مما قُرِف به ، أو من أن يكون بشرا ؛ فحاشا وحاش فى الاستثناء حرف جرّ عند سيبويه ، وعلى ما قال المبرّد وأبو علىّ فعل .

قوله تعالى : ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ قال الخليل وسيبويه : « ما » بمنزلة ليس؛ تقول : ليس زيدٌ قائما ، و « مَا هَٰذَا بَشَرًا » و « ما هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ » . وقال الكوفيون : لـمـا حذفت الباء

---

(١) صدر البيت : * ولا أرى فاعلا فى الناس يشبهه * وهو من قصيدة يمدح بها النعمان ويعتذر إليه . (٢) كلام منثور . (٣) هو سبرة بن عمرو الأسدى ، وقيل : هو الجميح الأسدى، واسمه منقذ بن الطماح . والملحاة : اللوم .

نصبت؛ وشرح هذا — فيما قاله أحمد بن يحيى — أنك إذا قلت : ما زيد بمنطلق، فموضع الباء موضع نصب ، وهكذا سائر حروف الخفض؛ فلما حذفت الباء نصبت لتدل على محلها، قال : وهذا قول الفرّاء ، قال : ولم تعمل «ما» شيئا؛ فألزمهم البصريون أن يقولوا : زيدٌ القمرَ؛ لأن المعنى كالقمر! فردّ أحمد بن يحيى بأن قال : الباء أدخل فى حروف الخفض من الكاف؛ لأن الكاف تكون ٱسما . قال النحاس : لا يصح إلا قول البصريين؛ وهذا القول يتناقض ؛ لأن الفرّاء أجاز نصًّا ما بمنطلق زيدٌ، وأنشد :

أَمَا واللهِ أَنْ لو كنتَ حُرًّا * وما بالحُرِّ أنتَ ولا العَتِيقِ

ومنع نصًّا النصب ؛ ولا نعلم بين النحويين ٱختلافا أنه جائز : ما فيك براغب زيدٌ، وما إليك بقاصدٍ عمرٌو، ثم يحذفون الباء ويرفعون . وحكى البصريون والكوفيون ما زيدٌ منطلقٌ بالرفع، وحكى البصريون أنها لغة تميم، وأنشدوا :

أَتَيْمًا تجعلون إلىّ نِدًّا * وما تَيْمٌ لِذِى حَسَبٍ نَدِيدُ

النِّد والنَّديد والنَّديدةُ المِثل والنَّظير . وحكى الكسائى أنها لغة تِهامة ونَجْد . وزعم الفرّاء أن الرفع أقوى الوجهين ؛ قال أبو إسحق : وهذا غلط ؛ كتاب الله عز وجل ولغة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى وأولى .

قلت : وفى مصحف حَفْصة رضى الله عنها «مَا هَذَا بِشَرٍ» ذكره الغَزْنوى . قال القُشَيرى أبو نصر : وذكرت النّسوة أن [ صورة ] يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة مَلَك؛ وقال الله تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» والجمع بين الآيتين أن قولهنّ : «حاش لله» تبرئة ليوسف عمّا رمته به ٱمرأة العزيز من المراودة؛ أى بعد يوسف عن هذا؛ وقولهنّ : «لله» أى لخوفه ، أى براءة لله من هذا؛ أى قد نجا يوسف من ذلك، فليس هذا من الصورة فى شىء؛ والمعنى : أنه فى التبرئة عن المعاصى كالملائكة؛ فعلى هذا لا تناقض . وقيل : المراد تنزيهه عن مشابهة البشر فى الصورة، لفرط جماله . وقوله : « لله » تأكيد لهذا المعنى؛ فعلى هـذا المعنى قالت النساء ذلك ظنا منهن أن صـورة الملك أحسن ، وما بلغهنّ قوله

تعالى : «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ» فإنه من كتابنا . وقد ظنّ بعض الضَّعفة أن هذا القول لو كان ظنا باطلا منهنّ لوجب على الله أن يردّ عليهنّ، ويبيّن كذبهنّ، وهذا باطل؛ إذ لا وجوب على الله تعالى، وليس كل ما يخبر به الله سبحانه من كفر الكافرين وكذب الكاذبين يجب عليه أن يقرن به الردّ عليه؛ وأيضا أهل العرف قد يقولون في القبيح كأنه شيطان، وفي الحسن كأنه ملك؛ أي لم ير مثله، لأن الناس لا يرون الملائكة؛ فهو بناء على ظنّ في أن صورة الملك أحسن، أو على الإخبار بطهارة أخلاقه وبعده عن التهم . ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي ما هذا إلا ملك؛ وقال الشاعر[1] :

فلستَ لإنسيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ ❊ تنزّلَ من جوِّ السماءِ يَصُوبُ

وروى عن الحسن «مَا هَذَا بِشِرًى» بكسر الباء والشين، أي ما هذا عبدا مُشترًى، أي ما ينبغي لمثل هذا أن يباع، فوضع المصدر موضع اسم المفعول، كما قال : «أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» أي مصيده، وشبهه كثير . ويجوز أن يكون المعنى : ما هذا بثمن، أي مثله لا يثمن ولا يقوّم؛ فيراد بالشراء على هذا الثمن المشترى به ، كقولك : ما هذا بألف إذا نفيت قول القائل هذا بألف ، فالباء على هذا متعلقة بمحذوف هو الخبر ، كأنه قال : ما هذا مقدرا بشراء . وقراءة العامة أشبه؛ لأن بعده «إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ» مبالغة في تفضيله في جنس الملائكة تعظيما لشأنه، ولأن مثل «بِشِرًى» يكتب في المصحف بالياء .

قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ لما رأت افتتانهن بيوسف أظهرت عذر نفسها بقولها : «لمتنني فيه» أي بحبه، و «ذلك» بمعنى «هذا» وهو اختيار الطّبري . وقيل : الهاء للحب، و «ذلك» على بابه، والمعنى : ذلكن الحُبّ الذي لمتنني فيه، أي حب هذا هو ذلك الحب . واللوم الوصف بالقبيح . ثم أقرت وقالت : ﴿وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي امتنع ؛

---

(١) هو رجل من عبد القيس جاهلي، يمدح بعض الملوك، قيل : هو النعمان، وقال ابن السيرافي : هو لأبي وجزة يمدح به عبد الله بن الزبير . وملك — كما قال الكسائي — أصله مألك بتقديم الهمزة؛ من الألوك، وهي الرسالة، ثم قلبت وقدمت اللام فقيل : ملأك، ثم تركت همزته لكثرة الاستعمال فقيل : ملك، فلما جمعوه ردوها إليه فقالوا : ملائكة وملائك أيضا . (اللسان) .

وسميت العصمة عصمة لأنها تمنع من ارتكاب المعصية. وقيل : «ٱستعصم» أى ٱستعصى، والمعنى واحد . ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ عاودته المراودة بمحضر منهنّ، وهتكت جلباب الحياء، ووعدت بالسجن إن لم يفعل، وإنما فعلت هذا حين لم تخش لَوْمًا ولا مقالا خلاف أوّل أمرها إذ كان ذلك بينه و بينها . ﴿ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ أى الأذلّاء . وخط المصحف «وليكونًا» بالألف وتقرأ بنون مخففة للتأكيد؛ ونون التأكيد تثقّل وتخفّف والوقف على قوله : «ليسجنن» بالنون لأنها مثقلة، وعلى «ليكونا» بالألف لأنها مخففة، وهى تشبه نون الإعراب فى قولك : رأيت رجلا وزيدا وعمرا، ومثله قوله : «لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ» ونحوها الوقف عليها بالألف، كقول الأعشى :

* وَلَا تَعبدِ الشيطانَ واللهَ فاعبدَا (١) *

أراد فاعبدًا، فلما وقف عليه كان الوقف بالألف .

قوله تعالى : قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ﴾ أى دخول السجن، فحذف المضاف؛ قاله الزجاج والنحاس . «أحب إلىّ» أى أسهل علىّ وأهون من الوقوع فى المعصية؛ لا أنّ دخول السجن مما يُحَبّ على التحقيق . وحُكى أن يوسف عليه السلام لما قال : «السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ» أوحى الله إليه «يا يوسف! أنت حبست نفسك حيث قلت السجن أحبّ إلىّ، ولو قلت العافية أحبّ إلىّ لعوفيت» . وحكى أبو حاتم أن عثمان ٱبن عفان رضى الله عنه قرأ «السَّجْن» بفتح السين وحكى أن ذلك قراءة بن أبى إسحق

(١) صدر البيت : * وذا النصب المنصوب لا تنسكنه *
وهو من قصيدة يمدح بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعبد الرحمن الأعرج ويعقوب؛ وهو مصدر سَجَنه سَجْنا . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ أي كيد النّسوان . وقيل : كيد النّسوة اللاتى رأينه؛ فإنهنّ أمرنه بمطاوعة آمرأة العزيز، وقلن له : هى مظلومة وقد ظلمتها . وقيل : طلبت كل واحدة أن تخلو به للنصيحة فى آمرأة العزيز؛ والقصد بذلك أن تَعذِله فى حقها، وتأمره بمساعدتها، فلعله يجيب؛ فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف ! آقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك؛ تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده؛ فقال : يا رب كانت واحدة فصرن جماعة . وقيل : كيد آمرأة العزيز فيما دعته إليه من الفاحشة؛ وكنى عنها بخطاب الجمع إما لتعظيم شأنها فى الخطاب، وإما ليعدل عن التصريح إلى التعريض . والكيد الآحتيال والاجتهاد؛ ولهذا سميت الحرب كيدا لاحتيال الناس فيها ؛ قال عمر بن لَجَأ :

تَراءتْ كَيْ تَكِيدَكَ أُمُّ بِشْرٍ * وكَيْدٌ بالتَّـــبَرُّجِ مَا تَكِيدُ

﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ جواب الشرط ، أى أَمِل إليهن ؛ من صبا يصبو — إذا مال وآشتاق — صُبُوًّا وصَبْوة؛ قال[(١)] :

إِلَى هِنْـــدٍ صَبَا قَلْبِي * وهِنْــــدٌ مِثْلُها يُصْبِي

أى إن لم تَلطُف بى فى آجتناب المعصية وقعت فيها . ﴿ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ أى ممن يرتكب الإثم ويستحق الذم، أو ممن يعمل عمل الجهال؛ودل هذا على أن أحدا لا يمتنع عن معصية الله إلا بعون الله؛ ودل أيضا على قبح الجهل والذم لصاحبه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ لمّا قال . ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ﴾ تعرّض للدعاء ، وكأنه قال : اللهم آصرف عنى كيدهنّ ؛ فاستجاب له دعاءه ، ولطف به وعصمه عن الوقوع فى الزنى . ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ قيل : لأنهن جمع قد راودنه عن نفسه . وقيل : يعنى كيد النساء . وقيل : يعنى كيد آمرأة العزيز، على ما ذكر فى الآية قبل؛ والعموم أولى .

---

(١) هو زيد بن ضبة .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ (٣٥)

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أى ظهر للعزيز وأهل مشورته من بعد أن رأوا علامات براءة يوسف — من قدّ القميص من دبر، وشهـادة الشاهد، وحزّ الأيدى، وقلة صبرهنّ عن لقاء يوسف — أن يسجنوه كتمانا للقصة ألا تشيع فى العامة، وللحيلولة بينه و بينها. وقيل : هى البركات التى كانت تنفتح عليهم ما دام يوسف فيهم؛ والأول أصح . قال مقاتل عن مجاهد عن ٱبن عباس فى قوله : « ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلآيَاتِ » قال : القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الايات، وقطع الأيدى من الآيات؛ و إعظام النساء إياه من الايات . وقيل : ألجأها الخجل من الناس ، والوجل من اليأس إلى أن رضيت بالحجاب مكان خوف الذهاب، لتشتفى إذا مُنعت من نظره؛ قال :

وما صَبـابةُ مشتاقٍ على أملٍ * مِنَ اللِّقاء كمشتـاقٍ بلا أَمَلِ

أو كادت رجاء أن يَمَلَّ حبسه فيبذل نفسه .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ ﴾ « يسجننه » فى موضع الفاعل؛ أى ظهر لهم أن يسجنوه؛ هـذا قول سيبويه . قال المبرّد : وهـذا غلط؛ لا يكون الفاعل جملة، ولكن الفاعل ما دل عليه « بدا » وهـو المصدر؛ أى بدا لهم بَدَاءٌ؛ فحذف لأن الفعل يدل عليه؛ كما قال الشاعر :

وحقّ لمن أبو موسى أبـوهُ * يُوَفِّقه الذى نَصَبَ الجبـالَا

أى وحقّ الحقُّ، فحـذف . وقيل : المعنى ثم بدا لهم رأىٌ لم يكونوا يعرفونه؛ وحذف هـذا لأن فى الكلام دليلا عليه ، وحذف أيضا القول؛ أى قالوا : ليسجننه، واللام جواب ليمين مضمر؛ قاله الفرّاء، وهو فعل مذكر لا فعـل مؤنث؛ ولو كان فعلا مؤنثا لكان يَسْجُنّانّه؛

ويدل على هذا قوله «لهم» ولم يقل لهنّ ، فكأنه أخبر عن النسوة وأعوانهنّ فغلب المذكر ؛ قاله أبو عليّ . وقال السّدىّ : كان سبب حبس يوسف أن امرأة العزيز شكت إليه أنه شهّرها ونشر خبرها ؛ فالضمير على هذا فى « لهم » للملك .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ حَتَّى حِينٍ ﴾ أى إلى مدّة غير معلومة ؛ قاله كثير من المفسّرين . وقال ابن عباس : إلى انقطاع ما شاع فى المدينة . وقال سعيد بن جُبير : ستة أشهر . وحكى الكِيَا أنه عَنَى ثلاثة عشر شهرا . عِكْرِمة : تسع سنين . الكَلْبىّ : خمس سنين . مقاتل : [ اثنتى عشرة سنة ](١) . وقد مضى فى « البقرة »(٢) القول فى الحين وما يرتبط به من الأحكام . وقال وهب : أقام فى السجن اثنتى عشرة سنة . و « حتّى » بمعنى إلى ؛ كقوله : « حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ » . وجعل الله الحبس تطهيرا ليوسف من همّه بالمرأة . وكأن العزيز — وإن عرف براءة يوسف — أطاع المرأة فى سجن يوسف . قال ابن عباس : عثر يوسف ثلاث عثرات : حين همّ بها فسجن ، وحين قال للفتى : « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ » فلبث فى السجن بضع سنين ، وحين قال لأخوته : « إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » فقالوا : « إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ » .

الرابعة — أكره يوسف عليه السلام على الفاحشة بالسجن ، وأقام خمسة أعوام ، وما رضى بذلك لعظيم منزلته وشريف قدره ؛ ولو أكره رجل بالسجن على الزنى ما جاز له إجماعا . فإن أكره بالضرب فقد اختلف فيه العلماء ، والصحيح أنه إذا كان فادحا فإنه يسقط عنه إثم الزنى وحدّه . وقد قال بعض علمائنا : إنه لا يسقط عنه الحدّ ، وهو ضعيف ؛ فإن الله تعالى لا يجمع على عبده العذابين ، ولا يصرفه بين بلاءين ؛ فإنه من أعظم الحرج فى الدّين «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» . وسيأتى بيان هذا فى «النحل» إن شاء الله . وصبر يوسف ، واستعاذ به من الكيد ، فاستجاب له على ما تقدّم .

---

(١) الزيادة عن ( روح المعانى ) وتفسير ( الفخر الرازى ) .   (٢) راجع ج ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾ « فتيان » تثنية فتى ؛ وهو من ذوات الياء ، وقولهم : الفُتُوّ شاذ . قال وهب وغيره : حمل يوسف إلى السجن مقيّدا على حمار ، وطيف به « هـذا جزاء من يعصى سيدته » وهو يقول : هـذا أيسر من مُقَطَّعات النِّيران [1] ، وسرابيل القَطِران ، وشرب الحميم ، وأكل الزّقوم ؛ فلما انتهى يوسف إلى السجن وجد فيه قوما قـد ٱنقطع رجاؤهم ، واشـتد بلاؤهم ؛ فجعل يقول لهم : ٱصبروا وأبشروا تؤجروا ؛ فقالوا له : يافتى ! ما أحسن حديثك ! لقد بورك لنـا فى جوارك ، من أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفىّ الله يعقوب ، ابن ذبيح الله إسحق ، ابن خليـل الله إبراهـيم . وقال ٱبن عباس : لمـا قالت المرأة لزوجها إن هذا العبد العبرانى قد فضحنى، وأنا أريد أن تسجنه ، فسجنه فى السجن ؛ فكان يُعزّى فيه الحزين ، ويعود فيه المريض ، ويداوى فيه الجريح ، ويصلى الليل كله، ويبكى حتى تبكى معه جُدُر البيوت وسقفها والأبواب ، وطهر به السجن ، واستأنس به أهـل السجن؛ فكان إذا خرج الرجل من السجن رجع حتى يجلس فى السجن

(١) مقطعات النيران : هى على نحو قوله تعالى : «قطعت لهم ثياب من نار» أى خيطت وسويت وجعلت لبوسا لهم .

مع يوسف، وأحبه صاحب السجن فوسع عليه فيه، ثم قال: يا يوسف! لقد أحببتك حبا لم أحبّ شيئا حبك ؛ فقال : أعوذ بالله من حبك؛ قال: ولم ذلك؟ فقال : أحبني أبي ففعل بي إخوتي ما فعلوه، وأحبتني سيدتي فنزل بي ماترى؛ فكان في حبسه حتى غضب الملك على خبازه وصاحب شرابه ؛ وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه ، فدسّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يَسُمَّاه جميعا ، فأجاب الخبّاز وأبى صاحب الشّراب ، فانطلق صاحب الشّراب فأخبر الملك بذلك؛ فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف ؛ فذلك قوله : «وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ» وقد قيل: إن الخبّاز وضع السم في الطعام، فلما حضر الطعام قال السّاقي : أيها الملك! لا تأكل فإن الطعام مسموم . وقال الخبّاز : لا تشرب ! فإن الشراب مسموم ؛ فقال الملك للساقي : آشربْ ! فشرب فلم يضرّه ، وقال للخباز : كُلْ ؛ فأبى ، فجرّب الطعام على حيوان فنفق مكانه ، فحبسهما سنة ، وبقيا في السجن تلك المدة مع يوسف . وآسم الساقي منجا ، والآخر مجلث ؛ ذكره الثعلبيّ عن كعب . وقال النقاش : اسم أحدهما شرهم ، والآخر سرهم ؛ الأوّل بالشين المعجمة ، والآخر بالسين المهملة . وقال الطّبريّ : الذى رأى أنه يعصر خمرا هو بنوه ، قال السّهيليّ : وذكر آسم الآخر ولم أقيده . وقال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يسمى فتى ، صغيرا كان أو كبيرا ؛ ذكره الماورديّ . وقال القُشَيريّ : ولعل الفتى كان اسما للعبد في عرفهم ؛ ولهذا قال : « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ » . ويحتمل أن يكون الفتى اسما للخادم وإن لم يكن مملوكا . ويمكن أن يكون حبسهما مع حبس يوسف أو بعده أو قبله ، غير أنهما دخلا معه البيت الذى كان فيه . « قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » أي عنبا ؛ كان يوسف قال لأهل السجن : إني أعبر الأحلام ؛ فقال أحد الفتيين لصاحبه : تعال حتى نجرّب هذا العبد العبراني ؛ فسألاه من غير أن يكونا رأيا شيئا ؛ قاله آبن مسعود . وحكى الطّبريّ أنهما سألاه عن علمه فقال : إني أعبر الرؤيا ؛ فسألاه عن رؤياهما . قال آبن عباس ومجاهد : كانت رؤيا صدق رأياها وسألاه عنها ؛ ولذلك صدق تأويلها . وفي الصحيح عن أبي هُريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " أصدقكم رؤيا أصدقكم

حديثا ". وقيـل : إنهـا كانت رؤيا كذب سألاه عنها تجريبا ؛ وهـذا قول ٱبن مسعود والسدى . وقيل : إن المصلوب منهما كان كاذبا ، والآخر صادقا ؛ قاله أبو مِجْلَز . وروى التِّرمذى عن ٱبن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من تَحلَّم كاذبا كُلِّف يوم القيامة أن يَعقِد بين شَعيرتين [ ولن يَعقِد بينهما ] (١) " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وعن على عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كذب فى حُلُمه كُلِّف يوم القيامة عَقْد شَعيرة " . قال : حديث حسن . قال ٱبن عباس : لما رأيا رؤياهما أصبحا مكروبين ؛ فقال لهما يوسف : ما لى أراكما مكروبين؟ قالا : يا سيدنا ! إنا رأينا ما كرهنا ؛ قال : فقصّا علىّ ، فقصّا عليه ؛ قالا : نبئنا بتأويل ما رأينا ؛ وهذا يدل على أنها كانت رؤيا منام . ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ فإحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى ؛ قال الضّحاك : كان إذا مرض الرجل من أهـل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّـع له ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له . وقيل : « من المحسنين » أى العالمين الذين أحسـنوا العلم ، قاله الفراء . وقال ٱبن إسحق : « من المحسنين » لنـا إن فسّرته ، كما تقول : افعل كذا وأنت محسن . قال : فـما رأيتمـا ؟ قال الخباز : رأيت كأنى اختبزت فى ثلاثة تنانير ، وجعلته فى ثلاث سلال ، فوضعته على رأسى ، بجاء الطير فأكل منه . وقال الآخر : رأيت كأنى أخذت ثلاثة عناقيد من عنب أبيض ، فعصرتهن فى ثلاث أوان ، ثم صفيته فسقيت الملك كعادتى فيما مضى ، فذلك قوله : « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا » أى عنبا ، بلغـة عمان ، قاله الضّحاك . وقرأ ٱبن مسـعود « إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ عِنَبًا » . وقال الأصمعى : أخبرنى المعتمر بن سليمان أنه لقى أعرابيا ومعه عنب فقال له : ما معك ؟ قال : خمر . وقيل : معنى « أعصر خمرا » أى عنب خمر ، فحذف المضاف . ويقال : خَمْرة وخَمْر وخُمُور ، مثل تمرة وتمر وتُمور . « قال » لهما يوسف : ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ

(١) الزيادة عن صحيح الترمذى ؛ قال شارحه : لما تبعته نظرى ظهر لى أن المخبر بما لم ير عقد من الكلام عقدا باطلا لم يشعر به أى لم يعلمه ، فقيل له اعقد بين شعيرتين ولا ينعقد له ذلك أبدا ، عقوبة لعقده بين كلمات لم يكن منها شىء ، لتكون العقوبة من جنس المعصية .

تُرْزَقَانِهِ ﴾ يعنى لا يجيئكما غدا طعام من منزلكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكما ، فقالا : افعل ! فقال لهما : يجيئكما كذا وكذا ، فكان على ما قال ؛ وكان هذا من علم الغيب خُصّ به يوسف . وبيّن أن الله خصّه بهذا العلم لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله ، يعنى دين الملك . ومعنى الكلام عندى : العلم بتأويل رؤياكما ، والعلم بما يأتيكما من طعامكما والعلم بدين الله ، فاسمعوا أوّلا ما يتعلق بالدين لتهتدوا ؛ ولهذا لم يعبّر لهما حتى دعاهما إلى الإسلام ، فقال : « يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ . مَا تَعْبُدُونَ » الآية كلها ، على ما يأتى . وقيل : علم أن أحدهما مقتول فدعاهما إلى الإسلام ليسعدا به . وقيل : إن يوسف كره أن يعبّر لهما ما سألاه لما علمه من المكروه على أحدهما فأعرض عن سؤالهما ، وأخذ فى غيره فقال : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ » فى النوم « إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا » بتفسيره فى اليقظة ، قاله السُّدّى ؛ فقالا له : هذا من فعل العَرّافين والكَهَنة ، فقال لهما يوسف عليه السلام : ما أنا بكاهن ، وإنما ذلك مما علّمنيه ربّى ، إنى لا أخبركما به تكهّنا وتنجيما ، بل هو بوحى من الله عز وجل . وقال ابن جُرَيج : كان الملك إذا أراد قتل إنسان صنع له طعاما معروفا فأرسل به إليه ؛ فالمعنى : لا يأتيكما طعام ترزقانه فى اليقظة ؛ فعلى هذا « ترزقانه » أى يجرى عليكما من جهة الملك أو غيره . ويحتمل يرزقكما الله . قال الحسن : كان يخبرهما بما غاب ، كعيسى عليه السلام . وقيل : إنما دعاهما بذلك إلى الإسلام ، وجعل المعجزة التى يستدلان بها إخبارهما بالغيوب .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ لأنهم أنبياء على الحق . ﴿ مَا كَانَ ﴾ أى ما ينبغى . ﴿ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ « من » للتأكيد ، كقوله : ما جاءنى من أحد . وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ إشارة إلى عصمته من الزنى . ﴿ وَعَلَى النَّاسِ ﴾ أى على المؤمنين الذين عصمهم الله من الشرك . وقيل : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا » إذ جعلنا أنبياء ، « وعلى الناس » إذ جعلنا الرسل إليهم . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ على نعمه بالتوحيد والإيمان .

قوله تعالى : يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿ يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾ أى ياساكنى السجن؛ وذكر الصحبة لطول مقامهما فيه، كقولك: أصحاب الجنة، وأصحاب النار. ﴿ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ ﴾ أى فى الصغر والكبر والتوسط، أو متفرقون فى العدد. ﴿ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ وقيل: الخطاب لهما ولأهل السجن، وكان بين أيديهم أصنام يعبدونها من دون الله تعالى، فقال ذلك إلزاما للحجة؛ أى آلهة شَتّى لا تضر ولا تنفع «خير أمِ الله الواحد القهار» الذى قهر كل شىء. نظيره «آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ». وقيل: أشار بالتفرق إلى أنه لو تعدّد الإلٰه لتفرقوا فى الإرادة ولعلا بعضهم على بعض، وبين أنها إذا تفرّقت لم تكن آلهة.

قوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ بيّن عجز الأصنام وضعفها فقال: «ما تعبدون من دونه» أى من دون الله إلا ذوات أسماء لا معانى لها. ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ من تلقاء أنفسكم. وقيل: عنى بالأسماء المسميات؛ أى ما تعبدون إلا أصناما ليس لها من الإلهية شىء إلا الاسم؛ لأنها جمادات. وقال: «ما تعبدون» وقد ابتدأ بخطاب الاثنين؛ لأنه قصد جميع من هو على مثل حالهما من الشّرك. ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ حذف المفعول الثانى للدلالة؛ والمعنى: سميتموها آلهةً من عند أنفسكم. ﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ذلك فى كتاب. قال سعيد بن جبير: ﴿ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أى من حجة. ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ الذى هو خالق الكل. ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾. ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ أى القويم. ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

قوله تعـالى : ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ﴾ أى قال للسـاقى : إنك تُرَدّ على عملك الذى كنت عليه من سقى الملك بعـد ثلاثة أيام ، وقال للآخر : وأمّا أنت فتُدعَى إلى ثلاثة أيام فتصلب فتأكل الطير من رأسك ، قال : والله ما رأيتُ شيئا ؛ قال : رأيت أو لم ترَ ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ . وحكى أهل اللغـة أن سَقى وأسقى لغتان بمعنى واحد، كما قال الشاعر(١) :

سَقَى قومى بَنِى مَجْـدٍ وأَسْقَى　＊　نُمَـيْرًا والقبائلَ مِنْ هلال

قال النحاس : الذى عليه أكثر أهل اللغة أن معنى سقاه ناوله فشرب ، أو صَبّ المـاء فى حلقه ، ومعنى أسْقاه جعل له سُقْيا ؛ قال الله تعالى : « وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا » .

الثانيـــة — قال علماؤنا : إن قيل من كذب فى رؤياه ففسرها العابر له أيلزمه حكمها؟ قلنا : لا يلزمه ؛ وإنمـا كان ذلك فى يوسف لأنه نبىّ ، وتعبـير النبىّ حكم ، وقـد قال : إنه يكون كذا وكذا فأوجد الله تعـالى ما أخبر كما قال تحقيقا لنبوّته ؛ فإن قيل : فقـد روى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قَتَادة قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إنى رأيتُ كأنى أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ثم أعْشبتُ ثم أجْدبتُ ، فقال له عمر: أنت رجل تؤمن ثم تكفر، ثم تؤمن ثم تكفر، ثم تموت كافرا؛ فقال الرجل : ما رأيت شيئا؛ فقال له عمر : قد قُضِى لك ما قُضى لصاحب يوسف؛ قلنا : ليست لأحد بعـد عمر؛ لأن عمر كان مُحدَّثا(٢) ، وإذا تكلم به وقع،

(١) هو لبيد؛ ومجد : ابنة تيم بن غالب بن فهر ، وهى أم كلاب وكليب بنى ربيعة . وفاعل سقى هو المطر .

(٢) محدث : ملهم ، أو يلقى فى روعه الشىء ، أو يجرى الصواب على لسانه من غير قصد . ( القسطلانى ) .

على ما ورد فى أخباره ؛ وهى كثيرة؛ منهـا — أنه دخل عليه رجل فقال له : أظنك كاهنا فكان كما ظن؛ خرجه البخارىّ . ومنهـا — أنه سأل رجلا عن آسمه فقال له أسماء فيهـا النار كلها، فقال له : أدرك أهلك فقد آحترقوا، فكان كما قال، خرجه الموطأ . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الحجر»[1] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِنـدَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ﴾ «ظن» هنا بمعنى أيقن، فى قول أكثر المفسرين. وفسره قتادة على الظن الذى هو خلاف اليقين؛ قال : إنما ظنّ يوسف نجاته لأن العابر يظن ظنًّا وربك يخلق مايشاء؛ والأوّل أصحّ وأشبه بحال الأنبياء، وأن ما قاله للفتيين فى تعبير الرؤيا كان عن وحى ، وإنمـا يكون ظنا فى حكم الناس ، وأما فى حق الأنبيـاء فإن حكمهم حق كيفما وقع .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ أى سيّدك، وذلك معروف فى اللغة أن يقال للسيّد ربّ؛ قال الأعشى :

رَبِّى كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمـــةً * وإذا تُنُوشِد[2] فى المَهَارِقِ أَنْشَدَا

أى آذكرما رأيته، وما أنا عليه من عبارة الرؤيا للملك، وأخبره أنى مظلوم محبوس بلا ذنب. وفى صحيح مسلم وغيره عن أبى هُريرة قال قال رســول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا يَقلْ أحدُكم آسقِ ربَّك أطعمْ ربَّك وضِّئْ ربَّك ولا يَقل أحدُكم ربِّى وليقلْ سيّدى مولاى ولا يَقلْ أحدُكم عبدى أَمَتِى وليقلْ فَتاىَ فَتاتِى غلامى" . وفى القرآن : «ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ» « إلى

---

(١) فى تفسير قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات للتوسمين » آية ٧٥ .

(٢) ويروى (يناشد بالمهارق) يقول : إذا نوشد بما فى الكتب أجاب؛ أى إذا سئل أعطى . والمهرق : الصحيفة .

رَبِّكَ» «إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ» أى صاحبي ؛ يعنى العزيز . ويقال لكل من قام بإصلاح شيء وإتمـامه قد رَبَّهُ يَرُبُّهُ، فهو رَبٌّ له . قال العلماء قوله عليه السلام : "لا يَقُلْ أحدُكم" "ولْيقلْ" من باب الإرشاد إلى إطلاق اسم الأولى؛ لا أن إطلاق ذلك الاسم محرم ؛ ولأنه قـد جاء عنه عليه السلام " أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّهَا " أى مالكها وسيّدها ؛ وهذا موافق للقرآن فى إطلاق ذلك اللفظ ؛ فكان محل النهى فى هـذا الباب ألّا تتّخذ هذه الأسمـاء عادة. فتترك الأولى والأحسن . وقد قيل : إن قول الرجل عبدى وأمتى يجمع معنيين : أحدهما — أن العبودية بالحقيقة إنمـا هى لله تعالى ؛ ففى قول الواحد من النـاس لمملوكه عبدى وأمتى تعظيم عليـه ، وإضافة له إلى نفسه بمـا أضافه الله تعالى به إلى نفســه ؛ وذلك غير جائز . والثانى — أن المملوك يدخله من ذلك شيء فى ٱستصغاره بتلك التسمية ، فيحمله ذلك على سوء الطاعة . وقال ٱبن شعبان فى «الزاهى» "لا يقل السيّد عبدى وأَمَتى ولا يقل المملوك ربّى ولا ربّتى " وهذا محمول على ما ذكرناه . وقيل : إنما قال صلى الله عليه وسلم " لا يقل العبد رَبّى وليقل سيّدى" لأن الربّ من أسماء الله تعالى المستعملة بالاتفاق؛ وٱختلف فى السيّد هل هو من أسماء الله تعالى أم لا ؟ فإذا قلنـا ليس من أسماء الله فالفرق واضح ؛ إذ لا التباس ولا إشكال ، وإذا قلنا إنه من أسمـائه فليس فى الشهرة ولا الاستعمال كلفظ الربّ ؛ فيحصـل الفرق . وقال ابن العربى : يحتمل أن يكون ذلك جائزا فى شرع يوسف عليه السلام .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ الضمير فى « فأنساه » فيـه قولان : أحدهما — أنه عائد إلى يوسف عليـه السلام ، أى أنساه الشيطان ذكر الله عز وجل ؛ وذلك أنه لمـا قال يوسف لساقى الملك — حين علم أنه سينجو ويعود إلى حالتـه الأولى مع الملك — «ٱذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ» نسى فى ذلك الوقت أن يشكو إلى الله ويستغيث به ، وجنح إلى الاعتصام بمخلوق ؛ فعوقب باللّبث . قال عبـد العزيز بن عُمَير الكِنْدىّ : دخل جبريل على يوسف النبى عليه السلام فى السجن فعرفه يوسف، فقال: يا أخا المنذرين! مالى أراك بين الخاطئين ؟ ! فقال جبريل عليـه السلام : يا طاهر الطاهرين ! يقرئك

السلام رب العالمين و يقول : أما استحييت إذ آستغثت بالآدميّين ؟ ! وعزّتى ! لألبثنّك فى السجن بضع سنين ؛ فقال : يا جبريل ! أهو عنّى راضٍ ؟ قال : نعم ! قال : لا أبالى الساعة . ورُوى أن جبريل عليه السلام جاءه فعاتبه عن الله تعالى فى ذلك وطول سجنه ، وقال له : يا يوسف ! من خلّصك من القتل من أيدى إخوتك ؟ ! قال : الله تعالى، قال : فمن أخرجك من الجُبّ ؟ قال : الله تعالى، قال : فمن عَصَمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف وثقت بمخلوق وتركت ربك فلم تسأله ؟ ! قال : يا رب كلمة زلّت منى ! أسألك بإله إبراهيم وإسحق والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمنى ؛ فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين . ورَوى أبو سَلَمة عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحم الله يوسف لولا الكلمة التى قال «آذكرنى عند ربك» ما لبث فى السجن بضع سنين". وقال آبن عباس : عوقب يوسف بطول الحبس بضع سنين لمّا قال للذى نجا منهما « آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » ولو ذكر يوسف ربه لخلّصه . وروى إسمعيل بن إبراهيم عن يونس عن الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا كلمة يوسف — يعنى قوله « اذكرنى عند ربك » — ما لبث فى السجن ما لبث " قال : ثم يبكى الحسن ويقول : نحن ينزل بنا الأمر فنشكو إلى الناس . وقيل : إن الهاء تعود على الناجى ، فهو الناسى ؛ أى أنسى الشيطانُ الساقىَ أن يذكر يوسف لربه ، أى لسيّده ؛ وفيه حذف ، أى أنساه الشيطانُ ذكره لربه ؛ وقد رجّح بعض العلماء هذا القول فقال : لولا أن الشيطان أنسى يوسف ذكر الله لما استحقّ العقاب باللبث فى السجن ؛ إذ الناسى غير مؤاخذ . وأجاب أهل القول الأوّل بأن النسيان قد يكون بمعنى الترك ، فلما ترك ذكر الله ودعاه الشيطان إلى ذلك عوقب ؛ ردّ عليهم أهل القول الثانى بقوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَآدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » فدلّ على أن الناسى الساقى لا يوسف ؛ مع قوله تعالى : « إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » فكيف يصح أن يضاف نسيانه إلى الشيطان ، وليس له على الأنبياء سلطنة ؟ ! قيل : أما

النسيان فلا عصمة للأنبياء عنه إلا في وجه واحد، وهو الخبر عن الله تعالى فيما يبلّغونه، فإنهم معصومون فيه؛ وإذا وقع منهم النسيان حيث يجوز وقوعه فإنه ينسب إلى الشيطان إطلاقا، وذلك إنما يكون فيما أخبر الله عنهم، ولا يجوز لنا نحن ذلك فيهم؛ قال صلى الله عليه وسلم: "نسي آدم فنسيت ذريته". وقال: "إنما أنا بشر أنسى كما تنسون". وقد تقدم.

الرابعـــة - قوله تعـالى: ﴿ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ البِضع قطعة من الدّهر مختلف فيها؛ قال يعقوب عن ابن زيد: يقال بَضْع وبِضْع بفتح الباء وكسرها، قال أكثرهم: ولا يقال بضع ومائة، وإنمـا هو إلى التسعين. وقال الهَرَوِيّ: العرب تستعمل البضع فيما بين الثـلاث إلى التسع. والبضع والبضعة واحد، ومعنـاهما القطعة من العـدد. وحكى أبو عبيدة أنه قال: البضع مادون نصف العِقْد، يريد ما بين الواحد إلى أربعة، وهذا ليس بشيء. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: "وكم البضع" فقال: ما بين الثـلاث إلى السبع، فقال: "اذهب فزائد في الخَطَر[1]". وعلى هـذا أكثر المفسرين، أن البضع سـبع، حكاه الثعلبيّ. قال المـاورديّ: وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقُطْرُب. وقال مجاهد: من ثلاث إلى تسع، وقاله الأصمعيّ. ابن عباس: من ثلاث إلى عشرة. وحكى الزجاج أنه ما بين الثلاث إلى الخمس. قال الفـرّاء: والبضع لا يُذْكر إلا مع العشرة والعشرين إلى التسـعين، ولا يذكر بعد المـائة. وفي المـدة التي لبث فيهـا يوسف مسجونا ثلاثة أقاويل: أحدها - سبع سنين، قاله ابن جُرَيج وقَتادة ووهب بن مُنَبِّه، قال وهب: أقام أيوب في البلاء سبع سنين، وأقام يوسف في السجن سبع سنين. الثاني - اثنتا عشرة سنة، قاله ابن عباس. الثالث - أربع عشرة

(١) الخطر (بالتحريك): الرهن والحظ. والحديث في شأن مراهنة أبي بكر رضي الله عنـه لقريش على غلبة الروم؛ وكان المسلمون يحبون غلبة الروم على فارس؛ لأنهم وإياهم أهل كتاب، وكانت قريش لا تحب ذلك، لأنهم وفارس ليسو بأهل كتاب ولا إيمـان ببعث، وقد جعل أبو بكر الأجل بينه وبينهم ست سنين على رواية، وثلاث سنين على أخرى، فقال له النبي صلى الله عليـه وسلم: "اذهب فزائد في الخطر وماد في الأجل" وكان ذلك قبل تحريم الرهان. راجع صحيح الترمذي في تفسير قوله تعالى: «الم غلبت الروم ...» الآية.

سنة، قاله الضحاك . وقال مقاتل عن مجاهد عن ابن عباس قال : مكث يوسف فى السجن خمسا وبضعا . وٱشتقاقه من بضعت الشيء أى قطعته، فهو قطعة من العــدد ، فعاقب الله يوسف بأن حُبِس ســبع سنين أو تسع سنين بعــد الخمس التى مضت، فالبضع مدة العقوبة لا مدة الحبس كله . قال وهب ٱبن مُنَبِّه : حبس يوسف فى السجن ســبع سنين، ومكث أيوب فى البلاء سبع سنين، وعُذِّب بُخْتُنَصَّر بالمسخ سبع سنين . وقال عبدالله بن راشد البصرىّ عن سعيد بن أبى عَرُوبة : إن البضع ما بين الخمس إلى الاثنتى عشرة سنة .

الخامســـة — فى هذه الآية دليل على جواز التعلّق بالأسباب وإن كان اليقين حاصلا، فإن الأمور بيد مُسبِّبها ، ولكنه جعلها سلسلة ، وركَّب بعضها على بعض ، فتحريكها سُنّة، والتعويل على المنتهى يقين . والذى يدلّ على جواز ذلك نسبة ما جرى من النسيان إلى الشيطان كما جرى لموسى فى لقيا الخضر، وهذا بيّن فتأملوه .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ المَلِكُ إِنِّى أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ لمـا دنا فرج يوسف عليه السلام رأى الملك رؤياه، فنَزَل جبريل فسلم على يوسف وبشّره بالفرج وقال : إن الله مخرجك من سجنك، ومُمكِّن لك فى الأرض، يذل لك ملوكها، ويطيعك جبابرتها، ومعطيك الكلمة العليا على إخوتك، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك، وهى كيت وكيت، وتأويلها كذا وكذا، فما لبث فى السجن أكثر مما رأى الملك الرؤيا حتى خرج، فجعل الله الرؤيا أولا ليوسف بلاء وشدّة ، وجعلها آخرا بشرى ورحمة؛ وذلك أن الملك الأكبر الريّان بن الوليد رأى فى نومه كأنما خرج من نهر يابس سبعُ بقراتٍ سِمـان ، فى أثرهنّ سبع عِجاف — أى مهازيل — وقــد أقبلت العِجاف على السِّمان فأخذن بآذانهنّ فأكلنهنّ، إلا القرنين، ورأى سبع سنبلات خُضْرٍ قد أقبل

عليهن سبع يابسات فأكلنهنّ حتى أتين عليهنّ فلم يبق منهنّ شيء وهنّ يابسات، وكذلك البقر كنّ عِجافا فلم يزد فيهنّ شيء من أكلهنّ السِّمان، فهالته الرؤيا، فأرسل إلى الناس وأهل العلم منهم والبصر بالكَهَانة والنِّجامة والعِرَافة والسِّحر، وأشراف قومه، فقال: « يَأَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِى فى رُؤْيَاىَ » فقصّ عليهم، فقال القوم: « أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ » قال آبن جُرَيج قال لى عطاء: إن أضغاث الأحلام الكاذبة المخطئة من الرؤيا. وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن الرؤيا منها حق، ومنها أضغاث أحلام، يعنى بها الكاذبة. وقال الهَرَوِىّ: قوله تعالى « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام. والضِّغث فى اللغة الحُزْمة من الشىء كالبقل والكلإ وما أشبههما، أى قالوا: ليست رؤياك ببيّنة، والأحلام الرؤيا المختلطة. وقال مجاهد: أضغاث الرؤيا أهاويلها. وقال أبو عبيدة: الأضغاث مالا تأويل له من الرؤيا.

قوله تعالى: ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ﴾ حذفت الهاء من «سبع» فرقا بين المذكر والمؤنث. « سمان » من نعت البقرات، ويجوز فى غير القرآن سبعَ بقراتٍ سِماناً، نعت للسبع، وكذا خُضرًا، قال الفرّاء: ومثله «سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا». وقد مضى فى سورة « البقرة »[1] اشتقاقها ومعناها. وقال علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه: المَعز والبقر إذا دخلت المدينة فإن كانت سمانا فهى سِنِىّ رخاء، وإن كانت عجافا كانت شدادا، وإن كانت المدينة مدينة بحر وإبّان سفر قدمت سفن على عددها وحالها، وإلا كانت فِتَناً مترادفة، كأنها وجوه البقر، كما فى الخبر "يشبه بعضها بعضا". وفى خبر آخر فى الفتن "كأنها صياصى[2] البقر" يريد لتشابهها، إلا أن تكون صُفْرا كلّها فإنها أمراض تدخل على الناس، وإن كانت مختلفة الألوان، شنيعة القرون وكان الناس ينفرون منها، أو كأن النار والدخان يخرج من أفواهها فإنه عسكر أو غارة، أو عدوّ يضرب عليهم، وينزل بساحتهم. وقد تدل البقرة على الزوجة والخادم والغلّة والسّنة، لما يكون فيها من الولد والغلّة والنبات. ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ من عَجُف يعجُف، على وزن عَظُم يَعظُم، وروى عَجِف يَعجَف على وزن حَمِد يَحمَد.

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ طبعة ثانية أو ثالثة. (٢) صياصى البقر: قرونها.

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَٰىَ ﴾ جمع الرؤيا رُؤًى ، أى أخبرونى بحكم هذه الرؤيا . ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ العبارة مشتقة من عبور النهر، بمعنى عَبَرت النهر، بلغت شاطئه، فعابر الرؤيا يعبر بمـا يؤول إليه أمرها . واللام فى « للرؤيا » للتبيين ، أى إن كنتم تَعبُرون، ثم بيّن فقال : للرؤيا، قاله الزجاج .

قوله تعـالى : قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

فيـــه مسئلتـان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ ﴾ قال الفراء: ويجوز «أضغاثَ أحلام» قال النحاس: النصب بعيد، لأن المعنى : لم تر شيئا له تأويل، إنمـا هى أضغاث أحلام ، أى أخلاط . وواحد الأضغاث ضِغث ، يقال لكل مختلط من بقل أو حشيش أو غيرهما ضِغث ؛ قال الشاعر:

* كضِغث حُلْم غُرَّ منه حالمُه *

قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾ قال الزجاج : المعنى بتأويل الأحلام المختلطة، نَفَـوا عن أنفسهم علم ما لا تأويل له ، لا أنهـم نفوا عن أنفسهـم علم التأويل . وقيل : نفوا عن أنفسهم علم التعبير . والأضغاث على هذا الجماعات من الرؤيا التى منها صحيحة ومنها باطلة ، ولهذا قال الساقى : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » فعلم أن القوم عجزوا عن التأويل ، لا أنهم آدّعوا ألّا تأويل لهـا . وقيل : إنهم لم يقصدوا تفسيرا ، وإنمـا أرادوا محوها من صدر الملك حتى لا تشغل باله ،وعلى هذا أيضا فعندهم علم . و «الأحلام» جمع حُلْم، والحُلْم بالضم ما يراه النائم، تقول منه حَلَم بالفتح وآحتلم، وتقول : حَلَمتُ بكذا وحَلَمته، قال :

فَحَلَمتُها وبَنُو رُفَيْدَةَ[(١)] دُونَها * لا يَبْعَدَنَّ خيالُهـا المَحْـلُومُ

وأصله الأناة، ومنه الحِلْم ضد الطَّيش؛ فقيل لما يُرى فى النوم حُلْم لأن النوم حالة أناة وسكون ودَعة.

---

(١) رفيدة : أبو حى من العرب، يقال لهم الرفيدات ؛ كما يقال لآل هبيرة الهبيرات . اللسان .

الثانيــة ــ فى الآية دليل على بطلان قول من يقول : إن الرؤيا على أوّل ما تعبّر ، لأن القوم قالوا : « أضغاث أحلام » ولم تقع كذلك؛ فإن يوسف فسّرها على سِنِيّ الجدب والخصب ، فكان كما عبر؛ وفيها دليل على فساد أن الرؤيا على رجل طائر، فإذا عبّرت وقعت .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا ﴾ يعنى ساقى الملك . « وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » أى بعد حين ، عن ٱبن عباس وغيره؛ ومنه « إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ » وأصله الجملة من الحين . وقال ٱبن دُرُسْتُوَيه [1] : والأُمّة لا تكون الحين إلا على حذف مضاف ، و إقامة المضاف إليه مقامه ، كأنه قال ــ والله أعلم ــ : وادّكر بعد حين أُمّةٍ ، أو بعد زمن أمّة ، وما أشبه ذلك ؛ والأمّة الجماعة الكثيرة من الناس . قال الأخفش : هو فى اللفظ واحد ، وفى المعنى جمع ؛ وكل جنس من الحيوان أمّة؛ وفى الحديث : " لولا أن الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها " .

قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ ﴾ أى تذكر حاجة يوسف ، وهو قوله : « ٱذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ » . وقرأ ٱبن عباس ــ فيما روى عفّان عن همّام عن قَتَادة عن عِكرمة عنه ــ « وادَّكَرَ بَعْدَ أَمَهٍ » . النحاس : والمعروف من قراءة ٱبن عباس وعِكرمة والضحاك « وَادَّكَرَ بعد أَمَهٍ » ، بفتح الهمزة وتخفيف الميم ؛ أى بعد نسيان ؛ قال الشاعر :

أَمِهْتُ وكنتُ لَا أَنْسَى حديثاً * كذاكَ الدهرُ يُودِى بالعقولِ

وعن شُبَيل بن عَزْرة الضُّبَعى « بعد أَمْهٍ » بفتح الألف و إسكان الميم وهاء خالصة ؛ وهو مثل الأَمَه ، وهما لغتان ، ومعناهما النّسيان ؛ و يقال : أَمِهَ يأمَهُ أَمَهًا إذا نَسِىَ ؛ فعلى هذا

(١) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه ( بضم الدال والراء ) وضبطه ابن ماكولا ( بفتحهما ) .

« وَٱدَّكَرَ بعـد أَمَه »؛ ذكره النحاس ؛ ورجل أَمْه ذاهب العقل . قال الجوهرى : وأما ما فى حديث الزهرى "أَمِه" بمعنى أقر واعترف فهى لغة غير مشهورة . وقرأ الأشهب العُقَيلى — « بَعْـدَ إِمَّةٍ » أى بعد نعمة ؛ أى بعد أن أنعم الله عليـه بالنجاة . ثم قيل : نسى الفتى يوسف لقضاء الله تعالى فى بقائه فى السجن مدة . وقيل : ما نسى ، ولكنه خاف أن يذكر الملك الذنب الذى بسـببه حبس هو والخبّـاز ؛ فقوله : « وادّكر » أى ذكر وأخبر . قال النحاس : أصل ادّكر اذْتكر؛ والذال قريبة المخرج من التاء ؛ ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة ، والتاء مهموسة ، فلو أدغموا ذهب الجهر ، فأبدلوا من موضع التاء حرفا مجهورا وهو الدال؛ وكان أولى من الطاء لأن الطاء مطبقة؛ فصار اذْدَكَرَ ، فأدغموا الذال فى الدال لرخاوة الدال ولينها؛ ثم قال: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ﴾ أى أنا أخبركم . وقرأ الحسن « أَنَا آتِيكُمْ بِتَأْوِيلِهِ » وقال : كيف ينبئهم العِلْج[1] ؟ ! قال النحاس : ومعنى « أنبئكم » صحيح حسن؛ أى أنا أخبركم إذا سألت . ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ خاطب الملك ولكن بلفظ التعظيم ، أو خاطب الملك وأهل مجلسه . ﴿يُوسُفُ﴾ نداء مفرد ، وكذا ﴿الصِّدِّيقُ﴾ أى الكثير الصدق . ﴿أَفْتِنَا﴾ أى فأرسلوه ؛ فجاء إلى يوسف فقال : أيها الصديق ! وسأله عن رؤيا الملك . « لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ » أى إلى الملك وأصحابه . ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ التعبير، أو « لعلهم يعلمون » مكانك من الفضل والعلم فتخرج . ويحتمل أن يريد بالناس الملك وحده تعظيما له .

قوله تعـالى : قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ﴾ لما أعلمه بالرؤيا جعل يفسّرها له ، فقال : السبع من البقرات السّمان والسّنبلات الخضر سبع سـنين مخصبات ؛ وأما البقرات العجاف

(١) العلج : الكافر من العجم .

والسّنبلات اليابسات فسبع سنين مجدبات ؛ فذلك قوله : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا ﴾ أى متوالية متتابعة ؛ وهو مصدر على غير المصدر ، لأن معنى « تزرعون » تدأبون كعادتكم فى الزراعة سبع سنين . وقيل : هو حال ؛ أى دائبين . وقيل : صفة لسبع سنين ؛ أى دائبة . وحكى أبو حاتم عن يعقوب «دَأَبا» بتحريك الهمزة ؛ وكذا روى حفص عن عاصم ، وهما لغتان[١]، وفيه قولان قول أبى حاتم : إنه من دَئِب. قال النحاس : ولا يعرف أهل اللغة إلا دَأَب. والقول الآخر — إنه حُرِّك لأن فيه حرفا من حروف الحلق ؛ قاله الفراء ، قال : وكذلك كل حرف فُتح أوله وسكن ثانيه فتثقيله جائز إذا كان ثانيه همزة ، أو هاء ، أو عينا ، أو غينا ، أو حاء ، أو خاء ؛ وأصله العادة ؛ قال[٢] :

* كَدأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا *

وقد مضى فى « آل عمران[٣] » القول فيه . ﴿ فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ ﴾ قيل : لئلا يسوّس ، وليكون أبقى ؛ وهكذا الأمر فى ديار مصر . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ أى آستخرجوا ما تحتاجون إليه بقدر الحاجة ؛ وهذا القول منه أمر ، والأول خبر . ويحتمل أن يكون الأول أيضا أمرا ، وإن كان الأظهر منه الخبر ؛ فيكون المعنى : « تزرعون » أى آزرعوا .

الثانيــــة — هذه الآية أصل فى القول بالمصالح الشرعية التى هى حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال ؛ فكل ما تضمن تحصيل شىء من هذه الأمور فهو مصلحة ، وكل ما يُفوّت شيئا منها فهو مفسدة ، ودفعه مصلحة ؛ ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ؛ ليحصل لهم التمكن من معرفة الله تعالى وعبادته الموصلتين إلى السعادة الأخروية ، ومراعاة ذلك فضل من الله عز وجل ورحمة رحم بها عباده ، من غير وجوب عليه ، ولا آستحقاق ؛ هذا مذهب كافة المحققين من أهل السنة أجمعين ؛ وبسطه فى أصول الفقه .

---

(١) اللغتان « دأبا » بتحريك الهمزة و « دأبا » بسكونها وهى قراءة الجمهور من السبعة كما فى تفسير ابن عطية .

(٢) هو آمرؤ القيس ؛ وتمام البيت : * وجارتها أم الرباب بمأسل *

(٣) راجع جـ ٤ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾

فيـه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ يعنى السّنين المجدبات . ﴿يَأْكُلْنَ﴾ مجاز ، والمعنى يأكل أهلهنّ . ﴿مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أى ما ادّخرتم لأجلهن ؛ ونحوه قول القائل :

نهارُك يا مغرورُ سَهوٌ وغَفْلَةٌ * وليلُكَ نَومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ

والنهـار لا يَسهو ، والليل لا ينام ؛ وإنمـا يُسهى فى النهـار ، ويُنام فى الليل . وحكى زيد ابن أسـلم عن أبيـه : أن يوسـف كان يضع طعام الاثنين فيقرّبه إلى رجل واحد فيأكل بعضـه ، حتى إذا كان يومٌ قرّبه له فأكله كلّه ؛ فقال يوسـف : هـذا أوّل يوم من السّبع الشّداد . ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء . ﴿مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾ أى ممـا تحبسون لتزرعوا ؛ لأن فى اسـتبقاء البذر تحصـين الأقوات . وقال أبو عبيـدة : تحرزون . وقال قتَـادة : « تحصـنون » تدّخرون ، والمعـنى واحد ؛ وهو يدلّ على جواز احتكار الطعام إلى وقت الحاجة .

الثانيـــة — هـذه الآية أصل فى صحة رؤيا الكافر، وأنها تُخرّج على حسب ما رأى، لا سيما إذا تعلقت بمؤمن ؛ فكيف إذا كانت آية لنبيّ، ومعجزة لرسول، وتصديقا لمصطفى التبليغ، وحجة للواسطة بين الله — جل جلاله — وعباده .

قوله تعـالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ﴾ هذا خبر من يوسف عليه السلام عما لم يكن فى رؤيا الملك، ولكنه من علم الغيب الذى آتاه الله . قال قتَادة : زاده الله عِلم سَنَة لم يسألوه

عنهـا إظهارا لفضله ، وإعلاما لمكانه من العلم ومعرفته . ﴿ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ ﴾ من الإغاثة أو الغوث ؛ غَوَّثَ الرجل قال واغوثاه ، والاسم الغَوْثُ والغُوَاث والغَوَاث ، واستغاثني فلان فأغثته ، والاسم الغِيَاث ، صارت الواو ياء لكسرة ما قبلها . والغيث المطر ، وقد غاث الغيثُ الأرضَ أى أصابها ، وغاث الله البلادَ يَغيثها غَيْثا ، وغِيثت الأرضُ تُغاث غَيْثا ، فهى أرض مَغيثة ومَغْيوثة ، فمعنى «يغاث الناس» يُمطَرون . ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهن ، ذكره البخاري . وروى حجّاج عن ابن جُرَيج قال : يعصرون العنب خمرا والسِّمسم دُهنا ، والزيتون زيتا . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدلّ ذلك على كثرة النبات . وقيل : «يعصرون» أى يَنجُون ، وهو من العُصْرة ، وهى المَنْجاة . قال أبو عبيدة : والعَصَر بالتحريك المَلْجأ والمَنْجاة ، وكذلك العُصْرة ، قال أبو زُبَيد[1] :

صَادِيًا يَستغيثُ غَـيْرَ مُغَاثٍ * ولقـد كانَ عُصْرَةَ المَنْجودِ

والمَنْجود الفَزِع . واعتصرتُ بفلان وتَعصرتُ أى التجأت إليه . قال أبو الغوث : «يَعْصِرُونَ» يَستغِلّون ؛ وهـو من عصر العنب . واعتصرت ما له أى استخرجته من يده . وقرأ عيسى «تُعْصَرُونَ» بضم التاء وفتح الصاد ، ومعناه : تُمطَرون ، من قوله : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا » وكذلك معنى «تُعْصِرُونَ» بضم التاء وكسر الصاد ، فيمن قرأه كذلك .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾

(١) قاله فى رثاء ابن أخته وكان مات عطشا فى طريق مكة .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ أى فذهب الرسول فأخبر الملك، فقال: ائتونى به. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ ﴾ أى يأمره بالخروج قال: ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ﴾ أى حال النسوة. ﴿ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ فأبى أن يخرج إلا أن تصحّ براءته للملك مما قُذف به، وأنه حبس بلا جرم. روى الترمذىّ عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم [ابن الكريم][1] يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم — قال — ولو لَبِثتُ فى السجن ما لَبِث ثم جاءنى الرسول أجبت — ثم قرأ — «فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن» — قال — ورحمةُ الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد [إذ قال «لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد»[2]] فما بعث الله من بعده نبيا إلا فى ذِرْوة من قومه". وروى البخارىّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ولو لبثت فى السجن مالبث يوسف لأجبت الداعى ونحن أحق من إبراهيم إذ قال له «أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى»" وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يرحم الله أخى يوسف لقد كان صابرا حليما ولو لبثت فى السجن ما لبثه أجبت الداعىَ ولم ألتمس العُذْر". وروى نحو هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك، فى كتاب التفسير من صحيح البخارى، وليس لابن القاسم فى الديوان غيره. وفى رواية الطبرىّ "يرحم الله يوسف لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلىّ لخرجت سريعا أنْ كان لحليما ذا أناة". وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه والله يغفر له حين سئل عن البقرات لو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى أشترط أن يخرجونى ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب"[3]. قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أناة وصبرا، وطلبا لبراءة الساحة؛ وذلك أنه — فيما روى — خشى أن يخرج وينال من الملك

(١) الزيادة من صحيح الترمذى. (٢) الزيادة عن صحيح الترمذى.

(٣) الحديث فى تفسير الطبرى يختلف فى اللفظ عما هنا.

مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحا فيراه الناس بتلك العين أبدا ويقولون : هذا الذى راود آمرأة مولاه ؛ فأراد يوسف عليــه السلام أن يبيّن براءته ، ويحقّق منزلته من العفّة والخير ؛ وحينئذ يخرج للأحظاء والمنزلة؛ فلهذا قال للرسول : آرجع إلى ربك وقل له ما بال النسوة، ومقصد يوسف عليه السلام إنمــا كان : وقل له يستقصى عن ذنبى، وينظر فى أمرى هل سجنت بحق أو بظلم ؛ ونكّب عن آمرأة العزيز حُسن عشرة، ورعاية لزمام الملك العزيز له .

فإن قيل: كيف مدح النبى صلى الله عليه وسلم يوسف بالصبر والأناة وترك المبادرة إلى الخروج، ثم هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره ؟ فالوجه فى ذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أخذ لنفسه وجها آخر من الرأى، له جهة أيضا من الجودة؛ يقول : لو كنت أنا لبادرت بالخروج، ثم حاولت بيان عذرى بعد ذلك؛ وذلك أن هــذه القصص والنوازل هى معرّضة لأن يقتدى الناس بها إلى يوم القيامة ؛ فأراد رسول الله صلى الله عليــه وسلم حمل الناس على الأحزم من الأمور ؛ وذلك أن ترك الحزم فى مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من مثل ذلك السجن، ربمــا نتَج له البقاء فى سجنه ، وانصرفت نفس مخرجه عنه ، وإن كان يوسف عليه السلام أمن من ذلك بعلمه من الله ، فغيره من الناس لا يأمن ذلك ؛ فالحالة التى ذهب النبى صلى الله عليه وسلم بنفسه إليها حالة حزم، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

قوله تعــالى : ﴿ فَٱسْأَلْهُ مَابَالُ ٱلنِّسْوَةِ ﴾ ذَكَرَ النّساء جملة ليدخل فيهنّ آمرأة العزيز مدخل العموم بالتلويح حتى لا يقع عليها تصريح؛ وذلك حُسن عشرة وأدب؛ وفى الكلام محذوف، أى فاسأله أن يتعرّف مابال النسوة . قال آبن عباس : فأرسل الملك إلى النسوة وإلى آمرأة العزيز ــ وكان قد مات العزيز ــ فدعاهنّ فـ﴿قَالَ مَاخَطْبُكُنَّ ﴾أى ماشأنكنّ. ﴿ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ وذلك أن كل واحدة منهنّ كلّمت يوسف فى حقّ نفسها، على ما تقدّم، أو أراد قول كل واحدة قد ظلمت آمرأة العزيز ، فكان ذلك مراودة منهنّ . ﴿ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ أى معاذ الله. ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ أى زِنًى. ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ لمــا رأت إقرارهنّ ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليهــا إن أنكرت أقرّت

هى أيضا؛ وكان ذلك لطفا من الله بيوسف . و « حَصْحَصَ الحَقُّ » أى تبيّن وظهر؛ وأصله حَصَصَ، فقيل : حصحص؛ كما قال : كبكبوا فى كببوا ، وكفكف فى كففف؛ قاله الزجاج وغيره . وأصل الحَصّ آستئصال الشيء؛ يقال : حَصّ شعره إذا آستأصله جَزًّا؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت :

قد حَصَّت البيضةُ رأسى فما * أَطْعَمُ نومًا غيرَ تَهْجاعِ (١)

وسَنَةٌ حصّاء أى جرداء لا خير فيها ، قال جَرير :

يأوِى إليكم بلا مَنٍّ ولا جَحَدٍ * من ساقه السَّنَةُ الحَصَّاءُ والذِّيبُ

كأنه أراد أن يقول : والضّبع ، وهى السنة المجدبة ؛ فوضع الذئب موضعه لأجل القافية ؛ فمعنى « حصحص الحق » أى آنقطع عن الباطل بظهوره وثباته ؛ قال :

أَلَا مَن مُبلِغٌ عنّى خِدَاشًا فإنّهُ * كذوبٌ إذا ما حَصْحَصَ الحقُّ ظالمُ

وقيل : هو مشتق من الحِصّة ؛ فالمعنى : بانت حِصّة الحق من حِصّة الباطل . وقال مجاهد وقَتادة : وأصله مأخوذ من قولهم : حَصّ شَعْره إذا استأصل قطعه؛ ومنه الحِصّة من الأرض إذا قطعت منها . والحِصْحِص بالكسر التراب والحجارة؛ ذكره الجوهرى . ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهذا القول منها — وإن لم يكن سأل عنه — إظهار لتوبتها وتحقيق لصدق يوسف وكرامته ؛ لأن إقرار المقرّ على نفسه أقوى من الشهادة عليه ؛ فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفسا ظن ، ولا يخالطها شك . وشدّدت النون فى « خَطْبُكُنّ » و « رَاوَدْتُنّ » لأنها بمنزلة الميم والواو فى المذكر .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

(١) البيضة : الخوذة ؛ والتهجاع : النومة الخفيفة .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ اختلف فيمن قاله ، فقيل : هو من قول امرأة العزيز ، وهو متصل بقولها : « الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ » أى أقررتُ بالصدق ليعلم أنى لم أخُنْه بالكذب عليه ، ولم أذكره بسوء وهو غائب ، بل صدقت وحدت عن الخيانة ؛ ثم قالت : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » بل أنا راودته ؛ وعلى هذا هى كانت مقرّة بالصانع ، ولهذا قالت : « إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » . وقيل : هو من قول يوسف ؛ أى قال يوسف ذلك الأمر الذى فعلته ، من رد الرسول « لِيَعْلَمَ » العزيز « أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » قاله الحسن وقتادة وغيرهما . ومعنى « بالغيب » وهو غائب . وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك ، وقال : « ليعلم » على الغائب توقيرا للملك . وقيل : قاله إذ عاد إليه الرسول وهو فى السجن بعد ؛ قال ابن عباس : جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه ؛ فقال يوسف : «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ» أى لم أَخُن سيّدى بالغيب ؛ فقال جبريل عليه السلام : يا يوسف ! ولا حين حَلَلْتَ الإزار ، وجلست مجلس الرجل من المرأة؟ ! فقال يوسف : «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى» الآية . وقال السُّدى : إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حَلَلْت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » . وقيل : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » من قول العزيز ؛ أى ذلك ليعلم يوسف أنى لم أخنه بالغيب ، وأنى لم أغفل عن مجازاته على أمانته . ﴿ وَأَنَّ اللّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴾ معناه : أن الله لا يهدى الخائنين بكيدهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ﴾ قيل : هو من قول المرأة . وقال القُشَيرى : فالظاهر أن قوله « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ » وقوله : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى » من قول يوسف .

قلت : إذا احتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرّئ يوسف من حَلّ الإزار والسّراويل ؛ وإذا قدّرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه ، على ما قدّمناه من القول المختار فى قوله : « وَهَمَّ بِهَا » . قال أبو بكر الأنبارى : من الناس من يقول : « ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيمٌ » من كلام امرأة العزيز ؛

لأنه متصل بقوله : « أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ » وهذا مذهب الذين ينفون الهمّ عن يوسف عليه السلام؛ فمن بنى على قولهم قال : من قوله « قَالَتِ ٱمْرَأَةُ الْعَزِيزِ » إلى قوله : « إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ » كلام متصل بعضه ببعض ، ولا يكون فيــه وقف تام على حقيقة ؛ ولسنا نختار هذا القول ولا نذهب إليه . وقال الحسن : لــا قال يوسف « ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ » كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال : « وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي » وتزكية النفس مذمومة؛ قال الله تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » وقد بيناه فى « النساء »[1] . وقيل : هو من قول العزيز؛ أى وما أبرئ نفسى من سوء الظن بيوسف. ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ أى مشتهية له . ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فى موضــع نصب بالاســتثناء ؛ و « ما » بمعنى مَنْ ؛ أى إلا مَن رحم ربى فعصمه؛ و «ما» بمعنى مَن كثير؛ قال الله تعالى : «فَٱنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ » وهو آستثناء منقطع ، لأنه آستثناء المرحوم بالعصمة من النفس الأمارة بالسوء ؛ وفى الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية و إن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية " قالوا : يا رســول الله ! هــذا شرّ صاحب فى الأرض . قال : " فوالذى نفسى بيده إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم " .

قوله تعــالى : وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ لــا ثبت للملك براءته مما نُسب إليه ؛ وتحقّق فى القصة أمانته ، وفهم أيضا صبره وجَلَده عظمت منزلته عنده، وتيقّن حسن جلاله قال: «آئتونى به أستخلصه لنفسى» فانظر إلى قول الملك أولا ــ حين تحقق علمه ــ « آئتونى به » فقط ، فلما فعل يوسف ما فعل ثانيا قال : « آئتونى به أستخلصه لنفسى » روى عن وهب بن مُنَبِّه قال: لــا دُعى يوسف وقف بالباب فقال : حسبى ربّى من خلقه،

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٤٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

عَزّ جارُه، وجلّ ثناؤه ولا إلٰهَ غيره؛ ثم دخل فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره نخرّ له ساجدا، ثم أقعده الملك معه على سريره فقال. ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾. ﴿ قال ﴾ له يوسف: ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ للخزائن ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بوجوه تصرفاتها. وقيل: حافظ للحساب، عليم بالألسن. وفى الخبر: "يرحم الله أخى يوسف لو لم يقل ٱجعلنى على خزائن الأرض لٱستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك سنة". وقيل: إنما تأخر تمليكه إلى سنة لأنه لم يقل إن شاء الله. وقد قيل فى هذه القصة: إن يوسف عليه السلام لما دخل على الملك قال: اللهم إنى أسألك بخيرك من خيره، وأعوذ بك من شرّه وشرّ غيره؛ ثم سلّم على الملك بالعبرانية فقال: ما هذا اللسان؟ قال: هـذا لسان عَمّى إسمعيل، ثم دعا بالعبرانية فقال: ما هـذا اللسان؟ قال: لسان آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب؛ وكان الملك يتكلم بسبعين لسانا، فكلما كلّم يوسف بلسان أجابه يوسف بذلك اللسان، فأعجب الملك أمره، وكان يوسف إذ ذاك ٱبن ثلاثين سنة؛ ثم أجلسه على سريره وقال: أحب أن أسمع منك رؤياى، قال يوسف: نعم أيها الملك! رأيتَ سبع بقرات سِمانٍ شُهْبا غُرّا حسانا، كشف لك عنهن النّيل فطلعن عليك من شاطئه تَشْخُب(١) أخلافها لبنا؛ فبينا أنت تنظر إليهنّ وتتعجب من حسنهنّ إذ نَضَب النّيل فغار ماؤه، وبدا أُسُّه، فخرج من حَمَئه ووَحَله سبع بقرات عِجاف شُعْث غُبْر مُقَلَّصات البطون، ليس لهن ضروع ولا أخلاف، لهن أنياب وأضراس، وأكفّ كأكفّ الكلاب وخراطيم كخراطيم السّباع، فاختلطن بالسِّمان فافترسنهنّ افتراس السّباع، فأكلن لحومهنّ، ومزّقن جلودهنّ، وحطّمن عظامهنّ، ومشمشن مخّهنّ؛ فبينا أنت تنظر وتتعجب كيف غلبنهنّ وهنّ مهازيل! ثم لم يظهر منهنّ سِمَن ولا زيادة بعد أكلهنّ! إذا بسبع سنابل خضر طريات ناعمات، ممتلئات حَبّا وماء، وإلى جانبهنّ سبع يابسات ليس فيهنّ ماء ولا خضرة فى منبت واحد، عروقهنّ فى الثّرى والماء، فبينا أنت تقول فى نفسك: أى شىء هذا؟! هؤلاء خضر مثمرات، وهؤلاء سود يابسات، والمنبت واحد، وأصولهن

---

(١) تشخب: تسيل.

فى المـاء، إذ هبّت ريح فذرت الأوراق من اليابسات السود على الخضر المثمرات، فأشعلت فيهن النـار فأحرقتهنّ ؛ فصرن سودا مغبرات ؛ فانتبهتَ مذعورا أيها الملك ؛ فقال الملك : والله ما شأن هـذه الرؤيا وإن كان عجبا بأعجب ممـا سمعتُ منك ! فمـا ترى فى رؤياى أيها الصدّيق ؟ فقال يوسف : أرى أن تجمع الطعام، وتزرع زرعا كثيرا فى هذه السنين المخصبة؛ فإنك لو زرعت على حجر أو مَدَر لنبت، وأظهر الله فيه النّمـاء والبركة، ثم ترفع الزرع فى قصبه وسنبله تبنى له المخازن العظام؛ فيكون القصب والسّنبل عَلَفا للدواب، وحَبُّه للناس، وتأمر الناس فيرفعون من طعامهم إلى أهرائك الخُمُس؛ فيكفيك من الطعام الذى جمعته لأهل مصر ومَن حولها، ويأتيك الخلق من النواحى يمتارون منك، ويجتمع عندك من الكنوز ما لا يجتمع لأحد قبلك ؛ فقـال الملك : ومن لى بتدبير هـذه الأمور ؟ ولو جمعت أهـل مصر جميعا ما أطاقوا، ولم يكونوا فيه أمناء ؛ فقال يوسف عليه السلام : « ٱجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ » أى على خزائن أرضك؛ وهى جمع خِزَانة؛ ودخلت الألف واللام عوضا من الإضافة ، كقول النابغــة :

لَهُمْ شِيمَــةٌ لم يُعطِهَـا الله غَـيْرَهُمْ * مِنَ ٱلْجُودِ وَالْأَحْلَامُ غَيْرُ كَوَاذِبِ

قوله تعـالى : ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ جزم لأنه جواب الأمر؛ وهذا يدل على أن قوله : « ذَلِكَ لِيَعْـلَمَ » جرى فى السّجن . ويحتمل أنه جرى عنـد الملك، ثم قال فى مجلس آخر : « ٱئْتُونِي بِهِ » تأكيدا . « أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي » أى أجعله خالصا لنفسى، أفوّض إليـه أمر مملكتى ؛ فذهبـوا فجاءوا به؛ ودلّ على هـذا ﴿فَلَمَّـا كَلَّمَهُ﴾ أى كلّم الملك يوسف، وسأله عن الرؤيا فأجاب يوسف؛ فـ ﴿قَالَ﴾ الملك : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَـا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أى متمكن نافذ القول، « أمين » لا تخاف غدرا .

قوله تعـالى : قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن أنس يقول : مصر خزانة الأرض؛ أما سمعت إلى قوله : « ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْضِ » أي على حفظها، فحذف المضاف . ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ لما وُلّيت ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأمره. وفي التفسير : إني حاسب كاتب ؛ وأنه أوّل من كتب في القراطيس . وقيل : « حفيظ » لتقدير الأقوات « عليم » بسنيّ المجاعات . قال جُويبر عن الضّحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ٱجعلني على خزائن الأرض لاستعمله من ساعته ولكن أخّر ذلك عنه سنة " . قال ابن عباس : لما انصرفت السنة من يوم سأل الإمارة دعاه الملك فتوّجه وردّاه (١) بسيفه، ووضع له سريرا من ذهب، مكلّلا بالدرّ والياقوت، وضرب عليه حُلّة من إِسْتَبرق ؛ وكان طول السرير ثلاثين ذراعا وعرضه عشرة أذرع، عليه ثلاثون فراشا وستون مِرْفَقة (٢)، ثم أمره أن يخرج، فخرج متوّجا، لونه كالثلج، ووجهه كالقمر ؛ يرى الناظر وجهه من صفاء لون وجهه، فجلس على السرير ودانت له الملوك، ودخل الملك بيته مع نسائه، وفوّض اليه أمر مصر، وعزل قطفير عما كان عليه، وجعل يوسف مكانه . قال ابن زيد : كان لفرعون ملك مصر خزائن كثيرة غير الطعام، فسلّم سلطانه كلّه إليه، وهلك قطفير تلك الليالي، فزوّج الملك يوسف راعيل آمرأة العزيز ، فلما دخل عليها قال : أليس هذا خيرا مما كنت تريدين ؟! فقالت : أيها الصدّيق لا تلمني؛ فإني كنت آمرأة حسناء ناعمة كما ترى، وكان صاحبي لا يأتي النساء ، وكنتَ كما جعلك الله من الحسن فغلبتني نفسي ، فوجدها يوسف عذراء فأصابها فولدت له رجلين : إفرائيم ابن يوسف ، ومنشا بن يوسف . وقال وهب بن منبّه : إنما كان تزويجه زليخا آمرأة العزيز بين دخلتي الإخوة ، وذلك أن زليخا مات زوجها ويوسف في السجن، وذهب مالها وعمي بصرها بكاء على يوسف، فصارت تتكفّف الناس ؛ فمنهم من يرحمها ومنهم من لا يرحمها،

---

(١) رداه بسيفه : قلده به . (٢) المرفقة ( بالكسر) : المتكأ والمخدة .

وكان يوسف يركب فى كل أسبوع مرة فى موكب زُهَاء مائة ألف من عظماء قومه . فقيـل لها : لو تعرّضت له لعله يسعفك بشئ؛ ثم قيل لها : لا تفعلى، فربما ذكر بعض ما كان منك من المراودة والسـجن فيسيء إليك، فقالت : أنا أعلم بخُلُق حبيبى منكم ، ثم تركته حتى إذا ركب فى موكبه ، فنادت بأعلى صوتهـا : سبحان من جعل الملوك عبيدا بمعصيتهم ، وجعـل العبيد ملوكا بطاعتهم، فقال يوسف : ما هـذه ؟ فأتوا بها ؛ فقالت : أنا التى كنت أخدمك على صدور قدمىّ ، وأُرَجِّل جُمَّتك بيدىّ، وتربيت فى بيتى ، وأكرمت مثواك ، لكن فرط ما فرط من جهلى وعُتوّى فذقت وبال أمرى ، فذهب مالى، وتضعضع ركنى، وطال ذلّى، وعَمِى بصرى ، وبعد ما كنت مغبوطة أهـل مصر صرت مرحومتهم ، أتكفّف النـاس ، فمنهم من يرحمنى، ومنهم من لا يرحمنى ، وهذا جزاء المفسدين ؛ فبكى يوسف بكاء شـديدا ، ثم قال لهـا : هل بقيت تجدين مما كان فى نفسك من حبـك لى شيئا ؟ فقالت : والله لنظرة إلى وجهك أحب إلىّ من الدنيا بحذافيرها ، لكن ناولنى صدر سوطك، فناولها فوضعته على صدرها ، فوجد للسوط فى يده اضطرابا وارتعاشا من خَفَقان قلبها ، فبكى ثم مضى إلى منزله فأرسـل إليها رسولا : إن كنتِ أَيِّمـًا تزوجناك، وإن كنتِ ذات بعـل أغنيناك ، فقالت للرسول: أعوذ بالله أن يستهزئ بى الملك! لم يُرِدْنى أيام شبابى وغناى ومالى وعزّى أفيريدنى اليوم وأنا عجوز عمياء فقيرة ؟ ! فأعلمه الرسول بمقالتها، فلما ركب فى الأسبوع الثانى تعرّضت له ، فقال لهـا : ألم يبلّغك الرسول ؟ فقالت : قد أخبرتك أن نظرة واحدة إلى وجهك أحبّ إلىّ من الدنيا وما فيها؛ فأمر بها فأصلح من شأنها وهُيِّئت، ثم زُفَّت إليه، فقام يوسف يصلّى ويدعو الله، وقامت وراءه، فسأل الله تعالى أن يعيد إليها شبابها وجمالهـا وبصرها ، فردّ الله عليها شبابها وجمالها وبصرها حتى عادت أحسن ما كانت يوم راودته، إكراما ليوسف عليه السلام لمـّا عَفّ عن محارم الله ، فأصابها فإذا هى عذراء ، فسألها ؛ فقالت : يا نبىّ الله إن زوجى كان عِنِّينا لا يأتى النساء، وكنت أنت من الحسن والجمال بمـا لا يوصف؛ قال: فعاشا فى خَفْض عيش، كل يوم يجدّد الله لها خيرا ، وولدت له ولدين؛ إفرائيم ومنشا . وفيما روى

أن الله ألقى فى قلب يوسف من محبتها أضعاف ما كان فى قلبها، فقال لها : ما شأنك لاتحبينى كما كنت فى أوّل مرة ؟ فقالت : لمـا ذقت محبة الله تعالى شغلنى ذلك عن كل شىء .

الثانيـــة — قال بعض أهل العلم : فى هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه فى فعل لا يعارضه فيه، فيصلح منه ما شاء؛ وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. وقال قوم: إن هذا كان ليوسف خاصة، وهذا اليوم غير جائز؛ والأوّل أولى إذا كان على الشرط الذى ذكرناه . والله أعلم . قال المـاوردىّ : فإن كان المولى ظالمـا فقـد اختلف النـاس فى جواز الولاية من قبله على قولين : أحدهما — جوازها إذا عمل بالحق فيما تقـلده؛ لأن يوسف وُلِّى من قبل فرعون، ولأن الاعتبار فى حقـه بفعله لا بفعل غيره . الثـانى — أنه لا يجوز ذلك ؛ لمـا فيه من تولّى الظالمين بالمعونة لهم ، وتزكيتهم بتقلّد أعمالهم ؛ فأجاب من ذهب إلى هذا المذهب عن ولاية يوسف من قبل فرعون بجوابين : أحدهما — أن فرعون يوسف كان صالحا، وإنما الطاغى فرعون موسى. الثـانى — أنه نظر فى أملاكه دون أعماله، فزالت عنه التبعة فيه. قال المـاوردى: والأصح من إطلاق هذين القولين أن يفصّل ما يتولاه من جهـة الظالم على ثلاثة أقسام : أحدها — ما يجوز لأهله فعله من غير اجتهاد فى تنفيذه كالصدقات والزكوات ، فيجوز توليـه من جهة الظالم ، لأن النص على مستحقه قد أغنى عن الاجتهاد فيه، وجواز تفرّد أربابه به قد أغنى عن التقليد . والقسم الثانى — ما لا يجوز أن يتفرّدوا به ويلزم الاجتهاد فى مَصْرفه كأموال الفىء ، فلا يجوز تولّيه من جهـة الظالم ؛ لأنه يتصرف بغير حق، ويجتهد فيما لايستحق . والقسم الثالث — ما يجوز أن يتولاه لأهله ، وللاجتهاد فيه مدخل كالقضايا والأحكام ، فعقد التقليد محلول ، فإن كان النظر تنفيذا للحكم بين متراضيين ، وتوسطا بين مجبورين جاز ، وإن كان إلزام إجبار لم يجز .

الثالثـــة — ودلّت الآية أيضا على جواز أن يخطب الإنسان عملا يكون له أهلا؛ فإن قيل : فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسئلة وُكِلْت إليهـا و إن أُعطيتها عن غير مسئلة أُعنت عليها " . وعن أبى بُرْدة قال قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريّين ، أحدهما عن يمينى والآخرعن يسارى ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي صلى الله عليه وسلم يستاك ، فقال : "ما تقول يا أبا موسى — أو يا عبد الله بن قيس — " قال قلت : والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شـعرت أنهما يطلبان العمل ، قال : وكأنى أنظر إلى سِوَاكه تحت شفته وقد قَلَصت(1) ، فقال : " لن — أو — لا نستعمل على عملنا من أراده" وذكر الحديث ؛ خرجه مسلم أيضا وغيره ؛ فالجواب : أوّلا — أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه فى العدل والإصلاح وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضا متعينا عليـه ، فإنه لم يكن هناك غيره ، وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق فى القضاء أو الحسـبة ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولّاها و يسأل ذلك ، و يخبر بصفاته التى يستحقها به من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ؛ فأما لو كان هناك من يقوم بهـا و يصلح لهـا وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب ؛ لقوله عليـه السلام لعبد الرحمن : "لا تسأل الإمارة" فإن فى سؤالها والحرص عليها مع العلم بكثرة آفاتها وصعوبة التخلص منها دليـل على أنه يطلبها لنفسه ولأغراضه ، ومن كان هكذا يوشك أن تغلب عليه نفسه فيهلك ؛ وهذا معنى قوله عليه السلام : "وُكِل إليها" ومن أباها لعلمه بآفاتها ، ولخوفه من التقصير فى حقوقها فرّ منها ، ثم إن ٱبتلى بهـا فيرجى له التخلص منها ، وهو معنى قوله : " أُعِينَ عليها " . الثانى — أنه لم يقل : إنى حسيب كريم ، و إن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم" ولا قال : إنى جميل مليح ، إنما قال : « إنى حفيظ عليم » فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث — إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار ذلك مستثنى من قوله

(1) قلصت : ٱنقبضت وٱنزوت .

تعالى : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ » . الرابع — أنه رأى ذلك فرضا متعينا عليه ؛ لأنه لم يكن هنالك غيره ، وهو الأظهر ، والله أعلم . ودلت الآية أيضا على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ؛ قال الماوردي : وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بظاهر من مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومراءاة ، ولو ميزه الفاضل عنه لكان أليق بفضله ؛ فإن يوسف دعته الضرورة إليه لما سبق من حاله ، ولما يرجو من الظفر بأهله .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السجن مكنا له في الأرض ؛ أقدرناه على ما يريد . وقال الكيا الطبري قوله : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض » دليل على إجازة الحيلة في التوصل إلى المباح ، وما فيه الغبطة والصلاح ، واستخراج الحقوق ، ومثله قوله تعالى : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ » وحديث أبي سعيد الخدري في عامل خيبر ، والذي أداه من التمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما قاله .(١)

قلت : وهذا مردود على ما يأتي . يقال : مكّناه ومكّنا له ، قال الله تعالى : « مَكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ » . قال الطبري : استخلف الملك الأكبر الوليد بن الريان يوسف على عمل قطفير وعزله ؛ قال مجاهد : وأسلم على يديه . قال ابن عباس : ملّكه بعد سنة

---

(١) الحديث : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا على خيبر ، فجاءه بتمر جنيب ، وهو نوع جيد من أنواع التمر ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كل تمر خيبر هكذا " فقال : لا والله يا رسول الله ، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين بالثلاثة ، فقال : " لا تفعل بع الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيبا " . ( البخاري ) .

ونصف . وروى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن يوسف قال إنى حفيظ عليم إن شاء الله لملك فى وقته" . ثم مات إطفير فزوّجه الوليد بزوجة إطفير راعيل ، فدخل بها يوسف فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين : إفرائيم ومنشا ، آبنى يوسف ، ومن زعم أنها زليخا قال : لم يتزوّجها يوسف ، وأنها لمـا رأته فى موكبه بكت ، ثم قالت : الحمد لله الذى جعل الملوك عبيدا بالمعصية ، والحمد لله الذى جعل العبيد بالطاعة ملوكا ، فضمّها إليه ، فكانت من عياله حتى ماتت عنده ، ولم يتزوّجها ؛ ذكره المـاوردىّ ؛ وهو خلاف ماتقدّم عن وهب ، وذكره الثعلبىّ ؛ فالله أعلم . ولمـا فوّض الملك أمر مصر إلى يوسف تلطّف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا به ، وأقام فيهم العدل ، فأحبّه الرجال والنساء ، قال وهب والسُّدىّ وابن عباس وغيرهم : ثم دخلت السنون المخصِبة ، فأمر يوسف بإصلاح المزارع ، وأمرهم أن يتوسعوا فى الزراعة ، فلمـا أدركت الغَلّة أمر بها فجمعت ، ثم بنى لها الأهراء ، فجمعت فيها فى تلك السنة غَلّة ضاقت عنها المخازن لكثرتها ، ثم جمع عليه غَلّة كل سنة كذلك ، حتى إذا انقضت السبع المخصبة وجاءت السنون المجدبة نزل جبريل وقال : يا أهل مصر جوعوا ؛ فإن الله سلّط عليكم الجوع سبع سنين . وقال بعض أهـل الحكمة : للجوع والقحط علامتان : إحداهما — أن النفس تحب الطعام أكثر من العادة ، ويسرع إليهـا الجوع خلاف ما كانت عليه قبل ذلك ، وتأخذ من الطعام فوق الكفاية . والثانية — أن يفقد الطعام فلا يوجد رأسا ويعزّ إلى الغاية ، فاجتمعت هاتان العلامتان فى عهد يوسف ، فانتبه الرجال والنساء والصبيان ينادون الجوع الجوع ! ! ويأكلون ولا يشبعون ، وانتبـه الملك ينـادى الجوع الجوع ! ! قال : فدعا له يوسف فأبرأه الله من ذلك ، ثم أصبح فنادى يوسف فى أرض مصر كلهـا ؛ معاشر الناس ! لا يزرع أحد زرعا فيضيع البذر ولا يطلع شىء . وجاءت تلك السنون بهول عظيم لا يوصف ؛ قال آبن عباس : لمـا كان ابتداء القحط بينا الملك فى جوف الليل أصابه الجوع فى نصف الليل ، فهتف الملك يا يوسف ! الجوع الجوع ! ! فقال يوسف : هـذا أوان القحط ؛ فلما دخلت أوّل سنة من سنىّ القحط هلك فيهـا كل شىء أعدوه فى السنين

المخصبة ، بفعل أهل مصر يبتاعون الطعام من يوسف ؛ فباعهم أوّل ســنة بالنقود ، حتى لم يبق بمصر دينار ولا درهم إلا قبضه ؛ وباعهم فى السنة الثانية بالحلىّ والجواهر، حتى لم يبق فى أيدى الناس منهـا شىء ؛ وباعهم فى السنة الثالثة بالمواشى والدواب ، حتى آحتوى عليها أجمع ، وباعهم فى السنة الرابعة بالعبيـد والإماء ، حتى آحتوى على الكل ؛ وباعهم فى السنة الخامسة بالعقار والضّياع ، حتى ملكها كلها ؛ وباعهـم فى السنة السادسة بأولادهم ونسائهم فاسترقّهم جميعا ؛ وباعهم فى الســنة السابعة برقابهم ، حتى لم يبق بمصر حر ولا عبد إلا صار عبدا له ؛ فقال الناس : والله مارأينا ملكا أجلّ ولا أعظم من هذا ؛ فقال يوسف لملك مصر: كيف رأيت صُنع ربى فيما خَوّلنى ! والآن كل هذا لك، فما ترى فيه؟ فقال : فوضت إليك الأمر فافعل ما شئت ، وإنما نحن لك تبع ؛ وما أنا بالذى يستنكف عن عبادتك وطاعتك ، ولا أنا إلا من بعض مماليكك ، وخَوَل من خَوَلك ؛ فقال يوسف عليه السلام: إنى لم أعتقهم من الجوع لأستعبدهم ، ولم أجرهم من البلاء لأكون عليهـم بلاء ؛ وإنى أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم ، ورددت عليهم أموالهم وأملاكهم ، ورددت عليك ملكك بشرط أن تســتنّ بسنتى . ويروى أن يوسف عليه الســلام كان لا يشبع من طعام فى تلك السنين ، فقيـل له : أتجـوع وبيدك خزائن الأرض ؟ فقال : إنى أخاف إن شبعت أن أنسى الجائع ؛ وأمر يوسـف طباخ الملك أن يجعـل غداءه نصف النهار ، حتى يذوق الملك طعم الجوع ، فلا ينسى الجائعين ؛ فمن ثَمّ جعل الملوك غداءهم نصف النهار .

قوله تعـالى : ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ﴾ أى بإحساننا ؛ والرحمة النعمة والإحسان . ﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى ثوابهم . وقال آبن عباس ووهب : يعنى الصابرين ؛ لصبره فى الجبّ ، وفى الرقّ ، وفى السجن ، وفى صـبره عن محارم الله عمـا دعتـه إليه المرأة . وقال المـاوردىّ : وآختلف فيما أوتيه يوسف من هـذه الحال على قولين : أحدهما — أنه ثواب من الله تعالى على ما آبتلاه . الثانى — أنه أنعم عليه بذلك تفضلا منه عليه ، وثوابه باق على حاله فى الآخرة .

قوله تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى ما نعطيه فى الاخرة خير وأكثر مما أعطيناه فى الدنيا؛ لأن أجر الآخرة دائم، وأجر الدنيا ينقطع؛ وظاهر الآية العموم فى كل مؤمن متّق؛ وأنشدوا:

أَمَا فى رسول الله يوسف أُسْوَةٌ * لمثلكَ محبوسًا على الظُّلم والإِفْكِ
أقام جَميلَ الصّبر فى الحبس بُرهة * فآل به الصَّـبرُ الجميلُ إلى المُلْكِ

وكتب بعضهم إلى صديق له :

وراءَ مَضيقِ الخوف مُتَّسعُ الأَمْنِ * وأوّل مفـروحٍ به آخرُ الحـزنِ
فلا تيئسنْ فالله مَلَّكَ يوســفًا * خزائنَه بعد الخلاصِ من السّجنِ

وأنشد بعضهم :

إذا الحـادثاتُ بَلَغْنَ النُّهى * وَكادتْ تَذوبُ لَهُنَّ المُهَجْ
وحَلَّ البــلاءُ وقَـلَّ العَــزَاءُ * فعنــد التّنَـاهِى يكونُ الفَـرَجْ

والشعر فى هذا المعنى كثير .

قوله تعالى : وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ أى جاءوا إلى مصر لمّـا أصابهم القحْط ليمتاروا؛ وهـذا من آختصار القـرآن المعجز . قال آبن عبـاس وغيره : لمـا أصاب الناس القحط والشدّة، ونزل ذلك بأرض كنعان بعث يعقوب عليه السلام ولده للْميرة، وذاع أمر يوسف عليه السلام فى الآفاق، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته؛ وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشدّة بالناس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رءوسهم ، لكل رأس وَسْقا[(١)]. ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ﴾ يوسف ﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ لأنهم خلّفوه صبيا ، ولم يتوهموا أنه بعد العبودية يبلغ إلى تلك الحال من التملكة، مع طول المدّة؛ وهى أربعون سنة . وقيـل : أنكروه لأنهم اعتقدوا أنه ملك كافر : وقيـل : رأوه لابس حرير، وفى عنقه طوق ذهب، وعلى رأسه تاج، وقد تزيّا بزىّ فرعون مصر؛ و يوسف

(١) الوسق ستون صاعا ؛ والأصل فى الوسق الحمل .

رآهم على ما كان عهدهم فى الملبس والحلية . ويحتمل أنهم رأوه وراء ستر فلم يعرفوه . وقيل: أنكروه لأمر خارق ٱمتحانا ٱمتحن الله به يعقوب .

قوله تعالى : وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ ﴾ يقال : جَهَّزتُ القوم تجهيزا أى تكلّفت لهم بجهازهم للسفر ؛ وجَهَاز العَروس ما يُحتاج إليه عند الإهداء إلى الزّوج ؛ وجوّز بعض الكوفيين الجهاز بكسر الجيم ؛ والجهاز فى هذه الآية الطعام الذى ٱمتاروه من عنده . قال السُّدّى : وكان مع إخوة يوسف أحد عشر بعيرا ، وهم عشرة ؛ فقالوا ليوسف : إن لنا أخا تخلّف عنا ، وبعيره معنا ؛ فسألهم لِمَ تخلّف ؟ فقالوا : لحبّ أبيه إياه ؛ وذكروا له أنه كان له أخ أكبر منه نخرج إلى البرّية فهلَكَ ؛ فقال لهم : أردت أن أرى أخاكم هذا الذى ذكرتم ، لأعلم وجه محبة أبيكم إيّاه ، وأعلم صدقكم ؛ ويروى أنهم تركوا عنده شمعون رهينة ، حتى يأتوا بأخيه بنيامين . وقال ٱبن عباس : قال للترجمان قل لهم : لغتكم مخالفة للغتنا، وزيّكم مخالف لزيّنا، فلعلكم جواسيس؛ فقالوا : والله ! ما نحن بجواسيس، بل نحن بَنُو أبٍ واحد ، فهو شيخ صدّيق ؛ قال : فكم عِدّتكم؟ قالوا : كنّا ٱثنى عشر فذهب أخ لنا إلى البرّية فهلك فيها ؛ قال : فأين الآخر ؟ قالوا عند أبينا ؛ قال : فمن يعلم صدقكم ؟ قالوا : لا يعرفنا هاهنا أحد ، وقد عرّفناك أنسابنا ، فبأى شئ تسكن نفسك إلينا ؟ فقال يوسف : ﴿ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ ﴾ إن كنتم صادقين ؛ فأنا أرضى بذلك « أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِ الْكَيْلَ » أى أتمّه ولا أبخسه ، وأزيدكم حمل بعير لأخيكم . « فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِى » توعدهم ألّا يبيعهم الطعام إن لم يأتوا به .

قوله تعالى : ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِ الْكَيْلَ ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أنه رخّص لهم فى السعر فصار زيادة فى الكيل . والثانى — أنه كال لهم بمكيال واف . ﴿ وَأَنَا خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أنه خير المضيفين، لأنه أحسن ضيافتهم، قاله مجاهد . الثانى — وهو محتمل ، أى خير من نزلتم عليه من المأمونين، وهو على التأويل الأول مأخوذ من النُّزْل وهو الطعام ، وعلى الثانى من المنزل وهو الدار .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي ﴾ أى فلا أبيعكم شيئا فيما بعـد ، لأنه قد وفّاهم كيلهم فى هـذه الحال . ﴿ وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ أى لا أنزلكم عندى منزلة القريب ، ولم يرد أنهم يبعدوا منه ولا يعودوا إليه؛ لأنه على العَود حثّهم . قال السدّى : وطلب منهم رهينة حتى يرجعوا ؛ فارتهن شمعون عنده، قال الكَلْبى: إنما اختار شمعون منهم لأنه كان يوم الجبّ أجملهم قولا، وأحسنهم رأيا . و« تقربون » فى موضع جزم بالنهى ، فلذلك حذفت منه الياء ؛ لأنه رأس آية ؛ ولو كان خبرا لكان « تقربون » بفتح النون .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ أى سنطلبه منـه ، ونسأله أن يرسله معنـا . ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أى لضامنون المجىء به ، ومحتالون فى ذلك .

مســـئلة — إن قيل : كيف ٱستجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيـه ؟ قيـل له : عن هـذا أربعة أجوبة : أحدها — يجوز أن يكون الله عزّ وجلّ أمره بذلك ٱبتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثواب ؛ فٱتبع أمره فيه . الثانى — يجوز أن يكون أراد بذلك أن ينبه يعقـوب على حال يوسف عليهما السلام . الثالث — لتتضاعف المسرّة ليعقـوب برجوع ولديه عليه . الرابع — ليقدم سرور أخيه بالاجتماع معه قبل إخوته؛ لميل كان منـه إليه؛ والأوّل أظهر، والله أعلم .

قوله تعـالى : وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَتِهِ ﴾ هذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم ؛ وهو ٱختيار أبى حاتم والنحاس وغيرهما . وقرأ سائر الكوفيين « لِفِتْيَانِهِ » وهو ٱختيار أبى عبيد ؛ قال :

وهو فى مصحف عبد الله كذلك. قال الثعلبي: وهما لغتان جيدتان؛ مثل الصبيان والصبية. قال النحاس: «لفتيانه» مخالف للسواد الأعظم؛ لأنه فى السواد لا ألف فيه ولا نون، ولا يترك السواد المجتمع عليه لهذا الإسناد المنقطع؛ وأيضا فإن فتية أشبه من فتيان؛ لأن فتية عند العرب لأقل العدد، والقليل بأن يجعلوا البضاعة فى الرحال أشبه. وكان هؤلاء الفتية يسوّون جهازهم، ولهذا أمكنهم جعل بضاعتهم فى رحالهم. ويجوز أن يكونوا أحرارا، وكانوا أعوانا له، وبضاعتهم أثمان ما آشتروه من الطعام. وقيل: كانت دراهم ودنانير. وقال آبن عباس: النعال والأدم ومتاع المسافر ويسمى رَحْلا؛ قال آبن الأنبارى: يقال للوعاء رَحْل، وللبيت رَحْل. وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا﴾ لجواز ألا تسلم فى الطريق. وقيل: إنما فعل ذلك ليرجعوا إذا وجدوا ذلك؛ لعلمه أنهم لا يقبلون الطعام إلا بثمنه. وقيل: ليستعينوا بذلك على الرجوع لشراء الطعام. وقيل: آستقبح أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن الطعام. وقيل: ليروا فضله، ويرغبوا فى الرجوع إليه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ لأنه قال لهم: «فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي» وأخبروه بما كان من أمرهم وإكرامهم إياه، وأن شمعون مرتهن حتى يعلم صدق قولهم. ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ أى قالوا عند ذلك:

« فأرسـل معنا أخانا نكْتَل » والأصـل نكْتال ؛ فحذفت الضمة من اللام للجزم ، وحذفت الألف لالتقاء الساكنين . وقراءة أهل الحرمين وأبى عمرو وعاصم «نكْتَل» بالنون، وقرأ سائر الكوفيين « يكْتَل » بالياء ؛ والأول آختيار أبى عبيد ، ليكونوا كلهم داخلين فيمن يكْتال ؛ وزعم أنه إذا كان بالياء كان للأخ وحده . قال النحاس : وهذا لا يلزم؛ لأنه لا يخلو الكلام من أحد جهتين؛ أن يكون المعنى : فأرسل أخانا يكْتَل معنا؛ فيكون للجميع، أو يكون التقدير على غير التقـديم والتأخير؛ فيكون فى الكلام دليـل على الجميع ، لقوله : « فإن لم تأتونى بِهِ فلا كيل لكم عِندى » . ﴿ وَ إِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يناله سوء .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْـهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى قد فرطتم فى يوسف فكيف آمنكم على أخيه ! . ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حِفْظًا ﴾ نصب على البيان ؛ وهـذه قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين « حَافِظًا » على الحال . وقال الزجاج : على البيان ؛ وفى هذا دليل على أنه أجابهم إلى إرساله معهم؛ ومعنى الآية : حِفظ الله له خير من حفظكم إياه . قال كعب الأحبار : لمـا قال يعقوب : «فالله خير حافظا» قال الله تعالى: وعزتى وجلالى لأردّنّ عليك آبنيك كليهما بعد ما توكّلت علىّ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّـا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ ﴾ الآية ليس فيها معنى يشكل . ﴿ مَا نَبْغِى ﴾ « ما » آستفهام فى موضع نصب؛ والمعنى : أىّ شىء نطلب وراء هـذا ؟ ! وَفّى لنا الكيل ، وردّ علينا الثمن؛ أرادوا بذلك أن يُطيّبوا نفس أبيهم . وقيل : هى نافية؛ أى لا نبغى منك دراهم ولا بضاعة ، بل تكفينا بضاعتنا هـذه التى ردّت إلينا . وروى عن عَلْقَمة « رِدّت إلينا » بكسر الرّاء ؛ لأن الأصل رُدِدت ، فلمـا أدغمت قلبت حركة الدال على الراء . وقوله : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ أى نجلب لهم الطعام ؛ قال الشاعر :

بَعَثْتُكَ مائِرًا فَمَكَثْتَ حَـوْلًا * مَتَى يأتِى غِيـاثُك مَن تُغيثُ

وقرأ السُّلَمىّ بضم النون، أى نعينهم على المِيرة . ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ أى حِمْل بعير لبنيامين .

قوله تعالى : قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ تُؤْتُونِ ﴾ أى تعطونى. ﴿ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهدا يوثق به . قال السدّى : حلفوا بالله ليردّنه إليه ولا يُسلمونه ؛ واللام فى ﴿ لَتَأْتُنَّنِي ﴾ لام القسم . ﴿ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ قال مجاهد: إلا أن تَهْلِكوا أوتموتوا . وقال قَتادة: إلا أن تُغلبوا عليه. قال الزجاج : وهو فى موضع نصب . ﴿ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أى حافظ للحلف . وقيل : حفيظ للعهد قائم بالتدبير والعدل .

الثانيــة — هذه الآية أصل فى جواز ٱلحَمَالة(1) بالعين والوثيقة بالنفس ؛ وقد ٱختلف العلماء فى ذلك ؛ فقال مالك وجميع أصحابه وأكثر العلماء : هى جائزة إذا كان المتحمَّل به مالا . وقد ضعّف الشافعى الحَمَالة بالوجه فى المال؛ وله قول كقول مالك. وقال عثمان البَتّى: إذا تكفّل بنفس فى قصاص أو جراح فإنه إن لم يجئ به لزمه الدية وأَرْش الجراح ، وكانت له فى مال الجانى ، إذ لا قصاص على الكفيل ؛ فهذه ثلاثة أقوال فى الحمالة بالوجه . والصواب تفرقة مالك فى ذلك ، وأنها تكون فى المال ، ولا تكون فى حدّ أو تعزير ، على ما يأتى بيانه .

قوله تعالى : وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

(1) الحمالة : الكفالة .

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — لما عزموا على الخــروج خشى عليهم العين ؛ فأمرهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد، وكانت مصر لها أربعة أبواب ؛ وإنما خاف عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلا لرَجُل واحد؛ وكانوا أهل جَمال وكمال وبَسْطة ؛ قاله آبن عباس والضّحاك وقَتَادة وغيرهم .

الثانيـــة — وإذا كان هذا معنى الآية فيكون فيها دليل على التحرّز من العين ، والعين حق؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن العين لَتُدخِل الرجل القبر والجَمَل القِدْر". وفى تعوّذه عليه السلام: "أعوذ بكلمات الله التامّة من كل شيطان وهامّة ومن كل عين لَامّة" ما يدلّ على ذلك . روى مالك عن محمد بن أبى أُمامة بن سهل بن حُنيف أنه سمع أباه يقول : اغتسل أبو سهل بن حُنَيف بالخَرّار(١) فنزع جُبّة كانت عليــه ، وعامر بن ربيعة ينظر، قال : وكان سهل رجلا أبيض حسن الجلد، قال فقال له عامر بن ربيعة : ما رأيت كاليوم ولا جلد عَذْراء! ، فوُعك سهل مكانه وآشتدّ وَعْكه ، فأُتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُخبر أن سهلا وُعك ، وأنه غير رائح معك يا رسول الله ؛ فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره سهل بالذى كان من شأن عامر ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عَلَامَ يقتل أحدكم أخاه أَلَا بَرّكت(٢) إنّ العين حق توضأْ له " فتوضأ له عامر، فراح سهل مع رســول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس ؛ فى رواية " آغتسلْ " فغسل له عامر وجهه ويديه ومرفقيــه وركبتيه وأطراف رجليه وداخل إزاره فى قدح ثم صبّ عليه ؛ فراح سهل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس به بأس . وركب سعد بن أبى وقاص يوما فنظرت إليه آمرأة فقالت : إن أميركم هذا ليعلم أنه أهضم الكَشْحين؛ فرجع إلى منزله فسقط ، فبلغه ما قالت المرأة ، فأرسل إليها فغسلت له ؛ ففى هذين الحديثين أن العين حق ، وأنهـا تقتل كما قال صلى الله عليه وسلم ؛ وهــذا قول علمــاء الأمّة ، ومذهب أهل السنة ؛ وقــد أنكرته طوائف من المبتدعة ، وهم محجوجون بالسنة وإجماع علماء هذه الأمّة ، وبما يشاهد من ذلك فى الوجود؛ فكم من رجل

(١) الخرّار: ماء بالمدينة . (٢) برّك : قال بارك الله فيه ؛ وهذا القول يبطل تأثير العين وسيأتى معناه .

أدخلته العين القبر ، وكم من جمل ظهير أدخلته القدر ، لكن ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال : « وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ » . قال الأصمعى : رأيت رجلا عَيُونا سمع بقرة تحلب فأعجبه شَخْبها فقال : أيتهنّ هذه ؟ فقالوا : الفلانية لبقرة أخرى يورون عنها ، فهلكتا جميعا ، المورّى بها والمورّى عنها . قال الأصمعىّ . وسمعته يقول : إذا رأيتُ الشيء يعجبنى وجدتُ حرارة تخرج من عينىّ .

الثالثــة — واجب على كل مســلم أعجبه شيء أن يُبرِّك ؛ فإنه إذا دعا بالبركة صرف المحذور لا محالة ؛ ألا ترى قوله عليه السلام لعامر : "أَلَا بَرَّكْتَ" فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرّك العائن، وأنها إنمـا تعدو إذا لم يُبَرِّك . والتّبريك أن يقول : تبـارك الله أحسن الخالقين ! اللهم بارك فيه .

الرابعــة — العائن إذا أصاب بعينـه ولم يُبَرِّك فإنه يؤمر بالاغتسال ، ويُجبر على ذلك إن أباه؛ لأن الأمر على الوجوب، لاسيما هذا؛ فإنه قد يخاف على المَعين الهلاك، ولا ينبغى لأحد أن يمنع أخاه ما ينتفع به أخوه ولا يضره هو، ولاسيما إذا كان بسببه وكان الجانى عليه.

الخامســة — من عرف بالإصابة بالعين منع من مداخلة النـاس دفعا لضرره ؛ وقد قال بعض العلماء : يأمره الإمام بلزوم بيتـه ؛ وإن كان فقيرا رزقه ما يقوم به ، ويكفّ أذاه عن الناس . وقد قيل : إنه يُنفى؛ وحديث مالك الذى ذكرناه يرد هذه الأقوال ؛ فإنه عليه السلام لم يأمر فى عامر بحبس ولا بنفى، بل قد يكون الرجل الصالح عائنا، وأنه لا يقدح فيه ولا يفسّق به ؛ ومن قال يحبس ويؤمر بلزوم بيته فذلك احتياط ودفع ضرر، والله أعلم.

السادســة — روى مالك عن حميد بن قيس المكّى أنه قال : دُخل على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم بابنى جعفر بن أبى طالب فقال لحاضنتهما : "مالى أراهما ضَارِعين[1]" فقالت حاضنتهما : يا رسول الله ! إنه تسرع إليهما العين ، ولم يمنعنا أن نَسْتَرْقى لهما إلا أنا لا ندرى ما يوافقك من ذلك ؟ فقال رسول الله صـلى الله عليـه وسلم : "اسْتَرْقُوا لهما فإنه

(١) الضارع : النحيف الضاوى الجسم .

لو سبق شيء القدر سبقته العين " . وهـذا الحديث منقطع ، ولكنه محفوظ لأسماء بنت عُمَيس الخَثْعَمية عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة متصلة صحاح؛ وفيه أن الرُّقَى مما يُستدفع به البلاء ، وأن العين تؤثر في الإنسان وتَضْرَعه، أي تضعفه وتنحله؛ وذلك بقضاء الله تعالى وقدره . ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار، والله أعلم .

السابعــة ــ أمر صلى الله عليه وسلم في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للعين ، وأمر هنا بالاسترقاء؛ قال علماؤنا : إنما يسترقى من العين إذا لم يعرف العائن؛ وأما إذا عرف الذي أصابه بعينه فإنه يؤمر بالوضوء على حديث أبي أمامة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ أي من شيء أحذره عليكم ؛ أي لا ينفع الحذر مع القدر . ﴿ إِنِ الْحُكْمُ ﴾ أي الأمر والقضاء . ﴿ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ووثقت ﴿ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ۚ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ﴾ أي من أبواب شتى . ﴿ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ إن أراد إيقاع مكروه بهم . ﴿ إِلَّا حَاجَةً ﴾ استثناء ليس من الأول . ﴿ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾ أي خاطر خطر بقلبه؛ وهو وصيته أن يتفرقوا ؛ قال مجاهد : خشية العين ، وقد تقدّم القول فيه . وقيل : لئلا يرى الملك عددهم وقوّتهم

فيبطش بهم حسدا أو حذرا؛ قاله بعض المتأخرين، واختاره النحاس، وقال : ولا معنى للعين هاهنا . ودلت هذه الآية على أن المسلم يجب عليه أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة؛ فإن الدين النصيحة، والمسلم أخو المسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ ﴾ يعني يعقوب . ﴿ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ ﴾ أي بأمر دينه . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي لا يعلمون ما يعلم يعقوب عليه السلام من أمر دينه . وقيل : « لذو علم » أي عمل؛ فإن العلم أوّل أسباب العمل، فسمي ما هو بسببه .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾ قال قَتادة : ضمّه إليه، وأنزله معه . وقيل : أمر أن ينزل كل اثنين في منزل ، فبقي أخوه منفردا فضمّه إليه وقال : أشفقت عليه من الوحدة ، وقال له سِرًّا من إخوته : ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ ﴾ أي لا تحزن ﴿ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴾ لما عرف بنيامين أنه يوسف قال له : لا تردّني إليهم ، فقال : قد علمت اغتمام يعقوب بي فيزداد غمّه ، فأبى بنيامين الخروج ؛ فقال يوسف : لا يمكن حبسك إلا بعد أن أنسبك إلى ما لا يجمل بك : فقال : لا أبالي ! فدسّ الصاع في رحله ؛ إما بنفسه من حيث لم يَطّلع عليه أحد ، أو أَمَر بعض خواصّه بذلك . والتّجهيز التّسريح وتنجيز الأمر؛ ومنه جَهّز على الجريح أي قتله، ونجّز أمره . والسقاية والصواع شيء واحد؛ إناء له رأسان في وسطه مَقْبِض، كان الملك يشرب منه من الرأس الواحد، ويكال الطعام بالرأس الآخر؛ قاله النقاش عن ابن عباس، وكل شيء يشرب به فهو صواع؛ وأنشد :

* نَشربُ الخمرَ بالصّواع جِهارًا[1] *

واختلف في جنسه؛ فروى شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس قال : كان صواع الملك شيء من فضة يشبه المَكُّوك، من فضة مرصّع بالجوهر، يجعل على الرأس؛

(١) البيت تقدّم في ص ١٧٨ من هذا الجزء .

وكان للعباس واحد فى الجاهليـة، وسأله مالك بن الأزرق ما الصـواع؟ قال : الإناء؛ قال فيه الأعشى :

لَهُ دَرْمَكٌ فى رأسِـهِ وَمَشارِبٌ * وقِـدْرٌ وطَبَّاخٌ وصاعٌ ودَيْسَـقُ (١)

وقال عِكرمة: كان من فضة . وقال عبد الرحمن بن زيد : كان من ذهب؛ وبه كال طعامهم مبالغة فى إكرامهم . وقيل : إنمـا كان يكال به لعزّة الطعام . والصاع يذكّر ويؤنّث ؛ فمن أنّثه قال : أَصْوُع ؛ مثل أَدْوُر ، ومن ذكّره قال أَصْوَاع؛ مثـل أثواب . وقال مجاهد وأبو صالح : الصاع الطِّرْجهَالة بلغـة حِمْير . وفيـه قراءات : « صُوَاع » قراءة العـامة ؛ و «صُوْغ» بالغين المعجمة ، وهى قراءة يحيى بن يَعْمُر؛ قال : وكان إناء أُصيغ من ذهب . « وصُوع » بالعين غير المعجمة قراءة أبى رجاء . « وصُوْع » بصاد مضمومة وواو ساكنة وعين غير معجمة قراءة أبيّ . « وصُيَاع » بياء بين الصاد والألف ؛ قراءة سعيد بن جُبير . « وصاع » بألف بين الصاد والعين ؛ وهى قراءة أبى هُريرة .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُها الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ أى نادى منادٍ وأعلم . «وَأَذَّنَ» للتكثير؛ فكأنه نادى مرارا « أيتها العِير » . والعِير ما آمتير عليه من الحمير والإبل والبغال . قال مجاهـد : كان عِيرهم حميرا . قال أبو عبيدة : العِير الإبل المرحولة المركوبة ؛ والمعنى : يا أصحاب العير، كقوله : « وآسأل القرية » ويا خيل الله اركبى : أى أصحاب خيل الله ، وسيأتى . وهنا آعتراضان: الأوّل — إن قيل: كيف رضى بنيامين بالقعود طوعا وفيه عقوق الأب بزيادة الحزن ، ووافقـه على ذلك يوسف ؟ وكيف نسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم بُرَآء وهو — الثـانى — فالجواب عن الأوّل : أن الحزن كان قـد غلب على يعقوب بحيث لا يؤثّر فيه فقد بنيامين كل التأثير، أوَلا تراه لمـا فقده قال : « يا أسفا على يوسف » ولم يعرّج على بنيامين؛ ولعلّ يوسف إنما وافقه على القعود بوَحْى؛ فلا آعتراض . وأما نسبة

(١) الديسق : خوان من فضة . والبيت من قصيدة يمدح بها المحلق مطلعها .

أرقت وما هـــذا السهاد المــؤرق * وما بى من سـقم وما بى معشـــق

يوسف السرقة إلى إخوته فالجواب : أن القوم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه فى الجبّ ، ثم باعوه ؛ فاستحقّوا هذا الاسم بذلك الفعل ، فصدق إطلاق ذلك عليهم . جواب آخر — وهو أنه أراد أيتها العير حالكم حال السُّرَّاق ؛ والمعنى : إنّ شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه . جواب آخر — وهو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ؛ وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدسّ الصاع فى رحله ، ولا أخبره بنفسه . وقد قيل : إن معنى الكلام الاستفهام ؛ أى أو إنكم لسارقون ، كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » أى أو تلك نعمة تمنها علىّ ؟ والغرض ألّا يعزى إلى يوسف الكذب .

قوله تعالى : قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ . البعير هنا الجمل فى قول أكثر المفسّرين . وقيل : إنه الحمار ، وهى لغة لبعض العرب ؛ قاله مجاهد واختاره . وقال مجاهد : الزعيم هو المؤذن الذى قال : « أيتها العير » . والزعيم والكفيل والحَميل والضّمين والقَبيل سواء . والزعيم الرئيس .

قال[1] :

وإنّى زَعيمٌ إنْ رَجعتُ مُملَّكا * بِسَيْرٍ تَرَى منه الفُرانِقَ ازْوَرَا

---

(١) هو امرؤ القيس . والفرانق : سبع يصيح بين يدى الأسد كأنه ينذر الناس به ؛ وهو فارسى معرب . والأزور : المائل فى شق ؛ أى إن ملكنى قيصر فانى أسير سيرا شديدا يميل منه الفرانق من شدّته بجانب .

وقالت ليلى الأخيلية تَرثى أخاها (١) :

وَمُخَـــرَّقٍ عنهُ القميصُ تَخَـالُهُ * يومَ اللِّقَاءِ من الحيـاءِ سَقِيمَا
حَـتَّى إذا رَفَـعَ اللِّواءَ رأيتَـــهُ * [ تحتَ اللِّواءِ ] (٢) على الخَمِيسِ زَعِيمَا

الثانيـــة — إن قيل : كيف ضَمِن حمل البعير وهو مجهول ، وضمان المجهول لا يصح ؟ قيل له : حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوَسْق ؛ فصح ضمانه ، غير أنه بدل مالٍ للسارق ، ولا يحل للسارق ذلك ، فلعله كان يصحّ فى شرعهم ، أو كان هذا جعالة ، و بذل مال لمن يفتّش و يطلب .

الثالثـــة — قال بعض العلماء : فى هذه الآية دليلان : أحدهما — جواز الجُعْل وقد أجيز للضرورة ؛ فإنه يجوز فيــه من الجهالة ما لا يجوز فى غيره ؛ فإذا قال الرجل : من فعــل كذا فله كذا صحّ . وشأن الجُعْل أن يكون أحد الطرفين معلوما والآخر مجهولا للضرورة إليه ؛ بخلاف الإجارة ؛ فإنه يتقدّر فيها العوض والمعوض من الجهتين ؛ وهو من العقود الجائزة التى يجوز لأحدهما فسخه ؛ إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع و بعده ، إذا رضى بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له فى العمل . ولا يشترط فى عقد الجُعْل حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله : « وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ » و بهـذا كله قال الشافعى .

الرابعـــة — متى قال الإنسان : من جاء بعبدى الآبق فله دينار لزمه ما جعله فيه إذا جاء به ؛ فلو جاء به من غير ضمان لزمه إذا جاء به على طلب الأجرة ؛ وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "من جاء بآبق فله أر بعون درهما" ولم يفصل بين من جاء به من عقد ضمان أو غير عقد . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد ولهـذا قال أصحابنا : إن من فعل بالإنسان ما يجب عليه أن يفعله بنفسه من مصالحه لزمه ذلك ، وكان له أجر مثله إن كان ممن يفعل ذلك بالأجر .

قلت : وخالفنا فى هذا كله الشافعى .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله تَرثى تو بة . وفى صفته بخرق القميص أقوال : الأوّل — أن ذلك إشارة الى جذب العفاة له . الثانى — أنه يؤثر بجيد ثيابه فيكسوها و يكتفى بمعاوزها . الثالث — أنه غليظ المناكب ؛ و إذا كان كذلك أسرع الخرق الى قيصه . الرابع — أنه كثير الغزوات متصل الأسفار ؛ فقميصه منخرق لذلك .

(٢) كذا فى « أمالى القالى » « والشعر والشعراء » و « الحماسة » وفى الاصول : يوم الهياج .

الخامسة — الدليل الثانى — جواز الكفالة على الرجل ؛ لأن المؤذن الضامن هو غير يوسف عليه السلام . قال علماؤنا : إذا قال الرجل تحمّلت أو تكفّلت أو ضمنت أو وأنا حَميل لك أو زعيم أو كَفيل أو ضامن أو قَبيل ، أو هو لك عندى أو علىّ أو إلىّ أو قِبَلى فذلك كله حَمَالة لازمة . وقد آختلف الفقهاء فيمن تكفل بالنفس أو بالوجه؛ هل يلزمه ضمان المال أم لا؟ فقال الكوفيون: من تكفّل بنفس رجل لم يلزمه الحق الذى على المطلوب إن مات؛ وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه . وقال مالك والليث والأوزاعىّ : إذا تكفّل بنفسه وعليه مال فإنه إن لم يأت به غرم المال، ويرجع به على المطلوب؛ فإن آشترط ضمان نفسه أو وجهه وقال : لا أضمن المال فلا شىء عليه من المال؛ والحجة لمن أوجب غرم المال أن الكفيل قد علم أن المضمون وجهه لا يطلب بدم ، وإنما يطلب بمال؛ فإذا ضمنه له ولم يأته به فكأنه فوّته عليه، وعزه منه؛ فلذلك لزمه المال . وآحتج الطحاوىّ للكوفيين فقال : أما ضمان المال بموت المكفول فلا معنى له ؛ لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به .

السادسة — وآختلف العلماء إذا تكفل رجل عن رجل بمال؛ هل للطالب أن يأخذ من شاء منهما؟ فقال الثورىّ والكوفيون والأوزاعىّ والشافعىّ وأحمد وإسحق : يأخذ من شاء حتى يستوفى حقه؛ وهذا كان قول مالك ثم رجع عنه فقال : لا يؤخذ الكفيل إلا أن يفلس الغريم أو يغيب؛ لأن التبدية بالذى عليه الحق أولى، إلا أن يكون معدما فإنه يؤخذ من الحميل، لأنه معذور فى أخذه فى هذه الحالة؛ وهذا قول حسن . والقياس أن للرجل مطالبة أىّ الرجلين شاء . وقال آبن أبى ليلى : إذا ضمن الرجل عن صاحبه مالاً تحول على الكفيل وبرئ صاحب الأصل ، إلا أن يشترط المكفول له عليهما أن يأخذ أيهما شاء؛ وآحتج ببراءة الميت من الدين بضمان أبى قَتادة[1]؛ وبنحوه قال أبو ثور .

---

(١) الحديث: روى سلمة بن الأكوع أن النبى صلى الله عليه وسلم أتى بجنازة فقال : "هل عليه من دين" قالوا : نعم، قال : "هل ترك شيئا" قالوا : لا ، قال : "صلوا على صاحبكم" قال أبو قتادة : صل عليه يارسول الله وعلىّ دينه؛ فصلى عليه .

السابعـــة — الزعامة لا تكون إلا فى الحقــوق التى تجـوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان ثابتـا مستقرا ؛ فـلا تصح الحمالة بالكتابة لأنهـا ليست بدين ثابت مستقر ؛ لأن العبد إن عجز رَقّ وآنفســخت الكتابة ؛ وأما كل حق لا يقوم به أحد عن أحد كالحـدود فلا كفالة فيــه ، ويسجن المدعى عليــه الحدّ ، حتى ينظر فى أمره . وشذ أبو يوســف ومحمد فأجازا الكفالة فى الحــدود والقصاص، وقالا : إذا قال المقذوف أو المدعى القصاص بينتى حاضرة كفله ثلاثة أيام ؛ وآحتج لهم الطحاوىّ بمـا رواه حمـزة ابن عمرو عن عمر وابن مسعود وجرير بن عبد الله والأشعث أنهـم حكموا بالكفالة بالنفس بمحضر الصحابة .

قوله تعـالى : قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَــدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِــدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَـا جَزَآؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُـوَ جَزَآؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَــدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يروى أنهـم كانوا لا ينزلون على أحد ظلما، ولا يرعون زرع أحد، وأنهـم جمعوا على أفواه إبلهم الأَكِمَّـة لئلا تعيث فى زروع الناس . ثم قال : ﴿ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴾ يروى أنهم ردّوا البضاعة التى كانت فى رِحالهم؛ أى فمن ردّ ما وَجد فكيف يكون سارقا ؟! .

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا فَمَـا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ المعنى: فما جزاء الفاعل إن بان كذبكم؟ فأجاب إخوة يوسف : ﴿ جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ أى يُسْتعبَد ويُسْتَرقّ . «فجزاؤه» مبتدأ، و «مَن وُجِد فى رحله» خبره؛والتقدير: جزاؤه آستعباد مَن وُجِد فى رحله ؛ فهو كناية عن الاستعبـاد؛ وفى الجمـلة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع فهذا جزاؤه . ﴿ كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أى كذلك نفعل فى الظالمين إذا سرقوا أن يُســتَرقّوا ؛ وكان هذا من دين يعقوب عليه السلام وحكمه . وقولهم هــذا قول من لم يَسْتَرِب بنفسه ؛

لأنهم التزموا استرقاق من وجد فى رحله ، وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفى ما أخذ؛ قاله الحسن والسدّى وغيرهما .

مسألة — قد تقدّم فى سورة « المائدة »(١) أن القطع فى السرقة ناسخ لما تقدّم من الشرائع، أو لما كان فى شرع يعقوب من آسترقاق السارق، والله أعلم .

قوله تعالى : فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ إنما بدأ يوسف برحالهم لنفى التهمة والرّيبة من قلوبهم إن بدأ بوعاء أخيه . والوعاء يقال بضم الواو وكسرها، لغتان؛ وهو مايحفظ فيه المتاع ويصونه . ﴿ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ﴾ يعنى بنيامين ؛ أى آستخرج السّقاية أو الصّواع عند من يؤنث، وقال : « ولِمن جاء بِهِ » فذكر ؛ فلما رأى ذلك إخوته نكسوا رءوسهم، وظنّوا الظنون كلها، وأقبلوا عليه وقالوا : ويلك يا بنيامين ! ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لِصّين ! قال لهم أخوهم : والله ما سرقتـه ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى . ويروى أنهم قالوا له : يابنيامين! أسرقت ؟ قال : لا والله؛ قالوا : فمن جعل الصّواع فى رحلك ؟ قال : الذى جعل البضاعة فى رحالكم . ويقال : إن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجل آستغفر الله عزّ وجلّ تائبا من فعله ذلك؛ وظاهر كلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف؛ لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصّواع حتى فرغ منهم، وآنتهى إلى رَحْل بنيامين فقال : ما أظن هذا الفتى رضى بهذا ولا أخذ شيئا، فقال له إخوته : والله لا نبرح حتى تفتشه ؛ فهو أطيب لنفسك ونفوسنا ؛ ففتش فأخرج السقاية ؛ وهـذا التفتيش من يوسف يقتضى أن المؤذّن سَرّقهم برأيه ؛ فيقال : إن جميع ذلك كان بأمر من الله تعالى؛ ويقوّى ذلك قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ » .

(١) راجع جـ ٦ ص ١٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعــالى : ﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : « كِدْنَا » معناه صنعنا ؛ عن ٱبن عباس . القُتَبِيّ : دبّرنا . ٱبن الأنباري : أردنا ؛ قال الشاعر :

كادت وكدت وتلك خــيرُ إرادةٍ * لو عاد مِن عهد الصِّبا ما قــد مَضَى

وفيه جواز التوصل إلى الأغراض بالحِيل إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا ، خلافا لأبي حنيفة في تجويزه الحيل وإن خالفت الأصول، وخَرَمت التحليل .

الثانيـــة — أجمع العلمــاء على أن للرجل قبــل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة؛ وأجمعوا على أنه إذا حال الحول وأظل الساعي أنه لا يحل له التحيل ولا النقصان، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمــع بين متفرّق . وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه لزمته الزكاة عنــد الحول ، أخذا منه بقــوله عليه السلام : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " . وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبــل الحول بيوم لا يضرّه؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحــول ، ولا يتوجه إليه معنى قوله : " خَشْيَةَ الصَّدَقة " إلا حينئذ . قال ٱبن العربي : سمعت أبا بكر محمــد بن الوليد الفِهْري وغيره يقــول : كان شيخنا قاضي القضاة أبو عبد الله محمــد بن علي الدّامَغَاني صاحب عشرات آلاف من المــال، فكان إذا جاء رأس الحول دعا بنيه فقال لهم: كبِرَت سِنّي ، وضعفت قوّتي ، وهذا مال لا أحتاجه فهو لكم، ثم يخرجه فيحمله الرجال على أعناقهم إلى دورِ بنيه؛ فإذا جاء رأس الحول ودعا بنيه لأمر قالوا: يا أبانا ! إنما أملنا حياتك، وأما المــال فأيّ رغبة لنــا فيه مادمتَ حيا ؛ أنت ومالك لنــا، نخذه إليك، ويســير الرجال به حتى يضعوه بين يديه، فيرده إلى موضعه؛ يريد بتبديل الملك إسقاط الزكاة على رأي أبي حنيفة في التفريق بين المجتمع، والجمع بين المتفرّق؛ وهذا خطب عظيم؛ وقد صنف البخاريّ رضي الله عنه في جامعه كتابا مقصودا فقال : « كتاب الحِيَل » .

قلت : وترجم فيه أبوابا منها : « باب الزكاة وألا يفرّق بين مجتمع ولا يجمع بين متفرّق خشية الصدقة» . وأدخل فيه حديث أنس بن مالك، وأن أبا بكر كتب له فريضة الصدقة؛ وحديث طلحة بن عبيد الله أن أعرابيا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس، الحديث ؛ وفى آخره : " أفلح إن صَدَق " أو " دخل الجنة إن صَدَق " . وقال بعض الناس : فى عشرين ومائة بعير حِقّتان ؛ فإن أهلكها متعمدا أو وهبها أو احتال فيها فِرارا من الزكاة فلا شىء عليه؛ ثم أردف بحديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يكون كَنْز أحدكم يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ويقول أنا كَنْزك " الحديث . قال المهلّب : إنما قصد البخارى فى هذا الباب أن يعرفك أن كل حيلة يَتحيل بها أحد فى إسقاط الزكاة فإن إثم ذلك عليه ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم لما منع من جمع الغنم وتفريقها خشية الصدقة فهم منه هذا المعنى، وفهم من قوله : " أفلح إن صدق " أن من رام أن ينقص شيئا من فرائض الله بحيلة يحتالها أنه لا يفلح، ولا يقوم بذلك عذره عند الله؛ وما أجازه الفقهاء من تصرف صاحب المال فى ماله قرب حلول الحول إنما هو ما لم يرد بذلك الهرب من الزكاة ؛ ومن نوى ذلك فالإثم عنه غير ساقط، والله حسيبه ؛ وهو كمن فرّ من صيام رمضان قبل رؤية الهلال بيوم، واستعمل سفرا لا يحتاج إليه، رغبة عن فرض الله الذى كتبه الله على المؤمنين ؛ فالوعيد متوجه عليه ؛ ألا ترى عقوبة من منع الزكاة يوم القيامة بأى وجه متعمدا كيف تطؤه الإبل، ويمثل له ماله شجاعا أقرع ؟ ! وهذا يدل على أن الفرار من الزكاة لا يحل، وهو مطالب بذلك فى الآخرة .

الثالثة — قال ٱبن العربى : قال بعض علماء الشافعية فى قوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ » دليل على وجه الحيلة إلى المباح، واستخراج الحقوق؛ وهذا وَهَم عظيم؛ وقوله تعالى : « وكذلك مكّنّا لِيوسف فِى ٱلارض » قيل فيه : كما مكّنّا ليوسف مِلْك نفسه عن ٱمرأة العزيز مكّنّا له مِلْك الأرض عن العزيز، أو مثله مما لا يشبه ما ذكره . قال الشفعوى : ومثله قوله عز وجل : « وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ» وهذا ليس

حيلة، إنمـا هو حمل لليمين على الألفاظ أو على المقاصد . قال الشّفعوىّ : ومثله حديث أبى سعيد الخدرىّ فى عامل خيبر أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرٍ جَنِيب، الحديث؛ ومقصود الشافعية من هذا الحديث أنه عليه السلام أمره أن يبيع جمعا (١) ويبتاع جَنيبا من الذى باع منه الجمع أومن غيره . وقالت المـالكية : معناه من غيره؛ لئلا يكون جَنيبا بجمع، والدراهم ربا؛ كما قال ٱبن عباس : جريرة بجريرة (٢) والدراهم ربا .

قوله تعـالى : ﴿ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ أى سلطانه، عن ٱبن عباس . ابن عيسى : عادته ، أى بظلم بلا حجة . مجاهد : فى حكمه ؛ وهو ٱسترقاق السُّرّاق . ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أى إلا بأن يشاء الله أن يجعل السقاية فى رحله تَعِلّةً وعذرا له . وقال قَتادة : بل كان حكم الملك الضرب والغرم ضعفين، ولكن شاء الله أن يجرى على ألسنتهم حكم بنى إسرائيل، على ما تقدّم .

قوله تعـالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ أى بالعلم والإيمـان . وقرئ « نرفع درجاتِ من نشاء » بمعنى : نرفع من نشاء درجات ؛ وقد مضى فى « الأنعام » (٣) وقوله : ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ روى إسرائيل عن سِماك عن عِكْرِمة عن ٱبن عباس قال : يكون ذا أعلم من ذا، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم . وروى سفيان عن عبد الأعلى عن سعيد بن جُبير قال : كنا عند ٱبن عباس رحمه الله فتحدّث بحديث فتعجب منه رجل فقال : سبحان الله ! وفوق كل ذى علم عليم؛ فقال ٱبن عباس : بئس ما قلت؛ الله العليم وهو فوق كل عالم .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾

(١) الجمع : تمر مختلط من أنواع متفرقة ، وليس مرغوبا فيه . (٢) كذا فى الأصل وفى « إحكام القرآن لابن العربى » . (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَـدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْـلُ ﴾ المعنى : أى ٱقتـدى بأخيـه ، ولو ٱقتدى بنا ما سرق ؛ وإنمـا قالوا ذلك ليبرءوا من فعله ، لأنه ليس من أمّهم ؛ وأنه إن سرق فقـد جذبه عِرْق أخيـه السّارق ؛ لأن الاشتراك فى الأنساب يشاكل فى الأخلاق . وقـد ٱختلفوا فى السرقـة التى نسبوا إلى يوسف ؛ فروى عن مجاهد وغيره أن عمة يوسف بنت إسحق كانت أكبر من يعقوب ، وكانت صارت إليها مِنْطقة إسحق لسنّها ؛ لأنهـم كانوا يتوارثون بالسنّ ، وهـذا ممـا نُسِخ حكمه بشرعنا ، وكان من سَرَق ٱسْتُعبِد . وكانت عمة يوسف حضنته وأحبّته حبًّا شديدا ؛ فلما ترعرع وشَبَّ قال لها يعقوب : سلّمى يوسف إلىّ ، فلست أقدر أن يغيب عنى ساعة ؛ فولعت به ، وأشفقت من فراقه ، فقالت له : دعه عندى أياما أنظر إليه . فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى مِنطَقة إسحق فحزمتهـا على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : لقد فقدتُ مِنطَقة إسحق ، فانظـروا مَن أخذها ومَن أصابها ؛ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوا ؛ فوجدت مع يوسف . فقالت : إنه والله لى سلم أصنع فيه ما شئت ؛ ثم أتاها يعقوب فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك فهو سلمك ؛ فأمسكته حتى ماتت ؛ فبذلك عيّره إخوته فى قولهم : «إن يسرِق فقد سرق أخ له مِن قبل» . ومن ها هنا تعلّم يوسف وضع السقاية فى رَحْلِ أخيه كما عملت به عمته . وقال سعيد بن جُبير : إنما أمرته أن يسرِق صنما كان لجدّه أبى أمه ، فسرقه وكسره وألقاه على الطريق ، وكان ذلك منهما تغييرا للنكر ؛ فرموه بالسرقة وعيّروه بها ؛ وقاله قَتَادة . وفى كتاب الزجاج أنه كان صنم ذهب . وقال عطية العَوْفى : إنه كان مع إخوته على طعام فنظر إلى عَرْق[1] فخبأه فعيّروه بذلك . وقيل : إنه كان يَسرِق من طعام المـائدة للساكين ؛ حكاه ٱبن عيسى . وقيل : إنهم كذبوا عليه فيما نسبوا إليه ؛ قاله الحسن .

قوله تعـالى : ﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِـهِ وَلَمْ يُبْـدِهَا لَهُمْ ﴾ أى أسرّ فى نفسه قولهم : « إن يسرِق فقد سرق أخ له من قبل» قاله ٱبن شجرة وٱبن عيسى . وقيل : إنه أسرّ فى نفسه

(١) العرق (بالفتح) هنا القطعة من اللحم المطبوخ .

قوله : « أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا » ثم جهر فقال : «والله أعلم بما تصفون» أى الله أعلم أنّ ما قلتم كذب، وإنْ، فكانت لله رضًا . وقد قيل : إن إخوة يوسف فى ذلك الوقت ما كانوا أنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ﴾ خاطبوه باسم العزيز إذ كان فى تلك اللحظة بعزل الأوّل(1) أو موته . وقولهم : « إن له أبا شيخا كبيرا » أى كبير القدر، ولم يريدوا كبر السنّ؛ لأن ذلك معروف من حال الشيخ . « فخذ أحدنا مكانه » أى عبدًا بدَلَه؛ وقد قيل: إنّ هذا مجاز؛ لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل من قد أحكمت السنة عندهم رقّه؛ وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله : آقتلنى ولا تفعل كذاوكذا، وأنت لا تريد أن يقتلك، ولكنك مبالغ فى آستنزاله . ويحتمـل أن يكون قولهم : « فخـذ أحدنا مكانه » حقيقة؛ وبعيد عليهم وهم أنبياء أن يروا اسـترقاق حر، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمـالة؛ أى خذ أحدنا مكانه حتى ينصرف إليك صاحبك؛ ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه؛ ويعرف يعقوب جليّة الأمر؛ فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة فى الحدود ونحوها — بمعنى إحضار المضمون فقط — جائزة مع التراضى، غير لازم إذا أبى الطالب؛ وإنما الحمالة فى مثل هذا على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة، ولا يجوز إجماعا . وفى « الواضحة » أن الحمالة فى الوجه فقط فى الحدود جائزة، إلا فى النفس . وجمهور الفقهاء على جواز الكفالة فى النفس . وآختلف فيها عن الشافعىّ؛ فمـرّة ضعّفها، ومرّة أجازها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بمـا رأوا من إحسانه فى جميع أفعاله معهم، ويحتمل أن يريدوا : إنا نرى لك إحسانا علينا فى هذه اليد إن أسديتها إلينا؛ وهذا تأويل آبن إسحق .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ مصدر . ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ فى موضع نصب؛ أى من أن نأخذ . ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا ﴾ فى موضع نصب بـ«نأخذ» . ﴿ مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ ﴾ أى معاذ الله أن نأخذ البرىء، بالمجرم، ونخالف ما تعاقدنا عليه . ﴿ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴾ أى أن نأخذ غيره .

---

(1) هو قطفير .

قوله تعالى : فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ ﴾ أى يَئِسوا ؛ مثل عَجِب واستعجب ، وسَخِر واستسخر . ﴿ خَلَصُوا ﴾ أى انفردوا وليس هو معهم . ﴿ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال من المضمر فى « خلصوا » وهو واحد يؤدّى عن جمع ، كما فى هذه الآية ؛ ويقع على الواحد كقوله تعالى : « وقرَّبناه نَجِيًّا » وجمعه أَنْجِيَة ؛ قال الشاعر[(١)] :

إِنِّى إِذا ما القـــومُ كانوا أَنْجِيَـــهْ * وَاضْطَرَبَ القومُ اضطِرابَ الْأَرْشِيَهْ
* هُنَاكَ أَوْصِـــينِى وَلَا تُوصِى بِيَـــهْ *

وقرأ ابن كثير « اسْتَايَسُـوا » « وَلَا تَايَسُــوا » « إِنه لَا يَايَسُ » « أَفَلَمْ يَايَس » بألف من غير همز على القلب ؛ قدّمت الهمزة وأخّرت اليـاء ، ثم قلبت الهمزة ألفـا لأنها ساكنة قبلها فتحة ؛ والأصل قراءة الجماعة ؛ لأن المصدر ما جاء إلا على تقديم اليـاء — يأسا — والإياس ليس بمصـدر أَيِسَ ، بل هو مصدر أُسْتُهُ أَوْسًا وإِيَاسًا أى أعطيته . وقال قوم : أَيِس وَيئِس لغتان ؛ أى فلما يئسوا من ردّ أخيهم إليهم تشاوروا فيما بينهم لا يخالطهم غيرهم من الناس ، يتناجون فيما عَرَض لهم . والنَّجِىّ فعيل بمعنى المناجى .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَبِيرُهُمْ ﴾ قال قَتَادة : هو روبيل ، كان أكبرهم فى السنّ . مجاهد : هو شمعون ، كان أكبرهم فى الرأى . وقال الكلبىّ : يهوذا ؛ وكان أعقلهم . وقال محمد ابن كعب وابن إسحق : هو لَاوَى ، وهو أبو الأنبياء . ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ

---

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى يصف قوما أتعبهم السير والسفر ، فرقدوا على ركابهم ، واضطربوا عليها ، وشدّ بعضهم على ناقته حذار سقوطه . وقيل : إنما ضربه مثلا لنزول الأمر المهم . والأرشية الحبال التى يستق بها ، والمراد أنه ثابت الجأش . و ( أوصينى ولا توصى ) بالياء لأنه يخاطب مؤنثا .

مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ ﴾ أى عهدا من الله فى حفظ آبنه، وردّه إليه. ﴿ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ « ما » فى محل نصب عطفا على « أَنّ » والمعنى : ألم تعلموا أنّ أباكم قـد أخذ عليكم موثقا من الله، وتعلموا تفريطكم فى يوسف ؛ ذكره النحاس وغيره . و « مِن » فى قوله : « ومِن قبل» متعلقة بـ«تعلموا» . ويجوز أن تكون«ما» زائدة؛ فيتعلق الظرفان اللذان هما «من قبل» و « فى يوسف » بالفعل وهو «فرّطتم» . ويجوز أن تكون «ما» والفعل مصدرا، و « من قبل » متعلقا بفعل مضمر ؛ التقـدير : تفريطكم فى يوسـف واقع من قبل ؛ فـما والفعل فى موضع رفع بالابتداء، والخبر هو الفعل المضمر الذى يتعلق به « من قبل » . ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ ﴾ أى ألزمها، ولا أبرح مقيما فيهـا ؛ يقال : بَرِحَ بَرَاحًا وبُرُوحا أى زال، فإذا دخل النفى صار مثبتا . ﴿ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع فإنى أستحى منه . ﴿ أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ﴾ بالممرّ مع أخى فأمضى معه إلى أبى . وقيل : المعنى أو يحكم الله لى بالسيف فأحارب وآخذ أخى ، أو أعجز فأنصرف بعذر، وذلك أن يعقوب قال : «لتأتنّنى بِهِ إلا أن يحاط بكم» ومن حارب وعَجَز فقد أحيط به؛ وقال ابن عباس : وكان يهوذا إذا غضب وأخذ السيف فلا يردّ وجهه مائة ألف؛ يقوم شـعره فى صدره مثل المَسَالّ فتنفذ من ثيابه . وجاء فى الخبر أن يهوذا قال لأخوته — وكان أشدّهم غضبا — : إما أن تكفونى الملِك ومن معـه أكفكم أهل مصر؛ وإما أن تكفونى أهل مصر أكفكم الملِك ومن معه؛ قالوا: بل آكفنا الملك ومن معه نكفك أهــل مصر؛ فبعث واحدا من إخوته فعدّوا أسواق مصر فوجدوا فيها تسعة أسواق، فأخذ كل واحد منهم سوقا؛ ثم إن يهوذا دخل على يوسف وقال : أيها الملك ! لئن لم تخـلِّ معنا أخانا لأصيحن صيحة لا تُبقى فى مدينتك حاملا إلا أسقطت ما فى بطنها ؛ وكان ذلك خاصا فيهم عند الغضب، فأغضبه يوسف وأسمعه كلمة، فغضب يهوذا وآشتدّ غضبه ، وآنتفجت شعراته؛ وكذا كان كل واحد من بنى يعقوب؛ كان إذا غضب، آقشعر جلده، وانتفخ جسده، وظهرت شعرات ظهره من تحت الثوب، حتى تقطر من كل شـعرة قطرة دم؛ وإذا ضرب الأرض برجله تزلزلت وتهـدّم البنيان ، وإن صاح صيحة لم تسمعه حامل من النساء والبهائم

والطير إلا وضعت ما فى بطنها، تماما أو غير تمام؛ فلا يهدأ غضبه إلا أن يسفك دما، أو تمسكه يد من نسل يعقوب ؛ فلما علم يوسف أن غضب أخيه يهوذا قد تمّ وكمل كلّم ولدا له صغيرا بالقبطية، وأمره أن يضع يده بين كتفى يهوذا من حيث لا يراه ؛ ففعل فسكن غضبه وألقى السيف، فالتفت يمينا وشمالا لعله يرى أحدا من إخوته فلم ير ؛ فخرج مسرعا إلى إخوته وقال : هل حضرنى منكم أحد؟ قالوا : لا ! قال : فأين ذهب شمعون ؟ قالوا : ذهب إلى الجبل؛ فخرج فلقيه، وقد آحتمل صخرة عظيمة ؛ قال : ما تصنع بهذه ؟ قال : أذهب إلى السوق الذى وقع فى نصيبى أشدخ بها رءوس كل من فيه؛ قال : فارجع فردّها أو فألقها فى البحر، ولا تحدثنّ حَدَثا؛ فوالذى آتخذ إبراهيم خليلا ! لقد مَسّنى كَفٌّ من نَسْل يعقوب؛ ثم دخلوا على يوسف، وكان يوسف أشدّهم بطشا، فقال : يامعشر العبرانيين ! أتظنون أنه ليس أحد أشدّ منكم قوة، ثم عمد إلى حجر عظيم من حجارة الطاحون فركَلَه برجله فدحا به من خلف الجدار — الرَّكْلُ الضرب بالرجل الواحدة؛ وقد رَكَله يَركُله؛ قاله الجوهرى — ثم أمسك يهوذا بإحدى يديه فصَرَعه، وقال : هات الحدادين أقطع أيديهم وأرجلهم وأضرب أعناقهم، ثم صعد على سريره، وجلس على فراشه، وأمر بصُواعِه فوضع بين يديه، ثم نقره نقرة فخرج طنينه، فالتفت إليهم وقال : أتدرون ما يقول؟ قالوا : لا ! قال : فإنه يقول : إنه ليس على قلب أبى هؤلاء همّ ولا غمّ ولا كرب إلا بسببهم، ثم نقر نقرة ثانية وقال : إنه يخبرنى أن هؤلاء أخذوا أخًا لهم صغيرا فحسدوه ونزعوه من أبيهم ثم أتلفوه؛ فقالوا : أيها العزيز! آستر علينا ستر الله عليك، وآمنن علينا منّ الله عليك ؛ فنقره نقرة ثالثة وقال إنه يقول : إن هؤلاء طرحوا صغيرهم فى الجبّ، ثم باعوه بيع العبيد بثمن بخس، وزعموا لأبيهم أن الذئب أكله ؛ ثم نقره رابعة وقال : إنه يخبرنى أنكم أذنبتم ذنبا منذ ثمانين سنة لم تستغفروا الله منه ؛ ولم تتوبوا إليه؛ ثم نقره خامسة وقال إنه يقول : إن أخاهم الذى زعموا أنه هلك لن تذهب الأيام حتى يرجع فيخبر الناس بما صنعوا؛ ثم نقر سادسة وقال إنه يقول : لو كنتم أنبياء أو بنى أنبياء ما كذبتم ولا عققتم والدكم؛ لأجعلنّكم نكالا للعالمين . آيتونى بالحدّادين أقطع

أيديهـم وأرجلهم ، فتضرّعوا و بكوا وأظهروا التوبة وقالوا : لو قد أصبنا أخانا يوسـف إذ هو حيّ لنكونن طوع يده، وترابا يطأ علينا برجله ؛ فلمـا رأى ذلك يوسف من إخوته بكى وقال لهم : آخرجواعنى ! قد خلّيت سبيلكم إكراما لأبيكم، ولولا هو لجعلتكم نكالا .

قوله تعـالى : ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱرْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ ﴾ قاله الذى قال : « فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ » . ﴿ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ ﴾ وقرأ آبن عباس والضحاك وأبو رَزين « إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » . النحاس : وحدثنى محمد بن أحمد بن عمر قال حدّثنا ابن شَاذان (١) قال حدّثنا أحمد بن أبى سُرَيج البغدادىّ قال : سمعت الكسائىّ يقرأ « يَا أَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ سُرِّقَ » بضم السين وتشديد الراء مكسورة؛ على مالم يُسمّ فاعله ؛ أى نُسب إلى السرقة ورُمى بها ؛ مثل خوّنته وفسّقته و بخّرته إذا نسبته إلى هذه الخلال . وقال الزجاج : « سُرِّقَ » يحتمل معنيين : أحدهما — علم منه السَّرَق، والآخر — آتهم بالسَّرَق . قال الجوهرى : والسَّرِق والسَّرِقة بكسر الراء فيهما هو آسم الشىء المسروق ، والمصدر سَرَق يَسْرِق سَرَقًا بالفتح .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا » يريدون ما شهدنا قطّ إلا بما علمنا ، وأما الآن فقـد شهدنا بالظاهر وما نعـلم الغيب ؛ كأنهم وقعت لهم تهمة من قول بنيامين : دَسّ هذا فى رحلى مَن دَسّ بضاعتكم فى رحالكم ؛ قال معناه ابن إسحق . وقيل المعنى : ماشهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرقّ إلا بما علمنا من دينك ؛ قاله آبن زيد . ﴿ وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ أى لم نعلم وقت أخذنا منك أنه يَسْرِق فلا نأخذه . وقال مجاهد وقتادة : ما كنا

(١) هو العباس بن الفضل بن شاذان، كما فى « غاية النهاية » .

نعلم أن ٱبنك يُسترقّ و يصير أمرنا إلى هـذا، وإنما قلنا : نحفظ أخانا فيما نطيق . وقال ٱبن عباس : يعنون أنه سَرَق ليلا وهم نيام، والغيب هو الليل بلغة حِمْير ؛ وعنه : ما كنا نعلم ما يصنع في ليله ونهاره وذهابه و إيابه . وقيل : ما دام بمرأى منا لم يجر خَلَل ، فلما غاب عنا خفيت عنا حالاته . وقيل معناه : قد أخذت السَّرقة من رَحْله ، ونحن أخرجناها وننظر إليها ، ولا علم لنا بالغيب ، فلعلهم سَرَّقوه ولم يَسرِق .

الثانيــة — تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ؛ فإن الشهادة مرتبطة بالعلم عقلا وشرعا ، فلا تسمع إلا ممن عَلِم ، ولا تقبل إلا منهم ، وهـذا هو الأصل في الشهادات ، ولهـذا قال أصحابنا : شهادة الأعمى جائزة ، وشهادة المستمع جائزة ، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة ، وكذلك الشهادة على الخطّ — إذا تيقّن أنه خطّه أو خطّ فلان — صحيحة ؛ فكل من حصل له العلم بشيء جاز أن يشهد به و إن لم يُشهِده المشهود عليه ؛ قال الله تعـالى : « إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا أُخبركم بخير الشهداء خيرُ الشهداء الذي يأتي بشهادته قبـل أن يُسألها " وقد مضى في " البقرة "[1] .

الثالثـة — ٱختلف قول مالك في شهادة المرور ، وهو أن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا ؛ فإن ٱستوعب القول شهد في أحد قوليه ، وفي القول الآخر لا يشهد حتى يُشهداه ؛ والصحيح أن الشهادة عند الاستيعاب ، و به قال جماعة العلماء ، وهو الحق ؛ لأنه حصل المطلوب ، وتعيّن عليه أداء العلم ؛ فكان خير الشهـداء إذا أعلم المشهود له ، وشر الشهداء إذا كتمها .

الرابعـة — إذا ٱدّعى رجل شهادة لا يحتملها عمره رُدّت ؛ لأنه ٱدّعى باطلا فأكذبه العِيَان ظاهرا .

قوله تعـالى : وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٩٩ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى: ﴿ وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ﴾ حقّقوا بها شهادتهم عنده، ورفعوا التهمة عن أنفسهم لئلا يتهمهم بقولهم . « وآسأل القرية » أى أهلها ؛ فحذف؛ ويريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وآمتاروا منها . وقيل المعنى : «وآسأل القرية» وإن كانت جمادا، فأنت نبيّ الله، وهو يُنطق الجماد لك؛ وعلى هذا فلاحاجة إلى إضمار؛ قال سيبويه : ولا يجوز كلِّم هندا وأنت تريد غلام هند؛ لأن هذا يُشكل . والقول فى العير كالقول فى القرية سواء. ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ فى قولنا .

الثانيــة — فى هذه الآية من الفقه أن كل من كان على حقّ، وعَلِم أنه قد يظُنّ به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهّم أن يرفع التهمة وكلّ ريبة عن نفسه ، ويصرّح بالحق الذى هو عليه، حتى لا يبقى لأحد مُتكلَّم ؛ وقد فعل هذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله للرجلين اللذين مرّا وهو قد خرج مع صفية يَقْلِبُها(١) من المسجد على رِسْلِكما إنما هى صفية بنت حُيَيّ فقالا : سبحان الله ! وكَبُر عليهما ؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدّم وإنى خَشِيت أن يَقذِف فى قلوبكما شيئا " رواه البخارى ومسلم .

قوله تعالى : قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ ﴾ أى زيّنت. ﴿ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ ﴾ أن آبنى سَرَق وما سَرَق، وإنما ذلك لأمر يريده الله. ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أى فشأنى صبر جميل؛ أو صبر جميل أولى بى، على ما تقدّم أوّل السورة .

---

(١) يقلبها : يردّها .

الثانيــة — الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه فى نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميــل، والرضا والتسليم لمجريه عليه وهو العليم الحكيم، و يقتدى بيعقوب وسائر النبيين، صلوات الله عليهم . وقال سعيد بن أبى عَرُوبة عن قَتَادة عن الحسن قال : ما من جرعتين يتجرّعهما العبد أحبّ إلى الله من جرعة مصيبة يتجرّعها العبد بحسن صبر وحسن عَزَاء، وجرعة غيظ يتجرعها العبد بحلم وعفو . وقال آبن جُريج عن مجاهــد فى قوله تعالى : «فصبر جميــل » أى لا أشكو ذلك إلى أحد . وروى مقاتل بن سليمان عن عطاء بن أبى رَبَاح عن أبى هُريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ بَثَّ لم يَصْبِر"(١). وقد تقدّم فى «البقرة» أن الصبر عند أول الصّدمة، وثواب من ذكر مصيبته وآسترجع و إن تقادم عهدها . وقال جُوَيبر عن الضحّاك عن ابن عباس قال : إن يعقوب أُعطى على يوســف أجر مائة شهيد، وكذلك من آحتسب من هذه الأمة فى مصيبته فله أجر يعقوب عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ لأنه كان عنده أن يوسف صلى الله عليه وسلم لم يمت، و إنمــا غاب عنه خبره؛ لأن يوسف حُمِل وهو عبد لا يملك لنفسه شيئا، ثم آشتراه الملك فكان فى داره لا يظهر للنــاس، ثم حُبس، فلما تمكن آحتال فى أن يعــلم أبوه خبره؛ ولم يُوجّه برسول لأنه كره من إخوته أن يعرفوا ذلك، فلا يدعوا الرسول يَصلُ إليه . وقال : «بهم» لأنهم ثلاثة؛ يوسف وأخوه، والمتخلّف من أجل أخــيه، وهو القائل : «فلن أبرح الأرض» . ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ ﴾ بحالى . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فيما يقضى .

قوله تعــالى : وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾

فيــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ أى أعرض عنهم؛ وذلك أن يعقوب لمــا بلغه خبر بنيامين تَتَامَّ حزنه، وبلغ جهــده، وجدّد الله مصيبتــه له فى يوسف فقال : ﴿ يَا أَسَفَا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٧٤، ١٧٥ طبعة ثانية .

عَلَى يُوسُفَ ﴾ ونَسِىَ ٱبنه بنيامين فلم يذكره؛ عن ٱبن عباس . وقال سعيد بن جُبير : لم يكن عند يعقوب ما فى كتابنا من الاسترجاع ، ولو كان عنده لمـا قال : « يا أسفا على يوسف » . قال قَتَادة والحسن : والمعنى يا حزناه ! وقال مجاهد والضحاك : يا جزعاه ! ؛ قال كُثَيِّر :

فيا أَسفا للقلب كيف ٱنصرافُهُ ✱ وللنَّفْسِ لمـّا سُلِّيت فَتَسـلَّتِ

والأسف شدّة الحزن على ما فات . والنداء على معنى : تعال يا أسف فإنه من أوقاتك . وقال الزجاج : الأصل يا أسفِى ؛ فأبدل من الياء ألف لخفة الفتحة . ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ ﴾ قيل : لم يبصر بهما ست سنين ، وأنه عَمِىَ ؛ قاله مقاتل . وقيل : قد تبيضّ العين ويبقى شىء من الرؤية ، والله أعلم بحال يعقوب ؛ وإنما ٱبيضّت عيناه من البكاء ، ولكن سبب البكاء الحزن ، فلهذا قال : « من الحزن » . وقيل : إن يعقوب كان يصلّى ، ويوسف نائما معترضا بين يديه ، فَغطَّ فى نومه ، فالتفت يعقوب إليه ، ثم غَطَّ ثانية فالتفت إليـه ، ثم غَطَّ ثالثـة فالتفت إليـه سرورا به وبغطيطه ؛ فأوحى الله تعالى إلى ملائكته « ٱنظروا إلى صَفيّى وٱبن خليلى قائمـا فى مناجاتى يلتفت إلى غيرى ، وعِزّتى وجَلَالى ! لأنزعنّ الحدقتين اللتين التفت بهما ، ولأفرقنّ بينه وبين من التفت إليـه ثمانين سنة ؛ ليعلم العالمون أن من قام بين يدىّ يجب عليه مراقبة نظرى » .

الثانيـــة ــــ هذا يدلّ على أن الالتفات فى الصلاة ــــ وإن لم يُبطل ــــ يدلّ على العقوبة عليها ، والنقص فيها ، وقد رَوى البخارى عن عائشة قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الالتفات فى الصلاة فقال : ” هو ٱختلاس يختاسه الشيطان من صلاة العبـد “ . وسيأتى ما للعلماء فى هذا فى أوّل سورة « المؤمنين » موعبا إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــــ قال النحاس : فإن سأل قـوم عن معنى شـدّة حزن يعقوب ــــ صلى الله عليه وسلم وعلى نبينا ــــ فللعلماء فى هـذا ثلاثة أجوبة : منها ــــ أن يعقوب صلى الله عليـه وسلم لمـا علم أن يوسف صلى الله عليه وسلم حَىٌّ خاف على دِينه ، فاشتدّ حزنه لذلك . وقيل : إنما حزن لأنه سلّمه إليهم صغيرا ، فندم على ذلك . والجواب الثالث ــــ وهو أبينها ــــ هو أن

الحزن ليس بمحظـور، وإنما المحظور الوَلْوَلة وشقّ الثياب ، والكلام بما لا ينبغي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " تدمع العين ويَحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الربّ " . وقد بيّن الله جلّ وعزّ ذلك بقوله : ﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي مكظوم مملوء من الحزن ممسك عليه لا يَبثّه؛ ومنه كَظْم الغيظ وهو إخفاؤه ؛ فالمكظوم المسدود عليه طريق حزنه؛ قال الله تعالى : « إذ نادى وهو مكظوم » أي مملوء كربا . ويجوز أن يكون المكظوم بمعنى الكاظم ؛ وهو المشتمل على حزنه . وعن ابن عباس : كظيم مغموم؛ قال الشاعر :

فإنْ أَكُ كاظِمًا لِمُصَابِ شَاسٍ * فإنّي اليــومَ مُنطلِقٌ لساني

وقال ابن جُريج عن مجاهد عن ابن عباس قال : ذهبت عيناه من الحزن « فهو كظيم » قال : فهو مكروب . وقال مقاتل بن سليمان عن عطاء عن ابن عباس في قوله : «فهو كظيم» قال : فهو كَمِد ؛ يقول : يعلم أن يوسف حيّ ، وأنه لا يدري أين هو ؛ فهو كَمِد من ذلك . قال الجوهري : الكَمَد الحزن المكتوم؛ تقول منــه كَمِد الرجلُ فهو كَمِدٌ وكَمِيدٌ . النحاس : يقال فلان كظيم وكاظم؛ أي حزين لا يشكو حزنه؛ قال الشاعر :

فَحَضَضْتُ قَوْمِي واحتسبتُ قِتالَهُمْ * والقومُ مِن خوف المَنَايا كُظَّمُ

قوله تعـالى : قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي قال له ولده : «تا لله تفتا تذكر يوسف» قال الكسائي : فَتَأْتُ وفَتِئْتُ أفعــل ذلك؛ أي مازلتُ . وزعم الفراء أن «لا» مضمر؛ أي لا تفتا ، وأنشد[1] :

فقلتُ يمينُ الله أبرحُ قاعدًا * ولو قطعُوا رأسي لدَيك وأَوصَالِي

(١) البيت لامرئ القيس و « يمين » بالرفع على الابتــداء وإضمار الخبر ؛ والتقدير : يمين الله لازمني ؛ وبالنصب على إضمار فعل ، وهو كثير في كلام العرب كقولهم : أمانة الله . وقد وصف أنه طرق محبوبته فخوفته الرقباء ، وأمرته بالانصراف ، فقال لها هــذا ، وأراد : لا أبرح فحذف « لا » . والأوصال (جمع وصل) وهي المفاصل .

أى لا أبرح ؛ قال النحاس : والذى قال حسن صحيح . وزعم الخليل وسيبويه أن «لا» تضمر في القسم، لأنه ليس فيه إشكال ؛ ولو كان واجبا لكان باللام والنون؛ وإنما قالوا له ذلك لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك؛ يقال : ما زال يفعل كذا، وما فتِئَ وفَتَأَ فهما لغتان، ولا يستعملان إلا مع الجحد؛ قال الشاعر (١) :

فما فَتِئَتْ حتّى كأنّ غُبَارَها (٢) * سُرَادِقُ يومٍ ذى رياحٍ تُرَفَّعُ

أى ما برِحت فتفتأ تبرح . وقال ٱبن عباس : تزال . ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أى تالفا . وقال ابن عباس ومجاهد : دَنِفا من المرض، وهو ما دون الموت؛ قال الشاعر :

سَرَى هَمِّى فأمرضَنِى * وقِدْمًا زادنى مَرَضَا

كذاكَ الحبُّ قبلَ اليو * مِ ممّا يُورِثُ الحَرَضَا

وقال قَتَادة : هرِما . الضحاك : باليًا دائرًا . محمد بن إسحق : فاسدا لاعقل لك . الفراء : الحارض الفاسد الجسم والعقل؛ وكذا الحَرَض . ابن زيد : الحَرَض الذى قد رُدّ إلى أرذل العمر . الربيع بن أنس : يابس الجلد على العظم . المؤرِّج : ذاهبا من الهمّ . وقال الأخفش : ذاهبا . ٱبن الأنبارىّ : هالكا، وكلها متقاربة . وأصل الحَرَض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهرَم، عن أبى عُبيدة وغيره؛ وقال العَرْجِىّ :

إنِّى ٱمرؤٌ لَجَّ بِى حُبٌّ فأحْرَضَنِى * حتّى بَلِيتُ وحتى شَفَّنِى السَّقَمُ

قال النحاس : يقال حَرَضَ حَرَضًا وحَرُض حُرُوضا وحُرُوضةً إذا بلِى وسقِم ، ورجل حارِض وحَرَض ، إلا أن حَرَضا لا يثنى ولا يجمع ، ومثله قَمِن وحَرِىّ لايثنيان ولا يجمعان . الثعلبىّ : ومن العرب من يقول حارِض للذكر، والمؤنثة حارِضة، فإذا وصف بهذا اللفظ ثنّى وجمع وأنّث . ويقال : حَرِض يَحرَض حَرَاضةً فهو حَرِيض وحَرِضٌ . ويقال: رجل مُحْرَض، ويُنْشَد :

طَلَبَتْهُ الخيلُ يومًا كاملا * ولَوَ ٱلْفَتْهُ لأَضْحَى مُحْرَضَا

(١) هو أوس بن حجر التميمى الجاهلى . (٢) الضمير للخيل .

وقال آمرؤ القيس :

أَرَى المرءَ ذا الأَذْوَاد يُصبِحُ مُحْرَضًا * كإِحْرَاضِ بِكْرٍ فى الدِّيارِ مَرِيضِ (١)

قال النحاس : وحكى أهل اللغة أحرضه الهمّ إذا أسقمه ، ورجل حارض أى أحمق . وقرأ أنس «حُرضا» بضم الحاء وسكون الراء ، أى مثل عود الأُشْنَان . وقرأ الحسن بضم الحاء والراء . قال الجوهرى : الحَرَض والحُرُض الأُشْنَان . ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ﴾ أى الميّتين ، وهو قول الجميع؛ وغرضهم منع يعقوب من البكاء والحزن شفقة عليه ، وإن كانوا السبب فى ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى ﴾ حقيقة البثّ فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها ؛ وهو من بثثته أى فرقته ، فسميت المصيبة بَثًّا مجازا ؛ قال ذو الرُّمّة :

وَقَفْتُ على رَبع لِمَيَّةَ نَاقَتِى * فما زِلْتُ أَبْكِى عِنْدهُ وأُخَاطِبُهْ

وأَسْقِيه حتى كاد مما أُبِثُّهُ * تُكَلِّمُنِى أَحْجَارُهُ ومَلاعِبُه (٢)

وقال ابن عباس : « بَثِّى » هَمِّى . الحسن : حاجتى . وقيل : أشد الحزن ، وحقيقته ما ذكرناه . ﴿ وَحُزْنِى إِلَى ٱللَّهِ ﴾ معطوف عليه ، أعاده بغير لفظه . ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى أعلم أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنى سأسجد له . قاله آبن عباس . وقَتَادة : إنى أعلم من إحسان الله تعالى إلىّ ما يوجب حسن ظنى به . وقيل : قال يعقوب لملك الموت هل قبضت رُوح يوسف ؟ قال : لا ، فأكّد هذا رجاءه . وقال السدّى : أعلم أن يوسف حىّ ، وذلك أنه لما أخبره ولده بسيرة الملك وعدله وخُلُقه وقوله أحسّت نَفْس يعقوب أنه ولده فطمع ، وقال : لعله يوسف .

قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

(١) الأذواد : جمع ذود ، وهو القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع . والبكر : الفتى من الإبل ؛ يقول : أرى المرء ذا المال يدركه الهرم والمرض ، والفناء بعد ذلك فلا تغنى كثرة ماله ، كما أن البكر يدركه ذلك .

(٢) أسقيه : أدعو له بالسقيا .

قوله تعـالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ هـذا يدل على أنه تيقن حياته ؛ إما بالرؤيا ، و إما بإنطاق الله تعـالى الذئب كما فى أوّل القصـة ، و إما بإخبار مَلَك الموت إياه بأنه لم يقبض رُوحه ؛ وهو أظهر . والتَّحسُّس طلب الشيء بالحواسّ ؛ فهو تفعّل من الحِسّ ، أى اذهبوا إلى هذا الذى طلب منكم أخاكم ، وٱحتال عليكم فى أخذه فاسألوا عنه وعن مذهبه ؛ و يروى أن مَلَك الموت قال له : ٱطلبه من هاهنا ! وأشار إلى ناحيـة مصر . وقيل : إن يعقوب تنبه على يوسف بردّ البضاعة ، وٱحتباس أخيه ، و إظهار الكرامة ؛ فلذلك وجّههم إلى جهـة مصر دون غيرها . ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾ أى لا تقنطوا من فرج الله ؛ قاله ٱبن زيد ؛ يريد : أن المؤمن يرجو فرج الله ، والكافر يقنط فى الشدّة . وقال قَتَادة والضحاك : من رحمة الله . ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس، وسيأتى فى « الزُّمَر »(1) بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ ﴾ أى الممتنع . ﴿ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ هذه المرة الثالثة من عودهم إلى مصر؛ وفى الكلام حذف، أى فخرجوا إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف قالوا : « مَسَّنَا » أى أصابنا « وأهلنا الضُّر » أى الجوع والحاجة؛ وفى هذا دليل على جواز الشكوى عند الضُّر، أى الجوع؛ بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضّر من الفقر وغيره أن يبـدى حالته إلى من يرجو منه النفع؛ كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجـه؛ ولا يكون ذلك قدحا فى التوكل، وهـذا ما لم يكن التشكى على سبيل التّسخط؛ والصبر والتّجلد فى النّوائب أحسن، والتّعفف عن المسئلة أفضل؛ وأحسن الكلام

(1) فى تفسير قوله تعالى : « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ... » آية ٥٣ من السورة المذكورة .

فى الشّكوى سؤال المولى زوال البلوى ؛ وذلك قول يعقوب : « إنما أشكو بثّى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون » أى من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده ؛ فأما الشّكوى على غير مُشْكٍ فهو السّفه ، إلا أن يكون على وجه البثّ والتّسلّى ؛ كما قال ٱبن دُرَيْد :

لَا تَحْسَبَنْ يا دهرُ أنّى ضارِعٌ * لِنَكْبةٍ تَعْرِقُنِى عَرْقَ الْمُدَى

مَارَسْتَ مَنْ هَوَتِ الأفلاكُ مِنْ * جَوَانِبِ الجوّ عليه ما شَكَا

لكنّها نَفْثَةُ مَصْدورٍ إذا * جَاشَ لُغَامٌ (١) مِن نَوَاحِيهَا غَمَا

قوله تعالى : ﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ ﴾ البضاعة القطعة من المال يقصد بها شراء شىء ؛ تقول : أبضعت الشىء وٱستبضعته أى جعلته بضاعة ؛ وفى المثل : كمستبضع التمر إلى هَجَر (٢) .

قوله تعالى : ﴿ مُزْجَاةٍ ﴾ صفة لبضاعة ؛ والإزجاء السَّوْق بدفع ؛ ومنه قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا » والمعنى أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد . قال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامّة . وٱختلف فى تعيينها ؛ فقيل : كانت قَدِيدَ وَحْشٍ ؛ ذكره الواقدىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . وقيل : خَلَقُ الغَرَائرِ والحبال ؛ روى عن ٱبن عباس . وقيل : متاع الأعراب صوف وسمن ؛ قاله عبد الله بن الحارث . وقيل : الحبة الخضراء والصَّنَوْبر وهو البُطْم ، حبّ شجرٍ بالشام ، يؤكل و يعصر الزيت منه لعمل الصابون ؛ قاله أبو صالح ؛ فباعوها بدراهم لا تَنفُق فى الطعام ، وتَنْفق فيما بين الناس ؛ فقالوا : أخذها منا بحساب جيادٍ تَنفُق فى الطعام . وقيل : دراهم رديئة ؛ قاله ٱبن عباس أيضا . وقيل : ليس عليها صورة يوسف ، وكانت دراهم مصر عليها صورة يوسف . وقال الضحاك : النعال والأدم ؛ وعنه كانت سويقا منخلا . والله أعلم .

---

(١) اللغام : الزبد ؛ وهو ما يلقيه البعير من فه ؛ وغما : سقط ؛ يقال : غما البعير الزبد إذا رماه بنفض رأسه ومشفره .
(٢) هجر : مدينة بالبحرين .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ .

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فأوفِ لنا الكيل » يريدون كما تبيع بالدراهم الجياد لا تنقصنا بمكان دراهمنا ؛ هذا قول أكثر المفسرين . وقال آبن جُرَيج : « فأوف لنا الكيل » يريدون الكيل الذى كان قد كاله لأخيهم . « وتصدق علينا » أى تفضل علينا بمـا بين سعر الجياد والرديئة ، قاله سعيد بن جُبَير والسدّىّ والحسن ؛ لأن الصدقة تحرم على الأنبياء . وقيل المعنى : « تصدّق علينا » بالزيادة على حقّنا ؛ قاله سفيان بن عُيَيْنة . قال مجاهد : ولم تحرم الصـدقة إلا على نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم . وقال آبن جُرَيج : المعنى « تصـدّق علينا » بردّ أخينا إلينا . وقال آبن شجرة : « تصدّق علينا » تجوّز عنا ؛ وآستشهد بقول الشاعر :

تَصدَّقْ علينا يا آبنَ عَفَّانَ وآحْتَسِبْ * وأَمِّرْ علينـا الأشـــعرىّ لَيَـالِيا

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ يعنى فى الآخرة ؛ يقال : هذا من مَعَاريض الكلام ؛ لأنه لم يكن عندهم أنه على دينهم ، فلذلك لم يقولوا : إن الله يجزيك بصدقتك ، فقالوا لفظا يوهمه أنهم أرادوه ، وهم يصح لهم إخراجه بالتأويل ؛ قاله النقاش . وفى الحديث : " إن فى المَعَاريض[1] لمندوحةً عن الكذب " .

الثانيـــة — آستدلّ مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيّال على البائع ؛ قال آبن القاسم وآبن نافع قال مالك : قالوا ليوســف « فأوف لنا الكيل » فكان يوسف هو الذى يكيل ، وكذلك الوَزّان والعدّاد وغيرهم ؛ لأن الرجل إذا باع عِدّة معلومة من طعامه ، وأوجب العقد عليه ، وجب عليـه أن يبرزها ويميز حق المشترى من حقه ، إلا أن يبيع منه مُعيَّنا — صُبْرة أو ما لا حقّ توفية فيه — خلّى بينه وبينه ، فمـا جرى على المبيع فهو على المبتاع ؛ وليس كذلك ما فيه حق توفية من كيل أو وزن ، ألا ترى أنه لا يستحق البائع الثمن إلا بعد التوفية ، وإن تلف فهو منه قبل التوفية .

(١) المعاريض : جمع معراض ، من التعريض وهو خلاف التصريح من القول .

الثالثـــة ـــ وأما أجرة النقد فعلى البائع؛ لأن المبتاع الدافع لدراهمه يقول : إنها طيِّبة، فأنت الذى تدّعى الرداءة فآنظر لنفسك؛ وأيضا فإن النفع يقع له فصار الأجر عليـه، وكذلك لا يجب على الذى عليه القصاص؛ لأنه لا يجب عليه أن يقطع يد نفسه، إلا أن يمكّن من ذلك طائعا؛ ألا ترى أن فرضا عليـه أن يفدى يده، ويصالح عليـه إذا طلب المقتص ذلك منه، فأجر القَطّاع على المقتص . وقال الشافعى فى المشهور عنه: إنها على المقتص منه كالبائع .

الرابعـــة ـــ يكره للرجل أن يقول فى دعائه : اللهـم تصدّق علىّ؛ لأن الصدقة إنمـا تكون ممن يبتغى الثواب ، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم لا ربّ غيره؛ وسمع الحسن رجلا يقول : اللهم تصدّق علىّ؛ فقال الحسن : يا هذا! إن الله لا يتصدّق إنمـا يتصدّق من يبتغى الثواب؛ أَمَا سمعتَ قول الله تعالى : « إن الله يجـزِى المتصدقين » قل : اللهـم أعطنى وتفضّل علىّ .

قوله تعـالى : قَالَ هَـلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُـفَ وَأَخِيـهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى قَـدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْـبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِـيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْـكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَـكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيـهِ ﴾ آستفهام بمعنى التـذكير والتوبيخ، وهو الذى قال الله : « لَتُنَبِّئَنَّهُـم بِأَمْرِهِم »[(1)] . ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ دليل على أنهـم

(١) أى تصديق قول الله، كما فى تفسير الفخر .

كانوا صغارا فى وقت أخذهم ليوسف، غير أنبياء؛ لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته؛ ويدلّ على أنه حسنت حالهم الآن ؛ أى فعلتم ذلك إذ أنتم صغار جهال؛ قال معناه ابن عباس والحسن؛ ويكون قولهم : « وإن كنا لخاطئين » على هذا، لأنهم كبروا ولم يخبروا أباهم بما فعلوا حياء وخوفا منه . وقيل : جاهلون بما تؤول إليه العاقبة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ﴾ لما دخلوا عليه فقالوا : « مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ » فخضعوا له وتواضعوا رقّ لهم، وعرّفهم بنفسه، فقال : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه» فتنبهوا فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » قاله ابن إسحق . وقيل : إن يوسف تبسّم فشبهوه بيوسف واستفهموا . قال ابن عباس لما قال لهم : « هل علمتم ما فعلتم بيوسف » الآية، ثم تبسم يوسف — وكان إذا تبسم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم — فشبهوه بيوسف، فقالوا له على جهة الاستفهام: «أئنك لأنت يوسف» .وعن ابن عباس أيضا أن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه، وكان فى قرنه علامة، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة، فلما قال لهم : «هل علمتم ما فعلتم بيوسف » رفع التاج عنه فعرفوه، فقالوا : « أئنك لأنت يوسف » . وقال ابن عباس : كتب يعقوب إليه يطلب ردّ ابنه، وفى الكتاب : من يعقوب صفىّ الله ابن إسحق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر — أما بعد — فإنّا أهل بيت بلاء ومحن، ابتلى الله جدّى إبراهيم بنمرود وناره، ثم ابتلى أبى إسحق بالذبح، ثم ابتلانى بولد كان لى أحبّ أولادى إلىّ حتى كُفّ بصرى من البكاء، وإنى لم أسرق ولم ألد سارقا والسلام . فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله، واقشعرّ جلده، وأرخى عينيه بالبكاء، وعيل صبره فباح بالسرّ . وقرأ ابن كثير « إنك » على الخبر، ويجوز أن تكون هذه القراءة استفهاما كقوله : « وَتِلْكَ نِعْمَةٌ » . ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ ﴾ أى أنا المظلوم والمراد قتله، ولم يقل أنا هو تعظيما للقصة . ﴿ قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا ﴾ أى بالنجاة والملك . ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ أى يتق الله ويصبر على المصائب وعن المعاصى . ﴿ فَإِنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أى الصابرين فى بلائه، القائمين بطاعته . وقرأ ابن كثير « إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِي » بإثبات الياء؛ والقراءة به جائزة على أن تجعل

«مَنْ» بمعنى الذى، وتدخل «يتَّقِ» فى الصلة ، فتثبت الياء لا غير، وترفع « ويصبر » . وقد يجوز أن تجزم « ويصبر » على أن تجعل « يتّق » فى موضع جزم « ومن » للشرط ، وتثبت الياء، وتجعل علامة الجزم حذف الضمة التى كانت فى الياء على الأصل؛ كما قال :

ثم نادِى إذا دَخلتَ دِمشقًا * يا يزيدُ بنَ خالدِ بنِ يزيد

وقال آخـــر :

ألم يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى * بما لاَقَتْ لَبُونُ بنِى زيادِ

وقراءة الجماعة ظاهرة ، والهاء فى « إنه » كناية عن الحديث، والجملة الخبر .

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا ﴾ الأصل همزتان خفّفت الثانية، ولا يجوز تحقيقها ، واسم الفاعل مُؤْثِر، والمصـدر إيثار . ويقال أثَرْتُ التراب إثارةً فأنا مُثير ؛ وهو أيضا على أَفْعَل ثم أُعِلّ، والأصل أَثْيَر[(1)] نقلت حركة الياء على الثاء، فانقلبت الياء ألفا، ثم حذفت لالتقاء الساكنين . وأَثَرْتُ الحـديث على فَعَلْتُ فأنا آثِرٌ؛ والمعنى : لقـد فضّلك الله علينا ، واختارك بالعلم والحلم والحكم والعقل والملك . ﴿ وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ أى مذنبين من خَطِئَ يَخْطَأ إذا أتى الخطيئـة ، وفى ضمن هـذا سؤال العفـو . وقيل لابن عبـاس : كيف قالوا « وإن كنا لخاطئين » وقد تعمدوا لذلك؟ قال : وإن تعمّدوا لذلك، وما تعمدوا حتى أخطئوا الحق، وكذلك كل من أتى ذنبا تخطّى المنهاج الذى عليه من الحق، حتى يقع فى الشبهة والمعصية .

قوله تعـالى : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ أى قال يوسف — وكان حليما موفّقا — : « لا تثريب عليـكم اليوم » وتمّ الكلام . ومعنى « اليـوم » : الوقت . والتثريب التّعيير والتوبيخ، أى لا تعيير ولا توبيخ ولا لوم عليكم اليوم؛ قاله سفيان الثورى وغيره؛ ومنه قوله عليه السلام : "إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها" أى لا يُعيِّرها ؛ وقال بِشر :

فعفَوتُ عنهـم عفْوَ غيرِ مُثَرِّبٍ * وتركتهم لعقابِ يومٍ سَـرْمَدِ

(1) كذا فى الأصل و إعراب القرآن للنحاس . و يلاحظ أن عين الفعل واو لا ياء، وعليه فالأصل أثور، نقلت حركة الواو إلى ما قبلها فقلبت ألفا ، ثم حذفت — عند اتصال الفعل بضمير متحرك — لالتقاء الساكنين .

وقال الأَصمعى : ثَرَّبْتُ عليه وعَرَّبْتُ عليه بمعنى إذا قبحتَ عليه فعله . وقال الزجاج : المعنى لا إفساد لمـا بينى و بينكم من الحرمة، وحقّ الإخوة، ولكم عندى العفو والصفح؛ وأصل التثريب الإفساد ، وهى لغة أهل الحجاز . وعن ابن عباس أن رســول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعُضادَتَى الباب يوم فتح مكة، وقد لَاذَ النـاسُ بالبيت فقال : "الحمد لله الذى صدق وَعْدَه ونصر عَبْدَه وهَزَم الأحزاب وحدَه" ثم قال : " ماذا تظنون يا معشر قريش" قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وآبن أخ كريم وقــد قَدَرت؛ قال : " وأنا أقــول كما قال أخى يوسف «لا تثريب عليكم اليوم»" فقال عمر رضى الله عنه : ففِضتُ عَرَقا من الحياء من قول رسول الله صــلى الله عليه وســلم ؛ ذلك أنى كنت قــد قلت لهم حين دخلت مكة : اليوم ننتقم منــكم ونفعل، فلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال آستحييت من قولى . ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ مستقبل فيــه معنى الدعاء؛ سأل الله أن يســتر عليهم و يرحمهم . وأجاز الأخفش الوقف على «عليكم» والأول هو المستعمل؛ فإن فى الوقف على «عليكم» والابتداء بـ«اليوم يغفر الله لكم» جَزْم بالمغفرة فى اليــوم ، وذلك لا يكون إلا عن وحى ، وهذا بيّن . وقال عطاء الخراسانى : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ؛ ألم ترقول يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » وقال يعقوب : « سوف أستغفر لكم ربى » .

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا ﴾ نعت للقميص، والقميص مذكر، فأما قول الشاعر[(١)]:

تَدْعو هَوازِنُ والقميصُ مُفَاضَــةٌ * فــوق النِّـطاقِ تُشَــدُّ بالأزرارِ

فتقديره : [والقميص][(٢)] دِرْع مُفاضةٌ . قاله النحاس . وقال ابن السدّى عن أبيه عن مجاهد: قال لهم يوسف «آذهبوا بِقميصى هذا فألقوه على وجهِ أبِى يأتِ بصيرا» قال : كان يوسف أعلم بالله من أن يعلم أن قميصه يَرُدّ على يعقوب بصره، ولكن ذلك قميص إبراهيم الذى ألبسه الله فى النار من حرير الجنــة، وكان كساه إسحق ، وكان إسحق كساه يعقوب ، وكان يعقوب أدرج ذلك القميص فى قَصَبة من فضــة وعلّقه فى عُنق يوسف ، لمـا كان يخاف عليــه من

(١) هو جرير . (٢) الزيادة عن النحاس .

العين، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة، وريح الجنة لا يقع على سليم ولا مُبتلًى إلا عُوفى . وقال الحسن : لولا أن الله تعالى أعلم يوسف بذلك لم يعلم أنه يرجع إليه بصره، وكان الذى حمل قميصه يهوذا، قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه، وليعود إليه بصره، فحمله؛ حكاه السدّى . ﴿ وأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ لتتخذوا مصر دارا . قال مسروق : فكانوا ثلاثة وتسعين، ما بين رجل وآمرأة . وقد قيل : إن القميص الذى بعثه هو القميص الذى قُدّ من دُبره، ليعلم يعقوب أنه عُصِم من الزنى؛ والقول الأول أصح، وقد روى مرفوعا من حديث أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم؛ ذكره القُشَيرى والله أعلم .

قوله تعالى : وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ﴾ أى خرجت منطلقة من مصر إلى الشام؛ يقال : فَصَلَ فُصُولا، وفَصَلْتُه فَصْلًا، فهو لازم ومتعد . ﴿ قَالَ أَبُوهُمْ ﴾ أى قال لمن حضر من قرابته ممن لم يخرج إلى مصر وهم ولد ولده : ﴿ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴾ . وقد يحتمل أن يكون خرج بعض بنيه، فقال لمن بقى : « إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ » . قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف إليه، وبينهما مسيرة ثمان ليال . وقال الحسن : مسيرة عشر ليال؛

وعنـه أيضا مَسيرة شهر . وقال مالك رضى الله عنه : إنمـا أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتدّ إلى سليمان عليه السلام طرفه . وقال مجاهد: هبّت ريح فصَفَقَت[1] القميص فراحت روائح الجنة فى الدنيا واتصلت بيعقوب ، فوجد ريح الجنة فعلم أنه ليس فى الدنيا من ريح الجنة إلا ما كان من ذلك القميص ، فعند ذلك قال : «إنى لأجد» أى أشمّ ؛ فهو وجود حاسة الشم . ﴿لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: لولا أن تُسفّهون ؛ ومنه قول النابغة:

إلّا سـليمانَ إذ قال المليكُ لَهُ * قُمْ فى البريَّةِ فاْحدُدْها عنِ الفَنَدِ[2]

أى عن السَّفَه . وقال سعيد بن جُبير والضحاك : لولا أن تكذِّبون . والفَنَد الكذب . وقد أَفْنَدَ إفْنَادا كَذَب ؛ ومنه قول الشاعر :

هـل فى ٱفتخار الكريم من أَوَدِ[3] * أَمْ هل لقول الصَّدُوقِ من فَنَدِ

أى من كذب . وقيل : لولا أن تُقبِّحون ؛ قاله أبو عمرو ؛ والتفنيد التقبيح ، قال الشاعر:

ياصـاحبيّ دعا لومِى وتَفْنِيدِى * فليس ما فاتَ مِن أمرِى بمردودِ

وقال ٱبن الأعرابى : « لولا أن تفندون » لولا أن تُضعِّفوا رأيى ؛ وقاله ابن إسحق . والفند ضعف الرأى من كِبر . وقول رابع : تُضلِّلون ، قاله أبو عبيدة . وقال الأخفش : تلوموني ؛ والتفنيد اللوم وتضعيف الرأى . وقال الحسن وقَتادة ومجاهد أيضا : تُهرِّمون ؛ وكله متقارب المعنى ، وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأى ؛ يقال فَنَّده تفنيدا إذا أعجزه ، كما قال :

* أهلكنى باللوم والتفنيد *

ويقال : أفند إذا تكلم بالخطأ ؛ والفَنَد الخطأ فى الكلام والرأى ، كما قال النابغة :

* ... فآحددها عن الفَنَد *

أى ٱمنعها عن الفساد فى العقل ، ومن ذلك قيل : اللوم تفنيد ؛ قال الشاعر :

يا عاذلىّ دَعَا المَـلَامَ وأَقصِرَا * طالَ الهَـوَى وأطلتما التَّفْنِيدا

---

(١) صفقت الريح الشيء وصفقته إذا قلبته يمينا وشمـالا وردّدته . (٢) شبه الشاعر النعمان بسيدنا سليمان عليه السلام لعظم ملكه ؛ وقبل البيت :

ولا أرى فاعلا فى النـاس يشبهه * ولا أحاشى من الأقوام من أحد

(٣) أود : عوج .

ويقال : أَفْنَدَ فلاناً الدهرُ إذا أفسده؛ ومنه قول ابن مُقْبِل :

دَعِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ ما أَرادَ فإنَّهُ * إذا كُلِّفَ الإفنادَ بالناسِ أَفْنَدَا

قوله تعالى : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ أى لفى ذهاب عن طريق الصواب . وقال ابن عباس وابن زيد : لفى خطئك الماضى من حبّ يوسف لاتنساه . وقال سعيد بن جُبير : لفى جنونك القديم . قال الحسن : وهذا عقوق . وقال قَتَادة وسفيان : لفى محبتك القديمة . وقيل : إنما قالوا هذا ؛ لأن يوسف عندهم كان قد مات . وقيل : إن الذى قال له ذلك من بقى معه من ولده ولم يكن عندهم الخبر . وقيل : قال له ذلك من كان معه من أهله وقرابته . وقيل : بنو بنيه وكانوا صغارا ؛ فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أى على عينيه . ﴿فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ «أَنْ» زائدة ، والبشير قيل هو شمعون . وقيل : يهوذا قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلَطَّخا بالدّم؛ قاله ابن عباس . وعن السدّى أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إليه بقميص التَّرْحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفَرْحة . وقال يحيى بن يمان عن سفيان : لما جاء البشير إلى يعقوب قال له : على أىّ دينٍ تركت يوسف؟ قال : على الإسلام؛ قال : الآن تمت النعمة؛ وقال الحسن : لما ورد البشير على يعقوب لم يجد عنده شيئا يُثِيبه به ؛ فقال : والله ما أصبتُ عندنا شيئا ، وما خبزنا شيئا منذ سبع ليال ، ولكن هوّن الله عليك سكرات الموت .

قلت : وهذا الدعاء من أعظم ما يكون من الجوائز، وأفضل العطايا والذخائر. ودلّت هذه الآية على جواز البذل والهبات عند البشائر . وفى الباب حديث كعب بن مالك — الطويل — وفيه : « فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشّرنى نزعت ثوبىّ فكسوتهما إياه ببشارته » وذكر الحديث ، وقد تقدم بكماله فى قصة الثلاثة الذين خُلِّفُوا[1] ، وكسوة كعب ثوبيه للبشير مع كونه ليس له غيرهما دليل على جواز مثل ذلك إذا ارتجى حصول ما يستبشر به ، وهو دليل على

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

جواز إظهار الفرح بعد زوال الغم والتَّرح . ومن هـذا الباب جواز حَذاقة[1] الصبيان، وإطعام الطعام فيها، وقد نَحر عمر بعد سورة «البقرة» جَزُورا . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ﴾ ذَكَّرهم قوله : «إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ فى الكلام حذف، التقدير: فلما رجعوا من مصر قالوا يا أبانا؛ وهذا يدل على أن الذى قال له : «تالله إنك لفى ضلالك القديم» بنو بنيه أو غيرهم من قرابته وأهله لاولده؛ فإنهم كانوا غُيَّبا، وكان يكون ذلك زيادة فى العقوق . والله أعلم . وإنمـا سألوه المغفرة ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله .

قلت : وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالمـا له؛ فإنه يجب عليه أن يَتحلَّل له ويخبره بالمَظْلِمة[2] وقدرها؛ وهل ينفعه التّحليل المطلق أم لا؟ فيه خلاف، والصحيح أنه لاينفع؛ فإنه لو أخبره بمظلَمَة لها قَدْرٌ وبَالٌ ربما لم تَطب نفس المظلوم فى التَّحلُّل منها . والله أعلم . وفى صحيح البخارىّ وغيره عن أبى هُريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من كانت له مَظْلَمة لأخيه من عِرْضه أو شىءٌ فلْيحلّله منه اليوم قبل ألا يكونَ دينارٌ ولا دِرْهمٌ إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مَظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحُمِل عليـه" قال المهلَّب فقوله صلى الله عليه وسـلم : "أُخذ منه بقدر مَظْلِمته" يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر مشارا إليها مبيّنة، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى﴾ قال ابن عباس : أَخَّر دعاءه إلى السَّحَر . وقال المُثَنَّى بن الصَّبَّاح عن طاوس قال : سَحَر ليـلة الجمعـة، ووافق ذلك ليلة عاشـوراء . وفى دعاء الحفظ ـــ من كتاب الترمذىّ ـــ عن ابن عباس أنه قال : بينما نحن عند رسول الله

---

(١) حذق الغلام القرآن : مهر فيه . (٢) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

صلى الله عليه وسلم إذ جاءه علي بن أبي طالب — رضي الله عنه — فقال: — بأبي أنت وأمي — تَفَلَّتَ هذا القرآنُ من صدري، فما أجدني أقدر عليه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفلا أعلمك كلماتٍ يَنفعُكَ اللهُ بهنّ ويَنفعُ بهنّ من عَلَّمته ويُثبِّت ما تعلمتَ في صدرك" قال: أَجَلْ يارسول الله! فَعلِّمني؛ قال: "إذا كان ليلة الجمعة فإن آستطعت أن تقوم في ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة والدعاء فيها مستجاب وقد قال أخي يعقوب لبنيه «سوف أستغفر لكم ربي» يقول حتى تأتي ليلة الجمعة" وذكر الحديث. وقال أيوب بن أبي تميمة السَّخْتِيَاني عن سعيد بن جُبير قال: «سوف أستغفر لكم ربي» في الليالي البيض، في الثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة فإن الدعاء فيها مستجاب. وعن عامر الشّعبي قال: «سوف أستغفر لكم ربي» أي أسأل يوسف إن عفا عنكم آستغفرت لكم ربي؛ وذكر سُنَيد بن داود قال: حدثنا هشام قال حدّثنا عبد الرحمن بن إسحق عن محارب بن دِثَار عن عَمّه قال: كنت آتي المسجد في السَّحر فأَمُرّ بدار آبن مسعود فأسمعه يقول: اللهم إنك أمرتني فأطعت، ودعوتني فأجبت، وهذا سَحَرٌ فآغفر لي؛ فلقيت آبن مسعود فقلت: كلمات أسمعك تقولهن في السحر؟ فقال: إن يعقوب أخر بنيه إلى السَّحَر بقوله: «سوف أستغفر لكم ربي».

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ أي قصرًا كان له هناك. ﴿آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ قيل: إن يوسف بعث مع البشير مائتي راحلة وجهازا، وسأل يعقوب أن يأتيه بأهله وولده جميعا؛ فلما دخلوا عليه آوى إليه أبويه، أي ضمّ؛ ويعني بأبويه أباه وخالته، وكانت أمّه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين. وقيل: أحيا الله أمّه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن؛ وقد تقدّم في «البقرة» أن الله تعالى أحيا لنبيه عليه السلام أباه وأمه فآمنا به.

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ﴾ قال آبن جُرَيج: أي سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله؛ قال: وهذا من تقديم القرآن وتأخيره؛ قال النحاس: يذهب آبن جُرَيج إلى أنهم قد دخلوا مصر فكيف يقول: «آدخلوا مصر إن شاء الله». وقيل: إنما قال «إن شاء الله» تبرُّكًا وجَزْمًا. «آمنين» من القَحْط، أو من فرعون؛ وكانوا لا يدخلونها إلا بجوازه.

قوله تعـالى : وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَـدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا وَقَـدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (١٠٠)

قوله تعالى : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ قال قَتادة : يريد السَّرير، وقد تقدمت مَحامله ؛ وقد يُعبّر بالعرش عن المُلْك والمَلِك نفسه؛ ومنه قول النابغة الذُّبْيانيّ :

* عُروشٌ تفانَوْا بعد عِزٍّ وأَمْنةٍ *

وقد تقدّم .[(١)]

قوله تعالى : ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» الهاء في «خَرُّوا لَهُ» قيل : إنها تعود على الله تعالى؛ المعنى : وخرّوا شكرا لله سجدا؛ و يوسف كالقِبْلة لتحقيق رؤياه ،وروى عن الحسن؛ قال النّقاش : وهـذا خطأ؛ والهاء راجعة إلى يوسف لقوله تعالى في أول السورة : «رأيتهم لى ساجدين» . وكان تحيتهم أن يسجد الوضيع للشريف ، والصغير للكبير؛ سجد يعقوب وخالته و إخوته ليوسف عليه السلام ، فاقشعرّ جلده وقال: «هذا تأويل رؤياى من قبل» وكان بين رؤيا يوسف و بين تأويلها آثنتان وعشرون سنة . وقال سلمان الفارسيّ وعبد الله بن شدّاد : أر بعون سـنة ؛ قال عبد الله بن شـدّاد : وذلك آخر ما تبطئ الرؤيا . وقال قَتادة : خمس وثلاثون سنة . وقال السدّى وسعيد بن جُبير وعِكرمة : ست وثلاثون سنة . وقال الحسن وجسر آبن فَرْقَد وفُضَيل بن عِيَاض : ثمانون سنة . وقال وهب بن مُنَبِّه : أُلقى يوسف في الجُبّ وهو آبن سبع عشرة سنة ، وغاب عن أبيه ثمـانين سنة ، وعاش بعد أن التقى بأبيه ثلاثا وعشرين

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

سنة ، ومات وهو آبن مائة وعشرين سنة. وفى التوراة مائة وست وعشرون سنة. وولد ليوسف من آمرأة العزيز إفرائيم ومنشا ورحمة آمرأة أيوب . وبين يوسف وموسى أربعمائة سـنة . وقيل : إن يعقوب بقى عند يوسف عشرين سنة ، ثم توفى صلى الله عليه وسلم . وقيل : أقام عنده ثمـانى عشرة سـنة . وقال بعض المحدّثين : بضعا وأربعين سنة ؛ وكان بين يعقوب ويوسف ثلاث وثلاثون سنة حتى جمعهم الله . وقال آبن إسحق : ثمانى عشرة سنة ، والله أعلم .

الثانيـة — قال سعيد بن جُبَير عن قَتَادة عن الحسن — فى قوله « وَخَرُّوا لَهُ سُجَّـدًا » — قال : لم يكن سجودا ، ولكنه سُنَّة كانت فيهم ، يُومِئون برءوسهم إيمـاء ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجودا كالسـجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم . وقيل : كان آنحناء كالركوع ، ولم يكن خرورا على الأرض ؛ وهكذا كان سلامهم بالتَّكفِّى والآنحناء ، وقد نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلا عن الآنحناء . وأجمع المفسِّرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة ؛ قال قتَادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ؛ وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة .

قلت : هــذا الآنحناء والتَّكفِّى الذى نُسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية ، وعنــد العجم ، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض ؛ حتى أن أحدهم إذا لم يُقَم له وجَدَ فى نفسه كأنه لا يُؤْبَه به ، وأنه لا قَدْر له ؛ وكذلك إذا آلتقوا آنحنى بعضهم لبعض ، عادة مستمرة ، ووراثة مستقرة ، لا سيما عنــد التقاء الأمراء والرؤساء ؛ نَكَبوا عن السِّنَن ، وأعرضوا عن السنن . وروى أنس بن مالك قال : قلنا يا رسول الله ! أينحنى بعضنا إلى بعض إذا آلتقينا ؟ قال : "لا" ؛ قلنا : أفيعتنِق بعضنا بعضا؟ قال "لا" . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال "نعم" . خرجه أبو عمر فى « التمهيد » . فإن قيل : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قوموا إلى سيّدكم وخَيْرِكم" — يعنى سـعد بن معاذ — قلنا : ذلك مخصوص بسعد لمـا تقتضيه الحال المعيّنة ؛ وقد قيل : إنمـا كان قيامهم لينزلوه عن الحمار ؛ وأيضا فإنه يجوز للرجل الكبير إذا لم يؤثّر ذلك فى نفسه ، فإن أثّر فيــه وأعجب به ورأى لنفسه حظّا لم يجزءوه على ذلك ؛

لقوله صلى الله عليــه وسلم : " من سرّه أن يَتمثّل له الناسُ قياما فليتبوأ مقعده من النار " .
وجاء عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أنه لم يكن وجهٌ أكرَمَ عليهم من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كانوا يقومون له إذا رأوه ، لمــا يعرفون من كراهته لذلك .

الثالثـــة — فإن قيــل : فما تقول فى الإشارة بالإصبع ؟ قيل له : ذلك جائز إذا بَعُـد عنك ، لتعيّن له به وقت السّلام ، فإن كان دانياً فلا ؛ وقد قيــل بالمنع فى القرب والبعــد ؛ لمــا جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من تَشبّه بغيرنا فليس منا " . وقال : " لا تُسلِّموا تسليم اليهود والنصارى فإن تسليم اليهود بالأكُفّ والنّصارى بالإشارة " . وإذا سَـلّم فإنه لا يَنحنى ، ولا أن يُقبِّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التواضــع لا ينبغى إلا لله . وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم ، ولا يتبعون على أفعالهم التى أحدثوها تعظيما منهم لكبرائهم ؛ قال النبي صلى الله عليــه وسلم : " لا تقوموا عند رأسى كما تقوم الأعاجم عند رءوس أكاسرتها" فهذا مثله . ولا بأس بالمصافحة ؛ فقد صافح النبي صلى الله عليه وسلم جعفر ابن أبى طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال : " تصافحوا يذهب الغِلّ " وروى غالب التّمّــار عن الشّعْبى أن أصحاب النبي صلى الله عليــه وسلم كانو إذا التقوا تَصافحوا ، وإذا قدموا من سفر تَعانقوا ؛ فإن قيل : فقــد كره مالك المصافحة ؟ قلنا : روى ابن وهب عن مالك أنه كره المصافحة والمعانقة ؛ وذهب إلى هذا سُحْنون وغيره من أصحابنا ؛ وقد روى عن مالك خلاف ذلك من جواز المصافحة ، وهو الذى يدل عليه معنى ما فى الموطأ ؛ وعلى جواز المصافحــة جماعة العلماء من السّلَف والخَلَف . قال ابن العربى : إنمــا كره مالك المصافحة لأنه لم يرها أمرا عاما فى الدّين ، ولا منقولا نقل السلام ؛ ولو كانت منه لاستوى معه .

قلت : قد جاء فى المصافحة حديث يدل على الترغيب فيها ، والدّأب عليها والمحافظة ؛ وهو ما رواه البَرَاء بن عازب قال : لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيدى فقلت : يارسول الله ! أن كنت لأحسب أن المصافحة للاعاجم ؟ فقال : " نحن أحق بالمصافحة منهــم مامن مسلمَين يلتقيان فيأخذ أحدهما بيد صاحبه مودةً بينهما ونصيحةً إلا أُلقيت ذنوبُهما بينهما ".

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ ولم يقل من الجُبّ استعمالا للكرم؛ لئلا يُذكّر إخوته صنيعهم بعد عفوه بقوله : « لا تثريب عليكم » .

قلت : وهذا هو الأصل عند مشايخ الصوفية : ذِكْرُ الجفا في وقت الصَّفا جَفا؛ وهو قول صحيح دَلَّ عليه الكتاب . وقيل : لأن في دخوله السجن كان باختياره بقوله : « ربِّ السِّجْن أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » وكان في الجُبّ بإرادة الله تعالى له . وقيل : لأنه كان في السجن مع اللصوص والعُصاة ، وفي الجبّ مع الله تعالى؛ وأيضا فإن المِنّة في النّجاة من السّجن كانت أكبر ، لأنه دخله بسبب أمرٍ هَمَّ به ؛ وأيضا دخله باختياره إذ قال : « رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إليّ » فكان الكَرْب فيه أكثر؛ وقال فيه أيضا : « اذكرني عند ربك » فعوقب فيه .

﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ ﴾ يروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ،وكانوا أهل مواشٍ وبَرِّيّة ؛ وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسَكَنها ، وأن الله لم يبعث نبيا من أهل البادية . وقيل : إنه كان خرج إلى بَدَا ، وهو موضع ؛ وإياه عنى جَمِيل بقوله :

وأنتِ التي حَبَّبْتِ شَغْبًا[1] إلى بَدًا * إليّ وأوطاني بلادٌ سواهُما

وليعقوب بهذا الموضع مسجد تحت جبل . يقال : بَدَا القومُ بَدْوًا إذا أَتَوا بَدًا ، كما يقال : غَارُوا غَوْرًا أي أَتَوا الغَوْر ؛ والمعنى : وجاء بكم من مكان بَدًا؛ ذكره القُشَيري ، وحكاه الماوَرْدي عن الضحاك عن ابن عباس . ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ بإيقاع الحسد؛ قاله ابن عباس . وقيل : أفسد ما بيني وبين إخوتي؛ أحال ذنبهم على الشيطان تكرّمًا منه . ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ أي رفيق بعباده . وقال الخَطّابي : اللطيف هو البَرّ بعباده الذي يَلْطُف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبّب لهم مصالحهم من حيث لا يَحتسبون؛ كقوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » . وقيل : اللطيف العالم بدقائق الأمور؛ والمراد هنا الإكرام والرفق . قال قَتادة : لطف بيوسف بإخراجه من السجن ،وجاءه بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان . ويروى أن يعقوب لما قدم بأهله وولده وشارَف أرض مصر وبلغ ذلك يوسف استأذن فرعون — واسمه الريان — أن يأذن له في تَلَقِّي أبيه يعقوب ، وأخبره

(١) شغب : موضع بين المدينة والشام . و (بدا) يروى منونا وغير منون .

بقدومه فأذن له ، وأمر الملأ من أصحابه بالركوب معه ؛ فخرج يوسف والملك معه فى أربعة آلاف من الأمراء مع كل أمير خَلْقٌ الله أعلم بهم ؛ وركب أهل مصر معهم يتلقون يعقوب، فكان يعقوب يمشى متكئا على يد يهوذا؛ فنظر يعقوب إلى الخيـل والناس والعساكر فقال : يايهوذا ! هذا فرعون مصر ؟ قال : لا، بل هذا ابنك يوسف؛ فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف ليبدأه بالسلام فُمنع من ذلك(١)، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل؛ فابتدأ يعقوبُ بالسلام فقـال : السلام عليك يا مُذْهِب الأحزان، وبكى وبكى معه يوسف؛ فبكى يعقوب فرحا، وبكى يوسف لِمـا رأى بأبيه من الحزن ؛ قال آبن عباس : فالبكاء أربعة؛ بكاء من الخوف، وبكاء من الجزع، وبكاء من الفرح، وبكاء رياء. ثم قال يعقوب: الحمد لله الذى أقرّ عينى بعد الهموم والأحزان، ودخل مصر فى آثنين وثمانين من أهل بيته؛ فلم يخرجوا من مصر حتى بلغوا ستمائة ألف ونيف ألف ؛ وقطعوا البحر مع موسى عليه السلام؛ رواه عِكْرِمة عن آبن عباس . وحكى آبن مسعود أنهم دخلوا مصر وهم ثلاثة وتسعون إنسانا مابين رجل وآمرأة ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة وسبعون ألفا . وقال الربيع بن خُثَيْم : دخلوها وهم آثنان وسبعون ألفا ، وخرجوا مع موسى وهم ستمائة ألف . وقال وهب : دخل يعقوب وولده مصر وهم تسعون إنسانا مابين رجل وآمرأة وصغير، وخرجوا منها مع موسى فِرارا من فرعون، وهم ستمائة ألف وخمسمائة وبضع وسبعون رجلا مقاتلين ، سـوى الذرية والهَرْمى والزَّمْنى؛ وكانت الذرّية ألف ألف ومائتى ألف سوى المقاتلة . وقال أهل التواريخ : أقام يعقوب بمصر أربعا وعشرين سنة فى أغبط حال ونعمة، ومات بمصر، وأوصى إلى آبنه يوسف أن يحمل جسده حتى يدفنه عند أبيه إسحق بالشام ففعل ، ثم آنصرف إلى مصر . قال سعيد ابن جُبَير : نقل يعقوب صلى الله عليه وسلم فى تابوت من ساج إلى بيت المقدس، ووافق ذلك يوم مات عِيصو، فدفنـا فى قبر واحد؛ فمن ثَمَّ تنقل اليهود موتاهم إلى بيت المقدس، مَنْ فَعَل ذلك منهم ؛ وولد يعقوب وعِيصُو فى بطن واحد ، ودفنا فى قبر واحد ، وكان عمرهما جميعا مائة وسبعا وأربعين سنة .

(١) أى منعه يعقوب عليه السـلام لأن القادم يسـلم ؛ قاله العينى فى « عقد الجمان » . وقال الألوسى : ليعلم أن يعقوب أكرم على الله منه .

قوله تعالى : رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)

قوله تعالى : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ قال قتادة : لم يتمنّ الموت أحد ؛ نبيّ ولا غيره إلا يوسف عليه السلام؛ حين تكاملت عليه النِّعم وجُمع له الشمل آشتاق إلى لقاء ربه عزّ وجلّ . وقيل : إن يوسف لم يتمنّ الموت ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ؛ أى إذا جاء أَجَلِي توفَّنى مسلما ؛ وهذا قول الجمهور . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : لا يتمنّى الموت إلا ثلاث : رجل جاهل بما بعد الموت ، أو رجل يفرّ من أقدار الله تعالى عليه ، أو مشتاقٌ محبٌّ للقاء الله عزّ وجلّ ؛ وثبت فى الصحيح عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّين أحدكم الموت لضُرٍّ نزل به فإن كان لا بدّ متمنيا فليقل اللهم أَحْيِنِى ما كانت الحياة خيرا لى وتَوفَّنى إذا كانت الوفاة خيرا لى" رواه مسلم . وفيه عن أبى هُرَيرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا يتمنّى أحدُكم الموت ولا يدعُ[(1)] به من قبل أن يأتيه إنه إذا مات أحدكم آنقطع عمله وإنه لا يزيد المؤمنَ عُمُرُه إلا خيرا" . وإذا ثبت هذا فكيف يقال : إن يوسف عليه السلام تَمنّى الموت والخروج من الدنيا وقطع العمل ؟ هذا بعيد ! إلا أن يقال : إن ذلك كان جائزا فى شرعه ؛ أَمَا أنه يجوز تمنى الموت والدعاء به عند ظهور الفتن وغلبتها ، وخوف ذهاب الدين ، على ما بيّناه فى كتاب «التذكرة» .

«ومن» من قوله : «مِن المُلْكِ» للتبعيض ؛ وكذلك قوله : « وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ» لأن مُلْك مصر ما كان كل المُلْك ، وعلم التّعبير ما كان كلّ العلوم . وقيل : «مِن» للجنس ؛ كقوله : « فَآجتنِبوا الرجس مِن الأوثان » . وقيل : للتأكيد . أى آتيتنى الملك وعلمتنى تأويل الأحاديث .

(١) قيل : وجه صحة عطفه على النفى من حيث إنه بمعنى النهى . وقال ابن حجر : فيه إيماء إلى أن الأول نهى على بابه ، و يكون قد جمع بين لغتى حذف حرف العلة وإثباته .

قوله تعـالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ نصب على النعت للنـداء، وهو ربّ ، وهو نداء مضاف ؛ والتقدير : ياربّ ! ويجوز أن يكون نداء ثانيا . والفاطر الخالق ؛ فهو سبحانه فاطر الموجودات، أى خالقها ومبدئها ومنشئها ومخترعها على الإطلاق من غير شيء، ولا مثال سبق؛ وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى ؛ عند قوله : « بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»[(1)] وزدناه بيانا فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى. ﴿ أَنْتَ وَلِيِّي ﴾ أى ناصرى ومتولّى أمورى فى الدنيا والآخرة. ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ يريد آباءه الثلاثة؛ إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فتوفاه الله — طاهرا طيبا صلى الله عليه وسلم — بمصر ، ودفن فى النيل فى صندوق من رخام؛ وذلك أنه لمـا مات تَشاحَّ الناس عليه؛ كلٌّ يحبّ أن يدفن فى محلّتهم ، لِمـا يَرجون من بركته ؛ واجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ،فرأوا أن يدفنوه فى النِّيل من حيث مَفرِق المـاء بمصر، فيمرّ عليه المـاء، ثم يتفرّق فى جميع مصر، فيكونوا فيه شَرعا ففعلوا؛ فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيـل ، ونقل تابوته بعـد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس، فدفنـوه مع آبائه لدعوته : « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » وكان عمره مائة عام وسـبعة أعوام . وعن الحسن قال : ألق يوسف فى الجبّ وهو ابن سبع عشرة سنة،وكان فى العبودية والسجن والملك ثمانين سنة ، ثم جُمع له شمله فعاش بعـد ذلك ثلاثا وعشرين سنة؛ وكان له من الولد إفرائيم، ومنشا، ورحمة ، زوجة أيوب؛ فى قول ابن لَهِيعة . قال الزهرىّ : وولد لإفرائيم — ابن يوسف — نون بن إفرائيم ، وولد لنون يوشع ؛ فهو يوشـع بن نون ، وهو فتى موسى الذى كان معه صاحب أمره ، ونبأه الله فى زمن موسى عليه السلام ؛ فكان بعده نبيا، وهو الذى افتتح أَرِيحاء، وقتل من كان بها من الجبابرة، واستوقفت له الشمس حسب ما تقدّم فى « المـائدة »[(2)] . وولد لمنشا بن يوسف موسى بن منشا، قبـل موسى بن عمران؛ وأهل التوراة يزعمون أنه هو الذى طلب العالم ليتعلم منـه حتى أدركه ، والعالم هو الذى خرق

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها طبعة ثانية .

(٢) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، وموسى بن منشا معه حتى بلغ معه حيث بلغ ؛ وكان ابن عباس ينكر ذلك؛ والحق الذى قاله ابن عباس ؛ وكذلك فى القرآن . ثم كان بين يوسف وموسى أمم وقرون، وكان فيما بينهما شعيب، صلوات الله عليهم أجمعين .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ ابتداء وخبر . ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ خبر ثان . قال الزجاج : ويجوز أن يكون « ذلك » بمعنى الذى، و « نوحيه إليك » خبره؛ أى الذى من أنباء الغيب نوحيه إليك؛ يعنى هو الذى قصصنا عليك يا محمد من أمر يوسف من أخبار الغيب « نوحيه إليك » أى نعلمك بوحى هذا إليك . ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ أى مع إخوة يوسف ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ فى إلقاء يوسف فى الجبّ . ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ أى بيوسف فى إلقائه فى الجبّ . وقيل : « يمكرون » بيعقوب حين جاءوه بالقميص مُلطَّخا بالدم ؛ أى ماشاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها .

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ظنّ أن العرب لما سألته عن هذه القصة وأخبرهم يؤمنون ، فلم يؤمنوا ؛ فنزلت الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أى ليس تقدر على هداية من أردت هدايته؛ تقول : حَرَص يحرِص، مثل: ضَرَبَ يَضرِب . وفى لغة ضعيفة حَرِص يَحرَص مثل حَمِد يحمَد . والحِرْص طلب الشىء باختيار .

قوله تعالى : ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ «مِن» صلة ؛ أى ما تسألهم جُعْلا . ﴿إِنْ هُوَ﴾ أى ما هو؛ يعنى القرآن والوحى . ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أى عظة وتذكرة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ .

قوله تعـالى : وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال الخليل وسيبويه : هى « أيّ » دخل عليهـا كاف التشبيه وبُنِيت معها ، فصار فى الكلام معنى كَمْ ، وقد مضى فى «آل عمران»(1) القول فيها مستوفى . ومضى القول فى آية «السموات والأرض» فى «البقرة»(2) . وقيـل : الآيات آثار عقوبات الأمم السالفة؛ أى هم غافلون معـرضون عن تأملها . وقرأ عِكْرِمة وعمرو بن فائد « وَالْأَرْضُ » رفعا آبتـداء ، وخبره « يَمُـرُّونَ عَلَيْهَا » . وقرأ السدّى « وَالْأَرْضَ» نصباً بإضمار فعل، والوقف على هاتين القراءتين على « السموات » . وقرأ آبن مسعود « يمشون عليها » .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ نزلت فى قوم أقرّوا بالله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبـدون الأوثان ؛ قاله الحسن ومجاهد وعامر والشّعبى وأكثر المفسرين . وقال عِكْرِمة هو قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» ثم يصفونه بغير صـفته ويجعلون له أندادا ؛ وعن الحسن أيضا أنهم أهل كتاب معهم شِرْكٌ وإيمـان، آمنوا بالله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلا يصح إيمـانهم؛ حكاه ابن الأنبارىّ . وقال ابن عباس : نزلت فى تلبيـة مشركى العـرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما مَلَك . وعنـه أيضا أنهم النصارى . وعنـه أيضا أنهم المشـبّهة ، آمنوا مجملا وأشركوا

(1) راجع جـ ٤ ص ٢٢٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ وما بعدها طبعة ثانية .

مُفَصّلا. وقيل : نزلت فى المنافقين؛ المعنى : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ » أى باللسان إلا وهو كافر بقلبه؛ ذكره الماوردىّ عن الحسن أيضا . وقال عطاء : هذا فى الدعاء؛ وذلك أن الكفار ينسون ربهم فى الرّخاء، فإذا أصابهم البلاء أخلصوا فى الدعاء؛ بيانه : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » الآية . وقوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ » الآية؛ وفى آية أخرى « وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ » . وقيل : معناها أنهم يدعون الله ينجيهم من الهلكة، فإذا أنجاهم قال قائلهم : لولا فلان ما نجونا، ولولا الكلب لدخل علينا اللّص، ونحو هذا؛ فيجعلون نعمة الله منسوبة إلى فلان، ووقايته منسوبة إلى الكلب .

قلت : قد يقع فى هذا القول والذى قبله كثير من عوامّ المسلمين؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وقيل : نزلت هذه الآية فى قصة الدُّخَان؛ وذلك أن أهل مكة لما غشيهم الدُّخَان فى سِنِىّ القَحْط قالوا : « رَبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ » فذلك إيمانهم، وشركهم عودهم إلى الكفر بعد كشف العذاب؛ بيانه قوله : « إِنَّكُمْ عَائِدُونَ » والعود لا يكون إلا بعد ٱبتداء؛ فيكون معنى « إلا وهم مشركون » أى إلا وهم عائدون، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ قال ابن عباس : مُجَلِّلَة[1] . وقال مجاهد : عذاب يغشاهم؛ نظيره « يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ » . وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصّواعق والقوارع . ﴿ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ ﴾ يعنى القيامة . ﴿ بَغْتَةً ﴾ نصب على الحال؛ وأصله المصدر . وقال المبرِّد : جاء عن العرب حال بعد نكرة؛ وهو قولهم : وَقَع أمرهم بَغْتةً وفَجْأةً؛ قال النحاس : ومعنى « بغتة » إصابة من حيث لم يتوقّع . ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو توكيد . وقوله «بغتة» قال ابن عباس : تَصيح الصيحة بالناس وهم فى أسواقهم ومواضعهم، كما قال : « تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ » على ما يأتى .

(١) مجلِّلة : عامّة التغطية .

قوله تعالى: ﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي﴾ ٱبتداء وخبر؛ أي قل يا محمد هذه طريقي وسُنّتي ومِنهاجي؛ قاله ابن زيد . وقال الرّبيع : دعوتي . مقاتل : ديني ، والمعنى واحد؛ أي الذي أنا عليه وأدعو إليه يؤدّي إلى الجنة. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي على يقين وحقّ؛ ومنه : فلان مستبصر بهذا . ﴿أَنَا﴾ توكيد. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ عطف على المضمر. ﴿وَسُبْحَانَ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد : «وسبحان الله» . ﴿وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يتخذون من دون الله أندادا .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ (١١٠)

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ هذا ردّ على القائلين : «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» أي أرسلنا رجالا ليس فيهم ٱمرأة ولا جِنّيٌّ ولا مَلَك؛ وهذا يردّ ما يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن في النِّساء أربع نبيّات حَوّاء وآسية وأمّ موسى ومريم" . وقد تقدم في «آل عمران»(1) شيء من هذا. «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» يريد المدائن؛ ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم . قال الحسن : لم يبعث الله نبيًّا من أهل البادية قطّ، ولا من النِّساء، ولا من الجنّ . وقال قَتادة : «مِنْ أَهْلِ الْقُرَى» أي من أهـل الأمصار؛ لأنهم أعلم وأحلم . وقال العلماء : من شرط الرسول أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا آدميا تحرّزا؛ من قوله : «يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ» والله أعلم .

---

(1) راجع جـ ٤ ص ٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا ﴾ إلى مصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم فيعتبروا . ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ ابتداء وخبره . وزعم الفراء أن الدار هي الآخرة ؛ وأضيف الشيء إلى نفسه لاختلاف اللفظ ، كيوم الخميس ، و بارحة الأولى ؛ قال الشاعر :

ولو أَقْوَتْ عليكَ دِيارُ عَبْسٍ[(1)] * عَرَفْتَ الذُّلَّ عِرْفَانَ اليقينِ

أي عِرْفَانا يقينا ؛ واحتجّ الكسائيّ بقولهم : صلاة الأولى ؛ واحتجّ الأخفش بمسجد الجامع . قال النحاس : إضافة الشيء إلى نفسه محال ؛ لأنه إنما يضاف الشيء إلى غيره ليتعرّف به ؛ والأجود الصلاة الأولى ، ومن قال صلاة الأولى فمعناه : عند صلاة الفريضة الأولى ؛ و إنما سميت الأولى لأنها أوّل ما صُلّي حين فُرضت الصّلاة ، وأول ما أظهر ؛ فلذلك قيل لها أيضا الظُّهْر . والتقدير : ولدار حال الآخرة خير ، وهذا قول البصريين ؛ والمراد بهذه الدار الجنة ؛ أي هي خير للمتقين . وقرئ « وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ » . وقرأ نافع وعاصم و يعقوب وغيرهم ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخبر .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ﴾ تقدّم القراءة فيه ومعناه.[(2)] ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ﴾ وهذه الاية فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم . وهذا الباب عظيم ، وخطره جسيم ، ينبغي الوقوف عليه لئلا يزِلّ الإنسان فيكون في سواء الجحيم . المعنى : وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رجالا ثم لم نعاقب أممهم بالعقاب « حتى إذا استيأس الرسل » أي يئسوا من إيمان قومهم « وظَنّوا أَنَّهم قَدْ كُذِّبوا » بالتشديد ؛ أي أيقنوا أن قومهم كذّبوهم . وقيل المعنى : حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لَا أَنَّ القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يُكذّبونهم ؛ أي خافوا أن يدخل قلوب أتباعهم شكّ ؛ فيكون «وظنّوا» على بابه في هذا التأويل . وقرأ ابن عباس وابن مسعود وأبو عبد الرحمن السُّلَميّ وأبو جعفر بن القَعْقاع والحسن وقَتَادة وأبو رَجَاء العُطَارِديّ وعاصم وحمزة والكسائي و يحيى بن وثّاب والأعمش وخَلَف «كُذِبُوا » بالتخفيف ؛ أي ظنّ القوم أن الرسل كذَبوهم فيما أخبروا به من العذاب ،

---

(1) وفي رواية : «فإنك لو حللت ديار عبس» .	(2) راجع ص ٢٤١ من هذا الجزء .

ولم يَصدُقوا . وقيل: المعنى ظنّ الأمم أن الرسل قد كَذَبوا فيما وعَدُوا به من نصرهم . وفى رواية عن ابن عباس؛ ظنّ الرسلُ أن الله أخلف ما وعدهم . وقيــل : لم تصح هذا الرواية؛ لأنه لا يَظنّ الرسلُ هذا الظنّ ، ومن ظنّ هذا الظنّ لا يستحقّ النّصر؛ فكيف قال : ﴿ جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾ ؟ ! قال القُشَـيرى" أبو نصر : ولا يبعــد إن صحّت الرواية أن المــراد خطر بقلوب البشر هــذا من غير أن يتحققوه فى نفوسهم؛ وفى الخبر: " إن الله تعــالى تجاوز لأمّتى عمــا حدّثت به أنفسها ما لم ينطق به لسانٌ أو تَعمل به " . ويجوز أن يقــال : قربوا من ذلك الظنّ؛ كقولك : بلغت المنزل ، أى قربت منه . وذكر الثعلبي" والنحاس عن ابن عبــاس قال : كانوا بشرا فضَعُفوا من طول البــلاء، ونَسُوا وظَنّــوا أنّهُمْ أُخلِفوا؛ ثم تــلا : « حتى يقول الرسول والذين آمنوا معــه متى نصر الله» . وقال الترمذى" الحكيم : وجهه عنــدنا أن الرسل كانت تخاف بعــد ما وعد الله النصر ، لا من تهمة بوعد الله ، ولكن لتهمة النفوس أن تكون قد أحدثت حَدَثا يَنْقُض ذلك الشرط والعهد الذى عهد إليهم؛ فكانت إذا طالت المدة دخلهم الإياس والظنون من هذا الوجه . وقال المهدوى" عن ابن عباس : ظنّت الرُّسل أنهــم قد أُخْلِفُوا على ما يلحق البشر؛ واستشهد بقول إبراهيم عليه السلام : « رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحيي المَوْتَى » الآية . والقراءة الأولى أولى . وقرأ مجاهــد وحميد ـــ «قَدْ كَذَبوا» بفتح الكاف والذال مُخَفّفا ، على معنى : وظنّ قوم الرســل أن الرسل قد كَذَبوا، لمــا رأوا من تفضّل الله عزّ وجلّ فى تأخير العذاب . ويجوز أن يكون المعنى : و [لمــا] أيقن الرسل أن قومهم قد كَذَبوا على الله بكفرهم جاء الرسل نصرنا . وفى البخارى" عن عُرْوة عن عائشة قالت له وهو يسألها عن قول الله عزّ وجلّ : « حتى إذا آستيأس الرســل » قال قلت : أَكُذِبُوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشــة : كُذِّبوا . قلت : فقد آستيقنوا أن قومهم كذّبوهم فما هو بالظن؟ قالت : أَجَلْ ! لعمرى ! لقد آستيقنوا بذلك ؛ فقلت لها : « وَظَنُّو أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا » قالت : معاذ الله ! لم تكن الرسل تظنّ ذلك بربها . قلت : فمــا هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل [ الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، وآستأخر عنهم النصر حتى إذا آستيأس الرسل[1] ]

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ممن كذّبهم من قومهـــم ، وظنّت الرسل أن أتباعهم كذّبوهم جاءهم نصرنا عنـد ذلك .
وفي قوله تعالى : « جاءهم نصرنا » قولان : أحدهما — جاء الرسلَ نصرُ الله ؛ قاله مجاهد .
الثاني — جاء قومَهم عذابُ الله؛ قاله ٱبن عباس . ﴿ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴾ قيل : الأنبياء ومن آمن
معهم . وروى عن عاصم « فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ » بنون واحدة مفتوحة الياء، و « مَنْ » في موضع
رفع، ٱسم ما لم يُسَمَّ فاعله ؛ وٱختار أبو عُبيد هـذه القراءة لأنها في مصحف عثمان وسائر
مصاحف البلدان بنون واحدة . وقرأ ٱبن محيصن « فَنَجَا » فعل ماض، و « مَنْ » في موضع
رفع لأنه الفاعل، وعلى قراءة الباقين نصبا على المفعول . ﴿ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا ﴾ أي عذابنا . ﴿ عَنِ الْقَوْمِ
الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي الكافرين المشركين .

قوله تعـالى : لَقَـدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًـا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْـدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِـيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ أي في قصة يوسف وأبيه و إخوته ، أو في قصص
الأمم ﴿ عِبْرَةٌ ﴾ أي فكرة وتذكرة وعظة . ﴿ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ أي العقول . وقال محمد بن إسحق
عن الزهريّ عن محمـد بن إبراهيم بن الحارث التَّيْميّ : إن يعقوب عاش مائة سنة وسبعا
وأربعين سـنة ، وتُوفّي أخوه عِيصُو معــه في يوم واحد ، وقُبِرا في قبر واحد؛ فذلك قوله :
« لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب » إلى آخر السورة . ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾
أي ما كان القرآن حديثا يفترى ، أو ما كانت هذه القصة حديثا يفترى . ﴿ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ
الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي ما كان قبله من ٱلتوراة وٱلإنجيل وسائر كتب الله تعالى؛ وهذا تأويل
من زعم أنه القرآن . ﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ مما يحتاج العباد إليه من الحلال والحرام، والشرائع
والأحكام ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# ســورة الرعـــد

مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر، ومدنيــة فى قول الكلبى ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قوله عز وجل : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ » [ إلى آخرهما ] (١) .

قوله تعـالى : ﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تقدّم القول فيها . ﴿ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يعنى وهذا القرآن الذى أنزل إليك ﴿ مِنْ رَبِّكَ الْحَقّ ﴾ لا كما يقول المشركون : إنك تأتى به من تلقاء نفسك؛ فاعتصم به، واعمل بما فيه . قال مقاتل : نزلت حين قال المشركون : إن محمدا أتى بالقرآن من تلقاء نفسه . « والذى » فى موضـع رفع عطفا على « آيات » أو على الابتـداء، و « الحق » خبره؛ ويجـوز أن يكون موضـعه جرا على تقدير : وآيات الذى أُنزل إليك، وارتفاع « الحقّ » على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره : ذلك الحقُّ؛ كقوله تعالى : « وَهُمْ يَعْلَمُونَ . الْحَقُّ » يعنى ذلك الحقّ . قال الفرّاء : وإن شئت جعلت « الذى » خفضا نعتا للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال : أتانا هـذا الكتاب عن أبى حفص والفاروق؛ ومنـه قول الشاعر :

إلى الملكِ القَـرْمِ وابنِ الهُمَامِ ** ولَيْثِ الْكَتِيبَـةِ فى الْمُزْدَحَـمْ (٢)

يريد : إلى الملك القَرْم بن الهمام، ليث الكتيبة . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من تفسير البحر . (٢) القرم ( بفتح القاف ) : السيد؛ والكتيبة : الجيش؛ والمزدحم : محل الازدحام .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (٢)

قوله تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ الآية . لمّا بيّن تعالى أن القرآن حق، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال؛ فانظروا فى مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته؛ وقد تقدم هذا المعنى . وفى قوله : « بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قولان : أحدهما — أنها مرفوعة بغير عمد ترونها ؛ قاله قتادة وإياس بن معاوية وغيرهما . الثانى — لها عمد، ولكنا لا نراه؛ قال ٱبن عباس : لها عمد على جبل قاف ؛ ويمكن أن يقال على هذا القول : العمد قدرته التى يُمسك بها ٱلسموات وٱلأرض ، وهى غير مرئية لنا ؛ ذكره الزّجاج . وقال ٱبن عباس أيضا : هى توحيد المؤمن . أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . والعَمَد جمع عمود؛ قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنِّى قد أذِنتُ لهم * يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَد[1]

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ تقدم الكلام فيه[2] . ﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ أى ذلّلهما لمنافع خلقه ومصالح عباده؛ وكل مخلوق مُذلَّل للخالق . ﴿ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى إلى وقت معلوم؛ وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة ٱلتى عندها تُكوَّر الشمس، ويُخسَف القمر، وتنكدر النّجوم، وتنتثر الكواكب . وقال ٱبن عباس : أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها لا يجاوزانها . وقيل : معنى الأجل المسمّى أن القمر يقطع فَلَكه فى شهر، والشمس فى سنة . ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ﴾ أى يصرفه على ما يريد . ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ أى يُبيِّنها؛ أى من قدر على هذه الأشياء يقدر على ٱلإعادة ؛ ولهذا قال : ﴿ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ .

---

(١) ويروى : وخبر الجن . وخيس : ذلل ؛ وتدمر : بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام . والصُّفّاح حجارة عراض رقاق . وعمد : جمع عمود .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ ﴾ لما بيّن آيات السّموات بيّن آيات الأرض ؛ أى بسط الأرض طولا وعرضا . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ﴾ أى جبالا ثوابت؛ واحدها راسية ، لأن الأرض ترسو بها ، أى تثبت ؛ والإرساء الثّبوت ؛ قال عَنْتَرة :

فصَــبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُــرَّةً * تَرْسُــو إذا نَفْسُ الجَبَـانِ تَطَلَّعُ[1]

وقال جَميل :

أُحِبُّهـا والذى أَرْسَى قواعِـدَهُ * حُبًّـا إذا ظَهَـــرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ٱبن عباس وعطاء : أوّل جبل وضع على الأرض أبو قُبَيس[2] .

مســـئلة — فى هــذه الآية ردّ على من زعم أن الأرض كالكرة ، وردّ على من زعم أن الأرض تَهوِى أبوابها عليها ؛ وزعم ابن الرّاوندى أن تحت الأرض جسما صَعّادا كالرِّيح الصعّادة ؛ وهى منحدرة فاعتــدل الهاوى والصعّادى فى الجِرْم والقوّة فتوافقا . و زعم آخرون أن الأرض مركبة من جسمين، أحدهما منحدر، والآخر مصعَد، فاعتدلا ، فلذلك وقفت . والذى عليه المسلمون وأهل الكتّاب القول بوقوف الأرض وسكونها ومدّها ، وأن حركتها إنما تكون فى العادة بزلزلة تصيبها . وقوله تعالى : ﴿ وَأَنْهَـارًا ﴾ أى مياها جارية فى الأرض ، فيها منافع الخلق . ﴿ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ بمعنى صنفين . قال أبو عبيدة : الزوج واحد ، ويكون ٱثنين . الفراء : يعنى بالزوجين هاهنا الذكر والأنثى؛ وهــذا خلاف

(١) قبل البيت :

وعرفت أن منيتى إن تأتنى * لا ينجى منها الفرار الأسرع

(٢) أبو قبيس : جبل مشرف على مسجد مكة .

النّص . وقيــل : معنى « زوجين » نوعان ، كالحُلْو والحامض ، والرطب واليــابس ، والأبيض والأســود ، والصغير والكبير . ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى دلالات وعلامات ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

قوله تعــالى : وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ ﴾ فى الكلام حذف؛ المعنى : وفى الأرض قِطع متجاورات وغير متجاورات؛ كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » والمعنى : وتقيكم البَرْد، ثم حذف لعلم السامع . والمتجاورات المدن وما كان عامرا ، وغير متجاورات الصحارى وما كان غير عامر .

الثانيـــة ــ قوله تعــالى : « متجاورات » أى قُرًى متدانيات، ترابها واحد، وماؤها واحد ، وفيهــا زروع وجنات ، ثم تتفاوت فى الثّمار والتّمر؛ فيكون البعض حُلْوا ، والبعض حامضا ؛ والغصن الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمر فيه من الصّغر والكِبر واللون والمطعم ، وإن آنبسط الشمس والقمر على الجميع على نسق واحد ؛ وفى هــذا أدلّ دليل على وحدانيته وعِظَم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه نبّه سبحانه بقوله : « تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ » على أن ذلك كله ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ؛ وهــذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطبع ؛ إذ لو كان ذلك بالمــاء والتراب والفاعل له الطبيعة لمــا وقع الاختلاف. وقيل : وجه الاحتجاج أنه أثبت التفاوت بين البِقاع؛ فمن تربة عذبة ، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما؛ وهــذا أيضا من دلالات كمال قدرته ؛ جل وعز تعالى عمــا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرا .

الثالثـــة — ذهبت الكفرة — لعنهم الله — إلى أن كل حادث يحدث بنفسه لا من صانع؛ وآدّعوا ذلك فى الثمار الخارجة من الأشجار، وقد أقرّوا بحدوثها، وأنكروا محدثها، وأنكروا الأعراض . وقالت فرقة: بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلا؛ والدليل على أن الحادث لابدّ له من مُحدِث أنه يَحدُث فى وقت، ويَحدُث ما هو من جنسه فى وقت آخر؛ فلو كان حدوثه فى وقته لاختصاصه به لوجب أن يَحدُث فى وقته كل ماهو من جنسه؛ وإذا بطل اختصاصه بوقته صح أن آختصاصه به لأجل مُخصِّص خَصَّصه به ، لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه فى وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده؛ وآستيفاء هذا فى علم الكلام.

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ قـرأ الحسن « وَجَنَّاتٍ » بكسر التاء، على تقدير: وجعل فيها جنات؛ فهو محمول على قوله : «وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ» . ويجوز أن تكون مجرورة على الحمل على « كل » التقدير : ومن كل الثمرات، ومن جنات . الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير : وبينهما جنات . ﴿ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ بالرفع. آبن كثير وأبو عمرو وحفص عطفا على الجنّات؛ أى على تقدير : وفى الأرض زرع ونخيل. وخفضها الباقون نَسَقا على الأعناب؛ فيكون الزرع والنخيل من الجنّات؛ ويجوز أن يكون معطوفا على « كل » حسب ماتقدّم فى «وجنّات» . وقرأ مجاهد والسُّلَمِيّ وغيرهما «صُنْوَانٌ» بضم الصاد ، الباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ؛ وهما جمع صِنْو، وهى النَّخَلات والنّخلتان ، يجمعهنّ أصل واحد، وتتشعب منه رءوس فتصير نخيلا ؛ نظيرها قِنْوان، واحدها قِنْو. وروى أبو إسحق عن البَرَاء قال : الصِّنْوان المجتمع ، وغير الصِّنْوان المتفرق ؛ النحاس : وكذلك هو فى اللغة ؛ يقال للنخلة إذا كانت فيهـا نخلة أخرى أو أكثر صِنْوان . والصِّنو المِثل ؛ ومنـه قول النبي صلى الله عليه وسـلم : " عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه " . ولا فرق فيها بين التّثنية والجمع ، ولا بالإعراب؛ فتعرب نون الجمع، وتكسر نون التثنية ؛ قال الشاعر :

العلمُ والحلمُ خَلّتَـا كَرَمٍ ❊ للمرءِ زَينٌ إذا هُمَا آجْتَمعَا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسنُهُمَا ❊ إلّا بجمعِ ذا وذاكَ معَـا

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ يُسْقَىٰ بِمَـاءٍ وَاحِدٍ ﴾ كصالح بني آدم وخبيثهم، أبوهم واحد؛ قاله النحاس والبخاري. وقرأ عاصم وابن عامر « يُسْقَىٰ » بالياء، أي يُسقى ذلك كله . وقرأ الباقون بالتاء، لقـوله : « جنات » واختاره أبو حاتم وأبو عبيـدة؛ قال أبو عمرو : والتأنيث أحسن، لقوله : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴾ ولم يقل بعضـه . وقرأ حمـزة والكسائي وغيرهمـا « ويُفَضِّل » بالياء ردًّا على قوله : « يُدَبِّرُ الْأَمْرَ » و « يُفَصِّلُ » و « يُغْشِي » . الباقون بالنون على معنى : ونحن نفضل . وروى جابر بن عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لعلي رضي الله عنه : " الناس من شجر شتى وأنا وأنت من شجرة واحدة " ثم قرأ النبي صلى الله عليه وسـلم « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ » حتى بلغ قوله : « يُسْقَىٰ بِمَـاءٍ وَاحِدٍ » و « الأكل » الثمر . قال ابن عباس : يعني الحلو والحامض والفارسي والدَّقَل[1] . وروى مرفوعا من حديث أبي هُريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قوله تعالى : « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ » قال : " الفارسي والدَّقَل والحُلْو والحامض " ذكره الثعلبي. قال الحسن : المراد بهذه الآية المَثَـل ؛ ضربه الله تعـالى لبني آدم، أصلهم واحد، وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر، كاختلاف الثمـار التي تسقى بماء واحد؛ ومنه قول الشاعر :

النـاسُ كالنَّبتِ والنَّبتُ ألوان　＊　منها شجر الصَّندلِ والكافورِ والبان

＊ ومنها شجر يَنضحُ طولَ الدّهرِ قطران ＊

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي لعلامات لمن كان له قلب يفهم عن الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

(١) الدقل : رديء التمر .

قوله تعـالى : ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أى إن تعجب يامحمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم الصادق الأمين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث؛ والله تعالى لايتعجّب، ولايجوز عليه التعجّب؛ لأنه تغيُّرالنفس بما تخفى أسبابه؛ و إنما ذَكَر ذلك ليتعجّب منه نَبيُّه والمؤمنون. وقيل المعنى : أى إن عجبت يا محمد من إنكارهم الإعادة مـع إقرارهم بأنى خالق السموات والأرض والثمـار المختلفة من الأرض الواحدة فقولهم عجب يعجب منه الخلق؛ لأن الإعادة فى معنى الابتداء . وقيل: الآية فى منكرى الصانع؛ أى إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغيّر فهو محل التعجّب؛ ونظم الآية يدل على الأول والثانى؛ لقـوله : ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ أى أنبعث إذا كنا ترابا ؟ ! . ﴿أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وقرئ «إنّا». و﴿الْأَغْلَالُ﴾ جمع غُلّ، وهو طَوْق تُشدّ به اليد إلى العُنق، أى يُغلّون يوم القيامة؛ بدليـل قوله : « إِذِ الأغلال فِى أعناقِهِم » إلى قوله : « ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ » . وقيل : الأغلال أعمالهم السيئة التى هى لازمة لهم .

قوله تعـالى : وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

قوله تعـالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أى لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب؛ قيـل هو قولهم : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَـارَةً مِنَ السَّمَاءِ » . قال قَتَادة : طلبوا العقوبة قبـل العافية ؛ وقدحكم سـبحانه بتأخير العقوبة عن هـذه الأمة إلى يوم القيامة . وقيـل : « قبـل الحسنة » أى قبل الإيمـان الذى يرجى به الأمان والحسنات . و﴿ٱلْمَثُـلَاتُ﴾ العقوبات ؛ الواحدة مَثُلَة . ورُوى عن ٱلأعمش أنه قرأ « ٱلْمُثْـلَات » بضم الميم وإسكان الثـاء ؛ وهذا جمع مُثْـلَة ، ويجوز

« المَثْلَات » تبدل من الضمة فتحة لثقلها ، وقيل : يُؤْتى بالفتحه عِوَضا من الهاء . ورُوِى عن الأعمش أنه قرأ « المَثْلَات » بفتح الميم و إسكان الثاء ، فهذا جمع مُثْلة ، ثم حَذف الضمة لثقلها ؛ ذكره جميعه النحاس رحمه الله . وعلى قراءة الجماعة واحده مَثُلة ، نحو صَدُقه ؛ وتميم تضم الثاء والميم جميعا ، واحدها على لغتهم مُثْلة ، بضم الميم وجزم الثاء ؛ مثل : غُرْفة وغُرُفات ؛ والفعل منه مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلا ، بفتح الميم وسكون الثاء . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ﴾ أي لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا . وقال ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » . ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ إذا أصرّوا على الكفر . وروى حمّاد بن سَلَمَة عن عليّ بن زيد عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت « وإن ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه لما هَنَأ أحدا عيش ولولا عقابه ووعيده وعذابه لاتّكل كل أحد " .

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا ﴾ أي هَلّا ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ . لما اقترحوا الآيات وطلبوها قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ ﴾ أي مُعْلِم . ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أي نبيّ يدعوهم إلى الله . وقيل : الهادي الله ؛ أي عليك الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم .

قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ ﴾ أي من ذكر وأنثى ، صبيح وقبيح ، صالح وطالح ؛ وقد تقدّم في سورة « الأنعام » (١) أن الله سبحانه منفرد بعلم الغيب وحده

(١) راجع جـ ٧ ص ١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

لا شريك له ؛ وذكرنا هناك حديث البخارى عن آبن عمر أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " مفاتيح الغيب خمس " الحديث . وفيـه " لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله " . وآختلف العلمـاء فى تأويل قوله : ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ فقـال قتادة : المعنى ما تُسقِط قبل التسعة الأشهر، وما تزداد فوق التسعة؛ وكذلك قال آبن عباس. وقال مجاهد : إذا حاضت آلمرأة فى حملها كان ذلك نقصانا فى ولدها ؛ فإن زادت على التسعة كان تماما لمـا نقص ؛ وعنه : الغيض ما تنقصه الأرحام من الدم، والزيادة ما تزداد منه . وقيـل : الغيض والزيادة يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبع أو غيرها، وزيادة إصبع أو غيرها . وقيل : الغيض آنقطاع دم الحيض « وما تزداد » بدم النفاس بعد الوضع .

الثانيـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحامل تحيض ؛ وهو مذهب مالك والشافعى فى أحد قوليه . وقال عطاء والشعبى وغيرهما : لا تحيض ؛ وبه قال أبو حنيفه ؛ ودليله الآية. قال ابن عبـاس فى تأويلها : إنه حيض الحبالى، وكذلك رُوى عن عكرمة ومجاهد ؛ وهو قول عائشة، وأنها كانت تفتى النساء الحوامل إذا حِضْن أن يَتْرُكْن الصلاة؛ والصحابة إذ ذاك متوافرون، ولم ينكر منهم أحد عليها ، فصار كالإجماع ؛ قاله ابن عباس . قال ابن القصّار : وذُكر أن رجلين تنازعا ولدا، فترافعا إلى عمر رضى الله عنـه فعرضه على القَافَة، فألحقه القَافَة بهما، فعَلاَه عمر بالدِّرّة، وسأل نسوة من قريش فقال : آنظُرْن ماشأن هذا الولد؟ فقُلْن : إن الأول خلا بها وخلاّها، فحاضت على الحمل، فظنت أن عِدّتها انقضت؛ فدخل بها الثانى، فانتعش الولد بماء الثانى؛ فقال عمر : الله أكبر! وألحقه بالأول، ولم يقل إن الحامل لاتحيض، ولا قال ذلك أحد من الصحابة؛ فدل أنه إجماع، والله أعلم . احتجّ المخالف بأن قال لو كان الحامل تحيض، وكان ماتراه المرأة من الدم حيضا لمـا صح استـبراء الأمة بحيض؛ وهو إجماع . وروى عن مالك فى كتاب محمد مايقتضى أنه ليس بحيض .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على أن الحـامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر، وأن عبدالملك بن مروان ولد لستة أشهر .

الرابعـــة — وهذه الســتة الأشهر هى بالأهلّة كسائر أشهر الشّريعــة؛ ولذلك قد روى فى المذهب عن بعض أصحاب مالك، وأظنــه فى كتاب ابن حارث أنه إن نقص عن الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعلة نقص الأشهر وزيادتها؛ حكاه ابن عطيه .

الخـامســـة — وآختلف العلماء فى أكثر الحمل؛ فرَوى ابن جُرَيج عن جَميلة بنت سعد عن عائشــة قالت : لا يكون الحمــل أكثر من سنتين قدر ما يتحوّل ظِلّ المِغْـزَل ؛ ذكره الدّارَقُطْنى . وقالت جميلة بنت سعد — أخت عبيد بن سعد وعن الليث بن سعد — : إن أكثره ثلاث سنين . وعن الشافعى أربع سنين؛ وروى عن مالك فى إحدى روايتيه، والمشهور عنه خمس سنين؛ وروى عنــه لا حدّ له، ولو زاد على العشرة الأعوام ؛ وهى الرواية الثالثة عنه . وعن الزهرى ست وسبع . قال أبو عمر : ومن الصحابة من يجعله إلى سبع؛ والشافعى : مُدّة الغاية منها أربع سنين . والكوفيون يقولون : سنتان لا غير . ومحمد بن عبد الحكم يقول : سنة لا أكثر . وداود يقول : تسعة أشهر، لا يكون عنده حمل أكثر منها . قال أبو عمر : وهذه مسئلة لا أصل لهـا إلا الاجتهاد، والرّد إلى ماعُرِف من أمر النساء، وبالله التوفيق . رَوى الدّارَقُطْنى عن الوليد بن مسلم قال : قلت لمـالك بن أنس إنى حدّثت عن عائشة أنها قالت : لا تزيد المرأة فى حملها على سنتين قَدْر ظِلّ المِغْزَل، فقال : سبحان الله ! مَن يقول هذا؟ ! هذه جارتنا آمرأة محمد بن عَجْلان، تحمل وتضع فى أربع سنين، آمرأة صدق، وزوجها رجل صدق؛ حملت ثلاثة أبطن فى آثنتى عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين . وذكره المبارك ابن مجاهد قال : مشهور عنــدنا كانت آمرأة محمد بن عَجْلان تحمــل وتضع فى أربع سـنين، وكانت تسمى حاملة الفيــل . وروى أيضا قال : بينما مالك بن دينار يوما جالس إذ جاءه رجل فقــال : يا أبا يحيى ! آدع لآمرأة حبلى منــذ أربع سنين قــد أصبحت فى كرب شــديد ؛ فغضب مالك وأطبق المصحف ثم قال : ما يرى هؤلاء القــوم إلا أنّا أنبياء ! ثم قرأ ، ثم دعا ، ثم قال : اللهم هــذه المرأة إن كان فى بطنها ريح فأخرجه عنهـا الساعة ، وإن كان فى بطنها جارية فأبدلهـا غلاما ، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت ، وعندك

أمّ الكتاب ، ورفع مالك يده ، ورفع الناس أيديهم ، وجاء الرسول إلى الرجل فقال : أدرك امرأتك ، فذهب الرجل ؛ فما حطّ مالك يده حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلام جَعْد قَطَطٌ (١) ، ابن أربع سنين ، قد استوت أسنانه ، ماقُطِعت سراره (٢) ؛ ورُوى أيضا أن رجلا جاء إلى عمر بن الخطاب فقال : يا أمير المؤمنين ! إنى غبت عن امرأتى سنتين فجئت وهى حبلى ؛ فشاور عمر النـاس فى رجمها ، فقال معاذ بن جبل : يا أمير المؤمنين ! إن كان لك عليها سبيل فليس لك على ما فى بطنها سبيل ؛ فاتركها حتى تضع ، فتركها ، فوضعت غلاما قد خرجت ثنيتاه ، فعرف الرجل الشـبه فقال : ابنى ورب الكعبة ! ؛ فقال عمر : عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ؛ لولا معاذ لهلك عمر . وقال الضحاك : وضعتنى أمّى وقد حملت بى فى بطنها سنتين ، فولدتنى وقد خرجت سِنّى . ويذكر عن مالك أنه حمل به فى بطن أُمه سنتان ، وقيل : ثلاث سـنين . ويقال إن محمد بن عجلان مكث فى بطن أُمه ثلاث سنين ، فماتت به وهو يضطرب اضطرابا شديدا ، فشُقّ بطنها وأخرج وقد نبتت أسنانه . وقال حمّاد ابن سلمة : إنما سمى هَرِم بن حِبان هَرِما لأنه بقى فى بطن أُمه أربع سنين . وذكر الغَزْنَوى أن الضحّاك وُلد لسنتين ، وقد طلعت سِنّه فسُمّى ضحّاكا . عبـاد بن العوّام : ولدت جارة لنا لأربع سنين غلاما شعره إلى منكبيه ، فمرّ به طير فقال : كش .

السادســة — قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : أقل الحيض والنفاس وأكثره وأقل الحمل وأكثره مأخوذ من طريق الاجتهاد ؛ لأن علم ذلك استأثر الله به ، فلا يجوز أن يحكم فى شىء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنـا ، ووُجِد ظاهرا فى النساء نادرا أو معتادا ؛ ولمّا وجدنا امرأة قد حملت أربع سنين وخمس سنين حكمنا بذلك ، والنفاس والحيض لمّا لم نجد فيه أمرا مستقرا رجعنا فيه إلى ما يوجد فى النادر منهنّ .

السابعــة — قال ابن العربى : نقل بعض المتساهلين عن المـالكيين أن أكثر الحمل تسعة أشهر ؛ وهذا ما لم ينطق به قطّ إلا هالكىّ ، وهم الطبائعيون الذين يزعمون أن مدبّر الحمل

(١) جعد قطط : شديد الجعودة . (٢) سرر الصبى : ما تقطعه القابلة .

فى الرَّحِم الكواكب السبعة؛ تأخذه شهرا شهرا، ويكون الشهر الرابع منهـا للشمس؛ ولذلك يتحرك و يضطرب، وإذا تكامل التداول فى السبعة الأشهر بين الكواكب السبعة عاد فى الشهر الثامن إلى زُحَل، فيُبْقِله بِبَرْدِه؛ فياليتنى تمكنت من مناظرتهم أو مقاتلتهم ! ما بال المرجـع بعد تمـام الدّور يكون إلى زُحَل دون غيره ؟ آلله أخبركم بهـذا أم على الله تفترون ؟ ! وإذا جاز أن يعود إلى اثنين منها لم لايجوز أن يعود التدبير إلى ثلاث أو أربع، أو يعود إلى جميعها مرتين أو ثلاثا؟ ! ما هذا التحكم بالظنون الباطلة على الأمور الباطنة ! .

الثامنــة — قوله تعـالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ يعنى من النّقصان والزّيادة . ويقال: « بمقدار » قَدْر خروج الولد من بطن أمّه، وقَدْر مكثه فى بطنها إلى خروجه . وقال قَتَادة: فى الرزق والأجل . والمقدار القَدْر؛ وعموم الآية يتناول كل ذلك، والله سبحانه أعلم .

قلت : هذه الآية تمدّح الله سبحانه وتعـالى بها بأنه عالم الغيب والشهادة؛ أى هو عالم بما غاب عن الخلق، وبمـا شهدوه . فالغيب مصدر بمعنى الغائب . والشهادة مصدر بمعنى الشاهد؛ فنبّـه سبحانه على انفراده بعـلم الغيب، والإحاطة بالباطن الذى يخفى على الخلق، فلايجوز أن يشاركه فى ذلك أحد؛ فأما أهل الطبّ الذين يستدلّون بالأمارات والعلامات فإن قطعوا بذلك فهو كفر، وإن قالوا إنها تجربة تُرِكوا وماهم عليه، ولم يَقدَح ذلك فى الممدوح؛ فإن العـادة يجوز انكسارها، والعـلم لا يجوز تبـدّله . و﴿ الْكَبِيرُ ﴾ الذى كل شيء دونه . ﴿الْمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلى على كل شيء بقدرته وقَهْره؛ وقد ذكرناهما فى شرح الأسماء مستوفى، والحمد لله .

قوله تعـالى : سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ﴾ إسرار القول : ما حَدّث به المرءُ نفسه، والجهر ماحَدَّث به غيره؛ والمراد بذلك أن الله سبحانه يعلم ما أسرّه الإنسان من

خير وشر، كما يعلم ما جهر به من خير وشر . و« منكم » يحتمل أن يكون وصفا لـ«سواء» التقدير : سِرٌّ من أَسَرَّ وجَهْرُ من جَهَر سواء منكم؛ ويجوز أن يتعلق « بسواء » على معنى : يستوى منكم، كقولك : مررت بزيد . ويجوز أن يكون على تقدير : سِر من أَسَرّ منكم وجَهْر من جَهَر منكم . ويجوز أن يكون التقدير . ذو سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، كما تقول عدل زيد وعمرو أى ذوا عدلٍ . وقيل : «سواء» أى مستوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مضاف . ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى يستوى فى علم الله السرّ والجهر، والظاهر فى الطرقات، والمستخفى فى الظلمات . وقال الأخفش وقُطْرُب المستخفى بالليل الظاهر؛ ومنه خَفَيتُ الشيء وأَخْفَيته أى أظهرتُه؛ وأخفيت الشيء أى ٱستخرجته؛ ومنه قيل للنَّبَّاش المختفى . وقال ٱمرؤ القيس :

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ(١) كَأَنَّمَا * خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ

والسّارب المتوارى، أى الداخل سَرَبا؛ ومنه قولهم : ٱنْسَرَب الوحشيُّ إذا دخل فى كِنَاسه . وقال ابن عباس : « مستخف » مستتر، « وسارب » ظاهر . مجاهد : « مستخف » بالمعاصى، « وسارب » ظاهر . وقيل : معنى « سارب » ذاهب؛ الكسائى : سَرَبَ يَسْرُب سَرَباً وسُرُوباً إذا ذهب؛ وقال الشاعر(٢) :

وكُلُّ أُناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ * ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

أى ذاهب . وقال أبو رجاء : السّارب الذاهب على وجهه فى الأرض؛ قال الشاعر(٣) :

* أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ *

وقال القُتَبِيّ : « سارب بالنهار » أى منصرف فى حوائجه بسرعة؛ من قولهم : ٱنْسَرَب الماء . وقال الأصمعىّ : خَلِّ سَرْبَه أى طريقه .

---

(١) أنفاق (جمع نفق) : وهو سرب فى الأرض إلى موضع آخر، واستعاره امرؤ القيس لجحرة الفترة والودق : المطر . وغيث مجلب : مصوّت، ويروى مخلب (بالخاء) . (٢) هو الأخنس بن شهاب التغلبى ويريد أن الناس أقاموا فى موضع واحد لا يجترئون على النقلة، وحبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتتبعه إبلهم خوفا أن يغار عليها، ونحن أعزاء خلعنا قيد فحلنا ليذهب حيث شاء . (٣) هو قيس بن الخطيم، وتمام البيت :

* وتقرب الأحلام غير قريب *

قوله تعـالى : لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ أى لله ملائكة يتعاقبـون بالليل والنهار ؛ فإذا صعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار . وقال : « مُعقِّبَاتٌ » والملائكة ذُكْران لأنه جمع مُعقِّبة ؛ يقال : مَلَك مُعقِّب ، وملائكة مُعقِّبة ، ثم مُعقِّبات جمع الجمع . وقرأ بعضهم — « لَهُ مَعَاقِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ومِن خَلْفِهِ » ، ومعاقيب جمع مُعْقِب (١) ؛ وقيل للملائكة معقّبة على لفظ الملائكة . وقيل : أنّث لكثرة ذلك منهم ؛ نحو نسّابة وعلّامة وراوية ؛ قاله الجوهرى وغيره . والتّعقب العود بعـد البدء ؛ قال الله تعـالى : « وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ » أى لم يرجع ؛ وفى الحديث (٢) : " مُعقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائلُهنّ — أو — فاعلُهنّ " فذكر التّسـبيح والتّحميد والتّكبير . قال أبو الهيثم : سُمّين « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرّة بعد مرّة ، فِعْل من عَمِل عَملًا ثم عاد إليه فقد عَقَّبَ . والمعقّبات من الإبل اللواتى يقمن عند أعجاز الإبل المعترِكات على الحوض ؛ فإذا انصرفت ناقة دخلت مكانهـا أخرى . وقوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أى المستخفى بالليل والسارب بالنهار . ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ اختلف فى الحفظ ؛ فقيل : يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوامّ والأشياء المضرّة ، لطفا منه به ، فإذا جاء القَدَر خلّوا بينه و بينه ؛ قاله ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما . قال أبو مِجْلَز : جاء رجل من مُراد (٣) إلى علىّ فقال : احترس فإن ناسا من مُراد يريدون قتلك ؛ فقال : إن مع كل

---

(١) قال الزمخشرى : جمـع معقب أو معقبة بتشديد القاف فيهما ، والياء عوض من حذف إحدى القافين فى التكسير . وقال ابن جنى : إنه تكسير معقب كمطعم ومطاعيم ، كأنه جمع على معاقبـة ، ثم حذفت الهـاء من الجمع وعوضت الياء عنها ؛ قال الألوسى : ولعله الأظهر . « روح المعانى » .

(٢) الحديث فى الدعاء وهو بتمامه فى « صحيح مسلم » : "معقبات لا يخيب قائلهن دبر كل صلاة مكتوبة ثلاث وثلاثون تسبيحة وثلاث وثلاثون تحميدة وأربع وثلاثون تكبيرة " . سميت معقبات لأنها عادت مرة بعد مرة ، أو لأنها تقال عقب كل صلاة .

(٣) مراد (بالضم وآخره دال مهملة) : قبيلة من قبائل العرب سميت باسم أبيها .

رجل مَلَكين يحفظانه مالم يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه وبين قَدَر الله، و إن الأجل حِصن حصينة؛ وعلى هــذا «يحفظونه من أمر الله» أى بأمر الله وبإذنه؛ فـ «مِن» بمعنى الباء؛ وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض . وقيل : «مِنْ» بمعنى «عن» ؛ أى يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم ؛ وهذا قول الحسن ؛ تقول : كسوته عن عُرْى ومن عُرْى ؛ ومنــه قوله عز وجل : «أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ» أى عن جوع . وقيل : يحفظونه من ملائكة العذاب، حتى لا تحلّ به عقوبة؛ لأن الله لا يغير ما بقوم من النّعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر؛ فإذا أَصرُّوا حان الأجل المضروب ونزلت بهم النّقمة ، وتزول عنهم الحَفَظة المعقِّبات . وقيل : يحفظونه من الجنّ؛ قال كعب : لولا أن الله وَكَّل بكم ملائكة يَذبُّون عنكم فى مَطْعَمكم ومَشْرَبكم وعوراتكم لتخطَّفتكم الجنّ وملائكة العــذاب من أمر الله ؛ وخصّهم بأن قال : «من أمرِ الله» لأنهــم غير معايَنين ؛ كما قال : «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى» أى ليس ممــا تشاهدونه أنتم . وقال الفرّاء فى الكلام تقديم وتأخير، تقديره : له معقِّبات من أمر الله من بين يديه ومن خلفــه يحفظونه ؛ وهو مروىّ عن مجاهــد وٱبن جُرَيج والنَّخَعىّ ؛ وعلى أن ملائكة العذاب والجنّ من أمر الله لا تقديم فيه ولا تأخير . وقال ٱبن جُرَيج : إن المعنى يحفظون عليه عمله، فحذف المضاف . وقال قَتَادة : يكتبون أقواله وأفعاله . ويجوز إذا كانت المعقّبات الملائكة أن تكون الهاء فى «له» لله عزّ وجل ، كما ذكرنا ؛ ويجوز أن تكون للستخفى، فهذا قول . وقيل : «له معقّبات من بين يديه ومن خلفه» يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى أن الملائكة تحفظه من أعدائه ؛ وقد جرى ذكر الرسول فى قوله : «لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَــا أَنْتَ مُنْذِرٌ» أى سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به فى أنه لا يضرّ النبى صلى الله عليه وسلم، بل له معقّبات يحفظونه عليه السلام ؛ ويجوز أن يرجع هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال : «ولكل قوم هاد» أى يحفظون الهــادى من بين يديه ومن خلفه . وقول رابع ـــ أن المراد بالآية السلاطين والأمراء الذين لهم قوم من بين أيديهم ومن خلفهم

يحفظونهم ؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئا ؛ قاله ابن عباس وعِكْرِمة ؛ وكذلك قال الضّحاك : هو السّلطان المتحرّس من أمر الله المشرك . وقد قيل : إن فى الكلام على هذا التأويل نفيا محذوفا، تقـديره : لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره المـاوردىّ . قال المهدوىّ : ومن جعل المعقّبات الحرس فالمعنى : يحفظونه من أمر الله على ظنه وزعمـه . وقيل : سواء من أسرّ القول ومن جهر به فله حرّاس وأعوان يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصى، ويحفظونه من أن ينجع فيه وعظ ؛ قال القُشَيرِىّ : وهذا لايمنع الربّ من الإمهال إلى أن يحقّ العذاب؛ وهو إذا غيّر هـذا العاصى ما بنفسه بطول الإصرار فيصير ذلك سـببا للعقوبة؛ فكأنه الذى يحلّ العقوبة بنفسه؛ فقوله : «يحفظونه من أمر الله» أى من امتثال أمر الله . وقال عبد الرحمن بن زيد: المعقّبات مايتعاقب من أمر الله تعالى وقضائه فى عباده؛ قال المـاوردىّ : ومن قال بهذا القول ففى تأويل قوله « يحفظونه من أمر الله » وجهان : أحدهمـا — يحفظونه من الموت مالم يأت أجل؛ قاله الضحاك . الثـانى — يحفظونه من الجنّ والهوامّ المؤذية، مالم يأت قَدَر؛ — قاله أبو أُمامة وكعب الأحبار — فإذا جاء المقدور خلّوا عنه؛ والصحيح أن المعقّبات الملائكة، وبه قال الحسن ومجاهـد وقَتَادة وآبن جُرَيج ؛ وروى عن ابن عباس، واختاره النحاس، وآحتجّ بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " الحديث، رواه الأئمة . وروى الأئمة عن عَمرو عن ابن عباس قرأ — «معقّبات من بين يديه ورقباء من خلفه [ من أمر الله ] [1] يحفظونه» فهذا قد بيّن المعنى . وقال كِنانة العَدَوىّ : دخل عثمان رضى الله تعالى عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله ! اخبرنى عن العبد كم معه من مَلَك ؟ قال : " مَلَك عن يمينك يكتب الحسـنات وآخر عن الشمال يكتب السيئات والذى على اليمين أمير على الذى على الشمال فإذا عَمِلت حسـنة كُتبت عشرا و إذا عَمِلت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين أأكتب قال لا لعـله يستغفر الله تعـالى و يتوب فإذا قال ثلاثا قال نعم آكتب أراحنا الله تعالى منه

(١) الزيادة من تفسير الطبرى .

فبئس القـرين هو ما أقلّ مراقبتـه لله عز وجل وأقل آستحياءه منا يقـول الله تعـالى « ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » وملَكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » [ وملَك قابض على ناصيتك فإذا تواضعتَ لله رفعـك و إذا تجبَّرتَ على الله قصمكَ ][1] وملَكان على شَفَتيك وليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد وآله وملَك قائم على فِيك لا يدع أن تدخل الحية فى فِيك وملَكان على عينيك فهـؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى يتـداولون ملائكة الليل على ملائكة النهـار لأن ملائكة الليل ليسوا بملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى و إبليس مع آبن آدم بالنهار وولده بالليل " . ذكره الثعلبيّ . قال الحسن : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صـلاة الفجر . وآختار الطّـبرىّ أن المعقّبات المواكب بين أيدى الأمراء وخَلْفهم؛ والهاء فى « له » لهنّ؛ على ما تقدّم . وقال العلماء رضوان الله عليهم : إن الله سبحانه جعل أوامره على وجهين : أحدهما — قضى حلوله ووقوعه بصاحبه؛ فذلك لا يدفعـه أحد ولا يغيره . والآخر — قضى مجيئـه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفـظ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ أخبر الله تعالى فى هذه الآية أنه لا يغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير، إما منهـم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ؛ كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغيير الرّماة بأنفسهم، إلى غير هـذا من أمثلة الشّريعة؛ فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير ؛ كما قال صلى الله عليه وسـلم — وقد سُئل أَنَهلِك وفينا الصّالحون ؟ قال — : " نعم إذا كَثُر الخُبْثُ[2] " . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ أى هلاكا وعذابا ﴿ فَلَا مَرَدَّ لَهُ ﴾ . وقيل : إذا أراد بهم بلاء من أمراض وأسقام فلا مردّ لبلائه . وقيل : إذا أراد الله بقوم سوءا أعمى

---

(١) الزيادة من تفسير الطبرى وغيره . (٢) المراد بالخبث الفسق والفجور .

أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ؛ فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾ أى ملجأ ؛ وهو معنى قول السُّدّىّ . وقيل : من ناصر يمنعهم من عذابه؛ وقال الشاعر :

* ما فى السماء سوى الرحمٰن من وال *

ووالٍ ووَلِىّ كقادر وقدير .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى بالمطر. «والسّحاب» جمع، والواحدة سَحَابة، وسُحُب وسَحَائب فى الجمع أيضا . ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ﴾ قد مضى فى « البقرة »[(1)] القول فى الرعد والبرق والصواعق فلا معنى للإعادة؛ والمراد بالآية بيان كمال قدرته، وأن تأخير العقوبة ليس عن عجز؛ أى يريكم البرق فى السماء خوفا للمسافر، فإنه يخاف أذاه لما يناله من المطر والهول والصواعق؛ قال الله تعالى : « أَذًى مِنْ مَطَرٍ » وطمعا للحاضر أن يكون عقبه مطر وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما . وقال الحسن : خوفا من صواعق البرق، وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . ﴿ وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ قال مجاهد : أى بالماء . «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ» من قال إن الرعد صوت السّحاب فيجوز أن يُسبّح الرعد بدليل خلق الحياة فيه ؛ ودليل صحة هذا القول قوله : « وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » فلو كان الرّعد ملَكا لدخل فى جملة الملائكة . ومن قال إنه ملك قال : معنى « من خيفته » من خيفة الله؛ قاله الطَّبرىّ وغيره . قال ابن عباس : إن الملائكة

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خائفـون من الله ليس كخوف آبن آدم؛ لا يعرف واحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلهم عن عبادة الله طعام ولا شراب؛ وعنه قال : الرّعد مَلَك يَسوق السّحاب، و إن بخار المـاء لفى نُقْرة إبهامه، وأنه مُوَكّل بالسّحاب يصرفه حيث يؤمر، وأنه يسبّح الله؛ فإذا سبّح الرّعد لم يبق مَلَك فى السّماء إلا رفع صوته بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر؛ وعنه أيضا كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذى سَبَّحتَ له . وروى مالك عن عامر بن عبد الله عن أبيه أنه كان إذا سمع صوت الرّعد قال : سبحان الذى يُسبِّح الرّعد بحمده والملائكة من خيفته، ثم يقول : إن هـذا وعيد لأهل الأرض شديد . وقيل : إنه مَلَك جالس على كرسىّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثل ذلك؛ فإذا أقبل على يمينه وسبح سَبّح الجميع من خوف الله، و إذا أقبل على يساره وسَبّح سَبَّح الجميع من خوف الله .

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ذكر المـاوردىّ عن ابن عباس وعلىّ بن أبى طالب ومجاهد : نزلت فى يهودىّ قال للنبىّ صلى الله عليه وسـلم : أخبرنى ! من أىّ شىء ربّك، أمِن لؤلؤ أم من ياقوت ؟ فجاءت صاعقة فأحرقته . وقيل : نزلت فى بعض كفّار العرب؛ قال الحسن : كان رجل من طواغيت العرب بعث النبى صلى الله عليه وسلم نَفَرا يدعونه إلى الله و رسوله والإسلام فقال لهم : أخبرونى عن ربّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن فضة أم من حديد أم نُحاس ؟ فاستعظم القوم مقالته؛ فقال : أُجيبُ محمـدا إلى ربّ لا يعرفه ! فبعث النبى صلى الله عليـه وسلم إليه مرارا وهو يقول مثل هـذا ؛ فبينـا النَّفَر ينازعونه ويدعونه إذ آرتفعت سحابة فكانت فوق رءوسهم، فرعدت وأبرقت ورمت بصاعقة، فأحرقت الكافر وهم جلوس؛ فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاستقبلهم بعض أصحاب رسول الله صـلى الله عليـه وسلم ؟ فقالوا : آحترق صاحبـكم ، فقالوا : من أين علمتم؟ قالوا : أوحى الله إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم « وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ » ذكره الثعلبى عن الحسن، والقُشيرىّ بمعناه عن أنس، وسـيأتى . وقيل : نزلت الآية فى أربد بن ربيعة أخى لَبِيد بن ربيعة، وفى عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس : أقبـل عامر بن الطُّفَيْل وأَرْبَد بن ربيعة

العامريان يريدان النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد جالس فى نفر من أصحابه ، فدخلا المسجد ، فاستشرف الناس لجمال عامر وكان أعور ، وكان من أجمل الناس؛ فقال رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : هذا يارسول الله عامر بن الطُّفَيْل قد أقبل نحوك؛ فقال : "دَعْه فإن يُرِد الله به خيرا يَهْدِه" فأقبل حتى قام عليه فقال : يا محمد مالى إن أسلمت؟ فقال : "لك ما للسلمين وعليك ما على المسلمين" . قال : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟ قال : "ليس ذاك إلىّ إنما ذلك إلى الله يجعله حيث يشاء" . قال : أفتجعلنى على الوَبَر وأنت على المَدَر ؟ قال : "لا" . قال : فما تجعل لى ؟ قال : "أجعل لك أَعِنة الخيل تغزو عليها فى سبيل الله" . قال : أوليس لى أعنّة الخيل اليوم ؟ قم معى أكلمك ؛ فقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان عامر اومأ إلى أَرْبَد : إذا رأيتنى أكلمه فدُرْ من خلفه وآضربه بالسيف ؛ فجعل يخاصم النبي صلى الله عليه وسلم ويراجعه ؛ فاخترط أَرْبَد من سيفه شبرا ثم حبسه الله ، فلم يقدر على سَلّه ، وَيبست يده على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقة فى يوم صائف صاحٍ فأحرقته، وولّى عامر هاربا وقال : يا محمد ! دعوت ربك على أربد حتى قتله ؛ والله لأملأنها عليك خيلا جُردا، وفتيانا مُردا؛ فقال عليه السلام: "يمنعك الله من ذلك وأبناء قَيْلة" يعنى الأَوْس والخَزْرَج؛ فنزل عامر بيت آمرأة سَلُولية؛ وأصبح وهو يقول : والله لئن أَصْحَر[(1)] لى محمدٌ وصاحبه — يريد مَلَك الموت — لأنفذنهما برمحى ؛ فأرسل الله مَلَكا فلطمه بجناحه فأذراه[(2)] فى التراب ؛ وخرجت على ركبته غُدّة عظيمة فى الوقت ؛ فعاد إلى بيت السَّلولية وهو يقول : غُدّة كغدة البعير، وموت فى بيت سَلُولية؛ ثم ركب على فرسه فمات على ظهره . ورَثَى لَبيد بن ربيعة أخاه أَرْبَد فقال :

يا عينُ هلّا بَكَيتِ أَرْبَد إذْ قُمْـ * ـنَا وقَامَ الخُصُـوم فى كَبَـد[(3)]
أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلَا * أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاك وَالأَسَـد
فَجّعَنِي الرَّعْدُ والصَّوَاعِقُ بالفا * رِسِ يَـوْمَ الكَرِيهَـة النَّـجِدِ[(4)]

(١) أصحر الرجل : إذا خرج إلى الصحراء .　(٢) أذراه : قلعه ورمى به .
(٣) كبد : شــدّة وعناء .　(٤) النجد : السريع الإجابة .

وفيـــه قال :

إنّ الرّزِيّة لارزيّة مِثلُهـا * فِقدانُ كلّ أخٍ كضوء الكوكب
يا أربَدَ الخيرِ الكريمَ جُدُودُه * أفردتَني أمشِي بقَـرْنٍ أعْضَب (١)

وأسلم لبيد بعد ذلك رضى الله عنه .

مسئلة ــ روى أبَان عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تأخذ الصاعقة ذاكرًا لله عزّ وجلّ" . وقال أبو هُريرة رضى الله عنه : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرّعد يقول : "سبحان من يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خِيفته وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة فعليّ ديتـه" . وذكر الخطيب من حديث سليمان بن عليّ عن عبـد الله بن عباس عن أبيه عن جده قال : كنّا مع عمر فى سـفر فأصابنـا رعد وبَرْد ، فقال لنـا كعب : من قال حين يسمع الرعد : سبحان من يسبح الرّعد بحمده والملائكة من خِيفته ثلاثا عوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ، ففعلنا فعوفينا ؛ ثم لقيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه فإذا بَردة (٢) قد أصابت أنفه فأثّرت به ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما هذا ؟ قال : بَرَدَة أصابت أنفى فأثّرت ، فقلت : إن كعبا حين سمع الرعد قال لنـا : من قال حين يسمع الرعد سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ثلاثا عُوفى ممـا يكون فى ذلك الرعد ، فقلنا فعوفينا ؛ فقال عمر : أفلا قلتم لنا حتى نقولهـا ؟ وقد تقدّم هذا المعنى فى «البقرة» (٣) .

قوله تعالى : ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ يعنى جدال اليهوديّ حين سأل عن الله تعالى : من أيّ شيء هو ؟ قاله مجاهد . وقال ابن جُرَيج : جدال أرْبَد فيما همّ به من قتل النبى صلى الله عليه وسلم . ويجوز أن يكون «وهم يجادلون فى الله» حالا ، ويجوز أن يكون منقطعا . وروى أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى عظيم من المشركين يدعوه إلى الله عز وجل ، فقال لرسول الله : أخبرنى عن إلهك هـذا ! أهو من فضة أم من ذهب أم من نحـاس ؟

---

(١) قرن أعضب : مكسور . (٢) البرد (بالتحريك) : حب الغمام .

(٣) راجع جـ ١ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلمه، فقال: "ارجع إليه فادعه" فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نزل: «وهم يجادلون فى الله» . ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ قال ابن الأعرابى: «المحال» المكر، والمكر من الله عز وجل التدبير بالحق. النحاس: المكر من الله إيصال المكروه إلى من يستحقه من حيث لا يشعر. وروى ابن اليزيدى عن أبى زيد «وهو شديد المحال» أى النقمة . وقال الأزهرى: «المحال» أى القوة والشدة . والمَحْل: الشدة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلانا مِحَالًا أى قاويته حتى يتبين أينا أشد . وقال أبو عبيد: «المحال» العقوبة والمكروه . وقال ابن عَرَفة: «المحال» الجدال؛ يقال: ماحَلَ عن أمره أى جادل . وقال القُتَيبي: أى شديد الكيد؛ وأصله من الحيلة، جعل ميمه كميم المكان؛ وأصله من الكون، ثم يقال: تمكنت . وقال الأزهرى: غلط ابن قتيبة أن الميم فيه زائدة؛ بل هى أصلية، وإذا رأيت الحرف على مثال فِعال أوله ميم مكسورة فهى أصلية؛ مثل: مِهاد ومِلاك ومِراس، وغير ذلك من الحروف . ومِفْعَل إذا كانت من بنات الثلاثة فإنه يجيء بإظهار الواو مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر، وغيرها من الحروف؛ وقال (١) : وقرأ الأعرج — «وَهُوَ شَدِيدُ الْمَحَالِ» بفتح الميم؛ وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحول؛ ذكر هذا كله أبو عبيد الهَرَوى، إلا ما ذكرناه أولا عن ابن الأعرابى؛ وأقاويل الصحابة والتابعين بمعناها، وهى ثمانية: أولها — شديد العداوة، قاله ابن عباس . وثانيها — شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضا . وثالثها — شديد الأخذ، قاله علىّ بن أبى طالب . ورابعها — شديد الحقد، قاله ابن عباس . وخامسها — شديد القوة، قاله مجاهد . وسادسها — شديد الغضب، قاله وهب بن مُنَبِّه . وسابعها — شديد الهلاك بالمحل، وهو القحط؛ قاله الحسن أيضا . وثامنها — شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة . وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المحال والمماحلة المماكرة والمغالبة؛ وأنشد للأعشى:

فرعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فى غُصُنِ المَجْـ　*　ـدِ كثيرُ النَّدَى شديدُ المِحَالِ

---

(١) أى الأزهرى كما فى اللسان مادة «محل» .

وقال آخـــر[(١)] :

وَلَبْسٍ بَيْنَ أقوامٍ فكُلٌّ * أَعَدَّ له الشَّغَازِبَ والمِحَالا

وقال عبد المطلب :

لاهُـمَّ إنَّ المَـرْءَ يَمْـ * ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَـعْ حِلالَكْ[(٢)]

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُـم ومِحَا * لُهُـمْ عَـدْوًا مِحَالَك

قوله تعالى : لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ أي لله دعوة الصدق . قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : لا إله إلا الله . وقال الحسن : إن الله هو الحق ، فدعاؤه دعوة الحق . وقيل : إن الإخلاص في الدعاء هو دعوة الحق ؛ قاله بعض المتأخرين . وقيل : دعوة الحق دعاؤه عند الخوف ؛ فإنه لا يدعى فيه إلا إياه ، كما قال : « ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ » ؛ قال الماوردي : وهو أشبه بسياق الآية ؛ لأنه قال : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ يعني الأصنام والأوثان . ﴿ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء . ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ ضرب الله عز وجل الماء مثلا ليأسهم من الإجابة لدعائهم ؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد ؛ قال :

فأصبحتُ فيما كان بيني وبينها * من الودّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ

---

(١) هو ذو الرمة ، والبيت من قصيدة يمدح بها بلال بن أبي بردة بن أبي موسى . واللبس : الاختلاط . والشغازب قال الأصمعي : الشغزبية ضرب من الحيلة في الصراع ، وهو أن يُدخل الرِّجل الرجل بين رجلي صاحبه فيصرعه ؛ والمعنى : فكل رجل من القوم أعد له حجة وكيدا .

(٢) الحلال ( بالكسر ) : القوم المقيمون المتجاورون ؛ يريد بهم سكان الحرم .

وفى معنى هذا المثل ثلاثة أوجه : أحدها — أن الذى يدعو إلهـا من دون الله كالظمآن الذى يدعو المـاء إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبدا ، لأن المـاء لا يستجيب ، وما المـاء ببالغ إليه ؛ قاله مجاهد . الثانى — أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى المـاء وقد بسط كفّه فيـه ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، لكذب ظنه ، وفساد توهمه ؛ قاله ابن عباس . الثالث — أنه كباسط كفّيه إلى المـاء ليقبض عليه فلا يجد فى كفه شىء منه . وزعم الفراء أن المراد بالمـاء هاهنا البئر ؛ لأنها معدن للـاء ، وأن المثـل كمن مدّ يده إلى البئر بغير رِشاء ؛ وشاهده قول الشاعر :

فإن المـاءَ ماءُ أَبِي وجَـدِّي ＊ وبِئرِى ذُو حَفَرْتُ وذُو طَوَيْتُ

قال على رضى الله عنه : هو كالعطشان على شفة البئر ، فلا يبلغ قعر البئر ، ولا المـاء يرتفع إليه ؛ ومعنى « إلا كباسط » إلا كاستجابة باسط كفيه « إلى المـاء » فالمصدر مضاف إلى الباسط ، ثم حذف المضاف ؛ وفاعل المصدر المضاف مراد فى المعنى وهو المـاء ؛ والمعنى : إلا كإجابة باسط كفيه إلى المـاء ؛ واللام فى قوله : «ليبلغ فاه» متعلقة بالبسط ؛ وقوله : « وما هو ببالغه» كناية عن المـاء ؛ أى وما المـاء ببالغ فاه . ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم ؛ أى ما الفم ببالغ المـاء . ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ ﴾ أى ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا فى ضلال ، لأنها شرك . وقيل : إلا فى ضلال أى يضلّ عنهم ذلك الدعاء ، فلا يجدون منـه سبيلا ؛ كما قال : « أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا » . وقال ابن عباس : أى أصوات الكافرين محجوبة عن الله فلا يسمع دعاءهم .

قوله تعـالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ قال الحسن وقَتَادة وغيرهما : المؤمن يسجد طوعا ، والكافر يسجد كَرها بالسيف . وعن قَتَادة أيضا يسجد الكافر كارها حين لا ينفعه الإيمان . وقال الزجاج : سجود الكافر كَرها مافيه من الخضوع وأثر الصّنعة .

وقال ابن زيد : «طوعا» من دخل فى الإسلام رغبة، و«كَرها» من دخل فيه رهبة بالسيف. وقيل : «طوعا» من طالت مدة إسلامه فألف السجود، و«كَرها» من يكره نفسه لله تعالى؛ فالآية فى المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض» وبعض من فى الأرض. قال القُشَيْرىّ : وفى الآية مسلكان : أحدهما — أنها عامة والمراد بها التخصيص؛ فالمؤمن يسجد طوعا، وبعض الكفار يسجدون إكراها وخوفا كالمنافقين؛ فالآية محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرّاء. وقيل على هذا القول : الآية فى المؤمنين؛ منهم من يسجد طوعا لا يثقل عليه السجود، ومنهم من يثقل عليه؛ لأن التزام التكليف مشقّة، ولكنهم يتحملون المشقّة إخلاصا وإيمانا، إلى أن يألفوا الحق ويَمْرُنوا عليه. والمسلك الثانى — وهو الصحيح — إجراء الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان : أحدهما — أن المؤمن يسجد طوعا، وأما الكافر فمأمور بالسجود مؤاخذ به. والثانى — وهو الحق — أن المؤمن يسجد ببدنه طوعا، وكل مخلوق من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق، يسجد دلالة وحاجة إلى الصانع؛ وهذا كقوله : «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» وهو تسبيح دلالة لا تسبيح عبادة. ﴿ وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى ظلال الخلق ساجدة لله تعالى بالغدوّ والآصال؛ لأنها تبين فى هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية؛ وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء؛ وهو كقوله تعالى : «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» قاله ابن عباس وغيره. وقال مجاهد : ظِلّ المؤمن يسجد طوعا وهو طائع، وظلّ الكافر يسجد كَرها وهو كاره. وقال ابن الأنبارىّ : يجعل للظلال عقول تسجد بها وتخشع بها، كما جعل للجبال أفهام حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيرى : فى هذا نظر؛ لأن الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقل بشرط تقدير الحياة، وأما الظلال فآثار وأعراض، ولا يتصور تقدير الحياة لها، والسجود بمعنى الميل؛ فسجود الظلال ميلها من جانب إلى جانب؛ يقال : سجدت النخلة أى مالت. و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب، ثم أصائل جمع الجمع؛ قال أبو ذؤيب الهذلىّ :

لَعَمْرِى لَأَنْتَ البيتُ أُكْرِمُ أَهلَهُ * وأَقعــدُ فى أَفْيَائِه بالأَصَـائِل

و «ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفا على «مَنْ» ويجوز أن يكون آرتفع بالابتـداء والخبر محذوف؛ التقدير : وظلالهم سُجَّـدٌ بالغدوّ والاصال . «والغدوّ» يجوز أن يكون مصـدرا، ويجوز أن يكون جمع غداة؛ يقوّى كونه جمعا مقابلة الجمع الذى هو الآصال به .

قوله تعـالى : قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول للشركين : «قل من رب السموات والأرض» ثم أمره أن يقول : هو الله إلزاما للحجة إن لم يقولوا ذلك ، وجهلوا مَن هو . ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ هذا يدّل على آعترافهم بأن الله هو الخالق [و إلا] لم يكن للاحتجاج بقوله : «قل أفتخذتم من دونه أولياء» معنى؛ دليله قوله : «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ» أى فإذا آعترفتم فلم تعبدون غيره؟ ! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرّ؛ وهو إلزام صحيح . ثم ضرب لهم مثـلا فقال : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوى المؤمن الذى يبصر الحق، والمشرك الذى لا يبصر الحق . وقيل : الأعمى مَثَلٌ لمـا عبدوه من دون الله، والبصير مَثَلُ الله تعالى : ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَٱلنُّـورُ﴾ أى الشرك والإيمـان . وقرأ آبن محيصن وأبو بكر والأعمش وحمزة والكسائى «يستوى» بالياء لتقدم الفعل،ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيق . الباقون بالتاء،واختاره أبو عبيد، قال : لأنه لم يحل بين المؤنث والفعل حائل . و «الظلمات والنور» مثـل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك . ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الآحتجاج؛ أى خَلَق غير الله مثل

خلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم . ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى قل لهم يا محمـد : الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبـده كل شيء . والآية ردّ على المشركين والقَدَرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله . ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ قبل كل شيء . ﴿الْقَهَّارُ﴾ الغالب لكل شيء ، الذى يغلب فى مراده كل مريد . قال القُشَيرىّ أبو نصر : ولا يبعد أن تكون الآية واردة فيمن لا يعترف بالصانع ؛ أى سَلْهم عن خالق السموات والأرض، فإنه يسهل تقرير الحجة فيه عليهم ، ويقرب الأمر من الضرورة ؛ فإن عَجْز الجماد وعَجْز كل مخلوق عن السموات والأرض معلوم؛ وإذا تقرّر هذا وبَانَ أن الصانع هو الله فكيف يجوز اعتداد الشريك له ؟ ! وبيّن فى أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لا شتبه الخلق، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟ ! .

قوله تعـالى : أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

قوله تعـالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ ضرب مثـلا للحق والباطل ؛ فشبّه الكفر بالزبد الذى يعـلو المـاء ، فإنه يضمحلّ ويعلق بجنبات الأودية ، وتدفعه الرياح ؛ فكذلك يذهب الكفر ويضمحلّ ، على ما نبيّنه . قال مجاهد :

« فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : بقدر ملئها . وقال ابن جُرَيج : بقدر صغرها وكبرها . وقرأ الأَشْهَب العُقَيْلي والحسن « بِقَدْرِها » بسكون الدال، والمعنى واحد . وقيل : معناها بما قدّر لها . والأودية جمع الوادى ؛ وسمّى واديا لخروجه وسيلانه ؛ فالوادى على هذا آسم للماء السائل . وقال أبو على : « أودية » توسع؛ أى سال ماؤها فحذف، قال : ومعنى « بقدرها » بقدر مياهها؛ لأن الأودية ما سالت بقدر أنفسها . « فَٱحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا » أى طالعا عاليا مرتفعا فوق الماء، وتمّ الكلام؛ قاله مجاهد . ثم قال : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ﴾ وهو المثل الثانى . ﴿ ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ ﴾ أى حلية الذهب والفضة . ﴿ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ قال مجاهد : الحديد والنحاس والرصاص . وقوله : « زبد مثله » أى يعلو هذه الأشياء زبد كما يعلو السيل؛ وإنما احتمل السيل الزبد لأن الماء خالطه تراب الأرض فصار ذلك زبدا، كذلك ما يوقد عليه فى النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما ينبثّ فى الأرض من المعادن فقد خالطه التراب؛ فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله تراب الأرض . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَاطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ﴾ قال مجاهد : جمودا . وقال أبو عبيدة قال أبو عمرو ابن العلاء : أَجْفَأَتِ القِدْرُ إذا غَلَت حتى ينصبّ زَبَدها، وإذا جَمَد فى أسفلها . والجُفَاء ما أجفاه الوادى أى رمَى به . وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ «جُفَالًا» قال أبو عبيدة: يقال أَجْفَلَتِ القِدْرُ إذا قذفت بزبدها، وأجفلت الريح السحاب إذا قطعته . ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد : هو الماء الخالص الصّافى . وقيل : الماء وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص ؛ وهو أن المثلين ضربهما الله للحقّ فى ثباته، والباطل فى اضمحلاله ؛ فالباطل وإن علا فى بعض الأحوال فإنه يضمحلّ كاضمحلال الزّبد والخبَث . وقيل : المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه القلوب ؛ فَشبّه القرآن بالمطر لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبّه القلوب بالأودية يدخل فيها من القرآن مثل ما يدخل فى الأودية بحسب سعتها وضيقها . قال ابن عباس : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً » قال قرآنا ؛ « فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا » قال : الأودية قلوب العباد . قال صاحب

«سوق العروس»[1]: إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مَثّل القرآن بالمـاء، ومَثّل القلوب بالأودية، ومثل المُحْكَم بالصافى، ومثل المتشابه بالزَّبد . وقيل : الزّبد مخايل النفس وغوائل الشكّ ترتفع من حيث ما فيها فتضطرب من سلطان تلَعها، كما أن ماء السيل يجرى صافيا فيرفع مايجد فى الوادى باقيا؛ وأما حلية الذهب والفضة فمثل الأحوال السَّنِية، والأخلاق الزكية، التى بها جمال الرجال، وقوام صالح الأعمال، كما أن من الذهب والفضة زينة النساء، وبهما قيمة الأشياء. وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائى وحفص «يوقدون» بالياء؛ واختاره أبو عبيد لقوله : « ينفع الناس » فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا . الباقون بالتاء لقوله فى أوّل الكلام : «أَفَاتّخذتم من دونه أولياء» الآية . وقوله : « فى النار » متعلق بمحذوف، وهو فى موضع الحال، وذو الحال الهـاء التى فى « عليه » التقدير : وممـا توقدون عليه ثابتا فى النار أو كائنا . وفى قوله : «فى النار» ضمير مرفوع يعود إلى الهاء التى هى آسم ذى الحال . ولا يستقيم أن يتعلق « فى النار » بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم أوقدتُ عليـه فى النار؛ لأن الموقَد عليه يكون فى النار، فيصير قوله « فى النار » غير مفيد . وقوله : « ٱبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ » مفعول له . « زَبَدٌ مِثْلُهُ » ابتداء وخبر؛ أى زبد مثل زبد السّيل . وقيل : إن خبر «زبد» قوله : « فى النار » . الكسائى : « زبد » ابتـداء، و « مثله » نعت له، والخبر فى الجملة التى قبله، وهو «مما يوقدون» . ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ أى كما بيّن لكم هذه الأمثال فكذلك يضربها بيّنات . تمّ الكلام ، ثم قال : ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِرَبِّهِـمْ ﴾ أى أجابوا؛ استجاب بمعنى أجاب؛ قال[2] :

* فلَمْ يَستجِبهُ عند ذاكَ مُجيب *

وقد تقدّم؛ أى أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات . ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ لأنها فى نهاية الحسن . وقيل : من الحسنى النصر فى الدنيا، والنعيم المقيم غدا . ﴿ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ﴾

---

(١) هو : أبو معشر عبد الكريم بن عبـد الصمد الطبرى، نزيل مكة المكرمة، المتوفى بها سنة ٤٧٨ وكتابه : «سوق العروس» فى علم القراءات . (كشف الظنون) .

(٢) هو كعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار، وصدر البيت : * وداع دعا يا من يجيب إلى الندى *

أى لم يجيبوا إلى الإيمان به . ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ أى من الأموال . ﴿ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ﴾ ملك لهم ﴿ لَافْتَدَوْا بِهِ ﴾ من عذاب يوم القيامة؛ نظيره فى « آل عمران » « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » ، « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ » حسب ما تقدّم بيانه هناك (١) . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى لا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة . وقال فَرْقَد السَّبَخِيّ (٢) قال إبراهيم النَّخعيّ : يا فَرْقَد ! أتدرى ما سوء الحساب؟ قلت : لا ! قال : أن يحاسَب الرجل بذنبه كلّه لا يفقد منه شيء . ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ أى مسكنهم ومقامهم . ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ أى الفراش الذى مهدوا لأنفسهم .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر ، ورُوى أنها نزلت فى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وأبى جهل لعنـه الله . والمراد بالعَمَى عَمَى القلب ، والجاهل بالدين عَمِيّ القلب . ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ هـذا من صفة ذوى الألباب ؛ أى إنمـا يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله . والعهـد اسم للجنس؛ أى بجميع عهود الله ، وهى أوامره ونواهيه التى وصّى بها عبيده ؛ ويدخل فى هذه الألفاظ التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع المعاصى . وقوله : ﴿ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ يحتمل أن يريد به جنس المواثيق ، أى إذا عقـدوا فى طاعة الله عهدا لم ينقضوه . قال قَتَادة : تقـدّم الله إلى عباده فى نقض الميثاق ونهى عنه فى بضع وعشرين آية ؛ ويحتمل أن يشير إلى ميثاق بعينه ، وهو الذى أخذه

(١) راجع جـ ٤ ص ٢١ وما بعدها ، ص ١٣١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) السبخى ( بفتحتين ) إلى السبخة موضع بالبصرة .

الله على عباده حين أخرجهم من صُلْب أبيهم آدم . وقال القَفّال : هو ما ركّب فى عقــولهم من دلائل التوحيد والنبوّات .

الثانيـــة — روى أبو داود وغيره عن عوف بن مالك قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعة أو ثمـانية أو تسعة فقال: "ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم" وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا : قد بايعناك [ حتى قالها ثلاثا ؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه ، فقال قائل : يا رسول الله! إنا قد بايعناك ](1) فعلى ماذا نبايعك ؟ قال : "أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتُصلّوا الصلوات الخمس وتَسمعوا وتُطيعوا — وأَسَرّ كلمةً خفيّــة — قال لا تسألوا الناس شيئا" قال : ولقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَــوْطه فما يسأل أحدا أن يناوله إيّاه . قال ابن العربيّ : من أعظم المواثيق فى الذّكر ألا يُسأل سواه ؛ فقــد كان أبو حمزة الخراسانى من كبار العباد سمع أن أناسا بايعوا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ألا يسألوا أحدا شيئا ، الحديث ؛ فقال أبو حمزة : رَبِّ ! إن هؤلاء عاهدوا نبيك إذ رأوه ، وأنا أعاهدك ألا أسأل أحدا شيئا؛ قال : فخرج حَاجًّا من الشام يريد مكة فبينما هو يمشى فى الطريق من الليل إذ بقى عن أصحابه لعذر ثم أتبعهم ، فبينما هو يمشى إليهم إذ سقط فى بئر على حاشية الطريق ؛ فلمـا حَلَّ فى قعره قال : أستغيث لعل أحدا يسمعنى. ثم قال : إن الذى عاهـدته يرانى ويسمعنى ، والله ! لا تكلمت بحرف للبشر ، ثم لم يلبث إلا يسيرا إذ مرّ بذلك البئر نفر ، فلما رأوه على حاشية الطريق قالوا : إنه لينبغى سدّ هذا البئر ؛ ثم قطعوا خشبا ونصبوها على فم البئر وغطّوها بالتراب ؛ فلما رأى ذلك أبو حمزة قال : هذه مهلكة ، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال : والله ! لا أخرج منها أبدا ؛ ثم رجع إلى نفسه فقال : أليس قد عاهدتَ من يراك ؟فسَكَتَ وتَوكّل، ثم استند فى قعر البئر مفكرا فى أمره فإذا بالتراب يقع عليه؛ والخشب يرفع عنه، وسمع فى أثناء ذلك من يقول: هات يدك! قال: فأعطيته يدى فأقلّنى فى مرة واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أر أحدا؛ فسمعت هاتفا يقول: كيف رأيت ثمرة التوكل؛ وأنشد:

(١) الزيادة من كتب الحديث .

نَهانِى حَيائِى منكَ أن أكشفَ الهَوَى * فأغنيتَنِى بالعِلْمِ منكَ عنِ الكَشْفِ
تَلَطفْتَ فى أمرِى فأبديتَ شاهدِى * إلى غائبِى واللطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ
تَراءيتَ لى بالعلمِ حتّى كأنما * تُخَبِّرُنِى بالغيبِ أنكَ فى كَفِّ
أَرَانِى وبى من هَيْبتى لَكَ وَحْشَةٌ * فتؤنِسُنِى باللُّطفِ منكَ وبالعطفِ
وتُحيِي مُحِبًّا أنتَ فى الحبِّ حَتْفُهُ * وذا عَجَبٌ كيف الحياةُ مَعَ الحَتْفِ

قال ابن العربى : هذا رجل عاهد الله فوجد الوفاء على التمام والكمال ، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا . قال أبو الفرج الجوزى : سكوت هذا الرجل فى هذا المقام على التوكل بزعمه إعانة على نفسه، وذلك لا يحل ؛ ولو فهم معنى التوكل لعلم أنه لا ينافى استغاثته فى تلك الحالة ؛ كما لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من التوكل بإخفائه الخروج من مكة ، واستئجاره دليلا، واستكتامه ذلك الأمر، واستتاره فى الغار، وقوله لسراقة : "اخْفِ عنّا". فالتوكل الممدوح لا يُنال بفعل محظور؛ وسكوت هذا الواقع فى البئر محظور عليه؛ وبيان ذلك أن الله تعالى قد خلق للآدمى آلة يدفع عنه بها الضرر ، وآلة يجتلب بها النفع ، فإذا عطّلها مدّعيا للتوكل كان ذلك جهلا بالتوكل، وردّا لحكمة التواضع؛ لأن التوكل إنما هو اعتماد القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطع الأسباب؛ ولو أن إنسانا جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار ؛ قاله سفيان الثورى وغيره ، لأنه قد دُلّ على طريق السلامة ، فإذا تقاعد عنها أعان على نفسه . وقال أبو الفرج : ولا التفات إلى قول أبى حمزة : «فجاء أسد فأخرجنى» فإنه إن صح ذلك فقد يقع مثله اتفاقا ، وقد يكون لطفا من الله تعالى بالعبد الجاهل؛ ولا ينكر أن يكون الله تعالى لطف به، إنما ينكر فعله الذى هو كَسْبه، وهو إعانته على نفسه التى هى وديعة لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها .

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ ظاهر فى صلة الأرحام؛ وهو قول قَتَادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ قيل: فى قطع الرحم . وقيل : فى جميع المعاصى . ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ « سوء الحساب » الاستقصاء فيه والمناقشة؛ ومن نُوقش الحساب عُذّب . وقال ابن عباس وسعيد بن جُبير: معنى « يصلون ما أمر الله به » الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم . الحسن : هو صلة محمد صلى الله عليه وسلم. ويحتمل رابعا: أن يصلوا الإيمان بالعمل الصالح، «ويخشون ربهم» فيما أمرهم بوصله ، «ويخافون سوء الحساب» فى تركه؛ والقول الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ قيل: «الذين» مستأنف؛لأن «صبروا» ماض فلا ينعطف على «يوفون» . وقيل : هو من وصف من تقدّم، و يجوز الوصف تارة بلفظ الماضى، وتارة بلفظ المستقبل؛ لأن المعنى من يفعل كذا فله كذا؛ ولما كان «الذين» يتضمن الشرط [و] الماضى فى الشرط كالمستقبل جاز ذلك؛ ولهذا قال : «الذين يوفون» ثم قال : «والذين صبروا» ثم عطف عليه فقال : «ويدرءون بالحسنة السيئة» . قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصية الله . وقال عطاء : صبروا على الرزايا والمصائب، والحوادث والنوائب. وقال أبو عِمْران الجَوْنى : صبروا على دينهم ابتغاء وجه الله . ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أدّوها بفروضها وخشوعها فى مواقيتها . ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعنى الزكاة المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القول فى هذا فى «البقرة»[(1)] وغيرها. ﴿وَيَدْرَءُونَ

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال؛ قاله ابن عباس. ٱبن زيد: يدفعون الشر بالخير. سعيد بن جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضحاك: يدفعون الفحش بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ٱبن شجرة: يدفعون الذنب بالتوبة. القُتَبيّ: يدفعون سفه الجاهل بالحلم؛ فالسفه السيئة، والحلم الحسنة. وقيل: إذا هموا بسيئة رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشرك بشهادة أن لا إله إلا الله؛ فهذه تسعة أقوال، معناها كلها متقارب، والأول يتناولها بالعموم؛ ونظيره: «إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ» ومنه قوله عليه السلام لمعاذ: "وأَتْبِـع السيّئةَ الحسَنَةَ تَمْحُها وخَالِقِ الناسَ بِخُلُق حَسَن".

قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ أى عاقبة الآخرة، وهى الجنة بدل النار، والدار غدا داران: الجنة للطيع، والنار للعاصى؛ فلمـا ذكر وصف المطيعين فدارهم الجنة لامحالة. وقيل: عنى بالدار دار الدنيا؛ أى لهم جزاء ما عملوا من الطاعات فى دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ أى لهم جنات عدن؛ فـ«جنات عدن» بدل من «عقبى». ويجوز أن تكون تفسيرا لـ«عقبى الدار» أى لهم دخول جنات عدن؛ لأن «عقبى الدار» حَدَث، و«جنات عدن» عين، والحدَث إنمـا يفسر بحدَث مثله؛ فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول. ويجوز أن يكون « جنات عدن » خبر ابتداء محذوف. و « جنات عدن » وسط الجنة وقَصَبتها، وسقفها عرش الرحمن؛ قاله القُشَيرىّ أبو نصر عبد الرحيم. وفى صحيح البخارى: "إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسـط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنـه تَفَجّر أنهـار الجنة". فيحتمل أن يكون « جنات » كذلك، إن صحّ فكذلك خبر. وقال عبد الله بن عمرو: إن فى الجنة قصرا يقال له عَدْن، حوله البُرُوج والمُرُوج، فيـه ألف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبَرة[1] لا يدخله إلا نبىّ أو صـدّيق أو شهيد. و « عدن » مأخوذ من عَدَن بالمكان إذا أقام فيـه؛ على ما يأتى بيانه فى سورة « الكهف »[2] إن شاء الله. ﴿ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ يجوز أن

(١) الحبرة (بكسر الحاء المهملة وفتحها): ضرب من البرود اليمنية منمّر.　(٢) آية ٣١.

يكون معطوفا على « أولئك » المعنى : أولئـك ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم لهم عقبى الدار . ويجوز أن يكون معطوفا على الضمير المرفوع فى « يدخلونها » وحسن العطف لمـا حال الضمير المنصوب بينهما . ويجوز أن يكون المعنى : يدخلونهـا ويدخلها من صلح من آبائهم ، أى من كان صالحا؛ لا يدخلونهـا بالأنساب . ويجوز أن يكون موضع « مَنْ » نصبا على تقدير : يدخلونها مع من صلح من آبائهم، وإن لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامة لهم . وقال آبن عباس : هذا الصلاح الإيمـان بالله والرسول؛ ولو كان لهم مع الإيمان طاعات أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التبعيّة . قال القُشَيرى : وفى هـذا نظر؛ لأنه لا بد من الإيمان، فالقول فى آشتراط العمل الصالح كالقول فى اشتراط الإيمـان؛ فالأظهر أن هـذا الصلاح فى جمـلة الأعمال ، والمعنى : أن النعمة غَدًا تَتِمّ عليهم بأن جعلهم مجتمعين مع قراباتهم فى الجنة، وإن دخلها كل إنسان بعمل نفسه؛ بل برحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ أى بالتحف والهدايا من عند الله تكرمة لهم . ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى يقولون : سلام عليكم؛ فأضمر القول، أى قد سلمتم من الآفات والمحن . وقيـل : هو دعاء لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين ؛ أى سلمكم الله، فهو خبر معناه الدعاء ؛ ويتضمن الاعتراف بالعبودية . ﴿ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ أى بصبركم ؛ فـ«ـما » مع الفعل بمعنى المصدر، والباء فى « بمـا » متعلقة بمعنى « سلام عليكم » . ويجوز أن تتعلق بمحذوف؛ أى هذه الكرامة بصبركم، أى على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير . وقيل : على الفقر فى الدنيا؛ قاله أبو عِمْران الجَوْنى . وقيل : على الجهاد فى سبيل الله؛ كما روى عن عبد الله بن عمر قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : "هل تدرون من يدخل الجنة من خلق الله" قالوا : الله ورســوله أعلم ؛ قال : "المجاهدون الذين تُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره فيموت أحدهم وحاجته فى نفسه لا يستطيع لها قضاء فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . وقال محمد بن إبراهيم : كان النبى صلى الله عليه وسلم يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : "السلام عليكم بما صـبرتم فنعم

عقبى الدار" وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان؛ وذكره البيهقي عن أبي هريرة قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي الشهداء ، فإذا أتى فرضة[(١)] الشعب يقول : " السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار" . ثم كان أبو بكر بعد النبي صلى الله عليه وسلم يفعله ، وكان عمر بعد أبي بكر يفعله ، وكان عثمان بعد عمر يفعله ؛ وقال الحسن البصري رحمه الله : « بما صبرتم » عن فضول الدنيا . وقيل : « بما صبرتم » على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ؛ قال معناه الفضيل بن عياض . ابن زيد : « بما صبرتم » عما تحبونه إذا فقدتموه . ويحتمل سابعا — « بما صبرتم » عن اتباع الشهوات . وعن عبد الله بن سلام وعلي بن الحسين رضي الله عنهم [أنهما قالا[(٢)]] : إذا كان يوم القيامة ينادى مناد ليقم أهل الصبر ؛ فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة ؛ قالوا : قبل الحساب ؟ قالوا نعم ! فيقولون : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : وما كان صبركم؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معاصي الله ، وصبرناها على البلاء والمحن في الدنيا . قال علي بن الحسين : فتقول لهم الملائكة : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . وقال ابن سلام : فتقول لهم الملائكة : «سلام عليكم بما صبرتم» . ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي نعم عاقبة الدار التي كنتم فيها ؛ عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ؛ فالعقبى على هذا اسم ، و «الدار» هي الدنيا . وقال أبو عمران الجوني : «فنعم عقبى الدار» الجنة عن النار . وعنه : « فنعم عقبى الدار » الجنة عن الدنيا .

قوله تعالى : وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰٓئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

(١) فرضة الشعب : فوهته . والشعب : ما انفرج بين جبلين . والشهداء كانوا بجبل أحد .
(٢) في الأصل : « أنه قال » .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ ﴾ لما ذكر الموفين بعهـده، والمواصلين لأمره ، وذكر مالهم ذكر عكسهم . نقض الميثاق : ترك أمره . وقيل : إهمال عقولهم ، فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعـالى . ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ أى من الأرحام، والإيمان بجميع الأنبياء . ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بالكفر وآرتكاب المعاصى . ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ أى الطّرد والإبعاد من الرحمة . ﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ أى سوء المنقلَب، وهو جهنم . وقال سعد بن أبى وقّاص: والله الذى لا إله إلا هو ! إنهم الحَرُورِيّة .

قوله تعـالى : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ لما ذكر عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك بيّن أنه تعـالى الذى يبسط الرزق ويقدر فى الدنيا، لأنها دار آمتحان؛ فبَسْط الرزق على الكافر لا يدلّ على كرامته ، والتّقتير على بعض المؤمنين لا يدلّ على إهانتهم . « ويقدِر » أى يضيق؛ ومنه « وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيّق . وقيـل : « يقدر » يعطى بقـدر الكفاية . ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ يعنى مشركى مكة؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عنـد الله ؛ وهو معطوف على « ويفسـدون فى الأرض » . وفى الآية تقـديم وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا . ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ ﴾ أى فى جنبها ﴿ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾ أى متاع من الأمتعة؛ كالقَصْعة والسُّكُرّجة(1) . وقال مجاهد : شىء قليل ذاهب ؛ من مَتَعَ النهارُ إذا ارتفع، فلا بدّ له من زوال . آبن عباس : زَادٌ كزاد الراعى . وقيل : متاع الحياة الدنيا ما يُستمتع بها منها . وقيل : ما يتزوّد منها إلى الآخرة ، من التقوى والعمل الصالح ؛ « ولهم سوء الدار » ثم آبتدأ « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدِر » أى يوسّع ويضيّق .

قوله تعـالى : وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾

(1) السكرجة : إناء صغير يؤكل فيه الشىء القليل من الأدم ، وهى فارسية .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ بيّن فى مواضع أن اقتراح الآيات على الرسـل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تدلّ على الصـدق ؛ والقائل عبد الله بن أبى أمية وأصحابه حين طالبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم بالآيات . ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ ﴾ عزّ وجلّ ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ أى كما أضلّكم بعد ما أنزل من الآيات وحرمكم الاستدلال بها يضلّكم عند نزول غيرها . ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أى من رجع . والهـاء فى « إليـه » للحق ، أو للإسلام ، أو لله عزّ وجلّ ؛ على تقـدير : ويهدى إلى دينه وطاعته من رجـع إليه بقلبه . وقيل : هى للنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ « الذين » فى موضع نصب ، لأنه مفعول ؛ أى يهدى الله الذين آمنوا . وقيـل بدل من قوله : « من أناب » فهو فى محل نصب أيضا . ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى تسكن وتستأنس بتوحيد الله فتطمئن ؛ قال : أى وهم تطمئن قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم ؛ قاله قَتَادة . وقال مجاهد وقَتَادة وغيرهما : بالقرآن . وقال سفيان ابن عُيَيْنة : بأمره . مقاتل : بوعده . ابن عباس : بالحلف باسمه ، أو تطمئن بذكر فضله وإنعامه ؛ كما توجل بذكر عدله وانتقامه وقضائه . وقيل : « بذكر الله » أى يذكرون الله ويتأملون آياته فيعرفون كمال قدرته عن بصيرة . ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ أى قلوب المؤمنين . قال ابن عباس : هذا فى الحلف ؛ فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه . وقيل : « بذكر الله » أى بطاعة الله . وقيل : بثواب الله . وقيل : بوعد الله . وقال مجاهد : هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر . وقيل : معناه لهم طُوبَى ؛ فـ « طُوبَى » رفع بالابتداء ، ويجوز أن يكون موضعه نصبا على تقدير : جعل

لهم طُوبى ، ويعطف عليه « وحسن مآب » على الوجهين المذكورين ، فترفع أو تنصب .
وذكر عبد الرزاق : أخبرنا مَعْمَر عن يحيى بن أبي كَثِير عن عَمْرو بن أبي يزيد البِكَالىّ عن عُتْبة ابن عَبْد السُّلمىّ قال : جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الجنة وذكر الحوض فقال : فيها فاكهة؟ قال : "نعم شجرة تدعى طوبى" . قال : يارسول الله! أىّ شجر أرضنا تشبه ؟ قال : "لا تشبه شيئا من شجر أرضك أأتيت الشام هنالك شجرة تدعى الجـوزة تنبت على ساق ويفترش أعلاها" . قال : يارسول الله! فما عِظم أصلها! قال : "لو ٱرْتَحَلْتَ جَذَعة من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتها هَرَما" . وذكر الحـديث ، وقد كتبناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة» ، والحمد لله . وذكر ٱبن المبارك قال : أخبرنا مَعْمَر عن الأشعث عن عبد الله عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبي هُرَيرة قال : في الجنة شجرة يقال لها طوبى؛ يقول الله تعـالى لها : تفتّق لعبدى عمـا شاء؛ فَتَفَتَّق له عن فرس بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفَتَّق عن الراحلة برحلها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النّجائب والثّياب .
وذكر ٱبن وهب من حديث شَهْر بن حَوْشَب عن أبي أُمامة الباهليّ قال : « طُوبَى » شجرة في الجنة ليس منها دار إلا فيها غصن منها، ولا طير حسن إلا هو فيها، ولا ثمرة إلا هى منها؛ وقد قيل : إن أصلها في قصر النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة ، ثم تنقسم فروعها على منازل أهـل الجنة، كما ٱنتشر منه العلم والإيمان على جميع أهل الدنيا . وقال ٱبن عباس : « طوبى لهم » فرح لهم وقرّة عين؛ وعنه أيضا أن « طوبى » ٱسم الجنة بالحبشية؛ وقاله سعيد بن جُبَير . الربيع بن أنس : هو البستان بلغة الهند؛ قال القُشَيرىّ : إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين .
وقال قَتَـادة : « طوبى لهم » حسنى لهم . عِكْرمة : نعمى لهم . إبراهيم النَّخَعىّ : خير لهم؛ وعنه أيضا كرامة من الله لهم . الضحاك : غبطة لهم . النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب؛ أى العيش الطّيب لهم؛ وهذه الأشياء ترجع إلى الشيء الطّيب .
وقال الزّجاج : طُوبَى فُعْلى من الطِّيب، وهى الحالة المستطابة لهم؛ والأصل طُيْبَى، فصارت الياء واوا لسكونها وضم ما قبلها، كما قالوا : موسر وموقن .

قلت : والصحيح أنها شجرة ؛ للحديث المرفوع الذى ذكرناه، وهـو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلى، ذكره أبو عمر فى التمهيد، ومنه نقلناه، وذكره أيضا الثعلبى فى تفسيره، وذكر أيضا المهدوىّ والقشيرىّ عن معاوية بن قُرّة عن أبيه أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : " طوبى شجرة فى الجنة غرسها الله بيده ونفخ فيها من روحه تُنبت الحلىّ والحُلَل وإن أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة " . ومن أراد زيادة على هذه الأخبار فليطالع الثعلبىّ . وقال ابن عباس : « طوبى » شجرة فى الجنة أصلها فى دار علىّ، وفى دار كل مؤمن منها غُصْن . وقال أبو جعفر محمد بن علىّ : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قوله : «طوبى لهم وحسن مآب» قال : " شجرة أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سئل عنها مرة أخرى فقال : " شجـرة أصلها فى دار علىّ وفروعها فى الجنة " فقيل له : يارسول الله ! سُئلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دارى وفروعها فى الجنة " ثم سُئِلتَ عنها فقلت : " أصلها فى دار علىّ وفروعها فى الجنة " فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " إن دارى ودار علىّ غدا فى الجنة واحدة فى مكان واحد " . وعنه صلى الله عليه وسـلم : " هى شجرة أصلها فى دارى وما من دار من دوركم إلا مُدَلًّى فيها غُصن منها ". ﴿ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾ آب إذا رجع . وقيل تقدير الكلام : الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وعملوا الصالحات طوبى لهم .

قوله تعـالى : كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِى أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمم ﴾ أى أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك ؛ قاله الحسن . وقيل : شَبَّه الإنعام على من أُرسل إليه محمد عليـه السلام بالإنعام على من أرسل إليه الأنبياء قبـله . ﴿ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ قال مقاتل وابن جُرَيج : نزلت فى صُلْح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا

أن يكتبوا كتاب الصُّلح ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "ٱكتب بسم الله الرحمن الرحيم" فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون : ما نعرف الرّحمن إلا صاحب اليمامة، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ ٱكتب باسمك اللهم ، وهكذا كان أهل الجاهلية يكتبون ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعلىّ : "ٱكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله" فقال مشركو قريش : لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك وصددناك لقد ظلمناك؛ ولكن ٱكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله؛ فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : دعنا نقاتلهم ؛ فقال : "لا ولكن ٱكتب ما يريدون" فنزلت . وقال ٱبن عباس : نزلت فى كفار قريش حين قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : "ٱسجدوا للرحمن" قالوا : وما الرحمن ؟ فنزلت ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : الذى أنكرتم ﴿ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ولا معبود سواه؛ هو واحد بذاته، وإن اختلفت أسماء صفاته . ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وٱعتمدت ووثقت . ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ أى مرجعى غدا ، واليوم أيضا عليه توكلت ووثقت، رِضًا بقضائه، وتسليما لأمره . وقيل : سمع أبو جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فى الحِجْر ويقول : "يا الله يارحمن" فقال : كان محمد ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين؛ فنزلت هذه الآية، ونزل « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ » .

قوله تعالى : وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ هذا متصل بقوله : « لولا أنزل عليه آية من ربه » وذلك أن نفرا من مشركى مكة فيهم أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية

المخزوميّان جلسوا خلف الكعبة ، ثم أرسـلوا إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فأتاهم ؛ فقـال له عبد الله : إن سرّك أن نتبعك فسَيِّر لنـا جبال مكة بالقـرآن ، فأذْهبها عنّـا حتى تنفسح ؛ فإنها أرض ضيقة، وآجعل لنـا فيها عيونا وأنهارا، حتى نغرس ونزرع ؛ فلستَ كما زعمتَ بأهون على ربك من داود حين سخّر له الجبال تسـير معه . وسَخِّر لنـا الريح فنركبها إلى الشام نقضي عليهـا مِيرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنـا ؛ فقـد كان سليمان سخّـرت له الريح كما زعمتَ ؛ فلستَ بأهون على ربك من سليمان بن داود . وأَحْيِ لنا قَصَبَ[(١)] جدّك ، أو من شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطـل؟ فإن عيسى كان يحيي الموتى ، ولست بأهون على الله منه ؛ فأنزل الله تعـالى : « ولو أن قرآنا سُيّرت بِهِ الجبال » الآية؛ قال معناه الزّبير بن العوّام ومجاهد وقتَـادة والضّحاك ؛ والجواب محذوف تقـديره : لكان هـذا القرآن، لكن حذف إيجازا، لمـا في ظاهر الكلام من الدلالة عليه؛ كما قال آمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّهَـا نَفْسٌ تَموتُ جَمِيعَةً ＊ ولكِنَّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا

يعني لهان عليّ ؛ هذا معنى قول قَتَادة؛ قال : لو فَعَل هـذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم . وقيل : الجواب متقدم، وفي الكلام تقديم وتأخير؛ أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا . الفرّاء : يجوز أن يكون الجواب لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن . الزّجاج : « ولو أن قرآنا » إلى قوله : « الموتى » لمـا آمنوا ؛ والجواب المضمر هنا ما أظهر في قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةَ » إلى قوله : « مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ٱللَّهُ » .

﴿ بَلْ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ أي هو المـالك لجميع الأمور، الفاعل لمـا يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله .

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ قال الفرّاء قال الْكَلْبيّ : «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع؛ وحكاه القُشَيريّ عن ابن عباس؛ أي أفلم يعلموا؛ وقاله الجوهري في الصحاح .

(١) القصب : كل عظم مستدير أجوف .

وقيل : هو لغة هَوَازِن ؛ أى أفلم يعلم ؛ عن ابن عباس ومجاهد والحسن . وقال أبو عبيدة : أفلم يعلموا و يتبيّنوا، وأنشد فى ذلك أبو عبيدة لمـالك بن عوف النَّصْرىّ[(١)] :

أَقُولُ لَهُمْ بالشِّعْبِ إذْ يَيْسِرُونَنِى * أَلَمْ تَيْئَسُوا أَنِّى ٱبْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

يَيْسرونني مِن المَيْسِر، وقد تقدّم فى « البقرة »[(٢)] و يروى يأسروننى من الأَسْر . وقال رَبَاح ٱبن عدىّ :

أَلَمْ يَيْئَسِ الأقوامُ أَنِّى [ أنا ][(٣)] ٱبنُـهُ * وإنْ كنتُ عن أرضِ العَشِيرةِ نائيًا

فى كتاب الردّ «أنى أنا ٱبنه » وكذا ذكره الغَزْنَوىّ : ألم يعلم، والمعنى على هذا : أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات . وقيل : هو من اليأس المعروف ؛ أى أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار ، لعلمهم أن الله تعالى لو أراد هدايتهـم لهداهم؛ لأن المؤمنين تمنَّـوا نزول الآيات طمعا فى إيمانـــ الكفار . وقرأ علىّ وٱبن عبـاس : « أَفَلَمْ يَتَبَيَّنِ الَّذِينَ آمَنُوا » من البيان . قال القُشَيرىّ : وقيل لابن عبـاس المكتوب « أفلم ييئس » قال : أظن الكاتب كتبها وهو ناعس؛ أى زاد بعض الحـروف حتى صار «ييئس» . قال أبو بكر الأنبارىّ : روى عِكرمة عن ٱبن أبى نَجيح أنه قرأ— « أفلم يتبين الذين آمنوا » و بها ٱحتجّ من زعم أنه الصواب فى التلاوة؛ وهو باطل عن ٱبن عباس، لأن مجاهدا وسعيد ٱبن جُبَير حكيا الحرف عن ابن عبـاس، على ما هو فى المصحف بقراءة أبى عمرو و روايته عن مجاهد وسـعيد بن جُبَير عن ابن عبـاس؛ ثم إن معناه : أفلم يتبين ؛ فإن كان مراد الله تحت اللفظة التى خالفوا بها الإجماع فقراءتنا تقع عليها ، وتأتى بتأويلها ، و إن أراد الله المعنى الآخر الذى اليأس فيـه ليس من طريق العـلم فقد سقط ممـا أوردوا؛

(١) ذكر فى « لسان العرب » أن قائل البيت هو سحيم بن وثيـل اليربوعى ؛ قال : وذكر بعض العلمـاء أنه لولده جابر بن سحيم بدليل قوله فيه : « أنى ابن فارس زهدم » وزهـدم : فرس سحيم . وقوله : ييسروننى من إيسـار الجزور ؛ أى يجتزروننى و يقتسموننى ، وذكر ذلك لأنه كان قد وقع عليه سباء فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قسمة فدائه .

(٢) راجع جـ ٣ ص ٥٣ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) لم ترد فى الأصول لفظة « أنا » والواجب إثباتها كما فى كتاب «الرد» إذ أن البيت من الطويل، و بدونها لا يستقيم .

وأمّا سقوطه يبطل القرآن، ولزوم أصحابه البهتان. ﴿ أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ «أَنْ» مخففة من الثقيلة، أى أنه لو يشاء الله ﴿ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهو يردّ على القَدَرية وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ أى داهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم؛ ويقال : قرعه أمر إذا أصابه، والجمع قوارع؛ والأصل فى القرع الضرب؛ قال[1] :

أَفْنَى تِلَادِى وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ * قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاه الاباريقِ

أى لا يزال الكافرون تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة كما أصاب أَرْبد أو من قتل أو أسر أو جدب، أو غير ذلك من العذاب والبلاء؛ كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين. وقال عِكْرِمة عن ابن عباس : القارعة النكبة . وقال ابن عباس أيضا وعِكْرِمة : القارعة الطلائع والسرايا التى كان يُنفِذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم . ﴿ أَوْ تَحُلُّ ﴾ أى القارعة ﴿ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ ﴾ قاله قَتَادة والحسن . وقال ابن عباس : أو تحل أنت قريبا من دارهم . وقيل : نزلت الآية بالمدينة؛ أى لا تزال تصيبهم القوارع فتنزل بساحتهم أو بالقرب منهم كقرى المدينة ومكة . ﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ فى فتح مكة؛ قاله مجاهد وقَتَادة . وقيل: نزلت بمكة؛ أى تصيبهم القوارع، وتخرج عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلّ قريبا من دارهم، أو تحلّ بهم محاصرا لهم؛ وهذه المحاصرة لأهل الطائف، ولقِلاع خَيْبَر، ويأتى وعد الله بالإذن لك فى قتالهم وقهرهم . وقال الحسن : وعد الله يوم القيامة .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟

(١) هو الأقيشر الأسدى، واسمه المغيرة بن عبد الله . والتلاد : المال القديم الموروث . والنشب : الضياع والبساتين وما جدده بعمله . والقواقيز (جمع قاقوزة) : وهى أوان يشرب بها الخمر .

عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ تقدّم معنى الاستهزاء في «البقرة»[1] ومعنى الإملاء في « آل عمران »[2] أي سُخِر بهم، وأُزرِي عليهم؛ فأمهلت الكافرين مدة ليؤمن من كان في علمي أنه يؤمن منهم؛ فلما حقّ القضاء أخذتهم بالعقوبة . ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ أي فكيف رأيت ما صنعت بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك .

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ ليس هـذا القيام القيام الذي هو ضدّ القعود، بل هو بمعنى التولّي لأمور الخلق؛ كما يقال : قام فلان بشغل كذا؛ فإنه قائم على كل نفس بما كسبت أي يقدرها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها؛ فالمعنى : أنه حافظ لا يغفل، والجواب محذوف؛ والمعنى : أفمن هو حافظ لا يغفل كمن يغفل . وقيل : أفمن هو قائم أي عالم؛ قاله الأعمش . قال الشاعر :

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أَعِزّة * سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ

أي عالم؛ فالله عالم بكسب كل نفس . وقيل : المراد بذلك الملائكة الموكلون ببني آدم، عن الضحاك . ﴿ وَجَعَلُوا ﴾ حال ؛ أي قد جعلوا، أو عطف على « استهزئ » أي ٱستهزءوا وجعلوا؛ أي سمّوا ﴿ لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ يعني أصنـاما جعلوها آلهـة . ﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ أي قل لهم يا محمد : « سمّوهم » أي بيّنوا أسماءهم، على جهة التهديد ؛ أي إنما يسمّون : اللّات والعُزّى ومَنَاة وهُبَل . ﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ « أم » استفهام توبيخ ، أي أتنبئونه ؛ وهو على التحقيق عطف على ٱستفهام متقـدّم في المعنى ؛ لأن قوله : « سمّوهم » معنـاه : أَلَهُمْ أسماء الخالقين «أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض»؟ . وقيل : المعنى قل لهم أتنبئون الله بباطن لا يعلمه، أم بظاهر من القول يعلمه؟ فإن قالوا : بباطن لا يعلمه أحالوا، وإن قالوا:

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بظاهر يعلمه فقل لهم : سموهم ؛ فإذا سموهم اللات والعُزى فقل لهم : إن الله لا يعلم لنفسه شريكا . وقيـل : « أم تنبئونه » عطف على قوله : « أفمن هو قائم » أى أفمن هو قائم ، أم تنبئون الله بمـا لا يعلم؛ أى أنتم تدعون لله شريكا ، والله لا يعلم لنفسه شريكا؛ أفتنبئونه بشريك له فى الأرض وهو لا يعلمه ! وإنمـا خص الأرض بنفى الشريك عنها وإن لم يكن له شريك فى غير الأرض لأنهم آدّعوا له شركاء فى الأرض . ومعنى ﴿ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ : الذى أنزل الله على أنبيائه . وقال قَتَادة : معناه بباطل من القول؛ ومنه قول الشاعر :

أَعيَّرْتَنَـــا أَلْبَانَهـــا ولُحُـــومَهَا * وذلِك عارٌ يا بن رَيْطَةَ ظاهِرُ

أى باطل . وقال الضحاك : بكذب من القول . ويحتمل خامسا — أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم؛ ويكون معنى الكلام : أتخبرونه بذلك مشاهدين، أم تقولون محتجين . ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أى دع هذا ! بل زين للذين كفروا مكرهم؛ قيل : آستدراك على هـذا الوجه، أى ليس لله شريك، لكن زين للذين كفروا مكرهم . وقرأ آبن عبـاس ومجاهد — « بَلْ زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ » مسمى الفاعل؛ وعلى قراءة الجماعة فالذى زَيَّن للكافرين مكرهم الله تعـالى، وقيل : الشيطان . ويجـوز أن يسمى الكفر مكرا؛ لأن مكرهم بالرسول كان كفرا . ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدّهم الله؛ وهى قراءة حمزة والكسائى . الباقون بالفتح؛ أى صدّوا غيرهم؛ واختاره أبو حاتم، اعتبارا بقوله : « وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللّهِ » وقوله : « هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » . وقراءة الضم أيضا حسنة فى « زين » و « صدّوا » لأنه معلوم أن الله فاعل ذلك فى مذهب أهل السنة؛ ففيه إثبات القَـدَر، وهو آختيار أبى عبيد . وقرأ يحيى بن وَثّاب وعَلْقَمة — « وصِدُّوا » بكسر الصاد؛ وكذلك « هَـذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا » بكسر الراء أيضا على مالم يسم فاعله ؛ وأصلها صُـدِدوا ورُدِدَت ، فلمـا أدغمت الدال الأولى فى الثانيـة نقلت حركتهـا على ما قبلهـا فانكسر . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللّهُ ﴾ بخذلانه ﴿ فَمَـالَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ أى موفّق؛ وفى هذا إثبات قراءة الكوفيين ومن تابعهم؛ لقـوله : « ومن يضلل الله »، فكذلك قوله : « وَصُدُّوا » . ومعظم القراء

يقفون على الدّال من غير الياء ؛ وكذلك والٍ وواقٍ؛ لأنك تقول فى الرجل : هذا قاضٍ و والٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين . وقرئ « فماله من هادِى »، و « والِى » و « واقى » بالياء؛ وهو على لغة من يقول؛ هذا داعى ووالى وواقى بالياء؛ لأن حذف الياء فى حالة الوصل لالتقائها مع التنوين، وقراءتنا هذا فى الوقف؛ فردّت الياء فصار هادى ووالى وواقى . وقال الخليـل فى نداء قاضٍ : يا قاضى بإثبات الياء؛ إذ لا تنوين مع النـداء، كما لا تنوين فى نحو الداعى والمتعالى .

قوله تعالى : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي ٱلْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى للشركين الصادّين بالقتل والسّبْى والإسار، وغير ذلك من الأسـقام والمصائب . ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أى أشـدّ؛ من قولك : شَـقَّ علىّ كذا يَشُـقّ . ﴿ وَمَا لَهُـمْ مِنَ اللّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ أى مانع يمنعهم من عذابه ولا دافع . و « مِن » زائدة .

قوله تعـالى : مَثَـلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّـارُ (٣٥)

قوله تعـالى : ﴿ مَثَلُ ٱلْجَنَّـةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ ٱختلف النحاة فى رفع « مَثَل » فقال سيبويه : ٱرتفع بالابتـداء والخبر محذوف ؛ والتقدير : وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنـة . وقال الخليل : ٱرتفع بالابتداء وخبره « تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَار » أى صفة الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ كقولك : قولى يقوم زيد؛ فقولى مبتدأ، ويقوم زيد خبره؛ والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى : « ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ » وقال : « وَلِلّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَى » أى الصفة العليا، وأنكره أبو علىّ وقال : لم يسمع مَثَل بمعنى الصفة؛ إنمـا معناه الشـبه؛ ألا تراه يجرى مجراه فى مواضـعه ومتصرّفاته، كقولهم : مررت برجل مثلك؛ كما تقول : مررت برجل شبهك ؛ قال : ويفسـد أيضا من جهة المعنى؛ لأن مثلا

إذا كان معناه صفة كان تقدير الكلام : صفة الجنة التي فيها أنهار، وذلك غير مستقيم؛ لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها . وقال الزجاج : مَثَّلَ الله عزّ وجلّ لنا ماغاب عنا بمـا نراه؛ والمعنى : مَثَلُ الجنّة جَنّـةٌ تجرى من تحتها الأنهار؛ وأنكره أبو عليّ فقال : لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لايصح ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصح، لأنك إذا قلت : صفة الجنّة جنّة، بجعلت الجنة خبرا لم يسـتقم ذلك؛ لأن الجنّة لا تكون الصفة، وكذلك أيضا شبه الجنّة جنّة؛ ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّـة غير حَدَث؛ فلا يكون الأوّل والثاني . وقال الفرّاء : المَثَل مقحم للتأكيد؛ والمعنى : الجنّة التي وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار؛ والعرب تفعل ذلك كثيرا بالمثل؛ كقوله : « ليس كمِثْلِهِ شيء »؛ أي ليس هو كشيء . وقيل التقدير : صفة الجنّة التي وعد المتقون صفة جنّة « تجرى من تحتها الأنهار » . وقيل معناه : شبه الجنّة التي وعد المتقون في الحسن والنعمة والخلود كشبه النار في العذاب والشـدّة والخلود؛ قاله مقاتل . ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ لا ينقطع؛ وفي الخبر : " إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى " وقد بيناه في «التذكرة» . ﴿ وَظِلُّهَا ﴾ أي وظلها كذلك؛ فحذف؛ أي ثمرها لاينقطع، وظلّها لا يزول؛ وهذا ردّ على الجَهْمِيّة في زعمهم أن نعيم الجنة يزول ويفنى . ﴿ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَعُقْبَى ٱلْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ أي عاقبة أمر المكذبين وآخرتهم النار يدخلونها .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَـا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أي بعض من أوتى الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسلمان، والذين جاءوا من الحبشة؛ فاللفظ عام، والمراد الخصوص . وقال قَتَادة : هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يفرحون بنور القرآن؛ وقاله مجاهد

وابن زيد . وعن مجاهد أيضا أنهم مؤمنو أهل الكتاب . وقيل : هم جماعة أهل الكتاب من اليهـود والنصارى يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كتبهم . وقال أكثر العلمـاء : كان ذكر الرحمن فى القرآن قليلا فى أوّل ما أنزل، فلما أسلم عبد الله بن سلّام وأصحابه ساءهم قلة ذكر الرحمن فى القرآن مع كثرة ذكره فى التوراة ؛ فسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : « قُلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْحُسْنَىٰ » فقالت قريش : مابال محمد يدعو إلى إله واحد فأصبح اليوم يدعو إلهين، الله والرحمن ! والله ما نعرف الرحمن إلا رحمن اليمـامة ، يعنون مُسَيْلِمَة الكذّاب ؛ فنزلت : « وَهُمْ بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَافِرُونَ » «وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ» ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن ؛ فأنزل الله تعالى : «وَٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ » . ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ يعنى مشركى مكة، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزبون على النبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : من أعداء المسلمين من ينكر بعض ما فى القرآن ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السموات والأرض . ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفا على « أعبد » . وقرأ أبو خالد بالرفع على الاستئناف ؛ أى أفرده بالعبادة وحده لاشريك له ، وأتبرّأ عن المشركين، ومن قال : المسيح ابن الله وعزير ابن الله، ومن اعتقد التشبيه كاليهود . ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى إلى عبادته أدعو الناس . ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾ أى أرجع فى أمورى كلها .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ أى وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعض الأحزاب كذلك أنزلناه حكما عربيا ؛ وإنما وصفه بذلك لأنه أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو عربىّ ، فكذب الأحزاب بهذا الحكم أيضا . وقيل نظم الاية : وكما أنزلنـا الكتب على الرسل بلغاتهم كذلك أنزلنا إليك القرآن حكما عربيا ، أى بلسان العرب ؛ ويريد بالحكم ما فيه

من الأحكام . وقيل: أراد بالحكم العربيّ القرآن كله؛ لأنه يفصل بين الحق والباطل و يحكم . ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُـمْ ﴾ أى أهواء المشركين فى عبـادة ما دون الله ، وفى التوجيه إلى غير الكعبة . ﴿ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى ناصر ينصرك . ﴿ وَلَا وَاقٍ ﴾ يمنعك من عذابه ؛ والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد الأمة .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)

فيـــه مسئلتـــان :

الأولى ــ قيـل إن اليهود عابوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم الأزواج، وعيرته بذلك وقالوا : ما نرى لهــذا الرجل همة إلا النّســاء والنكاح، ولو كان نبيا لشـغله أمر النبوة عن النّساء ؛ فأنزل الله هذه الآية ،وذكرهم أمر داود وسليمان فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ أى جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنمـا التخصيص فى الوحى .

الثانيـــة ــ هذه الآية تدل على الترغيب فى النكاح والحض عليه، وتنهى عن التّبتّل ، وهو ترك النكاح، وهذه سـنّة المرسلين كما نصّت عليه هــذه الآية، والسـنّة واردة بمعناها؛ قال صلى الله عليه وسلم: "تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم" الحديث .وقد تقدّم فى «آل عمران»[(١)] . وقال : " من تزوج فقد آستكمل نِصف الدّين فَلْيَتَّـقِ الله فى النصف الثانى " . ومعنى ذلك أن النكاح يعفّ عن الزنى، والعفاف أحد الخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الجنة فقال : " من وقاه الله شرّ آثنتين وَلَج الجنــة ما بين لَحْييه وما بين رِجليه" خرجه الموطأ وغيره . وفى صحيح البخاريّ عن أنس قال : جاء ثلاثة رَهْط إلى بيــوت أزواج النبيّ

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

صلى الله عليه وسـلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسـلم ، فلما أخبروا كأنهـم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبيّ صلى الله عليه وسلم ! قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم : أمّا أنا فإنى أصـلّى الليل أبدا ، وقال الآخر : إنى أصـوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فـلا أتزوّج ؛ فجاء رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوّج النساء فمن رغب عن سنّتى فليس منى" . خرجه مسلم بمعناه؛ وهذا بيّن . وفى صحيح مسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : أراد عثمان أن يتبتل فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولو أجاز له ذلك لَاخْتَصَيْنَا، وقد تقـدّم فى « آل عمران » الحضّ على طلب الولد والردّ على من جهل ذلك . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : إنى لأتزوج المرأة وما لى فيها من حاجة، وأطؤها وما أشتهيها؛ قيل له : وما يحملك على ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : حبّى أن يخرج الله منّى من يكاثر به النبيّ صلى الله عليه وسلم النبيّين يوم القيامة؛ وإنى سمعته يقـول : "عليكم بالأبكار فإنهنّ أَعْذَب أفواهًا وأحسن أخلاقًا وأَنْتَـق أرحاما وإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة" يعنى بقوله : "أنتق أرحاما" أَقْبَل للولد؛ ويقال للمرأة الكثيرة الولد ناتق؛ لأنها ترمى بالأولاد رميا . وخرج أبو داود عن مَعْقِل بن يَسَـار قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقال : إنى أصبت آمرأة ذات حسب وجمـال ، وإنها لا تلد، أفأتزوجها ؟ قال "لا" ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة فقال : "تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم" . صححه أبو محمد عبد الحق وحَسْبك .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ عاد الكلام إلى ما آقترحوا من الآيات — ماتقدّم ذكره فى هذه السورة — فأنزل ذلك فيهم؛ وظاهر الكلام حَظْر ومعناه النفى ؛ لأنه لا يحظر على أحدٍ ما لا يقدر عليه . ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ أى لكل أمر قضاه الله كتاب عند الله؛ قاله الحسن . وقيل : فيه تقديم وتأخير، المعنى : لكل كتاب أجل؛ قاله الفراء والضحاك؛ أى لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل، ووقت معلوم؛ نظيره « لكل نبأ مستقر »؛

بيّن أن المراد ليس على اقتراح الأمم فى نزول العذاب، بل لكل أجل كتاب . وقيل : المعنى لكل مدة كتاب مكتوب، وأمر مقــدّر لا تقف عليه الملائكة . وذكر الترمذيّ الحكيم فى « نوادر الأصول » عن شَهْر بن حَوْشَب عن أبى هُريرة قال : لمـا آرتقى موسى صلوات الله عليه وسلم طور سيناء رأى الجبّارُ فى إصبعه خاتمـا، فقال: ياموسى ماهذا ؟ وهو أعلم به، قال : شيء من حُلِيّ الرجال، قال : فهــل عليه شيء من أسمائى مكتوب أو كلامى ؟ قال : لا، قال : فاكتب عليه « لكل أجل كتاب » .

قوله تعـالى : يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾ أى يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهــله ويأتى به « ويثبت » ما يشاء ؛ أى يؤخره إلى وقته؛ يقال : محوت الكتاب محوا، أى أذهبت أثره . « ويثبت » أى ويثبته، كقوله : « والذاكرين الله كثيرا والذاكرات » أى والذاكرات الله .

وقرأ آبن كثير وأبو عمــرو وعاصم «وَيُثْبِتُ» بالتخفيف، وشــدّد الباقون؛ وهى قراءة آبن عبــاس، وآختيار أبى حاتم وأبى عبيد لكثرة من قرأ بهـا ؛ لقوله : «يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا» . وقال آبن عمر : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "يمحو الله مايشاء ويثبت إلا السعادة والشقاوة والموت". وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء؛ الخَلْق والخُلُق والأجل والرزق والســعادة والشقاوة؛ وعنه : هما كتابان سوى أمّ الكتاب، يمحو الله منهما ما يشاء ويثبت، ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الذى لايتغير منه شيء. قال القُشَيرىّ: وقيل السـعادة والشقاوة والخَلْق والخُلُق والرزق لا تتغـير؛ فالآية فيما عدا هذه الأشياء؛ وفى هذا القول نوع تحكم .

قلت : مثل هــذا لايدرك بالرأى والآجتهاد، وإنمـا يؤخذ توقيفا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة فى جميع الأشياء،وهو الأظهر والله أعلم؛ وهذا

يروى معناه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وآبن مسعود وأبى وائل وكعب الأحبار وغيرهم، وهو قول الْكَلْبِىّ . وعن أبى عثمان النَّهْدِىّ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنـه كان يطوف بالبيت وهو يبكى ويقول : اللهم إن كنت كتبتنى فى أهل السعادة فأثبتنى فيها ، وإن كنت كتبتنى فى أهل الشقاوة والذنب فامحنى وأثبتنى فى أهل السعادة والمغفرة؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أم الكتاب . وقال ابن مسعود : اللهم إن كنت كتبتنى فى السعداء فأثبتنى فيهم، وإن كنت كتبتنى فى الأشـقياء فآمحنى من الأشقياء وآكتبنى فى السعداء؛ فإنك تمحو ما تشاء وتثبت؛ وعنـدك أمّ الكتاب . وكان أبو وائل يكثر أن يدعو : اللهم إن كنت كتبتنا أشـقياء فامح وآكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سـعداء فأثبتنا ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقال كعب لعمر بن الخطاب : لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بمـا هو كائن إلى يوم القيامة: « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . وقال مالك ابن دينار فى المرأة التى دعا لهـا : اللهم إن كان فى بطنها جارية فأبدلهـا غلاما فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أمّ الكتاب . وقد تقدّم فى الصحيحين عن أبى هُرَيرة قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "مَن سَرّه أن يُبسطَ له فى رزقه ويُنْسأَ له فى أَثَرِه[1] فلْيَصِلْ رَحِمَه". ومثله عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "مَنْ أَحَبَّ" فذكره بلفظه سواء؛ وفيـه تأويلان : أحدهما — معنوى، وهو ما يبقى بعـده من الثناء الجميل والذكر الحسن، والأجر المتكرر، فكأنه لم يمت . والآخر — يؤخر أجله المكتوب فى اللوح المحفوظ؛ والذى فى علم الله ثابت لاتبدّل له، كما قال: «يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب» . وقيل لآبن عباس لمـا روى الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أحبّ أن يمد الله فى عمره وأجله ويبسط له فى رزقه فليتق الله ولْيَصِلْ رَحِمَـه" كيف يزاد فى العمر والأجل ؟ ! فقال : قال الله عز وجل : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْـدَهُ » . فالأجل الأوّل أجل العبد من حين ولادته إلى حين موته ، والأجل

(١) الأثر : الأجل .

الثانى — يعنى المسمى عنده — من حين وفاته إلى يوم يلقاه فى البَرْزَخ لا يعلمه إلا الله ؛ فإذا اتق العبد ربه ووصل رحمه زاده الله فى أجل عمره الأول من أَجَل البَرْزَخ ما شاء، وإذا عصى وقطع رحمه نقصه الله من أَجَل عمره فى الدنيا ما شاء، فيزيده فى أجل البَرْزَخ؛ فإذا تحتم الأجَل فى علمه السابق آمتنع الزيادة والنقصان؛ لقوله تعالى : «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» فتوافق الخبر والآية؛ وهـذه زيادة فى نفس العمر وذات الأَجَل على ظاهر اللفظ، فى آختيار حبر الأمة، والله أعلم . وقال مجاهد : يُحكم الله أمر السَّنَة فى رمضان فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء، إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة؛ وقد مضى القول فيه . وقال الضحاك : يمحو الله ما يشاء من ديوان الحَفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب ، ويثبت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن آبن عباس. وقال الْكَلْبِيّ : يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه ، ورواه عن النبي صلى الله عليه وسلم . ثم سئل الكلبيّ عن هذه الآية فقال : يكتب القول كله ، حتى إذا كان يوم الخميس طرح منه كل شيء ليس فيه ثواب ولا عقاب ، مثل قولك : أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه ، وهو صادق، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب . وقال قَتَادة وآبن زيد وسعيد بن جُبَير : يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويبدله ، ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملة الناسخ والمنسوخ عنده فى أمّ الكتاب ، ونحوه ذكره النحاس والمهدوىّ عن ابن عباس؛ قال النحاس : وحدّثنا بكر بن سهل ، قال حدّثنا أبو صالح ، عن معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس «يمحو الله ما يشاء» يقول : يبدل الله من القرآن ما يشاء فينسخه ، «ويثبت ما يشاء» فلا يبدله ، «وعنده أم الكتاب» يقول : جملة ذلك عنده فى أمّ الكتاب ، الناسخ والمنسوخ . وقال سعيد بن جُبَير أيضا : يغفر ما يشاء — يعنى — من ذنوب عباده ، ويترك ما يشاء فلا يغفره . وقال عِكرمة : يمحو ما يشاء — يعنى بالتوبة — جميع الذنوب ويثبت بدل الذنوب حسنات [ قال تعالى ][1] : «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا» الآية . وقال

---

(١) الزيادة من «البحر المحيط» .

الحسن : « يمحو الله ما يشاء » من جاء أجله «ويثبت » من لم يأت أجله . وقال الحسن : يمحو الآباء ، ويثبت الأبنـاء . وعنه أيضـا : يُنْسى الحَفَظة من الذنوب ولا يُنْسى . وقال السـدّى : « يمحو الله ما يشـاء » يعنى : القمر « ويثبت » يعنى : الشمس ؛ بيانه قوله : « فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً » وقال الرّبيع بن أَنَس : هـذا فى الأرواح حالة النوم ؛ يقبضها عنـد النوم ، ثم إذا أراد موته فجأة أمسكه ، ومن أراد بقاءه أثبته وردّه إلى صاحبه ؛ بيانه قوله : « اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا » الآية . وقال علىّ بن أبى طالب : يمحو الله ما يشاء من القرون ، كقوله : « أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ويثبت ما يشاء منها ، كقوله : « ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ » فيمحو قَرْنا ، ويثبت قَرْنا . وقيـل : هو الرجل يعمل الزمن الطويل بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموت على ضلاله ؛ فهو الذى يمحـو ، والذى يثبت : الرجل يعمل بمعصية الله الزمان الطويل ثم يتوب ، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويثبته فى ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبىّ والمـاوردىّ عن آبن عبـاس . وقيل : يمحو الله ما يشاء — يعنى الدنيا — ويثبت الآخرة . وقال قيس بن عُبَـاد فى اليوم العاشر من رجب : هو اليوم الذى يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت فيه ما يشاء؛ وقـد تقدّم عن مجاهد أن ذلك يكون فى رمضان . وقال آبن عباس : إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درّة بيضاء، لهـا دَفّتان من ياقوتة حمراء ، لله فى كل يوم ثلاثمائة وسـتون نظرة ، يثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء . وروى أبو الدرداء عن النبى صـلى الله عليه وسـلم قال : " إن الله سبحانه يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يَبقين من الليل فينظر فى الكتاب الذى لا ينظر فيه أحد غيره فيثبت ما يشاء ويمحو ما يشاء " . والعقيدة أنه لا تبديل لقضاء الله؛ وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء، وقـد تقدّم أن من القضاء ما يكون واقعا محتوما، وهو الثابت ؛ ومنـه ما يكون مصروفا بأسباب، وهو الممحو، والله أعلم . الغزنوىّ : وعندى أن ما فى اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة؛ فيحتمل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع علم الله محال؛ وما فى علمه من تقدير الأشياء لا يبدّل . « وعنده أمّ الكتاب » أى أصل ما كتب من الآجال

وغيرها . وقيل : أمّ الكتاب اللوح المحفوظ الذى لا يبدّل ولا يغير . وقد قيل : إنه يجرى فيه التبديل . وقيل : إنما يجرى فى الجرائد الأخر . وسئل آبن عباس عن أمّ الكتاب فقال : عِلْم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون؛ فقال لعلمه : كن كتابا، ولا تبديل فى علم الله، وعنه أنه الذّكر؛ دليله قوله تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ » وهـذا يرجع معناه إلى الأوّل؛ وهو معنى قول كعب . قال كعب الأحبار : أمّ الكتاب عِلْم الله تعالى بمـا خَلَق وبما هو خالق .

قوله تعـالى : وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُـمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُها مِنْ أَطْرَافِهَـا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِـدُهُمْ ﴾ « ما » زائدة، والتقدير : وإن نرينك بعض الذى نعدهم، أى من العذاب؛ لقوله : « لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقوله : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَـا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أى إن أريناك بعض ما وعدناهم ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ فليس عليك إلا البلاغ؛ أى التبليغ ؛ ﴿ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ أى الجزاء والعقوبة .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ يعنى أهـل مكة . ﴿ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ ﴾ أى نقصـدها . ﴿ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ اختلف فيـه ؛ فقال ابن عباس ومجاهد : « ننقصها من أطرافها » موت علمـائها وصلحائها . قال القُشَـيرى : وعلى هـذا فالأطراف الأشراف ؛ وقد قال آبن الأعرابى : الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم ؛ ولكن هذا القول بعيـد ، لأن مقصود الآية : أنا أريناهم النقصان فى أمورهم ، ليعلموا أن تأخير العقاب عنهـم ليس عن عجـز ؛ إلا أن يحمل قول ابن عبـاس على موت أحبار اليهـود والنصارى . وقال مجاهد أيضا

وقَتَـادة والحسن : هو ما يغلب عليـه المسلمون ممـا فى أيدى المشركين ؛ و روى ذلك عن ٱبن عباس، وعنه أيضا هو خراب الأرض حتى يكون العمران فى ناحية منها؛ وعن مجاهد : نقصانها خرابها وموت أهلها. وذكر وكيع بن الجَرّاح عن طلحة بن عُمَير عن عطاء بن أبى رَبَاح فى قول الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : ذهاب فقهائها وخيار أهلها . قال أبو عمر بن عبد البرّ : قول عطاء فى تأويل الآية حسن جدّا، تلقاه أهل العلم بالقبول .

قلت : وحكاه المهدوىّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نص القول الأوّل نفسه؛ روى سفيان عن منصور عن مجـاهد « نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » قال : موت الفقهاء والعلمـاء ؛ ومعروف فى اللغة أن الطَّرَف الكريم من كل شىء ؛ وهـذا خلاف ما ٱرتضاه أبو نصر عبد الرحيم بن عبـد الكريم من قول ٱبن عباس . وقال عِكرِمة والشّعبىّ : هو النقصان وقبض الأنفس . قال أحدهما : ولو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشّـك (١) . وقال الآخر : لضاق عليك حشٌّ تتبرز فيـه . وقيل : المراد به هلاك من هلك من الأمم قبـل قريش وهلاك أرضهم بعدهم ؛ والمعنى : أولم تر قريش هلاك من قبلهم، وخراب أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يحل بهم مثل ذلك؛ وروى ذلك أيضا عن ٱبن عباس ومجاهد وٱبن جُرَيج . وعن ٱبن عباس أيضا أنه نقص بركات الأرض وثمارها وأهلها . وقيل : نقصها بجَوْر وُلَاتها .

قلت : وهذا صحيح معنى؛ فإن الجور والظلم يخرب البلاد، بقتل أهلها وٱنجلائهم عنها، وترفع من الأرض البركة، والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَاللَّهُ يَحْـكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ أى ليس يتعقب حكمـه أحد بنقص ولا تغيير . ﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ أى الانتقام من الكافريـن ، سريع الثواب للؤمن . وقيل : لا يحتاج فى حسابه إلى رَوِيّة قلب، ولا عقـد بَنَان؛ حسب ما تقدّم فى « البقرة » (٢) بيـانه .

(١) الحش : المتوضأ .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٤ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أى من قبل مشركى مكة ، مكروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم . ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أى هو مخلوق له مكر الماكرين ، فلا يضرّ إلا بإذنه . وقيل : فلله خير المكر ، أى يجازيهم به . ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ، فيجازى عليه . ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكَافِرُ﴾ كذا قراءة نافع وآبن كثير وأبى عمرو . الباقون : « الكفار » على الجمع . وقيل : عنى أبو جهل . ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أى عاقبة دار الدنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد .

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قال قتادة : هم مشركو العرب ؛ أى لست بنبىّ ولا رسول ، وإنما أنت متقول ؛ أى لما لم يأتهم بما آقترحوا قالوا ذلك . ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أى قل لهم يا محمد : « كفى بالله » أى كفى الله ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصدقى وكذبكم . ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ ٱلْكِتَابِ﴾ وهذا احتجاج على مشركى العرب لأنهم كانوا يرجعون إلى أهل الكتاب — من آمن منهم — فى التفاسير . وقيل : كانت شهادتهم قاطعة لقول الخصوم ؛ وهم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سَلَام وسلمان الفارسىّ وتميم الدارىّ والنجاشىّ وأصحابه ؛ قاله قتادة وسعيد بن جُبَير . وروى الترمذىّ عن ابن أخى عبد الله بن سَلَام قال : لما أريد [قتل] عثمان جاء عبد الله بن سَلَام فقال له عثمان : ماجاء بك؟ قال : جئت فى نُصرتك ؛ قال : آخرج إلى الناس فآطردهم عنى ، فإنك خارج خير لى من داخل ؛ فخرج عبد الله بن سَلَام إلى الناس فقال : أيها الناس! إنه كان آسمى فى الجاهلية فلان ، فسمانى

رسول الله صلى الله عليه وسـلم عبد الله، ونزلت فيّ آيات من كتاب الله؛ فنزلت فيّ « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ونزلت فيّ « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » الحديث . وقد كتبناه بكماله في كتاب « التذكرة » . وقال فيه أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وكان اسمه في الجاهلية حصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبـد الله . وقال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير « ومن عِنده عِلم الكتاب » ؟ قال : هو عبد الله بن سَلَام .

قلت : وكيف يكون عبدالله بن سَلَام وهذه السورة مكية وآبن سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟ ! ذكره الثعلبي . وقال القُشيري : وقال آبن جُبَير السّورة مكية وآبن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة؛ فلا يجوز أن تحمل هذه الآية على آبن سَلَام؛ فمن عنده علم الكتاب جبريل؛ وهو قول آبن عباس . وقال الحسن ومجاهـد والضحاك : هو الله تعالى؛ وكانوا يقرءون « وَمِنْ عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» وينكرون على من يقول : هو عبد الله بن سَلَام وسلمان ؛ لأنهم يرون أن السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة. وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « ومِن عِندِه عِلْمُ الْكِتَابِ » وإن كان في الرواية ضعف؛ وروى ذلك سـليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم؛ وروى محبوب عن إسمعيل بن محمد اليمـانيّ أنه قرأ كذلك — « وَمِنْ عِنْـدِهِ » بكسر الميم والعـين والدال « عُلِمَ الْكِتَابُ » بضم العين ورفع الكتاب. وقال عبد الله بن عطاء : قلت لأبي جعفر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبد الله بن سَلَام فقال : إنما ذلك عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وكذلك قال محمد بن الحنفية . وقيل : جميع المؤمنين، والله أعلم. قال القاضي أبو بكر بن العربي : أما من قال إنه عليّ فعوّل على أحد وجهين : إما لأنه عنده أعلم المؤمنين وليس كذلك؛ بل أبو بكر وعمر وعثمان أعلم منه. ولقول النبي صلى الله عليه وسلم : " أنا مدينة العلم وعلي بابها " وهو حديث باطل؛ النبيّ صلى الله عليه وسلم مدينة علم وأصحابه أبوابها؛ فمنهم الباب المنفسح، ومنهـم المتوسط، على قدر منازلهم في العـلوم . وأما من قال

إنهم جميــع المؤمنين فصدق؛ لأن كل مؤمن يَعْلَمَ الكتاب، ويُدرك وجه إعجازه، ويشهــد للنبيّ صلى الله عليه وسلم بصدقه .

قلت : فالكتاب على هذا هو القرآن . وأما من قال هو عبد الله بن سَلَام فعوّل على حديث الترمذيّ ؛ وليس يمتنع أن ينزل فى عبــد الله بن سَلَام شيئا ويتناول جميع المؤمنــين لفظا ؛ ويعضده من النظام أن قوله تعــالى : « وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا » يعنى قريشا؛ فالذين عندهم علم الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى ، الذين هم إلى معرفــة النبوّة والكتاب أقرب من عبدة الأوثان . قال النحاس : وقول من قال هو عبد الله بن سَلَام وغيره يحتمل أيضا؛ لأن البراهين إذا صحت وعرفها من قــرأ الكتب التى أنزلت قبــل القرآن كان أمرا مؤكدا؛ والله أعلم بحقيقة ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# تفسير سورة إبراهيم

مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين وقيل : ثلاث نزلت فى الذين حاربوا الله ورسوله وهى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا » إلى قوله : « فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ » .

قوله تعالى : الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (١)

قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ ﴾ تقدّم معناه . ﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ ﴾ أى بالكتاب، وهو القرآن، أى بدعائك إليه . ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أى من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والعلم؛ وهذا على التمثيل، لأن الكفر بمنزلة الظلمة؛ والإسلام بمنزلة النور . وقيل : من البدعة إلى السنة، ومن الشك إلى اليقين ؛ والمعنى متقارب . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بتوفيقه إياهم ولطفه بهم ، والباء فى «بإذن ربهم» متعلقة بـ«ـتخرج » وأضيف الفعل إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه الداعى والمنذر الهادى. ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هو كقولك : خرجت إلى زيد العاقل الفاضل من غير واو ، لأنهما شىء واحد ؛ والله هو العزيز الذى لامثل له ولا شبه . وقيل : « العزيز » الذى لا يغلبه غالب . وقيل : « العزيز » المنيع فى ملكه وسلطانه . « الحميد » أى المحمود بكل لسان، والممجد فى كل مكان على كل حال. وروى مِقْسَم عن ابن عباس قال : كان قوم آمنوا بعيسى بن مريم، وقوم كفروا به، فلما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم آمن به الذين كفروا بعيسى، وكفر الذين آمنوا بعيسى؛ فنزلت هذه الآية ، ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وعبيدا وٱختراعا وخلقا . وقرأ نافع وٱبن عامر وغيرهما « اللهُ » بالرفع على الابتداء « الذى » خبره . وقيل : « الذى » صفة ، والخبر مضمر ؛ أى الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض قادرٌ على كل شىء . الباقون بالخفض نعتا للعزيز الحميد فقدم النعت على المنعوت ؛ كقولك : مررت بالظريف زيدٍ . وقيل : على البدل من « الحميد » وليس صفة ؛ لأن اسم الله صار كالعلَم فلا يوصف ؛ كما لا يوصف بزيد وعمرو ، بل يجوز أن يوصف به من حيث المعنى ؛ لأن معناه أنه المنفرد بقدرة الإيجاد . وقال أبو عمرو : والخفض على التقديم والتأخير ، مجازه : إلى صراط الله العزيز الحميد الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وكان يعقوب إذا وقف على « الحميد » رفع ، و إذا وصل خفض على النعت . قال ٱبن الأنبارى : من خفض وقف على « وما فى الأرض » .

قوله تعالى : ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ قد تقدّم معنى الويل فى « البقرة »[1] وقال الزجاج : هى كلمة تقال للعذاب والهلكة . « من عذاب شديد » أى فى جهنم . ﴿ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى يختارونها على الآخرة ، والكافرون يفعلون ذلك . « فالذين » فى موضع خفض صفة لهم . وقيل : فى موضع رفع خبر ابتداء مضمر ؛ أى هم الذين . وقيل : « الذين يستحبون » مبتدأ وخبره « أولئك » . وكل من آثر الدنيا وزهرتها ، وٱستحب

(١) راجع ج ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

البقاء فى نعيمها على النعيم فى الآخرة، وصدّ عن سبيل الله — أى صرف الناس عنه وهو دين الله، الذى جاءت به الرسـل، فى قول ٱبن عباس وغيره — فهو داخل فى هذه الآية؛ وقد قال صلى الله عليه وسـلم : "إن أخوف ما أخاف على أمتى الأئمـة المضلون" وهو حديث صحيح . وما أكثر ما هم فى هذه الأزمان،والله المستعان . وقيل : « يستحبون » أى يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته . ﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ أى يطلبون لها زَيْغا وميلا لموافقـة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم . والسبيل تذكر وتؤنث . والعِوج بكسر العين فى الدّين والأمر والأرض، وفى كل ما لم يكن قائمـا؛ و بفتح العين فى كل ما كان قائمـا، كالحائط والرُّمح ونحوه؛ وقد تقدم فى « آل عمران »[(١)] وغيرها . ﴿ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أى ذهاب عن الحق بعيد عنه .

قوله تعـالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴾ أى قبلك يامحمد ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أى بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهـم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القـوم لأن المراد اللغـة؛ فهى ٱسم جنس يقع على القليل والكثير؛ ولا حجـة للعجم وغيرهم فى هـذه الآية؛ لأن كل من تُرجم له ما جاء به النبي صـلى الله عليه وسـلم ترجمة يفهمها لزمته الحجـة؛ وقد قال الله تعـالى : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا» . وقال صلى الله عليه وسلم : "أرسل كلُّ نبيّ إلى أمته بلسانها وأرسلنى الله إلى كلّ أحمرَ وأسـودَ من خَلْقه" . وقال صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانىّ ثم لم يؤمن بالذى أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النـار" . خرجه مسلم، وقد تقدّم . ﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ ردّ على القَدَرية فى نفوذ المشيئة ، وهو مستأنف ، وليس بمعطوف على

(١) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

« ليبين » لأن الإرسال إنما وقع للتبيين لا الإضلال . ويجوز النصب فى « يضل » لأن الإرسال صار سببا للإضلال ؛ فيكون كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » وإنما صار الإرسال سببا للإضلال لأنهم كفروا به لما جاءهم ؛ فصار كأنه سبب لكفرهم . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ﴾ أى بحجتنا وبراهيننا ؛ أى بالمعجزات الدالة على صدقه . قال مجاهد : هى التسع الآيات[1] . ﴿ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ نظيره قوله تعالى لنبينا عليه السلام أول السورة : « لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » . وقيل : « أَنْ » هنا بمعنى أى ، كقوله تعالى : « وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا » أى امشوا .

قوله تعالى : ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ﴾ أى قل لهم قولا يتذكرون به أيام الله تعالى . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : بنعم الله عليهم ؛ وقاله أبيّ بن كعب ورواه مرفوعا ؛ أى بما أنعم الله عليهم من النجاة من فرعون ومن التِّيه ، إلى سائر النِّعم ؛ وقد تسمى النِّعم بالأيام ؛ ومنه قول عمرو بن كلثوم[2] :

* وأيام لنا غُرٌّ طِوالٌ *

---

(١) الآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا و يده والسنين ونقص من الثمرات .

(٢) البيت من معلقته وتمامه :

* عصينا الملك فيها أن ندينا *

وقد يكون تسميتها غرا لعلوهم على الملك وامتناعهم منه ، فأيامهم غر لهم ، وطوال على أعدائهم ؛ وعليه فلا دليل فى البيت على أن الأيام بمعنى النعم . وأيام بالجر عطف على (بأنا) فى البيت قبله ، ويجوز أن تجعل الواو بدلا من ربه .

وعن ابن عباس أيضا ومقاتل : بوقائع الله فى الأمم السابقة ؛ يقال فلان عالم بأيام العرب، أى بوقائعها . قال ابن زيد : يعنى الأيام التى انتقم فيها من الأمم الخالية ؛ وكذلك روى ابن وهب عن مالك قال : بلاؤه . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف فى الأيام الماضية لهم ؛ أى بما كان فى أيام الله من النعمة والمحنة ؛ وقد كانوا عبيدا مستذلّين ؛ واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "بينا موسى عليه السلام فى قومه يُذكّرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه" وذكر حديث الخضر ؛ ودل هذا على جواز الوعظ المرقّق للقلوب، المقوّى لليقين، الخالى من كلّ بدعة ، والمنزّه عن كل ضلالة وشبهة . ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أى فى التذكير بأيام الله ﴿لَآيَٰتٍ﴾ أى دلالات . ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ أى كثير الصبر على طاعة الله، وعن معاصيه . ﴿شَكُورٍ﴾ لنعم الله . وقال قتادة : هو العبد ؛ إذا أُعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر . وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر — ثم تلا هذه الآية — «إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور»" . ونحوه عن الشّعبىّ موقوفا . وتوارى الحسن البصرىّ عن الحجّاج سبع سنين، فلما بلغه موتُه قال : اللهم قد أمتّه فأمِتْ سُنّته، وسجد شكرا ، وقرأ «إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور» . وإنما خص بالآيات كل صبار شكور لأنه يعتبر بها ولا يغفل عنها؛ كما قال : «إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا» وإن كان منذرا للجميع .

قوله تعالى : وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ تقدم فى «البقرة» (١) مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ﴾ قيل : هو من قول موسى لقومه . وقيل : هو من قول الله ؛ أى واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . و «تَأَذَّنَ» وأَذَّن بمعنى أَعْلَمَ ؛ مثل أَوْعَد وتَوَعَّد ؛ روى معنى ذلك عن الحسن وغيره . ومنه الأذان ، لأنه إعلام ؛ قال الشاعر :

فلم نَشْعُرْ بضوءِ الصّبحِ حتّى * سمِعنا فى مجالِسِنا الأَذِينا

وكان ابن مسعود يقرأ « وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ » والمعنى واحد . ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ أى لئن شكرتم إنعامى لأزيدنكم من فضلى . الحسن : لئن شكرتم نعمتى لأزيدنكم من طاعتى . ابن عباس : لئن وَحّدْتُم وأطعتم لأزيدنّكم من الثواب ، والمعنى متقارب فى هذه الأقوال ؛ والآية نصٌّ فى أن الشكر سبب المزيد ؛ وقد تقدم فى « البقرة » (٢) ما للعلماء فى معنى الشكر . وسئل بعض الصلحاء عن الشكر لله فقال : ألّا تتقوّى بنعمه على معاصيه . وحكى عن داود عليه السلام أنه قال : أى رب كيف أشكرك ، وشكرى لك نعمة مجدّدة منك علىّ . قال : ياداود الآن شكرتنى .

قلت : فحقيقة الشكر على هذا الاعتراف بالنعمة للمنعم ، وألا يصرفها فى غير طاعته ؛ وأنشد الهادى وهو يأكل :

أَنالَكَ رِزْقَه لتقومَ فيــه * بطاعتِه وتشكرَ بعضَ حقّهْ

فلم تشكر لِنعمتِه ولكنْ * قَوِيتَ على معاصِيه برزقه

فغُصّ باللقمة ، وخنقته العَبْرة . وقال جعفر الصادق : إذا سمعت النعمة نعمة الشكر فتأهب للزيد . ﴿ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ أى جحدتم حقّى . وقيل : نِعَمِى ؛ وَعَد بالعذاب على الكفر ، كما وَعَد بالزيادة على الشكر ، وحذفت الفاء التى فى جواب الشرط من «إن» للشهرة .

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٣١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .	(٢) راجع ج ٢ ص ١٧١ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعالى : وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى لا يلحقه بذلك نقص، بل هو الغنى . «الحميد» أى المحمود .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ النبأ الخبر، والجمع الأنباء؛ قال[1] :

* أَلَمْ يأتيكَ والأنباءُ تَنْمِى *

ثم قيل : هو من قول موسى . وقيل : من قول الله ؛ أى وآذكر يا محمد إذ قال ربك كذا . وقيل : هو آبتداء خطاب من الله تعالى . وخبر قوم نوح وعاد وثمود مشهور قصه الله فى كتابه . وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ أى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف نسبهم إلا الله ؛ والنسابون وإن نسبوا إلى آدم فلا يدّعون إحصاء جميع الأمم ، وإنما ينسبون البعض، ويمسكون عن نسب البعض؛ وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع النسابين ينسبون إلى معدّ بن عدنان ثم زادوا فقال : "كذب النسابون إن الله يقول « لا يعلمهم إلا الله »" . وقد روى عن عُروة بن الزبير أنه قال : ماوجدنا أحدا يعرف ما بين عدنان وإسمعيل . وقال آبن عباس : بين عدنان وإسمعيل ثلاثون

(١) القائل هو : قيس بن زهير ، وتمام البيت : * بما لاقت لبون بنى زياد * . وبعده :

ومحبسها على القرشى تشرى * بأدراع وأسياف حداد

وبنو زياد : الربيع بن زياد وإخوته ، أخذلقيس درعا فاستاق قيس إبل الربيع لمكة وباعها لعبد الله بن جدعان — وهو مراده بالقرشى — بدروع وسيوف .

أبا لا يُعرَفون . وكان ٱبن مسعود يقول حين يقرأ « لا يعلمهم إلا الله » : كذب النّسابون .
﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالحجج والدلالات . ﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ ﴾ أى جعل أولئك القوم أيدى أنفسهم فى أفواههم ليَعضّوها عضًّا مما جاء به الرسل؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم؛ قاله ٱبن مسعود، ومثله قاله عبد الرحمن بن زيد، وقرأ « عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » . وقال ٱبن عباس : لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم . وقال أبو صالح : كانوا إذا قال لهم نبيهم أنا رسول الله إليكم أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم : أنِ ٱسكت، تكذيبا له ، وردًّا لقوله؛ وهذه الأقوال الثلاثة متقاربة المعنى، والضميران للكفار؛ والقول الأول أصحها إسنادا؛ قال أبو عبيد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عبد الله فى قوله تعالى « فردوا أيديهم فى أفواهِهم » قال عَضُّوا عليها غيظا؛ وقال الشاعر :

لو أنّ سَلْمَى أبصرتْ تَخَدُّدِى[1] * ودِقَّةً فى عظمِ سَاقى ويَدى
وبُعْدَ أهْلِى وجَفَاءَ عُوَّدِى * عَضَّتْ من الْوَجْدِ بأطرافِ اليدِ

وقد مضى هذا المعنى فى « آل عمران »[2] مجوّدا، والحمد لله . وقال مجاهد وقَتَادة : ردّوا على الرسل قولهم وكذّبوهم بأفواههم؛ فالضمير الأول للرسل، والثانى للكفّار . وقال الحسن وغيره : جعلوا أيديهم فى أفواه الرسل ردًّا لقولهم؛ فالضمير الأول على هذا للكفار، والثانى للرسل . وقيل معناه : أَوْمَأوا للرسل أن يسكتوا . وقال مقاتل : أخذوا أيدى الرسل ووضعوها على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم . وقيل : ردّ الرسل أيدى القوم فى أفواههم . وقيل : إن الأيدى هنا النِّعم؛ أى ردّوا نِعم الرسل بأفواههم، أى بالنطق والتكذيب؛ ومجىء الرسل بالشرائع نِعَمٌ؛ والمعنى : كذّبوا بأفواههم ما جاءت به الرسل . و « فى » بمعنى الباء؛ يقال : جلست فى البيت وبالبيت، وحروف الصفات يقام بعضها مقام بعض . وقال أبو عبيدة : هو ضرب مَثَل؛ أى لم يُؤْمنوا ولم يُجيبوا؛ والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن

---

(١) التخدد : أن يضطرب اللحم من الهزال . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانية .

الجواب وسكت قد ردّ يده فى فيه؛ وقاله الأخفش أيضا. وقال القُتَبىّ: لم نسمع أحدا من العرب يقول: ردّ يده فى فيــه إذا ترك ما أُمِر به؛ وإنمـا المعنى: عضوا على الأيدى حنقا وغيظا؛ لقول الشاعر:

تَرُدُّون فى فِيــهِ غِشَّ الحَسُو * دِ حتى يَعَضَّ علىّ الأَكُفَّـا

يعنى أنهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه وكفّيه. وقال آخر:

قَـدَ افْنَى أنَامِــلَهُ أَزْمُهُ[(1)] * فأضحَى يَعَضُّ علَىَّ الْوَظِيفَـا

وقالوا: ــ يعنى الأمم للرسل ــ ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَـا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أى بالإرسـال على زعمكم؛ لا أنهم أقرّوا أنهم أُرسلوا. ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ﴾ أى فى ريب ومرية. ﴿مِمَّـا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿مُرِيبٍ﴾ أى موجب للرّيبة؛ يقال: أربته إذ فعلت أمرا أوجب ريبة وشكًّا؛ أى نظنّ أنكم تطلبون الملك والدنيا.

قوله تعـالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللهِ شَكٌّ﴾ آستفهام معناه الإنكار؛ أى لا شك فى الله؛ أى فى توحيده؛ قاله قتادة. وقيل: فى طاعته. ويحتمل وجها ثالثا: أفى قدرة الله شك؟! لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها؛ يدل عليه قوله: ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهـا ومخترعها ومنشئهـا وموجدها بعد العدم؛ لينبه على قدرته فلا تجوز العبادة إلا له. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ أى إلى طاعته بالرســل والكتب. ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال أبو عبيد: «من» زائدة. وقال سيبويه: هى للتبعيض؛ ويجوز أن يذكر البعض والمراد منه الجميع.

(1) أزمة: عضة. والوظيف لكل ذى أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق.

وقيل : « من » للبدل وليست بزائدة ولا مُبعِّضة؛ أى لتكون المغفرة بدلا من الذنوب . ﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ يعنى الموت، فلا يعذبكم فى الدنيا . ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ ﴾ أى ما أنتم . ﴿ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ فى الهيئة والصورة؛ تأكلون مما نأكل، وتشربون مما نشرب، ولستم ملائكة . ﴿ تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من الأصنام والأوثان . ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ أى بحجة ظاهرة؛ وكان هذا محالا منهم؛ فإن الرسل ما دعوا إلا ومعهم المعجزات .

قوله تعالى : قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أى فى الصورة والهيئة كما قلتم . ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أى يتفضّل عليه بالنبوّة . وقيل : بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية . وقال سهل بن عبد الله : بتلاوة القرآن وفهم ما فيه .

قلت: وهذا قول حسن؛ وقد خرج الطبرى من حديث ابن عمر قال قلت لأبى ذرّ : ياعمّ أوصنى؛ قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتنى فقال : "ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمنّ بها على من يشاء من عباده وما منّ الله تعالى على عباده بمثل أن يُلهمهم ذِكره". ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أى بحجة وآية﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى بمشيئته، وليس ذلك فى قدرتنا؛ أى لانستطيع أن نأتى بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته؛ فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفى، لأنه لا يُحظَر على أحد ما لا يقدر عليه . ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تقدّم معناه .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﴾ « ما » استفهام فى موضع رفع بالابتداء، و « لنا » الخبر، وما بعدها فى موضع الحال؛ التقدير : أىّ شىء لنا فى ترك التوكل على الله . ﴿ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾ أى الطريق الذى يوصل إلى رحمته ، وينجى من سخطه ونقمته . ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ ﴾ لام قسم؛ مجازه : والله لنصبرن ﴿ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ به؛ أى من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ .

قوله تعالى : وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا ﴾ اللام لام قسم؛ أى والله لنخرجنكم . ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ ﴾ أى حتى تعودوا أو إلا أن تعودوا؛ قاله الطبرىّ وغيره . قال ابن العربى : وهو غير مفتقر إلى هذا التقدير؛ فإنّ « أو » على بابها من التخيير؛ خيّر الكفارُ الرسلَ بين أن يعودوا فى ملّتهم أو يخرجوهم من أرضهم؛ وهذه سيرة الله تعالى فى رسله وعباده؛ ألا ترى إلى قوله : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا . سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا » وقد تقدم هذا المعنى فى « الأعراف »[(1)] وغيرها . ﴿ فِي مِلَّتِنَا ﴾ أى إلى ديننا ﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أى مقامه بين يدىّ يوم القيامة؛ فأضيف المصدر إلى الفاعل . والمَقَام مصدر كالقيام؛ يقال : قام قياما ومَقَاما؛ وأضاف ذلك إليه لاختصاصه به . والمقام بفتح الميم مكان الإقامة ، وبالضم فعل الإقامة ؛ و « ذلك لمن خاف مقامى » أى قيامى عليه ، ومراقبتى له؛ قال الله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » . وقال الأخفش : « ذلك لمن خاف مقامى » أى عذابى، « وخاف وعيد » أى القرآن وزواجره . وقيل : إنه العذاب . والوعيد الاسم من الوعد .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا﴾ أى وٱستنصروا؛ أى أُذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم، والدعاء بهلاكهم؛ قاله ابن عباس وغيره، وقد مضى فى « البقرة »[1]. ومنه الحديث: إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يَسْتَفتح بصعاليك المهاجرين، أى يَستنصر. وقال ابن زيد: استفتحت الأمم بالدعاء كما قالت قريش : «اللَّهُمَّ إنْ كَانَ هَـذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية؛ وروى عن ابن عباس . وقيل قال الرسول : "إنهم كذّبونى فافتح بينى و بينهم فَتْحًا" وقالت الأمم: إن كان هؤلاء صادقين فعذّبنا؛ عن ابن عباس أيضا؛ نظيره «آئتنا بِعذابِ الله إن كنت مِن الصادِقِين » « آئتنا بِمـا تعدنا إن كنت مِن المرسلين » . ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الجبّار المتكبر الذى لا يرى لأحد عليه حقا؛ هكذا هو عند أهل اللغة، ذكره النحاس . والعنيد المعاند للحق والمجانب له، عن آبن عباس وغيره؛ يقال : عَنَـد عن قومه أى تباعد عنهم . وقيل : هو من العَنَد، وهو الناحية وعاند فلان أى أخذ فى ناحية مُعْرِضا؛ قال الشاعر :

إذا نزلتُ فآجعلُونى وَسَطَا ۞ إنّى كبيرٌ لا أُطيـقُ الْعُنَّـدَا

وقال الهَرَوى: قوله تعالى : « جبار عنيد » أى جائر عن القصد؛ وهو العَنُود والعَنِيد والعانِد؛ وفى حديث آبن عباس وسئِل عن المستحاضـة فقال : إنه عِرْقٌ عانِدٌ . قال أبو عبيد : هو الذى عَنَد و بَغَى كالإنسان يعانِد؛ فهذا العِرق فى كثرة ما يخرج منه بمنزلته . وقال شَمِر : العاند الذى لا يرقأ . وقال عمر يذكر سـيرته : أَضُمُّ العَنُود؛ قال الليث : العنود من الإبل الذى لا يخالطها إنما هو فى ناحيـة أبدا ؛ أراد من هَمَّ بالخلاف أو بمفارقة الجماعة عطفتُ به إليها . وقال مقاتل : العنيد المتكبر . وقال ابن كَيْسان : هو الشامخ بأنفه . وقيل : العَنُود والعَنِيد الذى

---

(١) راجع ج ٢ ص ٢٦ وما بعدها طبعة ثانية .

يتكبر على الرسل ويذهب عن طريق الحق فلا يسلكها ؛ تقول العـرب : شر الإبل العنود الذى يخرج عن الطريق . وقيل : العنيد العاصى . وقال قتادة : العنيد الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله .

قلت : والجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد، وإن كان اللفظ مختلفا ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيـد أى متكبر . وقيل : إن المراد به فى الاية أبو جهل؛ ذكره المهدوىّ . وحكى المـاوردىّ فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاءل يوما فى المصحف فخرج له قوله عز وجل : « وٱستفتحوا وخاب كل جبـارٍ عنيدٍ » فمزق المصحف وأنشأ يقول :

أتُوعِدُ كلّ جبّـارٍ عَنيـدٍ * فها أنا ذاكَ جبّـارٌ عَنيدُ
إذا ماجئتَ ربَّكَ يومَ حَشْرٍ * فَقُلْ يا رَبِّ مَزَّقني الوليدُ

فلم يلبث أياما حتى قُتل شرّ قِتلةٍ، وصُلب رأسه على قصره، ثم على سُور بلده .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أى من وراء ذلك الكافر جهنم، أى من بعد هلاكه . ووراء بمعنى بعد؛ قال النابغة :

حَلَفتُ فلم أتركْ لِنفسكَ رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للـمـرء مذهبُ

أى بعد الله جلّ جلاله ، وكذلك قوله تعـالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » أى من بعده، وقوله تعالى : « ويكفرون بِمـا وراءه » أى بمـا سواه؛ قاله الفراء . وقال أبو عبيد : بمـا بعده . وقيل : « من ورائه » أى من أمامه، ومنه قول الشاعر :

ومِنْ ورائكَ يومٌ أنتَ بالغُهُ * لا حاضرٌ مُعجِزٌ عنـه ولا بادِى

وقال آخر :

أتَرجُو بنو مروانَ سمعِي وطاعتِي * وقومى تَمـيمٌ والفـلاةُ ورائيـا

وقال لبيد :

أليس ورائِي إنْ [تَراختْ][1] منيّتِي * لُزومُ العَصَا تُحنَى عليهـا الأصابـعُ

(١) كذا فى ديوانه، وفى الأصل : « إن بلغت منيتى » .

يريد أمامي . وفي التنزيل « وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ » أي أمامهـم؛ وإلى هذا ذهب أبو عبيدة وأبو عليّ قُطْرُب وغيرهما . وقال الأخفش : هو كما يقال هذا الأمر من ورائك، أي سوف يأتيك، وأنا من وراء فلان أي في طلبه وسأصل إليه . وقال النحاس : في قوله «مِن ورائِهِ جهنم» أي من أمامه، وليس من الأضداد ولكنه من توارَى؛ أي ٱستتر . وقال الأزهري : إن وراء تكون بمعنى خلف وأمام فهو من الأضداد ، وقاله أبو عبيـدة أيضا ، واشتقاقهما مما توارى واستتر، بجهنم توارَى ولا تظهر، فصارت من وراء لأنها لا ترى؛ حكاه ابن الأنباري وهو حسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَـدِيدٍ ﴾ أي من ماء مثـل الصديد، كما يقال للرجل الشجاع أسد، أي مثل الأسد؛ وهو تمثيل وتشبيه . وقيل : هو ما يسيل من أجسام أهل النار من القيح والدم . وقال محمد بن كعب القُرَظيّ والربيع بن أَنَس : هو غُسَالة أهل النار، وذلك ماء يسيل من فروج الزناة والزواني . وقيـل : هو من ماء كرهته تَصدّ عنــه ، فيكون الصديد مأخوذا من الصدّ . وذكر ابن المبارك، أخبرنا صفوان بن عمرو عن عُبيد الله بن بُسْر عن أبي أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله « وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ » قال : "يُقرَّب إلى فِيهِ فيكرهه فإذا أُدْنِي منه شَوَى وجهه ووقعت فَرْوة رأسه فإذا شربه قطّع أمعاءه حتى تخرج من دبره يقـول الله « وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » ويقول « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ »" خرجه الترمذي، وقال: حديث غـريب ، وعُبيد الله بن بُسْر الذي روى عنه صفوان بن عمرو حديث أبي أمامة لعله أن يكون أخا عبد الله ابن بُسْر . ﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي يَتَحسّاه جرعا لا مرة واحدة لمرارته وحرارته . ﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ أي يبتلعه؛ يقال : جرع المـاء وٱجترعه وتجرعه بمعنى . وساغ الشَّرابُ في الحلق يسوغ سَوْغا إذا كان سَلِسا سهلا ، وأساغه اللهُ إساغةً . و « يكاد » صلة؛ أي يسيغه بعـد إبطاء ، قال الله تعالى : « وما كادوا يفعلون » أي فعلوا بعد إبطاء؛ ولهذا قال : « يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ » [1] فهذا يدل على الإساغة . وقال ابن عباس : لايجيزه ولا يمر به [2] . ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ

(١) آية ٢٠ من سورة الحج . (٢) كذا في الأصل؛ ولعله « لا يجيزه ولا يمرأ به » .

مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى يأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه ، كقوله : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّـارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ » . وقال إبراهيم التيمى : يأتيه من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره ، للآلام التى فى كل مكان من جسده . وقال الضحاك : إنه ليأتيه الموت من كل ناحية ومكان حتى من إبهام رجليـه . وقال الأخفش : يعنى البـلايا التى تصيب الكافر فى النار سماها موتا ، وهى من أعظم الموت . وقيـل : إنه لا يبقى عضـو من أعضـائه إلا وُكِّل به نوع من العذاب ؛ لو مات سبعين مرة لكان أهون عليه من نوع منها فى فرد لحظة ؛ إما حية تنهشه ، أو عقرب تلسبه (1) ، أو نار تسفعه ، أو قيـد برجليه ، أو غُلّ فى عنقـه ، أو سلسلة يقرن بها ، أو تابوت يكون فيـه ، أو زقّوم أو حميم ، أو غير ذلك من العذاب . وقال محمد بن كعب : إذا دعا الكافر فى جهنم بالشراب فرآه مات موتات ، فإذا دنا منه مات موتات ، فإذا شرب منه مات موتات ؛ فذلك قوله : « وَيَأْتِيـهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ » . قال الضحاك : لا يموت فيستريح . وقال ابن جريج : تعلق روحه فى حنجرته فلا تخرج من فيه فيموت ، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه فتنفعه الحيـاة ؛ ونظيره قـوله : « لَا يَمُوتُ فِيهَـا وَلَا يَحْيَا » . وقيل : يخلق الله فى جسده آلاما كل واحد منهـا كألم الموت . وقيل : « وما هو بميت » لتطاول شدائد الموت به ، وآمتداد سكراته عليه ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابه .

قلت : ويظهر من هـذا أنه يموت ، وليس كذلك ؛ لقوله تعالى : « وَلَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَـا » وبذلك وردت السّنة ؛ فأحوال الكفار أحوال من آستولى عليه سكرات الموت دائمـا ، والله أعلم . ﴿ وَمِنْ وَرَائِهِ ﴾ أى من أمامه . ﴿ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ أى شـديد متواصل الآلام من غير فتور ؛ ومنـه قوله : « وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » أى شدة وقوة . وقال فُضَيل بن عياض فى قول الله تعـالى : « وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ » قال : حبس الأنفاس .

(1) تلسبه : تلدغه .

قوله تعالى : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ﴾ اختلف النحويون فى رفع «مَثَل» فقال سيبويه : ارتفع بالابتداء والخبر مضمر؛ التقدير : وفيما يُتلى عليكم أو يُقصّ «مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ» ثم ابتدأ فقال : «أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ» أى كَمَثَل رماد ﴿اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ . وقال الزجاج : أى مَثَل الذين كفروا فيما يتلى عليكم أعمالهم كرماد، وهو عند الفرّاء على إلغاء المَثَل، التقدير : والذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد . وعنه أيضا أنه على حذف مضاف؛ التقدير : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد؛ وذكر الأول عنه المهدوىّ، والثانى القُشَيرىّ والثعلبىّ. ويجوز أن يكون مبتدأ كما يقال : صفة فلان أسمر؛ «فمَثَل» بمعنى صفة . ويجوز فى الكلام جر «أعمالهم» على بدل الاشتمال من «الذين» واتصل هذا بقوله : «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ» والمعنى : أعمالهم مُحْبَطة غير مقبولة . والرماد ما بقى بعد احتراق الشيء؛ فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفّار فى أنه يمحقها كما تمحق الرِّيحُ الشديدة الرَّمادَ فى يوم عاصف . والعصف شدة الريح؛ وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى . وفى وصف اليوم بالعُصُوف ثلاثة أقاويل : أحدها — أن العُصُوف وإن كان للرّيح فإن اليوم قد يوصف به؛ لأن الرّيح تكون فيه، فجاز أن يقال : يوم عاصف، كما يقال : يوم حارّ ويوم بارد، والبرد والحرّ فيهما . والثانى — أن يريد «فى يوم عاصف» الريح؛ لأنها ذكرت فى أول الكلمة، كما قال الشاعر :

* إذا جاء يومٌ مُظْلِمُ الشَّمسِ كاسِفُ *

يريد كاسف الشمس فحذف؛ لأنه قد مر ذكره؛ ذكرهما الهَرَوىّ . والثالث — أنه من نعت الريح؛ غير أنه لما جاء بعد اليوم أتبع إعرابه كما قيل : جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ؛ ذكره

الثعلبيّ والماوردىّ . وقرأ ابن إسحق و إبراهيم بن أبي بكر «فى يومِ عاصفٍ»[1] . ﴿لَا يَقْدِرُونَ﴾ يعنى الكفار . ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يريد فى الآخرة ؛ أى من ثواب ما عملوا من البرّ فى الدنيا ، لإحباطه بالكفر . ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ أى الخسران الكبير ؛ و إنما جعله كبيرا بعيدا لفوات استدراكه بالموت .

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الرؤية هنا رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه . وقرأ حمزة والكسائى — « خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » . ومعنى « بالحق » ليستدل بهما على قدرته . ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس ؛ أى هو قادر على الإفناء كما قدر على إيجاد الأشياء ؛ فلا تعصوه فإنكم إن عصيتموه يذهبكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أفضل وأطوع منكم ؛ إذ لو كانوا مثل الأولين فلا فائدة فى الإبدال . ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أى منيع متعذر .

قوله تعالى : وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ۖ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

(١) هذه القراءة بإضافة يوم إلى عاصف ، ومن قرأ بها أقام الصفة مقام الموصوف ؛ أى فى يوم ريح عاصف .

قوله تعالى : ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أى برزوا من قبورهم ، يعنى يوم القيامة . والبروز الظهور . والبَرَاز المكان الواسع لظهوره؛ ومنه آمرأة بَرْزة أى تظهر للناس؛ فمعنى « برزوا » ظهروا من قبورهم . وجاء بلفظ الماضى ومعناه الاستقبال ، وآتصل هذا بقوله : « وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » أى وقاربوا لما آستفتحوا فأهلكوا ، ثم بعثوا للحساب فبرزوا لله جميعا لايسترهم عنه ساتر . « لِلَّهِ » لأجل أمر الله إياهم بالبروز . ﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ ﴾ يعنى الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ وهم القادة ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ يجوز أن يكون تَبَعٌ مصدرا؛ التقدير : ذوى تَبَع . ويجوز أن يكون جمع تابع؛ مثل حارس وحَرَس، وخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وباقر وبَقَر . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ ﴾ أى دافعون عنا ﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا ، و «من» صلة؛ يقال : أغنى عنه إذا دفع عنه الأذى ، وأغناه إذا أوصل إليه النفع . ﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ ﴾ أى لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه . وقيل : لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها . وقيل ؛ لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه . ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا ﴾ هذا ابتداء خبره « أجزعنا » أى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أى من مهرب وملجأ . ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، وبمعنى الاسم؛ يقال : حَاصَ فلان عن كذا أى فرّ وزاغ يَحِيص حَيْصًا وحُيُوصًا وحَيَصَانًا؛ والمعنى : ما لنا وجه نتباعد به عن النار . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يقول أهل النار إذا آشتدّ بهم العذاب تعالوا نصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا هَلُمّ فلنجزع فيجزعون ويصيحون خمسمائة عام فلما رأوا أن ذلك لاينفعهم قالوا « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص» ". وقال محمد بن كعب القُرَظيّ : ذُكِر لنا أن أهل النار يقول بعضهم لبعض : يا هؤلاء ! قد نزل بكم من البلاء والعذاب ما قد ترون، فهلمّ فلنصبر ؛ فلعلّ الصّبر ينفعنا كما صبر أهل الطّاعة على طاعة الله فنفعهم الصّبر إذ صبروا ؛ فأجمعوا رأيهم على الصبر فصبروا، فطال صبرهم فجزعوا، فنادوا: «سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص » أى مَنجًى، فقام إبليس عند ذلك فقال : « إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ

وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ» يقول: لست بمغنٍ عنكم شيئا «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ» الحديث بطوله، وقد كتبناه فى كتاب «التذكرة» بكماله .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ قال الحسن: يقف إبليس يوم القيامة خطيبا فى جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعا. ومعنى «لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ» أى حُصِّل أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار، على ما يأتى بيانه فى «مريم»(١) عليها السلام. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ يعنى البعث والجنة والنار وثواب المطيع وعقاب العاصى فصدقكم وعده، ووعدتكم أن لا بعث ولا جنّة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فأخلفتكم. وروى ابن المبارك من حديث عُقْبة بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الشفاعة قال: "فيقول عيسى أدلكم على النبي الأمي فيأتون فيأذن الله لى أن أقوم فيثور مجلسُ من أطيب ريح شمّها أحدٌ حتى آتى ربى فيشفعنى ويجعل لى نورا من شعر رأسى إلى ظفر قدمى ثم يقول الكافرون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فمن يشفع لنا فيقولون ما هو غير إبليس هو الذى أضلنا فيأتونه فيقولون قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فاشفع لنا فإنك أضللتنا فيثور مجلسُه من أنتن ريح شمّها أحدٌ ثم يَعظُم نَحِيبهم ويقول عند ذلك: «إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم» الآية. «وعد الحق» هو إضافة الشيء إلى نفسه كقولهم: مسجد الجامع؛ قال الفراء قال البصريون: وعدكم وعد اليوم الحقّ أو وعدكم وعد الوعد الحقّ فصدقكم؛ فحذف المصدر لدلالة الحال. ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أى من حجة وبيان؛ أى ما أظهرت لكم حجة على ما وعدتكم وزيّنته لكم فى الدنيا ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أى أغويتكم فتابعتمونى. وقيل: لم أقهركم على ما دعوتكم إليه. «إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ» هو استثناء منقطع؛ أى لكن دعوتكم بالوسواس فاستجبتم لى باختياركم «فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ». وقيل: «وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ» أى على قلوبكم وموضع إيمانكم لكن

(١) فى تفسير قوله تعالى: «وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر ...» آية ٣٩ من السورة المذكورة.

دعوتكم فاستجبتم لى؛ وهذا على أنه خَطَب العاصىَ المؤمنَ والكافرَ الجاحد؛ وفيه نظر لقوله : « لما قضى الأمر » فإنه يدل على أنه خَطَب الكفّارَ دون العاصين الموحِّدين؛ والله أعلم . ﴿ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ إذا جئتمونى من غير حجة . ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أى بمغيثكم . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ ﴾ أى بمغيثىّ . والصّارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النّصرة والمعاونة، والمُصْرِخ هو المُغيث . قال سَلَامة بن جَنْدَل :

كنّا إذا ما أتانا صارِخٌ فَزِعٌ　*　كانَ الصُّراخُ له قَرْعَ الظَّنَابِيب (١)

وقال أُميّة بن أبى الصَّلْت :

ولا تجزعوا إنّى لكم غيرُ مُصْرِخٍ　*　وليس لكم عندى غَنَاءٌ ولا نَصْرُ

يقال : صَرَخ فلان أى آستغاث يَصرُخ صَرْخا وصُرَاخا وصَرْخةً . وآصطرخ بمعنى صَرَخ . والتّصرخ تَكلُّف الصُّراخ . والمُصْرِخ المُغيث، والمستصرِخ المستغيث؛ تقول منه : آستصرخنى فأصرخته . والصَّريخ صوت المستصرِخ . والصّريخ أيضا الصارِخ، وهو المغيث والمستغيث، وهو من الأضداد؛ قاله الجوهرى . وقراءة العامة « بِمُصرِخىَّ » بفتح الياء . وقرأ الأعمش وحمزة « بمصرِخىِّ » بكسر الياء . والأصل فيها بمصرخيين فذهبت النون للإضافة، وأدغمت ياء الجماعة فى ياء الإضافة، فمن نصب فلأجل التضعيف، ولأن ياء الإضافة إذا سكن ما قبلها تعين فيها الفتح مثل : هَوَاىَ وعَصاىَ، فإن تحرك ما قبلها جاز الفتح والإسكان، مثل : غلامِىَ وغلامِى، ومن كسر فلالتقاء الساكنين حركت إلى الكسر، لأن الياء أخت الكسرة . وقال الفرّاء : قراءة حمزة وَهَمٌ منه، وقلّ من سلِم منهم (٢) عن خطأ . وقال الزجاج : هذه قراءة رديئة ولا وجه لها إلا وجه ضعيف . وقال قُطْرُب : هذه لغة بنى يَرْبُوع يزيدون على ياء الإضافة ياء . القُشَيرِىّ : والذى يغنى عن هذا أن ما يثبت بالتواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم فلا يجوز أن يقال فيه هو خطأ أو قبيح أو ردىء، بل هو فى القرآن فصيح، وفيه ما هو أفصح منه، فلعل هؤلاء أرادوا أن غير هذا الذى قرأ به حمزة أفصح . ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى

(١) الظنابيب (جمع) ظنبوب؛ وهو حرف الساق اليابس من قدم . وقرع الظنبوب أن يقرع الرجل ظنبوب البعير ليتنوخ له فيركبه؛ والمراد هنا سرعة الإجابة .　(٢) أى من القرّاء .

مِنْ قَبْلُ ﴾ أى كفرت بإشرا كِكم إياى مع الله تعالى فى الطاعة؛ فـ « ما » بمعنى المصدر . وقال ابن جُرَيج[(١)] : إنى كفرت اليوم بما كنتم تدعونه فى الدنيا من الشّرك بالله تعالى . قتادة : إنى عصيت الله . الثوريّ : كفرت بطاعتكم إياى فى الدنيا . ﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وفى هـذه الآيات ردّ على القَدَرية والمعتزلة والإمامية ومن كان على طريقتهم؛ أنظر إلى قول المتبوعين : « لَوْ هَـدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ » وقول إبليس : « إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحَقِّ » كيف اعترفوا بالحق فى صفات الله تعالى وهم فى دَرَكات النار؛ كما قال فى موضع آخر : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا » إلى قوله : « فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ » واعترافهم فى دَرَكات لَظَى بالحقّ ليس بنافع، وإنما ينفع الاعترافُ صاحبَه فى الدنيا؛ قال الله عز وجل : « وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » و « عسى » من الله واجبة .

قوله تعـالى : وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ ﴾ أى فى جنات لأن دخلت لا يتعدى، كما لا يتعدى نقيضه وهو خرجت، ولا يقاس عليه؛ قاله المهدويّ . ولما أخبر تعـالى بحال أهل النار أخبر بحال أهل الجنـة أيضا . وقراءة الجماعة « أُدْخِلَ » على أنه فعل مبنى للفعول . وقرأ الحسن « وأُدْخِلُ » على الاسـتقبال والاستئناف . ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أى بأمره . وقيل : بمشيئته وتيسيره . وقال : « بإذن ربهم » ولم يقل : بإذنى تعظيما وتفخيما . ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ تقدم فى « يونس »[(٢)] . والحمد لله .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

---

(١) فى بعض النسخ ابن بحر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣١٣ طبعة أولى أو ثانية .

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ لما ذكر تعالى مَثَل أعمال الكفار وأنها كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف، ذكر مَثَل أقوال المؤمنين وغيرها، ثم فسّر ذلك المَثَل فقال : ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الثمر، فحذف لدلالة الكلام عليه . قال ابن عباس : الكلمة الطيبة لا إله إلا الله والشجرة الطيبة المؤمن . وقال مجاهد وابن جُرَيْج : الكلمة الطيبة الإيمان . عطية العَوْفيّ والرّبيع بن أَنَس : هي المؤمن نفسه . وقال مجاهد أيضا وعِكْرِمة : الشّجرة النّخلة ؛ فيجوز أن يكون المعنى : أصل الكلمة في قلب المؤمن — وهو الإيمان — شبّهه بالنّخلة في المَنْبِت، وشبّه ارتفاع عمله في السماء بارتفاع فروع النّخلة، وثواب الله له بالثّمر . وروى من حديث أَنَس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن مَثَل الإيمان كمثل شجرة ثابتة الإيمانُ عُروقُها والصلاةُ أصلُها والزكاةُ فروعُها والصيامُ أغصانُها والتأذى في الله نباتُها وحسنُ الخُلُق ورقُها والكفُّ عن محارم الله ثمرتُها". ويجوز أن يكون المعنى : أصل النّخلة ثابت في الأرض ؛ أى عروقها تشرب من الأرض وتسقيها السماء من فوقها، فهي زاكية نامية . وخرّج الترمذيّ من حديث أَنَس بن مالك قال : أُتِى رسولُ الله صلى الله عليه بقِنَاع[1] فيه رُطَب، فقال : "مَثَلُ كلمةٍ طيبةٍ كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماءِ تؤتى أكلها كل حِينٍ بإذنِ ربها — قال — هي النخلة ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوقِ الأرض ما لها من قرارٍ — قال — هي الحَنْظَل" . ورَوى عن أنس قولَه [وقال] : وهو أصح[2] . وخرّج الدّارَقُطْنيّ عن ابن عمر قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أتدرون ما هي" فوقع في نفسي أنها النّخلة . قال السُّهَيْليّ : ولا يصح فيها ما روى عن عليّ بن أبي طالب أنها جَوْزة الهند ؛ لِما صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عمر "إنّ من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها وهي مِثْلُ المؤمن خبّروني ما هي — ثم قال — هي النخلة" خرّجه مالك في « الموطأ » من رواية ابن القاسم وغيره إلا يحيي فانه أسقطه من روايته . وخرّجه أهل الصحيح وزاد

(١) القناع : الطبق الذى يؤكل عليه .　　(٢) أى قال الترمذى : والحديث الموقوف أصح .

فيه الحارث بن أسامة زيادة تساوى رحلة[١]؛ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وهى النخلة لا تسقط لها أنملة وكذلك المؤمن لا تسقط له دعوة" فبيّن معنى الحديث والمماثلة .

قلت : وذكر الغَزْنوىّ عنه عليه السلام " مَثَلُ المؤمن كالنّخلة إن صاحبتَه نفعكَ و إن جالستَه نفعكَ و إن شاورتَه نفعكَ كالنّخلة كل شيء منها ينتفع به". وقال: " كُلُوا من عَمَّتكم " يعنى النخلة خلقت من فَضْلة طينة آدم عليه السلام، وكذلك أنها برأسها تبقى، و بقلبها تحيا، وثمرها بامتزاج الذّكر والأنثى. وقد قيل: إنها لما كانت أشبه الأشجار بالإنسان شُبّهت به؛ وذلك أن كل شجـرة إذا قطع رأسها تشعبت الغصون من جوانبها، والنخلة إذا قطع رأسها يبست وذهبت أصلا؛ ولأنها تشبه الإنسان وسائر الحيوان فى الالتقاح لأنها لا تحمل حتى تُلْقَح قال النبي صلى الله عليه وسلم: " خيرُ المـال سِكّة مَأْبُورَة ومُهْرَة مأمورة"[٢]. والإبار اللّقاح وسيأتى فى سورة « الحجر »[٣] بيانه . ولأنها من فَضْلة طينة آدم . ويقال: إن الله عز وجل لما صوّر آدم من الطّين فَضَلت قطعة طين فصوّرها بيده وغرسها فى جنّة عَدْن . قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أكرموا عَمَّتكم" قالوا: ومن عمتنا يا رسول الله؟ قال: "النخلة". ﴿تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ قال الربيع: « كلّ حِينٍ » غُدوة وعَشِيّة كذلك يَصعَد عملُ المؤمن أول النهار وآخره؛ وقاله ابن عباس. وعنه « تؤتِى أكلها كل حِينٍ » قال: هو شجرة الهند لا تُعطل من ثمرة، تحمل فى كل شهر، شبه عمل المؤمن لله عز وجل فى كل وقت بالنخلة التى تؤتى أكلها فى أوقات مختلفة. وقال الضحاك: كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفا يؤكل فى جميع الأوقات، وكذلك المؤمن لا يخلو من الخير فى الأوقات كلها . قال النحاس : وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضه، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذّ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره، وأنشد الأَصْمَعِىّ بيت النّابغة:

تَنَاذَرَها الرَّاقُونَ مِن سُوءِ سَمِّها ﴿﴾ تُطَلِّقُهُ حِينًا وحِينًا تُرَاجِعُ[٤]

(١) كذا فى الأصل . (٢) السكة : الطريقة المصطفة من النخل، والمهرة المـأمورة الكثيرة النسل والنتاج؛ أراد خير المـال نتاج أو زرع . (٣) فى تفسير قوله تعالى : «وأرسلنا الرياح لواقح» آية ٢٢ .

(٤) البيت فى وصف حية؛ و « تناذرها الراقون » أى أنذر بعضهم بعضا ألا يتعرضوا لها . ومعنى « تطلقه حينا وحينا تراجع » أنها تخفى الأوجاع عن السليم تارة، وتارة تشتد عليه . ويروى : «من سوء سمعها» أى أنها لا تجيب الراقى لا أنها صماء؛ لقولهم : أسمع من حية .

فهـذا يبيّن لك أن الحين بمعنى الوقت، فالإيمـان ثابت فى قلب المؤمن، وعمله وقوله وتسبيحه عالٍ مرتفع فى السماء ارتفاع فروع النخلة، وما يكسب من بركة الإيمان وثوابه كما يُنال من ثمرة النّخلة فى أوقات السّنة كلّها، من الرّطب والبُسْر والبلح والزَّهْو(١) والتّمر والطَّلع. وفى رواية عن ابن عباس: إن الشجرة الطيبة شجرة فى الجنة تثمر فى كل وقت. و «مثلا» مفعول بـ«ضرب»، «وكلمـة» بدل منه، والكاف فى قوله: «كشجرة» فى موضع نصب على الحال من «كلمة» التقدير: كلمة طيبة مشبهة بشجرة طيبة.

الثانيـــة — قوله تعالى: ﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ لمـا كانت الأشجار تؤتى أكلها كل سنة مرة كان فى ذلك بيان حكم الحين؛ ولهذا قلنا: من حلف ألّا يكلّم فلانا حينا ولا يقول كذا حينا إن الحين سنة. وقد ورد الحين فى موضع آخر يراد به أكثر من ذلك لقوله تعالى: «هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ» قيل فى «التفسير»: أربعون عاما. وحكى عِكْرِمة أن رجلا قال: إن فعلت كذا وكذا إلى حين فغلامه حُرٌّ، فأتى عمرَ بن عبـد العزيز فسأله، فسألنى عنها فقلت: إن من الحين حينا لا يُدْرك، قوله: «وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» فأرى أن تُمسك ما بين صِرَام(٢) النّخلة إلى حَمْلها، فكأنه أعجبه؛ وهو قول أبى حنيفة فى الحين أنه ستة أشهـر اتباعا لعكرمة وغيره. وقـد مضى ما للعلمـاء فى الحين فى «البقرة»(٣) مستوفى والحمـد لله. ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ أى الأشباه للنـاس. ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ويعتبرون؛ وقد تقدم.

قوله تعـالى: وَمَثَـلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَـةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَـةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ الكلمة الخبيثة كلمة الكفر. وقيل: الكافر نفسه. والشجرة الخبيثة شجرة الحَنْظَل كما فى حديث أَنَس، وهو قول ابن عباس ومجاهد

(١) الزهو: البسر الملون.　　(٢) صرام النخلة: حين يقطع ثمرها.　　(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

وغيرهما، وعن ابن عباس أيضا أنهـا شجرة لم تخلق على الأرض . وقيل : هى شجرة الثّوم؛ عن ابن عباس أيضا . وقيل : الكَمْأَة أو الطّحلبة . وقيل : الْكَشُوث، وهى شجرة لا ورق لها ولا عروق فى الأرض؛ قال الشاعر :

* وهُمْ كَشُوثٌ فلا أصلٌ ولا ورقٌ (١) *

﴿ ٱجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ﴾ ٱقتلعت من أصلها؛ قاله ابن عباس؛ ومنه قول لَقِيط (٢) :

هـو الجلاءُ الذى يَجتثُّ أصـلَكُمُ * فمن رأى مثلَ ذا يوماً ومن سَمِعَـا

وقال المؤرّج : أُخذت جثّتها وهى نفسها ، والجثّـة شخص الإنسان قاعدا أو قائمـا . وجَثّه قَلَعـه ، وٱجتثه اقتلعه من فوق الأرض ؛ أى ليس لهـا أصل راسخ يشرب بعروقه من الأرض . ﴿ مَالَهَـا مِنْ قَرَارٍ ﴾ أى من أصل فى الأرض . وقيل: من ثبات؛ فكذلك الكافر لا حجة له ولا ثبات ولا خير فيه، وما يصعد له قول طيب ولا عمـل صالح . وروى معاوية ابن صالح عن علىّ بن أبى طلحة فى قوله تعالى «وضرب الله مثلا كلمة طيبة» قال : لا إله إلا الله «كشجرة طيبـة» قال : المؤمن ؛ «أصلهـا ثابت» لا إله إلا الله ثابتـة فى قلب المؤمن؛ «ومثل كلمة خبيثة» قال : الشرك، «كشجرة خبيثة» قال : المشرك؛ «ٱجتثت من فوق الأرض مالها من قرار» أى ليس للشرك أصل يعمل عليه . وقيل : يرجع المَثَل إلى الدعاء إلى الإيمان والدعاء إلى الشرك؛ لأن الكلمة يفهم منها القول والدعاء إلى الشىء .

قوله تعـالى : يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّـابِتِ ﴾ قال ابن عباس : هـو لا إله إلا الله . وروى النّسائىّ عن البَرَاء قال قال : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت

(١) تمـامه :

* ولا نسيم ولا ظل ولا ثمر *

يريد أنهم لاحسب لهم ولا نسب . (٢) هو لقيط بن معمر الإيادى ، والبيت من قصيدة بعث بها إلى قومه يحذرهم كسرى وجيشه ؛ فلم يلتفتوا إلى قوله ، فظفر بهم كسرى وهزمهم .

فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » نزلت فى عذاب القبر؛ يقال : من ربك ؟ فيقول : ربّى الله ودينى دين محمد ، فذلك قوله : « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

قلت : وقد جاء هكذا موقوفا فى بعض طرق مسلم عن البَرَاء [أنه] [1] قوله ، والصحيح فيه الرفع كما فى صحيح مسلم وكتاب النَّسائى وأبى داود وابن ماجه وغيرهم عن البَرَاء عن النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وذكر البخارىّ ، حدّثنا جعفر بن عمر ، قال حدّثنا شُعْبة عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن سعد بن عبيدة عن البَرَاء بن عازب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إذا أقعد المؤمنُ فى قبره أتاه آتٍ ثم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » " . وقد بينا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » وبيّنا هناك من يُفتَن فى قبره ويُسأل ، فمن أراد الوقوف عليه تأمله هناك . وقال سهل بن عمّار : رأيت يزيد بن هرون فى المنام بعد موته ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : أتانى فى قبرى مَلَكان فظّان غليظان ، فقالا : ما دينك ومن ربك ومن نبيّك ؟ فأخذتُ بلحيتى البيضاء وقلتُ : ألمثلى يقال هذا وقد عَلّمتُ الناسَ جوابَكما ثمانين سَنَة ؟ ! فذهبا وقالا : أكَتَبْتَ عن حَرِيز بن عثمان ؟ قلت نعم ! فقالا : إنه كان يبغض [عليًّا] [2] فأبغضه الله . وقيل : معنى «يثبت الله» يديمهم الله على القول الثابت ، ومنه قول عبد الله بن رَوَاحَة :

يُثبِّتُ اللهُ ما آتاكَ من حَسَنٍ * تَثبيتَ موسى ونَصراً كالذى نُصِرا

وقيل : يثبتهم فى الدارين جزاء لهم على القول الثابت . وقال القَفَّال وجماعة : « فى الحياة الدنيا » أى فى القبر؛ لأن الموتى فى الدنيا إلى أن يبعثوا « وفى الآخرة » أى عند الحساب؛ وحكاه الماوردىّ عن البَرَاء قال : المراد بالحياة الدنيا المُسَاءلة فى القبر ، وبالآخرة المُسَاءلة فى القيامة : ﴿ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى عن حججهم فى قبورهم كما ضلّوا فى الدنيا

---

(١) أى قول البراء .	(٢) فى الأصل « عثمان » ومثله فى كتاب « التذكرة » للمؤلف . والذى فى « تهذيب التهذيب » أنه كان يبغض عليا .

بكفرهم فلا يُلقّنهم كلمة الحق، فإذا سُـئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى ؛ فيقول : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْتَ[(١)] ؛ وعنـد ذلك يُضرَب بالمقامع[(٢)] على ما ثبت فى الأخبـار ؛ وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التـذكرة » . وقيـل : يمهلهم حتى يزدادوا ضلالا فى الدنيـا . ﴿ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ من عذاب قوم وإضـلال قوم . وقيـل : إن سبب نزول هـذه الآية ما روى عن النبي صلى الله عليـه وسلم لمـا وصف مُسَاءلة مُنْكَر ونَكير وما يكون من جواب الميت قال عمر : يا رسـول الله أيكون معى عقلى ؟ قال : " نعم " قال : كُفيتُ إذاً ؛ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

قوله تعـالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللّهِ كُفْرًا ﴾ أى جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر فى تكذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، حين بعثه الله منهم وفيهم فكفروا، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم ؛ عن ابن عباس وعلىّ وغيرهما . وقيل : نزلت فى المشركين الذين قاتلوا النبي صلى الله عليه وسلم يوم بَدْر . قال أبو الطُّفَيل : سمعت عليا رضى الله عنه يقول : هم قريش الذين نُحِروا يوم بَدْر . وقيل : نزلت فى الأفجرين من قريش بنى مخزوم وبنى أمية، فأما بنو أمية فمتِّعوا إلى حين ؛ وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بَدْر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب وعمر ابن الخطاب رضى الله عنهما . وقول رابع : أنهم متنصرة العرب جَبَلة بن الأَيْهَـم وأصحابه حين لَطَم فجعل له عمر القصاص بمثلها ، فلم يَرْض وأَنِف فارتد مُتنصِّرا ولَحِق بالروم فى جماعة من قومه ؛ عن ابن عباس وقَتَادة . ولمـا صار إلى بلد الروم ندم فقال :

---

(١) قيل فى معنى « ولا تليت » : ولا تلوت ؛ أى لا قرأت ؛ من تلا يتلو ، وقالوا تليت بالياء ليعاقب بها الياء فى دريت .

(٢) المقامع : سياط من حديد رءوسها معوجة .

تَنَصَّرتِ الأشرافُ من عارِ لَطْمةٍ * وما كان فيها لو صَبَرْتُ لها ضَرَرْ
تَكنَّفنِي منها لَجَاجٌ ونَخْوةٌ * وبِعتُ لها العينَ الصحيحةَ بالعَوَرْ
فياليتنى أَرعَى المَخَاضَ ببلدةٍ * ولم أنكر القولَ الذى قاله عُمَرْ

وقال الحسن : إنها عامة فى جميع المشركين . ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ ﴾ أى أنزلوهم . قال ابن عباس : هم قادة المشركين يوم بَدْر أحلّوا قومهم ؛ أى الذين اتبعوهم . ﴿ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ قيل : جهنم ؛ قاله ابن زيد . وقيل : يوم بدر ؛ قاله علىّ بن أبى طالب ومجاهد . والبوار الهلاك ؛ ومنه قول الشاعر :

فلم أَرَ مثلَهم أبطالَ حَرْبٍ * غداةَ الحرب إذْ خِيفَ البَوَارُ

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ بيّن أن دار البوار جهنم كما قال ابن زيد ، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار» ؛ لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن « دار البوار» فلو رفعها رافع بإضمار ، على معنى : هى جهنم ، أو بما عاد من الضمير فى « يصلونها » لحسن الوقف على «دار البوار» . ﴿ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أى المستقر . قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ﴾ أى أصناما عبدوها ؛ وقد تقدم فى « البقرة » (١) . ﴿ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى عن دينه . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء ، وكذلك فى الحج « لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » ومثله فى « لقمان » و « الزمر » وضمها الباقون على معنى ليضلوا الناس عن سبيله ، وأما من فتح فعلى معنى أنهم هم يَضلّون عن سبيل الله على اللزوم ، أى عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ؛ فهذه لام العاقبة . ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا ﴾ وعيد لهم ، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع . ﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أى مردّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم .

قوله تعالى : ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿قُل لِعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى إن أهـل مكة بدّلوا نعمة الله بالكفر، فقل لمن آمن وحقّق عبوديته أن ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ يعنى الصلوات الخمس، أى قل لهم أقيموا، والأمر معه شرط مقدّر، تقول : أطع الله يُدخلْك الجنة؛ أى إن أطعته يدخلْك الجنة؛ هذا قول الفراء . وقال الزجاج : «يقيموا» مجزوم بمعنى اللام ، أى ليقيموا فأسقطت اللام لأن الأمر دلّ على الغائب بـ «قل» . قال ويحتمل أن يقال : «يقيموا» جواب أمر محذوف؛ أى قل لهم أقيموا الصـلاة يقيموا الصلاة . ﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَـةً﴾ يعنى الزكاة؛ عن ابن عباس وغيره . وقال الجمهور : السرّ ما خفى والعلانية ما ظهر . وقال القاسم ابن يحيى : إن السرّ التطوع والعلانية الفرض، وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة»(١) مجوّدا عند قوله : «إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِىَ» . ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ تقدم فى «البقرة»(٢) أيضا . و «خلال» جمع خُلّة كقُلّة وقِلال . قال(٣) :

* فلستُ بمَقْلِىِّ الخِـلَالِ ولا قَالِى *

قوله تعـالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَـٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

قوله تعالى : ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أى أبدعها واخترعها على غير مثال سبق . ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى من السّحاب . ﴿مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَـرَاتِ﴾ أى من الشجر

---

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٦٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) قاله امرؤ القيس، وصدر البيت :

* صرفت الهوى عنهن من خشية الردى *

ثمرات ﴿ رِزْقًا لَكُمْ ﴾[(1)] . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ تقدم معناه فى «البقرة» . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴾ يعنى البحار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ، والبحار المالحة لاختلاف المنافع من الجهات . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾ أى فى إصلاح ما يصلحان من النبات وغيره ، والدُّؤوب مرور الشيء فى العمل على عادة جارية . وقيل : دائبين فى السير امتثالا لأمر الله ، والمعنى يجريان إلى يوم القيامة لا يفتران؛ روى معناه عن ابن عباس . ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى لتسكنوا فى الليل ، ولتبتغوا من فضله فى النهار؛ كما قال : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » .

قوله تعالى : ﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴾ أى أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا؛ فحذف؛ عن الأخفش . وقيل : المعنى وآتاكم من كل ما سألتموه ، ومن كل ما لم تسألوه ، فحذف ، فلم نسأله شمسا ولا قمرا ولا كثيرا من نعمه التى ٱبتدأنا بها . وهذا كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ » على ما يأتى . وقيل : « من » زائدة؛ أى آتاكم كلّ ما سألتموه . وقرأ ٱبن عباس والضحاك وغيرهما « وَآتَاكُمْ مِنْ كُلٍّ » بالتنوين « مَا سَأَلْتُمُوهُ » وقد رويت هذه القراءة عن الحسن والضحاك وقتادة؛ هى على النفى أى من كل ما لم تسألوه؛ كالشمس والقمر وغيرهما . وقيل : من كل شيء ما سألتموه أى الذى سألتموه . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ ﴾ أى نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسّمع والبصر وتقويم الصّور إلى غير ذلك من العافية والرزق؛ وهذه النّعم من الله ، فلِمَ تبدلون نعمة الله بالكفر ؟! وهلا ٱستعنتم بها على الطاعة ؟! ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ الإنسان لفظ جنس وأراد به الخصوص؛ قال ابن عباس : أراد أبا جهل . وقيل : جميع الكفّار .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(١) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً ﴾ يعنى مكة وقـد مضى فى « البقرة » [(١)] . ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ أى اجعلنى جانبا عن عبادتها، وأراد بقوله : « بنىّ » بنيه من صُلْبه وكانوا ثمانية، فما عبد أحد منهم صنما . وقيل : هو دعاء لمن أراد الله أن يدعو له . وقرأ الجَحْدَرىّ وعيسى « وَأَجْنِبْنِي » بقطـع الألف والمعنى واحد ؛ يقال : جَنَبْتُ ذلك الأمرَ، وأجنبته وجَنَّبْته إياه فتجانبـه واجتنبه أى تركه . وكان إبراهيم التَّيْمىّ يقول فى قصصه : من يأمن البلاء بعد الخليل حين يقول : « واجنبنى و بنى أن نعبـد الأصنام » كما عبدها أبى وقومى .

قوله تعـالى : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ﴾ لمـا كانت سببا للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازا؛ فإن الأصنام جمادات لا تفعـل . ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي ﴾ فى التوحيـد . ﴿ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ أى من أهـل دينى . ﴿ وَمَنْ عَصَانِي ﴾ أى أصرّ على الشّرك . ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قيل : قال هذا قبل أن يعرّفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به . وقيل : غفور رحيم لمن تاب من معصيته قبل الموت . وقال مقاتل بن حيان : « وَمَنْ عَصَانِي » فيما دون الشّرك .

قوله تعـالى : رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)

فيه ست مسائل :

الأولى ــ روى البخارىّ عن ابن عباس : أول ما اتخذ النّساء المِنْطَق [(٢)] من قِبل أمّ إسمعيل؛ اتخـذت مِنْطَقا لتُعفّى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم و بابنها إسمعيل وهى ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دَوْحة فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٧ وما بعدها طبعه ثانية . (٢) المنطق : النطاق وهو أن تلبس المرأة ثوبها ثم تشد وسطها بشىء، وترفع وسط ثوبها وترسله على الأسفل عند معاناة الأشغال لئلا تعثر فى ذيلها .

بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفّى إبراهيم منطلقا فتبعته أمّ إسمعيل، فقالت : يا إبرهيم ! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء، قالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت إذًا لا يضيّعنا؛ ثم رجعت، فآنطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، آستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال : «رَبِّ إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ» حتى بلغ «يشكرون» وجعلت أمّ إسمعيل تُرضع إسمعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السّقاء عطشت وعطش آبنها، وجعلت تنظر إليه يتلوّى — أو قال يتلبّط[(1)] — فآنطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصّفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه، ثم آستقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، فهبطت من الصّفا، حتى إذا بلغت الوادى، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المروة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: "فذلك سعى الناس بينهما" فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صَه ! تريد نفسها، ثم تسمّعت فسمعت أيضا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غَواث[(2)] ! فإذا هى بالمَلَك عند موضع زمزم فبحث بعقبه — أو قال بجناحه — حتى ظهر الماء، فجعلت تحوّضه[(3)] وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف؛ قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يرحم الله أمّ إسمعيل لو تركت زمزم — أو قال لو لم تغرف من الماء — لكانت زمزم عينا معينا " قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها المَلَك : لا تخافى الضّيْعة فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيّع أهله؛ وذكر الحديث بطوله .

---

(1) يتلبط : يتمرغ . وقد روى بالضم والكسر .

(2) غواث (بالفتح) كالغياث (بالكسر) من الإغاثة وهى الإعانة ؛

(3) « وتقول بيدها هكذا » : هو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل . (قسطلانى) .

مسئلة — لا يجوز لأحد أن يتعلق بهـذا فى طرح ولده وعياله بأرض مَضيعة آتكالا على العزيز الرحيم، وٱقتداء بفعل إبراهيم الخليل، كما تقوله غُلاة الصّوفية فى حقيقة التّوكل، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله لقوله فى الحديث : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . وقـد روى أن سارة لمـا غارت من هاجر بعـد أن ولدت إسمعيل خرج بهـا إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، فروى أنه ركب الْبُراق هو وهاجر والطّفل بجـاء فى يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، وترك آبنه وأَمَته هنالك وركب منصرفا من يومه، فكان ذلك كله بوحى من الله تعالى،فلما ولى دعا بضمن هذه الآية .

الثانيـــة — لمـا أراد الله تأسيس الحال، وتمهيد المقام، وخطّ الموضع للبيت المكرم، والبلد المحرم، أرسل المَلَك فبَحَث عن المـاء ، وأقامه مقام الغذاء ، وفى الصحيح أن أبا ذرّ رضى الله عنه آجترأ به ثلاثين من يوم وليـلة ، قال أبو ذرّ : ما كان لى طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تَكَسَّرت عُكَنِى، وما أجد على كبـدى سَخْفَة(١) جوع؛ وذكر الحـديث . وروى الدَّارَقُطْنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "ماء زمزم لِمـا شُرِب له إن شربتَه تشتفى به شفاك الله وإن شربتَه لشبعك أشبعك الله به وإن شربتَه لقطع ظمئك قطعه وهى هَزْمَة(٢) جبريل وسُقْيا الله إسمعيل". وروى أيضا عن عكرمة قال كان ابن عباس إذا شرب من زمزم قال : اللهم إنى أسألك علما نافعا، ورزقا واسعا، وشفاء من كل داء . قال ابن العربى : وهذا موجود فيه إلى يوم القيامة لمن صحّت نيّته،وسلمت طويّته،ولم يكن به مكذِّبا، ولا يشربه مجرِّبا، فإن الله مع المتوكلين، وهو يفضح المجرِّبين . وقال أبو عبد الله محمد بن علىّ الترمذى وحدثنى أبى رحمه الله قال : دخلت الطّواف فى ليلة ظلماء فأخذنى من البول ما شغلنى ، فجعلت أعتصر حتى آذانى ، وخفت إن خرجت من المسجد أن أطأ بعض تلك الأقدام، وذلك أيام الحج؛ فذكرت هذا الحديث، فدخلت زمزم فتضلّعت(٣) منه،فذهب عنى إلى الصباح . وروى عن عبد الله بن عمرو : وإن فى زمزم عينا فى الجنة من قِبل الركن .

(١) سخفة الجوع : رقته وهزاله . (٢) هزمة جبريل : أى ضربها برجله فنبع الماء .
(٣) تضلع : أكثر من الشرب حتى تمدد جنبه وأضلاعه .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ﴾ « مِنْ » في قوله تعـالى : « من ذريتى » للتبعيض أى أسكنت بعض ذريتى ؛ يعنى إسمعيل وأمه ، لأن إسحق كان بالشام . وقيل : هى صلة؛ أى أسكنت ذريتى .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ﴾ يدل على أن البيت كان قديما على ما روى قبل الطُّوفان ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة « البقرة »[1] . وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرّم ، أى يحرم فيـه ما يستباح فى غيره من جماع وٱستحلال . وقيـل : محرّم على الجبابرة ، وأن تُنهتك حرمته ، ويستخفّ بحقّه ؛ قاله قَتَادة وغيره . وقد مضى القول فى هذا فى « المـائدة »[2] .

الخامســـة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ خَصَّها من جمـلة الدِّين لفضلها فيه ، ومكانها منه ، وهى عهد الله عند العباد ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " خمسُ صلوات كتبهنّ الله على العباد " الحديث . واللام فى « ليقيموا الصلاة » لام كى ؛ هذا هو الظاهر فيها وتكون متعلقـة بـ « أسكنت » ويصح أن تكون لام أمر ، كأنه رَغِب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصـــلاة .

السادســـة — تَضَمَّنت هـذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى « ربنا لِيقيموا الصلاة » أى أَسكنتُهم عنـد بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه . وقـد اختلف العلماء هل الصلاة بمكة أفضل أو فى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فذهب عامة أهل الأثر إلى أن الصلاة فى المسجد الحرام أفضل من الصـلاة فى مسجد الرسول صـلى الله عليه وسـلم بمائة صـلاة ، وٱحتجوا بحديث عبد الله بن الزّبير قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من صلاة فى مسجدى هذا بمائة صلاة " قال الإمام الحافظ أبو عمر : وأسند هـذا الحديث حبيب المعـلم عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبـد الله

(١) راجع جـ ٢ ص ١٢٠ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥ طبعة أولى أو ثانية .

ابن الزّبير وجوّده ، ولم يخلط فى لفظه ولا فى معناه ، وكان ثقة . قال ابن أبى خَيْثَمة سمعت يحيى بن مَعِين يقول : حبيب المعلم ثقة . وذكر عبـد الله بن أحمد قال سمعت أبى يقول : حبيب المعلم ثقة ما أصح حديثه . وسئل أبو زُرْعة الرازىّ عن حبيب المعلم فقال : بصرىّ ثقة .

قلت — وقد خَرَّج حديثَ حبيب المعلم هذا عن عطاء بن أبى رَبَاح عن عبد الله بن الزبير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم الحافظُ أبو حاتم محمد بن حاتم التميمى البُسْتِىّ فى المسند الصحيح له ، فالحديث صحيح وهو الحجة عند التنازع والاختلاف . والحمد لله . قال أبو عمر : وقد روى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم مثل حديث ابن الزبير؛ رواه موسى الجُهَنِىّ عن نافع عن ابن عمر؛ وموسى الجُهَنِىّ ثقة ، أثنى عليه القَطّان وأحمد ويحيى وجماعتهم؛ وروى عنه شعبة والثّورىّ ويحيى بن سعيد . وروى حكيم بن سيف ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه" وحكيم بن سيف هذا شيخ من أهل الرَّقة قد روى عنه أبو زُرْعة الرازىّ ، وأخذ عنه ابن وضّاح ، وهو عندهم شيخ صدوق لا بأس به . فإن كان حَفِظ فهما حديثان ، وإلا فالقول قول حبيب المعلم . وروى محمد بن وضّاح ، حدثنا يوسف بن عدىّ عن عمر بن عبيد عن عبد الملك عن عطاء عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام فإن الصلاة فيه أفضل " قال أبو عمر : وهـذا كله نصٌّ فى موضع الخلاف قاطع له عند من أُلْهِمَ رشدَه ، ولم تَمِل به عصبيّته . وذكر ابن حبيب عن مُطَرِّف وعن أَصْبَغ عن ابن وهب أنهما كانا يذهبان إلى تفضيل الصلاة فى المسجد الحرام على الصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليـه وسلم على ما فى هـذا الباب . وقد ٱتفق مالك وسائر العلمـاء على أن صلاة العيدين يُبْرَز لها فى كل بلد إلا مكة فإنهـا تُصلَّى فى المسجد الحرام . وكان عمر وعلىّ وٱبن مسعود وأبو الدَّرْدَاء وجابر يفضّلون مكة ومسجدها وهم أولى بالتقليد ممن بعدهم؛ وإلى هذا ذهب الشافعى ، وهو قول عطاء والمكيين والكوفيين ، وروى مثله عن مالك ؛ ذكر ابن وهب فى جامعه عن مالك أن

آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض قال : ياربّ هذه أحب إليك أن تُعبَد فيها ؟ قال : بل مكة . والمشهور عنه وعن أهل المدينة تفضيل المدينة، واختلف أهل البصرة والبغداديون فى ذلك فطائفة تقول مكة، وطائفة تقول المدينة .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ﴾ الأفئدة جمع فؤاد وهى القلوب . وقد يُعبَّر عن القلب بالفؤاد كما قال الشاعر :

وإن فـؤادًا قادنى بصَبَابةٍ * إليكِ على طـولِ المَـدَى لَصَبُورُ

وقيل : جمع وَفْد، والأصل أوفدة، فقدّمت الفاء وقلبت الواو ياء كما هى، فكأنه قال : واجعل وفودا من الناس تَهْوِى إليهم؛ أى تنزع؛ يقال : هوِىَ نحوه إذا مال، وهوت الناقة تَهوِى هُوِيًّا فهى هاوية إذا عَدَت عَدْوا شديدا كأنها فى هَوَاء بئر، وقوله : « تهوى إليهم » مأخوذ منه . قال ابن عباس ومجاهد : لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال : «من الناس» فهم المسلمون؛ فقوله : «تهوى إليهم» أى تحنّ إليهم، وتحنّ إلى زيارة البيت. وقرأ مجاهد «تهوَى إليهم» أى تهواهم وتجلّهم.

﴿ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ فاستجاب الله دعاءه، وأنبت لهم بالطائف سائر الأشجار، وبما يجلب إليهم من الأمصار. وفى صحيح البخارىّ عن ابن عباس الحديث الطويل وقد ذكرنا بعضه : "فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسمعيل يطالع تَرِكَته فلم يجد إسمعيل، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ، نحن فى ضيق وشدة؛ فشكت إليه، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغيّر عَتَبة بابه، فلما جاء إسمعيل كأنه آنس شيئا[1] فقال : هل جاءكم من أحد! قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنى عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشتنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة، قال : فهل أوصاكِ بشىء : قالت : أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول : غيّر عَتَبة بابك؛ قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقكِ الْحَقِى بأهلك؛ فطلّقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، ودخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال :

(١) أى كأنه أبصر ورأى شيئا لم يعهده .

كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . قال : ما طعامكم؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولم يكن لهم يومئذ حبّ ولو كان لهم دعا لهم فيه" قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه؛ وذكر الحديث . وقال ابن عباس : قول إبراهيم «فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم» سأل أن يجعل الله الناس يهوون السُّكنى بمكة، فيصير بيتا محرما، وكل ذلك كان والحمد لله . وأول من سكنه جُرْهُم . ففى البخارىّ — بعد قوله : وإن الله لا يُضيِّع أهلَه — وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السّيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، وكذلك حتى مرّت بهم رُفقة من جُرْهُم قافلين من طريق كدا، فنزلوا بأسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا[1] فقالوا : إن هـذا الطائر لَيدُور على ماء ! لَعهدُنا بهذا الوادى وما فيه ماء؛ فأرسلوا جَرِيًّا[2] أو جَرِيَّين فإذا هُم بالماء ، فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأمّ إسمعيل عند الماء؛ فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ولكن لا حقّ لكم فى الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس قال النبى صلى الله عليه وسلم : "[فألفى][3] ذلك أمّ إسمعيل وهى تحب الأنس" فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، شبّ الغلامُ، وماتت أم إسمعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوّج إسمعيل يطالع تَرِكَته؛ الحديث .

قوله تعالى : رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴿٤١﴾

(١) العائف هنا هو الذى يتردد على الماء ولا يمضى . (٢) الجرى : الرسول .

(٣) ألفى أى وجد ذلك الحى الجرهمى أم إسمعيل ، أو ألفى استئذان جرهم بالنزول أم إسمعيل والحال أنها تحب الأنس؛ ففاعل ألفى (ذلك) و(ذلك) إشارة إلى الاستئذان .

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ أى ليس يخفى عليك شيء من أحوالنا . وقال ابن عباس ومقاتل : تعلم جميع ما أخفيه وما أعلنه من الوجد بإسمعيل وأمه حيث أسكنا بواد غير ذى زرع . ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ قيل : هو من قول إبراهيم . وقيل : هو من قول الله تعالى لما قال إبراهيم : « ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن » قال الله : «وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء» . ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ أى على كبر سنى وسن آمرأتى ؛ قال ابن عباس : ولد له إسمعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وإسحق وهو ابن مائة وآثنتى عشرة سنة . وقال سعيد بن جُبَير : بُشِّر إبراهيمُ بإسحق بعد عشر ومائة سنة . ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ .

قوله تعالى : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ أى من الثابتين على الإسلام والتزام أحكامه . ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ أى وآجعل من ذريتى من يقيمها . ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أى عبادتى كما قال : « وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » . وقال عليه السلام : "الدعاءُ مُخُّ العبادة" وقد تقدم فى «البقرة»[1] . ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل : استغفر إبراهيمُ لوالديه قبل أن يثبت عنده أنهما عدوان لله قال القُشَيرى : ولا يبعد أن تكون أمه مسلمة لأن الله ذكر عذره فى آستغفاره لأبيه دون أمه .

قلت : وعلى هذا قراءة سعيد بن جُبير « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِي » يعنى أباه . وقيل : آستغفر لهما طمعا فى إيمانهما . وقيل : آستغفر لهما بشرط أن يُسلما . وقيل : أراد آدم وحوّاء . وقد رُوى أن العبد إذا قال : اللهم آغفر لى ولوالدى وكان أبواه قد ماتا كافرين آنصرفت المغفرة إلى آدم وحواء لأنهما والدا الخلق أجمع . وقيل : إنه أراد ولديه إسمعيل وإسحق . وكان إبراهيم النَّخَعى يقرأ «وَلِوَلَدَيَّ» يعنى آبنيه ، وكذلك قرأ يحيى بن يَعْمَر ؛ ذكره الماوَرْدى والنحاس . ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس : من أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقيل : «للمؤمنين» كلهم وهو أظهر . ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أى يوم يقوم الناس للحساب .

---

(١) راجع ج ٢ ص ٣٠٩ وما بعدها طبعة ثانية .

قوله تعـالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أعجبه من أفعال المشركين ومخالفتهم دين إبراهيم ؛ أى اصبر كما صبر إبراهيم ، وأَعْلِم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم ، بل سنّة الله إمهال العصاة مدة . قال ميمون بن مِهْران : هـذا وعيد للظالم ، وتعزية للظلوم . ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ ﴾ يعنى مشركى مكة يمهلهم و يؤخر عذابهم . وقراءة العامة « يؤخرهم » بالياء واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله : « وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ » . وقرأ الحسن والسُّلَمى ورُوى عن أبى عمرو أيضا « نؤخِّرهم » بالنون للتعظيم . ﴿ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ أى لا تغمض من هول ما تراه فى ذلك اليوم ؛ قاله الفراء . يقال : شَخَص الرجلُ بَصرَه وشَخَص البصرُ نفسُه أى سَمَا وطَمَح من هـول ما يرى . قال ابن عبـاس : تَشخص أبصار الخلائق يومئذ إلى الهواء لشدة الحيرة فلا يَغْمَضُون . ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ أى مسرعين ؛ قاله الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ؛ مأخوذ من أهطع يُهطع إهطاعا إذا أسرع . ومنه قوله تعالى : « مهطعين إلى الداع » أى مسرعين . قال الشاعر :

بدِجْلة دارُهمْ ولقد أراهُمْ * بدِجْلةَ مُهطِعِينَ إلى السَّماع

وقيل : المهطع الذى ينظر فى ذلّ وخشوع ؛ أى ناظرين من غير أن يَطْرِفوا ؛ قاله ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك : « مهطعين » أى مديمى النظر . وقال النحاس : والمعروف فى اللغة أن يقال : أهطع إذا أسرع ؛ قال أبو عبيد : وقد يكون الوجهان جميعا يعنى الإسراع مع أدامة النظر . وقال ابن زيد : المهطع الذى لا يرفع رأسه . ﴿ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى رافعى رءوسهم ينظرون فى ذلّ . و إقناع الرأس رفعــه ؛ قاله ابن عباس ومجاهـد . قال ابن عرفة والقُتَبى وغيرهما : المقنع الذى يرفع رأسه و يقبل ببصره على ما بين يديه ؛ ومنه الإقناع فى الصلاة (١)

(١) الإقناع فى الصلاة أن يرفع المصلى رأسه حتى يكون أعلى من ظهره .

وأقنع صوته إذا رفعه. وقال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد . وقيل : ناكسي رءوسهم ؛ قال المهدوي : و يقال أقنع إذا رفع رأسه ، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلّة وخضوعا ، والآية محتملة الوجهين ، وقاله المبرّد ، والقول الأول أعرف في اللغة ؛ قال الراجز :

أَنْغَضَ[1] نَحْوِي رَأْسَــهُ وأَقْنَعَا * كأنَّمـا أَبْصَرَ شيئًا أَطْمَعَـــا

وقال الشّمّاخ يصف إبلا :

يُباكِرْنَ العِضاهَ[2] بمُقْنَعَـاتٍ * نَوَاجِذُهنَّ كالحَـدَإِ الوَقِيـــعِ

يعني : برءوس مرفوعات إليها لتتناولهن . ومنه قيل : مِقْنَعة لارتفاعها . ومنه قَنِـع الرجل إذا رَضِي ؛ أي رفع رأســه عن السؤال . وقَنَع إذا سأل أي أتى ما يتقنّع منــه ؛ عن النحاس . وفم مُقْنَع أي معطوفة أسنانه إلى داخل . ورجل مُقنَّع بالتشديد ؛ أي عليه بَيْضة ؛ قاله الجوهري . ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر . يقال : طَرَف الرجلُ يَطْرِف طَرْفا إذا أطبق جَفْنه على الآخر ، فسمّى النظر طَرْفا لأنه به يكون . والطَّرْف العين . قال عَنْتَرة :

وأَغُضُّ طَرْفِي مابَدَتْ لِي جارتِي * حـــتّى يُوارِي جارتِي مَأْوَاهَا

وقال جَميـــل :

وأَقْصِرُ طَرْفِي دُونَ جُمْـلٍ كَرَامةً * لِجُمْلٍ ولِلطَّرْفِ الذِي أَنَا قاصِرُهْ

﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾ أي لا تغني شيئا من شــدّة الخوف . ابن عباس : خالية من كل خير . السُّدّي : خرجت قلوبهم من صدورهم فنشبت في حلوقهم ؛ وقال مجاهد ومُرّة وابن زيد : خاوية خربة مُتخرِّقة ليس فيهـا خير ولا عقـل ؛ كقولك في البيت الذي ليس فيــه شيء : إنمـا هو هواء ؛ وقاله ابن عباس . والهواء في اللغة المجوَّف الخالي ؛ ومنه قول حسان :

أَلَا أَبلِــغْ أبا سُــفْيانَ عَــنِّي * فأنتَ مُجــوَّفٌ[3] نَخِبٌ هَــوَاءُ

(١) أنغض رأسه : حركه . (٢) العضاه : كل شجر يعظم وله شوك . والحدأ (بفتح الحاء) وقيل (بكسرها) جمع حدأة ، وهي الفأس ذات الرأسين ؛ والوقيع : المحدّد . شبه الشاعر أسنان الإبل بالفؤس في الحدة .

(٣) المجوف والمجوّف : الجبـان الذي لا قلب له . والنخب : من النخب بمعنى النزع . يقـال : رجل نخب أي جبان ؛ كأنه منتزع الفؤاد .

*

وقال زُهَير يصف ناقة صغيرة الرأس :

كأنّ الرَّحْلَ منها فوقَ صَعْلٍ[1] * من الظِّلْمانِ جُؤْجُؤُهُ هَــوَاءُ

فارغ أى خالٍ؛ وفى التنزيل : « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا » أى من كل شىء إلا من هَمِّ موسى . وقيل : فى الكلام إضمار؛ أى ذات هواء وخلاء .

قوله تعـالى : وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ قال ابن عباس : أراد أهل مكة . ﴿ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو يوم القيامة ؛ أى خَوِّفهم ذلك اليوم . وإنما خصّهم بيوم العذاب وإن كان يوم الثّواب لأن الكلام خرج مخرج التّهديد للعاصى . ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى فى ذلك اليوم ﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا ﴾ أى أمهلنا . ﴿ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ سألوه الرجوع إلى الدنيا حين ظهر الحق فى الآخرة . ﴿ نُجِبْ دَعْوَتَكَ ﴾ أى إلى الإسلام ﴿ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ . فيجابوا : ﴿ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى فى دار الدنيا . ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ قال مجاهد : هو قَسَم قريش أنهم لا يبعثون . ابن جريج : هو ما حكاه عنهم فى قوله : « وأقسموا بِاللهِ جهد أيمانِهم لا يبعث الله من يموت» . «مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيه تأويلان : أحدهما ـــ ما لكم من انتقال عن الدنيا إلى الآخرة ؛ أى لا تبعثون ولا تحشرون ؛ وهذا قول مجاهد . الثانى ـــ « ما لكم من زوالٍ » أى من العذاب . وذكر البَيْهَقِىّ عن محمد بن كعب القُرَظِىّ قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربعة ، فإذا كان فى الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا ، يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ » فيجيبهم الله « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » .

(١) "فوق صعل" : شبه الناقة فى سرعتها بالظليم ، فكأن رحلها فوقه . والصعل : الصغير الرأس ، وبذلك يوصف الظليم .

ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم الله تعالى « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم الله تعالى « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ » فيقولون : « رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ» فيجيبهم الله تعالى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ» . ويقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم الله تعالى : «ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فلا يتكلمون بعدها أبدا؛ خرجه ابن المبارك في « دقائقه » بأطول من هذا — وقد كتبناه في كتاب « التذكرة » — وزاد في الحديث « وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ . وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » قال هذه الثالثة، وذكر الحديث وزاد بعد قوله : «ٱخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ» فانقطع عند ذلك الدعاء والرجاء، وأقبل بعضهم على بعض ينبح بعضهم في وجه بعض، وأطبقت عليهم؛ قال: فحدثني الأزهر ابن أبي الأزهر أنه ذكر له أن ذلك قوله : «هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ . وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ» .

قوله تعالى : وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ أي في بلاد ثمود ونحوها فهلا اعتبرتم بمساكنهم، بعد ما تبين لكم ما فعلنا بهم، وبعد أن ضربنا لكم الأمثال في القرآن . وقرأ أبو عبد الرحمن السُّلَمِيّ « وَنُبَيِّنْ لَكُمْ » بنون والجزم على أنه مستقبل ومعناه الماضي، وليناسب قوله : «كيف فعلنا بهم » . وقراءة الجماعة « وَتَبَيَّنَ » وهي مثلها في المعنى؛ لأن ذلك لا يتبين لهم إلا بتبيين الله إياهم .

قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ ﴾ أى بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة؛ عن ابن عباس وغيره . ﴿ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ « إن » بمعنى «ما» أى ما كان مكرهم لتزول منه الجبال لضعفه ووَهْنه؛ «وإن» بمعنى «ما» فى القرآن فى مواضع خمسة : أحدها هذا . الثانى — «فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ» . الثالث — «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا» أى ما كنا . الرابع — «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ» . الخامس — «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ» . وقرأ الجماعة « وإن كان » بالنون . وقرأ عمرو بن علىّ وابن مسعود وأبىّ «وإن كاد» بالدال . والعامة على كسر اللام فى «لتزول» على أنها لام الجحود وفتح اللام الثانية نصبا . وقرأ بن مُحَيصن وابن جُرَيج والكسائىّ «لَتَزُولُ» بفتح اللام الأولى على أنها لام الابتداء ورفع الثانية « وإن » مخففة من الثقيلة، ومعنى هذه القراءة استعظام مكرهم، أى ولقد عَظُم مكرهم حتى كادت الجبال تزول منه ؛ قال الطّبرىّ : الاختيار القراءة الأولى ؛ لأنها لو كانت زالت لم تكن ثابتة؛ قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا حجة على مصحف المسلمين فى الحديث الذى حدّثناه أحمدُ بن الحسين : حدّثنا عثمان بن أبى شيبة حدّثنا وكيع بن الجراح عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عبد الرحمن بن دانيل قال سمعت علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : إن جبّارا من الجبابرة قال لا أنتهى حتى أعلم من فى السموات، فعَمَد إلى فراخ نُسور، فأمر أن تطعم اللحم، حتى اشتدت وعَضَلتْ واستعلجتْ أمر بأن يُتخذ تابوتٌ يسع فيه رجلين، وأن يجعل فيه عصا فى رأسها لحم شديد حمرته ، وأن يُستوثق من أرجل النّسور بالأوتاد، وتُشدّ إلى قوائم التابوت ، ثم جلس هو وصاحب له فى التابوت وأثار النّسورَ، فلما رأت اللحم طلبته، فجعلت ترفع التابوت حتى بلغت به ما شاء الله؛ فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى ؟ فقال : أرى الجبال كأنها ذباب، فقال : أغلق الباب؛ ثم صعدت بالتابوت ما شاء الله أن تصعد، فقال الجبّار لصاحبه : افتح الباب فانظر ما ترى؟ فقال : ما أرى إلا السماء وما تزداد منا إلا بُعْدا، فقال : نكّس العصا فنكّسها، فانقضّت النّسور . فلما وقع التابوت على الأرض سمعت له هدّة كادت الجبال تزول عن

مراتبها منها؛ قال : فسمعت عليًا رضى الله عنه يقرأ « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ » بفتح اللام الأولى من «لتزول» وضم الثانية . وقد ذكر الثعلبي[1] هذا الخبر بمعناه، وأن الجبار هو النمرود الذى حاجّ إبراهيم فى ربه، وقال عِكْرِمة : كان معه فى التابوت غلام أمرد، وقد حمل القوس والنبل فرمى بهما فعاد إليه ملطخا بالدماء وقال : كُفيتُ نَفْسَكَ[2] إلهَ السّماء . قال عِكرِمة : تَلطّخ بدم سمكة من السماء، قذفت نفسها إليه من بحر فى الهواء معلّق . وقيل : طائر من الطير أصابه السّهم ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن يُنكِّس اللحم، فهبطت النّسور بالتابوت، فسمعت الجبال حفيف التابوت والنّسور ففزعت، وظنت أنه قد حدث بها حدث من السماء ، وأنّ الساعة قد قامت، فذلك قوله : « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » . قال القُشَيرى : وهذا جائز بتقدير خلق الحياة فى الجبال . وذكر الماوردى عن ابن عباس : أن النّمرود بن كنعان بَنَى الصّرح فى قرية الرّس من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع وخمسين ذراعا ، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعا ، وصعد منه مع النّسور، فلما علم أنه لا سبيل له إلى السماء اتخذه حصنا ، وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه ، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصّرح عليهم فهلكوا جميعا ، فهذا معنى « وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ » وفى الجبال التى عَنَى زوالها بمكرهم وجهان : أحدهما — جبال الأرض . الثانى — الإسلام والقرآن؛ لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال . وقال القُشَيرى : « وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ » أى هو عالم بذلك فيجازيهم، أو عند الله جزاء مكرهم فحذف المضاف . « وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ » بكسر اللام ؛ أى ما كان مكرهم مكرا يكون له أثر وخطر عند الله تعالى، فالجبال مَثَل لأمر النبى صلى الله عليه وسلم . وقيل : « وإن كان مكرهم » فى تقديرهم « لِتزول منه الجبال » وتؤثر فى إبطال الإسلام . وقرئ « لَتَزُولُ منه الجِبالُ » بفتح اللام الأولى وضم الثانية ؛ أى كان مكرا عظيما تزول منه الجبال، ولكن الله حفظ رسول الله صلى الله

---

(١) تعقب هذه القصة ابن عطية فى تفسيره بعد أن حكاها عن الطبرى بقوله : «وذلك عندى لا يصح عن على بن أبى طالب رضى الله عنه، وفى هذه القصة ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يغرر أحد بنفسه فى مثل هذا » .

(٢) عبارة الثعلبي فى « قصص الأنبياء » : (كفيت شغلى إله السماء) .

عليه وسلم، وهو كقوله تعالى : « وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا » والجبـال لا تزول ولكنّ العبارة عن تعظيم الشيء هكذا تكون .

قوله تعـالى : فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ اسمُ الله تعالى و « مخلف » مفعولا تحسب ؛ و « رُسُلَهُ » مفعول « وَعْدِهِ » وهو على الاتساع، والمعنى : مخلف وعده رسلَه ؛ قال الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فيها مُدْخِلَ الظِّلِّ رأسَهُ * وسائرُهُ بادٍ إلى الشَّمْسِ أَجْمَعُ[(1)]

قال القُتَبِيّ: هو من المقدّم الذي يوضحه التأخير، والمؤخّر الذي يوضحه التقديم، وسواء في قولك: مخلف وعده رسلَه ، ومخلف رسلِه وعدَه . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ أي من أعدائه . ومن أسمائه المنتقم وقد بيّناه في « الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » .

قوله تعـالى : يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَـٰذَا بَلَـٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ ﴾ أي اذكر يوم تبـدّل الأرض، فتكون متعلقة بما قبله . وقيل : هو صفة لقوله : « يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ » . واختلف في كيفية تبديل

(1) يصف الشاعر هاجرة قـد ألجأت الثيران إلى كنسها ، فترى الثور مدخلا لرأسه في ظل كناسه لما يجـده من الحرارة ، وسائره بارز للشمس .

الأرض، فقال كثير من الناس : إن تبدّل الأرض عبارة عن تغير صفاتها، وتسوية آكامها، ونسف جبالها، ومدّ أرضها ؛ ورواه ابن مسعود رضي الله عنه ؛ خرجه ابن ماجه في سننه وذكره ابن المبارك من حديث شَهْر بن حَوْشَب ، قال حدّثني ابن عباس قال : إذا كان يوم القيامة مُدّت الأرضُ مدَّ الأديم وزيد في سعتها كذا وكذا ؛ وذكر الحديث . وروى مرفوعا من حديث أبي هُريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تُبدّل الأرضُ غيرَ الأرض فيبسطها ويمدّها مدّ الأديم العُكاظيّ (1) لا ترى فيها عِوجًا ولا أمْتًا ثم يزجر الله الخلق زجرةً فإذا هم في الثانية في مثل مواضعهم من الأولى [ من كان في بطنها ففي بطنها ومن كان على ظهرها كان على ظهرها ] " ذكره الغَزْنَوِيّ (2) . وتبديل السماء تكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها ؛ قاله ابن عباس . وقيل : اختلاف أحوالها، فمرة كالمُهْل ومرة كالدِّهان ؛ حكاه ابن الأنباريّ ؛ وقد ذكرنا هذا الباب مبيّنا في كتاب « التذكرة » وذكرنا ما للعلماء في ذلك ، وأن الصحيح إزالة هذه الأرض حسب ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم . روى مسلم عن ثَوْبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك ؛ وذكر الحديث ، وفيه : فقال اليهوديّ أين يكون الناس يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "في الظُّلمة دون الجِسر (3) " وذكر الحديث . وخرج عن عائشة قالت : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات » فأين يكون الناس يومئذ ؟ قال : "على الصراط" خرجه ابن ماجه بإسناد مسلم سواء ، وخرجه الترمذيّ عن عائشة وأنها هي السائلة ، قال : هذا حديث حسن صحيح ؛ فهذه الأحاديث تنصّ على أن السموات والأرض تُبدّل وتُزَال ، ويخلق الله أرضا أخرى يكون الناس عليها بعد كونهم على الجِسر . وفي صحيح مسلم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه

---

(1) أديم عكاظي : منسوب إلى عكاظ ، وهو مما حمل إليها فبيع بها . وعكاظ : اسم سوق من أسواق الجاهلية مشهورة كانت بقرب مكة .
(2) عبارة الأصل هنا ناقصة ومحرفة ، والزيادة والتصويب من تفسير الطبري وكتاب « التذكرة » للؤلف .
(3) الجسر : الصراط .

وسلم: "يُحشَر الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاءَ عَفْرَاءَ كقُرْصَة النَّقِيّ(١) ليس فيها عَلَمٌ لأحد". وقال جابر: سألت أبا جعفر محمد بن عليّ عن قول الله عز وجل: «يوم تبدل الأرض غير الأرض» قال: تبدّل خُبْزَةً يأكل منها الخلق يوم القيامة، ثم قرأ «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ». وقال ابن مسعود: إنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة لم يُعمَل عليها خطيئة. وقال ابن عباس: بأرض من فضة بيضاء. وقال عليّ رضي الله عنه: تبدل الأرض يومئذ من فضة والسماء من ذهب وهذا تبديل العين، وحسبك. ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي من قبورهم، وقد تقدّم.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ وهم المشركون. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي يوم القيامة. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مشدودين ﴿فِي الْأَصْفَادِ﴾ وهي الأغلال والقيود، واحدها صَفْد وصَفَد. ويقال: صَفَدته صَفْدا أي قيّدته والاسم الصَّفَد، فإذا أردت التكثير قلت: صَفَّدته تصفيدا؛ قال عمرو ابن كُلْثوم:

فآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا * وأُبْنَا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

أي مقيّدينا. وقال حسان:

مِنْ كُلِّ مَأْسُورٍ يُشَدُّ صِفَادُهُ * صَقْرٍ إذَا لَاقَى الْكَرِيهَةَ حَامِ

أي غُلُّه. وأصفدته إصفادا أعطيته. وقيل: صَفَدته وأَصْفَدته جاريان في القيد والإعطاء جميعا؛ قال النابغة:

* فَلَمْ أُعَرِّضْ أَبَيْتَ اللَّعْنَ(٢) بالصَّفَدِ *

فالصَّفَد العطاء لأنه يُقيِّد ويُعبِّد؛ قال أبو الطيب:

وَقَيَّدتُ نفسِي في ذَرَاكَ(٣) مَحَبَّةً * وَمَنْ وَجَدَ الإحسانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

---

(١) النقي: الدقيق الحوارى. والحوارى: ما حوّر أي بيّض. والعلم الأثر.

(٢) معنى أبيت اللعن: أي أبيت أن تأتي شيئا تلعن عليه، وصدر البيت:

* هـذا الثناء فإن تسمع لقائله *

(٣) الذرا (بالفتح): الدار ونواحيها، وكل ما استترت به؛ تقول: أنا في ذرا فلان أي في كنفه وستره.

قيل : يقرن كل كافر مع شيطان فى غُلّ، بيانه قوله : «ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ» يعنى قرناءهم من الشياطين . وقيل : إنهم الكفار يجمعون فى الأصفاد كما اجتمعوا فى الدنيا على المعاصى . ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ ﴾ أى قمصهم ، عن ابن دُرَيد وغيره، واحدها سربال، والفعل تَسربلتُ وسَربلتُ غيرى ؛ قال كعب بن مالك :

تَلْقَــاكُمُ عُصَبٌ حَوْلَ النَّبِيِّ لَهُمْ * مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فى الْهَيْجَا سَرَابِيلُ

«مِن قَطِرانٍ» يعنى قطران الإبل الذى تُهْنأ به؛ قاله الحسن . وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم . وفى الصحيح أن النائحة إذا لم تتب قبـل موتها تقام يوم القيامة وعليهـا سربال من قطران ودِرْع من جَرَب . وروى عن حماد أنهم قالوا هو النُّحاس . وقرأ عيسى بن عمر: «قَطْرَانٍ» بفتح القاف وتسكين الطاء . وفيه قراءة ثالثة : كسر القاف وجزم الطاء؛ ومنه قول أبى النَّجْم :

جَوْنٌ كَأَنَّ الْعَـرَقَ الْمَنْتُوحَا(١) * لَبَّسَــهُ الْقِطْرَانَ وَالْمُسُــوحَا

وقراءة رابعــة : « مِنْ قِطْرٍ آنٍ (٢) » رويت عن ابن عباس وأبى هُريرة وعكرمة وسعيد بن جُبير ويعقوب؛ والقِطْر النحاس والصُّفْر المذاب؛ ومنه قوله تعالى : «آتُونِى أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا» . والآن : الذى قـد ٱنتهى إلى حَرِّه ؛ ومنـه قوله تعالى : « وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ » . ﴿ وَتَغْشَى ﴾ أى تضرب ﴿ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ فتغشّيها . ﴿ لِيَجْزِىَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ﴾ أى بما كسبت . ﴿ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ﴾ أى هذا الذى أنزلنا إليك بلاغ ؛ أى تبليغ وعظة . ﴿ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ ﴾ أى ليخوّفوا عقاب الله عز وجل . وقرئ . «وَلِيَنْذَرُوا» بفتح الياء والذال، يقال : نَذِرت بالشيء أَنْذَر إذا علمت به فاستعددتَ له ، ولم يستعملوا منه مصدرا كما لم يستعملوا من عسى وليس، وكأنهم ٱستغنوا بأن والفعل كقولك : سَرَّنى أن نَذِرتُ بالشيء . ﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ أى وليعلموا وحدانية الله بمـا أقام من الحجج والبراهين . ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو

(١) نتح العرق خرج من الجلد .　　(٢) «قطر» : ضبطه فى «روح المعانى» بفتح القاف وكسر الطاء وتنوين الراء، ومثله فى «البحر المحيط» ، وضبط بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، ففيه ثلاث لغات .

الْأَلْبَـٰبِ ﴾ أى وليتّعظ أصحاب العقول . وهــذه اللامات فى و « لينذروا » و « ليعلموا » . و « ليذكر » متعلقة بمحذوف ؛ التقدير : ولذلك أنزلنـاه . وروى يمـان بن رئاب أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصـديق رضى الله عنــه . وسئل بعضهم هل لكتاب الله عنوان ؟ فقال : نعم ؛ قيـل : وأين هـو ؟ قال قوله تعالى : « هــذا بلاغ لِلناسِ ولِينذروا بِهِ » إلى آخرها . تم تفسير سورة إبراهيم عليه السلام والحمد لله .

⁂

تم الجزء التاسع من تفسير القرطبي

يتـلوه إن شـاء الله تعـالى الجـزء العـاشر، وأوله :

ســـورة « الحجـــر »

كَمُلَ طبع الجزء التاسع من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية في يوم الثلاثاء ٨ ذو القعدة سنة ١٣٥٨
(١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

( مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨/٧٢/٥٠٠٠)

دار الكتب المصرية

القسم الأدبي







القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٣٥٩ هـ — ١٩٤٠ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

# فهرس الجزء العاشر

## تفسير سورة الحجر

صفحة

صفحة

صفحة



## سورة النحل

صفحة

صفحة

## سورة الإسراء

صفحة

صفحة

## سورة الكهف

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة الحجر

قوله تعالى : الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾

تقدّم معناه[1] . و « الكتاب » قيل فيه : إنه اسم لجنس الكتب المتقدّمة من التوراة والإنجيل ، ثم قرنهما بالكتاب المبين . وقيل : الكتاب هو القرآن ، جمع له بين الاسمين .

قوله تعالى : رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾

« رُبّ » لا تدخل على الفعل ، فاذا لحقتها « ما » هيّأتها للدخول على الفعل تقول : ربما قام زيد ، وربما يقوم زيد . ويجوز أن تكون « ما » نكرة بمعنى شيء ، و« يودّ » صفة له ؛ أي رب شيء يودّ الكافر . وقرأ نافع وعاصم « ربما » مخفّف الباء . الباقون مشدّدة ، وهما لغتان . قال أبو حاتم : أهل الحجاز يخففون ربما ؛ قال الشاعر :

رُبّما ضربةٍ بسيف صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجلاء[2]

وتميم وقيس وربيعة يثقلونها . وحكى فيها : رَبَّمَا ورَبَمَا ، ورُبَّتَمَا ورُبَتَمَا ، بتخفيف الباء وتشديدها أيضا[3] . وأصلها أن تستعمل في القليل وقد تستعمل في الكثير ؛ أي يودّ الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين ؛ قاله الكوفيون . ومنه قول الشاعر :

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٠٤ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) البيت لعدى بن الرعلاء الغسانى . وبصرى : بلدة قرب الشام ، هى كرسى حوران ، كان يقوم فيها سوق للجاهلية . قال صاحب خزانة الأدب : « ... وإنما صح اضافة بين إلى بصرى لاشتمالها على متعدّد من الأمكنة ؛ أى بين أماكن بصرى ونواحيها . وروى الشريف الحسينى فى حماسته : « دون بصرى » ودون هنا بمعنى قبل أو بمعنى خلف . وقال العينى : بمعنى عند » . راجع الخزانة فى الشاهد التاسع والتسعين بعد السبعمائة .

(٣) قال ابن هشام فى المغنى : « وفى رب ست عشرة لغة : ضم الراء وفتحها ، وكلاهما مع التشديد والتخفيف . والأوجه الأربعة مع تاء التأنيث ، ساكنة أو محركة ، ومع التجرد منها ؛ فهذه اثنتا عشرة . والضم والفتح مع إسكان الباء وضم الحرفين مع التشديد ومع التخفيف » .

ألا ربّمـا أهدت لك العـين نظرةً * قُصاراك منها أنهـا عنك لا تُجـدِى[1]

وقال بعضهـم : هى للتقليل فى هـذا الموضع ؛ لأنهـم قالوا ذلك فى بعض المواضـع لا فى كلها؛ لشَغْلهم بالعذاب، والله أعلم . وقال : « رُبَمَـا يَوَدُّ » وهى إنما تكون لمـا وقع؛ لانه لصدق الوعد كأنه عِيان قد كان . وخرّج الطبرانىّ أبو القاسم من حديث جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن ناسا من أمتى يدخلون النار بذنوبهم فيكونون فى النار ما شاء الله أن يكونوا ثم يعيّرهم أهل الشرك فيقولون ما نرى ما كنتم تخالفونا فيه من تصديقكم و إيمانكم نفعكم فلا يبقى موحّد إلا أخرجه الله من النـار — ثم قرأ رسول الله صلى الله عليـه وسلم — رُبَمَـا يَوَدُّ الذين كفـروا لو كانوا مسـلمين " . قال الحسن : إذا رأى المشركون المسـلمين وقد دخلوا الجنـة ومأواهم فى النـار تمنّوا أنهـم كانوا مسلمين . وقال الضحاك : هـذا التمنى إنمـا هو عند المعاينة فى الدنيا حين تبيّن لهم الهـدى من الضلالة . وقيل : فى القيامة إذا رأوا كرامة المؤمنين وذل الكافرين .

قوله تعـالى : ذَرْهُـمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَـلُ فَسَـوْفَ يَعْلَمُـونَ ﴿٣﴾

فيـــه مسألتانـــ :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ تهديد لهم . ﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ﴾ أى يشـغلهم عن الطاعة . يقال : ألهاه عن كذا أى شـغله . ولهِىَ هو عن الشىء يَلْهَى . ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ إذا رأوا القيـامة وذاقوا وبال ما صنعوا . وهـذه الآية منسوخة بالســـيف .

الثانيـــة — فى مسند البزار عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أربعة من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيـا " . وطولُ الأمل داء

(١) أى لا تغنى ؛ يقال : ما يجدى عنك هذا ؛ أى ما يغنى . وفى بعض نسخ الأصل : لا تجزى ؛ بالزاى ؛ وهى بمعنى لا تغنى . ولم نوفق لمعرفة قافية البيت .

عضال ومرض مزمن، ومتى تمكن من القلب فسد مزاجه واشتدّ علاجه، ولم يفارقه داء ولانجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء و يئس من برئه الحكماء والعلماء . وحقيقة الأمل : الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحبُّ لها والإعراض عن الآخرة . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخرها بالبخل والأمل" . ويروى عن أبي الدرداء رضى الله عنه أنه قام على درج مسجد دمشق فقال : ياأهل دمشق، ألا تسمعون من أخ لكم ناصح ، إنّ مَن كان قبلكم كانوا يجمعون كثيرا ويبنون مشيّدا ويأملون بعيدا ، فأصبح جمعهم بُورا وبنيانهم قبورا وأملهم غرورا . هذه عاد قد ملأت البلاد أهلا ومالا وخيلا ورجالا ، فمن يشترى منى اليوم تركتهم بدرهمين ! وأنشد :

يا ذا المؤمل آمالا وإن بَعُدت * منه ويزعم أن يحظى بأقصاها
أنّى تفوز بما ترجوه وَيْكَ وما * أصبحت فى ثقة من نَيْل أدناها

وقال الحسن : ما أطال عبدٌ الأمَلَ إلا أساء العمل . وصدق رضى الله عنه ! فالأمل يكسل عن العمل ويورث التراخى والتوانى، ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض ويميل إلى الهوى . وهذا أمر قد شوهد بالعيان فلا يحتاج إلى بيان ولا يُطْلَب صاحبه ببرهان؛ كما أن قِصر الأمل يبعث على العمل ، ويُحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة .

قوله تعالى : وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾

أى أجل مؤقت كتب لهم فى اللوح المحفوظ .

قوله تعالى : مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

« من » صلة ؛ كقولك : ما جاءنى من أحد . أى لا تتجاوز أجلها فتزيد عليه ، ولا تتقدّم قبله . ونظيره قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ »[1] .

---
(١) آية ٣٤ سورة الأعراف .

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾

قاله كفار قريش لمحمد صلى الله عليـه وسلم على جهـة الاستهزاء ، ثم طلبوا منـه إتيان الملائكة دلالة على صدقه . و ﴿ لَوْ مَا ﴾ تحضيض على الفعل كلولا وهـلا . وقال الفراء : الميم في « لوما » بدل من اللام في لولا . ومثله اسـتولى على الشيء واستوْمى عليـه ، ومثله خالمته وخاللته ، فهو خِلِّي وخِلْمى؛ أي صديق . وعلى هذا يجوز « لوما » بمعنى الخبر، تقول : لوما زيد لضرب عمرو . قال الكسائي : لولا ولوما سواء في الخبر والاستفهام . قال ابن مُقْبِل :

لَوْمَا الحيـاء ولوما الدِّين عبتـكما ❊ ببعض ما فيكما إذ عبتما عَوَرِى

يريد لولا الحياء . وحكى النحاس لوما ولولا وهلا واحد . وأنشد أهل اللغة على ذلك :

تعـدّون عَقْر النِّيب أفضلَ مَجْدكم ❊ بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[1]

أي هلا تعدون الكمِيّ المقنعا .

قوله تعـالى : ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾﴾

قرأ حفص وحمزة والكسائي ﴿ مَا نُنَزِّلُ الملائكةَ إلا بِالحق ﴾ واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو بكر والمفضل « ما تُنَزَّل الملائكةُ » . الباقون « ما تَنَزَّل الملائكةُ » وتقديره : ما تتنزل بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا ، وقـد شدّد التاء البَزِّي ، واختـاره أبو حاتم اعتبارا بقوله : « تَنَزَّلُ المَلَائِكَةُ والرُّوحُ »[2] . ومعنى ﴿ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلا بالقرآن . وقيل بالرسالة؛ عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا . ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ﴾ أي لو تنزلت الملائكة بإهلاكهم لمـا أمهلوا ولا قبلت لهم توبة . وقيل : المعنى لو تنزلت الملائكة تشهد لك فكفروا

(١) البيت لجرير يهجو الفرزدق . والعقر : ضرب قوائم الناقة بالسيف . والنيب ( بكسر النون ) : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة . وضوطرى : هو الرجل الضخم اللئيم الذي لا غناء عنده؛ وهي كلمة ذم وسب . والكمي : الشجاع المتكمي في سلاحه؛ لأنه كمِيّ نفسه أي ستّرها بالدرع والبيضة . والمقنع : الذي على رأسه البيضة والمغفر .

(٢) آية ٤ سورة القدر .

بعد ذلك لم ينظَرُوا . وأصل « إذًا » إذ أن — ومعناه حينئذ — فضم إليها أن، واستثقلوا الهمزة فحذفوها .

قوله تعـالى : إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ يعني القرآن . ﴿ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ من أن يزاد فيه أو ينقص منه . قال قتادة وثابت البُنَانيّ : حفظه الله من أن تزيد فيه الشـياطين باطلا أو تنقُص منه حقا؛ فتولّى سبحانه حفظه فلم يزل محفوظا، وقال في غيره : « بما ٱستُحْفِظُوا » (١) ، فوكّل حفظه إليهم فبدّلوا وغيروا . أنبأنا الشـيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبي الحسن على بن خلف بن معزوز الكومي التِّلِمْسـاني قال : قرئ على الشيخة العـالمة فخر النساء شُهْدة بنت أبي نصر أحمـد بن الفرج الدِّينَوَريّ وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سـنة أربع وستين وخمسمائة ، قيل لها : أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طِراد بن محمد الزّينبي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة ، أخبرنا عليّ بن عبد الله بن إبراهيم حدّثنا أبو على عيسى بن محمد بن أحمد آبن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز آبن جريج المعروف بالطُّومَاريّ حدّثنا الحسين بن فهم قال : سمعت يحيى بن أكثم يقول : كان للمأمون — وهو أمير إذ ذاك — مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة ، قال : فتكلم فأحسن الكلام والعبارة ، قال : فلمـا تقوّض المجلس دعاه المأمون فقال له : إسرائيلي ؟ قال نعم . قال له : أسلِم حتى أفعلَ بك وأصنع ، ووعده . فقال : ديني ودين آبائي ! وانصرف . قال : فلما كان بعد سنة جاءنا مُسْلما ، قال : فتكلّم على الفقه فأحسن الكلام ؛ فلما تقوّض المجلس دعاه المـأمون وقال : ألستَ صاحبنا بالأمس ؟ قال له : بلى . قال : فما كان سبب إسلامك ؟ قال : انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت ترانى حسن الخط ،

---

(١) في قوله تعالى : «إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور... » آية ٤٤ سورة المـائدة، وراجع جـ ٦ ص ١٨٨ طبعة أولى أو ثانية .

فعَمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها الكنيسة فاشتُريت مني ، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت ، وأدخلتها البيعة فاشتُريت مني ، وعَمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ وزدت فيهـا ونقصت ، وأدخلتها الورّاقين فتصفحوها ، فلمـا أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها ؛ فعلمت أن هـذا كتاب محفوظ ، فكان هذا سببَ إسلامي . قال يحيى بن أكثم : فحججت تلك السنةَ فلقيت سفيان بن عُيينة فذكرت له الخبر فقال لي : مصداق هذا في كتاب الله عز وجل . قال قلت : في أي موضع ؟ قال : في قول الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل : « بِمـا اسْتُحْفِظوا مِن كِتابِ اللهِ »[1] ، فجعل حفظه إليهم فضاع ، وقال عز وجل : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فحفظه الله عز وجل علينا فلم يضع . وقيل : « وإنا له لحافظون » أي لمحمد صلى الله عليه وسلم من أن يتقوّل علينا أو نتقول عليه . أو « وإنا له لحافظون » من أن يكاد أو يقتل . نظيره « واللهُ يَعْصِمُكَ مِن النّاسِ »[2] . و « نحن » يجوز أن يكون موضعه رفعا بالابتداء و « نزلنا » الخبر . والجملة خبر « إنّ » . ويجوز أن يكون « نحن » تأكيدا لاسم « إن » في موضع نصب ، ولا تكون فاصلة لأن الذى بعدها ليس بمعرفة وإنمـا هو جملة ، والجمل تكون نعوتا للنكرات فحكمها حكم النكرات .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾

المعنى : ولقد أرسلنا من قبلك رسـلا ، فحذف . والشّيع جمـع شيعة وهي الأُمّة ، أي في أممهم ؛ قاله ابن عباس وقتادة . الحسن : في فرقهم . والشّيعة : الفرقة والطائفة من الناس المتآلفة المتفقة الكلمة . فكأنّ الشّيَع الفِرَق ؛ ومنه قوله تعالى : « أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا »[3] . وأصله مأخوذ من الشِّياع وهـو الحطب الصغار يوقد به الكبار — كما تقدم في « الأنعام » . وقال الكلبي : إن الشّيَع هنا القرى .

---

(١) آية ٤٤ سورة المائدة . (٢) آية ٦٧ سورة المائدة . (٣) راجع جـ ٧ ص ٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾

تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى كما فعل بك هؤلاء المشركون فكذلك فُعل بمن قبلك من الرسل .

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ﴾ أى الضلال والكفر والاستهزاء والشرك . ﴿فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك ؛ عن الحسن وقتادة وغيرهما . أى كما سلكناه فى قلوب من تقدم من شيع الأولين كذلك نسلكه فى قلوب مشركى قومك حتى لا يؤمنوا بك، كما لم يؤمن مَن قبلهم برسلهم . وروى ابن جُريج عن مجاهد قال : نسلك التكذيب . والسَّلْك : إدخال الشيء فى الشيء كادخال الخيط فى المِخْيَط . يقال : سَلَكه يَسْلُكه سَلْكًا وسُلوكا، وأسلكه إسلاكا . وسَلَك الطريق سُلوكا وسَلْكًا وأسلكه دخله، والشيءُ فى غيره مثله ، والشيءَ كذلك والرُّمح، والخيط فى الجوهر؛ كلّه فَعَل وأفعل . وقال عَدِىّ بن زيد :

* وقد سلكوك فى يوم عَصيب[1] *

والسِّلك ( بالكسر ) الخيط . وفى الآية ردّ على القَدَرية والمعتزلة . وقيل : المعنى نسلك القرآن فى قلوبهم فيكذبون به . وقال[2] الحسن ومجاهد وقتادة القولَ الذى عليه أكثر أهل التفسير، وهو ألزم حجة على المعتزلة . وعن الحسن أيضا : نسلك الذكر إلزاما للحجة ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى مضت سنة الله بإهلاك الكفار، فما أقرب هؤلاء من الهلاك . وقيل : « خلت سنة الأولين » بمثل ما فعل هؤلاء من التكذيب والكفر، فهم يقتدون بأولئك .

---

(١) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان وشعراء النصرانية :
* وكنتُ لزازَ خصمك لم أُعَرِّد *

(٢) فى الأصول : «وقرأ» .

قوله تعـالى : ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يقال : ظـلّ يفعل كذا، أى يفعله بالنهـار . والمصدر الظُّـلول . أى لو أجيبوا إلى ما اقترحوا من الآيات لأصروا على الكفر وتعلّلوا بالخيالات ؛ كما قالوا للقـرآن المعجز : إنه سحر . ﴿يَعْرُجُونَ﴾ من عَرَج يَعْرُج أى صعِد . والمعارج المصاعد . أى لو صعِدوا إلى السماء وشاهـدوا الملكوت والملائكة لأصروا على الكفر؛ عن الحسن وغيره . وقيـل : الضـمير فى «عليهـم» للشركين . وفى «فظَلّوا» للـلائكة، تذهب وتجىء . أى لو كشف لهؤلاء حتى يعاينوا أبوابا فى السماء تصعَد فيها الملائكة وتنزل لقالوا : رأينا بأبصارنا ما لا حقيقة له ؛ عن ابن عباس وقتادة . ومعنى ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُـدّت بالسحر؛ قاله ابن عباس والضحاك . وقال الحسن : سُحرت . الكلبى : أغشيت أبصارنا؛ وعنه أيضا عَمِيت . قتادة : أخذت . وقال المُؤَرِّج : دِيرَبنا من الدوران ؛ أى صارت أبصارنا سكرى . جُوَيْبِر : خُدعت . وقال أبو عمرو آبن العلاء : « سكرت » غُشّيت وغُطّيت . ومنه قول الشاعر :

وطلعت شمس عليها مغفر * وجعلت عين الحرور تَسْكُرُ

وقال مجاهد : « سكرت » حبست . ومنه قول أوْس بن حَجَر :

فصِرتُ على لـيلة ساهِرهْ * فليست بِطَـلْقٍ ولا سَاكِرَهْ (١)

قلت : وهذه أقوال متقاربة يجمعها قولك : مُنِعت . قال ابن عَزِيز : «سُكِّرت أبصارنا» سُدّت أبصارنا؛ هو من قولك : سَكَرت النهرَ إذا سددته . ويقال : هو من سُكْر الشراب ، كأن العين يلحقها مايلحق الشارب إذا سكِر . وقرأ ابن كَثير «سَكِرت» بالتخفيف . والباقون بالتشديد . قال ابن الأعرابى : سُـكِرت ملئت (٢) . قال المهـدَوِىّ : والتخفيف والتشـديد

---

(١) فى اللسان مادة سكر : «جذلت» بالجيم والذال المفتوحتين ؛ ومعنى «جذل» انتصب وثبت لا يبرح . وليلة طلق : مشرق لا برد فيها ولا حرّ ، ولا مطر ولا قرّ . (٢) عبارة ابن الأعرابى كما فى نسخ الأصـل : « سكرت ملئت ، وسكرت ملكت » ولم نر ما يؤيد هذا ؛ ولعله تكرير من النساخ مع تحريف .

فى «سكرت» ظاهران، التشديد للتكثير والتخفيف يؤدّى عن معناه . والمعروف أن «سكر» لايتعدى . قال أبو على : يجوز أن يكون سُمع متعديا فى البصر . ومن قرأ «سَكِرت» فإنه شبه ماعرض لأبصارهم بحال السكران، كأنها جرت مجرى السكران لعدم تحصيله . وقد قيل : إنه بالتخفيف [من] سكر الشراب، و بالتشديد أُخِذت، ذكرهما المـاوردى . وقال النحاس : والمعروف من قراءة مجاهـد والحسن «سُكِرت» بالتخفيف . قال الحسن : أى سُحِـرت . وحكى أبو عبيد عن أبى عبيدة أنه يقال : سُكِّرت أبصارهم إذا غَشِيها سَمادِير[1] حتى لا يبصروا . وقال الفراء : من قرأ «سَكَرت» أخذه من سـكور الريح . قال النحاس : وهـذه الأقوال متقاربة . والأصل فيهـا ما قال أبو عمرو بن العلاء رحمـه الله تعالى، قال : هـو من السكر فى الشراب . وهذا قول حسن؛ أى غشيهم ما غطّى أبصارهم كما غشى السكرانَ ماغطى عقله . وسكور الريح سكونها وفتورها؛ فهو يرجع إلى معنى التحيير .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

لمـا ذكر كفر الكافرين وعجز أصنامهم ذكر كمال قدرته ليُستدلّ بها على وحدانيتـه . والبروج : القصور والمنـازل . قال ابن عباس : أى جعلنا فى السماء بروج الشمس والقمر؛ أى منازلها. وأسماء هذه البروج : الحَمَل، والثَّوْر، والجَوْزاء، والسَّرَطان، والأَسَد، والسُّنْبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجَـدْى، والدّلو، والحوت . والعرب تَعُدّ المعرفة لمواقع النجوم وأبوابها من أجل العلوم، و يستدلّون بها على الطرقات والأوقات والخصب والجَدْب . وقالوا : الفَلَك اثنا عشر برجا، كلّ برج ميلان ونصف . وأصل البروج الظهور؛ ومنه تبرّج المرأة بإظهار زينتها . وقد تقدّم هـذا المعنى فى النسـاء[2] . وقال الحسن وقتادة : البروج النجوم، وسميت بذلك لظهورها وآرتفاعها . وقيـل : الكواكب العظام ؛ قاله أبو صالح،

---

(١) السمادير : ضعف البصر . وقيل : هو الشيء الذى يترامى للانسان من ضعف بصره عند السكر من الشراب .

(٢) راجع جـ ٥ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية .

يعنى السبعة السيارة[1] . وقال قوم : « بروجا » ؛ أى قصورا و بيوتا فيهـا الحرَس ، خلقها الله فى السماء . فالله أعلم . ﴿ وزيناها ﴾ يعنى السماء ؛ كما قال فى سورة المُلْك : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح »[2] . ﴿ للنَّاظِرِين ﴾ للمعتبرين والمتفكرين .

قوله تعـالى : وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾

أى مرجوم . والرجم الرمى بالحجارة . وقيل : الرجم اللعن والطرد . وقد تقدّم[3] . وقال الكسائى : كل رجيم فى القرآن فهو بمعنى الشتم . وزعم الكلبى أن السموات كلها لم تحفظ من الشياطين إلى زمن عيسى ، فلما بعث الله تعالى عيسى حفظ منها ثلاث سموات إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحفظ جميعها بعد بعثه وحُرست منهم بالشُّهُب . وقاله ابن عباس رضى الله عنه . قال ابن عباس : وقد كانت الشياطين لايحجبون عن السماء ، فكانوا يدخلونها ويلقون أخبارها على الكهنة ، فيزيدون عليها تسعا فيحدّثون بها أهل الأرض ؛ الكلمـة حق والتسع باطل ؛ فاذا رأوا شيئا مما قالوه صدّقوهم فيما جاءوا به ، فلما ولد عيسى بن مريم عليهما السلام منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد صلى الله عليه وسلم منعوا من السموات كلها ، فما منهم من أحد يريد استراق السمع إلا رُمِىَ بشهاب[4] ؛ على ما يأتى .

قوله تعـالى : إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

أى لكن من استرق السمع ، أى الخطفة اليسـيرة ، فهو استثناء منقطع . وقيـل ، هو متصل ، أى إلا ممن استرق السمع . أى حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئا من الوحى وغيره ؛ إلا من استرق السمع فانا لم نحفظها منه أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحى ، فأما الوحى فلا تسمع منه شيئا ؛ لقوله : « إنهم عن السَّمْعِ لمعزولون »[5] . وإذا استمع الشياطين

---

(١) وهى — حسب ترتيبها التصاعدى — : القمر ، عطارد ، الزهرة ، الشمس ، المريخ ، المشترى ، زحل .
(٢) آية ٥ . (٣) راجع جـ ٩ ص ٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٤) فى سورة الصافات فى قوله تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ... » آية ٦ وما بعدها . وفى سورة الجن فى قوله تعـالى : « وأنا لمسنا السماء ... » آية ٨ وما بعدها . (٥) آية ٢١٢ سورة الشعراء .

إلى شئ ليس بوحى فانهم يقــذفونه إلى الكهنة فى أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم(١)؛ ذكره الحسن وابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴾ أتبعه : أدركه ولحقه . شِهاب : كوكب مضىء . وكذلك شِهاب ثاقب . وقوله : «بِشِهابٍ قَبَسٍ»(٢) بشعلة نار فى رأس عود؛ قاله ابن عَزيز . وقال ذو الرمة :

كأنه كوكب فى إثر عِفْـرِيَةٍ(٣) * مسوَّمٌ فى سـواد الليل مُنْقَضِبُ

وسمى الكوكب شهابا لبريقــه ، يشبه النار . وقيــل : شهاب لشعلة من نار، قبس لأهــل الأرض، فتحرقهم ولا تعود إذا أحرقت كما إذا أحرقت النار لم تعد ، بخلاف الكوكب فانه إذا أحرق عاد إلى مكانه . قال ابن عباس : تصعــد الشياطين أفواجا تسترق السمع فينفرد المــارد منها فيعلو، فَيُرْمَى بالشهاب فيصيب جبهته أو أنفه أو ماشاء الله فيلتهب، فيأتى أصحابه وهو يلتهب فيقول : إنه كان من الأمر كذا وكذا ، فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة فيزيدون عليها تسعا ، فيحدّثون بها أهل الأرض؛ الكلمة حق والتسع باطل . فاذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدقوهم بكل ماجاءوا به من كذبهم . وسيأتى هذا المعنى مرفوعا فى سورة « سبأ »(٤) إن شاء الله تعالى .

واختلف فى الشهاب هل يقتل أم لا . فقال ابن عباس : الشهاب يجرح ويُحرق ويخبِل ولا يقتــل . وقال الحسن وطائفة : يَقتل ؛ فعلى هــذا القول فى قتلهم بالشهب قبــل إلقاء السمع إلى الجن قولان : أحدهما — أنهم يُقتلون قبــل إلقائهم ما اســترقوه من السمع إلى غيرهم؛ فعلى هذا لا تصل أخبار السماء إلى غير الأنبياء، ولذلك انقطعت الكَهانة . والثانى — أنهم يُقتلون بعــد إلقائهم ما استرقوه من السمع إلى غيرهم من الجن؛ ولذلك ما يعودون إلى استراقه، ولو لم يصل لا نقطع الاستراق وانقطع الإحراق؛ ذكره المــاوردىّ .

(١) الخبل (بسكون الباء) : فساد الأعضاء .   (٢) آية ٧ سورة النمل .   (٣) أى إثر شيطان، ومسوّم : معلم . ومنقضب : منقضّ من مكانه .   (٤) فى قوله تعالى : «ولا تنفع الشفاعة عنده» آية ٢٦ .

قلت : والقول الأول أصح على ما يأتى بيانه فى «الصافات»[(١)] . واختلف هـل كان رمىٌ بالشهب قبل المبعث؛ فقال الأكثرون نعم . وقيل لا ، وإنمـا ذلك بعد المبعث . وسيأتى بيان هذه المسألة فى سورة «الجن» إن شاء الله تعالى ؛ وفى «الصافات» أيضا . قال الزجاج: والرمى بالشهب من آيات النبيّ صلى الله عليه وسلم مما حدث بعد مولده؛ لأن الشعراء فى القديم لم يذكروه فى أشعارهم، ولم يشبهوا الشيء السريع به كما شبهوا بالبرق وبالسّيل . ولا يبعد أن يقال : انقضاض الكواكب كان فى قديم الزمان ولكنه لم يكن رجوما للشياطين، ثم صار رجوما حين ولد النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال العلماء : نحن نرى انقضاض الكواكب ، فيجوز أن يكون ذلك كما نرى ثم يصـير نارا إذا أدرك الشيطان . ويجوز أن يقال : يُرْمَوْن بشعلة من نار من الهوى فيخيل إلينا أنه نجم سرى . والشّهاب فى اللغة النار الساطعة . وذكر أبو داود عن عامر الشعبي قال : لمـا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترجم بها قبـل ، فأتوا عبد يا ليـل بن عمرو الثقفى فقالوا : إن الناس قد فزِعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيّبوا أنعامهـم لمـا رأوا فى النجوم . فقال لهم — وكان رجلا أعمى — : لا تعجلوا، وانظروا فإن كانت النجوم التى تُعرف فهى عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهى من حَدَث . فنظروا فاذا هى نجوم لا تُعرف، فقالوا : هذا من حدث . فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعـالى : وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ هـذا من نعمه أيضا ، ومما يدل على كمال قدرته . قال ابن عباس : بسطناها على وجه المـاء؛ كما قال : « وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَحَاهَا »[(٢)] أى

---

(١) فى قوله تعالى : « لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ... » آية ٨ . (٢) آية ٣٠ سورة النازعات .

بسطها . وقال : « وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ »[١] . وهو يرد على من زعم أنها كالكرة . وقد تقــدّم[٢] . ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالا ثابتة لئــلا تتحرك بأهلها . ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أى مقدّر معلوم؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جبير . وإنما قال «موزون» لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء . قال الشاعر :

قد كنت قبل لقائكم ذا مِرّة * عنــدى لكل مُخاصِم مِيزانُه

وقال قتادة : موزون يعنى مقســوم . وقال مجاهد : موزون معــدود . ويقال : هذا كلام موزون؛ أى منظوم غير منتثر . فعلى هذا أى أنبتنا فى الأرض ما يوزن من الجواهر والحيوانات والمعادن . وقد قال الله عز وجل فى الحيوان : « وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا »[٣] . والمقصود من الإنبات الإنشاءُ والإيجاد . وقيل : ﴿أنبتنا فيها﴾ أى فى الجبال ﴿من كل شيء موزون﴾ من الذهب والفضة والنحاس والرصاص والقزدير، حتى الزِّرنيخ والكحل، كل ذلك يوزن وزنا . رُوى معناه عن الحسن وابن زيد . وقيل : أنبتنا فى الأرض الثمار ممــا يكال ويوزن . وقيــل : ما يوزن فيه الأثمــان لأنه أجلّ قدرا وأعم نفعا مما لا ثمن له . ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ يعنى المطاعم والمشارب التى يعيشون بها؛ واحدها معيشة (بسكون الياء) . ومنه قول جرير :

تكلّفنى مَعيشــةَ آلِ زيدٍ * ومَن لى بالمرقّق والصِّناب[٤]

والأصلُ مَعْيِشة على مَفْعِلة (بتحريك الياء) . وقد تقدّم فى الأعراف[٥] . وقيل : إنها الملابس؛ قاله الحسن . وقيــل : إنهــا التصرف فى أســباب الرزق مدة الحياة . قال المــاوردىّ : وهو الظاهر . ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ يريد الدواب والأنعام؛ قاله مجاهد . وعنده أيضا هم العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم : « نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ »[٦] ولفظ « من » يجوز أن يتناول العبيد والدواب إذا اجتمعوا ؛ لأنه إذا اجتمع من يعقل وما لا يعقل، غُلِّب من يعقل . أى

(١) آية ٤٨ سورة الذاريات. (٢) فى قوله تعالى : «وهو الذى مدّ الأرض .. » آية ٣ سورة الرعد. راجع جـ ٩ ص ٢٨٠ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٣٧ سورة آل عمران . (٤) الصناب : الخردل المضروب بالزبيب، يؤتدم به . (٥) راجع جـ ٧ ص ١٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٦) آية ٣١ سورة الإسراء .

جعلنا لكم فيها معايش وعبيــدا وإماء ودواب وأولادا نرزقهم ولا ترزقونهم . فـ«ـمن» على هــذا التأويل فى موضع نصب ؛ قال معناه مجاهــد وغيره . وقيل : أراد به الوحش . قال سعيد : قرأ علينا منصور «وَمَنْ لستم له بِرازقين» قال : الوحش . فـ«ـمن» على هذا تكون لمــا لا يعقل ؛ مثــل «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ»(١) الآية . وهى فى محــل خفض عطفا على الكاف والميم فى قوله : «لكم» . وفيه قبح عند البصريين ؛ فإنه لا يجوز عنــدهم عطف الظاهر على المضــمر إلا بإعادة حرف الجر؛ مثــل مررت به وبزيد . ولا يجوز مررت به وزيد إلا فى الشعر . كما قال :

فاليــوم قرّبت تهجــونا وتشـــتمنا ✽ فاذهب فمــا بك والأيامِ من عَجَب

وقد مضى هذا المعنى فى «البقرة» وسورة «النساء» .

قوله تعــالى : وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِنـدَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْــلُومٍ (٢١)

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُــهُ﴾ أى وإن من شيء من أرزاق الخلق ومنافعهم إلا عندنا خزائنه؛ يعنى المطر المنزل من السماء،لأن به نبات كل شيء. قال الحسن: المطر خزائن كل شيء. وقيل : الخزائن المفاتيح، أى فى السماء مفاتيح الأرزاق؛ قاله الكلبي. والمعنى واحد . ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أى ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا وعلى حسب حاجة الخلق إليه؛ كما قال : «وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ»(٢) . وروى عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه ليس عام أكثر مطرا من عام، ولكن الله يقسمه كيف شاء، فيُمْطَر قوم ويحرم آخرون، وربمــا كان المطر فى البحار والقِفار . والخزائن جمع الخزانة ، وهو الموضع الذى يستر فيه الإنسان ما له . والخِزانة أيضا مصــدر خَزَن يَخْزُن . وما كان فى خِزانة الإنسان كان مُعَــدًّا له . فكذلك ما يقدر عليه الرب

---

(١) آية ٤٥ سورة النور . (٢) آية ٢٧ سورة الشورى .

فكأنه مُعَدٌّ عنده؛ قاله القشيرى . وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال : فى العرش مثال كل شىء خلقه الله فى البر والبحر . وهو تأويل قوله تعالى: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ » . والإنزال بمعنى الإنشاء والإيجاد؛ كقوله : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ »[1] وقوله : « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ »[2] . وقيل : الإنزال بمعنى الإعطاء، وسماه إنزالا لأن أحكام الله إنما تنزل من السماء .

قوله تعالى : وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾

فيــه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وأَرسَلْنَا الرِّيَاحَ ﴾ قراءة العامة « الرياح » بالجمع . وقرأ حمزة بالتوحيد؛ لأن معنى الريح الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد . كما يقال : جاءت الريح من كل جانب . كما يقال : أرضٌ سَباسِبُ[3] وثوبٌ أَخْلاق . وكذلك تفعل العرب فى كل شىء اتسع . وأما وجه قراءة العامة فلأن الله تعالى نعتها بـ « لواقح » وهى جمع . ومعنى لواقح حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحا لأنها تحمل السحاب؛ أى تقلّه وتصرّفه ثم تَمْرِيه[4] فتستدرّه ، أى تنزله؛ قال الله تعالى : « حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا »[5] أى حملت . وناقة لاقح ونُوق لواقح إذا حملت الأجنة فى بطونها . وقيل : لواقح بمعنى مُلْقِحة وهو الأصل ، ولكنها لا تُلقح إلا وهى فى نفسها لاقح، كأن الرياح لَقِحت بخير . وقيل : ذوات لَقْح، وكل ذلك صحيح؛ أى منها ما يُلقح الشجر؛ كقولهم : عيشة راضية ؛ أى فيها رضًا، وليل نائم؛ أى فيه نوم . ومنها ما تأتى بالسحاب . يقال : لَقِحت الناقة ( بالكسر) لَقَحا ولَقاحا ( بالفتح ) فهى لاقح . وألقحها الفحل أى ألقى إليها

---

(١) آية ٦ سورة الزمر .    (٢) آية ٢٥ سورة الحديد .    (٣) السبسب : الأرض المستوية البعيدة .
(٤) مَرَت الريح السحاب : اذا أنزلت منه المطر .    (٥) آية ٥٧ سورة الأعراف .

المـاء فحملته ؛ فالرياح كالفحل للسحاب . قال الجوهرى : ورياح لواقح ولا يقال مَلاقح، وهو من النوادر . وحكى المهـدوى عن أبى عبيدة : لواقح بمعنى ملاقح، ذهب إلى أنه جمـع مُلْقِحة ومُلْقِح، ثم حذفت زوائده . وقيـل : هو جمع لاقحة ولاقح، على معنى ذات اللّقاح على النسب . ويجـوز أن يكون معنى لاقح حاملا . والعرب تقول للجنوب : لاقح وحامل، وللشّمال حائل وعقيم . وقال عبيد بن عُمير : يرسـل الله المبشرة فتقم الأرض قمّـا (١) ، ثم يرسل المثيرة فتثير السحاب، ثم يرسل المؤلفة فتؤلفه، ثم يبعث اللواقح فتلقح الشجر . وقيل : الريح الملاقح التى تحمـل الندى فتمجّه فى السحاب ، فإذا اجتمع فيـه صار مطرا . وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : " الريح الجنوب من الجنة وهى الريح اللواقح التى ذكرها الله فى كتابه وفيها منافع للناس " . وروى عنـه عليه السـلام أنه قال : " ما هبّت جنوب إلا أنبع الله بها عينا غَدقة " . وقال أبو بكر بن عياش : لا تقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيهـا ؛ فالصَّبا تهيّجه ، والدَّبُور تُلقحه ، والجنوب تُدِرّه ، والشمال تفرّقه .

الثانيـــة — روى ابن وهب وابن القاسم وأشهب وابن عبد الحكم عن مالك — واللفظ لأشهب — قال مالك : قال الله تعـالى : « وأرسـلنا الرياح لواقِح » فلقاح القمح عندى أن يحبب ويُسَنْبِل ، ولا أدرى ما ييبَس فى أكمامه، ولكن يُحبّب حتى يكون لو يبس حينئذ لم يكن فساد الأخير فيه . ولقاح الشجر كلها أن تثمر ثم يسقط منها ما يسقط ويثبت ما يثبت ، وليس ذلك بأن تورّد . قال ابن العربى : إنمـا عوّل مالك فى هـذا التفسير على تشبيه لقاح الشجر بلقاح الحمل ، وأن الولد إذا عقد وخلق ونفخ فيه الروح كان بمنزلة تحبب الثمر وتسنبله ؛ لأنه سُمى باسم تشـترك فيه كل حاملة وهو اللقاح، وعليه جاء الحديث " نهى النبىّ صـلى الله عليه وسـلم عن بيع الحَبّ حتى يشتد " . قال ابن عبد البر : الإبَار عند أهل العلم فى النخل التلقيح ، وهو أن يؤخذ شىء من طلع [ ذكور ] النخل فيُدْخَل بين ظهرانى طلع الإناث .

---

(١) قم البيت : كنسه .

ومعنى ذلك فى سائر الثمــار طلوع الثمرة من التين وغيره حتى تكون الثمرة مرئية منظورا إليها . والمعتبر عند مالك وأصحابه فيما يذكّر من الثمــار التذكير ، وفيما لا يذكّر أن يثبت من نواره ما يثبت ويسـقط ما يسقط . وحدّ ذلك فى الزرع ظهوره من الأرض ؛ قاله مالك . وقد روى عنه أن إباره أن يحبّب . ولم يختلف العلماء أن الحائط إذا انشق طلع إناثه فأخّر إباره وقد أبر غيره ممن حاله مثل حاله ، أن حكمه حكم ما أبر ؛ لأنه قد جاء عليه وقت الإبار وثمرته ظاهرة بعد تغيبها فى الحبّ . فإن أبر بعض الحائط كان مالم يؤبر تبعا له . كما أن الحائط إذا بدا صلاحه كان سائر الحائط تبعا لذلك الصلاح فى جواز بيعه .

الثالثــــة ـــ روى الأئمة كلّهم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من ابتاع نخلا بعــد أن تؤبر فثمرتها للذى باعها إلا أن يشـترط المبتاع . ومن ابتاع عبدا فماله للذى باعه إلا أن يشترطه المبتاع " . قال علماؤنا : إنمــا لم يدخل الثمر المؤبر مع الأصــول فى البيع إلا بالشرط ؛ لأنه عين موجودة يحاط بهــا أمن سقوطها غالبا . بخلاف التى لم تؤبر ؛ إذ ليس سقوطها مأمونا فلم يتحقق لها وجود ، فلم يجز للبائع اشــتراطها ولا استثناؤها ؛ لأنها كالجنين . وهذا هو المشهور من مذهب مالك . وقيل : يجوز استثناؤها ؛ وهو قول الشافعى .

الرابعــــة ـــ لو اشتُرِى النخل وبقى الثمر للبائع جاز لمشترى الأصل شراء الثمرة قبل طيبها على مشهور قول مالك ، ويرى لهــا حكم التبعيــة وإن أفردت بالعقد . وعنــه فى رواية : لا يجوز . وبذلك قال الشافعى وأبو حنيفة والثورى وأهل الظاهر وفقهاء الحديث . وهو الأظهر من أحاديث النهى عن بيع الثمرة قبل بدوّ صلاحها .

الخامســـــة ـــ ومما يتعلق بهذا الباب النهى عن بيع الملاقح ؛ والملاقح الفحول من الإبل ، الواحد مُلقح . والملاقح أيضا الإناث التى فى بطونها أولادُها ، الواحدة ملقَحة (بفتح القاف) . والملاقيح مافى بطون النوق من الأجنة ، الواحدة ملقوحة ؛ من قولهم : لُقِحت ؛ كالمحموم من حُمّ ، والمجنون من جُنّ . وفى هذا جاء النهى . وقد روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم :

أنه نهى عن المَجْر وهو بيع ما فى بطون الإناث . ونهى عن المضامين والملاقيح . قال أبو عبيد : المضامين ما فى البطون، وهى الأجنة . والملاقيح ما فى أصلاب الفحول . وهو قول سعيد بن المسيّب وغيره . وقيل بالعكس : إن المضامين ما فى ظهور الجمال ، والملاقيح ما فى بطون الإناث . وهو قول ابن حبيب وغيره . وأىّ الأمرين كان ، فعلماء المسلمين مجمعون على أن ذلك لا يجوز . وذكر المزنى عن ابن هشام شاهدا بأن الملاقيح ما فى البطون لبعض الأعراب :

مَنيّتى مَلاقحا فى الأبْطُن * تُنْتَج ما تَلْقَح بعد أزْمُن (١)

وذكر الجوهرىّ على ذلك شاهدا قول الراجز :

إنّا وجدنا طَرَدَ الهَوامِلِ * خيرا من التّأنان والمسائِلِ (٢)

وعِدَةِ العامِ وعامٍ قابِلِ * مَلقوحةً فى بطن نابٍ حامِلِ

قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى من السحاب . وكل ما علاك فأظلّك يسمى سماء . وقيل : من جهة السماء . ﴿ مَاءً ﴾ أى قطرا . ﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾ أى جعلنا ذلك المطر لسقياكم ولشرب مواشيكم وأرضكم . وقيل : سَقى وأسقى بمعنًى . وقيل بالفرق ، وقد تقدّم (٣) . ﴿ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ أى ليست خزائنه عندكم ؛ أى نحن الخازنون لهذا الماء ننزله إذا شئنا ونمسكه إذا شئنا . ومثله « وأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ماءً طَهُورًا (٤) » ، « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (٥) » . وقال سفيان : لستم بما نعين المطر.

قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾

أى الأرض ومن عليها، ولا يبقى شىء سوانا . نظيره « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٦) » . فملك كلّ شىء لله تعالى . ولكن ملك عباده أملاكا فاذا ماتوا انقطعت

---

(١) كذا فى الأصل . (٢) الهوامل : الإبل المهملة . والتأنان : الأنين . والناب : الناقة المسنة . والحائل : التى لم تحمل . (٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ٤٨ سورة الفرقان . (٥) آية ١٨ سورة المؤمنون . (٦) آية ٤٠ سورة مريم .

الدعاوى، فكان الله وارثا من هـذا الوجه . وقيـل : الإحياء فى هـذه الآية إحياء النطفة فى الأرحام . فأما البعث فقد ذكره بعد هذا فى قوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ » .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴾ فيه ثمان تأويلات : الأوّل — « المستقدمين » فى الخلق إلى اليوم، و «المستأخرين» الذين لم يخلقوا بعد ؛ قاله قتادة وعكرمة وغيرهما . الثانى — « المستقدمين » الأموات، و « المستأخرين » الأحيـاء ؛ قاله ابن عباس والضحاك . الثـالث — « المستقدمين » من تقدّم أمة محمد ، و « المستأخرين » أمة محمد صلى الله عليه وسلم؛ قاله مجاهد . الرابع — «المستقدمين» فى الطاعة والخـير، و « المستأخرين » فى المعصية والشر؛ قاله الحسن وقتـادة أيضا . الخـامس — «المستقدمين» فى صفوف الحرب، و «المستأخرين» فيها ؛ قاله سعيد بن المسيّب . السادس — « المستقدمين » من قتل فى الجهاد، و «المستأخرين» من لم يقتل؛ قاله القرظى . السابع — « المستقدمين » أوّل الخلق ، و « المستأخرين » آخر الخلق ؛ قاله الشعبىّ . الثـامن — « المستقدمين » فى صفوف الصلاة، و « المستأخرين » فيها بسبب النساء . وكل هذا معلوم لله تعالى ؛ فانه عالم بكل موجود ومعدوم ، وعالم بمن خلق وما هو خالقــه إلى يوم القيامة . إلا أن القول الثامن هو سبب نزول الآية؛ لمـا رواه النّسائى والترمذىّ عن أبى الجوزاء عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم حسناء من أحسن الناس، فكان بعض القوم يتقدّم حتى يكون فى الصف الأوّل لئلا يراها، ويتأخّر بعضهم حتى يكون فى الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطه، فأنزل الله عز وجل «وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ» . وروى عن أبى الجوزاء ولم يُذكر ابن عباس . وهو أصح .

الثانيـــة ــ هذا يدل على فضل أوّل الوقت فى الصلاة وعلى فضل الصفّ الأوّل؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "لو يعلم الناس ما فى النــداء والصف الأوّل ثم لم يجِدوا إلا أن يستَهِموا عليه لاستهموا"[1] . فاذا جاء الرجل عند الزوال فنزل فى الصف الأوّل مجاور الإمام، حاز ثلاث مراتب فىالفضل : أوّل الوقت، والصف الأوّل، ومجاورة الإمام . فان جاء عند الزوال فنزل فى الصف الآخر أو فيما نزل عن الصف الأوّل، فقد حاز فضل أوّل الوقت وفاته فضلالصف الأوّل والمجاورة . فإن جاءوقت الزوال ونزل فى الصف الأوّل دون ما يلى الإمام فقد حاز فضل أوّل الوقت وفضل الصف الأوّل، وفاته مجاورة الإمام . فإن جاء بعد الزوال ونزل فى الصف الأوّل فقد فاته فضــيلة أوّل الوقت، وحاز فضيلة الصف الأوّل ومجاورة الإمام . وهكذا . ومجاروة الإمام لا تكون لكل أحد، وإنما هى كما قال صلى الله عليه وسلم : "ليلِنِى منكم أولو الأحلام والنهى" الحديث . فما يلى الإمام ينبغى أن يكون لمن كانت هذه صفته ؛ فإن نزلهـا غيره أُخِّر وتقــدّم هو إلى الموضــع ؛ لأنه حقّه بأمر صاحب الشرع ؛ كالمحراب هو موضع الإمام تقدّم أو تأخر؛ قاله ابن العربى .

قلت : وعليه يحمــل قول عمر رضى الله عنه : تأخر يا فلان ، تقدّم يا فلان ؛ ثم يتقدّم فيكبر . وقد روى عن كعب أن الرجل من هذه الأمة ليَخِرّ ساجدا فيغفر لمن خلفه . وكان كعب يتوخى الصف المؤخر من المسجد رجاء ذلك ، ويذكر أنه وجده كذلك فى التوراة . ذكره الترمذىّ الحكيم فى نوادر الأصول . وسيأتى فى سورة « الصافات » زيادة بيان لهذا الباب إن شاء الله تعالى .

الثالثـــة ــ وكما تدل هــذه الآية على فضل الصف الأوّل فى الصلاة ، فكذلك تدل على فضل الصف الأوّل فى القتال ؛ فإن القيام فى نحر العدوّ ، وبيع العبد نفسه من الله تعالى لا يوازيه عمل؛ فالتقدّم إليه أفضــل ، ولا خلاف فيه ولا خفاء به . ولم يكن أحد يتقدّم فى الحرب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه كان أشجع الناس. قال البَرَاء : كنا والله إذا احمرّ البأس نتّقى به ، وإن الشجاع منا للذى يحاذِى به ، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(١) أى إلا أن يقترعوا .

قوله تعـالى : وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ﴾ أى للحساب والجزاء . ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ تقـــدّم[1] .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ﴾ يعنى آدم عليه السلام . ﴿ مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ أى من طين يابس؛ عن آبن عباس وغيره . والصَّلْصَال : الطين الحرّ خُلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جَفّ، فإذا طبخ بالنار فهو الفَخّار؛ عن أبى عبيدة . وهو قول أكثر المفسرين . وأنشد أهل اللغة :

* كَعَدْوِ المُصَلْصِل الجَوّال[2] *

وقال مجاهـد : هو الطين المُنْتِن؛ واختاره الكسائىّ . قال : وهو من قول العرب : صـلّ اللحمُ وأصلّ إذا أنتن ـــ مطبوخا كان أو نيئا ـــ يَصِل صلولا . قال الحُطَيئة :

ذاك فتًى يبـذُل ذا قِـدْرِه * لا يُفسِد اللحمَ لَدَيه الصلول

وطين صَـلّال ومِصْلال؛ أى يصوّت إذا نقـرته كما يصوّت الحـديد . فكان أوّلَ ترابا ، أى متفرّق الأجزاء ثم بُلّ فصـار طينا، ثم تُرِك حتى أنتن فصار حَمَأً مسـنونا؛ أى متغيرا، ثم يَبِس فصار صلصالا؛ على قول الجمهور . وقد مضى فى «البقرة» بيانُ[3] هذا . والحَمَأ : الطين الأسود، وكذلك الحمأة بالتسكين؛ تقول منه : حمِئت البئر حَمْأ (بالتسكين) إذا نزعت حمأتها . وحَمِئت البئر حمأ (بالتحريك) كثرتْ حمأتُها . وأحمأتُها إحماء ألقيتُ فيها الحَمْأة؛ عن آبن السِّكِّيت . وقال أبو عبيدة : الحمأة (بسكون الميم) مثل الكمأة . والجمع حَمْءٌ، مثل تمرة وتمر . والحَمَأ المصدر، مثل الهلع والجزع، ثم سُمّى به . والمسنون المتغيّر . قال آبن عباس : هو التراب المبتل المنتن،

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٧ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هذا عجز البيت . وتمامه كما فى اللسان :

عنتريس تعـدو إذا مسها الصو * ت كعدو المصلصل الجـوّال

(٣) راجع المسألة الأولى جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

بجعل صلصالا كالفخار . ومثله قول مجاهــد وقتادة، قالا : المنتن المتغيّر؛ من قولهم : قــد أَسِن المــاء إذا تغيّر؛ ومنه « يَتَسَنَّه» و «ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ» . ومنه قول أبى قيس بن الأسلت :

سقت صــداى رُضابا غير ذى أسن * كالمسك فُتّ على ماء العناقيــد

وقال الفراء : هو المتغير، وأصله من قولهم : سَننت الحجر على الحجر إذا حككته به . وما يخرج من الحجرين يقال له السنانة والسَّنين؛ ومنه المِسن . قال الشاعر :

ثم خاصرتُها إلى القبــة الحمـ * ـراء[1] تمشى فى مَرْمَرٍ مَسنون

أى محكوك مُملّس . حُكى أن يزيد بن معاوية قال لأبيه : ألا ترى عبــد الرحمن بن حسان يُشبِّب بابنتك . فقال معاوية : وما قال ؟ فقال قال :

هى زَهْراءُ مثــلُ لؤلؤة الغــوّ * اص مِيزَتْ من جَوهرٍ مَكْنونِ

فقال معاوية : صدق ! فقال يزيد : [ إنه يقول[2] ] :

وإذا ما نَســبْتَها لم تجــدها * فى سَــناء من المكارم دونِ

فقال : صــدق! فقال : أين قوله : ثم خاصرتها ... البيت . فقال معاوية : كذب . وقال أبو عبيدة : المسنون المصبوب، وهو من قول العــرب : سننت المــاء وغيره على الوجه إذا صببته . والسَّن الصب . وروى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : المسنون الرَّطب؛ وهذا بمعنى المصبوب؛ لأنه لايكون مصبوبا إلا وهو رطب . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنه يقال : سننت الشىء أى صببته . قال أبو عمرو بن العلاء : ومنه الأثر المروىّ عن عمر[3] أنه كان يَسُنّ المــاء على وجهه ولا يَشُنّه . والشّن ( بالشين ) تفريق المــاء، وبالسين المهملة صبه من غير تفريق . وقال سيبويه : المسنون المصوّر . أخذ من سُنّة الوجه وهو صورته . وقال ذو الرمة :

تُرِيك سُـــنّة وجهٍ غيرَ مُقْــرِفة * ملساء ليس بها خال[4] ولا نَدَب

---

(١) فى اللسان : الخضراء .   (٢) الزيادة عن اللسان .   (٣) فى نهاية ابن الأثير : «ابن عمر» .

(٤) السنة : الصورة . والمقرفة : التى دنت من الهجنة . والندب : الأثر من الجراح والقراح . وقوله : غير مقرفة ؛ أى غير هجينة، عفيفة كريمة .

وقال الأخفش : المسنون المنصوب القائم؛ من قولهم: وجه مسنون إذا كان فيه طول . وقد قيل : إن الصّلصال التراب المدقق؛ حكاه المهدوي . ومن قال : إن الصلصال هو المنتن فأصله صلّال، فأبدل من إحدى اللامين الصاد . و « مِنْ حَمَإٍ » مفسر لجنس الصلصال؛ كقولك : أخذت هذا من رجل من العرب .

قوله تعالى : وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل خلق آدم . وقال الحسن : يعني إبليس، خلقه الله تعالى قبل آدم عليه السلام . وسُمِّيَ جانا لتواريه عن الأعين . وفي صحيح مسلم من حديث ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لما صوّر الله تعالى آدم عليه السلام في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ما هو فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك (١)" . ﴿ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴾ قال ابن مسعود : نار السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم . وقال ابن عباس : السموم الريح الحارة التي تقتل . وعنه : أنها نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها، وهي نار تكون بين السماء والحجاب . فإذا أحدث الله أمرا اخترقت الحجاب فهوت الصاعقة إلى ما أمرت . فالهدّة (٢) التي تسمعون خرق ذلك الحجاب . وقال الحسن : نار السموم نار دونها حجاب، والذي تسمعون من انغطاط السحاب صوتها . وعن ابن عباس أيضا قال : كان إبليس من حيّ من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة — قال — : وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار .

قلت : هذا فيه نظر؛ فإنه يحتاج إلى سند يقطع العذر؛ إذ مثله لا يقال من جهة الرأي . وقد خرّج مسلم من حديث عروة عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلقت الملائكة من نور وخُلق الجان من مارج من نار وخُلق آدم مما وُصف لكم" .

(١) أي لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل : لا يملك نفسه عند الغضب . وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه . (٢) الهدة : صوت وقع الحائط ونحوه .

فقوله : " خلقت الملائكة من نور " يقتضى العموم . والله أعلم . وقال الجوهرى : مارج من نار نارٌ لا دخان لها خلق منها الجان ، والسموم الريح الحارة تؤنث ؛ يقال منه : سمّ يومُنا فهو يوم مسموم ، والجمع سمائم . قال أبو عبيدة : السَّمُوم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحَرُور بالليل وقد تكون بالنهار . القشيرى : وسُمِّيت الريح الحارة سموما لدخولها فى مَسامّ البدن .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ﴾ تقدم فى «البقرة»[1] . ﴿ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ ﴾ من طين ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ﴾ أى سوّيت خلقه وصورته . ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى ﴾ النفخ إجراء الريح فى الشىء . والرُّوح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن مع ذلك الجسم . وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ؛ فالروح خلق من خلقـه أضافه إلى نفسه تشريفا وتكريمـا ؛ كقوله : " أرضى وسمائى وبيتى وناقة الله وشهر الله " . ومثله « وَرُوحٌ مِنْهُ » وقد تقدّم فى « النساء »[2] مبيّنا . وذكرنا فى كتاب ( التذكرة ) الأحاديث الواردة التى تدل على أن الروح جسم لطيف ، وأن النفس والروح اسمان لمسمًّى واحد . وسيأتى ذلك إن شاء الله . ومن قال إن الروح هو الحيـاة قال أراد : فإذا ركّبت فيـه الحياة . ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ أى خرّوا له ساجدين . وهو سجود تحيـة وتكريم لا سجود عبادة . ولله أن يفضل من يريد ؛ ففضل الأنبياء على الملائكة . وقد تقدم فى « البقرة »[3] هـذا المعنى . وقال القفّال : كانوا أفضل من آدم ، وامتحنهم بالسجود له تعريضا لهم للثواب الجزيل . وهو مذهب المعتزلة . وقيل : أمروا بالسجود لله عند آدم ، وكان آدم قِبلة لهم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٦١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها . طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فيـه مسئلتان :

الأولى — لا شك أن إبليس كان مأمورا بالسجود ؛ لقوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »[1] وإنمـا منعه من ذلك الاستكبار والاستعظام ؛ كما تقدّم في « البقرة »[2] بيانه . ثم قيل : كان من الملائكة ؛ فهو استثناء من الجنس . وقال قوم : لم يكن من الملائكة ؛ فهو استثناء منقطع . وقد مضى في « البقرة »[3] هـذا كلّه مستوفى . وقال ابن عباس : الجان أبو الجن وليسوا شـياطين . والشـياطين ولد إبليس ، لا يموتون إلا مع إبليس . والجن يموتون ، ومنهم المؤمن ومنهـم الكافر . فآدم أبو الإنس . والجان أبو الجن . وإبليس أبو الشياطين ؛ ذكره المـاوردي . والذى تقـدّم في « البقرة » خلاف هـذا ، فتأمله هنـاك .

الثانيـــة — الاستثناء من الجنس غير الجنس صحيح عند الشافعي ، حتى لو قال : لفلان عليّ دينار إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا قفيز حنطة ، وما جانس ذلك كان مقبولا ، ويسقط عنه من المبلغ قيمة الثوب والحنطة . ويستوى في ذلك المكيلات والموزونات والمقدّرات . وقال مالك وأبو حنيفـة رضى الله عنهما : استثناء المكيل من الموزون والموزون من المكيل جائز ، حتى لو استثنى الدراهم من الحنطة والحنطة من الدراهم قُبل . فأما إذا استثنى المقوّمات من المكيلات أو الموزونات ، والمكيلات من المقوّمات ، مثـل أن يقول : عليّ عشرة دنانير إلا ثوبا ، أو عشرة أثواب إلا دينـارا لا يصح الاستثناء ، ويلزم المقـر جميع المبلغ . وقال محمـد بن الحسن : الاستثناء من غير الجنس لا يصح ، ويلزم المقر جمـلة ما أقر به . والدليل

(١) آية ١٢ سورة الأعراف . راجع جـ ٧ ص ١٦٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

لقول الشافعى" أن لفظ الاستثناء يستعمل فى الجنس وغير الجنس؛ قال الله تعالى : « لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا »(1) فآستثنى السلام من جملة اللّغو . ومثله « فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس » وإبليس ليس من جملة الملائكة؛ قال الله تعالى : « إلا إبليس كان مِن الجنّ ففسق عن أمرِ ربّه »(2) . وقال الشاعر :

وبلدةٍ ليس بها أنيس * إلا اليعافيرُ وإلا العِيسُ

فاستثنى اليعافير وهى ذكور الظباء ، والعِيس وهى الجمال البيض من الأنيس ؛ ومثله قول النابغـــة(3) :

... ... ... ... ... ... ... * ... ... ... ... ... ... ...

قوله تعالى : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ ﴾ أى ما المانع لك . ﴿ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ أى فى ألا تكون . ﴿ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴾ بيّن تكبّره وحسده، وأنه خير منه، إذ هو من نار والنار تأكل الطين؛ كما تقدّم فى « الأعراف »(4) بيانه . ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أى من السموات، أو من جنة عدن، أو من جملة الملائكة . ﴿ فإنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أى مرجوم بالشهب . وقيل : ملعون مشئوم . وقد تقدّم هذا كلّه مستوفًى فى البقرة والأعراف . ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ ﴾ أى لعنتى ؛ كما فى سورة « ص »(5) .

---

(1) آية ٢٥ سورة الواقعة . (2) آية ٥٠ سورة الكهف . (3) لم يذكر المؤلف رحمة الله عليه قول النابغة ، أو لعله سقط من الناسخ . ولعله يشير الى قوله :

حلفت يمينا غير ذى مَثْنَوِيّة * ولا علمَ إلا حسنَ ظن بصاحب

وهذا البيت أورده سيبويه فى كتابه شاهدا على نصب ما بعد إلا على الاستثناء المنقطع ؛ لأن حسن الظن ليس من العلم . والمثنوية : الاستثناء فى اليمين . والمعنى : حلفت غير مستثن فى يمينى حسن ظن منى بصاحبى قام عندى مقام العلم الذى يوجب اليمين . (راجع كتاب سيبويه) . (4) راجع جـ ٧ ص ١٧٠ طبعة أولى أو ثانية . (5) آية ٧٨ .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ هـذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى ، وأنه أهـل أن يجاب له دعاء ؛ ولكن سأل تأخير عذابه زيادة فى بلائه ؛ كفعل الآيس من السلامة . وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون : ألا يموت ؛ لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعـده . قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ يعنى من المؤجلين . ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْـلُومِ ﴾ قال ابن عباس : أراد به النفخة الأولى ، أى حين تموت الخلائق . وقيـل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس . فيموت إبليس ثم يبعث ؛ قال الله تعـالى : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ »[(1)] . وفى كلام الله تعالى له قولان : أحدهما — كلمه على لسان رسوله . الثـانى — كلمه تغليظا فى الوعيـد لا على وجه التكرمة والتقـريب .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَـا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ تقدّم معنى الإغواء والزينـة فى الأعراف[(2)] . وتزيينه هنـا يكون بوجهين : إما بفعل المعـاصى ، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة . ومعنى ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لأضلنهم عن طريق الهدى . وروى ابن لَهيعة عبـدُ الله عن دُرّاج أبى السـمح عن أبى الهيـثم عن أبى سـعيد الخدرىّ قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس قال يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم فقال الرب وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى " .

---

(١) آية ٢٦ سورة الرحمن . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٧٤ و ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

قـرأ أهل المدينة وأهـل الكوفة بفتح اللام ؛ أى الذين استخلصتهم وأخلصتهم . وقرأ الباقون بكسر اللام ؛ أى الذين أخلصوا لك العبادة من فساد أو رياء . حكى أبو ثمـامة أن الحواريين سـألوا عيسى عليه السلام عن المخلِصين لله فقـال : " الذى يعمـل ولا يحب أن يحمده الناس " .

قوله تعـالى : قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾

قال عمر بن الخطاب : معناه هـذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجُم به على الجنـة . الحسن : « علىّ » بمعنى إلىّ . مجاهد والكسائى : هذا على الوعيد والتهديد؛ كقولك لمن تُهـدّده : طريقك علىّ ومصيرك إلىّ . وكقوله : « إنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَـادِ »(1) . فكان معنى الكلام : هذا طريقٌ مرجعه إلىّ فأجازى كُلًّا بعمله ؛ يعنى طريق العبودية . وقيل : المعنى علىّ أن أدل على الصراط المستقيم بالبيان والبرهان . وقيل : بالتوفيق والهـداية . وقرأ ٱبن سِيرين وقتادة والحسن وقيس بن عُبَاد وأبو رجاء وحُميد ويعقوب «هذا صِراط علىٌّ مستقيم» برفع « علىّ » وتنوينـه ؛ ومعناه رفيع مستقيم ؛ أى رفيع فى الدين والحق . وقيل : رفيع أن يُنال ، مستقيم أن يمـال .

قوله تعـالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ ﴿٤٢﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال العلماء : يعنى على قلوبهم . وقال ٱبن عُيينة : أى فى أن يلقيهم فى ذنب يمنعهم عفـوى ويضيقه عليهم . وهؤلاء الذين هداهم الله واجتباهم واختارهم واصطفاهم .

(1) آية ١٤ سورة الفجر .

قلت : لعـل قائلا يقول : قد أخبر الله عن صـفة آدم وحواء عليهما السلام بقـوله : « فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ »(١)، وعن جملة من أصحاب نبيّه بقوله : « إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا »(٢) فالجواب ما ذكر، وهو أنه ليس له سـلطان على قلوبهم، ولا موضع إيمـانهم، ولا يلقيهم فى ذنب يؤول إلى عدم القبول، بل تزيله التوبة وتمحوه الأَوْبة . ولم يكن خروج آدم عقوبة لما تناول؛ على ما تقدّم فى « البقرة »(٣) بيانه . وأما أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم فقـد مضى القول عنهم فى آل عمـران(٢) . ثم إن قوله سبحانه : « ليس لك عليهم سلطان » يحتمل أن يكون خاصا فيمن حفظه الله ، ويحتمل أن يكون فى أكثر الأوقات والأحوال، وقد يكون فى تسلطه تفريج كربة وإزالة غمة؛ كما فُعل ببلال، إذ أتاه يهدّيه كما يهدّى الصبيّ حتى نام، ونام النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه فلم يستيقظوا حتى طلعت الشمس، وفزعوا وقالوا : ما كفارة ماصنعنا بتفريطنا فى صلاتنا ؟ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ليس فى النوم تفريط" ففرّج عنهم . ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى الضالين المشركين . أى سلطانه على هؤلاء؛ دليله « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ »(٤) .

الثانيـــة — وهذه الآية والتى قبلها دليل على جواز ٱستثناء القليـل من الكثير والكثير من القليل؛ مثـل أن يقول : عشرة إلا درهما . أو يقول : عشرة إلا تسـعة . وقال أحمد آبن حنبل : لا يجوز أن يستثنى إلا قدر النصف فما دونه . وأما ٱستثناء الأكثر من الجملة فلا يصح . ودليلنا هذه الآية ، فإن فيها استثناء « الغاوين » من العباد والعباد من الغاوين، وذلك يدل على أن استثناء الأقل من الجملة واستثناء الأكثر من الجملة جائز .

قوله تعـالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

(١) آية ٣٦ سورة البقرة . (٢) آية ١٥٥ سورة آل عمران، جـ ٤ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة . (٤) آية ١٠٠ سورة النحل .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ يعنى إبليس ومن اتبعـه . ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ﴾ أى أطباق، طبق فوق طبق ﴿ لِكُلِّ بَابٍ ﴾ أى لكل طبقة ﴿ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ أى حظ معلوم . ذكر ابن المبارك قال : أخبرنا إبراهيم أبو هارون الغَنَوِىّ قال : سمعت حِطّان ابن عبد الله الرَّقاشى يقول سمعت عليًّا رضى الله عنه يقول : هل تدرون كيف أبواب جهنم؟ قلنا : هى مثل أبوابنا . قال لا، هى هكذا بعضها فوق بعض، — زاد الثعلبىّ : ووضع إحدى يديه على الأخرى — وأن الله وضع الجنان على الأرض، والنيران بعضها فوق بعض، فأسفلها جهنم، وفوقها الحُطَمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها لظى، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية، وكلّ باب أشدّ حرا من الذى يليه سبعين مرة .

قلت : كذا وقع هذا التفسير . والذى عليه الأكثر من العلماء أن جهنم أعلى الدّركات، وهى مختصة بالعصاة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهى التى تخلى من أهلها فتصفق الرياح أبوابها . ثم لظى، ثم الحطمة، ثم سـعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية . قال الضحاك : فى الدّرك الأعلى المحمديّون، وفى الثانى النصارى، وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخـامس المجوس ، وفى السادس مشركو العرب ، وفى السابع المنـافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المـائدة . قال الله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » — وقد تقدم فى النساء (١) — ، وقال : « أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٢) » ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٣) » . وقسّم معاذ بن جبل رضى الله عنه العلماء السّوء من هذه الأمة تقسيما على تلك الأبواب؛ ذكرناه فى كتاب (التذكرة) . وروى الترمذىّ من حديث ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لجهنم سبعة أبواب باب منهـا لمن سَلّ سـيفه على أمتى " قال : حديث غريب . وقال أُبَىّ بن كعب : لجهنم سبعة أبواب باب منها للحَرُورِيّة (٤) . وقال وهب بن منبّه : بين كل بابين مسيرة سبعين

(١) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٤٦ سورة غافر . (٣) آية ١١٥ سورة المـائدة .
(٤) فى كتاب الدر المنثور للسيوطى : « قال كعب رضى الله عنـه : للشهيد نور، ولمن قاتل الحـرورية عشرة أنوار . وكان يقول : لجهنم سبعة أبواب؛ باب منها للحرورية . قال : ولقد خرجوا فى زمان داود عليه السلام » .

سنة، كلّ باب أشدّ حَرًّا من الذى فوقه بسبعين ضعفا . وقد ذكرنا هذا كلّه فى كتاب التذكرة .
وروى سلام الطويل عن أبى سـفيان عن أنس بن مالك عن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم فى قول الله تعالى : « لها سبعةُ أبوابٍ لِكلّ بابٍ مِنهم جزءٌ مقسوم » جزء أشركوا بالله، وجزء شكوا فى الله ، وجزء غفلوا عن الله ، وجزء آثروا شهواتهـم على الله ، وجزء شـفوْا غيظهم بغضـب الله ، وجزء صـيّروا رغبتهم بحظهـم من الله ، وجزء عتَوْا على الله . ذكره الحَليمى أبو عبد الله الحسين بن الحسن فى كتاب (منهاج الدين) له، وقال : فإن كان ثابتا فالمشركون بالله هم الثّنوية . والشاكّون هم الذين لايدرون أن لهم إلها أولا إله لهم، ويشكون فى شريعته أنها من عنده أم لا . والغافلون عن الله هم الذين يجحدونه أصلا ولا يثبتونه ، وهم الدهرية . والمؤثرون شهواتهـم على الله هم المنهمكون فى المعاصى ؛ لتكذيبهم رسـلَ الله وأمره ونهيه . والشافون غيظهم بغضب الله هم القاتلون أنبياء الله وسائر الداعين إليه ، المعذّبون من ينصح لهم أو يذهب غير مذهبهم . والمصيرون رغبتهم بحظهم من الله هم المنكرون بالبعث والحساب؛ فهم يعبدون ما يرغبون فيه، لهم جميع حظهم من الله تعالى . والعاتون على الله الذين لا يبالون، بأن يكون ما هم فيه حقا أو باطلا، فلا يتفكرون ولا يعتبرون ولا يستدلون . والله أعلم بمـا أراد رسوله صلى الله عليه وسلم إن ثبت الحديث . ويروى أن سلمان الفارسىّ رضى الله عنه لمـا سمع هـذه الآية « وإن جهنم لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فـرّ ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل ، فجىء به إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فسأله فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية « وإن جهـنم لَمَوْعِدُهم أجمعِين » ؟ فو الذى بعثك بالحق لقد قطعت قلبى؛ فأنزل الله تعالى « إنّ المتقِين فِى جنّاتٍ وعيُونٍ » . وقال بلال : كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم يصلى فى مسجد المدينة وحده ، فمرت به امرأة أعرابية فصلت خلفه ولم يعلم بها، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسـلم هذه الآية « لها سـبعة أبوابٍ لِكل بابٍ مِنهـم جزء مقسوم » فخرّت الأعرابية مغشيًّا عليها ، وسمع النبىّ صلى الله عليه وسـلم وَجْبَتها[1] فانصرف ودعا بمـاء فصبّ

---

(١) الوجبة : صوت الشىء يسقط فيسمع له كالهدّة .

على وجهها حتى أفاقت وجلست، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يا هـذه مالك " ؟ فقالت : أهذا شيء من كتاب الله المنزل، أو تقوله من تلقاء نفسك ؟ فقال : " يا أعرابية، بل هو من كتاب الله تعالى المنزل " فقالت : كل عضو من أعضائى يعذب على كل باب منها ؟ قال : " يا أعرابيـة، بل لكل باب منهم جزء مقسوم يعذّب أهل كل منها على قدر أعمـالهم " فقالت : والله إنى امرأة مسـكينة، مالى مال، ومالى إلا سبعة أعبد، أشهدك يا رسول الله، أن كل عبد منهـم عن كل باب من أبواب جهنم حُرٌّ لوجه الله تعالى. فأتاه جبريل فقال : " يا رسول الله، بشّر الأعرابية أن الله قد حرّم عليها أبواب جهنم كلها وفتح لها أبواب الجنة كلها ".

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أى الذين اتقوا الفواحش والشرك. ﴿ فِى جَنَّاتٍ ﴾ أى بساتين. ﴿ وعيُونٍ ﴾ هى الأنهار الأربعة : ماء وخمر ولبن وعسل. وأما العيون المذكورة فى سورة « الإنسان » : الكافور والزنجبيل والسلسبيل، وفى « المطففين » : التسنيم، فيأتى ذكرها وأهلها إن شاء الله. وضم العين من « عُيونٍ » على الأصل، والكسر مراعاة للياء، وقرئ بهما. ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَـلَامٍ آمِنِينَ ﴾ قراءة العامة « ادخلوها » بوصـل الألف وضم الخاء، من دخل يدخُل، على الأمر. تقديره : قيـل ادخلوها. وقرأ الحسن وأبو العالية ورُوَيس عن يعقوب « ادخِلوها » بضم التنوين ووصل الألف وكسر الخـاء على الفـعل المجهول، من أدخل. أى أدخلهم الله إياها. ومذهبهم كسر التنوين فى مثـل « بِرحمةٍ ادخلوا الجنة »(1) وشبهه؛ إلا أنهم هاهنا ألقوا حركة الهمزة على التنوين؛ إذ هى ألف قطع، ولكن فيه انتقال من كسر إلى ضم ثم من ضم إلى كسر فيثقل على اللسان. ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أى بسلامة من كل داء وآفة. وقيل : بتحية من الله لهم. ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من الموت والعذاب والعزل والزوال.

---

(1) آية ٤٩ سورة الأعراف.

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) ﴾

قال ابن عباس : أوّل مايدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين فيُذهب الله مافى قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، وتجرى عليهم نضرة النعيم؛ ونحوه عن علىّ رضى الله عنه . وقال علىّ بن الحسين : نزلت فى أبى بكر وعمر وعلىّ والصحابة، يعنى ما كان بينهم فى الجاهلية من الغل . والقول الأوّل أظهر، يدلّ عليه سياق الآية . وقال علىّ رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من هؤلاء . والغل : الحقد والعداوة؛ يقال منه : غلّ يغِلّ . ويقال من الغلول وهو السرقة من المغْنَم : غَلّ يَغُلّ . ويقال من الخيانة : أَغَلّ يُغِلّ . كما قال[1] :

جَزَى الله عنا حَمْزَةَ بنةَ نَوفلٍ * جزاءَ مُغِلٍ بالأمانة كاذب

وقد مضى هذا فى آل عمران[2] . ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ أى لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلاً وتحابُباً؛ عن مجاهد وغيره . وقيل : الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد . وقيل : « متقابلين » قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهن بالودّ . وسُرُر جمع سرير . مثل جديد وجدد . وقيل : هو من السرور؛ فكأنه مكان رفيع ممهَّد للسرور . والأوّل أظهر . قال ابن عباس : على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيْلة[3] . « وإخوانا » نصب على الحال من « المتقين »

(١) البيت للنمر بن تولب من أبيات فى أم أولاده . وكان من حديثها أن أخاه الحارث بن تولب سيد قومه أغار على بنى أسد فسبى منهم امرأة منهم يقال لها «حمزة بنت نوفل» فوهبها لأخيه النمر فتركته فحبسها حتى استقرت وولدت له أولادا؛ ثم قالت له فى بعض أيامها : إنى قد اشتقت إلى أهلى؛ فقال لها : إنى أخاف ان صرت إلى أهلك أن تغلبينى على نفسك فواثقته لترجعن إليه؛ ثم خانت عهده . (راجع الأغانى جـ ١٩ ص ١٥٨ طبع بولاق) .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٣) صنعاء : موضعان، أحدهما باليمن وهى العظمى، وأخرى قرية بالغوطة . والجابية : قرية من أعمال دمشق . وعدن : مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . وأيلة : مدينة على ساحل البحر الأحمر . (عن معجم البلدان) .

أو من المضمر فى « ادخلوها » ، أو من المضمر فى « آمنين » ، أو يكون حالا مقدرة من الهاء والميم فى «صدورهم» . ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أى إعياء وتعب . ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ دليل على أن نعيم الجنة دائم لايزول ، وأن أهلها فيها باقون . أكلها دائم ؛ « إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ »(١) .

قوله تعالى : نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

هذه الآية وزانُ قوله عليه السلام : " لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنَط من رحمته أحد " أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة . وقد تقدّم فى الفاتحة(٢) . وهكذا ينبغى للإنسان أن يذكّر نفسه وغيره فيخوّف ويرجّى ، ويكون الخوف فى الصحة أغلب عليه منه فى المرض . وجاء فى الحديث أن النبىّ صلى الله عليه وسلم خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : " أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار " فشق ذلك عليهم فنزلت الآية . ذكره الماوردىّ والمهدوىّ . ولفظ الثعلبىّ عن ابن عمر قال : اطّلع علينا النبىّ صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شَيْبة ونحن نضحك فقال : " مالكم تضحكون لا أراكم تضحكون " ثم أدبر حتى إذا كان عند الحِجْر رجع القهقرى فقال لنا : " إنى لما خرجت جاءنى جبريل فقال يامحمد لِمَ تُقنّط عبادى من رحمتى « نبّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم » " . فالقنوط إياس ، والرجاء إهمال ، وخير الأمور أوساطها .

قوله تعالى : وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾

(١) آية ٥٤ سورة ص . (٢) راجع جـ ١ ص ١٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ضيفُ إبراهيم : الملائكة الذين بشروه بالولد و بهلاك قوم لوط . وقد تقدّم ذكرهم(١) . وكان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان ، وكان لقَصْره أربعـة أبواب لكيلا يفوته أحد . وسمى الضيف ضيفا لإضافته إليك ونزوله عليك . وقد مضى من حكم الضيف فى « هود »(٢) ما يكفى والحمد لله . ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْـهِ ﴾ جمع الخـبر لأن الضيف اسم يصلح للواحد والجمع والتثنيـة والمذكر والمؤنث كالمصدر . ضافه وأضافه أماله ؛ ومنـه الحديث "حين تَضيف الشمس للغروب" ، وضـيفوفة السهم(٣) ، والإضافة النحوية . ﴿ فَقَالُوا سَـلَامًا ﴾ أى سلّموا سـلاما . ﴿ قَالَ إِنَّا مِنْـكُمْ وَجِلُونَ ﴾ أى فزعون خائفون ، وإنمـا قال هـذا بعد أن قرّب العجل ورآهم لا يأكلون ، على ما تقـدّم فى هود(٤) . وقيل : أنكر السـلام ولم يكن فى بلادهم رسم السـلام . ﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أى قالت الملائكة لا تخف . ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ أى حليم ؛ قاله مقاتل . وقال الجمهور : عالم . وهو إسحاق . ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ ﴾(٥) « أنْ » مصدرية ؛ أى على مس الكبر إياى وزوجتى ، وقد تقدّم فى هود و إبراهيم ؛ حيث يقـول : « فَبِمَ تُبَشِّرُونَ » استفهام تعجب . وقيل : استفهام حقيق . وقرأ الحسن « تُوجل » بضم التاء . والأعمش «بشرتمونِى» بغير ألف ، ونافع وشيبة « تُبَشِّرونِ » بكسر النون والتخفيف ؛ مثل «أتحاجّونِى» وقد تقـدّم تعليله(٦) . وقرأ ابن كثير وابن محيصن «تُبَشِّرونِّ» بكسر النـون مشدّدة ، تقـديره تبشروننى ، فأدغم النون فى النون . البـاقون « تُبشرون » بنصب النون بغير إضافة .

قوله تعـالى : قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بمـا لا خلف فيـه ، وأن الولد لابُدّ منه . ﴿ فَـلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِين ﴾ أى من الآيسـين من الولد ، وكان قد أيس من الولد لفـرط

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ٦٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) ضاف السهم : عدل عن الهدف أو الرمية .
(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٥) راجع جـ ٩ ص ٦٩ و ٣٧٥
(٦) راجع جـ ٧ ص ٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

الكبر . وقراءة العـامة « مِن القانِطين » بالألف . وقـرأ الأعمش ويحيى بن وثاب « من القنطين » بلا ألف . وروى عن أبي عمرو . وهو مقصور من «القانطين» . ويجوز أن يكون من لغة من قال : قَنِط يَقْنَط؛ مثـل حذِر يحذر . وفتح النون وكسرها من « يقنط » لغتان قرئ بهما . وحكى فيه «يقنُط» بالضم . ولم يأت فيه «قنَط يقنَط» . [و] من فتح النون في المـاضي والمسـتقبل فانه جمع بين اللغتين؛ فأخذ في المـاضي بلغة من قال : قنَط يقنِط؛ وفي المستقبل بلغة من قال : قنِط يقنَط؛ ذكره المهدوي .

قوله تعـالى : قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

أي المكذبون الذاهبون عن طريق الصواب . يعني أنه آستبعد الولد لكبر سـنه لا أنه قنط من رحمة الله تعالى .

قوله تعـالى : قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

فيـــه مسئلتان :

الأولى — لمـا علم أنهم ملائكة — إذ أخبروه بأمر خارق للعادة وهو بشراهم بالولد — قال : فمـا خطبكم ؟ والخطب الأمر الخطير . أي فمـا أمركم وشأنكم وما الذي جئتم به . ﴿ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَـوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مشركين ضالين . وفي الكلام إضمار ؛ أي أرسلنا إلى قـوم مجرمين لنهلكهم . ﴿ إِلَّا آل لُوطٍ ﴾ أتباعه وأهـل دينه . ﴿ إِنا لَمُنَجُّوهُمْ ﴾ وقرأ حمزة والكسائي « لَمُنْجُوهم » بالتخفيف من أنجى . الباقون : بالتشديد من نجّى؛ واختاره أبو عبيـد وأبو حاتم . والتنجيـة والإنجاء التخليص . ﴿ إِلَّا آمْرَأَتَهُ ﴾ استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهـلاك . وقـد تقدّمت قصـة قوم لوط

فى « الأعراف »(١) وسورة « هود »(٢) بما فيه كفاية . ﴿ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ أى قضينا وكتبنا إنها لمن الباقين فى العذاب . والغابر : الباقى .

قال(٣) :

لا تكسع الشَّوْل بأغبارها * إنك لا تدرى مَن النَّاتِج

الأغبار بقايا اللبن . وقرأ أبو بكر والمفضل « قَدَرنا » بالتخفيف هنا وفى النمل(٤) ، وشدد الباقون . الهَرَوِىّ : يقال قدّر وقَدَر، بمعنًى .

الثانيـة — لا خلاف بين أهل اللسان وغيرهم أن الاستثناء من النفى إثبات ومن الإثبات نفى؛ فاذا قال رجل : له علىّ عشرة دراهم إلا أربعة إلا درهما؛ ثبت الإقرار بسبعة؛ لأن الدرهم مستثنًى من الأربعة، وهو مثبت لأنه مستثنى من منفى، وكانت الأربعة منفية لأنها مستثناة من موجب وهو العشرة، فعاد الدرهم إلى الستة فصارت سبعة . وكذلك لو قال : علىّ خمسة دراهم إلا درهما إلا ثلثيه؛ كان عليه أربعة دراهم وثلث . وكذلك إذا قال : لفلان علىّ عشرة إلا تسعة إلا ثمانية إلا سبعة؛ كان الاستثناء الثانى راجعا إلى ما قبله، والثالث إلى الثانى فيكون عليه درهمان؛ لأن العشرة إثبات والثمانية إثبات فيكون مجموعها ثمانية عشر . والتسعة نفى والسبعة نفى فيكون ستة عشر تسقط من ثمانية عشر ويبقى درهمان، وهو القدر الواجب بالإقرار لا غير . فقوله سبحانه : « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ . إِلَّا آلَ لُوطٍ إنا لَمُنَجُّوهُمْ أجمعين . إلا آمرأته » فاستثنى آل لوط من القوم المجرمين ، ثم قال : «إلا آمرأته» فاستثناها من آل لوط، فرجعت فى التأويل إلى القوم المجرمين كما بينا . وهكذا الحكم فى الطلاق، لو قال لزوجته : أنت طالق ثلاثا إلا آثنتين إلا واحدة طلقت ثنتين؛ لأن الواحدة رجعت إلى الباقى من المستثنى منه وهى الثلاث . وكذا كل ما جاء من هذا فتفهّمه .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٤٣ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) القائل هو الحارث بن حلِّزة . والكسع : ضرب ضرع الناقة بالماء البارد ليجف لبنها و يتراد فى ظهرها فيكون أقوى لها على الجدب فى العام القابل . والشول : جمع شائلة وهى من الإبل التى أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فخف لبنها . والأغبار : جمع الغبر، وهى بقية اللبن فى الضرع . (٤) فى قوله تعالى : «فأنجيناه وأهله ...» آية ٥٧

قوله تعـالى : ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣) وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ . قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ أى لا أعرفكم . وقيل : كانوا شبابا ورأى جمالا فخاف عليهم من فتنة قومه ؛ فهذا هو الإنكار . ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكّون أنه نازل بهم، وهو العذاب . ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقيل : بالعذاب . ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أى فى هلاكهم . ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ تقـدّم فى هود[1] . ﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ ﴾ أى كن من ورائهم لئلا يتخلّف منهم أحد فيناله العذاب . ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ ﴾ نُهوا عن الالتفات ليجدّوا فى السير ويتباعدوا عن القرية قبل أن يفاجئهم الصبح . وقيـل : المعنى لا يتخلف . ﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ قال ابن عباس : يعنى الشام . مقاتل : يعنى صَـفَد، قرية من قرى لوط . وقد تقدّم . وقيـل : إنه مضى إلى أرض الخليل بمكان يقال له اليقين ، وإنمـا سمى اليقين لأن إبراهيم لمـا خرجت الرسـل شيّعهم ، فقال لجبريل : من أين يخسف بهـم ؟ قال : "من ها هنا" وحَدّ له حَدًّا، وذهب جبريل ؛ فلما جاء لوط جلس عند إبراهيم وارتقبا ذلك العذاب، فلما اهتزت الأرض قال إبراهيم : "أيقنت بالله" فسمىّ اليقين .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوٓا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٧٠) قَالَ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ (٧١) ﴾

(١) راجع ج ٩ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْـهِ ﴾ أى أوحينا إلى لوط . ﴿ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ نظيره « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا » . ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ أى عند طلوع الصبح . وقد تقدّم[(١)] . ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ﴾ أى أهل مدينة لوط ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ مستبشرين بالأضياف طمعا منهم فى ركوب الفاحشة . ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي ﴾ أى أضيافى . ﴿ فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ أى تخجلون . ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ يجـوز أن يكون من الخزى وهو الذل والهوان، ويجوز أن يكون من الخَزاية وهو الحياء والخجل. وقد تقدّم فى هود[(٢)] . ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ أى عن أن تضيف أحدا لأنا نريد منهم الفاحشــة . وكانوا يقصدون بفعلهم الغرباء؛ عن الحسن . وقد تقدم فى الأعراف[(٣)] . وقيل : أو لم ننهك عن أن تكلمنا فى أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة . ﴿ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ أى فتزوّجوهن ولا تركنوا إلى الحرام . وقد تقدّم بيان هذا فى هود[(٤)] .

قوله تعـالى : لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قال القاضى أبو بكر بن العـربى : قال المفسرون بأجمعهم أقسم الله تعـالى ها هنا بحياة محمد صـلى الله عليه وسـلم تشريفا له ، أن قومه من قريش فى سكرتهم يعمهون وفى حَيْرتهم يترددون .

قلت : وهكذا قال القاضى عياض : أجمع أهل التفسير فى هذا أنه قسم من الله جلّ جلاله بمدة حياة محمد صـلى الله عليه وسـلم . وأصـله ضم العين من العمر ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال . ومعناه وبقائك يا محمد . وقيل وحياتك . وهذا نهاية التعظيم وغاية البر والتشريف . قال أبو الجوزاء : ما أقسم الله بحياة أحد غير محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه أكرم البرية عنده . قال ابن العربى : «ما الذى يمنع أن يقسم الله سبحانه وتعالى بحياة لوط ويبلغ به من التشريف

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٢٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٧٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٤٥ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٩ ص ٧٦ طبعة أولى أو ثانية .

ما شاء، وكل ما يعطيه الله تعـالى للوط من فضل يؤتى ضعفيه من شرف لمحمد صلى الله عليه وسـلم ؛ لأنه أكرم على الله منه ؛ أو لا ترى أنه سبحانه أعطى إبراهيم الخُـلّة وموسى التكليم وأعطى ذلك لمحمد، فإذا أقسم بحياة لوط فحياة محمد أرفع . ولا يخرج من كلام إلى كلام لم يجر له ذكر لغير ضرورة » .

قلت : ما قاله حسن ؛ فإنه كان يكون قسمه سبحانه بحياة محمد صلى الله عليه وسلم كلاما معترضا فى قصة لوط . قال القشيرى أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم فى تفسيره : ويحتمل أن يقال : يرجع ذلك إلى قوم لوط، أى كانوا فى سكرتهم يعمهون . وقيل : لمـا وعظ لوط قومه وقال هؤلاء بنـاتى قالت الملائكة : يا لوط ، « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ولا يدرون ما يحلّ بهم صباحا . فإن قيل : فقـد أقسم تعالى بالتين والزيتون وطور سينين؛ فمـا فى هذا ؟ قيل له : ما من شىء أقسم الله به إلا وذلك دلالة على فضـله على ما يدخل فى عداده، فكذلك نبيّنا صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون أفضل ممن هو فى عداده . والعَمْر والعُمْر (بضم العين وفتحها) لغتان ومعناهما واحد؛ إلا أنه لا يستعمل فى القسم إلا بالفتح لكثرة الاستعمال . وتقول : عَمْرك الله، أى أسأل الله تعميرك . و « لَعَمْرُكَ » رفع بالابتداء وخبره محذوف . المعنى لعمرك ممـا أقسم به .

الثانيـــة — كره كثير من العلماء أن يقول الإنسان لعمرى ؛ لأن معناه وحياتى . قال إبراهيم النَّخَعِىّ : يكره للرجل أن يقـول لعمرى ؛ لأنه حلف بحيـاة نفسه، وذلك من كلام ضَعَفة الرجال . ونحو هذا قال مالك : إن المستضعفين من الرجال والمؤنّثين يقسمون بحياتك وعَيْشك ، وليس من كلام أهل الذُّكْران، وإن كان الله سبحانه أقسم به فى هذه القصة، فذلك بيان لشرف المنزلة والرفعة لمكانه ، فلا يحمل عليه سواه ولا يستعمل فى غيره . وقال ابن حبيب : ينبغى أن يُصرف « لعمرك » فى الكلام لهـذه الآية . وقال قتادة : هو من كلام العرب . قال ابن العربىّ : وبه أقول ، لكن الشرع قد قطعه فى الاستعمال وردّ القسم إليه .

قلت : القسم بـ « لعمرك ولعمري » ونحوه فى أشـعار العرب وفصيح كلامها كثير .

قال النابغة :

لَعَمْرِى وما عَمْـــرِى علىّ بِهيِّنٍ * لقد نَطقتْ بُطْـلًا علىّ الأقارع (١)

آخـــر :

لعَمْرُك إن الموت ما أخطأ الفتى * لكالطِّوَل المُرْخَى وثِنْيـاه باليَـدِ (٢)

آخـــر :

أيّهـا المنكح الـــثُّرَيّا سُهيـلًا * عَمْـــرَكَ الله كيف يلتقيـان

آخـــر :

إذا رَضيتْ علىّ بنو قُشَـــيرٍ * لعَمْــــرُ اللهِ أعجبنى رضاهـا

وقال بعض أهل المعانى : لا يجوز هــذا ؛ لأنه لا يقال لله عمر، و إنمـا هو تعالى أزلىّ ، ذكره الزهراوىّ .

الثالثـــة — قـــد مضى الكلام فيما يُحلَف به ومالا يجوز الحلف به فى « المـائدة » (٣)، وذكرنا هناك قول أحمد بن حنبل فيمن أقسم بالنبىّ صلى الله عليه وسلم لزمته الكفارة . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد : من جوّز الحلف بغير الله تعالى ممـا يجوز تعظيمه بحق من الحقوق فليس يقول إنها يمين تتعلق بها كفارة ؛ إلا أنه من قصد الكذب كان ملوما ؛ لأنه فى الباطن مستخِفّ بما وجب عليه تعظيمه . قالوا : وقوله تعالى « لعمرك » أى وحياتك . و إذا أقسم الله تعـالى بحياة نبيّه فإنمـا أراد بيان التصريح لنـا أنه يجوز لنـا أن نحلف بحياته . وعلى مذهب مالك معنى قوله : « لعمرك » و « التِّينِ والزَّيْتُونِ » « والطُّورِ . وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ » « والنَّجْمِ إذَا هَوَى » « وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا » « لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . » كل هذا معناه : وخالق التين والزيتون، وبرب الكتاب المسطور، وبرب البلد الذى حللت به، وخالق عيشك وحياتك، وحق محمـد ؛ فاليمين والقسم حاصل به سـبحانه لا بالمخلوق . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْداد : ومن جَوّز اليمين بغير الله تعالى تأوّل قوله صلى الله عليه وسـلم : " لا تحلفوا

(١) أراد بالأقارع بنى قريع بن عوف، وكانوا قد وشوا به إلى النعمان . (٢) البيت لطرفة بن العبد . والطول : الحبل . وثنياه : ما ثُنى منه . (٣) راجع ج ٦ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بآبائكم " وقال : إنمـا نَهى عن الحلف بالاباء الكفار، ألا ترى أنه قال لمـا حلفوا بآبائهم : " للجبل عند الله أكرم من آبائكم الذين ماتوا فى الجاهلية " . ومالك حمل الحديث على ظاهره .
قال ٱبن خُوَيْزِمنداد : واسـتدل أيضا من جوّز ذلك بأن أيمـان المسلمين جرت منذ عهـد النبيّ صلى الله عليه وسـلم إلى يومنا هـذا أن يحلفوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم، حتى أن أهل المدينة إلى يومنا هـذا إذا حاكم أحدهم صاحبَه قال : احلف لى بحق ما حواه هـذا القبر، وبحق ساكن هـذا القبر، يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك بالحَرَم والمَشاعر العظام ، والرُّكن والمَقام والمحراب وما يُتْلى فيه .

قوله تعـالى : فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ نصـب على الحال ، أى وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس أى أضاءت ، وشَرَقت إذا طلعت . وقيل : هما لغتان بمعنًى . وأشرق القـوم أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . مثل أصـبحوا وأمسوْا ، وهو المراد فى الآية . وقيل : أراد شروق الفجر . وقيل : أوّل العذاب كان عند الصبح وامتدّ إلى شروق الشمس ، فكان تمـام الهلاك عنـد ذلك . والله أعلم . و « الصيحة » العـذاب . وتقدّم ذكر « سِجِّيل » [(١)] .

قوله تعـالى : إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾

فيـه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ روى التّرمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) من حديث أبى سعيد الخُدْرِىّ عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه قال : " للتفرسين " وهو قول مجاهد . وروى أبو عيسى التّرمذىّ عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله

(١) راجع جـ ٩ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية .

عليه وسـلم : " اتّقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله — ثم قرأ — « إن فِى ذٰلِك لآياتٍ لِلمتوسّمِين » " . قال : هذا حديث غريب . وقال مقاتل وٱبن زيد : للتوسمين للتفكرين . الضحاك : للناظرين . قال الشاعر(1) :

أَوَ كلّما وردَتْ عكاظَ قبيلةٌ * بعثُوا إلىّ عرِيفَهـم يتوسّم

وقال قتادة : للعتبرين . قال زهير :

وفيهنّ مَلْهًى للصديق ومنظَرٌ * أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسّـمِ

وقال أبو عبيدة : للتبصرين ، والمعنى متقارب . وروى الترمذىّ الحـكيم من حديث ثابت عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن لله عز وجل عبادا يعرفون الناس بالتوسُّم " . قال العلمـاء : التوسّم تفعّل من الوَسْم ، وهى العلامة التى يستدلّ بها على مطلوب غيرها . يقال : توسّمت فيـه الخير إذا رأيت مِيسَم ذلك فيـه ؛ ومنه قول عبـد الله ابن رَوَاحة للنبىّ صلى الله عليه وسلم :

إنى توسّمت فيك الخير أعرفه * والله يعلم أنى ثابت البصر

آخــر :

توسمتـــه لـمـا رايت مهابة * عليه وقلت المرء من آل هاشم

واتّسم الرجل إذا جعل لنفسه علامة يُعرف بها . وتوسّم الرجل طلب كلأَ الوَسْمِىّ . وأنشد :

وأصـبحن كالدَّوْم النّـواعِم غُـدْوةً * على وِجْهـــةٍ مِن ظاعِنٍ متوسِّم

وقال ثعلب : الواسم الناظر إليـك من فَرْقك إلى قدمك . وأصـل التوسّم التثبت والتفكر ؛ مأخوذ من الوَسْم وهو التأثير بحديدة فى جلد البعير وغيره ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصـفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهـيره من أدناس المعاصى وكدورة الأخلاق وفضول الدنيا . روى نَهْشَل عن ابن عباس « للتوسمين » قال : لأهل الصلاح والخير . وزعمت الصوفية أنها كرامة . وقيل : بل هى استدلال بالعلامات ،

(1) هو طريف بن تميم العنبرى (عن شواهد سيبويه) .

ومن العلامات ما يبـدو ظاهرا لكل أحد و بأول نظرة ، ومنها ما يخفى فلا يبدو لكل أحد ولا يدرك ببادئ النظر . قال الحسن : المتوسمون هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذى أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار ؛ فهذا من الدلائل الظاهرة . ومثـله قول ابن عباس : ما سألنى أحد عن شيء إلا عرفت أفقيه هو أو غير فقيه . وروى عن الشافعى ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة و رجل على باب المسجد فقال أحدهما : أراه نجارا ، وقال الآخر : بل حدّادا ، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجـارا وأنا اليوم حدّاد . وروى عن جُنْدُب بن عبد الله البَجَلِيّ أنه أتى على رجل يقرأ القرآن فوقف فقال : من سَمّع سمّع الله به، ومن راءى راءى الله به . فقلنا له : كأنك عرّضت بهذا الرجل، فقال: إن هذا يقرأ عليك القرآن اليوم و يخرج غدا حَرُورِيًّا ؛ فكان رأس الحَرُورِيّة ، واسمه مرداس . و روى عن الحسن البصرى أنه دخل عليه عمرو بن عبيد فقال : هذا سيد فتيان البَصرة إن لم يُحدِث ، فكان من أمره من القدر ما كان، حتى هجره عامة إخوانه . وقال لأيوب : هذا سيد فتيان أهل البصرة، ولم يستثن . و روى عن الشَّعْبِيّ أنه قال لداود الأَزْدى وهو يُماريه : إنك لا تموت حتى تُكْوَى فى رأسك، وكان كذلك . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل عليه قوم من مَذْحِج فيهم الأشتر، فصعّد فيه النظر وصوّبه وقال : أيّهم هذا ؟ قالوا : مالك بن الحارث . فقال : ما له قاتله الله ! إنى لأرى للسلمين منه يوما عصيبا ؛ فكان منه فى الفتنة ما كان . وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه : أن أنس بن مالك دخل عليه، وكان قد مَرّ بالسوق فنظر إلى امرأة، فلما نظر إليه قال عثمان : يدخل أحدكم علىّ وفى عينيه أثر الزنى ! فقال له أنس : أوَحْيًا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال لا ! ولكن برهان وفراسة وصدق . ومثله كثير عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين .

الثانيـــة — قال أبو بكر بن العربى : «إذا ثبت أن التوسم والتفرّس من مدارك المعانى فإن ذلك لا يترتب عليـه حكم ولا يؤخذ به موسوم ولا متفرّس . وقـد كان قاضى القضـاة الشامى المـالكى ببغداد أيام كونى بالشام يحكم بالفراسة فى الأحكام، جَرْيًا على طريق إياس

ابن معاوية أيام كان قاضيا، وكان شـيخنا فخر الإسـلام أبو بكر الشاشي صنف جزءا في الرّد عليـه، كتبه لي بخطه وأعطانيـه، وذلك صحيح؛ فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا مدركة قطعا وليست الفراسة منها.

قوله تعـالى : وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّهَا ﴾ يعني قرى قوم لوط. ﴿ لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ أي على طريق قومك يامحمد إلى الشام. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعبرة للمصدّقين. ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾ يريد قوم شعيب، كانوا أصحاب غِياض ورياض وشجر مثمر. والأَيْكة: الغَيْضـة، وهي جماعة الشـجر، والجمع الأَيْك. ويروى أن شجرهم كان دَوْمًا وهو المُقْل. قال النابغــة :

تَجْـلُو بقـادِمَتَيْ حمامـة أَيْكةٍ * بَرَدًا أُسِـفَّ لِثَـاتُه بالإثْمِـد

وقيـل : الأيكة اسم القرية. وقيل اسم البلدة. وقال أبو عبيدة : الأيكة ولَيْكة مدينتهم، بمنزلة بكة من مكة. وتقدّم خبر شعيب وقومه. ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بطريق واضح في نفسه، يعني مدينة قوم لوط وبقعة أصحاب الأيكة يعتبر بهما من يمرّ عليهما.

قوله تعـالى : وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾

الحِجر ينطلق على معان: منها حِجر الكعبة. ومنها الحرام؛ قال الله تعالى : «وَحِجْرًا مَحْجُورًا»[1] أي حراما محرما. والحِجر العقل؛ قال الله تعـالى : «لِذِي حِجْـرٍ»[2] والحِجْر حِجـر القميص؛ والفتح أفصح. والحِجر الفرس الأنثى. والحِجر ديار ثمـود، وهو المراد هنـا، أي المدينة؛

---

(١) آية ٥٣ سورة الفرقان. (٢) آية ٥ سورة الفجر.

قاله الأزهرى . قتادة : وهى ما بين مكة وتبوك ، وهو الوادى الذى فيه ثمود . الطبرى : هى أرض بين الحجـاز والشام ، وهم قوم صالح . وقال : ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وهو صالح وحده ، ولكن من كذب نبيًّا فقـد كذّب الأنبياء كلهم ؛ لأنهـم على دين واحد فى الأصول فلا يجوز التفريق بينهم . وقيل : كذبوا صالحا ومن تبعه ومن تقدّمه من النبيّين أيضا . والله أعلم .

روى البخارىّ عن ابن عمر أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم لمـا نزل الحجر فى غزوة تَبُوك أمرهم ألا يشربوا من بئرها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عَجَنَّا واستقينا . فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا المـاء وأن يطرحوا ذلك العجين . وفى الصحيح عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم على الحجر أرض ثمود ، فاسـتقوا من آبارها وعجنوا به العجين ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُهَرِيقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين ، وأمرهم أن يسـتقوا من البئر التى تَرِدها الناقة . وروى أيضـا عن ابن عمر قال : مررنا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم على الحجر فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حَذَرًا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم" ثم زجر[1] فأسرع .

قلت : ففى هذه الآية التى بين الشارع حكمها وأوضح أمرها ثمان مسائل ، استنبطها العلماء واختلف فى بعضها الفقهاء ، فأوّلها — كراهة دخول تلك المواضع ، وعليها حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار ؛ فإن دخل الإنسان شيئا من تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التى أرشد إليها النبىّ صلى الله عليه وسلم من الاعتبار والخوف والإسراع . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تدخلوا أرض بابلَ فإنها ملعونة" .

مســـألة : أمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بهرق ما استقوا من بئر ثمود وإلقاء ما عجن وخبز به لأجل أنه ماء سخط ، فلم يجز الانتفاع به فرارا من سخط الله . وقال "اعلفوه الإبل" .

---

(١) أى زجر صلى الله عليه وسلم ناقته .

قلت : وهكذا حكم المـاء النجس وما يعجن به . وثانيها — قال مالك : إن ما لا يجوز استعماله من الطعام والشراب يجوز أن تعلفه الإبل والبهائم ؛ إذ لا تكليف عليها ؛ وكذلك قال في العسل النجس : إنه يعلفه النحل . وثالثهـا — أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلف ما عجن بهذا المـاء الإبل ، ولم يأمر بطرحه كما أمر في لحوم الحُمُرْ الإنسية يوم خَيْبَرَ ، فدلّ على أن لحم الحُمُر أشد في التحريم وأغلظ في التنجيس . وقد أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم بكسب الحجام أن يُعلف النَّاضِحَ (١) والرقيق ، ولم يكن ذلك لتحريم ولا تنجيس . قال الشافعيّ : ولو كان حراما لم يأمره أن يُطعِمَه رقيقَه ؛ لأنه متعبّد فيـه كما تعبّد في نفسه . ورابعها — في أمره صلى الله عليه وسلم بعلف الإبل العجين دليـل على جواز حمـل الرجل النجاسـة إلى كلابه ليأكلوها ؛ خلافا لمن منع ذلك من أصحابنـا وقال : تطلق الكلاب عليهـا ولا يحملها إليهم . وخامسها — أمره صلى الله عليه وسلم أن يستقوا من بئر الناقة دليل على التبرك بآثار الأنبياء والصالحين ، وإن تقـادمت أعصارهم وخفيت آثارهم ؛ كما أن في الأوّل دليـلا على بغض أهل الفساد وذم ديارهم وآثارهم . هذا ، وإن كان التحقيق أن الجمادات غير مؤاخذات ، لكن المقرون بالمحبوب محبوب ، والمقرون بالمكروه المبغوض مبغوض ؛ كما قال كُثَيِّر :

أحب لحبهـا السودان حتى  *  أحبّ لحبها سـود الكلاب

وكما قال آخر :

أمرّ على الدّيار ديارِ لَيْـلَى  *  أقبّل ذا الجدارَ وذا الجـدارا
وما تلك الديارُ (٢) شَغفن قلبي  *  ولكن حب من سكن الديارا

وسادسها — منع بعض العلماء الصلاة بهذا الموضع وقال : لا تجوز الصلاة فيها لأنها دار سخط وبقعة غضب . قال ابن العربيّ : فصارت هذه البقعة مستثناة من قوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لي الأرض مسجدا وطَهورا " فلا يجوز التيمم بترابها ولا الوضوء من مائها ولا الصلاة

---

(١) الناضح : البعير يستقى عليه .	(٢) الرواية المشهورة : «وما حب الديار» . والبيتان لمجنون ليلى . (راجع خزانة الأدب في الشاهد التسعين بعد المـائتين) .

فيها . وقد روى الترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلّى فى سبع مواطن : فى المَزْبلة والمجزرة والمقبرة وقارعة الطريق، وفى الحمام وفى معاطن الإبل وفوق بيت الله . وفى الباب عن أبى مَرْثد وجابر وأنس : حديثُ ابن عمر إسـناده ليس بذاك القوىّ ، وقد تُكُلِّم فى زيد بن جَبيرة من قِبَـل حفظه . وقد زاد علماؤنا : الدار المغصوبة والكنيسة والبِيعة والبيت الذى فيه تمـاثيل ، والأرض المغصوبة أو موضعا تستقبل فيه نائمـا أو وجه رجل أو جدارا عليه نجاسة . قال ابن العربىّ : ومن هـذه المواضع ما مُنع لحق الغير، ومنه ما مُنع لحق الله تعالى، ومنه ما منع لأجل النجاسة المحققة أو لغلبتها؛ فـما منع لأجل النجاسة إن فرش فيـه ثوب طاهر كالحمـام والمقبرة فيها أو إليهـا فإن ذلك جائز فى المدوّنة . وذكر أبو مصعب عنه الكراهة . وفرق علماؤنا بين المقـبرة القديمة والجديدة لأجل النجاسة ، وبين مقبرة المسلمين والمشركين ؛ لأنها دار عذاب وبقعة سخط كالحِجر . وقال مالك فى المجموعة : لا يُصلِّى فى أعطان الإبل وإن فرش ثوبا ؛ كأنه رأى لها علتين : الاستتار بها(١) ونفارها فتفسد على المصلى صـلاتُه ، فإن كانت واحدة(٢) فلا بأس ؛ كما كان النبىّ صلى الله عليه وسـلم يفعل ؛ فى الحديث الصحيح . وقال مالك : لا يصلّى على بساط فيه تمـاثيل إلا من ضرورة . وكره ابن القاسم الصـلاة إلى القبلة فيها تمـاثيل ، وفى الدار المغصوبة ، فإن فعـل أجزأه . وذكر بعضهم عن مالك أن الصلاة فى الدار المغصوبة لا تجزى . قال ابن العربىّ : وذلك عنـدى بخلاف الأرض فإن الدار لا تُدخل إلا بإذن ، والأرض وإن كانت ملكا فإن المسجدية فيها قائمـة لا يبطلها الملك .

قلت : الصحيح — إن شاء الله — الذى يدل عليه النظر والخبر أن الصلاة بكل موضع طاهر جائزة صحيحة . وما روى من قوله صلى الله عليه وسلم : " إن هـذا وادٍ به شيطان " وقد رواه معمر عن الزهرىّ فقال : واخرجوا عن الموضع الذى أصابتكم فيه الغفلة . وقولِ علىّ : نهانى رسـول الله صلى الله عليه وسلم أن أصلى بأرض بابل فإنها ملعونة . وقولِه عليه

(١) فى الموطأ : « لأنها يستتر بها للبول والغائط ؛ فلا تكاد تسلم مباركها من النجاسة » .
(٢) أى ناقة واحدة .

السلام حين مرّ بالحِجر من ثمـود : " لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين " ونهيه عن الصلاة فى معاطن الإبل إلى غير ذلك ممـا فى هذا الباب ، فإنه مردود إلى الأصول المجتمع عليهـا والدلائل الصحيح مجيئها . قال الإمام الحافظ أبو عمر : المختار عندنا فى هـذا الباب أن ذلك الوادى وغيره من بقاع الأرض جائز أن يصلى فيها كلّها ما لم تكن فيها نجاسـة متيقّنة تمنـع من ذلك ، ولا معنى لاعتلال من آعتل بأن موضـع النوم عن الصلاة موضـع شيطان ، وموضع ملعون لا يجب أن تقام فيـه الصلاة ، وكل ماروى فى هذا الباب من النهى عن الصلاة فى المقـبرة و بأرض بابل وأعطان الإبل وغير ذلك ممـا فى هذا المعنى ، كل ذلك عندنا منسوخ ومدفوع لعموم قوله صلى الله عليه وسـلم : " جُعلت لى الأرض كلها مسجدا وَطهورا" ، وقوله صلى الله عليه وسلم مخبرا : إن ذلك من فضائله وممـا خُصّ به ، وفضائلُه عند أهل العـلم لا يجوز عليها النسخ ولا التبديل ولا النقص . قال صـلى الله عليه وسـلم : " أوتيت خمسـا — وقد روى سـتا ، وقد روى ثلاثا وأربعـا ، وهى تنتهى إلى أزيد من تسع ، قال فيهن — " لم يؤتهن أحد قبلى بُعثت إلى الأحمـر والأسود ونُصرت بالرُّعْب وجُعلت أمـتى خير الأمم وأحلّت لى الغنائم وجُعلت لِىَ الأرض مسـجدا وَطهورا وأوتيت الشفاعة و بعثت بجوامع الكَلِم و بينا أنا نائم أتيت بمفاتيح الأرض فوضعت فى يدى وأعطيت الكوثر وختم بى النبيون " رواها جماعة من الصحابة . و بعضهم يذكر بعضها ، و يذكر بعضهم ما لم يذكر غيره ، وهى صحاح كلها . وجائز على فضائله الزيادة وغير جائز فيها النقصان ؛ ألا ترى أنه كان عبدا قبل أن يكون نبيًّا ثم كان نبيًّا قبل أن يكون رسولا ؛ وكذلك روى عنه . وقال : " ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم " ثم نزلت « لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ »[1] . وسمع رجلا يقوله : يا خير البرية ؛ فقال : " ذاك إبراهيم " وقال : " لا يقولن أحدكم أنا خير من يونس بن مَتّا " وقال : " السـيد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام " ثم قال بعد ذلك كله : " أنا سيد ولد آدم ولا فخر" . ففضائله صلى الله عليه وسلم لم تزل

(١) آية ٢ سورة الفتح .

تزداد إلى أن قبضه الله ؛ فمن هاهنا قلنا : إنه لا يجوز عليها النسخ ولاالاستثناء ولا النقصان، وجائز فيها الزيادة . وبقوله صلى الله عليه وسلم : " جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا " أجزنا الصــلاة فى المقبرة والحمام وفى كل موضع من الأرض إذا كان طاهرا من الأنجاس . وقال صلى الله عليه وسلم لأبى ذرّ : " حيثما أدركتك الصلاةُ فصلّ فإن الأرض كلها مسجد " ذكره البخارىّ ولم يخص موضــعا من موضــع . وأما من احتج بحديث ابن وهب قال : أخبرنى يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة عن داود بن حصين عن نافع عن ابن عمــر حديث الترمذىّ الذى ذكرناه فهو حديث انفرد به زيد بن جَبيرة وأنكروه عليــه، ولا يعرف هــذا الحديث مسندا إلا برواية يحيى بن أيوب عن زيد بن جَبيرة . وقد كتب الليث بن ســعد إلى عبــد الله بن نافع مولى ابن عمر يسأله عن هذا الحديث ، وكتب إليه عبــد الله بن نافع لا أعلم من حدّث بهذا عن نافع إلا قد قال عليه الباطل . ذكره الحُلْوانى عن سعيد بن أبى مريم عن الليث ، وليس فيه تخصيص مقبرة المشركين من غيرها . وقد رُوى عن علىّ بن أبى طالب قال : نهانى حبيبى صلى الله عليه وســلم أن أصلى فى المقبرة ، ونهانى أن أصــلى فى أرض بابل فإنها ملعونة . وإسناده ضعيف مجتمع على ضعفه ، وأبو صالح الذى رواه عن علىّ هو ســعيد ابن عبــد الرحمن الغِفارىّ ، بصرىّ ليس بمشهور ولا يصح له سمــاع عن علىّ ، ومَن دونه مجهولون لا يُعرفون . قال أبو عمــر : وفى البــاب عن علىّ من قوله غيرَ مرفوعٍ حديثٌ حسن الإسناد ، رواه الفضل بن دُكين قال : حدثنا المغيرة بن أبى الحُرّ الكِنْدىّ قال حدّثنى أبو العَنْبس حُجر بن عنبس قال : خرجنا مع علىّ إلى الحرورية ، فلمــا جاوزنا ســوريا وقع بأرض بابل ، قلنــا : يا أمــير المؤمنين أمسيتَ ، الصــلاةَ الصلاةَ ؛ فأبى أن يكلم أحدا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، قد أمسيت . قال بلى ، ولكن لا أصلى فى أرض خسف الله بها . والمغيرة بن أبى الحُرّ كوفى ثقــة ؛ قاله يحيى بن مَعين وغيره . وحُجر بن عنبس من كبار أصحاب علىّ . وروى الترمذىّ عن أبى سعيد الخُــدْرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " الأرض كلّها مسجد إلا المقبرةَ والحمام " . قال الترمذىّ : رواه سفيان الثورىّ عن عمرو بن

يحيى عن أبيـه عن النبيّ صلى الله عليه وسـلم مُرْسَلا، وكأنه أثبت وأصح . قال أبو عمـر : فسقط الاحتجاج به عنـد من لا يرى المرسـل حجة، ولو ثبت كان الوجه ما ذكرنا . ولسنا نقول كما قال بعض المنتحلين لمذهب المدنيين : إن المقبرة فى هـذا الحديث وغيره أريد بهـا مقبرة المشركين خاصة؛ فإنه قال : المقبرة والحمام بالألف واللام؛ فغير جائز أن يُرَد ذلك إلى مقبرة دون مقبرة أو حمام دون حمام بغير توقيف عليه ، فهو قول لا دليل عليـه من كتاب ولا سنة ولا خبر صحيح، ولا مدخل له فى القياس ولا فى المعقول، ولا دلّ عليه فحوى الخطاب ولا خرج عليه الخبر . ولا يخلو تخصيص من خص مقبرة المشركين من أحد وجهين : إما أن يكون من أجل اختلاف الكفار إليهـا بأقدامهم فلا معنى لخصوص المقبرة بالذكر؛ لأن كل موضع هم فيه بأجسامهم وأقدامهم فهو كذلك ، وقد جلّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يتكلم بمـا لا معنى له . أو يكون من أجل أنها بقعـة سخط ، فلو كان كذلك ما كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم ليبنى مسجده فى مقبرة المشركين وينبشها ويسوّيهـا ويبنى عليها ، ولو جاز لقائل أن يخص من المقابر مقبرة للصلاة فيها لكانت مقبرة المشركين أولى بالخصوص والاستثناء من أجل هـذا الحديث . وكل من كره الصلاة فى المقبرة لم يخص مقبرة من مقبرة ؛ لأن الألف واللام إشارة إلى الجنس لا إلى معهود ، ولو كان بين مقبرة المسـلمين والمشركين فرق لبيّنه صلى الله عليه وسلم ولم يهمله ؛ لأنه بعث مبيِّنا . ولو ساغ لجاهل أن يقول : مقبرة كذا لجاز لآخر أن يقول : حمام كذا ؛ لأن فى الحديث المقبرة والحمـام . وكذلك قوله : المزبلة والمجزرة؛ غير جائز أن يقال : مزبلة كذا ولا مجزرة كذا ولا طريق كذا؛ لأن التحكم فى دين الله غير جائز .

وأجمع العلماء على أن التيمم على مقبرة المشركين إذا كان الموضع طيبا طاهرا نظيفا جائز . وكذلك أجمعوا على أن من صلى فى كنيسة أو بيعة على موضع طاهر، أن صلاته ماضية جائزة . وقد تقدّم هذا فى سورة «براءة»(١) . ومعلوم أن الكنيسة أقرب إلى أن تكون بقعة سخط من المقبرة؛

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٥٥ طبعة أولى أو ثانية .

لأنها بقعة يعصى الله و يكفر به فيها، وليس كذلك المقبرة . وقـد وردت السنة باتخاذ البيع والكنائس مساجد . روى النّسائى عن طَـلْق بن علىّ قال : خرجنا وَفْـدًا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فبايعناه وصلينا معه، وأخبرناه أن بأرضنا بِيعة لنا ، وذكر الحديث . وفيه : "فإذا أتيتم أرضكم فاكسروا بِيعتكم واتخذوها مسجدا" . وذكر أبو داود عن عثمان بن أبى العاص أن النبىّ صلى الله عليـه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغيتهم . وقـد تقدّم فى « براءة » . وحسبك بمسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم الذى أُسِّس على التقوى مبنيـا فى مقبرة المشركين؛ وهو حجـة على كل من كره الصلاة فيها . وممن كره الصلاة فى المقبرة سواء كانت لمسلمين أو مشركين الثورىّ وأبو حنيفـة والأوزاعىّ والشـافعىّ وأصحابهم . وعنـد الثورىّ لا يعيد . وعند الشافعىّ أجزأه إذا صلى فى المقبرة فى موضع ليس فيه نجاسة؛ للأحاديث المعلومة فى ذلك، ولحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "صلوا فى بيوتكم ولا تتخذوها قبورا" ، ولحديث أبى مَرْثَد الغَنوِىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم أنه قال : "لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" . وهذان حديثان ثابتان من جهة الإسناد ، ولا حجة فيهما ؛ لأنهما محتملان للتأويل، ولا يجب أن يمتنع من الصلاة فى كل موضع طاهر إلا بدليل لا يحتمل تأويلا. ولم يفرق أحد من فقهاء المسلمين بين مقبرة المسلمين والمشركين إلا ما حكيناه من خَطَل القول الذى لا يشـتغل بمثله ، ولا وجه له فى نظـر ولا فى صحيح أثر .

وثامنهـا[1] ــ الحائط يلقى فيه النّتْن والعَذِرة ليكرم فلا يصلّى فيه حتى يسقى ثلاث مرات، لمـا رواه الدارقطنى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى الحائط يُلقى فيه العَذِرة والنّتْن قال : "إذا سُقِى ثلاث مرات فصلّ فيه" . وخرجه أيضا من حديث نافع عن ابن عمر أنه سئل عن هذه الحيطان التى تلقى فيها العَذِرات وهذا الزبل ، أيصلّى فيها ؟ فقال : إذا سقيت ثلاث مرات فصلّ فيهـا . رُفع ذلك إلى النبىّ صلى الله عليه وسـلم . اختلفا فى الإسناد ، والله أعلم .

(١) كذا فى الأصول . ويلاحظ أنه لم يتقدّم للسابعة ذكر .

قوله تعـالى : وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا ﴾ أى بآياتنا . كقوله : « آتِنَا غَدَاءَنَا »(1) أى بغدائنا . والمراد الناقـة ، وكان فيها آيات جمّة : خروجها من الصخرة ، ودنوّ نتاجها عند خروجها ، وعظمها حتى لم تشبهها ناقة ، وكثرة لبنها حتى تكفيهم جميعا . ويحتمل أنه كان لصالح آيات أخر سوى الناقة ، كالبئر وغيره . ﴿ فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ أى لم يعتبروا .

قوله تعـالى : وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

النحت فى كلام العرب : البَرْىُ والنَّجر . نحته ينحتـه ( بالكسر) نحتا أى براه . والنُّحاتة البُراية . والمِنحت ما يُنحت به . وفى التنزيل « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ »(2) أى تنجرون وتصنعون . فكانوا يتخذون من الجبال بيـوتا لأنفسهم بشدة قوتهم . ﴿ آمِنِينَ ﴾ أى من أن تسقط عليهم أو تخرب . وقيل : آمنين من الموت . وقيل : من العذاب . ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾ أى فى وقت الصبح ، وهو نصب على الحال . وقد تقدم ذكر الصيحة فى هود والأعراف(3) . ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من الأموال والحصـون فى الجبال ، ولا ما أعطوه من القوة .

قوله تعـالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

---

(1) آية ٦٢ سورة الكهف .        (2) آية ٩٥ سورة الصافات .

(3) راجع جـ ٩ ص ٦١ و جـ ٧ ص ٢٤٢ طبعة أولى وثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيـل : أى لأجازى المحسن والمسىء ؛ كما قال : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى »[1] . ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ﴾ أى لكائنة فيُجزى كل بعمله . ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ مثل « وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا »[2] أى تجاوز عنهم يا محمد ، واعف عفوًا حسنا ؛ ثم نسخ بالسيف . قال قتادة : نسخه قوله : « فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ »[3] . وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لهم : "لقد جئتكم بالذبح وبُعثت بالحصاد ولم أبعث بالزراعة"[4]؛ قاله عكرمة ومجاهد . وقيل : ليس بمنسوخ، وأنه أمرٌ بالصفح فى حق نفسه فيما بينه وبينهم . والصفح : الإعراض ؛ عن الحسن وغيره . ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ ﴾ أى المقدّر للخلق والاخلاق[5] . ﴿ الْعَلِيمُ ﴾ بأهل الوفاق والنفاق .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

اختلف العلمـاء فى السبع المثانى ؛ فقيل: الفاتحة؛ قاله علىّ بن أبى طالب وأبو هريرة والربيع بن أنس وأبو العالية والحسن وغيرهم ، ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم من وجوه ثابتة ، من حديث أُبَىّ بن كعب وأبى سعيد بن المُعَلّى[6] . وقد تقدّم فى تفسير الفاتحة . وخرّج الترمذى من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" . قال : هذا حديث حسن صحيح . وهـذا نص، وقد تقدّم فى الفاتحة . وقال الشاعر :

نشـدتكم بمنزِل القـرآن * أمِّ الكتاب السبع من مثانى

وقال ابن عباس : هى السـبع الطُّوَل : البقرة، وآل عمران ، والنساء ، والمـائدة ، والأنعـام، والأعراف، والأنفال والتوبة معـا؛ إذ ليس بينهما التسـمية . روى النّسائىّ

(١) آية ٣١ سورة النجم . (٢) آية ١٠ سورة المزمل . (٣) آية ٩١ سورة النساء .
(٤) كذا فى الأصول وتفسير الطبرى . وفى كتاب الجامع الصغير : «بالجهاد» . (٥) كذا فى الأصول .
(٦) راجع جـ ١ ص ١٠٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

حدّثنا على بن حُجْر أخبرنا شريك عن أبى إسحاق عن ســعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله عز وجل : ﴿ سَــبْعًا مِنَ الْمَثَانِى ﴾ قال : السبع الطُّوَل، وسميت مثانى لأن العبر والأحكام والحدود ثُنّيت فيها . وأنكر قوم هذا وقالوا : أنزلت هــذه الآية بمكة ، ولم ينزل من الطُّوَل شئ إذ ذاك . وأجيب بأن الله تعالى أنزل القرآن إلى السماء الدنيا ثم أنزله منها نجوما، فما أنزله إلى السماء الدنيا فكأنمــا آتاه محمدا صلى الله عليه وسلم و إن لم ينزل عليه بعد . وممن قال إنها السبع الطول : عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد . وقال جرير :

جزى الله الفرزدق حين يُمْسِى * مُضِيعــا للمُفَصَّــل والمثــانى

وقيل : المثانى القرآن كله؛ قال الله تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِىَ »(1) . هذا قول الضحاك وطاوس وأبو مالك، وقاله ابن عباس . وقيل له مثانى لأن الأنبــاء والقصص ثُنِّيت فيــه . وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فقــد كان نورا ساطعا يهتدى به * يُخَصُّ بتــنزيل القُرَان المعظم

أى القرآن . وقيل : المــراد بالسبع المثانى أقسام القرآن من الأمر والنهى والتبشير والإنذار وضرب الأمثال وتعديد نِعَم وأنباء قرون؛ قاله زياد بن أبى مريم . والصحيح الأوّل لأنه نصّ . وقد قدمنا فى الفاتحة أنه ليس فى تسميتها بالمثانى ما يمنع من تسمية غيرها بذلك؛ إلا أنه إذا ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وثبت عنه نص فى شئ لايحتمل التأويل كان الوقوف عنده .

قوله تعــالى : ﴿ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ فيــه إضمار تقــديره : وهو أن الفاتحة القرآن العظيم لاشتمالهــا على ما يتعلق بأصول الإســلام . وقد تقــدّم فى الفاتحة . وقيــل : الواو مقحمة ، التقدير : ولقد آتيناك سبعا من المثانى القرآن العظيم . ومنه قول الشاعر :

إلى المَلِك القَــرم وابن الهمام * وليثِ الكَتِيبة فى المُــزْدَحم

وقد تقدّم عند قوله : « حافظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى »(2) .

---

(1) آية ٢٣ سورة الزمر .		(2) راجع جـ ٣ ص ٢١٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ المعنى : قد أغنيتك بالقرآن عما فى أيدى الناس ؛ فإنه ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن ؛ أى ليس منا من رأى أنه ليس يَغْنَى بمـا عنده من القرآن حتى يطمح بصره إلى زخارف الدنيا وعنده معارف المولى . يقال : إنه وافى سبع قوافل من البُصْرَى وأَذْرِعات ليهود قُريظة والنّضير فى يوم واحد ، فيها البُرّ والطيب والجوهر وأمتعة البحر ، فقال المسلمون : لو كانت هذه الأموال لنا لتقوينا بها وأنفقناها فى سبيل الله ، فأنزل الله تعالى « ولقد آتيناك سبعا مِن المثانِى » أى فهى خير لكم من القوافل السبع ، فلا تمدّن أعينكم إليها . وإلى هذا صار ابن عُيينة ، وأورد قوله عليه السلام : "ليس منا من لم يتغنّ بالقرآن" أى من لم يستغن به . وقد تقدّم هـذا المعنى فى أوّل الكتاب (١) . ومعنى ﴿أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أى أمثالا فى النعم ، أى الأغنياء بعضهم أمثال بعض فى الغنى ، فهم أزواج .

الثانيـــة ــ هـذه الآية تقتضى الزجر عن التشوّف إلى متاع الدنيا على الدوام ، و إقبال العبـد على عبادة مولاه . ومثله « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ (٢) » الآية . وليس كذلك ؛ فإنه روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حُبّب إلىّ من دنيا كم (٣) النساء والطيب وجُعلت قُرّةُ عينى فى الصلاة" . وكان عليـه الصلاة والســلام يتشاغل بالنساء ، جِبِلّة الآدمية وتشوّف الخلقة الإنسانية ، ويحافظ على الطيب ، ولا تقرّ له عين إلا فى الصلاة لدى مناجاة المولى . ويرى أن مناجاته أَحْرى من ذلك وأولى . ولم يكن فى دين محمد الرهبانية والإقبال على الأعمال الصالحة بالكلية كما كان فى دين عيسى ،

(١) راجع جـ ١ ص ١٢ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ١٣١ سورة طه . (٣) كذا فى سنن النسائى ومسند الامام أحمـد . والذى فى الأصول : « حبب إلى من دينا كم ثلاث ... الخ » وبكلمة « ثلاث » لا يستقيم الكلام .

وإنما شرع الله سبحانه حنيفية سمحة خالصة عن الحرج خفيفة على الآدمىّ ، يأخذ من الآدمية بشهواتها و يرجع إلى الله بقلب سليم . ورأى القراء والمخلصون من الفضـلاء الانكفافَ عن اللذات والخلوص لرب الأرض والسموات اليـوم أولى؛ لمـا غَلَب على الدنيـا من الحرام ، وآضطرّ العبد فى المعاش إلى مخالطة من لا تجوز مخالطته ومصانعةِ من تحرم مصانعته ، فكانت القراءة أفضل ، والفرار عن الدنيا أصوب للعبد وأعدل؛ قال صلى الله عليه وسلم : "يأتى على الناس زمان يكون خيرمال المسلم غَنَماً يتبع بها شَعَفَ[(١)] الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن" .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى ولا تحزن على المشركين إن لم يؤمنوا . وقيـل : المعنى لا تحزن على ما مُتِّعوا به فى الدنيا فلك فى الآخرة أفضلُ منه . وقيـل : لا تحزن عليهم إن صاروا إلى العذاب فهم أهل العـذاب . ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ألِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضَعْ لهم . وأصله أن الطائر إذا ضَمّ فرخه إلى نفســه بسط جناحه ثم قبضه على الفــرخ ، بجعل ذلك وصفا لتقريب الإنسان أتباعه . ويقال : فلان خافض الجناح ، أى وقور ساكن . والجناحان من آبن آدم جانباه ؛ ومنه « وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ »[(٢)] وجناح الطائر يده . وقال الشاعر :

وحسبك فتيــة لزعيم قوم * يمدّ على أخى سـقم جناحا

أى تواضعا ولينا .

قوله تعـالى : وَقُـلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّـذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَـا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

فى الكلام حذف؛ أى إنى أنا النذير المبين عذابا ، لحذف المفعول ، إذ كان الإنذار يدل عليه ، كما قال فى موضع آخر : « أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ »[(٣)] . وقيل : الكاف زائدة ، أى أنذرتكم ما أنزلنا على المقتسمين؛ كقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » . وقيل : أنذرتكم

---

(١) أى رءوسها . (٢) آية ٢٢ سورة طه . (٣) آية ١٣ سورة فصلت .

مثل ما أنزلنـا بالمقتسمين . وقيل : المعنى كما أنزلنا على المقتسمين ، أى من العذاب وكفيناك المستهزئين ، فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين الذين بغَوْا ، فإنا كفيناك أولئك الرؤساء الذين كنت تلقى منهم ما تلقى .

وآختلف فى « الْمُقْتَسِمِينَ » على أقوال سـبعة : الأول — قال مقاتل والفـراء : هم سـتة عشر رجلا بعثهم الوليـد بن المغيرة أيام الموسم فآقتسموا أعقاب مكة وأنقابها و بفاجها يقولون لمن سلكها : لاتغترُّوا بهذا الخارج فينا يدّعى النبوة؛ فإنه مجنون ، وربما قالوا ساحر، وربمـا قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن . وسُمُّوا المقتسمين لأنهـم اقتسموا هـذه الطرق ، فأماتهم الله شرّ ميتة ، وكانوا نصبوا الوليـد بن المغيرة حَكَمًا على باب المسجد، فإذا سألوه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : صدق أولئك . الثانى — قال قتادة : هم قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله فجعلوا بعضه شعرا ، و بعضه سحرا ، و بعضه كهانة ، و بعضه أساطير الأوّلين . الثالث — قال ابن عباس : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . وكذلك قال عكرمة : هم أهل الكتاب ، وسُمّوا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين، فيقول بعضهم : هـذه السورة لى وهذه السورة لك . وهو القول الرابع . الخامس — قال قتادة : قسموا كتابهم ففرّقوه وبدّدوه وحرّفوه . السادس — قال زيد بن أسـلم : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتـله فسُمّوا مقتسمين ؛ كما قال تعالى : « تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ »(1) . السابع — قال الأخفش : هم قوم اقتسموا أيمانا تحالفوا عليها . وقيـل : إنهم العـاص بن وائل وعتبة وشيبة ابنا ربيعـة وأبو جهـل بن هشام وأبو البَخْتَرِىّ بن هشام والنضر بن الحـارث وأمية بن خلف ومنبّـه ابن الحجاج؛ ذكره المـاوردىّ .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

هذه صفة المقتسمين . وقيل : هو مبتدأ وخبره « لنسألنهم » . وواحد العِضين عِضَة ، من عضّيت الشىء تعضية أى فرّقته ؛ وكل فرقة عِضَـة . وقال بعضهم : كانت فى الأصـل

(1) آية ٤٩ سورة النمل .

عِضْوَة فنقصت الواو ، ولذلك جمعت عضين؛ كما قالوا : عِزِين فى جمع عِزة، والأصل عِزْوة . وكذلك ثُبَة وثبين . ويرجع المعنى إلى ما ذكرناه فى المقتسمين . قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقيل : فرّقوا أقاويلهم فيه فجعلوه كذبا وسحرا وكهانة وشعرا . عضوته أى فرقته . قال الشاعر — هو رؤبة — :

* وليس دين الله بالمُعَضَّى *

أى بالمفترق . ويقال : نقصانه الهاء وأصله عضهة؛ لأن العِضَه والعِضين فى لغة قريش السحر . وهم يقولون للساحر : عاضِه وللساحرة عاضِهة . قال الشاعر :

أعوذ بربى من النافثــا * تِ فى عُقَد العاضِــه المُعْضِه

وفى الحديث : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم العاضِهة والمُسْتَعْضِهة، وفُسّر : الساحرة والمستسحِرة . والمعنى : أكثروا البُهْت على القرآن ونوّعوا الكذب فيه، فقالوا : سحر وأساطير الأولين، وأنه مفترًى، إلى غير ذلك . ونظير عضة فى النقصان شَــفه، والأصل شَفَهة . كما قالوا : سَــنة، والأصل سنَهة ، فنقصوا الهــاء الأصلية وأثبتت هاء العلامة وهى للتأنيث . وقيــل : هو من العَضْه وهى النميمة . والعَضِيهة البهتان ، وهو أن يعضَه الإنسان ويقول فيه ما ليس فيــه . يقال عَضَهه عَضْهًا رماه بالبهتان . وقــد أعْضَهْت أى جئت بالبهتان . قال الكسائىّ : العِضَــة الكذب والبهتان ، وجمعها عِضون؛ مثل عِزة وعزون ؛ قال تعــالى : « الذين جعلوا القرآن عِضين » . ويقال : عَضّوه أى آمنوا بمــا أحبوا منه وكفروا بالباقى، فأحبط كفرهم إيمــانَهم . وكان الفراء يذهب إلى أنه مأخوذ من العِضاة ، وهى شجر الوادى ويخرج كالشوك .

قوله تعــالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعــالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى لنسئان هؤلاء الذين جرى ذكرهم عما عملوا فى الدنيا . وفى البخارىّ : وقال عِدة من أهل العلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » عن لا إله إلا الله .

قلت : وهذا قد روى مرفوعا ، روى الترمذىّ الحكيم قال : حدثنا الجارود بن معـاذ قال حدثنا الفضل بن موسى عن شريك عن ليث عن بشير بن نَهِيك عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » قال : " عن قول لا إله إلا الله " قال أبو عبد الله : معناه عندنا عن صدق لا إله إلا الله ووفائها ؛ وذلك أن الله تعـالى ذكر فى تنزيله العمل فقال : « عمـا كانوا يعملون » ولم يقل عما كانوا يقولون، وإن كان قد يجوز أن يكون القول أيضا عمل اللسان، فإنمـا المعنىّ به ما يعرفه أهل اللغـة أن القول قولٌ والعملَ عملٌ . وإنمـا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عن لا إله إلا الله " أى عن الوفاء بها والصدق لمقالها . كما قال الحسن البصرىّ : ليس الإيمـان بالتحلّى ولا الدين بالتمنى ولكن ما وقر فى القلوب وصدقته الأعمال . ولهذا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة " قيل : يارسول الله، وما إخلاصها ؟ قال : " أن تحجُزه عن محارم الله " . رواه زيد بن أرقم . وعنه أيضا قال قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله عهد إلىّ ألا يأتينى أحد من أمتى بلا إله إلا الله لا يخلط بها شيئا إلا وَجَبت له الجنـة " قالوا : يا رســول الله ، وما الذى يخلط بلاإله إلا الله ؟ قال : " حرصا على الدنيا وجَمْعا لها ومنعا لها ، يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وســلم : " لا إله إلا الله تمنع العباد من سخط الله مالم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ثم قالوا لا إله إلا الله رُدّت عليهم وقال الله كذبتم " . أسانيدها فى نوادر الأصول .

قلت : والآية بعمومها تدل على سؤال الجميع ومحاسبتهم كافرهم ومؤمنهم، إلا من دخل الجنة بغير حساب على ما بيناه فى كتاب ( التذكرة ) . فإن قيل : وهل يسأل الكافر ويحاسب؟ قلنا : فيـه خلاف، وذكرناه فى التذكرة . والذى يظهر ســؤاله ، للآية وقوله : « وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ[1] » وقوله : « إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ[2] » . فإن قيل : فقد قال تعالى :

(١) آية ٢٤ سورة الصافات . (٢) آية ٢٥ سورة الغاشية .

« وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ »(1) وقال : « فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ »(2) ، وقال : « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ »(3) ، وقال : « إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ »(4) . قلنا : القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سـؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه . قال عكرمة : القيامة مواطن ، يسأل فى بعضها ولا يسأل فى بعضها . وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ؛ لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقريع وتوبيخ فيقول لهم : لِمَ عصيتم القرآن وما حجتكم فيه؟ واعتمد قُطْرُب هذا القول . وقيل : « لنسألنهم أجمعين » يعنى المؤمنين المكلفين ؛ بيانه قولُه تعالى : « ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ »(5) . والقول بالعموم أولى كما ذكر . والله أعلم .

قوله تعـالى : فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ أى بالذى تؤمر به ، أى بلّغ رسالة الله جميع الخلق لتقوم الحجة عليهم ، فقد أمرك الله بذلك . والصدع : الشق . وتصدّع القوم أى تفرقوا ؛ ومنـه « يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ »(6) أى يتفـرقون . وصدعته فانصدع أى انشق . وأصل الصدع الفرق والشق . قال أبو ذُؤَيب يصف الحمار وأُتُنَه :

وكأنهن رِبَابة وكأنه يَسَـرٌ * يُفيض على القِـداح ويَصْـدَعُ(7)

أى يفرق ويشق . فقوله : « اصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » قال الفـراء : أراد فاصـدع بالأمر ، أى أظهر دينك ، فـ « ما » مع الفعل على هذا بمنزلة المصدر . وقال ابن الأعرابى : معنى اصدع بمـا تؤمر ، أى اقصد . وقيل : « فاصدع بما تؤمر » أى فرّق جمعهم وكلمتهم بأن تدعوهم إلى التوحيد فإنهم يتفرقون بأن يجيب البعض ؛ فيرجع الصدع على هذا إلى صدع جماعة الكفار .

(1) آية ٧٨ سورة القصص . (2) آية ٣٩ سورة الرحمن . (3) آية ١٧٤ سورة البقرة .
(4) آية ١٥ سورة المطففين . (5) آخر سورة التكاثر . (6) آية ٤٣ سورة الروم .
(7) الربابة : الجلدة التى تجمع فيها السهام . واليسر : صاحب الميسر الذى يضرب بالقداح .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ أى عن الاهتمام باستهزائهم وعن المبالاة بقولهم ، فقد برأك الله عما يقولون . وقال ابن عباس : هو منسوخ بقوله « فَٱقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ »[1] . وقال عبد الله بن عبيد : ما زال النبيّ صلى الله عليه وسلم مستخفياً حتى نزل قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فخرج هو وأصحابه . وقال مجاهد : أراد الجهر بالقرآن فى الصلاة . « وأعرض عن المشركين » لا تبال بهم . وقال ابن إسحاق : لما تمادَوا فى الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء أنزل الله تعالى « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيناك المستهزئين . الذين يجعلون مع الله إلهاً آخرَ فسوف يعلمون » . والمعنى : اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله؛ فإن الله كافيك مَن أذاك كما كفاك المستهزئين ، وكانوا خمسة من رؤساء أهل مكة ، وهم الوليد بن المغيرة وهو رأسهم ، والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب بن أسد أبو زمعة . والأسود بن عبد يَغُوث ، والحارث بن الطُّلاطِلَة ، أهلكهم الله جميعا ، قيل يوم بدر فى يوم واحد؛ لاستهزائهم برسول الله صلى الله عليه وسلم . وسبب هلاكهم فيما ذكر ابن إسحاق : أن جبريل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يطوفون بالبيت ، فقام وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرّ به الأسود ابن المطلب فرمى فى وجهه بورقة خضراء فعَمِيَ ووجعت عينه ، فجعل يضرب برأسه الجدار . ومرّ به الأسود بن عبد يَغُوث فأشار إلى بطنه فاستسقى بطنُه فمات منه حَبَنًا . ( يقال : حَبِنَ ( بالكسر ) حَبَنًا وحُبِن للفعول عظم بطنه بالماء الأصفر ، فهو أحبن ، والمرأة حبناء؛ قاله فى الصحاح ) . ومرّ به الوليد بن المغيرة فأشار إلى أثر جرح بأسفل كعب رجله ، وكان أصابه قبل ذلك بسنين ، وهو يَجُرّ سَبَلَه[2] ، وذلك أنه مرّ برجل من خزاعة يَرِيش نَبْلًا له فتعلق سهم من نبله بإزاره فخدَش فى رجله ذلك الخدش وليس بشىء ، فانتقض به فقتله . ومرّ به العاص بن وائل فأشار إلى أَخْمَص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرَبَض به على شِبْرِقة[3] فدخلت فى أَخْمَص رجله شوكةٌ فقتلته . ومرّ به الحارث بن الطُّلاطِلة ، فأشار إلى رأسه

---

(١) آية ٥ سورة التوبة . (٢) السبل ( بالتحريك ) : الثياب المسبلة؛ يفعل ذلك كبرا واختيالا .

(٣) الشبرق : نبت حجازى يؤكل ، وله شوك .

فامتخط قيحا(١) فقتله . وقد ذُكر في سبب موتهم اختلاف قريب من هذا . وقيل : إنهم المراد بقوله تعالى : « فخرّ عليهم السّقفُ من فوقِهم »(٢) . شبّه ما أصابهم في موتهم بالسقف الواقع عليهم؛ على ما يأتى .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

هذه صفة المستهزئين . وقيل : هو ابتداء وخبره « فسوف يعلمون » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ ﴾ أى قلبك ؛ لأن الصدر محل القلب . ﴿ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ أى بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك، وتناله وينال أصحابك من أعدائك .

قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ ﴾ أى فافزع إلى الصلاة، فهى غاية التسبيح ونهاية التقديس؛ وذلك تفسيرٌ لقوله : ﴿ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ ولا خفاء أن غاية القرب فى الصلاة حال السجود، كما قال عليه السلام : " أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأخلصوا الدعاء " . ولذلك خصّ السجود بالذكر .

الثانية — قال ابن العربى : ظن بعض الناس أن المراد بالأمر هنا السجود نفسه، فرأى هذا الموضع محل سجود فى القرآن، وقد شاهدت الإمام بمحراب زكريا من البيت المقدس طهره الله، يسجد فى هذا الموضع وسجدت معه فيها، ولم يره جماهير العلماء .

قلت : قد ذكر أبو بكر النقاش أن ها هنا سجدةً عند أبى حذيفة ويَمَان بن رِئاب، ورأى أنها واجبة .

---

(١) المخط : السيلان والخروج . (٢) آية ٢٦ سورة النحل .

قوله تعـالى : وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

فيه مسألة واحدة ـــ وهو أن اليقين الموت . أمره بعبادته إذ قصّر عبادُه فى خدمته ، وأن ذلك يجب عليـه . فإن قيل : فمـا فائدة قوله « حتى يأتيـك اليقين » وكان قـوله : « واعبـد ربك » كافيـا فى الأمر بالعبادة . قيل له : الفائدة فى هذا أنه لو قال : « واعبد ربك » مطلقا ثم عبده مرة واحدة كان مطيعا ؛ وإذا قال « حتى يأتيك اليقين » كان معناه لا تفارق هذا حتى تموت . فإن قيل : كيف قال سبحانه « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ولم يقـل أبدا؛ فالجواب أن اليقين أبلغ من قوله : أبدا؛ لاحتمال لفظ الأبد للحظة الواحدة ولجميع الأبد . وقد تقدّم هـذا المعنى[1] . والمـراد استمرار العبادة مدّة حياته ، كما قال العبـد الصالح : وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حَيًّـا . ويترتّب على هـذا أن الرجل إذا قال لامرأته : أنت طالق أبدا، وقال : نويت يوما أو شهرا كانت عليه الرجعة . ولو قال : طلقتها حياتَها لم يراجعها . والدليل على أن اليقين الموتُ حديثُ أمّ العـلاء الأنصارية ، وكانت من المبايعـات، وفيه : فقال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "أما عثمان ـــ أعنى عثمان بن مَظْعُون ـــ فقد جاءه اليقين وإنى لأرجو له الخير والله ما أدرى وأنا رسول الله ما يفعل به" وذكر الحديث[2] . انفرد بإخراجه البخارىّ رحمه الله! وكان عمر بن عبد العزيز يقول : ما رأيت يقينا أشـبه بالشك من يقين الناس بالموت ثم لا يستعدون له ؛ يعنى كأنهم فيـه شاكون . وقد قيـل : إن اليقين هنا الحق الذى لا ريب فيه من نصرك على أعدائك؛ قاله ابن شجرة؛ والأول أصح ، وهو قول مجاهـد وقتادة والحسن . والله أعلم . وقـد روى جُبير بن نُفَير عن أبى مسـلم الخَوْلانِىّ أنه سمعه يقول إن النبىّ صلى الله عليـه وسلم قال : "ما أوحى إلىّ أن أجمع المـال وأكون من التاجرين ولكن أوحى إلىّ أن سبّح بحمـد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٣ طبعة ثانية . (٢) راجع صحيح البخارى جـ ٣ ص ١٥١ طبعة بولاق .

بسم الله الرحمن الرحيم

# تفسير سورة النحل

وهى مكية كلّها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وتسمّى سورة النِّعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده . وقيل : هى مكية غيرَ قوله تعالى : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ »[1] الآية؛ نزلت بالمدينة فى شأن التمثيل بحمزة وقتلى أُحُد . وغيرَ قوله تعالى: « وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ »[2] . وغيرَ قوله : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا »[3] الآية . وأما قوله : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِى اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا »[4] فمكىّ، فى شأن هجرة الحبشة . وقال ابن عباس : هى مكية إلا ثلاثَ آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة، وهى قوله : « وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا — إلى قوله — بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[5] .

قوله تعالى : أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾

قوله تعالى : ﴿ أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ قيل : « أَتَى » بمعنى يأتى ؛ فهو كقولك : إن أكرمتنى أكرمتك . وقد تقدّم أن أخبار الله تعالى فى الماضى والمستقبل سواء؛ لأنه آتٍ لا محالة، كقوله : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ »[6] . و « أمرُ اللهِ » عقابه لمن أقام على الشرك وتكذيب رسوله . قال الحسن وابن جُرَيج والضحاك : إنه ماجاء به القرآن من فرائضه وأحكامه . وفيه بعد؛ لأنه لم يُنقل أن أحدا من الصحابة استعجل فرائض الله من قبل أن تفرض عليهم ، وأما مستعجلو العذاب والعقاب فذلك منقول عن كثير من كفار قريش

(١) آية ١٢٦ (٢) آية ١٢٧ (٣) آية ١١٠ (٤) آية ٤١ (٥) آية ٩٥ وما بعدها .
(٦) آية ٤٤ سورة الأعراف .

وغيرهم ، حتى قال النّضر بن الحارث : « اللّهُمّ إن كان هــذا هو الحقّ مِن عِندِك » الآية ، فٱستعجلَ العذاب .

قلت : قد يستدل الضحاك بقول عمر رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث : فى مقام إبراهيم ، وفى الحجاب ، وفى أسارى بدر ؛ خرّجه مسلم والبخارى . وقد تقدم فى سورة البقرة (١) . وقال الزجاج : هو ماوعدهم به من المجازاة على كفرهم ، وهو كقوله : « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ (٢) » . وقيل : هو يوم القيامة أو ما يدل على قربها من أشراطها . قال ابن عباس : لمــا نزلت « ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنْشَقَّ ٱلْقَمَرُ (٣) » قال الكفار : إن هذا يزعم أن القيامة قد قَرُبت ، فأمسِكوا عن بعض ما كنتم تعملون ، فأمسكوا وانتظروا فلم يروا شيئا ، فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ (٤) » الآية . فأشفقوا وانتظروا قرب الساعة ، فامتدت الأيام فقالوا : ما نرى شيئا ! فنزلت « أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ » فوثب رســول الله صــلى الله عليه وســلم والمسلمون وخافوا ؛ فنزلت « فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » فاطمأنوا ، فقال النبيّ صــلى الله عليه وسلم : " بعثت أنا والساعة كهاتين " وأشار بأصبعيه : السبابة والتى تليها . يقول : أن كادت لتسبقنى فسبقتها . وقال ابن عباس : كان بعث النبيّ صــلى الله عليه وسلم من أشراط الساعة ، وأن جبريل لمــا مرّ بأهل السموات مبعوثا إلى محمد صلى الله عليه وســلم قالوا الله أكبر ، قد قامت الساعة .

قوله تعــالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى تنزيها له عمــا يصفونه به من أنه لا يقدر على قيام الساعة ، وذلك أنهم يقولون : لا يقدر أحد على بعث الأموات ، فوصفوه بالعجز الذى لا يوصف به إلا المخلوق ، وذلك شرك . وقيل : « عَمَّـا يُشْرِكُونَ » أى عن إشراكهم . وقيل : « ما » بمعنى الذى ، أى ارتفع عن الذين أشركوا به .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١١٢ طبعة ثانية . (٢) آية ٤٠ سورة هود . (٣) أوّل سورة القمر .
(٤) أوّل سورة الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ (٢)

قرأ المفضّل عن عاصم « تَنَزَّلُ الملائكةُ » والأصل تتنزل، فالفعل مسند إلى الملائكة. وقرأ الكسائى عن أبى بكر عن عاصم باختلاف عنه والأعمش « تُنَزَّلُ الملائكةُ » غير مسمى الفاعل . وقرأ الجُعْفى عن أبى بكر عن عاصم « نُنَزِّلُ الملائكةَ » بالنون مسمى الفاعل ، الباقون « يُنَزِّل » بالياء مسمى الفاعل، والضمير فيه لاسم الله عز وجل . وروى عن قتادة « نُنْزِلُ الملائكةَ » بالنون والتخفيف. وقرأ الأعمش «تَنْزِل» بفتح التاء وكسر الزاى، من النزول . « الملائكةُ » رفعاً مثل « تَنَزَّلُ الملائكةُ »[1]. ﴿ بِالرُّوحِ ﴾ أى بالوحى وهو النبوّة ؛ قاله ابن عباس . نظيره « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ »[2] . الربيع بن أنس : بكلام الله وهو القرآن . وقيل : هو بيان الحق الذى يجب اتباعه . وقيل أرواح الخلق ؛ قاله مجاهد، لا ينزل ملك إلا ومعه روح. وكذا روى عن ابن عباس أن الروح خلق من خلق الله عز وجل كصور ابن آدم، لا ينزل من السماء مَلَك إلا ومعه واحد منهم . وقيل بالرحمة ؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل بالهداية؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ، وهو معنى قول الزجاج . قال الزجاج : الروح ما كان فيه من أمر الله حياةٌ بالإرشاد إلى أمره . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . والباء فى قوله : « بالروح » بمعنى مع، كقولك : خرج بثيابه ، أى مع ثيابه . ﴿ مِنْ أَمْرِهِ ﴾ أى بأمره . ﴿ عَلَى مَنْ يَشَاءُ من عبادِهِ ﴾ أى على الذين اختارهم الله للنبوة . وهذا ردّ لقولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[3] . ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ تحذير من عبادة الأوثان ، ولذلك جاء الإنذار؛ لأن أصله التحذير مما يخاف منه . ودلّ على ذلك قوله : « فاتقون ». و «أنْ» فى موضع نصب بنزع الخافض ، أى بأن أنذروا أهل الكفر بأنه لا إله إلا الله ، ف « أن » فى محل نصب بسقوط الخافض أو بوقوع الإنذار عليه .

(١) آية ٤ سورة القدر . (٢) آية ١٥ سورة غافر . (٣) آية ٣١ سورة الزخرف .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ﴾ أى للزوال والفناء . وقيـل : « بالحق » أى للدلالة على قدرته ، وأن له أن يتعبّد العباد بالطاعة وأن يحيي الخلق بعد الموت . ﴿ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أى من هذه الأصنام التى لا تقدر على خلق شىء .

قوله تعـالى : خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ لمـا ذكر الدليل على توحيده ذكر بعده الإنسان ومناكدته وتعدّى طوره . « والإنسان » اسم للجنس . وروى أن المراد به أُبَىّ بن خلف الجُمَحى ، جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم بعظم رَميم فقال : أترى يحيي الله هذا بعد ما قد رَمّ . وفى هـذا أيضا نزل « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ »(1) أى خلق الإنسان من ماء يخرج من بين الصلب والترائب ، فنقله أطوارا إلى أن ولد ونشأ بحيث يخاصم فى الأمور . فمعنى الكلام التعجيب من الإنسان « وَضَرَبَ لَنَـا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُ »(2) وقوله : ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ ﴾ أى مخاصم ، كالنسيب بمعنى المناسب . أى يخاصم الله عز وجل فى قدرته . و ﴿ مُبِينٌ ﴾ أى ظاهر الخصومة . وقيل : يبيّن عن نفسه الخصومة بالبـاطل . والمبين : هو المفصح عما فى ضميره بمنطقه .

قوله تعـالى : وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ﴾ لمـا ذكر الإنسان ذكر ما مَنّ به عليه . والأنعام : الإبل والبقر والغنم . وأكثر ما يقال : نعم وأنعام للإبل ، ويقال للمجموع ولا يقال للغنم مفردة . قال حسان :

(1) آية ٧٧ سورة يس . (2) آية ٧٨ سورة يس .

عَفَتْ ذاتُ الأصابع فالجِوَاءُ * إلى عَذْراءَ منزِلُها خَلاءُ [١]

دِيارٌ من بَنِي الحَسْحَاس قَفْرٌ * تُعَفِّيها الروامِسُ والسماء [٢]

وكانت لا يزال بها أنيس * خِلال مُرُوجها نَعَمٌ وشَاءُ

فالنَّعم هنا الإبل خاصّةً . وقال الجوهري : والنَّعم واحد الأنعام وهى المال الراعية ، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل . قال الفَرّاء : هو ذكَر لا يؤنث، يقولون : هذا نَعَم وارد، ويجمع على نُعْمان مثل حَمَل وحُمْلان . والأنعام تذكّر وتؤنث ؛ قال الله تعالى : «مِمّا فِي بُطُونِهِ» [٣] . وفى موضع «مِمّا فى بُطُونِها» [٤] . وانتصب الأنعام عطفا على الإنسان، أو بفعل مقدّر، وهو أوجه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ دِفْءٌ ﴾ الدِّفْء : السَّخانة، وهو ما استُدْفِئ به من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ملابس ولُحُف وقُطُف [٥] . وروى عن ابن عباس : دفؤها نسلها ؛ والله أعلم قال الجوهري فى الصحاح : الدفء نِتاج الإبل وألبانها وما ينتفع به منها ؛ قال الله تعالى : « لكم فِيها دِفْء » . وفى الحديث " لنا من دِفئهم ما سلّموا بالميثاق " . والدفء أيضا : السخونة، تقول منه : دَفِئَ الرجل دَفاءة مثل كَرِه كراهة . وكذلك دَفِئَ دَفًا مثل ظَمِئَ ظمأ . والاسم الدِّفْء ( بالكسر ) وهو الشيء الذى يدفئك، والجمع الأدفاء . تقول : ما عليه دفء ؛ لأنه اسم . ولا تقول : ما عليك دَفاءة ؛ لأنه مصدر . وتقول : اقعد فى دِفء هذا الحائط أى كِنّه . ورجل دفِئ على فَعِلٍ إذا لبس ما يدفئه . وكذلك رجل دفآن وامرأة دفآى . وقد أدفاه الثوب وتدفأ هو بالثوب واستدفأ به، وادّفأ به وهو افتعل ؛ أى لبس ما يدفئه . ودَفُؤت ليلتنا، ويوم دَفِيء على فعيل وليلة دفيئة، وكذلك الثوب والبيت . والمُدْفِئة الإبل الكثيرة ؛ لأن بعضها يدفئ بعضا بأنفاسها، وقد يشدّد . والمُدْفَأة الإبل الكثيرة الأوبار والشحوم؛ عن الأصمعى . وأنشد الشماخ :

وكيف يَضيع صاحبُ مُدْفآتٍ * على أثباجهن من الصَّقيع [٦]

(١) ذات الأصابع والجواء : موضعان بالشام . وعذراء : قرية بغوطة دمشق . (٢) الحسحاس : اسم رجل . والروامس : الرياح التى تثير التراب وتدفن الآثار . (٣) آية ٦٦ من هذه السورة .
(٤) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٥) القطف ( جمع قطيفة ) : كساء له خمل ؛ أى وبر .
(٦) اثباج : جمع ثبج، وهو وسطها . وقيل ظهرها . وقيل : ما بين كاهلها وظهرها .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَنَافِعُ ﴾ قال ابن عباس : المنافع نسل كل دابة . مجاهد : الركوب والحمـل والألبان واللحوم والسمن . ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ أفرد منفعة الأكل بالذكر لأنها معظم المنافع . وقيل : المعنى ومن لحومها تأكلون عند الذبح .

الثالثـــة ــ دلت هــذه الآية على لباس الصوف ، وقد لبسه رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبـله كموسى وغيره . وفى حديث المغيرة : فغسل وجهه وعليه جبة من صوف شامية ضيقة الكمين...الحديث ، خرجه مسلم وغيره . قال ابن العربى : وهو شعار المتقين ولباس الصالحين وشارة الصحابة والتابعين ، واختيار الزهاد والعارفين ، وهو يلبس ليناً وخشنا وجيدا ومُقارِباً (١) ورديئا ، وإليه نسب جماعة من الناس الصوفية ؛ لأنه لباسهم فى الغالب ، فالياء للنسب والهاء للتأنيث . وقد أنشدنى بعض أشياخهم بالبيت المقدس طهره الله :

تشاجر الناس فى الصوفىّ واختلفوا * فيه وظنوه مشتقا من الصوف
ولست أنحَـل هــذا الاسم غيرَ فتًى * صافَى فصوفى حــتى سُمِّىَ الصوفى

قوله تعـالى : وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

الجمـال ما يتجمّل به ويتزين . والجمـال : الحسن . وقد جَمُـل الرجل ( بالضم ) جمـالا فهو جميل ، والمرأة جميلة ، وجملاء أيضا ؛ عن الكسائى . وأنشد :

فهى جَمْـــلاء كبدرٍ طالع * بذّت الخـــلق جميعا بالجمال

وقول أبى ذؤيب :

* جمالَكَ أيّها القلبُ القريح (٢) *

يريد : الزم تجمّلك وحياءك ولا تجزع جزعا قبيحا . قال علماؤنا : فالجمـال يكون فى الصورة وتركيب الخلقــة ، ويكون فى الأخلاق الباطنة ، ويكون فى الأفعال . فأما جمال الخلقــة فهو

---

(١) شىء مقارِب (بكسر الراء) : وسط بين الجيد والردىء . (٢) هذا صدر البيت ، وعجزه كما فى اللسان :

* ستلقى من تحب فتستريح *

أمر يدركه البصر ويلقيــه إلى القلب متلائمـا ، فتتعلق به النفس من غير معرفة بوجه ذلك ولا نسبته لأحد من البشر. وأما جمال الأخلاق فكونها على الصفات المحمودة من العلم والحكمة والعــدل والعفة ، وكظم الغيظ وإرادة الخير لكل أحد . وأما جمــال الأفعال فهو وجودها ملائمة لمصالح الخلق وقاضية بجلب المنافع فيهم وصرف الشر عنهم . وجمال الأنعام والدواب من جمــال الخلقة ، وهو مرئىّ بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالهـا كثرتُها وقول الناس إذا رأوها هذه نعم فلان؛ قاله السدّى . ولأنها إذا راحت توفّر حسنها وعظم شأنها وتعلقت القلوب بها؛ لأنها إذ ذاك أعظم ما تكون أسنمة وضروعا؛ قاله قتادة. ولهذا المعنى قدّم الرّواح على السراح لتكامل درّها وسرور النفس بها إذ ذاك . والله أعلم . وروى أشهب عن مالك قال : يقــول الله عز وجل « ولكم فيهـا جَمَال حِين تُرِيحُونَ وحِين تَسْرَحون » وذلك في المواشي حين تروح إلى المرعى وتسرح عليه . والرّواح رجوعها بالعَشِىّ من المرعى، والسَّراح بالغداة؛ تقول : سَرَحتُ الإبل أسرحها سَرْحًا وسروحا إذا غدوت بها إلى المرعى فخليتها ، وسرحت هى . المتعدّى واللازم واحد .

قوله تعــالى : ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ﴾ الأثقال أثقال الناس من متاع وطعام وغيره، وهو ما يثقل الإنسانَ حمله . وقيل : المراد أبدانهم؛ يدل على ذلك قوله تعالى : « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا »(١) . والبــلد مكة، فى قول عكرمة . وقيل : هو محمول على العموم فى كل بلد مسلكه على الظهر . وشِقّ الأنفس : مشقتها وغاية جهدها . وقراءة العامة بكسر الشــين . قال الجوهرى : والشّق المشقة؛ ومنه قوله تعالى : « لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأَنْفُسِ »

(١) آية ٢ سورة الزلزلة .

وهذا قد يفتح، حكاه أبو عبيدة . قال المهدوىّ : وكسر الشين وفتحها فى « شِق » متقاربان، وهما بمعنى المشقة ، وهو من الشق فى العصا ونحوها ؛ لأنه ينال منها كالمشقة من الإنسان . وقال الثعلبى : وقرأ أبو جعفر « إلا بِشَـقّ الأنفسِ » وهمـا لغتان ، مثل رِقّ ورَق وجِص وجَص ورِطل ورَطل . وينشد قول الشاعر[1] بكسر الشين وفتحها :

وذى إبل يَسْعَى ويحسِبُها له * أخِى نَصَب من شِقّها ودُؤوبِ

ويجوز أن يكون بمعنى المصدر، من شَقَقت عليه أشُقّ شَقًّا . والشِّق أيضا بالكسر النصف، يقال : أخذت شِقّ الشاة وشِقّة الشاة . وقد يكون المراد من الآية هذا المعنى؛ أى لم تكونوا بالغيه إلا بنقص من القوّة وذهاب شِق منها ؛ أى لم تكونوا تبلغوه إلا بنصف قوى أنفسكم وذهاب النصف الآخر . والشِّق أيضا الناحية من الجبل . وفى حديث أم زَرْع : وجدنى فى أهل غُنَيمة بِشَق . قال أبو عبيـد : هو اسم موضع . والشق أيضا : الشقيق ، يقال : هو أخى وشِق نفسى . وشِقّ اسم كاهن من كهان العرب . والشق أيضا : الجانب؛ ومنه قول آمرئ القيس :

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له * بشِـــقّ وتحتِى شِـــقُّها لم يُحوَّلِ

فهو مشترك .

الثانيـــة — مَنّ الله سبحانه بالأنعام عموما ، وخَصّ الإبل هنا بالذكر فى حمل الأثقال على سائر الأنعام ؛ فإن الغنم للسَّرْح والذبح ، والبقر للحرث ، والإبل للحمل . وفى صحيح مسـلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليهـا التفتت إليه البقرة فقالت إنى لم أخلق لهـذا ولكنى إنمـا خلقت للحرث فقال الناس سبحان الله تعجبا وفزعا أبقرةٌ تَكَلَّمُ " ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وإنى أومن به وأبو بكر وعمر ". فدل هذا الحديث على أن البقر لا يحمل عليها ولا تركب ، وإنمـا هى للحرث وللأكل والنسل والرِّسْل[2] .

---

(١) هو النمر بن تولب ، كما فى اللسان مادة شقق . (٢) الرسل ( بالكسر ) : اللبن .

الثالثـــة — فى هذه الآية دليل على جواز السفر بالدواب وحمل الأثقال عليها ، ولكن على قدر ما تحتمله من غير إسراف فى الحمل مع الرفق فى السير . وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرفق بها والإراحة لها ومراعاة التفقد لعلفها وسقيها . وروى مسلم من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا سافرتم فى الخِصْب فأعطُوا الإبل حظها من الأرض وإذا سافرتم فى السَّنَة فبادروا بها نِقْيها[(١)] " رواه مالك فى الموطأ عن أبى عبيد عن خالد بن مَعْدان . وروى معاوية بن قُرّة قال : كان لأبى الدّرداء جمل يقال له دمون، فكان يقول : يادمون ، لا تخاصمنى عند ربك . فالدواب عُجْم لا تقدر أن تحتال لنفسها ما تحتاج إليه ، ولا تقدر أن تُفصح بحوائجها ، فمن ارتفق بمرافقها ثم ضيّعها من حوائجها فقد ضيع الشكر وتعرّض للخصومة بين يدى الله تعالى . وروى مطر بن محمد قال : حدّثنا أبو داود قال حدّثنا ابن خالد قال حدّثنا المسيّب بن آدم قال . رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه ضرب جمّالا وقال : تحمل على بعيرك ما لا يطيق .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

فيـــه ثمـان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱلْخَيْلَ ﴾ بالنصب معطوف، أى وخلق الخيل . وقرأ ٱبن أبى عَبْلة « والخيلُ والبِغالُ والحميرُ » بالرفع فيهـا كلها . وسُمّيت الخيل خيلا لاختيالها فى المِشْية . وواحد الخيل خائل، كضائن واحد ضَيْن . وقيل لا واحد له . وقد تقدم هـذا فى « آل عمران[(٢)] »، وذكرنا الأحاديث هناك . ولمـا أفرد سبحانه الخيل والبغال والحمير بالذكر

(١) قوله « فى السنة » أى فى القحط وانعدام نبات الأرض من يبسها . والنقى ( بكسر النون وسكون القاف ) هو المخ . ومعناه : أسرعوا فى السير بالإبل لتصلوا إلى المقصد وفيها بقية من قوتها ؛ اذ ليس فى الأرض ما يقويها على السير .

(٢) راجع جـ ٤ ص ٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

دل على أنها لم تدخل تحت لفظ الأنعام . وقيل : دخلت ولكن أفردها بالذكر لمــا يتعلق بهــا من الركوب؛ فإنه يكثر فى الخيل والبغال والحمير .

الثانيـــة ــ قال العلماء : ملّكنا الله تعالى الأنعام والدواب وذللها لنا، وأباح لنا تسخيرها والانتفاع بها رحمــة منه تعــالى لنا ، وما ملكه الإنسان وجاز له تسخيره من الحيوان فكراؤه له جائز بإجماع أهل العلم، لا ٱختلاف بينهم فى ذلك . وحكم كراء الرواحل والدواب مذكور فى كتب الفقه .

الثالثـــة ــ لا خلاف بين العلماء فى اكتراء الدواب والرواحل للحمل عليها والسفر بها؛ لقوله تعالى : « وتَحْمِلُ أثقالكم » الآية . وأجازوا أن يُكرِى الرجل الدابة والراحلة إلى مدينة بعينها وإن لم يُسَمّ أين ينزل منهــا ، وكم من مَنْهل[1] ينزل فيــه ، وكيف صفة ســيره، وكم ينزل فى طريقه، وٱجتزوا بالمتعارف بين الناس فى ذلك . قال علماؤنا : والكراء يجرى مجرى البيوع فيما يحل منــه ويحرم . قال ابن القاسم فيمن اكترى دابة إلى موضع كذا بثوب مَرْوِىّ ولم يصف رُقعته وذرعه : لم يجز؛ لأن مالكا لا يجيز هــذا فى البيع، ولا يجيز فى ثمن الكراء إلا ما يجوز فى ثمن البيع .

قلت : ولا يُختلف فى هذا إن شاء الله؛ لأن ذلك إجارة . قال ابن المنذر : وأجمع كل مَن يُحفظ عنه من أهل العــلم على أن من اكترى دابة ليحمل عليهــا عشرة أقفزة قمح فحمل عليها ما ٱشترط فتلفت أن لا شىء عليه . وهكذا إن حمل عليها عشرة أقفزة شعير . واختلفوا فيمن اكترى دابة ليحمل عليهــا عشرة أقفزة فحمل عليها أحد عشر قفيزا ، فكان الشافعىّ وأبو ثَوْر يقولان : هو ضامن لقيمة الدابة وعليــه الكراء . وقال ابن أبى لَيْلَى : عليه قيمتها ولا أجر عليــه . وفيه قول ثالث ــ وهو أن عليــه الكراء وعليه جزء من أجر وجزء من قيمة الدابة بقدر ما زاد من الحمل ؛ وهذا قول النعمان ويعقوب ومحمد . وقال ابن القاسم صاحب مالك : لا ضمان عليــه فى قول مالك إذا كان القفيز الزائد لا يَفْدح الدابة ، ويُعــلم أن مثله

(١) المنهل : المشرب، ثم كثر ذلك حتى سميت منازل السُّفّار على المياه مناهل .

لا تعطَب فيه الدابة ، ولرَبّ الدابة أجر القفيز الزائد مع الكراء الأول؛ لأن عطبها ليس من أجل الزيادة . وذلك بخلاف مجاوزة المسافة ؛ لأن مجاوزة المسافة تَعَدٍّ كله فيضمن إذا هلكت في قليله وكثيره . والزيادة على الحمل المشترط اجتمع فيه إذنٌ وتعدّ ، فإذا كانت الزيادة لا تعطَب في مثلها عُلم أن هلاكها مما أُذن له فيه .

الرابعــة — واختلف أهل العلم في الرجل يكترى الدابة بأجر معلوم إلى موضع مسمًّى ، فيتعدّى فيتجاوز ذلك المكان ثم يرجع إلى المكان المأذون له في المصير إليه . فقالت طائفة : إذا جاوز ذلك المكان ضمن وليس عليه في التعدّى كراء؛ هكذا قال الثورى . وقال أبو حنيفة : الأجر له فيما سمّى، ولا أجر له فيما لم يسم؛ لأنه خالف فهو ضامن؛ وبه قال يعقوب . وقال الشافعيّ : عليه الكراء الذى سمّى، وكراء المثل فيما جاوز ذلك ، ولو عطِبت لزمه قيمتها . ونحوه قال الفقهاء السبعة، مشيخةُ أهل المدينة قالوا : إذا بلغ المسافة ثم زاد فعليه كراء الزيادة إن سلمت وإن هلكت ضمن . وقال أحمد وإسحاق وأبو ثور : عليه الكراء والضمان . قال ابن المنذر : وبه نقول . وقال ابن القاسم : إذا بلغ المكترى الغاية التى اكترى إليها ثم زاد ميلا ونحوَه أو أميالا أو زيادة كثيرة فعطِبت الدابة ، فلربّها كراؤه الأول والخيار في أخذه كراء الزائد بالغا ما بلغ، أو قيمة الدابة يوم التعدّى . ابن الموّاز : وقد روى أنه ضامن ولو زاد خُطوة . وقال ابن القاسم عن مالك في زيادة الميل ونحوه : وأما مايعدل الناس إليه في المرحلة فلا يضمن . وقال ابن حبيب عن ابن الماجِشُون وأَصْبَغ : إذا كانت الزيادة يسيرة أو جاوز الأمد الذى تكاراها إليه بيسير، ثم رجع بها سالمة إلى موضع تكاراها إليه فماتت، أو ماتت في الطريق الى الموضع الذى تكاراها إليه ، فليس له إلا كراء الزيادة، كردّه لما تسلّف من الوديعة . ولو زاد كثيرا مما فيه مقام الأيام الكثيرة التى يتغيّر في مثلها سوقها فهو ضامن ، كما لو ماتت في مجاوزة الأمد أو المسافة؛ لأنه إذا كانت زيادة يسيرة مما يعلم أن ذلك مما لم يُعِن على قتلها فهلاكها بعد ردّها إلى الموضع المأذون له فيه كهلاك ما تسلّف من الوديعة بعد ردّه لا محالة . وإن كانت الزيادة كثيرة فتلك الزيادة قد أعانت على قتلها .

الخامســـة — قال ابن القاسم وابن وهب قال مالك قال الله تعالى : «والخيلَ والبِغالَ والحميرَ لِتركبوها وزِينةً » بجعلها للركوب والزينة ولم يجعلها للأكل؛ ونحوه عن أشهب . ولهذا قال أصحابنا : لا يجوز أكل لحوم الخيل والبغال والحمير؛ لأن الله تعالى لمـا نص على الركوب والزينة دل على أن ما عداه بخلافه . وقال في الأنعام : « ومنها تأكلون » مع ما امتن الله منها من الدفء والمنافع ، فأباح لنا أكلها بالذكاة المشروعة فيها . وبهـذه الآية آحتج ابن عباس والحَكَم بن عُيَيْنَـة ، قال الحَكَم : لحوم الخيل حرام في كتاب الله ، وقرأ هذه الآية والتي قبلها وقال : هذه للأكل وهذه للركوب . وسـئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال: هذه للركوب ، وقرأ الآية التي قبلها « والأنعام خلقها لكم فيها دِفْءٌ ومنافِـعُ » ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما والأوزاعيّ ومجاهد وأبو عبيد وغيرهم ، وآحتجوا بما خرجه أبو داود والنَّسائي والدَّارَقُطْنِيّ وغيرهم عن صالح بن يحيى بن المِقْدام ابن مَعْديكَرِب عن أبيه عن جده عن خالد بن الوليد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى يوم خَيْبَرَ عن أكل لحوم الخيل والبغال والحمير، وكلّ ذى ناب من السباع أو مِخْلَب من الطير . لفظ الدَّارَقُطْنِيّ . وعند النَّسائي أيضا عن خالد بن الوليد أنه سمع النبيّ صـلى الله عليه وسلم يقول : " لا يحل أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ". وقال الجمهور من الفقهاء والمحدّثين : هي مباحة . وروى عن أبي حنيفة . وشَذّت طائفة فقالت بالتحريم؛ منهم الحَكَم كما ذكرنا ، وروى عن أبي حنيفة . حكى الثلاث روايات عنه الرُّويانيّ في بحر المذهب على مذهب الشافعيّ .

قلت : الصحيح الذي يدلّ عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل ، وأن الآية والحديث لا حجة فيهما لازمة . أما الآية فلا دليل فيها على تحريم الخيل؛ إذ لو دلّت عليه لدلّت على تحريم لحوم الحُمُر ، والسورة مكية ، وأيّ حاجة كانت إلى تجديد تحـريم لحوم الحُمر عامَ خَيْبَرَ وقد ثبت في الأخبار تحليلُ الخيـل على ما يأتي . وأيضا لمـا ذكر تعالى الأنعام ذكر الأغلب من منافعها وأهم ما فيها ، وهو حمـل الأثقال والأكل ، ولم يذكر الركوب ولا الحرث بها ولا غير ذلك مصرّحا به ، وقد تُركب ويحرث بها؛ قال الله تعالى : « اللّذي جَعل لكم الأنعامَ لِتركبوا

منهـا ومنها تأكلون » [١] . وقال فى الخيـل : « لتركبوها وزينـةً » فذكر أيضا أغلب منافعها والمقصود منها، ولم يذكر حمل الأثقال عليها، وقد تحمل كما هو مشاهد فلذلك لم يذكر الأكل. وقد بيّنه نبيّه عليه السلام الذى جعل إليه بيان ما أنزل عليه على ما يأتى، ولا يلزم من كونهـا خلقت للركوب والزينة ألّا تؤكل، فهذه البقرة قد أنطقها خالقها الذى أنطق كلّ شئ فقالت : إنما خلقت للحرث . فيلزم مَن عَلّل أن الخيـل لا تؤكل لأنهـا خلقت للركوب ألّا تؤكل البقر لأنها خُلقت للحرث . وقد أجمع المسلمون على جواز أكلها، فكذلك الخيل بالسّنّة الثابتة فيها . روى مسلم من حديث جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خَيْبَرَ عن لحوم الحُمُر الأهلية وأذِن فى لحوم الخيـل . وقال النَّسائىّ عن جابر : أطعمنا رسـول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر لحوم الخيل ونهانا عن لحوم الحُمُر . وفى رواية عن جابر قال : كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم . فإن قيل : الرواية عن جابر بأنهـم أكلوها فى خَيْـبَرَ حكايةُ حال وقضيةٌ فى عَيْن ، فيحتمل أن يكونوا ذبحوا لضرورةٍ، ولا يحتج بقضايا الأحوال . قلنا : الرواية عن جابر و إخباره بأنهم كانوا يأكلون لحوم الخيل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيل ذلك الاحتمال، ولئن سلمناه فمعنا حديث أسماء قالت: نَحَرْنا فرسا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة فأكلناه؛ رواه مسلم. وكل تأويل من غير ترجيح فى مقابلة النص فإنما هو دعوى، لا يُلتفت إليه ولا يعرّج عليه . وقد روى الدّارقطنىّ زيادة حسنة ترفع كل تأويل فى حديث أسماء، قالت أسماء : كان لنـا فرس على عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم أرادت أن تموت فذبحناها فأكلناها . فذَبْحُها إنما كان لخوف الموت عليها لا لغير ذلك من الأحوال. و بالله التوفيق . فان قيل: حيوان من ذوات الحوافر فلا يؤكل كالحمـار؟ قلنا : هذا قياس الشبه وقد اختلف أرباب الأصول فى القول به ، ولئن سلمناه فهو منتقض بالخنزير؛ فإنه ذو ظِلْف وقد باين ذوات الأظلاف ، وعلى أن القياس إذا كان فى مقـابلة النص فهو فاسـد الوضع لا التفات إليه . قال الطبرىّ : وفى إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب .

---

(١) آية ٧٩ سورة غافر .

السادســـة ـــ وأما البغال فإنها تلحق بالحمير ، إن قلنا إن الخيل لا تؤكل ؛ فإنها تكون متولّدة من عينين لا يؤكلان . وإن قلنا إن الخيـــل تؤكل، فإنها عين متولدة من مأكول وغير مأكول فغلّب التحريم على ما يلزم فى الأصول . وكذلك ذبح المولود بين كافرين أحدهما من أهـــل الذكاة والآخر ليس من أهلها، لا تكون ذكاة ولا تحـــلّ به الذبيحـــة . وقد مضى فى «الأنعام»[1] الكلام فى تحريم الحُمُر فلا معنى للإعادة . وقد علّل تحريم أكل الحمار بأنه أبدى جوهره الخبيث حيث نزا على ذكر وتلوّط ؛ فسمّى رجسا .

السابعـــة ـــ فى الآية دليل على أن الخيـــل لا زكاة فيهـــا ؛ لأن الله سبحانه منّ علينا بما أباحنا منها وكرمنا به من منافعها، فغير جائز أن يلزم فيها كلفة إلا بدليل . وقد روى مالك عن عبد الله بن دينار عن سليمان بن يَسَار عن عِرَاك بن مالك عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس على المسلم فى عبده ولا فرسه صدقة " . وروى أبو داود عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس فى الخيل والرقيق زكاة إلا زكاة الفطر فى الرقيق " . وبه قال مالك والشافعىّ والأوزاعىّ والليث وأبو يوسف ومحمد . وقال أبو حنيفـــة : إن كانت إناثا كلها أو ذكورا وإناثا ، ففى كل فرس دينـــار إذا كانت سائمة، وإن شاء قوّمها فأخرج عن كل مائتى درهم خمسةَ دراهم . واحتج بأثر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " فى الخيل السائمة فى كل فرس دينـــار " وبقوله صلى الله عليـــه وسلم : " الخيـــل ثلاثة ... " الحـــديث . وفيه : " ولم ينس حقّ الله فى رقابهـــا ولا ظهورها " . والجواب عن الأوّل أنه حديث لم يروه إلا غورك[2] السعدى عن جعفر بن محمد عن أبيـــه عن جابر . قال الدّارَقُطْنِىّ : تفرّد به غورك عن جعفر وهو ضعيف جدا، ومَن دونه ضعفاء . وأما الحديث فالحق المذكور فيه هو الخروج عليهـــا إذا وقع النّفير وتعيّن بها لقتال العدو إذا تعيّن ذلك عليه، ويحمل المنقطعين عليها إذا احتاجوا لذلك، وهذا واجب عليه إذا تعين ذلك، كما يتعيّن عليه أن يطعمهم عند الضرورة ، فهذه حقوق الله فى رقابها . فإن قيل : هـــذا هو

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١٥ وما بعدها . (٢) هو غورك بن الخضرم أبو عبد الله . (عن الدارقطنى) .

الحق الذى فى ظهورها وبقى الحق الذى فى رقابهـا ؛ قيل : قد روى "لا ينسى حـقّ الله فيها" ولا فرق بين قوله : "حق الله فيها" أو "فى رقابها وظهورها" فإن المعنى يرجع إلى شيء واحد ؛ لأن الحق يتعلّق بجملتها . وقد قال جمـاعة من العلماء : إن الحق هنا حُسْن ملكها وتعهّـد شبعها والإحسان إليها وركوبهـا غير مشقوق عليهـا ؛ كما جاء فى الحـديث "لا تتخـذوا ظهورها كراسى" . وإنمـا خص رقابها بالذكر لأن الرقاب والأعناق تستعار كثيرا فى مواضع الحقوق اللازمة والفروض الواجبة؛ ومنه قوله تعالى: «فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ» وكثر عندهم استعمال ذلك واستعارته حتى جعلوه فى الرباع والأموال؛ ألا ترى قول كُثَيِّر :

غَمْـــر(١) الرداء إذا تبسّم ضاحكا * غَلِقتْ لِضَحْكَته رِقابُ المـال

وأيضا فإن الحـيوان الذى تجب فيه الزكاة له نصاب من جنسه ، ولمـا خرجت الخيـل عن ذلك علمنا سقوط الزكاة فيها . وأيضا فإيجابه الزكاة فى إناثها منفردة دون الذكور تناقض منه، وليس فى الحـديث فصل بينهما . ونقيس الإناث على الذكور فى نفى الصـدقة بأنه حيوان مُقْتَنًى لنسله لالدّره، ولا تجب الزكاة فى ذكوره فلم تجب فى إناثه كالبغال والحمير . وقد روى عنـه أنه لا زكاة فى إناثها وإن انفردت كذكورها منفردة، وهـذا الذى عليه الجمهور . قال ابن عبد البر : الخبر فى صدقة الخيل عن عمر صحيح من حديث الزُّهْرِىّ وغيره . وقد روى من حديث مالك ، رواه عنه جُوَيرِية عن الزهرى أن السائب بن يزيد قال : لقد رأيت أبى يقوّم الخيل ثم يدفع صدقتها إلى عمر . وهـذا حجة لأبى حنيفة وشيخه حمـاد بن أبى سليمان، لا أعلم أحدا من فقهاء الأمصار أوجب الزكاة فى الخيل غيرهما . تفرّد به جُوَيرِية عن مالك وهو ثقـــة .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ وَزِينَةً ﴾ منصوب بإضمار فعل، المعنى : وجعلها زينة . وقيل : هو مفعول من أجله . والزينة : ما يُتزيّن به، وهذا الجمـال والتزيين وإن كان من متاع الدنيـا فقد أذن الله سـبحانه لعباده فيه؛ قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "الإبل عِزٌّ

(١) الغمر : المـاء الكثير . ورجل غمر الرداء، وغمر الخلق، أى واسع الخلق . كثير المعروف سخىّ .

لأهلها والغنم بركة والخيل فى نواصيها الخير". خرّجه البَرْقانى وابن ماجه فى السنن . وقد تقدّم فى الأنعام . وإنما جمع النبيّ صلى الله عليه وسلم العز فى الإبل؛ لأن فيها اللباس والأكل واللبن والحمل والغزْو وإن نقصها الكرّ والفرّ . وجعل البركة فى الغنم لما فيها من اللباس والطعام والشراب وكثرة الأولاد ؛ فإنها تلد فى العام ثلاث مرات إلى ما يتبعها من السكينة، وتحمل صاحبها عليه من خفض الجناح ولين الجانب؛ بخلاف الفدّادين[1] أهل الوَبَر . وقرن النبيّ صلى الله عليه وسلم الخير بنواصى الخيل بقية الدهر لما فيها من الغنيمة المستفادة للكسب والمعاش، وما يوصل إليه من قهر الأعداء وغَلَب الكفار وإعلاء كلمة الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ قال الجمهور : من الخلق . وقيل : من أنواع الحشرات والهوام فى أسافل الأرض والبر والبحر مما لم يره البشر ولم يسمعوا به . وقيل : « ويخلق ما لا تعلمون » مما أعد الله فى الجنة لأهلها وفى النار لأهلها، مما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولا خطر على قلب بشر . وقال قَتادة والسُّدّى : هو خلق السوس فى الثياب والدود فى الفواكه . ابن عباس : عين تحت العرش؛ حكاه الماوَرْدِىّ . الثعلبى : وقال ابن عباس عن يمين العرش نهر من النور مثل السموات السبع والأرضين السبع والبحار السبع سبعين مرّة، يدخله جبريل كلّ سَحَر فيغتسل فيزداد نورا إلى نوره وجمالا إلى جماله وعِظَما إلى عظمه، ثم ينتفض فيُخرج الله من كل ريشة سبعين ألف قطرة، ويخرج من كل قطرة سبعة آلاف مَلَك، يدخل منهم كل يوم سبعون ألف ملك إلى البيت المعمور، وفى الكعبة سبعون ألفا لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . وقول خامس — وهو ما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها أرض بيضاء، مسيرة الشمس ثلاثين يوما مشحونة خلقا لا يعلمون أن الله تعالى يعصى فى الأرض، قالوا : يارسول الله، من ولد آدم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق آدم". قالوا : يارسول الله، فأين إبليس منهم؟ قال : "لا يعلمون أن الله خلق إبليس" — ثم تلا "ويخلق ما لا تعلمون" ذكره الماوردى .

---

(١) الفدّادون : أصحاب الإبل الكثيرة الذين يملك أحدهم المائتين من الإبل إلى الألف .

قلت : ومن هذا المعنى ما ذكر البيهق عن الشعبي قال : إن لله عبادا من وراء الأندلس كما بيننا وبين الأندلس ، ما يرون أن الله عصاه مخلوق، رَضْراضهم الدُّر[(١)] والياقوت وجبالهم الذهب والفضة، لا يحرثون ولا يزرعون ولا يعملون عملا ، لهم شجر على أبوابهم لها ثمر هى طعامهم وشجر لها أوراق عراض هى لباسهم ؛ ذكره فى بدء الخلق من ( كتاب الأسماء والصفات ) . وخرج من حديث موسى بن عقبة عن محمد بن المُنْكَدِر عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أذن لى أن أحدّث عن مَلَك من ملائكة الله من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام" .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ﴾ أى على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان . والسبيل : الإسلام، أى على الله بيانه بالرسل والحجج والبراهين . وقصد السبيل : استعانة الطريق، يقال : طريق قاصد أى يؤدّى إلى المطلوب . ﴿ ومِنْهَا جَائِرٌ ﴾ أى ومن السبيل جائر، أى عادل عن الحق فلا يهتدى به، ومنه قول امرئ القيس :

ومن الطريقة جائر وهُـدًى * قصد السبيل ومنه ذو دخل

وقال طَرَفة :

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سَفِين آبن يامِنٍ * يَجُور بها الملّاح طوْرًا ويهتدى

العَدَوْلِيّة سفينة منسوبة إلى عَدَوْلَى قرية بالبحرين . والعَدَوْلِيّ : الملّاح، قاله فى الصحاح. وفى التنزيل « وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ » وقد تقدّم[(٢)] . وقيل : المعنى ومنهم جائر عن سبيل الحق، أى عادل عنه فلا يهتدى إليه . وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أهل الأهواء المختلفة ؛ قاله ابن عباس . الثانى — ملل الكفر من اليهودية والمجوسية

(١) الرضراض : ما دق من الحصى .	(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٧ طبعة أولى أو ثانية .

والنصرانية . وفى مصحف عبد الله « ومنكم جائر » وكذا قرأ علىّ « ومنكم » بالكاف . وقيل: المعنى وعنها جائر؛ أى عن السبيل . فـ « مِن » بمعنى عن . وقال ابن عباس : أى من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يضله ثقل عليه الإيمان وفروعه . وقيل: معنى « قَصْد السبيل » مسيركم ورجوعكم . والسبيل واحدة بمعنى الجمع، ولذلك أنث الكناية فقال : « ومنها » والسبيل مؤنثة فى لغة أهل الحجاز .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَـدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ بيّن أن المشيئة لله تعـالى، وهو يصحح ما ذهب إليه ابن عباس فى تأويل الآية ، ويردّ على القَدَرية ومن وافقها كما تقدّم .

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

الشراب ما يُشرب ، والشجر معروف . أى ينبت من الأمطار أشجارا وعروشا ونباتا . و﴿ تُسِيمُونَ ﴾ ترعون إبلكم ؛ يقال : سامت السائمة تسوم سَوْمًا أى رعت ، فهى سائمة . والسَّـوَام والسائم بمعنًى ، وهو المـال الراعى . وجمع السائم والسائمة سـوائم . وأسمتها أنا أى أخرجتها إلى الرَّعْيِ، فأنا مُسِيم وهى مُسامة وسائمة . قال :

* أَوْلَى لك آبنَ مُسِيمة الأجمالِ (١) *

وأصل السَّـوْم الإبعاد فى المرعى . وقال الزجاج : أخِذ من السُّومة وهى العلامة؛ أى أنهـا تؤثر فى الأرض علامات برعيها ، أو لأنها تُعلَّم للإرسال فى المرعى .

قلت : والخيـل المسومة تكون المرعيّـة . وتكون المُعَلَّمة . وقوله : « مُسَوِّمين » قال الأخفش تكون مُعَلَّمين وتكون مُرْسَلين ؛ من قولك : سـوّم فيها الخيل أى أرسلها ، ومنه السائمة ، وإنمـا جاء بالياء والنون لأن الخيل سُوِّمت وعليها ركبانها .

---

(١) هذا عجز بيت ، وصدره كما فى تفسير الطبرى : * مثل ابن بزعة أو كآخر مثله *

قوله تعـالى : يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

قوله تعـالى: ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم « نُنبِت » بالنون على التعظيم . العامة بالياء على معنى ينبت الله لكم ؛ يقال : نبتت الأرض وأنبتت بمعنًى، ونبت البقل وأنبت بمعنى . وأنشد الفراء :

رأيت ذوى الحاجاتِ حول بيوتهم * قطينا بهـا حتى إذا أنبت البقـل

أى نبت . وأنبته الله فهو منبوت، على غير قياس . وأنبت الغلام نبتت عانته . ونَبّتَ الشجرَ غرسه؛ يقال : نَبِّت أجلَك بين عينيك . ونَبّتُّ الصبيّ تنبيتا رَبّيته. والمَنْبِت موضع النبات؛ يقال : ما أحسنَ نابِتةَ بنى فلان ؛ أى ما يَنْبُت عليه أموالهم وأولادهم . وَنَبَتَتْ لهم نابتةٌ إذا نشأ لهم نشء صغار . وإن بنى فلان لنابتةُ شر . والنوابت من الأحداث الأغمار . والنبيت حىّ من اليمن . واليَنبوت شجـر؛ كلّه عن الجوهرىّ . ﴿ وَالزَّيْتُونَ ﴾ جمع زيتونة . ويقال للشجرة نفسها : زيتونة، وللثمرة زيتونة . وقد مضى فى سورة « الأنعام »[(1)] حكم زكاة هذه الثمار فلا معنى للإعادة. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الإنزال والإنبات. ﴿ لَآيَةً ﴾ أى دلالة. ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

قوله تعـالى : وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى للسكون والأعمال؛ كما قال : « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ »[(2)] . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ أى مُذَلّلات لمعـرفة الأوقات ونضج الثمـار والزرع والاهتداء بالنجوم فى الظلمات . وقرأ ابن عامر وأهـل الشام « والشمسُ والقمرُ والنجومُ مسخراتٌ » بالرفع

(١) راجع جـ ٧ ص ٩٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧٣ سورة القصص .

على الابتداء والخبر . الباقون بالنصب عطفا على ما قبـله . وقرأ حفص عن عاصم برفع « والنجومُ » ، « مسخراتٌ » خـبره . وقرئ « والشمسَ والقمرَ والنجومَ » بالنصب . « مسخراتٌ » بالرفع، وهو خبر ابتداء محذوف أى هى مسخرات، وهى فى قراءة من نصبها حال مؤكدة؛ كقوله : « وَهُـوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا »(1) . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى عن الله ما نبّههم عليه ووفّقهم له .

قوله تعـالى : وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمَا ذَرَأَ ﴾ أى وسخّر ما ذرأ فى الأرض لكم . « ذَرَأَ » أى خلق؛ ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذَرْءًا خلقهم، فهو ذارئ ؛ ومنـه الذُّرِّية وهى نسـل الثقلين، إلا أن العرب تركت همزها، والجمع الذرارى . يقال : أنمى الله ذَرْأَك وذَرْوَك، أى ذرّيتك . وأصل الذَّرْو والذرْء التفريق عن جمع . وفى الحديث(2) : ذرء النار، أى أنهم خلقوا لهـا .

الثانيـــة — ما ذرأه الله سبحانه منه مسخر مذلل كالدواب والأنعام والأشجار وغيرها، ومنه غير ذلك . والدليل عليه ما رواه مالك فى الموطأ عن كعب الأحبار قال : لولا كلمات أقولهن لجعلتنى يهودُ حمارا . فقيل له : وما هن ؟ فقـال : أعوذ بوجه الله العظيم الذى ليس شىء أعظم منـه، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى كلِّهـا ما علمت منها وما لم أعلم، من شرّ ما خلق وبَرَأ وذرأ . وفيـه عن يحيى بن سعيد أنه قال : أُسْرِى برسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عفريتا من الجن يطلبه بشعلة من نار، الحديث . وفيه : وشر ما ذَرَأ فى الأرض . وقد ذكرناه وما فى معناه فى غير هذا الموضع .

(1) راجع جـ ٢ ص ٢٩ طبعة ثانية . (2) أى فى حديث عمر رضى الله وقد كتب إلى خالد : وإنى لأظنكم آل المغيرة ذرء النار .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ « مختلفا » نصب على الحال . و «ألوانُه» هيئاته ومناظره، يعني الدواب والشجر وغيرها . ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في اختلاف ألوانها . ﴿ لَآيَةً ﴾ أي لعبرة . ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي يتّعظون و يعلمون أن في تسخير هذه المكوّنات لعلامات على وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقدر على ذلك أحد غيره .

قوله تعـالى : وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

فيـــه تسع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ تسخير البحر هو تمكين البشر من التصرف فيه وتذليله بالركوب والإرفاء وغيره، وهـذه نعمة من نعم الله علينا، فلو شاء سلطه علينا وأغرقنا . وقد مضى الكلام في البحر وفي صيده[1] . وسماه هنا لحما واللحوم عند مالك ثلاثة أجناس : فلحم ذوات الأربع جنس، ولحم ذوات الريش جنس، ولحم ذوات المـاء جنس . فلا يجوز بيع الجنس من جنسه متفاضلا، ويجوز بيع لحم البقر والوحش بلحم الطير والسمك متفاضـلا، وكذلك لحم الطير بلحم البقر والوحش والسـمك يجوز متفاضلا . وقال أبو حنيفة : اللحوم كلها أصناف مختلفة كأصولها؛ فلحم البقر صنف، ولحم الغنم صنف، ولحم الإبل صنف، وكذلك الوحش مختلف، وكذلك الطير، وكذلك السـمك، وهو أحد قولى الشافعيّ . والقول الآخر أن الكل من النَّعَم والصـيد والطير والسمك جنس واحد لا يجـوز التفاضل فيـه . والقول الأوّل هو المشهور من مذهبه عند أصحابه . ودليلنا هو أن الله تعالى فرّق بين أسماء الأنعام في حياتها فقال : « ثَمَـانِيَةَ أزواج من الضّأْن اثنين ومن المعز اثنين »[2]

---

(١) راجع ج ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة وج ٦ ص ٣١٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) آية ١٤٣ سورة الأنعـام .

ثم قال : « وَمِنَ الإبل اثنين ومن البقر اثنين » فلمـا أن أم بالجميع إلى اللحم[1] قال : « أحلت لكم بهيمـة الأَنعام » بجمعها بلحم واحد لتقارب منافعها كتقارب لحم الضأن والمعز . وقال فى موضع آخر : « وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ[2] » وهـذا جمع طائر الذى هو الواحد، لقوله تعالى : « ولَا طائرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ[3] » بجمع لحم الطير كله باسم واحد . وقال هنا : « لَحْمًا طَرِيًّا» بجمع أصناف السمك بذكر واحد، فكان صغاره ككباره فى الجمع بينهما . وقد روى عن ابن عمر أنه سئل عن لحم المَعْز بلحم الكباش أشىء واحد؟ فقال لا ؛ ولا مخالف له فصار كالإجماع، والله أعلم . ولا حجة للخالف فى نهيه صلى الله عليه وسلم عن بيع الطعام إلا مِثْلًا بمثل ؛ فان الطعام فى الإطلاق يتناول الحنطة وغيرها من المأكولات ولا يتناول اللحم ؛ ألا ترى أن القائل إذا قال : أكلت اليوم طعاما لم يسبق الفهم منـه إلى أكل اللحم، وأيضا فانه معارَض بقوله صلى الله عليه وسلم : "إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم" وهذان جنسان ، وأيضا فقد اتفقنا على جواز بيع اللحم بلحم الطير متفاضلا لا لعلة أنه بَيْع طعام لا زكاة له بِيع بلحم ليس فيه الزكاة، كذلك بيع السمك بلحم الطير متفاضلا .

الثانيـــة ــ وأما الجراد فالمشهور عندنا جواز بيـع بعضه ببعض متفاضلا . وذكر عن سُحْنون أنه يمنع من ذلك، وإليه مال بعض المتأخرين ورآه ممـا يدخر .

الثالثـــة ــ اختلف العلماء فيمن حلف ألا يأكل لحما؛ فقال ابن القاسم : يحنَث بكل نوع من هذه الأنواع الأربعة . وقال أشهب فى المجموعة . لا يحنث إلا بكل لحوم الأنعام دون الوحش وغيره، مراعاة للعرف والعادة، وتقديما لها على إطلاق اللفظ اللغوىّ، وهو أحسن .

الرابعـــة ــ قوله تعالى : ﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ يعنى به اللؤلؤ والمَرْجان؛ لقوله تعالى : « يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ والمَرْجَانُ[4] » . و إخراج الحِلية إنمـا هى فيما عرف من الملح فقط . و يقال : ان فى الزمرذ بحريا . وقد خُطِّئ الهُذَلىّ فى قوله فى وصف الدرّة :

---

(١) فى الأصول : « فلما أن أم الجميع » . يريد : فلما أن قصد بالجميع إلى اللحم .

(٢) آية ٢١ سورة الواقعة . (٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . (٤) آيه ٢٢ سورة الرحمن .

فجاء بها من دُرّة لَطَمِيّة * على وجهها ماء الفرات يَدوم[(١)]

فجعلها من المـاء الحلو . فالحلية حق وهى نِحلة الله تعالى لآدم وولده . خلق آدم وتُوج وكُلِّل بإكليل الجنـة ، وختم بالخاتم الذى ورثه عنه سليمان بن داود صلوات الله عليهم ، وكان يقال له خاتم العز فيما روى .

الخامســة ــ امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتنانا عاما بمـا يخرج من البحر ، فلا يحرم عليهم شيء منه ، وإنمـا حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحرير . روى الصحيح عن عمر بن الخطـاب قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لاتلبسوا الحرير فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة " . وسيأتى فى سورة « الحج » الكلام فيـه إن شاء الله[(٢)] . وروى البخارىّ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من ذهب ، وجعل فصّه ممـا يلى باطن كفه ، ونقش فيه محمد رسول الله ؛ فاتخذ الناس مثله ، فلما رآهم قد اتخذوها رمى به وقال : " لا ألبسه أبدا " ثم اتخـذ خاتمـا من فضة فاتخـذ الناس خواتيم الفضة . قال ابن عمر : فلبس الخاتمَ بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ، حتى وقع من عثمان فى بئر أريس[(٣)] . قال أبو داود : لم يختلف الناس على عثمان حتى سقط الخاتم من يده . وأجمع العلماء على جواز التختم بالوَرِق على الجملة للرجال . قال الخطابىّ : وكره للنساء التختم بالفضـة ؛ لأنه من زِىّ الرجال ، فإن لم يجدن ذهبا فليصفّرنه بزعفران أو بشبهه . وجمهور العلماء من السلف والخلف على تحريم اتخاذ الرجال خاتم الذهب ؛ إلا ماروى عن أبى بكر بن عبـد الرحمن وخَبّاب ، وهو خلاف شاذ ، وكل منهما لم يبلغهما النهى والنسخ . والله أعلم . وأما ماروا أنس بن مالك أنه رأى فى يد رسول الله صـلى الله عليـه وسلم خاتمـا من وَرِق يوما واحدا ، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتم من وَرِق ولبسوها ، فطرح رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتمه فطرح الناس خواتيمهم ــ أخرجه الصحيحان واللفظ للبخارىّ ــ فهو عند العلماء

(١) اللطيمة : الجمال التى تحمل العطار . وقيل : اللطيمة العنبرة التى لطمت بالمسك فتفتقت به حتى نشبت رائحتها ، وهى اللطمية .　　(٢) فى قوله تعالى : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » آية ٢٣ .

(٣) حديقة بالقرب من مسجد قباء .

وَهَم من ابن شهاب؛ لأن الذى نبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو خاتم الذهب . رواه عبد العزيز بن صُهيب وثابت وقتادة عن أنس، وهو خلاف ماروى ابن شهاب عن أنس فوجب القضاء بالجماعة على الواحد إذا خالفها، مع مايشهد للجماعة من حديث ابن عمر .

السادســـة — إذا ثبت جواز التختم للرجال بخاتم الفضة والتحلّى به، فقد كره ابن سِيرين وغيره من العلماء نقشه وأن يكون فيه ذكر الله . وأجاز نقشه جماعة من العلماء . ثم إذا نقش عليه اسم الله أو كلمة حكمة أو كلمات من القرآن وجعـله فى شمـاله، فهل يدخل به الخلاء ويستنجى بشماله ؟ خفّفه سعيد بن المُسيِّب ومالك . قيل لمـالك : إن كان فى الخـاتم ذكر الله ويلبسه فى الشمال أيُستنجَى به؟ قال : أرجو أن يكون خفيفا . وروى عنه الكراهة وهو الأوْلى . وعلى المنع من ذلك أكثر أصحابه . وقد روى همام عن ابن جريج عن الزهرى عن أنس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل الخلاء وضع خاتمه . قال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنمـا يعرف عن ابن جريج عن زياد بن سعد عن الزهرى عن أنس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من وَرِق ثم ألقاه . قال أبو داود: لم يحدّث بهذا إلا همام .

السابعـــة — روى البخارى عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اتخذ خاتما من فضة ونقش فيه « محمد رسول الله » وقال : "إنى اتخذت خاتما من ورِق ونقشت فيه محمد رسول الله فلا ينقشنّ أحد على نقشه" . قال علماؤنا : فهذا دليل على جواز نقش اسم صاحب الخاتم على خاتمه . قال مالك : ومن شأن الخلفاء والقضاة نقش أسمائهم على خواتيمهم، ونهيه عليه السلام : لا ينقشنّ أحد على نقش خاتمه ، من أجل أن ذلك اسمه وصفته برسالة الله له إلى خلقه . وروى أهل الشام أنه لا يجوز اتخاذ الخاتم لغيرذى سلطان . وروى فى ذلك حديثا عن أبى رَيحانة، وهو حديث لاحجة فيه لضعفه . وقوله عليه السلام : "لاينقشنّ أحد على نقشه" يردّه، ويدل على جواز اتخـاذ الخاتم لجميع النـاس، إذا لم ينقش على نقش خاتمه . وكان نقش خاتم الزهرىّ « محمد يسأل الله العافيـة » . وكان نقش خاتم مالك « حسبى الله ونعم الوكيل » . وذكر الترمذىّ الحكيم فى (نوادر الأصول) أن نقش خاتم موسى عليه السلام

« لكل أجل كتاب » وقد مضى فى الرعد[1] . وبلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى خاتمـا بألف درهم فكتب إليه : إنه بلغنى أنك اشتريت خاتما بألف درهم ، فبِعْه وأطعم منه ألف جائع ، واشتر خاتما من حديد بدرهم ، واكتب عليـه « رحم الله آمرأ عرف قدر نفسه » .

الثامنـــة ـــ من حلف ألّا يلبَس حليًّـا فلبس لؤلؤا لم يحنث ؛ وبه قال أبو حنيفة . قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : لأن هذا وإن كان الاسم اللغوى يتناوله فلم يقصده باليمين ، والأيمان تُخَصّ بالعرف ؛ ألا ترى أنه لو حلف ألا ينام على فراش فنام على الأرض لم يحنَث ، وكذلك لا يستضىء بسراج فجلس فى الشمس لا يحنث ، وإن كان الله تعالى قد سمّى الأرض فراشـا والشمس سراجا . وقال الشافعيّ وأبو يوسف ومحمد : من حلف ألا يلبس حليا ولبس اللؤلؤ فإنه يحنث ؛ لقوله تعالى : «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا» والذى يخرج منه : اللؤلؤ والمرجان .

التاســـعة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ﴾ قد تقدم ذكر الفُلْك وركوب البحر فى «البقرة»[2] وغيرها . وقوله : « مَوَاخِرَ » قال ابن عباس : جَوارِيَ ، من جَرَت تجرى . سعيد بن جُبير : معترضة . الحسن : مواقر . قتادة والضحاك : أى تذهب وتجىء ، مقبلةً ومدبرة بريح واحدة . وقيـل : « مواخر » ملججة فى داخل البحر ؛ وأصل المَخْر شقّ المـاء عن يمين وشمال . مَخَرت السفينة تَمْخَر وتَمْخُر مَخْرا ومخورا إذا جرت تشق المـاء مع صوت ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ » يعنى جَوارِيَ . قال الجوهرى : ومَخَر السابحُ إذا شق المـاء بصدره ، ومَخَر الأرض شقها للزراعة ، ومخرها بالمـاء إذا حبس المـاء فيها حتى تصير أريضة ؛ أى خليقةً بجودة نبات الزرع . وقال الطبرى : المَخْرُ فى اللغة صوت هبوب الريح ؛ ولم يقيّد كونه فى ماء ، وقال : إنّ من ذلك قول واصل مولى أبى عُيينـة : إذا أراد أحدكم البول فليتمخّر الريح ؛ أى لينظر فى صوتها فى الأجسام من أين تَهُبّ ، فيتجنّب استقبالها لئلا تردّ عليه بَوْلَه . ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْـلِهِ ﴾ أى ولتركبوه للتجارة وطلب الربح . ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تقدم جميع هذا فى « البقرة »[3] والحمد لله .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٢٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٨٨ طبعة ثانية أو ثالثة ، وجـ ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

قوله تعالى : وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثابتة . رَسَا يرسو إذا ثبت وأقام . قال :

فصبرْتُ عارفةً لذلك حُرّةً * ترسو إذا نفسُ الجبان تطلّعُ (١)

﴿ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ أى لئلا تَميد ؛ عنـد الكوفيين . وكراهية أن تميد ؛ على قول البصريين . والمَيْـد : الاضطراب يمينا وشمالا ؛ ماد الشيء يميد ميـدا إذا تحـرك ؛ ومادت الأغصان تمايلت ، وماد الرجل تبختر . قال وهب بن مُنبِّه : خلق الله الأرض فجعلت تميـد وتمور ، فقـالت الملائكة : إن هـذه غير مقرّة أحدا على ظهـرها فأصبحت وقد أُرْسيت بالجبال ، ولم تدر الملائكة ممّ خلقت الجبال . وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : لمـا خلق الله الأرض قَمَصت ومالت وقالت : أيْ رَبِّ ! أتجعل عليّ من يعمل بالمعاصي والخطايا ، ويلقى عليّ الجيف والنَّتْن ! فأرسى الله تعالى فيهـا من الجبال ما ترون وما لا ترون . وروى الترمذيّ في آخر (كتاب التفسير) حدّثنا محمد بن بشار حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا العوّام بن حَوْشَب عن سليمان بن أبي سليمان عن أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "لمـا خلق الله الأرض جعلت تَميد فخلق الجبال فعاد بهـا عليها فاستقرّت فعجبت الملائكة من شدّة الجبال قالوا يارَبّ هل من خلقك شيء أشدّ من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشدّ من الحديد قال نعم النار فقالوا يارب فهـل من خلقك شي أشـدّ من النار قال نعم المـاء قالوا يارب فهـل من خلقك شيء أشـدّ من المـاء قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شيء أشـدّ من الريح قال نعم ابنُ آدم تصـدّق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله" . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

(١) البيت لعنترة العبسى . يقول : حبست نفسا عارفة ؛ أى صابرة . وقبله :

وعلمت أن منيّتى إنْ تأتـنى * لا يُنجِنى منهـا الفـرار الأسرع

قلت : وفى هذه الاية أدلّ دليل على استعمال الأسباب ، وقد كان قادرا على سكونها دون الجبال . وقد تقدّم هـذا المعنى . ﴿ وَأَنْهَارًا ﴾ أى وجعل فيها أنهارا ، أو ألقى فيهـا أنهارا . ﴿ وَسُبُلًا ﴾ أى طُـرُقا ومسالك . ﴿ لَعَلَّـكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ أى إلى حيث تقصِدون من البـلاد فلا تضلون ولا تتحيّرون .

قوله تعـالى : وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَعَلَامَاتٍ ﴾ قال ابن عباس : العلامات معالم الطرق بالنهار؛ أى جعـل للطرق علامات يقع الاهتداء بها . ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ يعنى بالليل، والنجمُ يراد به النجـوم . وقرأ ابن وثّاب « وبِالنُّجْم » . الحسن : بضم النون والجيم جميعا ومراده النجوم، فقصره؛ كما قال الشاعر :

إنّ الفقـير بيننا قاضٍ حَكَمْ * أن تَرِد المـاءَ إذا غاب النُّجُمْ

وكذلك القول لمن قرأ « النُّجْم » إلا أنه سكّن استخفافا . ويجـوز أن يكون النُّجُم جمعَ نَجْم كسُقُف وسَقْف . واختلف فى النجوم؛ فقال الفراء : الجَدْى والفرقدان . وقيل : الثريا . قال الشاعر :

حـتى إذا ما استقلّ النّجمُ فى غَلَس * وغُودر البَقْـــلُ مَلْوِىٌّ ومحصـودُ (١)

أى منـــه ملوىّ ومنه محصود ، وذلك عنـد طلوع الثريا يكون . وقال الكَلْبىّ : العلامات الجبال . وقال مجاهد : هى النجوم ؛ لأن من النجوم ما يهتدَى بهـا ، ومنها ما يكون علامة لا يهتدى بها ؛ وقاله قَتادة والنَّخَعِىّ . وقيل : تم الكلام عنـد قوله « وعلاماتٍ » ثم ابتدأ وقال : « وبِالنَّجْم هم يهتدون » . وعلى الأوّل : أى وجعل لكم علامات ونجوما تهتدون بها . ومن العلامات الرياح يهتدى بهـا . وفى المراد بالاهتداء قولان : أحدهما ـــ فى الأسفار ،

(١) البيت لذى الرمة . ومعنى « استقل » طلع فى آخر الليـل . وفى ديوانه : « أحصد » بدل « غودر » . وأحصد : حان حصاده .

وهـذا قول الجمهور . الثانى — فى القِبْلة . وقال ابن عباس : سألت رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : « وبِالنَّجْمِ هم يهتدون » قال : " هو الجَدْىُ يا ٱبنَ عباس، عليه قبلتكم وبه تهتدون فى بَرِّكم و بحركم " ذكره الماوردىّ .

الثانيـــة — قال ابن العربىّ : أما جميع النجـوم فلا يهتدى بهـا إلا العارف بمطالعها ومغاربها، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها، وذلك قليل فى الآخرين. وأما الثُّرَيّا فلا يهتدى بها إلا مَن يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهَدْى لكل أحد بالجَدْى والفَرْقَدين ؛ لأنها من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السَّمْت الثابتة فى المكان ، فإنهـا تدور على القطب الثابت دورانا محصّلا، فهى أبدا هَـدْىُ الخلق فى البَرّ إذا عميت الطرق ، وفى البحر عنـد مجرى السفن ، وفى القِبْلة إذا جهل السَّمْت ، وذلك على الجمـلة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فمـا استقبلت فهو سَمْت الجهة .

قلت : وسأل ابنُ عباس رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن النجم فقال : " هو الجَدْى عليـه قبلتكم وبه تهتـدون فى بركم وبحركم " . وذلك أن آخر الجـدى بنات نَعْش الصغرى والقطب الذى تستوى عليه القبلة بينها .

الثالثـــة — قال علمـاؤنا : وحكم استقبال القبلة على وجهين : أحدهما — أن يراها ويعاينها فيلزمه استقبالهـا وإصابتها وقصـد جهتها بجميع بدنه . والآخر — أن تكون الكعبة بحيث لا يراها فيلزمه التوجه نحوها وتلقاءها بالدلائل، وهى الشمس والقمر والنجوم والرياح وكل ما يمكن به معرفة جهتها، ومن غابت عنه وصـلّى مجتهدا إلى غير ناحيتها وهو ممن يمكنه الاجتهاد فلا صلاة له ؛ فإذا صلّى مجتهدا مستدِلّا ثم انكشف له بعـد الفراغ من صلاته أنه صـلى إلى غير القبـلة أعاد إن كان فى وقتها، وليس ذلك بواجب عليه ؛ لأنه قد أدّى فرضه على ما أُمِر به . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة » (1) مستوفًى والحمد لله .

(1) راجع جـ ٢ ص ١٦٠ طبعة ثانية .

قوله تعالى : أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ ﴾ هو الله تعالى . ﴿ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ﴾ يريد الأصنام . ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أخبر عن الأوثان التي لا تخلق ولا تضر ولا تنفع، كما يُخبر عمن يعقل على ما تستعمله العرب في ذلك؛ فإنهم كانوا يعبدونها فذكرت بلفظ « مَن » كقوله : « أَلَهُمْ أَرْجُلٌ » . وقيل : لاقتران الضمير في الذكر بالخالق . قال الفراء : هو كقول العرب : اشتبه عليَّ الراكب وجمله فلا أدري مَن ذا ومَن ذا؛ وإن كان أحدهما غير إنسان . قال المَهْدَوِيّ : ويسأل بـ«مَن» عن الباريء تعالى ولا يسأل عنه بـ«ما»؛ لأن «ما» إنما يسأل بها عن الأجناس، والله تعالى ليس بذي جنس، ولذلك أجاب موسى عليه السلام حين قال له : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى »(1) ولم يجب حين قال له : « وَمَا رَبُّ العالمين » إلا بجواب «مَن» وأضرب عن جواب «ما» حين كان السؤال فاسدا . ومعنى الآية : من كان قادرا على خلق الأشياء المتقدمة الذكر كان بالعبادة أحقّ ممن هو مخلوق لا يضر ولا ينفع؛ « هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ »(2) « أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ »(3) .

قوله تعالى : وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوها ﴾(4) تقدم في إبراهيم . ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ أي ما تبطنونه وما تظهرونه . وقد تقدم جميع هذا مستوفًى .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

---

(1) آية ٤٩ سورة طه .	(2) آية ١١ سورة لقمان .	(3) آية ٤٠ سورة فاطر .

(4) راجع ج ٩ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قراءة العامة «تدعون» بالتاء لأن ماقبله خطاب . روى أبو بكر عن عاصم وهُبيرة عن حفص « يدعون » بالياء، وهى قراءة يعقوب . فأما قوله : «ما تُسِرّون وما تُعلنون» فكلهم بالتاء على الخطاب؛ إلا ما روى هُبيرة عن حفص عن عاصم أنه قرأ بالياء . ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا يقدرون على خلق شيء ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ . ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أى هم أموات، يعنى الأصنام، لا أرواح فيها ولا تسمع ولا تبصر، أى هى جمادات فكيف تعبـدونها وأنتم أفضل منها بالحياة . ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ يعـنى الأصنام . ﴿ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ وقرأ السُّلَمِىّ «إِيّان» بكسر الهمزة، وهما لغتان، موضعه نصب بـ«يبعثون» وهى فى معنى الاستفهام . والمعنى : لا يدرون متى يبعثون . وعبر عنها كما عبر عن الآدميين؛ لأنهم زعموا أنها تعقـل عنهم وتعلم وتشفع لهم عند الله تعالى، فجرى خطابهم على ذلك . وقد قيـل : إن الله يبعث الأصنام يوم القيامة ولها أرواح فتتبرأ من عبادتهم، وهى فى الدنيا جماد لا تعـلم متى تبعث . قال ابن عباس : تبعث الأصـنام وتركب فيها الأرواح ومعها شياطينها فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار . وقيـل : إن الأصنام تطرح فى النار مع عبدتها يوم القيامة؛ دليله « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ »[1] . وقيل : تمّ الكلام عند قوله : « لا يَخلقون شيئا وهم يُخلقون » ثم ابتدأ فوصف المشركين بأنهم أموات، وهـذا الموت موت كفر . « ومايشـعرون أيان يبعثون » أى وما يدرى الكفار متى يبعثون، أى وقت البعث؛ لأنهـم لا يؤمنون بالبعث حتى يستعدّوا للقاء الله . وقيل : أى وما يدريهم متى الساعة، ولعلها تكون قريبا .

قوله تعـالى : إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

(١) آية ٩٨ سورة الأنبياء .

قوله تعـالى : ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ لما بيّن استحالة الإشراك بالله تعالى بيّن أن المعبود واحد لا ربّ غيره ولا معبود سواه . ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ ﴾ أى لا تقبل الوعظ ولا ينجع فيها الذكر، وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى متكبرون متعظمون عن قبول الحق . وقد تقدم فى « البقرة »[1] معنى الاستكبار . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ أى من القول والعمل فيجازيهم . قال الخليل : «لا جرم» كلمة تحقيق ولا تكون إلا جوابا؛ يقال : فعلوا ذلك؛ فيقال: لا جرم سيندمون . أى حقا أن لهم النار . وقد مضى القول فى هذا فى «هود»[2] مستوفًى . ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ أى لا يثيبهم ولا يثنى عليهم . وعن الحسين بن علىّ أنه مرّ بمساكين قد قدّموا كِسَرًا بينهم وهم يأكلون فقالوا : الغـذاءَ يا أبا عبد الله، فنزل وجلس معهم وقال « إنه لا يحب المستكبرين » فلما فرغ قال: قد أجبتكم فأجيبونى؛ فقاموا معه إلى منزله فأطعمهم وسقاهم وأعطاهم وانصرفوا . قال العلماء . وكل ذنب يمكن التستر منه وإخفاؤه إلا الكبر؛ فإنه فسق يلزمه الإعلان، وهو أصل العصيان كله. وفى الحديث الصحيح "إن المتكبرين يحشرون أمثال الذّرّ يوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم لتكبرهم" . أوكما قال صلى الله عليه وسلم : "تَصْغُرُ لهم أجسامُهم فى المحشر حتى يضرهم صِغَرُها وتَعْظُم لهم فى النار حتى يضرهم عِظَمُها " .

قوله تعـالى : وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ﴾ يعنى وإذا قيل لمن تقـدم ذكره ممن لا يؤمن بالآخرة وقلوبهم منكرة بالبعث « ما ذا أنزل ربكم » . قيل : القائل النضر بن الحارث، وأن الآية نزلت فيـه، وكان خرج إلى الحيرة فاشـترى أحاديث (كَليلة ودِمْنـة ) فكان يقرأ على قريش ويقول : ما يقـرأ محمد على أصحـابه إلا أساطير الأولين؛ أى ليس هو من تنزيل

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٦ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

ربنا . وقيل : إن المؤمنين هم القائلون لهم اختبارا فأجابوا بقولهم : « أساطير الأولين » فأقروا بإنكار شيء هو أساطير الأولين . والأساطير : الأباطيل والتُّرَّهات . وقد تقدّم في الأنعام.[1] والقول في « ماذا أنزل ربكم » كالقول في « ماذا ينفقون »[2] وقوله : ﴿ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ خبر ابتداء محذوف، التقدير : الذي أنزله أساطير الأولين .

قوله تعالى : لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ ﴾ قيل : هي لام كَيْ، وهي متعلقة بما قبلها . وقيل : لام العاقبة ؛ كقوله : « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . أي قولهم في القرآن والنبيّ أدّاهم إلى أن حملوا أوزارهم؛ أي ذنوبهم . ﴿ كَامِلَةً ﴾ لم يتركوا منها شيئا لنكبة أصابتهم في الدنيا بكفرهم . وقيل : هي لام الأمر، والمعنى التهدّد . ﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ قال مجاهد : يحملون وِزْر من أضلّوه ولا يَنْقُص من إثم المُضَلّ شيء . وفي الخبر "أيّما داعٍ دعا إلى ضلالة فاتُّبع فإن عليه مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء وأيّما داعٍ دعا إلى هُدًى فاتُّبِع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء" خرّجه مسلم بمعناه . و « مِن » للجنس لا للتبعيض ؛ فدعاة الضلالة عليهم مثل أوزار من اتبعهم . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي يضلون الخلق جهلا منهم بما يلزمهم من الآثام ؛ إذ لو علموا لما أضلوا . ﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ أي بئس الوزر الذي يحملونه . ونظير هذه الآية « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ »[3] وقد تقدّم في آخر « الأنعام »[4] بيان قوله : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ١٣ سورة العنكبوت . (٤) راجع جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قد مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى سبقهم بالكفر أقوام مع الرسل المتقدّمين فكانت العاقبة الجميلة للرسل . ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وغيرهما : إنه النُّمْرود بن كَنْعان وقومه، أرادوا صعود السماء وقتال أهله ؛ فبَنَوا الصرح ليصعَدوا منه بعد أن صنع بالنسور ما صنع، فخرّ . كما تقدّم بيانه فى آخر سورة « إبراهيم »(1) . ومعنى « فَأَتَى اللهُ بنيانَهُم » أى أتى أمرُه البنيان ، إمّا زلزلة أو ريحا فخرّبته . قال ابن عباس ووهب : كان طول الصَّرْح فى السماء خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف . وقال كعب ومقاتل : كان طوله فرسخين، فهبّت ريح فألقت رأسه فى البحر وخرّ عليهم الباقى . ولما سقط الصرح تبلبلت ألسن الناس من الفزع يومئذ، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا ؛ فلذلك سُمّى بابل ، وما كان لسان قبل ذلك إلا السُّرْيانية . وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة »(2) . وقرأ ابن هُرْمز وابن مُحَيْصن « السُّقُف » بضم السين والقاف جميعا . وضم مجاهد السين وأسكن القاف تخفيفا ؛ كما تقدّم فى «وبالنّجم» فى الوجهين . والأشبه أن يكون جمع سقف . والقواعد : أصول البناء، وإذا اختلت القواعد سقط البناء . وقوله : ﴿ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ قال ابن الأعرابى : وَكّد ليعلمَك أنهم كانوا حالّين تحته . والعرب تقول : خرّ علينا سقف ووقع علينا حائط إذا كان يملكه وإن لم يكن وقع عليه . فجاء بقوله : « مِن فوقِهم » ليخرج هذا الشك الذى فى كلام العرب فقال : « من فوقهم » أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . وقيل : إن المراد بالسقف السماء ؛ أى إن العذاب أتاهم من السماء التى هى فوقهم ؛ قاله ابن عباس . وقيل : إن قوله : « فأتى اللهُ بنيانَهم من

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٨١ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ١ ص ٢٨٣ طبعة ثانية أو ثالثة .

القواعِدِ» تمثيل ، والمعنى : أهلكهم فكانوا بمنزلة من سـقط عليه بنيانه . وقيـل : المعنى أحبط الله أعمالهم فكانوا بمنزلة من سقط بنيانه . وقيل : المعنى أبطل مكرهم وتدبيرهم فهلكوا كما هلك من نزل عليه السقف من فوقه . وعلى هـذا اختُلف فى الذين خرّ عليهم السقف؛ فقال ابن عباس وابن زيد ما تقدّم . وقيـل : إنه بُخْتَنَصّر وأصحابه؛ قاله بعض المفسرين . وقيل : المراد المقتسمون الذين ذكرهم الله فى سورة الحجر؛ قاله الكلبيّ . وعلى هذا التأويل يخرج وجه التمثيل، والله أعلم . ﴿ وَأَتَاهُمُ العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْـعُرُونَ ﴾ أى من حيث ظنوا أنهم فى أمان . وقال ابن عباس : يعنى البعوضة التى أهلك الله بها نمرودا .

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِـمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ ثُمَّ يَوْمَ القِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ ﴾ أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم . ﴿ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِىَ ﴾ أى بزعمكم وفى دعواكم، أى الآلهة التى عبـدتم دونى ، وهو سؤال توبيخ . ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أى تعادون أنبيائى بسببهم ، فليدفعوا عنكم هذا العذاب . وقرأ ابن كثير « شُرَكَاىَ » بيـاء مفتوحة من غير همز ، والباقون بالهمز . نافع « تُشَاقُّونِ » بكسر النون على الإضافة ، أى تعادوننى فيهم . وفتحها البـاقون . ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُو العِلْمَ ﴾ قال ابن عبـاس : أى الملائكة . وقيل المؤمنون . ﴿ إِنَّ الخِزْىَ اليَوْمَ ﴾ أى الهوان والذل يوم القيامة . ﴿ وَالسُّوءَ ﴾ أى العذاب . ﴿ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ هـذا من صفة الكافرين . و «ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ» نصب على الحال؛ أي وهم ظالمون أنفسهم إذ أوردوها موارد الهلاك . ﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ﴾ أي الاستسلام . أي أقرّوا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت وقالوا : ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُـوءٍ ﴾ أي من شرك . فقالت لهم الملائكة : ﴿ بَلَى ﴾ قد كنتم تعملون الأسواء . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقال عكرمة : نزلت هذه الآية بالمدينة في قوم أسلموا بمكة ولم يهاجروا ، فأخرجتهم قريش إلى بدر كرها فقتلوا بها ؛ فقال : ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ بقبض أرواحهم . ﴿ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ في مقامهم بمكة وتركهم الهـجرة . ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ يعني في خروجهم معهم . وفيـه ثلاثة أوجه : أحـدها — أنه الصـلح ؛ قاله الأخفش . الثاني — الاستسلام؛ قاله قُطْرُب . الثالث — الخضوع؛ قاله مقاتل . ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ﴾ يعني من كفر . ﴿ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعني أن أعمالهم أعمال الكفار . وقيل : إن بعض المسلمين لمـا رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى المشركين؛ فنزلت فيهم . وعلى القول الأول فلا يخـرج كافر ولا منافق من الدنيـا حتى ينقاد ويسـتسلم، ويخضع ويذل، ولا تنفعهم حينئذ توبة ولا إيمان؛ كما قال : « فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّـا رَأَوْا بَأْسَنَا »[1] وقد تقدّم هـذا المعنى . وتقدّم في « الأنفال »[2] إن الكفار يتوفّون بالضرب والهـوان ، وكذلك في « الأنعام »[3] . وقد ذكرناه في كتاب التذكرة .

قوله تعـالى : فَادْخُلُوٓا أَبْوَٰبَ جَهَـنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَـا فَلَبِئْسَ مَثْـوَى ٱلْمُتَـكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾ أي يقال لهم ذلك عنـد الموت . وقيل : هو بشارة لهم بعذاب القبر؛ إذ هو باب من أبواب جهنم للكافرين . وقيل : لا تصل أهل الدركة الثانية إليهـا مثلا إلا بدخول الدركة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة هكذا . وقيـل : لكل دركة

(١) آخر سورة غافر .	(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٨	(٣) راجع جـ ٧ ص ١٤٤ وما بعدها .

باب مفرد، فالبعض يدخلون من باب والبعض يدخلون من باب آخر . فالله أعلم . ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أى ماكثين فيها . ﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى﴾ أى مقام ﴿الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الذين تكبّروا عن الإيمان وعن عبادة الله تعـالى ، وقد بيّنهم بقوله الحـق : « إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيـلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (١) » .

قوله تعـالى : وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ أى قالوا : أنزل خيرا ؛ وتمّ الكلام . و «ماذا» على هذا اسم واحد . وكان يرِدُ الرجل من العرب مكة فى أيام الموسم فيسأل المشركين عن محمد عليه السلام فيقولون : ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون . ويسأل المؤمنين فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى ، والمراد القرآن . وقيل : إن هذا يقال لأهل الإيمان يوم القيامة . قال الثعلبى : فإن قيل : لِمَ ٱرتفع الجواب فى قوله : «أساطيرُ الأوّلين» وٱنتصب فى قوله : « خـيرا » فالجواب أن المشركين لم يؤمنـوا بالتنزيل ، فكأنهم قالوا : الذى يقوله محمد هو أساطير الأوّلين . والمؤمنون آمنـوا بالنزول فقالوا : أنزل خيرا . وهذا مفهوم معناه من الإعراب ، والحمد لله .

قوله تعـالى : ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ قيل : هو من كلام الله عز وجل ، وقيل : هو من جملة كلام الذين اتقوا . والحسنة هنا : الجنة ؛ أى من أطاع الله فله الجنة غدا . وقيل : « للذين أحسنوا » اليومَ حسنةٌ فى الدنيا من النصر والفتح والغَنيمة : ﴿وَلَدَارُ

(١) آية ٣٥ سورة الصافات .

﴿ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أى ما ينالون فى الآخرة من ثواب الجنــة خير وأعظم من دار الدنيــا ؛ لفنائها وبقاء الآخرة . ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فيه وجهان — قال الحسن : المعنى ولنعم دار المتقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها ثواب الآخرة ودخول الجنة . وقيل : المعنى ولنعم دار المتقين الآخرة؛ وهذا قول الجمهور . وعلى هذا تكون ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ بدلا من الدار فلذلك ارتفع . وقيل : ارتفع على تقدير هى جنات، فهى مبيِّنة لقوله : « دَارُ المتّقين »، أو تكون مرفوعة بالابتــداء، التقدير : جنات عدن نعم دار المتقــين . ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ فى موضع الصفــة، أى مدخولة . وقيل : « جناتُ » رفع بالابتداء، وخبره « يدخلونها » وعليه يُخَرَّج قول الحسن . والله أعلم . ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقــدّم معناه فى البقــرة [(١)] . ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أى ممــا تمنّوه وأرادوه . ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أى مثل هذا الجزاء يجزى الله المتقين .

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ قرأ الأعمش وحمزة « يتوفاهم الملائكة » فى الموضعين بالياء، واختاره أبو عبيد ؛ لمــا روى عن ابن مسعود أنه قال : إن قريشا زعموا أن الملائكة إناث فذكِّروهم أنتم . الباقون بالتاء ؛ لأن المراد به الجماعة من الملائكة . و﴿طَيِّبِينَ﴾ فيــه ســتة أقوال : الأوّل — « طَيِّبين » طاهرين من الشرك . الثانى — صالحين . الثالث — زاكية أفعالهم وأقوالهم . الرابع — طيبين الأنفس ثقةً بما يلقونه من ثواب الله تعالى . الخامس — طيبــة نفوسهم بالرجوع إلى الله . السـادس — « طيبين » أن تكون وفاتهم طيِّبــة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ؛ بخــلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلط . والله أعلم . ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون السلام إنذارا لهم بالوفاة . الثانى — أن يكون تبشيرا لهم بالجنــة ؛ لأن السلام أمان . وذكر ابن المبارك قال : حدّثنى حَيْوَة قال أخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب القُرَظى قال : إذا استنقعت [(٢)] نفس العبد المؤمن جاءه مَلَك الموت فقال : السلام عليك وَلِىَّ الله، الله يقــرأ عليك السلام . ثم نزع بهــذه الآية « الذين

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) استنقع الماء : اجتمع وثبت . أى اذا اجتمعت نفس المؤمن فى فيه تريد الخروج ، كما يستنقع الماء فى قراره ؛ وأراد بالنفس الروح .

تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » . وقال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت يقبض روح المؤمن قال : ربك يقرئك السلام . وقال مجاهد : إن المؤمن ليبشَّر بصلاح ولده من بعده لتقرّ عينه . وقد أتينا على هذا فى (كتاب التذكرة) وذكرنا هناك الأخبار الواردة فى هذا المعنى ، والحمد لله . وقوله : ﴿ ادخلوا الجنة ﴾ يحتمل وجهين : أحدهما — أن يكون معناه أبشروا بدخول الجنة . الثانى — أن يقولوا ذلك لهم فى الآخرة . ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ يعنى فى الدنيا من الصالحات .

قوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ هذا راجع إلى الكفار ، أى ما ينتظرون إلا أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم وهم ظالمون لأنفسهم . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة والكسائى وخلف «يأتيهم الملائكة» بالياء . والباقون بالتاء على ما تقدّم . ﴿ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ أى بالعذاب من القتل كيوم بدر ، أو الزلزلة والخسف فى الدنيا . وقيل : المراد يوم القيامة . والقوم لم ينتظروا هذه الأشياء لأنهم ما آمنوا بها ، ولكن امتناعهم عن الإيمان أوجب عليهم العذاب ، فأضيف ذلك إليهم ، أى عاقبتهم العذاب . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى أصرّوا على الكفر فأتاهم أمر الله فهلكوا . ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ﴾ أى بتعذيبهم وإهلاكهم ، ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك .

قوله تعالى : فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ قيل : فيه تقديم وتأخير، التقدير : كذلك فعل الذين من قبلهم فأصابهم سيئات ما عملوا، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون، فأصابهم عقوبات كفرهم وجزاء الخبيث من أعمالهم . ﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾ أى أحاط بهم ودار . ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى عقاب استهزائهم .

قوله تعـالى : وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أى شيئا، و « من » صـلة . قال الزجاج : قالوه استهزاء، ولو قالوه عن اعتقاد لكانوا مؤمنين . وقد مضى هذا فى سورة « الأنعام » مبينا معنًى وإعرابا فلا معنى للإعادة[1] . ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من كان قبلهم بالرسل فأهلكوا . ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس عليهم إلا التبليغ، وأما الهداية فهى إلى الله تعالى .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أى بأن اعبـدوا الله ووحدوه . ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أى اتركوا كل معبـود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم، وكل من دعا إلى الضلال . ﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ ﴾ أى أرشده إلى دينه وعبادته .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

﴿ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أى بالقضاء السابق عليه حتى مات على كفره، وهذا ردّ على القدرية؛ لأنهم زعموا أن الله هــدى الناس كلّهم ووفقهم للهدى، والله تعـالى يقول : « فَمِنْهُم مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَنْ حَقَّتْ عَلَيْــهِ الضَّلَالَةُ » وقد تقدم هذا فى غير موضع .
﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ أى فسيروا معتبرين فى الأرض . ﴿ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ أى كيف صار آخر أمرهم إلى الخراب والعذاب والهلاك .

قوله تعـالى : إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أى إن تطلب يا محمد بجهدك هداهم . ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ أى لا يرشد من أضله ، أى من سبق له من الله الضلالة لم يهده . وهذه قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة . ف « يَهْدِى » فعل مستقبل وماضيه هَدَى . و « مَن » فى موضع نصب ب « يهدى » ويجوز أن يكون هَــدَى يَهْدِى بمعنى اهتدى يهتدى ؛ رواه أبو عبيد عن الفراء قال : كما قرئ « أَمَّن لا يَهْدِى إلَّا أَنْ يُهْدَى » بمعنى يهتدى . قال أبو عبيد . ولا نعلم أحدا روى هــذا غير الفراء، وليس بمتّهم فيما يحكيه . النحاس : حكى لى عن محمــد ابن يزيد كأنّ معنى « لَا يَهْدِى مَن يُضِلّ » من علم ذلك منه وسـبق ذلك له عنده ، قال : ولا يكون يهــدى بمعنى يهتدى إلا أن يكون يَهِدِى أو يُهْدِى . وعلى قول الفراء « يَهْــدِى » بمعنى يهتدى، فيكون « من » فى موضع رفع، والعائد إلى « من » الهاء المحذوفة من الصلة، والعائد إلى اسم « إن » الضمير المستكنّ فى « يُضل » . وقرأ الباقون « لايُهْدَى » بضم الياء وفتح الدال، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، على معنى من أضله الله لم يهده هادٍ؛ دليله قوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ » و « مَن » فى موضع رفع على أنه اسم مالم يُسَمَّ فاعله ، وهى بمعنى الذى، والعائد عليها من صلتها محذوف، والعائد على اسم إن من « فإنّ الله » الضمير المستكنّ فى « يضل » . ﴿ وَمَا لَهُم مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ تقدم معناه .

قوله تعـالى : وَأَقْسَمُوا بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ هـذا تعجيب من صنعهم، إذ أقسموا بالله و بالغوا فى تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت . ووجه التعجيب أنهـم يظهرون تعظيم الله فيقسمون به ثم يعجّزونه عن بعث الأموات . وقال أبو العالية : كان لرجل من المسلمين على مشرك دين فتقاضاه، وكان فى بعض كلامـه : والذى أرجوه بعـد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله : لايبعث الله من يموت؛ فنزلت الاية . وقال قتادة : ذكر لنـا أن ابن عباس قال له رجل : يابن عباس، إن ناسا يزعمون أن عليًّا مبعوث بعد الموت قبْل الساعة، و يتأولون هذه الآية . فقال ابن عباس : كذب أولئك ! إنما هذه الآية عامة للناس، لو كان علىّ مبعوثا قبل القيـامة مانكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه . ﴿ بَلَى ﴾ هـذا ردّ عليهم؛ أى بلى ليبعثنهم . ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ مصدر مؤكّد؛ لأن قوله « يبعثهم » يدل على الوعد، أى وعد البعث وعدا حقا . ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أنهم مبعوثون . وفى البخارى عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم " قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبـه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وأما شتمه إيّاى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كُفُوًا أحد " . وقد تقدّم[1]، ويأتى .

قوله تعـالى : لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أى ليظهر لهم . ﴿ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فيه ﴾ أى من أمر البعث . ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالبعث وأقسموا عليـه ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ وقيـل : المعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية .

ولقد بعثنا فى كل أمـــة رسولا ليبين لهم الذى يختلفون فيه ، والذى اختلف فيـه المشركون والمسلمون أمور : منها البعث ، ومنها عبادة الأصنام ، ومنها إقرار قوم بأن محمدا حق ولكن منعهم من اتباعه التقليد؛ كأبى طالب .

قوله تعـالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

أعلمهم سهولة الخلق عليه ، أى إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيـائهم ، ولا فى غير ذلك ممـا نحدثه ؛ لأنا إنمـا نقول له كن فيكون . قراءة ابن عامر والكسائىّ « فيكونَ » نصبا عطفا على أن نقول . وقال الزجاج : يجـوز أن يكون نصبـا على جواب « كن » . الباقون بالرفع على معنى فهو يكون . وقد مضى القول فيه فى « البقرة » مستوفى[1] . وقال ابن الأنبارىّ : أوقع لفظ الشئ على المعلوم عند الله قبـل الخلق لأنه بمنزلة ما وجد وشوهد . وفى الآية دليل على أن القرآن غير مخـلوق ؛ لأنه لو كان قوله : « كن » مخلوقا لاحتاج إلى قول ثان ، والثانى إلى ثالث وتسلسل وكان محالا . وفيها دليل على أن الله سبحانه مريد لجمـيع الحوادث كلها خيرها وشرها نفعها وضرها ؛ والدليـل على ذلك أن من يرى فى سلطانه ما يكرهه ولا يريده فلأحد شيئين : إما لكونه جاهلا لا يدرى ، وإما لكونه مغلوبا لا يطيق ، ولا يجوز ذلك فى وصفه سبحانه ، وقد قام الدليل على أنه خالق لاكتساب العباد ، ويستحيل أن يكون فاعلا لشئ وهو غير مريد له ؛ لأن أكثر أفعالنا يحصل على خلاف مقصودنا وإرادتنا ، فلو لم يكن الحق سبحانه مريدا لها لكانت تلك الأفعال تحصل من غير قصد ؛ وهذا قول الطبيعيين ، وقد أجمع الموّحدون على خلافه وفساده .

قوله تعـالى : وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُـمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٩٠ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْـدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ قـد تقدّم فى « النّساء » معنى الهجرة[١]، وهى ترك الأوطان والأهـل والقرابة فى الله أو فى دين الله ، وترك السيئات . وقيل : «فى» بمعنى اللام، أى لله . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ﴾ أى عُذّبوا فى الله . نزلت فى صُهَيب وبلال وخبّاب وعمّار، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أرادوا، فلما خلّوهم هاجروا إلى المدينة؛ قاله الكلْبِيّ . وقيل : نزلت فى أبى جَنْدل بن سهيل . وقال قتادة : المراد أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ظلمهم المشركون بمكة وأخرجوهم حتى لحق طائفة منهم بالحبشة؛ ثم بوّأهم الله تعالى دار الهجرة وجعل لهم أنصارا من المؤمنين . والآية تعم الجميع . ﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ فى الحسنة ستة أقوال : الأوّل — نزول المدينة؛ قاله ابن عباس والحسن والشّعْبِيّ وقتادة . الثانى — الرزق الحسن؛ قاله مجاهد . الثالث — النصر على عدوّهم؛ قاله الضحاك . الرابع — إنه لسان صدق؛ حكاه ابن جُرَيج . الخامس — ما استولوا عليه من فتوح البلاد وصار لهم فيها من الولايات . السادس — ما بقى لهم فى الدنيا من الثناء، وما صار فيها لأولادهم من الشرف . وكل ذلك اجتمع لهم بفضل الله، والحمد لله . ﴿ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ أى ولأجر دار الآخرة أكبر، أى أكبر من أن يعلمـه أحد قبل أن يشاهـده ؛ « وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا »[٢] . ﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ أى لو كان هؤلاء الظالمون يعلمون ذلك . وقيل : هو راجع إلى المؤمنين . أى لو رأوا ثواب الآخرة وعاينوه لعلموا أنه أكبر من حسنة الدنيا . وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال : هذا ما وعدكم الله فى الدنيا وما ادّخر لكم فى الآخرة أكثر؛ ثم تلا عليهم هذه الآية .

قوله تعـالى : ٱلَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

قيل : ﴿الذين﴾ بدل من «الذين» الأوّل . وقيل : من الضمير فى «لَنُبَوِّئَنَّهُم» وقيل : هم الذين صبروا على دينهم . ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فى كل أمورهم . وقال بعض أهل التحقيق : خيار الخلق من إذا نابه أمر صبر، وإذا عجز عن أمر توكل؛ قال الله تعالى : «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» .

(١) راجع جـ ٥ ص ٣٤٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) آية ٢٠ سورة الانسان .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ قراءة العامة « يُوحَى » بالياء وفتح الحاء . وقرأ حفص عن عاصم « نُوحِي اليهم » بنون العظمة وكسر الحاء . نزلت فى مشركى مكة حيث أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا ، فهلّا بعث إلينا مَلَكًا ؛ فردّ الله تعالى عليهم بقوله : « وما أرسلنا مِن قبلك » إلى الأمم الماضية يا محمد « إلا رِجالا » آدميين . ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ قال سفيان : يعنى مؤمنى أهل الكتاب . ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشرا . وقيل : المعنى فآسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر . رُوِىَ معناه عن ابن عباس ومجاهد . وقال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن . وقيل : أهل العلم، والمعنى متقارب . ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ قيل : « بالبينات» متعلق بـ « أرسلنا » . وفى الكلام تقديم وتأخير، أى ما أرسلنا من قبلك بالبينات والزبر إلا رجالا — أى غير رجال، فـ«إلّا» بمعنى غير؛ كقوله : لا إله إلا الله، وهذا قول الكلبيّ — نوحى اليهم . وقيل : فى الكلام حذف دل عليه « أرسلنا » أى أرسلناهم بالبينات والزبر . ولا يتعلق « بِالبيناتِ » بـ « أرسلنا » الأوّل على هذا القول؛ لأن ما قبل «إلّا» لا يعمل فيما بعدها، وإنما يتعلق بأرسلنا المقدّرة ، أى أرسلناهم بالبينات . وقيل : مفعول بـ « تعلمون » والباء زائدة ، أو نصب بإضمار أعنى؛ كما قال الأعشى :

وليس مُجيرا إن أتى الحيَّ خائف * ولا قائــلا إلا هــو المتعيَّبا

أى أعنى المتعيِّب . والبينات : الحجج والبراهين . والزُّبُر : الكتب . وقد تقدّم فى آل عمران[1] . ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فى هـذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم مبيِّن عن الله عز وجل مراده مما أجمله فى كتابه من أحكام الصلاة والزكاة، وغير ذلك مما لم يفصّله . وقد تقدّم هذا المعنى مستوفًى فى مقدّمة الكتاب، والحمد لله . ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيتّعظون .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ ﴾ أى بالسيئات، وهذا وعيد للشركين الذين احتالوا فى إبطال الإسـلام . ﴿ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ﴾ قال ابن عباس : كما خسف بقارون، يقال : خَسَفَ المكانُ يخسِف خسوفا ذهب فى الأرض، وخسف الله به الأرض خسوفا أى غاب به فيها؛ ومنه قوله : « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ »[2] . وخَسَف هو فى الأرض وخُسِف به . والاسـتفهام بمعنى الإنكار؛ أى يجب ألا يأمنوا عقوبة تلحقهـم كما لحقت المكذبين . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ كما فعل بقوم لوط وغيرهم . وقيل : يريد يوم بدر؛ فإنهـم أهلكوا ذلك اليوم، ولم يكن شىء منـه فى حسابهم . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ ﴾ أى فى أسفارهم وتصرفهم؛ قاله قتادة . ﴿ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ أى مسابقين الله ولا فائتيه . وقيل : « فِى تَقَلُّبِهِم » على فراشهم أينما كانوا . وقال الضحاك : بالليل والنهار . ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَـوُّفٍ ﴾ قال ابن عبـاس ومجاهد وغيرهمـا : أى على تنقّص من أموالهم

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٩٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٧١ سورة القصص .

ومواشيهم وزروعهم . وكذا قال ابن الأعرابى : أى على تنقّص من الأموال والأنفس والثمرات حتى أهلكهم كلّهم . وقال الضحاك : هو من الخوف؛ المعنى : يأخذ طائفة ويدع طائفة، فتخاف الباقيــة أن ينزل بها ما نزل بصاحبتها . وقال الحسن : « على تَخَوُّف » أن يأخذ القرية فتخافه القرية الأخرى ، وهــذا هو معنى القول الذى قبله بعينه ، وهما راجعان إلى المعنى الأوّل ، وأن التخوّف التنقص ؛ تخوّفــه تنقصه ، وتخوّفه الدهر وتخوّنه ( بالفاء والنون ) بمعنًى؛ يقال : تخوّننى فلان حَقِّى إذا تنقصك . قال ذو الرُّمَّة :

لا، بل هو الشّوْقُ مِن دارٍ تَخَوّنها * مَرًّا سحابٌ ومَرًّا بارِحٌ تَرِبُ (١)

وقال لبيـــد :

* تخوّنها نزولى وارتحالى (٢) *

أى تنقص لحمهــا وشحمها . وقال الهَيْثَم بن عَدِىّ : التخوّف ( بالفــاء ) التنقص ، لغـــة لأزدِشَنُوءة . وأنشد :

تخــوّف غَدْرهم مالى وأهْــدَى * سلاسلَ فى الحـلوق لهـا صليل

وقال ســعيد بن المسيِّب : بينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : يأيها الناس، ما تقولون فى قول الله عز وجل : « أَوْ يَأْخُذَهُمْ على تَخَوُّف » فسكت النــاس ، فقال شيخ من بنى هُذَيل : هى لغتنا يا أمير المؤمنين، التخوّف التنقص . فخرج رجل فقال : يا فلان، ما فعل دَيْنُك؟ قال : تخوّفته، أى تنقّصته؛ فرجع فأخبر عمر فقال عمر : أتعرف العرب ذلك فى أشــعارهم ؟ قال نعم؛ قال شاعرنا أبو كَبِير (٣) الهُذَلِىّ يصف ناقة تنقّص السير سنامها بعــد تَمْكه واكتنازه :

تخوّف الرَّحْلُ منهــا تامِكًا قَرِدًا * كما تخــوّف عُودَ النَّبْعــة السَّفَنُ (٤)

(١) البارح : الريح الحارة فى الصيف التى فيها تراب كثير . (٢) هذا عجز البيت ، وصدره كما فى اللسان :

* عُذافرة تُقَمِّص بالرُّدَافَى *

(٣) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان أنه لابن مقبل وقيل لذى الرمة . (٤) القــرد : معناه هنا : المتراكم لحمه بعضه فوق بعض من السمن . والنبعة : شجرة من أشجار الجبال يتخذ منها القسىّ .

فقال عمر : يأيها الناس ، عليكم بديوانكم شعر الجاهلية فان فيه تفسير كتابكم ومعانى كلامكم . تَمَكَ السنام يَتْمِك تَمْكًا، أى طال وارتفع ، فهو تامك . والسَّفَن والمِسْفن ما يُنْجَر به الخشب . وقال اللّيث بن سعد : « على تخوّفٍ » على عجل . وقيل : على تقريع بمـا قدّموه من ذنوبهم ، وهـذا مروى عن ابن عباس أيضا . وقال قتادة : « على تخوّف » أن يعاقب أو يتجاوز . ﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ أى لا يعاجل بل يمهل .

قوله تعـالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قرأ حمزة والكسائىّ وخلف ويحيى والأعمش ﴿ تروا ﴾ بالتـاء، على أن الخطاب لجميـع الناس . الباقون بالياء خبرا عن الذين يمكرون السيئات؛ وهوالاختيار. ﴿ مِنْ شَىْءٍ ﴾ يعنى من جسم قائم له ظل من شجرة أو جبل؛ قاله ابن عباس . و إن كانت الأشياء كلّها سميعة مطيعة لله تعالى . ﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ ﴾ قرأ أبو عمرو و يعقوب وغيرهما بالتاء لتأنيث الظلال . الباقون بالياء ، وٱختاره أبو عبيد . أى يميل من جانب إلى جانب ، و يكون أول النهار على حال ويتقلّص ثم يعـود فى آخر النهار على حالة أخرى ؛ فـدورانها ومَيَلانها من موضع إلى موضع سجودُها ؛ ومنه قيل للظل بالعشى : فَىْءٌ؛ لأنه فاء من المغرب إلى المشرق، أى رجع . والفىء الرجوع؛ ومنه «حَتَّى تَفِيءَ إلَىَ أَمْرِ اللهِ»(١) . روى معنى هذا القول عن الضحاك وقتادة وغيرهما ، وقد مضى هذا المعنى فى سورة «الرعد»(٢) . وقال الزجاج : يعنى سجود الجسم ، وسجودُه انقياده وما يُرَى فيه من أثر الصنعة، وهذا عام فى كل جسم . ومعنى ﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ أى خاضعون صاغرون . والدخور : الصّغار والذّل . يقال : دَخَر الرجل (بالفتح) فهو داخر، وأدخره الله . وقال ذو الرمة :

فـلم يَبْقَ إلا داخِـــرٌ فى مُخَيَّسٍ * ومُنْجَحِرٌ(٣) فى غـير أرْضِك فى جُحْرِ

(١) آية ٩ سورة الحجرات . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٠٢ طبعة أولى أو ثانية . (٣) كذا فى كتب اللغة . يقال : انجحر الضب اذا دخل الجحـر . والذى فى الأصـول وديوان ذى الرمة : « منحجر فى غير أرضك فى جحر » بتقديم الحاء على الجيم فى الكلمتين .

كذا نسبه الماوردى لذى الرمة، ونسبه الجوهرى للفرزدق وقال : المُخَيَّس اسم سجن كان بالعراق؛ أى موضع التذلل . وقال[1] :

أما تراني كيسا مكيسا * بنيت بعد نافع مخيسا

ووحد اليمين فى قوله : «عن اليمين» و جمع الشمائل؛ لأن معنى اليمين و إن كان واحدا الجمع . ولو قال : عن الأيمان والشمائل، واليمين والشمائل، أو اليمين والشمال، أو الأيمان والشمال لجاز؛ لأن المعنى للكثرة . وأيضا فمن شأن العرب إذا اجتمعت علامتان فى شىء واحد أن تجمع إحداهما وتفرد الأخرى ؛ كقوله تعالى : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ » وكقوله : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » ولو قال على أسماعهم و إلى الأنوار لجاز . و يجوز أن يكون ردّ اليمين على لفظ «ما» والشمال على معناها . ومثل هذا فى الكلام كثير . قال الشاعر :

الواردون وتيم فى ذرا سبإ * قد عضّ أعناقهم جلد الجواميس[2]

ولم يقل جلود . وقيل : وحّد اليمين لأن الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة انبسط الظل عن اليمين ثم فى حال يميل إلى جهة الشمال ثم حالات[3]، فسماها شمائل .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أى من كل ما يدب على الأرض . ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ يعنى الملائكة الذين فى الأرض، و إنما أفردهم بالذكر لاختصاصهم

(١) القائل هو سيدنا على رضى الله عنه . ونافع : سجن بالكوفة كان غير مستوثق البناء، وكان من قصب، وكان المحبوسون يهربون منه . وقيل : إنه نقب وأفلت منه المحبّسون ؛ فهدمه على رضى الله عنه و بنى المخيس لهم من مدر .

(٢) البيت لجرير. ورواية ديوانه : تدعوك تيم وتيم فى قرى سبأ * ... ... ... الخ

(٣) هكذا وردت هذه الجملة فى الأصول . ولعل صوابها : لأن الشمس اذا طلعت وانت متوجه الى القبلة انبسط الظل عن اليمين فى حال، ثم يميل الى جهة الشمال فى حالات ؛ فسماها شمائل .

والذى فى البحر لأبى حيان : « وقيل : وحد اليمين و جمع الشمائل لأن الابتداء عن اليمين ، ثم ينقبض شيئا فشيئا حالا بعد حال؛ فهو بمعنى الجمع ، فصدق على كل حال لفظة الشمال فتعدد بتعدد الحالات » .

بشرف المنزلة ، فميّزهم من صفة الدبيب بالذكر و إن دخلوا فيها ؛ كقوله : « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ »[1] . وقيل : لخروجهم من جملة ما يدبّ لما جعل الله لهم من الأجنحة ، فلم يدخلوا فى الجملة فلذلك ذكروا . وقيل : أراد « وللهِ يسجد مافِى السموات » من الملائكة والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب، « وما فِى الأرض مِن دابةٍ » وتسجد ملائكة الأرض . ﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة ربهم . وهذا ردّ على قريش حيث زعموا أن الملائكة بنات الله . ومعنى ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ أى عقاب ربهم وعذابه ، لأن العذاب المهلك إنما ينزل من السماء . وقيل : المعنى يخافون قدرة ربهم التى هى فوق قدرتهم؛ ففى الكلام حذف . وقيل : معنى « يخافون ربهم مِن فوقِهم » يعنى الملائكة، يخافون ربهم وهى من فوق ما فى الأرض من دابة ومع ذلك يخافون ؛ فلأن يخاف مَن دونهم أولى؛ دليل هذا القول قوله تعالى : ﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ يعنى الملائكة .

قوله تعالى : وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ قيل : المعنى لا تتخذوا اثنين إلهين . وقيل : جاء قوله « اثنينِ » توكيدا . ولما كان الإله الحق لا يتعدّد وأن كل من يتعدّد فليس بإله ، اقتصر على ذكر الاثنين؛ لأنه قصد نفى التعديد . ﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ يعنى ذاته المقدّسة . وقد قام الدليل العقلى والشرعى على وحدانيته حسبما تقدّم فى « البقرة »[2] بيانه وذكرناه فى اسمه الواحد فى شرح الأسماء ، والحمد لله . ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ أى خافون . وقد تقدّم فى « البقرة »[3] .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(١) آية ٦٨ سورة الرحمن .    (٢) راجع جـ ٢ ص ١٩٠ وما بعدها طبعة ثانية .
(٣) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ﴾ الدِّين : الطاعة والإخلاص . و « وَاصِبًا » معناه دائما ؛ قاله الفرّاء ، حكاه الجوهريّ . وَصَبَ الشيء يَصِب وُصوبا ، أي دام . ووَصَبَ الرجل على الأمر إذا واظب عليه . والمعنى : طاعة الله واجبة أبدا . وممن قال واصبا دائما : الحسن ومجاهد وقتادة والضحاك . ومنه قوله تعالى : « وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ »(١) أي دائم . وقال الدُّؤَلي :

لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه * بذم يكون الدهر أجمع واصبا

أنشد الغزنوي والثعلبي وغيرهما :

ما أبتغي الحمد القليلَ بقاؤه * يوما بذم الدهر أجمع واصبا

وقيل : الوَصب التعب والإعياء؛ أي تجب طاعة الله وإن تعب العبد فيها . ومنه قول الشاعر :

لا يُمسك الساقَ من أين ولا وَصَب * ولا يَعَضّ على شُرْسُوفِه الصفر(٢)

وقال ابن عباس : « واصبا » واجبا . الفراء والكلبي : خالصا . ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي لا ينبغي أن تتقوا غير الله . و « غير » نصب بـ « تتقون » .

قوله تعالى : وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ قال الفراء . « ما » بمعنى الجزاء . والباء في « بكم » متعلقة بفعل مضمر، تقديره : وما يكن بكم . ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ أي صحة جسم وسَعة رزق وولد فمن الله . وقيل : المعنى وما بكم من نعمة فمن الله هي . ﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ ﴾

(١) آية ٩ سورة الصافات . (٢) الشعر لأعشى باهلة . والشطر الأول من بيت ، والثاني من بيت آخر . والبيتان :

لا يتأرّى لما في القدر يرقبه * ولا يَعَضّ على شرسوفه الصفر

لا يغمز الساق من أين ولا نصب * ولا يزال أمام القوم يقتفر

تأرّى بالمكان : أقام به . والشرسوف : غضروف — كل عظم رخص يؤكل — معلق بكل ضلع مثل غضروف الكتف . والصفر (بالتحريك) : داء في البطن يصفر منه الوجه . وقيل : الصفر هنا الجوع . واقتفر الأثر : تتبعه .

أى السّقم والبلاء والقحْط . ﴿ فإلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أى تضجون بالدعاء . يقال : جَأر يَجْأَر جُؤارا . والجُؤار مثل الخُوار؛ يقال : جأر الثور يجأر، أى صاح . وقرأ بعضهم «عِجْلًا جسَدًا لَهُ جؤَارٌ»؛ حكاه الأخفش . وجأر الرجل إلى الله ، أى تضرّع بالدعاء . وقال الأعشى يصف بقرة :[1]

فطافت ثلاثا بين يوم وليلة　＊　وكان النكير أن تُضِيف وتجأرا[2]

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ ﴾ أى البلاء والسقم . ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ بعد إزالة البلاء وبعد الجؤار . فمعنى الكلام التعجيب من الإشراك بعد النجاة من الهلاك ، وهذا المعنى مكرر فى القرآن ، وقد تقدّم فى « الأنعام و يونس »[3] ، و يأتى فى « سـبحان » وغيرها . وقال الزجاج : هذا خاص بمن كفر . ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ أى ليجحدوا نعمة الله التى أنعم بها عليهم من كشف الضر والبلاء . أى أشركوا ليجحدوا ، فاللام لام كَىْ . وقيل لام العاقبة . وقيل : « لِيَكْفُرُوا بِمَـا آتَيْنَاهُمْ » أى ليجعلوا النعمة سببا للكفر ، وكل هذا فعل خبيث؛ كما قال :

＊ والكفرُ مَخْبَثةٌ لنفس المُنْعِمِ[4] ＊

﴿ فَتَمَتَّعُوا ﴾ أمر تهديد . وقرأ عبدالله « قل تمتعوا » . ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ أى عاقبة أمركم .

قوله تعـالى : وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّـا رَزَقْنَـٰهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَـا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّـا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ ذكر نوعا آخر من جهالتهم، وأنهم يجعلون لمـا لا يعلمون أنه يضر و ينفع ــ وهى الأصنام ــ شيئا من أموالهم يتقربون به اليه ؛ قاله مجـاهد وقتادة وغيرهما . ف « يعلمون » على هذا للشركين . وقيل هى

(١) كذا فى الأصول . والذى فى اللسان مادة « ضيف » وكتاب سيبويه ج ٢ ص ١٧٤ أنه النابغة الجعدى .

(٢) فى الأصول : « تطيف » بالطاء . والتصويب عن اللسان وكتاب سـيبويه . وتضيف : تشفق وتحذر والنكير : الإنكار . والجؤار : الصياح . والمعنى : أن هـذه البقرة فقدت ولدها فطافت تطلبه ثلاث ليال وأياما، ولا إنكار عندها ولا انتصار مما عدا على ولدها إلا أن تشفق وتحذر وتصيح .　(٣) راجع ج ٧ ص ٨ و ج ٨ ص ٣١٧ طبعة أولى وثانية .　(٤) هذا عجز بيت من معلقة عنترة، وصدره :

＊ نبئت عمرا غير شاكر نعمتى ＊

للأوثان ، وجرى بالواو والنون مجـرى من يعقل ، فهو رد على « ما » ومفعول يعـلم محذوف ، والتقدير : ويجعـل هؤلاء الكفار للأصنام التي لا تعلم شـيئا نصيبا . وقد مضى في « الأنعام » تفسير هذا المعنى في قوله : « فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا »[1] ثم رجع من الخبر إلى الخطاب فقال : ﴿ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ وهـذا سؤال توبيخ . ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي تختلقونه من الكذب على الله أنه أمركم بهذا .

قوله تعـالى : وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ ﴾ نزلت في خُزاعة وكنانة ؛ فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله ، فكانوا يقولون ألحقوا البنات بالبنات . ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ نزّه نفسه وعظمها عما نسبوه إليه من اتخاذ الأولاد . ﴿ ولهمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أي يجعلون لأنفسهم البنين ويأنفون من البنات . وموضع « ما » رفع بالابتداء ، والخبر « لهم » وتم الكلام عند قوله : « سبحانه » . وأجاز الفراء كونها نصبا ، على تقدير : ويجعلون لهم ما يشتهون . وأنكره الزجاج وقال : العرب تستعمل في مثل هذا ويجعلون لأنفسهم .

قوله تعـالى : وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ﴾ أي أخبر أحدهم بولادة بنت . ﴿ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾ أي متغيرا ، وليس يريد السواد الذي هو ضد البياض ، وإنمـا هو كناية عن غمـه بالبنت . والعرب تقول لكل من لقي مكروها : قد اسود وجهه غمًّا وحزنا ؛ قاله الزجاج . وحكى المـاوردي أن المراد سوادُ اللون قال : وهو قول الجمهور . ﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي ممتلىء من الغم . وقال ابن عباس : حزين . وقال الأخفش : هو الذي يكظم غيظه فلا يظهره . وقيل : إنه المغموم الذي يطبق فاه فلا يتـكلم من الغم ؛ مأخوذ من الكظامة وهو شـد فم القربة ؛ قاله علي بن عيسى . وقد تقدّم هذا المعنى في سورة « يوسف »[2] .

(١) راجع جـ ٧ ص ٨٩ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٤٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ ﴾ أى يختفى ويتغيّب . ﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ أى من سوء الحزن والعار والحياء الذى يلحقه بسبب البنت . ﴿ أَيُمْسِكُهُ ﴾ ذكّر الكناية لأنه مردود على « ما » . ﴿ عَلَى هُونٍ ﴾ أى هوان . وكذا قرأ عيسى الثقفىّ « على هوان » والهُون الهوان بلغة قريش ؛ قاله اليزيدى وحكاه أبو عبيد عن الكسائىّ . وقال الفراء : هو القليل بلغة تميم . وقال الكسائىّ : هو البلاء والمشقة . وقالت الخنساء :

نُهين النفوسَ وهُونُ النفو * س يوم الكريهة أبقَى لها

وقرأ الأعمش «أيمسكه على سوء» ذكره النحاس، قال : وقرأ الجحدرىّ «أم يدسّها فى التراب» يردّه على قوله : « بالأنثى » ويلزمه أن يقرأ « أيمسكها » . وقيل : يرجع الهوان إلى البنت؛ أى أيمسكها وهى مهانة عنده . وقيل : يرجع إلى المولود له؛ أيمسكه على رغم أنفه أم يدسه فى التراب، وهو ما كانوا يفعلونه من دفن البنت حيّة . قال قتادة : كان مُضَر وخُزاعة يدفنون البنات أحياء، وأشدهم فى هـذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن . وكان صَعْصَعة بن ناجية عمّ الفرزدق إذا أحس بشىء من ذلك وجه إلى والد البنت إبلا يستحييها بذلك . فقال الفرزدق يفتخر :

وعمّى الذى منَع الوائداتِ * وأحيا الوَئيـد فلم يُوأَدِ

وقيـل : دَسُّها إخفاؤها عن الناس حتى لا تُعرف، كالمدسوس فى التراب لإخفـائه عن الأبصار؛ وهذا محتمل .

مســألة ــ ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتنى فلم تجد عندى غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت وابنتاها، فدخل علىّ النبىّ صلى الله عليه وسلم فحدّثته

حديثَها، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "من ابتُلى من البنات بشىء فأحسن إليهن كن له سترا من النار". ففى هذا الحديث ما يدل على أن البنات بلية، ثم أخبر أن فى الصبر عليهن والإحسان إليهن ما يقى من النار . وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لهـا، فأطعمتها ثلاث تمـرات فأعطت كل واحدة منهما تمـرة ، ورفعت إلى فيهـا تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتـاها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما؛ فأعجبنى شأنها، فذكرتُ الذى صنعتْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار". وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو" وضم أصابعه، خرّجهما أيضا مسلم رحمـه الله ! وخرج أبو نعيم الحـافظ من حديث الأعمش عن أبى وائل عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كانت له بنت فأدّبها فأحسن أدبها وعلّمها فأحسن تعليمها وأسبغ عليها من نعم الله التى أسبغ عليه كانت له سترا أو حجابا من النار" . وخُطب إلى عَقيل بن عُلّفة ابنته الجرباء فقال :

إنى وإن سِـيق إلىّ المَهْـرُ * ألفٌ وعُبدان وخُـورٌ(1) عشرُ

* أَحَبُّ أصهارى إلىّ القبر *

وقال عبد الله بن طاهر :

لكل أبى بنت يراعى شؤونها * ثلاثةُ أصهار إذا حُمِـد الصِّهْرُ

فَبعْلٌ يُراعيها وخِدْر يكنُّها * وقـبر يُواريها وخيرُهم القـبْرُ

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أى فى إضافة البنات إلى خالقهم و إضافة البنين إليهـم . نظيره «أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى»(2) أى جائرة، وسيأتى .

---

(1) الخور : جمع خوّارة على غير قياس ، وهى الناقة الغزيرة اللبن . (2) آية ٢١ سورة النجم .

قوله تعـالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى لهؤلاء الواصفين لله البنات ﴿ مَثَلُ السَّوْءِ ﴾ أى صفة السوء من الجهل والكفر . وقيل : هو وصْفُهم الله تعالى بالصاحبة والولد . وقيل : أى العذاب والنار . ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ﴾ أى الوصـف الأعلى من الإخلاص والتوحيد؛ قاله قتـادة . وقيـل : أى الصفة العليا بأنه خالق رازق قادر ومجـازٍ . وقال ٱبن عباس : «مثل السوء» النار ، و «المثل الأعلى » شهادة أن لا إله إلا الله . وقيل : ليس كمثله شيء . وقيل : « ولله المثل الأعلى » كقوله : « اللهُ نورُ السموات والأرض مَثَلُ نُوره »[1] . فإن قيل : كيف أضاف المثـل هنا إلى نفسه وقد قال : «فلا تضربوا لله الأمثال»[2] فالجواب أن قوله : «فلا تضربوا لله الأمثال » أى الأمثال التى توجب الأشباه والنقائص ؛ أى لا تضربوا لله مثلا يقتضى نقصا وتشبيها بالخلق . والمثل الأعلى وصفه بما لا شبيه له ولا نظير ، جَلّ وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلوًّا كبيرا . ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ تقدّم معناه[3] .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ أى بكفرهم وافترائهم ، وعاجلهم . ﴿ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ أى على الأرض ، فهو كناية عن غير مذكور ، لكن دل عليه قوله : ﴿ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ فإن الدابة لا تَدِبّ إلا على الأرض . والمعنى المراد من دابة كافرة ، فهو خاص . وقيل : المعنى أنه لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء . وقيل : المراد بالآية العموم ؛ أى لو آخذ الله الخلق بما كسبوا ما ترك على

---

(١) آية ٣٥ سورة النور . (٢) آية ٧٤ من هذه السورة . (٣) راجع جـ١ ص ٢٨٧ وجـ٢ ص ١٣١ طبعة ثانية .

ظهر هذه الأرض من دابة من نبيّ ولا غيره؛ وهذا قول الحسن. وقال ابن مسعود وقرأ هذه الآية: لو آخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأصاب العـذابُ جميع الخلق حتى الجِعْلانَ[(1)] فى جُحْرها، ولأمسك الأمطار من السماء والنبات من الأرض فمـات الدواب، ولكن الله يأخذ بالعفو والفضل؛ كما قال: «وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ»[(2)]. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾ أى أجل موتهم ومنتهى أعمارهم. ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ وقد تقدم[(3)]. فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمنـا ليس بظالم؟ قيـل: يجعل هلاك الظالم انتقاما و جزاء، وهلاك المؤمن معوّضا بثواب الآخرة. وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا أراد الله بقوم عذابا أصاب العذاب من كان فيهم ثم بُعثوا على نياتهم"[(4)]. وعن أم سَـلمة وسئلت عن الجيش الذى يخسف به وكان ذلك فى أيام ابن الزبير، فقالت قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: "يعوذ بالبيت عائذ فيُبعث إليه بَعْث فإذا كانوا ببَيْداء من الأرض خُسِف بهم" فقلت: يارسول الله، فكيف بمن كان كارها؟ قال: "يخسَف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته". وقد أتينا على هـذا المعنى مُجوّدا فى (كتاب التذكرة) وتقدم فى «المـائدة» وآخر «الأنعام»[(5)] ما فيه كفاية، والحمد لله. وقيل: «فإذا جاء أجلهم» أى فإذا جاء يوم القيامة. والله أعلم.

قوله تعـالى: وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أى من البنات. ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ﴾ أى وتقول ألسنتهم الكذب. ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ﴾ قال مجاهـد: هو قولهم أن لهم البنين ولله البنات. «الكذبَ» مفعول «تصف» و «أنّ» فى محل نصب بدل من الكذب؛ لأنه

---

(1) الجعلان (بكسر الجيم جمع جعل، كصرد): دابة ســوداء من دواب الأرض. (2) آية ٣٠ ســورة الشورى. (3) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ طبعة أولى أو ثانية. (4) فى صحيح مسلم: «على أعمالهم». (5) راجع جـ ٦ ص ٣٤٢ و جـ ٧ ص ١٥٧ طبعة أولى أو ثانية.

بيان له . وقيـــل : « الحسنى » الجزاء الحسن؛ قاله الزجاج . وقرأ ابن عباس وأبو العاليـــة ومجاهد وابن مُحَيْصِن « الكُذُب » برفع الكاف والذال والباء نعتا للألسنة؛ وكذا « ولا تقولوا لِمـا تَصِف أَلسِنتكم الكَذِب»[1] . والكُذُب جمع كذوب؛ مثل رَسُول ورُسُل وصَبُور وصبر وشَكُور وشُكُر . ﴿ لَا ﴾ رَدٌّ لقولهم، وتمّ الكلام، أي ليس كما تزعمون . ﴿ جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ ﴾ أي حقا أن لهم النار . وقد تقـدّم مستوفًى[2] . ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ متركون منسيون في النـار؛ قاله ابن الأعرابيّ وأبو عبيدة والكسائيّ والفراء، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير أيضا : مبعدون . قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . والفارط : الذي يتقدم إلى المـاء؛ ومنه قول النبيّ صـلى الله عليه وسلم : " أنا فَرَطُكم على الحوض " أي متقدّمكم . وقال القَطَاميّ :

فاستعجلونا وكانوا من صحابتنـا * كما تعجّـــل فُـــرّاط لوُرّاد

والفرّاط : المتقدّمون في طلب المـاء . والورّاد : المتأخرون . وقـرأ نافع في رواية وَرْش « مُفْرِطون » بكسر الراء وتخفيفها ، وهي قراءة عبـد الله بن مسعود وابن عباس ، ومعناه مسرفون في الذنوب والمعصية ، أي أفرطوا فيهـا . يقال : أفرط فلان على فلان إذا أَرْبَى عليـه، وقال له أكثر ممـا قال من الشر . وقرأ أبو جعفر القارئ « مُفَرِّطون » بكسر الراء وتشديدها ، أي مضيّعون أمر الله؛ فهو من التفريط في الواجب .

قوله تعـالى : تَاللَّهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُـمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُـمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ تَاللهِ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أعمالهم الخبيثة . هذا تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسـلم بأن من تقدّمه من الأنبياء قد كفر بهم قومُهم . ﴿ فَهُـوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ ﴾ أي ناصرهم في الدنيـا على زعمهم . ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(١) آية ١١٦ من هذه السورة . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

فى الآخرة . وقيل : « فهو وليّهم » أى قرينهم فى النار . ﴿ الْيَوْمَ ﴾ يعنى يوم القيامة، وأطلق عليه اسم اليوم لشهرته . وقيل يقال لهم يوم القيامة : هذا وليكم فاستنصروا به لينجيكم من العذاب، على جهة التوبيخ لهم .

قوله تعـالى : وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

قوله تعالى : ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ أى القرآن ﴿إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ من الدين والأحكام فتقوم الحجة عليهم ببيانك . وعطف « هُدًى ورحمةً » على موضع قوله : « لِتُبَيِّنَ » لأن محـله نصب . ومجاز الكلام : وما أنزلنـا عليك الكتاب إلا تبيانا للناس . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى رشدا ورحمة للؤمنين .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أى السحاب . ﴿مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ عاد الكلامُ إلى تعـداد النعم وبيان كمال القدرة . ﴿ إن فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ أى دلالة على البعث وعلى وحدانيتـه ؛ إذ علموا أن معبودهم لا يستطيع شيئا ، فتكون هـذه الدلالة . ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ عن الله تعـالى بالقلوب لا بالآذان؛ « فإنها لا تَعْمَى الأبصارُ ولكن تَعْمَى القلوبُ التى فِى الصدورِ »[1] .

قوله تعـالى : وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

(١) آية ٤٦ سورة الحج .

فيـــه عشر مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ﴾ قد تقدّم القول فى الأنعـام[1]، وهى هنا الأصناف الأربعة : الإبل والبقر والضأن والمعز . ﴿ لَعِبْرَةً ﴾ أى دلالة على قدرة الله ووحدانيته وعظمته . والعِبرة أصلها تمثيل الشيء بالشيء لتعرف حقيقته من طريق المشاكلة، ومنه « فَٱعْتَبِرُوا »[2] . وقال أبو بكر الورّاق : العبرة فى الأنعام تسخيرها لأربابها وطاعتها لهم، وتمرّدك على ربّك وخلافك له فى كل شيء . ومن أعظم العِبَر برىء يحمل مذنبا .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ نُسْقِيكُمْ ﴾ قراءة أهل المدينة وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر ( بفتح النون ) من سَقَى يَسْقِى . وقرأ البـاقون وحفص عن عاصم ( بضم النون ) من أسقى يُسقِى، وهى قراءة الكوفيين وأهل مكة . قيل : هما لغتان . وقال لَبِيد :

سَقَى قَومِى بنى مَجْـدٍ وأسقى * نُمَيْراً والقبائلَ من هِـــلالِ

وقيل : يقال لمـا كان من يدك إلى فيه سقيته، فإذا جعلت له شِرْباً أو عرضته لأن يشرب بفيه أو يزرعه قلت أسقيته؛ قاله ابن عَزيز، وقد تقدّم[3] . وقرأت فرقة « تَسقِيكم » بالتاء، وهى ضعيفة، يعنى الأنعام . وقرئ بالياء، أى يسقيكم الله عز وجل . والقراء على القراءتين المتقدّمتين؛ ففتح النون لغة قريش وضمها لغة حِمير .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِمَّـا فِي بُطُونِهِ ﴾ اختلف الناس فى الضمير من قوله : « ممـا فِى بطونِهِ » على ماذا يعود . فقيل : هو عائد إلى ماقبله وهو جمـع المؤنث . قال سيبويه : العرب تخبر عن الأنعام بخبر الواحد . قال ابن العربىّ : وما أراه عوّل عليـه إلا من هـذه الآية، وهذا لايشبه منصبه ولا يليق بإدراكه . وقيل : لمـا كان لفظ الجمع وهو اسم الجنس يذكر ويؤنث فيقال : هو الأنعام وهى الأنعام، جاز عود الضمير بالتذكير؛ وقاله الزجاج .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) من آية ٢ سورة الحشر .

(٣) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

وقال الكسائى : معناه مما فى بطون ماذكرناه ، فهو عائد على المذكور؛ وقد قال الله تعالى : « إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ »[1] وقال الشاعر :

* مثل الفِراخ نُتِفتْ حواصلُه *

ومثله كثير . وقال الكسائى : «مِمَّا فِي بطونِه» أى مما فى بطون بعضه ؛ إذ الذكور لا ألبان لها، وهو الذى عوّل عليه أبو عبيدة . وقال الفرّاء : الأنعام والنَّعَم واحد، والنَّعَم يذكر، ولهذا تقول العرب: هذا نَعَم وارد، فرجع الضمير إلى لفظ النَّعَم الذى هو بمعنى الأنعام . قال ابن العربى : إنما رجع التذكير إلى معنى الجمع، والتأنيث إلى معنى الجماعة، فذكّره هنا باعتبار لفظ الجمع، وأنثه فى سورة المؤمنين باعتبار لفظ الجماعة فقال: «نُسقيكم مما فِي بطونِها»[2] وبهذا التأويل ينتظم المعنى انتظاما حسنا . والتأنيث باعتبار لفظ الجماعة والتذكير باعتبار لفظ الجمع أكثر من رَمْل يَبْرِين[3] وتَيْهاء فِلَسْطِين .

الرابعـــة — استنبط بعض العلماء الجِلّة وهو القاضى إسماعيل من عود هذا الضمير، أن لبن الفحل يفيد التحريم، وقال : إنما جىء به مذكّرا لأنه راجع إلى ذكر النَّعَم؛ لأن اللبن للذكر محسوب ، ولذلك قضى النبىّ صلى الله عليه وسلم بأن لبن الفحل يحرّم حين أنكرته عائشة فى حديث أفْلح أخى أبى القُعَيس « فللمرأة السّقى وللرجل اللقاح» بجرى الاشتراك فيه بينهما. وقد مضى القول فى تحريم لبن الفحل فى « النساء»[4] والحمد لله .

الخامســة — قوله تعالى: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا ﴾ نبّه سبحانه على عظيم قدرته بخروج اللبن خالصا بين الفَرْث والدم . والفَرْثُ : الزِّبل الذى ينزل إلى الكَرِش، فإذا خرج لم يُسَمَّ فَرْثًا . يقال : أَفْرَثْت الكَرِش إذا أخرجت مافيها . والمعنى : أن الطعام يكون منه ما فى الكَرِش و يكون منه الدّم، ثم يخلص اللبن من الدم؛ فأعلم الله سبحانه أن هذا اللبن يخرج من بين ذلك وبين الدّم فى العروق . وقال ابن عباس : إن الدابة تأكل العلف

---

(١) آية ١١ سورة عبس . (٢) آية ٢١ سورة المؤمنون . (٣) رمل لا تدرك أطرافه عن يمين مطلع الشمس من حجر اليمامة . ( ياقوت ) . (٤) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية .

فإذا استقر فى كَرشها طبختَه فكان أسفله فرثا وأوسطه لبنـا وأعلاه دما، والكبد مسلّط على هـذه الأصناف فتقسم الدم وتميّزه وتُجريه فى العروق، وتجرى اللبن فى الضرع ويبقى الفرث كما هو فى الكَرِش؛ « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ »[1]. ﴿ خَالِصًا ﴾ يريد من حمرة الدم وقذارة الفَرْث وقد جمعهما وعاء واحد. وقال ابن بحر: خالصا بياضه. قال النابغة:

* بخالصة الأَرْدان[2] خُضْرِ المناكب *

أى بيض الأكمام. وهذه قدرة لاتنبغى إلا للقائم على كل شئ بالمصلحة.

السادســـة — قال النقاش: فى هذا دليل على أن المنِيّ ليس بنجس. وقاله أيضا غيره واحتج بأن قال: كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم سائغا خالصا كذلك يجوز أن يخرج المنى على مخرج البول طاهرا. قال ابن العربى: إن هذا لجهل عظيم وأخذ شنيع. اللبن جاء الخبر عنه مجىء النعمة والمنـة الصادرة عن القدرة ليكون عبرة، فاقتضى ذلك كله وصف الخلوص واللذة، وليس المنِيّ من هذه الحالة حتى يكون ملحقا به أو مَقيسا عليه.

قلت: قد يعارَض هذا بأن يقال: وأىّ مِنّة أعظم وأرفع من خروج المنى الذى يكون عنه الإنسان المكرم؛ وقد قال تعالى: « يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »[3]، وقال: « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً »[4] وهذا غاية فى الامتنان. فإن قيل: إنه يتنجس بخروجه فى مجرى البول، قلنا: هو ما أردناه، فالنّجاسة عارضة وأصله طاهر؛ وقد قيل: إن مَخْرَجه غير مخرج البول وخاصّةً المرأة؛ فإن مَدخل الذكر منها ومخرج الولد غيرُ مخرج البول على ما قاله العلماء. وقـد تقدّم فى البقرة. فإن قيل: أصـله دم فهو نجس، قلنا ينتقض بالمسك، فإن أصله دم وهو طاهر. وممن قال بطهارته الشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور وغيرهم؛ لحديث عائشة رضى الله عنها قالت: كنت أفركه من ثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم يابسا بظفرى. قال الشافعىّ: فإن لم يُفْرَك فلا بأس به. وكان سعد

---

(١) آية ٥ سورة القمر. (٢) الأردان: جمع ردن (بضم الراء وسكون الدال) وهو أصل الكم.
(٣) آية ٧ سورة الطارق. (٤) آية ٧٢ من هذه السورة.

ابن أبى وَقّاص يفـرك المنىّ من ثوبه . وقال ابن عبـاس : هو كالنُّخامة أمِطْه عنك بإذْخِرة وامسحه بخرقة . فإن قيل : فقد ثبت عن عائشة أنها قالت : كنت أغسل المنىّ من ثوب رسول الله صلى الله عليـه وسلم ثم يخرج إلى الصلاة فى ذلك الثوب وأنا أنظر إلى أثر الغسل فيه . قلنا : يحتمل أن تكون غسلته استقذارا كالأشياء التى تزال من الثوب كالنجاسة، ويكون هـذا جَمْعًا بين الأحاديث . والله أعلم . وقال مالك وأصحابه والأوْزاعىّ : هو نجس . قال مالك : غسل الاحتـلام من الثوب أمر واجب مجتمع عليـه عندنا، وهو قول الكوفيين . ويروى عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وجابر بن سمرة أنهم غسلوه من ثيابهم . واختلف فيه عن ابن عمر وعائشة . وعلى هذين القولين فى نجاسة المنى وطهارته التابعون .

السابعـــة — فى هـذه الآية دليل على جواز الانتفاع بالألبان من الشرب وغيره ، فأما لبن الميتـة فلا يجوز الانتفـاع به ؛ لأنه مائع طاهر حصل فى وعاء نجس، وذلك أن ضَرْع الميتـة نجس واللبن طـاهر فإذا حلب صار مأخوذا من وعاء نجس . فأما لبن المرأة الميتـة فاختلف أصحابنا فيـه ، فمن قال : إن الإنسان طاهر حيـا وميتا فهو طاهر . ومن قال : يَنْجُس بالموت فهو نجس . وعلى القولين جميعـا تثبت الحرمة؛ لأن الصبى قـد يغتذى به كما يغتذى من الحيـة ؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : " الرضاع ما أنبت اللحم وأنشز العظم "[(١)] . ولم يخصّ؛ وقد مضى فى « النساء » .

الثامنـــة — قوله تعالى : ﴿ سَآئِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ أى لذيذا هيِّنا لا يَغَصّ به من شربه . يقال : ساغ الشراب يسوغ سوغا أى سهل مدخله فى الحلق، وأساغه شاربه، وسغته أنا أسيغه وأسوغه ، يتعدّى ولا يتعدّى، والأجود أسـغته إساغة . يقال : أسِغ لى غُصّتى أى أمهلنى ولا تُعجلنى؛ وقال تعالى: « يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ »[(٢)] . والسِّواغ (بكسر السين) ما أسغت به غُصّتك . يقال : المـاء سِواغ الغُصَص؛ ومنه قول الكُمَيْت :

* فكانت سِـوَاغًا أن جَئِزْت بغُصّـة *

وروى أن اللبن لم يَشْرَق به أحد قطّ، وروى ذلك عن النبىّ صلى الله عليه وسلم .

(١) راجع جـ ٥ ص ١١١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ١٧ سورة إبراهيم .

التاســـعة — فى هـذه الآية دليل على اسـتعمال الحلاوة والأطعمة اللذيذة وتناولها ، ولا يقال : إن ذلك يناقض الزهـد أو يباعده ، لكن إذا كان من وجهه ومن غير سَرَف ولا إكثار . وقد تقدّم هـذا المعنى فى « المـائدة »(١) وغيرها . وفى الصحيح عن أنس قال : لقد سقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدحى هـذا الشراب كله : العسل والنبيذ واللبن والمـاء . وقـد كره بعض القـراء أكل الفالوذَج(٢) واللين من الطعام، وأباحه عامة العلمـاء . وروى عن الحسن أنه كان على مائدة ومعه مالك بن دينار، فأتى بفالوذَج فامتنع عن أكله، فقال له الحسن : كُلْ ! فانّ عليك فى المـاء البارد أكثر من هذا .

العـاشرة — روى أبو داود وغيره عن ابن عباس قال : أتى رسول الله صلى الله عليـه وسـلم بلبن فشرب، فقال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " إذا أكل أحدكم طعاما فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وأطعمنا خيرا منه . وإذا سُقِىَ لبنا فليقل اللّهُمّ بارك لنا فيه وزدنا منه فانه ليس شيء يجزى عن الطعام والشراب إلا اللبن " . قال علماؤنا : فكيف لا يكون ذلك وهو أوّل ما يغتـذى به الإنسان وتَنْمِى به الجثث والأبدان، فهو قوت خلىّ عن المفاسـد به قِوام الأجسام ، وقد جعله الله تعالى علامة لجبريل على هداية هذه الأمة التى هى خير الأمم أمة ؛ فقال فى الصحيح : " فجاءنى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال لى جبريل اخترت الفِطرة أما إنك لو اخترت الخمر غَوَتْ أمتك " . ثم إن فى الدعاء بالزيادة منـه علامة الخِصب وظهور الخيرات والبركات؛ فهو مبارك كله .

قوله تعـالى : وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ ﴾ قال الطبرى : التقدير ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون ؛ فحذف « ما » ودلّ على حذفه قوله : « منه » . وقيل :

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ وما بعدها . وجـ ٧ ص ١٩١ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل . (عن الألفاظ الفارسية المعربة) .

المحذوف شئ، والأمر قريب . وقيل : معنى «منه» أى منْ المذكور، فلا يكون فى الكلام حذف وهو أولى . ويجوز أن يكون قوله : «ومِن ثمراتِ» عطفا على «الأنعام»؛ أى ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة . ويجوز أن يكون معطوفا على «مما» أى ونسقيكم أيضا مشروبات من ثمرات .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿سَكَرًا﴾ السَّكَر ما يُسكِر؛ هــذا هو المشهور فى اللغة . قال ابن عباس : نزلت هــذه الآية قبل تحريم الخمر . وأراد بالسَّكَر الخمر، وبالرزق الحسن جميعَ ما يؤكل ويشرب حلالا من هاتين الشجرتين . وقال بهذا القول ابن جُبير والنَّخَعي والشَّعبي وأبو ثور . وقد قيل : إن السَّكَر الخَلّ بلغة الحبشة، والرزق الحسن الطعام . وقيل : السكر العصير الحلو الحلال، وسُمّيَ سَكَرًا لأنه قـد يصير مسكرا إذا بقى ، فاذا بلغ الإسكار حرم . قال ابن العربى : «أسَدّ هذه الأقوال قولُ ابن عباس، ويخرج ذلك على أحد معنيين، إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر، وإما أن يكون المعنى : أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرّم الله عليكم اعتداء منكم، وما أحل لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم . والصحيح أن ذلك كان قبـل تحريم الخمر فتكون منسوخة؛ فان هــذه الآية مكية باتفاق من العلماء، وتحريم الخمر مدنى» .

قلت : فعلى أن السَّكَر الخَلّ أو العصير الحلو لا نسخ، وتكون الاية محكمة وهو حسن . قال ابن عباس : الحبشة يسمّون الخَـلّ السَّكَر، إلا أن الجمهور على أن السكر الخمـر ، منهم ابن مسعود وابن عمر وأبو رزين والحسن ومجاهد وابن أبى لَيْلى والكَلْبِيّ وغيرهم ممن تقـدّم ذكرهم، كلهم قالوا : السَّكَر ما حرمه الله من ثمرتيهما . وكذا قال أهل اللغة : السكَر اسم للخمر وما يُسكر ، وأنشدوا :

بئس الصُّحاة وبئس الشَّربُ شَربهمُ * اذا جرى فيهـــم المُزّاء والسَّــكَر

والرزق الحسن : ما أحله الله من ثمرتيهما . وقيــل : إن قوله «تَتَّخِــذُون مِنه سَكَرًا» خبرٌ معناه الاستفهام بمعنى الإنكار؛ أى أتتخذون منه سكرا وتَدَعون رزقا حسنا الخلّ والزبيبَ

والتمـر؛ كقوله : « فهم الخالدون » أى أفهـم الخالدون . والله أعلم . وقال أبو عبيدة : السَّكَر الطُّعم؛ يقال : هذا سَكَرٌ لك أى طُعم . وأنشد :

* جعلتَ عَيْبَ الأكرمين سَكَرا *

أى جعلتَ ذمّهم طُعما . وهـذا اختيار الطبرى أن السَّكَر ما يُطعم من الطعام وحَلّ شربه من ثمـار النخيل والأعناب؛ وهـو الرزق الحسن؛ فاللفظ مختلف والمعنى واحد؛ مثل « إِنَّمَـا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ »(١) وهذا حسن ولا نسخ؛ إلا أن الزجاج قال : قول أبى عبيدة هذا لا يعرف؛ وأهل التفسير على خلافه؛ ولا حجة له فى البيت الذى أنشده؛ لأن معناه عند غيره أنه يصف أنها تتخمر بعيوب الناس . وقال الحنفيون : المراد بقوله : « سَكَرًا » ما لا يُسكر من الأنبذة ؛ والدليل عليه أن الله سبحانه وتعالى امتن على عباده بمـا خلق لهم من ذلك؛ ولا يقع الامتنان إلا بمحلَّل لا بمحرَّم؛ فيكون ذلك دليلا على جواز شرب ما دون المسكر من النبيذ؛ فإذا انتهى إلى السكر لم يجز؛ وعَضَدوا هـذا من السنة بما روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "حرم الله الخمـر بعينها والسَّكر من غيرها" . وبمـا رواه عبد الملك بن نافع عن ابن عمر قال : رأيت رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عند الركْن؛ ودفع إليه القدح فرفعـه إلى فيه فوجده شـديدا فردّه إلى صاحبـه؛ فقال له حينئذ رجل من القوم : يا رسول الله؛ أحرام هو ؟ فقال : "علىّ بالرجل" فأُتِى به فأخذ منه القدح؛ ثم دعا بمـاء فصبه فيه ثم رفعـه الى فيه فقطّب؛ ثم دعا بمـاء أيضا فصـبّه فيه ثم قال : "إذا اغتلمت(٢) عليكم هذه الأوعية فاكسروا متُونها بالمـاء" . وروى أنه عليه السلام كان يُنْبَذ له فيشرب به ذلك اليوم؛ فاذا كان من اليوم الثانى أو الثالث سقاه الخادمَ إذا تغيّر؛ ولو كان حراما ما سقاه إياه . قال الطحاوى : وقد روى أبو عَون الثّقفى عن عبـد الله بن شـداد عن ابن عباس قال : حرمت الخمر بعينها القليل منها والكثير والسّكر من كل شراب ؛ خرجه الدارقطنىّ أيضا .

(١) آية ٨٦ سورة يوسف .
(٢) الاغتلام مجاوزة الحد؛ أى اذا جاوزت حدها الذى لا يسكر الى حدها الذى يسكر .

فهى هذا الحديث وما كان مثله ، أن غير الخمر لم تحرم عينه كما حرمت الخمر بعينها . قالوا : والخمر شراب العنب لا خلاف فيها ، ومن حجتهم أيضا ما رواه شُريك بن عبد الله ، حدثنا أبو إسحاق الهَمْدانى عن عمرو بن ميمون قال قال عمر بن الخطاب : إنا نأكل لحوم هـذه الإبل وليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ . قال شريك : ورأيت الثّورىّ يشرب النبيذ فى بيت حَبْرِ أهل زمانه مالكِ بن مِغول . والجواب أن قولهم : إن الله سبحانه وتعالى آمتن على عباده ولا يكون امتنانه إلا بمـا أحل فصحيح؛ بَيْد أنه يحتمل أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر كما بيناه فيكون منسوخا كما قدمناه . قال ابن العربىّ : إن قيل كيف ينسخ هـذا وهو خبر والخبر لا يدخله النسخ ، قلنا : هـذا كلام من لم يتحقق الشريعـة ، وقد بينا أن الخبر إذا كان عن الوجود الحقيقىّ أو عن إعطاء ثواب فضلا من الله فهو الذى لا يدخله النسخ ، فأما إذا تضمن الخبر حكما شرعيا فالأحكام تتبدّل وتنسخ ، جاءت بخبر أو أمر ، ولا يرجع النسخ إلى نفس اللفظ وإنمـا يرجع إلى ما تضمنه ، فإذا فهمتم هـذا خرجتم عن الصِّنف الغبىّ الذى أخبر الله عن الكفار فيـه بقوله : « وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١) » . المعنى أنهم جهلوا أن الرب يأمر بما يشاء ويكلف ما يشاء ، ويرفع من ذلك بعدله ما يشاء ويثبت ما يشاء وعنده أمّ الكتاب .

قلت : هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار ، والمسألة أصولية ، وهى أن الأخبار عن الأحكام الشرعية هل يجوز نسخها أم لا ؟ اختلف فى ذلك ، والصحيح جوازه لهذه الآية وما كان مثلها ، ولأن الخبر عن مشروعية حكم ما يتضمن طلب ذلك المشروع ، وذلك الطلب هـو الحكم الشرعىّ الذى يُسـتدلّ على نسخه . والله أعلم . وأما ما ذكروا من الأحاديث فالأول والثانى ضعيفان؛ لأنه عليه السلام قـد روى عنه بالنقل الثابت أنه قال : "كل شراب أسكر فهو حرام" وقال : "كل مسكر خمرٌ وكل مسكر حرام" وقال : "ما أسكر كثيره فقليله حرام". قال النَّسائىّ : وهؤلاء أهل الثَّبَت والعدالة مشهورون

(١) آية ١٠١ من هذه السورة .

بصحة النقل، وعبد الملك لا يقــوم مقام واحد منهم ولو عاضــده من أشكاله جماعة، وبالله التوفيق . وأما الثالث وإن كان صحيحا فإنه ما كان يسقيه للخادم على أنه مسكر، وإنمـا كان يسقيه لأنه متغير الرائحة . وكان صلى الله عليه وسلم يكره أن توجد منه الرائحة، فلذلك لم يشربه، ولذلك تحيّل عليه أزواجه فى عسل زينب بأن قيل له : إنا نجد منك ريحَ مغافير، يعنى ريحا منكرة، فلم يشربه بعدُ . وسيأتى فى التحريم . وأما حديث ابن عباس فقد روى عنه خلاف ذلك من رواية عطاء وطاوس ومجاهد أنه قال: ما أسكر كثيره فقليله حرام، ورواه عنه قيس آبن دينار . وكذلك فُتياه فى المســكر؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ . والحــديث الأول رواه عنه عبد الله ابن شدّاد وقد خالفه الجماعة، فسقط القول به مع ما ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وســلم . وأما ما روى عن عمر من قوله : ليس يقطعه فى بطوننا إلا النبيذ، فإنه يريد غير المسكر بدليل ما ذكرنا . وقد روى النَّسائيّ عن عتبة بن فَرْقَد قال : كان النبيذ الذى شربه عمر بن الخطاب قد خُلّل . قال النسائيّ : ومما يدل على صحة هذا حديثُ السائب، قال الحارث بن مِسْكين قراءة عليه وأنا أسمــع عن ابن القاسم : حدثنى مالك عن ابن شهاب عن السائب بن يزيد، أنه أخبره أن عمر بن الخطاب خرج عليهم فقال: إنى وجدت من فلان ريح شراب، فزعم أنه شراب الطِّلاء، وأنا سائل عمـا شرب، فإن كان مسكرا جلدته، فجلده عمر بن الخطاب رضى الله عنــه الحدّ تامًّا . وقد قال فى خطبته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا بعــد، أيها الناس فإنه نزل تحريم الخمر وهى من خمسة: من العنب والعسل والتمر والحنطة والشعير . والخمر ماخامر العقل . وقد تقدم فى « المـائدة »[1] . فإن قيل : فقد أحلّ شربه إبراهيمُ النَّخَعِيّ وأبو جعفر الطحاويّ وكان إمام أهــل زمانه، وكان ســفيان الثوريّ يشربه . قلنا : ذكر النَّسائيّ فى كتابه أن أول من أحل المسكر من الأنبذة إبراهيم النخعيّ، وهذه ذلة من عالم وقد حذرنا من زلة العالم، ولا حجة فى قول أحد مع السنة . وذكر النسائيّ أيضا عن ابن المبارك قال : ما وجدت الرخصة فى المسكر عن أحد صحيحا إلا عن إبراهيم . قال أبو أسامة : مارأيت

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٨٥ طبعة أولى أو ثانية .

رجلا أطلب للعلم من عبد الله بن المبارك الشامات[١] ومصر واليمن والحجاز . وأما الطحاوىّ وسفيان لو صح ذلك عنهما لم يحتج بهما على من خالفهما من الأئمة فى تحريم المسكر مع ما ثبت من السنة؛ على أن الطحاوىّ قد ذكر فى كتابه الكبير فى الاختلاف خلافَ ذلك .
قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب التمهيد له : قال أبو جعفر الطحاوىّ اتفقت الأمة على أن عصير العنب إذا اشتد وغَلَى وقَذف بالزَّبَد فهو خمر ومستحلّه كافر . واختلفوا فى نَقيع التمر إذا غلى وأسكر . قال : فهذا يدلّك على أن حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب" غير معمول به عندهم؛ لأنهم لو قبلوا الحديث لأكفروا مستحلّ نقيع التمر؛ فثبت أنه لم يدخل فى الخمر المحرّمة غيرُ عصير العنب الذى قد اشتدّ وبلغ أن يسكر . قال : ثم لا يخلو من أن يكون التحريم معلّقا بها فقط غير مقيس عليها غيرها أو يجب القياس عليها ، فوجدناهم جميعا قد قاسوا عليها نقيع التمر إذا غَلَى وأسكر كثيره وكذلك نقيع الزبيب . قال : فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . قال : وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "كل مسكر حرام" واستغنى عن مسنده لقبول الجميع له ، وإنما الخلاف بينهم فى تأويله ، فقال بعضهم : أراد به جنس مايسكر . وقال بعضهم : أراد به مايقع السكر عنده كما لا يسمى قاتلا إلا مع وجود القتل .

قلت : فهذا يدل على أنه محرم عند الطحاوى لقوله ، فوجب قياسا على ذلك أن يحرم كل ما أسكر من الأشربة . وقد روى الدَّارَ قُطْنىّ فى سننه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : إن الله لم يحرّم الخمر لاسمها وإنما حرّمها لعاقبتها ، فكلّ شراب يكون عاقبته كعاقبة الخمر فهو حرام كتحريم الخمر . قال ابن المنذر : وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس فى الشئ وجب ردّ ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام ، وما روى عن بعض التابعين أنه شرب الشراب الذى يسكر كثيره فللقوم ذنوب يستغفرون

(١) فى حاشية السندى على سنن النسائى : « قوله الشامات ، كأنه جمع على إرادة البلاد الشامية » .

الله منها ، وليس يخلو ذلك من أحد معنيين : إما مخطئ أخطأ فى التأويل على حديث سمعه ، أو رجل أتى ذنبا لعلّه أن يكثر من الاستغفار لله تعالى ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم حجــة الله على الأولين والآخرين من هذه الأمة . وقد قيل فى تأويل الآية : إنها إنما ذكرت للاعتبار ، أى من قدر على خلق هذه الأشياء قادر على البعث ، وهذا الاعتبار لا يختلف بأن كانت الخمر حلالا أو حراما ، فآتخاذ السَّكَر لا يدل على التحريم ، وهو كما قال تعالى : « قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِـعُ لِلنَّاسِ » والله أعلم .

قوله تعـالى : وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّـا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ قد مضى القول فى الوَحْى وأنه قد يكون بمعنى الإلهـام [(١)] ، وهو ما يخلقه الله تعالى فى القلب ابتـداء من غير سبب ظاهر ، وهو من قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا [(٢)] » . ومن ذلك البهائم وما يخلق الله سبحانه فيها من درك منافعها واجتناب مضارها وتدبير معاشها . وقد أخبر عز وجل بذلك عن الموات فقال : « تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا . بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا [(٣)] » . قال إبراهيم الحَرْبِىّ : لله عز وجل فى الموات قدرة لم يُدْرَ ما هى ، لم يأتها رسول من عند الله ولكن الله تعالى عرّفها ذلك ؛ أى ألهمها . ولا خلاف بين المتأولين أن الوحى هنا بمعنى الإلهام . وقرأ يحيى بن وَثّاب « الى النَّحَلِ » بفتح الحـاء . وسُمِّىَ نحـلا لأن الله عز وجل نحله العسل الذى يخـرج منه ؛ قاله الزجاج . الجوهرىّ : والنحل والنحلة الدَّبْر يقع على الذكر والأنثى ، حتى يقال : يَعْسُوب . والنحل يؤنث فى لغة أهل الحجاز ، وكل جمع ليس بينه و بين واحده إلا الهاء . وروى من حديث

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٥ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) آية ٧ سورة الشمس .

(٣) آية ٤ سورة الزلزلة .

أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الذّبان كلّها في النار يجعلها عذابا لأهـل النـار إلا النحل " ذكره الترمذيّ الحكيم في ( نوادر الأصـول ) . وروى عن ابن عباس قال : نهى رسول الله صـلى الله عليه وسلم عن قتل النمـلة والنحلة والهُدْهُد والصُّرَد[1]، خرّجه أبو داود أيضا، وسيأتى في « النمل »[2] إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ﴾ هذا إذا لم يكن لها مالك . ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ جعل الله بيوت النحل في هـذه الثلاثة الأنواع، إما في الجبال وكِوَاها، وإما في متجوّف الأشجار، وإما فيما يعرِش ابن آدم من الأجباح[3] والخلايا والحيطان وغيرها . وعرَّش معناه هنا هيّأ ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها ؛ ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ، ومن هذا لفظة العرش . يقال : عرش يَعْرِش ويعرُش (بكسر الراء وضمها)، وقرئ بهما . قرأ ابن عامر بالضم وسائرهم بالكسر، واختلف في ذلك عن عاصم .

الثالثـــة — قال ابن العربيّ : ومن عجيب ما خلق الله في النحل أن ألهمها لاتخـاذ بيوتهـا مسدّسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة، وذلك أن الأشـكال من المثلّث إلى المعشر إذا جُمع كلّ واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينهما فرُج، إلا الشكل المسدّس ؛ فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه كالقطعة الواحدة .

قوله تعـالى : ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

---

(١) الصرد ( كرطب ) : طائر فوق العصفور يصيد العصافير . (٢) في قوله تعالى : « حتى إذا أتوا على واد النمل ... » آية ١٨ (٣) الأجباح : مواضع النحل في الجبل وفيها تعسل .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ وذلك أنها إنما تأكل النوّار من الأشجار . ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً ﴾ أى طرق ربك . والسّبل : الطرق ، وأضافها إليه لأنه خالقها . أى ادخلى طرق ربك لطلب الرزق فى الجبال وخلال الشجر . ﴿ ذُلُلاً ﴾ جمع ذلول وهو المنقاد ؛ أى مطيعة مسخرة . فـ « ذللا » حال من النحل . أى تنقاد وتذهب حيث شاء صاحبها ؛ لأنها تتبع أصحابها حيث ذهبوا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : المراد بقوله « ذُلُلاً » السبل . يقول : مذلل طرقها سهلة للسلوك عليها ؛ واختاره الطبرىّ ، و « ذللا » حال من السبل . واليَعْسُوب سيد النحل ، إذا وقف وقفت وإذا سار سارت .

قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا ﴾ رجع الخطاب إلى الخبر على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة فقال : « يخرج من بطونها شراب » يعنى العسل . وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل ؛ وورد عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال فى تحقيره الدنيا : أشرف لباس ابن آدم فيها لعابُ دودة ، وأشرف شرابه رَجيعُ نحلة . فظاهر هذا أنه من غير الفم . وبالجملة فإنه يخرج ولا يدرى من فيها أو أسفلها ، ولكن لا يتم صلاحه إلا بحَمْى أنفاسها . وقد صنع أرسطا طاليس بيتا من زجاج لينظر إلى كيفية ما تصنع ، فأبت أن تعمل حتى لطخت باطن الزجاج بالطين ؛ ذكره الغزنوىّ . وقال : « من بطونها » لأن استحالة الأطعمة لا تكون إلا فى البطن .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ يريد أنواعه من الأحمر والأبيض والأصفر والجامد والسائل ، والأم واحدة والأولاد مختلفون دليل على أن القدرة نوّعته بحسب تنويع الغذاء ، كما يختلف طعمه بحسب اختلاف المراعى ؛ ومن هذا المعنى قول زينب للنبىّ صلى الله عليه وسلم : « جَرَسَتْ نحلُه العُرْفُطَ[(١)] » حين شبهت رائحته برائحة المغافير .

(١) الجَرْس : الأكل . والعرفط (بالضم) : شجر الطلح ، وله صمغ كريه الرائحة ، فاذا أكلته النحل حصل فى عسلها من ريحه . أى شربت عسلا أكلت نحله من شجر الطلح .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فِيـهِ شِفاءٌ لِلنّاسِ ﴾ الضمير للعســل ؛ قاله الجمهور . أى فى العسل شـفاء للناس . وروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك والفـراء وابن كَيْسان : الضمير للقرآن؛ أى فى القرآن شفاء . النحاس : وهذا قول حسن؛ أو فيما قصصنا عليكم من الآيات والبراهين شفاء للناس . وقيل : العسل فيه شفاء ، وهذا القول بيّن أيضا؛ لأن أكثر الأشربة والمعجونات التى يتعالج بهـا أصلها من العسل . قال القاضى أبو بكر بن العربى : من قال إنه القرآن بعيد ما أراه يصحّ عنهم ، ولو صح نقلا لم يصح عقلا ؛ فإن مساق الكلام كلّه للعسل ، ليس للقرآن فيـه ذكر . قال ابن عطية : وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية يراد بها أهل البيت وبنو هاشم ، وأنهم النحل ، وأن الشراب القرآنُ والحكمة ، وقد ذكر هذا بعضهم فى مجلس المنصور أبى جعفر العباسى ، فقال له رجل ممن حضر : جعل الله طعامك وشرابك ممـا يخرج من بطون بنى هاشم ، فأضحك الحاضرين وبُهت الآخر وظهرت سخافة قوله .

الرابعـــة — اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ فِيـهِ شِفَاءٌ لِلنّاسِ ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؛ فقالت طائفة : هو على العموم فى كل حال ولكل أحد ، فروى عن ابن عمر أنه كان لا يشكو قرحة ولا شيئا إلا جعل عليـه عسلا ، حتى الدُّمّل إذا خرج عليه طَلى عليه عسلا . وحكى النقاش عن أبى وَجْرة أنه كان يكتحل بالعسل ويستمشى بالعسل ويتداوى بالعسل . وروى أن عوف بن مالك الأشجعى مرض فقيل له : ألا نعالجك ؟ فقال : ائتونى بالمـاء ، فإن الله تعالى يقول : « وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا »(1) ثم قال : ائتونى بعسل ، فإن الله تعالى يقول : « فيـه شفاءٌ للناس » وائتونى بزيت ، فإن الله تعالى يقول : « مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ »(2) فجاءوه بذلك كله فخلطه جميعا ثم شربه فبرئ . ومنهم من قال : إنه على العموم إذا خلط بالخل ويطبخ فيأتى شرابا ينتفع به فى كل حالة من كل داء . وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولا يقتضى العموم فى كل عـلة وفى كل إنسان ، بل إنه خبر عن أنه يشفى كما يشفى غيره من

(1) آية ٩ سورة ق . (2) آية ٣٥ سورة النور .

الأدوية فى بعض وعلى حال دون حال ؛ ففائدة الآية إخبار منه فى أنه دواء لمّا كثر الشفاء به وصـار خليطا ومُعينا للأدوية فى الأشربة والمعاجين ؛ وليس هـذا بأول لفظ خُصِّص فالقرآن مملوء منه ولغة العرب يأتى فيهـا العام كثيرا بمعنى الخاص والخاص بمعنى العام . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن « شفاء » نكرة فى سـياق الاثبات ، ولا عموم فيهـا باتفاق أهل اللسان ومحقّقى أهل العلم ومختلفى أهل الأصول . لكن قد حملته طائفة من أهل الصدق والعزم على العموم ، فكانوا يستشفون بالعسل من كل الأوجاع والأمراض ، وكانوا يشفون من عللهم ببركة القرآن و بصحة التصديق والإيقان . ٱبن العربى : ومن ضعفت نيته وغلبته على الدِّين عادته أخذه مفهوما على قول الأطباء، والكلُّ مِن حِكَم الفعّال لمـا يشاء .

الخـامسة — إن قال قائل : قد رأينا من ينفعه العسل ومن يضره،فكيف يكون شفاء للناس؟ قيل له : المـاء حياة كل شيء وقد رأينا من يقتله المـاء إذا أخذه على ما يضاده من علة فى البدن، وقد رأينا شفاء العسل فى أكثر هذه الأشربة ؛ قال معناه الزجاج . وقد اتفق الأطبـاء عن بَكْرة أبيهم على مدح عموم منفعة السّكنجبين[(1)] فى كل مرض، وأصـله العسل وكذلك سائر المعجونات ، على أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد حَسَم داء الإشكال وأزاح وجه الاحتمال حين أمر الذى يشتكى بطنه بشرب العسل، فلما أخبره أخوه بأنه لم يزده إلا استطلاقا أمره بعود الشراب له فبرئ؛ وقال : " صدق الله وكذب بطن أخيك " .

السادسـة — اعترض بعض زنادقة الأطباء على هذا الحديث فقال: قد أجمعت الأطباء على أن العسل يسهل فكيف يوصف لمن به الإسهال ؛ فالجواب أن ذلك القول حق فى نفسه لمن حصل له التصديق بنبيّه عليه السلام، فيستعمله على الوجه الذى عينه وفى المحل الذى أمره بعقد نية وحسن طويّة ، فإنه يرى منفعته و يدرك بركته ، كما قد اتفق لصاحب هذا العسل وغيره كما تقدّم . وأما ما حكى من الاجماع فدليل على جهله بالنقل حيث لم يقيّد وأطلق . قال الامام أبو عبد الله المـازَرى : ينبغى أن يُعلم أن الإسهال يعرض من ضروب كثيرة ، منها الاسهال

(١) السكنجبين : شراب معرّب ؛ أى خل وعسل . ( عن الألفاظ الفارسية المعربة ) .

الحادث عن التُّخم والهَيْضات[1]، والأطباء مجمعون فى مثل هذا على أن علاجه بأن يترك للطبيعة وفعلها، و إن احتاجت الى مُعين على الإسهال أعينت مادامت القوّة باقية، فأما حبسها فضرر، فإذا وضح هـذا قلنا : فيمكن أن يكون ذلك الرجل أصابه الإسهال عن امتلاء وهَيْضة فأمره النبيّ صلى الله عليه وسـلم بشرب العسل فزاده إلى أن فنيت المـادة فوقف الإسهال فوافقه شرب العسل . فإذا خرج هذا عن صناعة الطب أذِن ذلك بجهل المعترض بتلك الصناعة . قال : ولسنا نستظهر على قول نبيّنا بأن يصدقه الأطبـاء بل لو كذّبوه لكذبناهم ولكفّرناهم وصدّقناه صلى الله عليه وسلم ؛ فإن أوجدونا بالمشاهدة صحة ما قالوه فنفتقر حينئذ إلى تأويل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وتخريجه على ما يصح إذ قامت الدّلالة على أنه لا يكذب .

السابعـة — فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ ﴾ دليل على جواز التعالج بشرب الدواء وغير ذلك خلافا لمن كره ذلك من جلّة العلماء، وهو يرد على الصوفية الذين يزعمون أن الولاية لا تتم إلا إذا رضى بجميع ما نزل به من البلاء، ولا يجوز له مداواة . ولا معنى لمن أنكر ذلك، روى الصحيح عن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لكل داء دواء فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ باذن الله " . وروى أبو داود والترمـذى عن أسامـة بن شُريك قال قالت الأعراب : ألا نَتداوَى يا رسول الله؟ قال : "نعم . يا عباد الله تداوَوْا فان الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحدا " قالوا : يا رسول الله وما هو؟ قال : "الهرم" لفظ الترمذى، وقال : حديث حسن صحيح . وروى عن أبى خزامة عن أبيه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسول الله، أرأيت رُقًى نسترقيها ودواء نتداوى به وتُقاة نتقيها، هل تَرُدّ من قَدَر الله شيئا؟ قال : "هى من قدر الله" قال : حديث حسن، ولا يعرف لأبى خزامة غير هـذا الحديث . وقال صلى الله عليه وسـلم : " ان كان فى شىء من أدويتكم خير ففى شرطة محـجَم أو شربة من عسـل أو لَذْعة بنـار وما أحب أن أكْتَوِىَ " أخرجه الصحيح . والأحاديث فى هذا الباب أكثر من أن تحصى . وعلى إباحة التداوى والاسترقاء

(١) الهيضات : جمع هيضة، وهى انطلاق البطن .

جمهورُ العلماء . روى أن ابن عمر اكتوى من اللَّقْوة[١] ورقى من العقرب . وعن ابن سيرين أن ابن عمر كان يسـقى ولده التِّرْياق[٢] . وقال مالك : لا بأس بذلك . وقد احتج من كره ذلك بما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " دخلت أمة بقَضِّها وقَضِيضها[٣] الجنة كانوا لايَسترقُون ولا يَكْتَوُون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون " . قالوا : فالواجب على المؤمن أن يترك ذلك اعتصاما بالله وتوكلا عليه وثقـة به وانقطاعا إليـه ؛ فإن الله تعالى قد علم أيام المـرض وأيام الصحة فلو حَرَص الخلق على تقليـل ذلك أو زيادته ما قدروا ؛ قال الله تعـالى : « مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ولا فِي أَنْفُسِكُمْ إلا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْـلِ أن نَبْرَأَهَا[٤] » . وممن ذهب إلى هذا جماعة من أهـل الفضل والأثر ، وهو قول ابن مسعود وأبى الدرداء رضوان الله عليهـما . دخل عثمان بن عفان على ابن مســعود فى مرضه الذى قبض فيه فقال له عثمان : ما تشتكى ؟ قال ذنوبى . قال : فـا تشتهى؟ قال رحمـة ربى . قال : ألا أدعو لك طبيبـا ؟ قال : الطبيب أمرضنى ... وذكر الحـديث . وسيأتى بكماله فى فضل الواقعة إن شاء الله تعـالى . وذكر وكيع قال : حدّثنا أبو هلال عن معاوية بن قُرّة قال : مرِض أبو الدّرداء فعادوه وقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أضجعـنى . وإلى هذا ذهب الربيـع بن خَيْثم . وكره سـعيد بن جُبـير الرُّقَى . وكان الحسن يكره شرب الأدوية كلها إلا اللبن والعسـل . وأجاب الأوّلون عن الحديث بأنه لاحجة فيه، لأنه يحتمل أن يكون قصد إلى نوع من الكى مكروه بدليل كَى النبيّ صلى الله عليه وسلم أُبَيًّا يوم الأحزاب على أكحله[٥] لمـا رُمِى . وقال : " الشفاء فى ثلاثة " كما تقـدّم . ويحتمل أن يكون قصد إلى الرقى بما ليس فى كتاب الله، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ[٦] » على ما يأتى بيانه . ورَقَى أصحابَه وأمرهم بالرُّقية، على ما يأتى بيانه .

---

(١) اللقوة (بالفتح) : مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه . (٢) الترياق : ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعـاجين ، وهو معرب . (٣) أى دخلوا مجتمعين ، ينقض آخرهم على أولهم . وقال ابن الاعرابى : إن القض الحصى الكبار، والقضيض الحصى الصغار؛ أى دخلوا بالكبير والصغير. (٤) آية ٢٢ سورة الحديد . (٥) الأكحل : عرق فى وسط الذراع . (٦) آية ٨٢ سورة الإسراء .

الثامنـــة — ذهب مالك وجماعة أصحابه إلى أن لا زكاة فى العسل و إن كان مطعوما مُقتاتا . وآختلف فيـه قول الشافعى، والذى قطع به فى قوله الجـديد : أنه لا زكاة فيه . وقال أبو حنيفة بوجوب زكاة العسل فى قليله وكثيره؛ لأن النصاب عنده فيه ليس بشرط . وقال محمد بن الحسن : لا شىء فيه حتى يبلغ ثمـانية أفراق(١)، والفرق ستة وثلاثون رطلا من أرطال العراق . وقال أبو يوسف : فى كل عشرة أزقاق زق ؛ متمسكا بما رواه الترمذى عن آبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فى العســل فى كل عشرة أزقاق زق" قال أبو عيسى: فى إسناده مقال، ولا يصح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى هذا الباب كبير شىء، والعمل على هذا عند أكثر أهـل العلم ، و به يقول أحمد و إسحاق، وقال بعض أهل العلم : ليس فى العسل شىء .

التاســعة — قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أى يعتبرون؛ ومن العبرة فى النحل بإنصاف النظر و إلطاف الفكر فى عجيب أمرها . فيشهد اليقين بأن ملهمها الصنعة اللطيفة مع البنية الضعيفة، وحذقها باحتيالها فى تفاوت أحوالها هو الله سبحانه وتعالى؛ كما قال : « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ » الآية . ثم أنها تأكل الحـامض والمُرّ والحلو والمـالح والحشائش الضارة، فيجعله الله تعالى عسلا حلوا وشفاء، وفى هذا دليل على قدرته .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ بيّن معناه . ﴿ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ يعنى أرداه وأوضعه . وقيل : الذى ينقص قوته وعقله و يصيّره الى الخَرَف ونحوه . وقال ابن عباس : يعنى الى أســفل العمر، يصــير كالصبى الذى لا عقل له؛ والمعنى متقارب . وفى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوّذ يقول :

(١) فى نسخة من الأصل : « خمسة أفراق » .

"اللّهمّ إني أعوذ بك من الكسل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من الهـرم وأعوذ بك من البخل" . وفي حديث سعد بن أبي وقّاص "وأعوذ بك أن أردّ الى أرذل العمر" الحديث . خرّجه البخاري . ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ أي يرجع إلى حالة الطفولية فلا يعلم ما كان يعلم قبـلُ من الأمور لفرط الكبر . وقد قيـل : هذا لا يكون للؤمن ، لأن المؤمن لا ينزع عنه علمه . وقيل : المعنى لكيلا يعمل بعد علم شيئا ؛ فعبّر عن العمل بالعلم لافتقاره إليه ؛ لأن تأثير الكبر في عمـله أبلغ من تأثيره في علمه . والمعنى المقصود الاحتجاج على منكري البعث ، أي الذي رده إلى هذه الحال قادر على أن يميته ثم يحييه .

قوله تعـالى : وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ فَضَّـلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾ أي جعـل منكم غنيا وفقيرا وحرا وعبدا . ﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا ﴾ أي في الرزق . ﴿ بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رُزق شيئا حتى يستوي المملوك والمـالك في المـال . وهذا مثـل ضربه الله لعبدة الأصـنام ، أي إذا لم يكن عبيدكم معكم سواء فكيف تجعلون عبيدي معي سواء ؛ فلما لم يكن يشركهم عبيدهم في أموالهم لم يجز لهم أن يشاركوا الله تعـالى في عبادة غيره من الأوثان والأنصاب وغيرهما مما عُبد ؛ كالملائكة والأنبياء وهم عبيده وخلقه . حكى معناه الطبري ، وقاله ابن عباس ومجاهـد وقتادة وغيرهم . وعن ابن عباس أيضا أنها نزلت في نصارى نَجْرَان حين قالوا عيسى ابن الله فقال الله لهم « فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُم » أي لا يرد المولى على ما ملكت يمينه ممـا رزق حتى يكون المولى والعبد في المـال شرعا سواء ، فكيف ترضون لي مالا ترضون لأنفسكم فتجعلون لي ولدا

من عبيدى . ونظيرها « ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ »(1) على ما يأتى . ودل هـذا على أن العبد لا يملك ، على ما يأتى آنفا(2) .

قوله تعالى : وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ جعل بمعنى خلق؛ وقد تقدم . ﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ يعنى آدم خلق منه حواء . وقيل : المعنى جعل لكم من أنفسكم، أى من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم؛ كما قال : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » أى من الآدميين . وفى هـذا ردّ على العرب التى كانت تعتقد انها كانت تزوّج الجن وتباضعها، حتى روى أن عمرو بن هند تزوج منهم غُولًا(3) وكان يخبؤها عن البرق لئلا تراه فتنفر، فلما كان فى بعض الليالى لمع البرق وعاينته السعلاة(4) فقالت : عمرو ! ونفرت ، فلم يرها أبدا . وهـذا من أكاذيبها ، وإن كان جائزا فى حكم الله وحكمته فهو ردّ على الفلاسفة الذين ينكرون وجود الجن ويحيلون طعامهم . ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ زوج الرجل هى ثانيته، فإنه فرد فإذا انضافت إليـه كانا زوجين، وإنما جعلت الإضافة إليه دونها لأنه أصلها فى الوجود كما تقدم .

---

(1) آية ٢٨ سورة الروم . (2) يريد بعـد قليل . و « آنفا » انما تستعمل فى الماضى القريب لا فى المستقبل القريب . (3) كذا فى نسخ الأصول وأحكام القرآن لابن العربى ، والصواب أنه عمرو بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن مناة؛ قال علباء بن أرقم :

يا قبـح الله بنى السـعلاة * عمرو بن يربوع شرار النات

راجع شرح التنوير على سقط الزند فى شرح بيت أبى العلاء المعرى : .

اذا لاح إيماض سـترت وجوهها * كأنى عمـرو والمطىّ سـعالى

(4) السعلاة : أخبث الغيلان .

قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وحَفَدَةً ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَـلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ ﴾ ظاهر فى تعـديد النعمة فى الأبنـاء، ووجود الأبنـاء يكون منهما معـا ؛ ولكنه لمـا كان خلق المولود فيهـا وانفصاله عنها أضيف إليها ، ولذلك تبعها فى الرّق والحرية وصار مثلها فى المـالية . قال ابن العربي : سمعت إمام الحنابلة بمدينـة السلام أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المـالية وصار بحكمها فى الرق والحرية؛ لأنه انفصل عن الأب نطفة لاقيمة له ولامالية فيه ولا منفعة ، و إنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلأجل ذلك تبعها . كما لو أكل رجل تمرا فى أرض رجل وسقطت منـه نواة فى الأرض من يد الاكل فصارت نخـلة فإنها ملك صاحب الأرض دون الآكل بإجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ وَحَفَـدَةً ﴾ روى ابن القاسم عن مالك قال وسألتـه عن قوله تعالى : « بَنِينَ وَحَفَـدَةً » قال : الحَفَـدة الخدم والأعوان فى رأيى . وروى عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وَحَفَدَةً » قال هم الأعوان، من أعانك فقـد حَفَدك . قيـل له : فهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم وتقوله ! أو ما سمعت قول الشاعر :

حَفَدَ الولائدُ حولهن وأسلمَتْ * بأكفّهن أزمّـةَ الأجمـال

أى أسرعن الخدمة . والولائد : الخدم، الواحدة وليدة؛ قال الأعشى :

كلّفت مجهولهـا نُوقًا يمانيـــة * إذا الحُداة على أكسائها حَفَدُوا[1]

أى أسرعوا . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوان ، فكل من عمـل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد، قال : ومنـه قولهم « إليك نسعى ونحفِد »، والحَفَدان السرعة . قال أبو عبيد : الحفـد العمل والخدمة . وقال الخليل بن أحمـد : الحَفَدة عند العرب الخدم، وقاله مجاهـد . وقال الأزهرى : قيل الحفدة أولاد الأولاد . وروى عن ابن عبـاس . وقيـل الأختان ؛ قاله ابن مسعود وعلقمـة وأبو الضحا وسـعيد بن جُبير و إبراهـيم ؛

(١) الأكساء : جمع كسى ( بالضم ) وهو مؤخر العجز .

ومنه قول الشاعر :

فلو أن نفسى طاوعتنى لأصبحتْ * لهـا حَفَــدٌ ما يُعَـدُّ كـثيرُ
ولكنهـا نفس عـلىّ أبيّــة * عيوف لإصهـار اللئـام قـــذور

وروى زِرّ عن عبد الله قال : الحفدة الأصهار؛ وقاله إبراهيم، والمعنى متقارب . قال الأصمعى : الخَتَن من كان من قِبَل المرأة، مثل أبيها وأخيها وما أشبههما ؛ والأصهار منهما جميعا . يقال : أصهر فلان إلى بنى فلان وصاهر . وقول عبـد الله « هم الأختان » يحتمل المعنيين جميعا . يحتمل أن يكون أراد أبا المرأة وما أشبهه من أقربائها، ويحتمل أن يكون أراد وجعـل لكم من أزواجكم بنين وبنات تزوجونهن ، فيكون لكم بسببهن أختان . وقال عكرمة : الحفدة من نفع الرجل من ولده ؛ وأصله من حَفَد يحفِد (بفتح العين فى المـاضى وكسرها فى المستقبل) إذا أسرع فى سيره؛ كما قال كُثَيِّر :

* حفد الولائد بينهن ... * البيت .

ويقال : حفدت وأحفدت ، لغتان إذا خدمت . ويقال : حافد وحَفَد ؛ مثل خادم وخَدَم، وحافد وحفدة مثـل كافر وكفرة . قال المهدوى : ومن جعـل الحفدة الخدم جعله منقطعا ممـا قبله ينوى به التقديم؛ كأنه قال : جعل لكم حفدة وجعل لكم من أزواجكم بنين .

قلت : ما قاله الأزهرى من أن الحفـدة أولاد الأولاد هو ظاهر القرآن بل نصــه ؛ ألا ترى أنه قال : « وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفـدة » فجعل الحفدة والبنين منهن . وقال ابن العربىّ : الأظهر عندى فى قوله « بنـين وحفدة » أن البنين أولاد الرجل لصُلْبه والحفدة أولاد ولده، وليس فى قوة اللفظ أكثر من هـذا، ويكون تقدير الآية على هـذا : وجعل لكم من أزواجكم بنـين ومن البنين حفدة . وقال معناه الحسن .

الثالثـــة — إذا فرعنا على قول مجاهد وابن عباس ومالك وعلماء اللغة فى قولهم إن الحفدة الخدم والأعوان، فقد خرجت خدمة الولد والزوجة من القرآن بأبدع بيان؛ قاله ابن العربىّ. روى البخارى وغيره عن سهل بن سـعد أن أبا أُسَيّد الساعدى دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم

لعرسه فكانت امرأته خادمهم ... الحديث، وقد تقدم في سـورة « هود »[1] . وفي الصحيح عن عائشة قالت : أنا فتلت قلائد بُدْن النبيّ صلى الله عليه وسـلم بيدى . الحديث . ولهذا قال علماؤنا : عليها أن تفرش الفراش وتطبخ القِدْر وتَقُمّ الدار، بحسب حالها وعادة مثلها؛ قال الله تعالى : « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا »[2] فكأنه جمع لنـا فيها السَّكَن والاستمتاع وضربا من الخدمة بحسب جرى العادة .

الرابعــة — ويخدُم الرجُل زوجتَه فيما خفّ من الخدمة ويُعينها ، لمـا روته عائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يكون في مِهْنة أهله فإذا سمع الأذان خرج . وهذا قول مالك : ويعينها . وفي أخلاق النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنه كان يخصِف النعل ويَقُمّ البيت ويَخيط الثوب . وقالت عائشة وقد قيل لها : ماكان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : كان بشرا من البشر يَفْلِي ثوبه ويحلب شاته ويخدُم نفسه .

الخامســـة — وينفق على خادمة واحدة ، وقيل على أكثر ؛ على قدر الثروة والمنزلة . وهذا أمر دائر على العرف الذى هو أصل من أصول الشريعة ، فإن نساء الأعراب وسكان البوادى يخدمن أزواجهن فى استعذاب المـاء وسياسة الدواب، ونساء الحواضر يخدم المقل منهم زوجته فيما خف ويعينها ، وأما أهل الثروة فُيخدِمون أزواجهن ويترفهن معهم إذا كان لهم منصب ذلك ؛ فإن كان أمرا مشكلا شرطت عليـه الزوجة ذلك، فتشهد أنه قد عرف أنها ممن لا تخدم نفسها فالتزم إخدامها ، فينفذ ذلك وتنقطع الدعوى فيه .

قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ أى من الثمار والحبوب والحيوان . ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ يعنى الأصنام؛ قاله ابن عباس . ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ قراءة الجمهور بالياء . وقرأ أبو عبد الرحمن بالتاء . ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ أى بالإسلام . ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ .

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٦٨　　(٢) آية ١٨٩ سورة الأعراف .

قوله تعـالى : وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ ﴾ يعنى المطر . ﴿ وَالْأَرْضِ ﴾ يعنى النبات . ﴿ شَيْئًا ﴾ قال الأخفش : هو بدل من الرزق . وقال الفرّاء : هو منصوب بإيقاع الرزق عليه؛ أى يعبدون مالا يملك أن يرزقهم شيئا . ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أى لا يقدرون على شيء، يعنى الأصنام . ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أى لا تشبّهوا به هذه الجمادات؛ لأنه واحد قادر لا مثل له . وقد تقدم .

قوله تعـالى : ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا ﴾ نبّه تعالى على ضلالة المشركين، وهو منتظم بمـا قبله من ذكر نعم الله عليهم وعدم مثـل ذلك من آلهتهم . « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا » أى بيّن شبها؛ثم ذكر ذلك فقال: ﴿ عَبْدًا مَمْلُوكًا ﴾ أى كما لا يستوى عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء ورجلٌ حُرٌّ قد رزق رزقا حسنا فكذلك أنا وهذه الأصنام . فالذى هو مثالٌ فى هذه الآية هو عبـد بهذه الصفة مملوك لا يقدر على شيء من المـال ولا من أمر نفسه ، وإنمـا هـو مسخَّر بإرادة سيده . ولا يلزم من الآية أن العبيـد كلهم بهذه الصفـة ؛ فإن النكرة فى الإثبات لاتقتضى الشمول عند أهل اللسان كما تقدم، وإنما تفيد واحدا، فإذا كانت بعد أمر أو نهى أو مضافة إلى مصدر كانت للعموم الشيوعى؛ كقوله : أعتق رجلا ولا تهن

رجلا، والمصدر كاعتاق رقبة، فأىّ رجل أعتق فقــد خرج عن عهدة الخطاب، ويصح منه الاستثناء . وقال قتادة : هــذا المثل للؤمن والكافر؛ فذهب قتادة إلى أن العبد المملوك هو الكافر؛ لأنه لاينتفع فى الآخرة بشيء من عبادته، وإلى أن معنى «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا» المؤمن . والأول عليه الجمهور من أهل التأويل . قال الأَصَمّ : المراد بالعبد المملوك الذى ربما يكون أشدّ من مولاه أَسْرا[1] وأنضر وجها ، وهو لسيده ذليل لا يقدر إلا على ما أذن له فيه ؛ فقال الله تعالى ضربا للثال . أى فإذا كان هذا شأنكم وشأن عبيدكم فكيف جَعلتم أحجارا مواتا شركاء لله تعالى فى خلقه وعبادته، وهى لا تعقل ولا تسمع .

الثانيــــة — فهم المسلمون من هذه الآية ومما قبلها نقصان رتبة العبد عن الحر فى الملك، وأنه لايملك شيئا وإن مُلِّك . قال أهل العراق : الرِّق ينافى الملك، فلا يملك شيئا أَلْبَتَّةَ بحال، وهو قول الشافعىّ فى الجديد، وبه قال الحسن وابن سِيرين . ومنهم من قال : يملك إلا أنه ناقص الملك؛ لأن لســيده أن ينتزعه منه أىّ وقت شاء، وهو قول مالك ومن آتبعه ، وبه قال الشافعىّ فى القديم . وهو قول أهــل الظاهر ؛ ولهذا قال أصحابنا : لا تجب عليه عبادة الأموال من زكاة وكفارات ، ولا من عبادات الأبدان ما يقطعه عن خدمة ســيده كالحج والجهاد وغير ذلك . وفائدة هذه المسألة أن سيده لو مَلّكه جارية جاز له أن يطأها بملك اليمين، ولو ملكه أربعين من الغنم فحال عليها الحول لم تجب على السيد زكاتها لأنها ملك غيره، ولا على العبد لأن ملكه غير مستقر . والعراقىّ يقول : لايجوز له أن يطأ الجارية، والزكاة فى النصاب واجبة على السيد كما كانت . ودلائل هذه المسئلة للفريقين فى كتب الخلاف . وأدلّ دليل لنا قوله تعالى : «الله الذى خلقكم ثم رزقكم» فسوّى بين العبد والحرّ فى الرزق والخلق . وقال عليه السلام : "من أعتق عبدا وله مال ..." فأضاف المــال إليه . وكان ابنُ عمر يرى عبده يتسرّى فى ماله فلا يعيب عليه ذلك . وروى عن ابن عباس أن عبدا له طلق امرأته طلقتين فأمره أن يرتجعها بملك اليمين؛ فهذا دليل على أنه يملك ما بيده ويفعل فيه مايفعل المــالك فى ملكه ما لم ينتزعه سيده . والله أعلم .

---

(١) الأســـر : الخلق .

الثالثـــة ـــ وقد استدّل بعض العلماء بهذه الآية على أن طلاق العبد بيد سيده ، وعلى أن بيع الأمة طلاقها؛ معوّلا على قوله تعـالى : « لا يَقْدِر على شيء » . قال : فظاهره يفيد أنه لا يقدر على شيء أصلا، لا على الملك ولا على غيره فهو على عمومه، إلا أن يدل دليل على خلافه . وفيما ذكرناه عن ابن عمر وابن عباس ما يدل على التخصيص . والله تعالى أعلم .

الرابعـــة ـــ قال أبو منصور فى عقيدته (١) : الرزق ما وقـع الاغتذاء به . وهذه الآية ترد هذا التخصيص؛ وكذلك قوله تعـالى : «وَمِمّا رزقناهم يُنفِقون» (٢) . و« أنفِقوا مما رزقناكم » (٣) وغير ذلك من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " جعـل رزقى تحت ظِلّ رُمْحِى " وقولِه : " أرزاق أمتى فى سنابك خيلها وأسِنة رماحها ". فالغنيمة كلها رزق، وكل ما صحّ به الانتفاع فهو رزق، وهو مراتب : أعلاها ما يغذى . وقد حصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوه الانتفـاع فى قوله : " يقول ٱبن آدم مالى مالى وهـل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأمضيت " . وفى معنى اللباس يدخل الركوب وغير ذلك . وفى ألسنة المحدّثين : السماع رزق، يعنون سماع الحديث، وهو صحيح .

الخامســـة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ﴾ هو المؤمن، يطيع الله فى نفسه وماله . والكافر ما لم ينفق فى الطاعة صار كالعبد الذى لا يملك شيئا . ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ أى لا يستوون، ولم يقل يستويان لمكان « مَن » لأنه ٱسم مبهم يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث . وقيل : « إنّ عبدا مملوكا » ، « ومن رزقناه » أريد بهما الشيوع فى الجنس . ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى هو مستحق للحمد دون ما يعبدون من دونه؛ إذ لا نعمة للاصنام عليهم من يدٍ ولا معروف فتُحمد عليه ، إنمـا الحمـد الكامل لله؛ لأنه المنعم الخالق . ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ ﴾ أى أكثر المشركين ﴿ لَا يَعْـلَمُونَ ﴾ أن الحمد لى، وجميعَ النعمة منى . وذكر الأكثر وهو يريد الجميـع، فهو خاص أريد به التعميم . وقيل : أى بل أكثر الخلق لا يعلمون، وذلك أن أكثرهم المشركون .

(١) العقيدة : اسم كتاب لأبى منصور المـاتريدى، وهو محمد بن محمد بن محمود مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ . راجع كشف الظنون وتاج التراجم فى طبقات الحنفية . (٢) آية ٣ سورة البقرة . (٣) آية ٢٥٤ سورة البقرة .

قوله تعالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ ﴾ هذا مَثَلٌ آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوَثَن، فالأبكم الذى لا يقدر على شيء هو الوثن، والذى يأمر بالعدل هو الله تعالى؛ قاله قَتادة وغيره . وقال ابن عباس : الأبكم عبد كان لعثمان رضى الله عنه، وكان يعرض عليه الإسلام فيأبى، ويأمر بالعدل عثمانُ . وعنه أيضا أنه مَثَلٌ لأبى بكر الصدّيق ومولًى له كافر . وقيل: الأبكم أبو جهل، والذى يأمر بالعدل عمّار بن ياسر العَنْسِىّ، وعَنْس (بالنون) حَىّ من مَذْحِج، وكان حليفا لبنى مخزوم رهط أبى جهل، وكان أبو جهل يعذبه على الإسلام ويعذب أمّه سُمَيّة ، وكانت مولاة لأبى جهل، وقال لها ذات يوم : إنما آمنت بمحمد لأنك تحبّينه لجماله، ثم طعنها بالرمح فى قُبُلها فماتت،فهى أوّل شهيد مات فى الإسلام، رحمها الله. من كتاب النقاش وغيره . وسيأتى هـذا فى آية الإكراه(1) مبيّنا إن شاء الله تعـالى . وقال عطاء : الأبكم أُبَىّ بن خلَف، كان لا ينطق بخير . ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أى قومه لأنه كان يؤذيهم و يؤذى عثمان بن مَظْعُون . وقال مقاتل : نزلت فى هشام بن عمرو بن الحارث، كان كافرا قليلَ الخير يعادى النبىّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إن الأبكم الكافرُ، والذى يأمر بالعدل المؤمنُ جملةً بجملة؛ روى عن ابن عبـاس وهو حَسَن لأنه يَعُمّ . والأبكم الذى لا نطق له . وقيـل الذى لا يعقل . وقيل الذى لا يسمع ولا يبصر . وفى التفسير إن الأبكم ها هنـا الوَثَنُ . بيّن أنه لا قدرة له ولا أمر ، وأن غيره ينقـله و ينْحِته فهو كَلٌّ عليـه . والله الآمر بالعدل، الغالب على كل شيء . وقيـل : المعنى « وهو كَلٌّ على مولاه » أى ثِقْل على وَلِيّـه وقرابته، وو بال على صاحبه وابن عمه . وقد يسمَّى اليتيم كَلًّا لثقله على من يكفله ؛ ومنه قول الشاعر :

أكُولٌ لمـال الكَلّ قبل شـبابه * إذا كان عظم الكَلّ غيرَ شـديد

(1) آية ١٠٦ من هذه السورة، ص ١٨٠ وما بعدها من هذا الجزء .

والكَلّ أيضا الذى لا ولد له ولا والد . والكَلّ العيال، والجمع الكُلُول ؛ يقال منـه : كَلّ السكين يَكِلّ كَلًّا أى غلظت شفرته فلم يقطع . ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ قرأ الجمهور «يُوَجِّهْهُ» وهو خط المصحف؛ أى أينما يرسله صاحبه لا يأت بخير، لأنه لا يعرف ولا يفهم ما يقال له ولا يُفهم عنه .وقرأ يحيى بن وثّاب «أينما يُوَجَّهْ» على الفعل المجهول . وروى عن ابن مسعود أيضا «تَوَجَّه» على الخطاب . ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى هل يستوى هذا الأبكم ومن يأمر بالعدل على الصراط المستقيم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تقدّم معناه (1) . وهـذا متصل بقوله « إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » أى شرعُ التحليل والتحريم إنما يحسن ممن يحيط بالعواقب والمصالح وأنتم أيها المشركون لا تحيطون بها فلِمَ تتحكمون . ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ وتجازَوْن فيها بأعمـالكم . والساعة هى الوقت الذى تقوم فيه القيامة؛ سُمّيت ساعةً لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخـلق بصيحة . واللّمح : النظر بسرعة ؛ يقال : لَمَحه لَمْحًا ولَمَحانا . ووجه التأويل أن الساعة لمـا كانت آتية ولا بُدّ جُعلت من القرب كلمح البصر. وقال الزجاج: لم يرد أن الساعة تأتى فى لمح البصر، وإنما وصف سرعة القدرة على الإتيـان بها؛ أى يقول للشيء كن فيكون . وقيل : إنمـا مثّل بلمح البصر لأنه يلمح السماء مع ما هى عليه من البعد من الأرض . وقيل : هو تمثيل للقرب؛ كما يقول القائل : ما السّنة إلا لحظة، وشبهه . وقيل : المعنى هو عند الله كذلك لا عند المخلوقين؛ دليله قوله : «إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا . وَنَرَاهُ قَرِيبًا» (2) . ﴿ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ ليس « أو » للشك بل للتمثيل بأيهما أراد الممثل . وقيـل : دخلت لشك المخاطب . وقيل : «أو» بمنزلة بل . ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقدّم (3) .

---

(1) راجع جـ ٩ ص١١٧ (2) آية ٦ سورة المعارج. (3) راجع جـ ١ ص٢٢٤ طبعة ثانية أو ثالثة.

قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٧٨)

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء . وفيه ثلاثة أقاويل : أحدها — لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم . الثاني — لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء . الثالث — لا تعلمون شيئا من منافعكم ؛ وتمّ الكلام ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ أي التي تعلمون بها وتدركون ؛ لأن الله جعل ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ؛ أي وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهي ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه ، والأفئدة لتصلوا بها الى معرفته . والأفئدة : جمع الفؤاد نحو غراب وأغربة . وقد قيل في ضمن قوله « وجعل لَكُمُ السَّمْعَ » إثبات النطق لأن من لم يسمع لم يتكلم ، وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق . وقرأ الأعمش وابن وثّاب وحمزة « إمّهاتكم » هنا وفي النور (١) والزمر (٢) والنجم (٣) ، بكسر الهمزة والميم . وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم ؛ وإنما كان هذا للإتباع . الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل . وأصل الأمهات : أمّات ، فزيدت الهاء تأكيدا كما زادوا هاء في أهرقت الماء وأصله أرقت . وقد تقدّم هذا المعنى في «الفاتحة» (٤) . ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ فيه تأويلان : أحدهما — تشكرون نعمه . الثاني — يعني تبصرون آثار صنعته ؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧٩)

---

(١) في قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ... » آية ٦١ (٢) في قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ... » آية ٦ (٣) في قوله تعالى : « الذين يجتنبون كبائر الاثم ... » آية ٣٢ (٤) راجع جـ ١ ص ١٤٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعـالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ قرأ يحيى بن وثّاب والأعمش وابن عامر وحمــزة ويعقوب « تروا » بالتاء على الخطاب، واختاره أبو عبيد. الباقون بالياء على الخبر. ﴿ مُسَخَّرَاتٍ ﴾ مُذَلّلات لأمر الله تعالى؛ قاله الكلبي. وقيل: « مسخراتٍ » مذللات لمنافعكم. ﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ﴾ الجوُّ ما بين السماء والأرض؛ وأضاف الجـوّ إلى السماء لارتفاعه عن الأرض. وفي قوله « مسخراتٍ » دليلٌ على مُسَخِّرٍ سـخّرها ومُدَبِّرٍ مكّنها من التصرف. ﴿ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ﴾ في حال القبض والبسط والاصطفاف. بيّن لهم كيف يعتبرون بهـا على وحدانيته. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي علامات وعبرا ودلالات. ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ بالله وبمـا جاءت به رسلهم.

قوله تعـالى : وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

فيــه عشر مسائل[1] :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ معناه صيّر. وكلُّ ما علاك فأظلّك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلّك فهو أرض، وكلُّ ما سترك من جهاتك الأربع فهو جدار؛ فإذا انتظمتْ واتصلت فهو بيت. وهذه الاية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، فذكر أولا بيوت المدن وهي التي للإقامة الطويلة. وقوله : ﴿ سَكَنًا ﴾ أي تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة، وقد تتحرك فيه وتسكن في غيره؛ إلا أن القول خرج على الغالب. وعدّ هذا في جملة النعم فإنه لو شاء خلق العبــد مضطربا أبدا كالأفلاك لكان ذلك كما خلق وأراد، ولو خلقه ساكنا كالأرض لكان كما خلق وأراد، ولكنه أوجده خلقا يتصرّف للوجهين، ويختلف حاله بين الحالتين، وردّده كيف وأين. والسَّكَن مصدر يوصف به الواحد والجمــع. ثم ذكر تعالى بيوت النُّقلة والرِّحلة وهي :

(١) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل

الثانيـــة ـــ فقال : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا ﴾ أى من الأنطاع والأَدَم . ﴿ بُيُوتًا ﴾ يعنى الخيام والقِباب يَخِفّ عليكم حملها فى الأسفار . ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ الظّعن : سير البادية فى الانتجاع(١) والتحول من موضع إلى موضع ؛ ومنه قول عنترة :

ظعن الذين فراقَهـم أتوقّع * وجرى ببينهم الغراب الأبقع

والظعن الهودج أيضا ؛ قال :

ألا هـل هاجك الأظعان إذ بانوا * وإذ جادت بوشك البين غربان

وقرئ بإسكان العين وفتحها كالشَّعْر والشَّعَر . وقيـل : يحتمل أن يعم بيوت الأَدَم وبيوت الشعر وبيوت الصوف ؛ لأن هـذه من الجلود لكونها ثابتة فيها ؛ نحا إلى ذلك ابن سَلام . وهو احتمال حسن ، ويكون قوله « ومِنْ أَصْوَافِهَا » ابتـداء كلام ، كأنه قال جعـل أثاثا ؛ يريد الملابس والوطاء ، وغير ذلك ؛ قال الشاعر :

أهاجتـك الظعائن يوم بانوا * بذى الزِّىّ الجميل من الأثاث

ويحتمل أن يريد بقوله « من جلود الأنعـام » بيوت الأَدَم فقـط كما قدمناه أولا . ويكون قوله « ومن أصوافها » عطفا على قوله « من جلود الأنعـام » أى جعـل بيوتا أيضا . قال ابن العربى : « وهـذا أمر انتشر فى تلك الديار ، وعَزَبت عنه بلادنا ، فلا تُضرب الأخبيَة عندنا إلّا من الكَتّان والصوف ، وقد كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم قُبّة من أَدَم ، وناهيك من أدم الطائف غلاء فى القيمة ، واعتلاء فى الصنعة ، وحسنا فى البشرة ، ولم يعدّ ذلك صلى الله عليه وسلم تَرفا ولارآه سرفا ؛ لأنه مما امتن الله سبحانه من نعمته وأذن فيه من متاعه ، وظهرت وجوه منفعته فى الاكتنان والاستظلال الذى لا يقدر على الخروج عنه جنس الإنسان . ومن غريب ما جرى أنى زرت بعض المترهدين من الغـافلين مع بعض المحدثين ، فدخلنا عليـه فى خباء كَتّان فعرض عليه صاحبى المحدث أن يحمـله إلى منزله ضيفا ، وقال : إن هذا موضع يكثر فيه الحـرّ والبيت أرفق بك وأطيب لنفسى فيك ؛ فقال : هـذا الخباء لنا كثير ، وكان

(١) النجعة والانتجاع : طلب الكلأ ومساقط الغيث .

فى صنعنا من الحقير؛ فقلت : ليس كما زعمت! فقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسـلم وهو رئيس الزهاد قُبّة من أَدَم طائفيّ يسافر معها و يستظلّ بها ؛ فبُهت ، ورأيته على منزلة من العيّ فتركته مع صاحبي وخرجت عنه » .

الثالثـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ﴾ أذن الله سبحانه بالانتفاع بصوف الغنم ووَبَر الإبل وشعر المعز، كما أذن فى الأعظم ،وهو ذبحها وأكل لحومها ،ولم يذكر القطن والكَتّان لأنه لم يكن فى بلاد العرب المخاطبين به ،وإنمـا عدّد عليهم ما أنعم به عليهم ، وخوطبوا فيما عرفوا بمـا فهموا . وما قام مقام هذه وناب منابها فيدخل فى الاستعمال والنعمة مدخلها؛ وهذا كقوله تعـالى : « وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ »[1]؛ فخاطبهم بالبَرد لأنهم كانوا يعرفون نزوله كثيرا عندهم ، وسكت عن ذكر الثلج؛ لأنه لم يكن فى بلادهم ، وهو مثله فى الصفة والمنفعة ، وقد ذكرهما النبيّ صلى الله عليه وسلم معًا فى التطهير فقال : " اللّهمّ اغسلنى بماء وثلج وبَرَد » . قال ابن عباس : الثلج شيء أبيض ينزل من السماء وما رأيته قطّ . وقيل : إن ترك ذكر القطن والكَتّان إنمـا كان إعراضا عن التَرف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنمـا هو الصوف . وهـذا فيه نظر؛ فإنه سبحانه يقول : « يَا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ » حسبما تقدّم بيانه فى «الأعراف»[2] . وقال هنا : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ » فأشـار إلى القطن والكَتّان فى لفظة « سرابيـل » والله أعلم . و ﴿ أَثَاثًا ﴾ قال الخليل : متاعا منضما بعضه إلى بعض؛ من أَثّ إذا كثر . قال :

وفَـرْعٍ يَزِين المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ * أَثيثٍ كقِنْـوِ النـخلة المُتعَثْكِلِ[3]

ابن عباس : « أَثَاثًا » ثيابا . وقد تقدّم . وتضمّنت هذه الآية جواز الانتفاع بالأصواف والأوبار والأشعار على كل حال ، ولذلك قال أصحابنا : صوف الميتـة وشعرها طاهر يجوز

(١) آية ٤٣ سورة النور . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٨٢ طبعة أولى أو ثانيـة . (٣) البيت من معلقة امرئ القيس . والفرع : الشعر التـامّ . والمتن والمتنة : ما عن يمين الصلب وشمـاله من العصب واللحم . والفاحم : الشديد السواد . والقنو (بالكسر والضم) : العـذق وهو الشمراخ . والمتعثكل : الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته .

الانتفاع به على كل حال ، ويغسل مخافة أن يكون عَلِق به وسخ؛ وكذلك روت أم سلمة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا بأس بجلد الميتة إذا دُبغ وصوفِها وشعرِها إذا غُسل" لأنه مما لا يَحُلّه الموت ، وسواء كان شعر ما يؤكل لحمه أو لا ، كشعر ابن آدم والخنزير، فإنه طاهر كله؛ وبه قال أبو حنيفة، ولكنه زاد علينا فقال : القَرْن والسِّن والعظم مثل الشعر؛ قال : لأن هذه الأشياء كلها لا روح فيها فلا تنجس بموت الحيوان . وقال الحسن البَصْريّ والليث بن سعد والأوزاعيّ : إن الشعور كلها نجسة ولكنها تطهر بالغسل . وعن الشافعي ثلاث روايات : الأولى — طاهرة لا تنجس بالموت . الثانية — تنجس . الثالثة — الفرق بين شعر ابن آدم وغيره ، فشعر ابن آدم طاهر وما عداه نجس . ودليلنا عموم قوله تعالى : « ومن أصوافها » الآية . فمنّ علينا بأن جعل لنا الانتفاع بها ، ولم يخص شعر الميتة من المُذَكّاة ، فهو عموم إلا أن يمنع منه دليل . وأيضا فإن الأصل كونها طاهرة قبل الموت بإجماع ، فمن زعم أنه انتقل إلى نجاسة فعليه الدليل . فإن قيل قوله : « حُرِّمَتْ عليكم الميتة » وذلك عبارة عن الجملة . قلنا : نخصه بما ذكرنا؛ فإنه منصوص عليه في ذكر الصوف ، وليس في آيتكم ذكره صريحا ، فكان دليلنا أَوْلى . والله أعلم . وقد عوّل الشيخ الإمام أبو إسحاق إمام الشافعية ببغداد على أن الشعر جزء متصل بالحيوان خِلْقة ، فهو يَنْمِى بنمائه ويتنجس بموته كسائر الأجزاء . وأجيب بأن النَّماء ليس بدليل على الحياة ؛ لأن النبات يَنمِى وليس بحيّ . وإذا عوّلوا على النماء المتصل لما على الحيوان عوّلنا نحن على الإبانة التي تدل على عدم الإحساس الذي يدل على عدم الحياة . وأما ما ذكره الحنفيُّون في العظم والسن والقَرْن أنه مثل الشعر ، فالمشهور عندنا أن ذلك نجس كاللحم . وقال ابن وهب مثل قول أبي حنيفة . ولنا قول ثالث — هل تلحق أطراف القرون والأظلاف بأصولها أو بالشعر ، قولان . وكذلك الشعريّ من الريش حكمه حكم الشعر ، والعظميّ منه حكمه حكمه . ودليلنا قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تنتفعوا من الميتة بشيء" وهذا عام فيها وفي كل جزء منها ، إلا ما قام دليله ؛ ومن الدليل القاطع على ذلك قوله تعالى : « قال من يُحْيِ العِظَام وهي رَمِيم »[1] ،

(١) آية ٧٨ سورة يس .

وقال تعالى: «وَٱنْظُر إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزهَا»(١)، وقال: «فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا»(٢)، وقال: «أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً»(٣) فالأصل هي العظام، والروح والحياة فيها كما في اللحم والجلد. وفي حديث عبد الله بن عُكَيم: "لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب". فإن قيل: قد ثبت في الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال في شاة ميمونة: "ألّا انتفعتم بجلدها"؟ فقالوا: يارسول الله، إنها ميّتة. فقال: "إنما حَرُم أكلها" والعظم لا يؤكل. قلنا: العظم يؤكل، وخاصّةً عظم الجمل الرضيع والجَدْي والطير، وعظم الكبير يشوى ويؤكل. وما ذكرناه قبلُ يدُلّ على وجود الحياة فيه، وما كان طاهرا بالحياة ويستباح بالذّكاة ينجس بالموت. والله أعلم.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ﴾ عامٌّ في جلد الحيّ والميت، فيجوز الانتفاع بجلود الميتة وإن لم تدبغ؛ وبه قال ابن شهاب الزهريّ والليث بن سعد. قال الطحاويّ: لم نجد عن أحد من الفقهاء جواز بيع جلد الميتة قبل الدباغ إلا عن الليث. قال أبو عمر: يعني من الفقهاء أئمة الفتوى بالأمصار بعد التابعين، وأما ابن شهاب فذلك عنه صحيح، وهو قول أباه جمهور أهل العلم. وقد روى عنهما خلاف هذا القول، والأول أشهر.

قلت: قد ذكر الدَّارَقُطْنيّ في سننه حديث يحيى بن أيوب عن يونس وعقيل عن الزهريّ، وحديث بقية عن الزُّبيدي، وحديث محمد بن كثير العبدي وأبي سلمة المنقريّ عن سليمان بن كثير عن الزهريّ، وقال في آخرها: هذه أسانيد صحاح.

السادســـة(٤) — اختلف العلماء في جلد الميتة إذا دُبغ هل يطهر أم لا؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك ما يشبه مذهب ابن شهاب في ذلك. وذكره ابن خُوَيْزِمَنْداد في كتابه عن ابن عبد الحكم أيضا. قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: وهو قول الزهريّ والليث. قال: والظاهر من مذهب مالك ما ذكره ابن عبد الحكم، وهو أن الدباغ لا يطهر جلد الميتة، ولكن يبيح الانتفاع به في الأشياء اليابسة، ولا يصلي عليه ولا يؤكل فيه. وفي المدونة لابن القاسم

(١) آية ٢٥٩ سورة البقرة. (٢) آية ١٤ سورة المؤمنون. (٣) آية ١١ سورة النازعات.
(٤) اضطربت الأصول في عدّ هذه المسائل.

« من اغتصب جلد ميتة غير مدبوغ فأتلفه كان عليــه قيمته » وحكى أن ذلك قول مالك . وذكر أبو الفرج أن مالكا قال : من اغتصب لرجل جلد ميتة غير مدبوغ فـلا شيء عليــه . قال إسماعيل : إلا أن يكون لمجوسى . وروى ابن وهب وابن عبـد الحكم عن مالك جواز بيعه ، وهذا فى جلد كل ميتة إلا الخنزير وحده ؛ لأن الزكاة لا تعمل فيه ، فالدباغ أولى . قال أبو عمر : وكل جلد ذُكِّى فجائز استعماله للوضوء وغيره . وكان مالك يكره الوضوء فى إناء جلد الميتة بعد الدباغ على اختلاف من قوله ، ومرة قال : إنه لم يكرهه إلا فى خاصة نفسه، وتكره الصلاة عليــه وبيعه ، وتابعــه على ذلك جماعة من أصحابه . وأما أكثر المــدنيين فعــلى إباحة ذلك وإجازته ؛ لقول رســول الله صلى الله عليه وسلم : " أيُّمــا إهاب دبغ فقد طهر ". وعلى هذا أكثر أهل الحجاز والعراق من أهل الفقه والحديث، وهو اختيار ابن وهب .

السابعــــة ـــ ذهب الإمام أحمــد بن حنبل رضى الله عنــه إلى أنه لا يجوز الانتفاع بجلود الميتة فى شيء وإن دبغت؛ لأنها كلحم الميتة . والأخبار بالانتفاع بعد الدباغ تردّ قوله . واحتج بحديث عبدالله بن عكيم ـــ رواه أبو داود ـــ قال : قرئ علينا كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأرض جهينة وأنا غلام شاب : " ألا تستمتعوا من الميتة بإهاب ولا عَصَب " . وفى رواية : « قبل موته بشهر»[(1)] . رواه القاسم بن مخيمرة عن عبد الله بن عُكيم ، قال : حدثنا مَشيخة لنا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كتب إليهم ... قال داود بن علىّ : سألت يحيى بن مَعين عن هذا الحديث فضعّفه وقال : ليس بشيء ، إنمــا يقول حدثنى الأشياخ . قال أبو عمر : ولو كان ثابتــا لاحتمل أن يكون مخالفا للأحاديث المروية عن ابن عباس وعائشة وسلمة بن المُحَبِّق وغيرهم ، لأنه جائز أن يكون معنى حديث ابن عُكيم " ألا تنتفعوا من الميتة بإهاب " قبــل الدباغ؛ وإذا احتمل ألا يكون مخالفا فليس لنــا أن نجعله مخالفا، وعلينا أن نستعمل الخبرين ما أمكن ، وحديث عبد الله بن عكيم وإن كان قبل موت النبىّ صلى الله عليه وسلم بشهر كما جاء فى الخبر فيمكن أن تكون قصّة ميمونة وسماع ابن عباس منه " أيّمــا إهاب دبغ فقد طهر " قبل موته بجمعة أو دون جمعة ، والله أعلم .

(١) لفظة « بشهر » ساقطة من سنن أبى داود .

الثامنـــة ــ المشهور عنـدنا أن جلد الخنزير لا يدخل فى الحديث ولا يتناوله العموم، وكذلك الكلب عند الشافعىّ. وعند الأوزاعى وأبى ثور : لا يطهر بالدباغ إلا جلد ما يؤكل لحمه . وروى مَعْن بن عيسى عن مالك أنه سئل عن جلد الخنزير إذا دبغ فكرهه . قال ابن وَضّاح : وسمعت سُحْنُونا يقول لا بأس به ؛ وكذلك قال محمد بن عبـد الحكم وداود بن علىّ وأصحابه؛ لقوله عليه السلام : "أيّمـا مَسْك[1] دبغ فقد طهر". قال أبو عمر : يحتمل أن يكون أراد بهذا القول عموم الجلود المعهود الانتفاع بها ، فأما الخنزير فلم يدخل فى المعنى لأنه غير معهود الانتفاع بجلده ، إذ لا تعمل فيه الذكاة . ودليل آخر وهو ما قاله النَّضْر بن شُمَيل : إن الإهاب جلد البقر والغنم والإبل، وما عداه فإنمـا يقال له : جلد لا إهاب .

قلت : وجلد الكلب وما لا يؤكل لحمه أيضا غير معهود الانتفاع به فلا يطهر؛ وقد قال صلى الله عليـه وسلم : "أكل كل ذى ناب من السباع حرام" فليست الذكاة فيها ذكاة ، كما أنها ليست فى الخنزير ذكاة . وروى النَّسائىّ عن المقدام بن معد يكرب قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرير والذهب ومَيَاثر[2] النمور .

التاسعـــة ــ اختلف الفقهاء فى الدباغ التى تطهر به جلود الميتة ما هو ؟ فقال أصحاب مالك وهو المشهور من مذهبـه : كل شىء دَبغ الجلد من ملح أو قَرَظ أو شَبّ أو غير ذلك فقد جاز الانتفاع به . وكذلك قال أبو حنيفة وأصحابه، وهو قول داود . وللشافعىّ فى هذه المسألة قولان : أحدهما ــ هـذا ، والآخر أنه لا يُطَهِّر إلا الشبّ والقَـرَظ؛ لأنه الدباغ المعهود على عهـد النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعليـه خرّج الخطابىّ ــ والله أعلم ــ ما رواه النَّسائىّ عن ميمونة زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه مرّ برسول الله صلى الله عليه وسلّم رجال من قريش يجرّون شاة لهم مثل الحصان؛ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لو أخذتم إهابها" قالوا : إنها ميتة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يطهرها المـاء والقرظ".

(١) المسك (بالفتح وسكون السين) : الجلد . وخص بعضهم به جلد السخلة ، ثم كثر حتى صار كل جلد مسكا ، والجمع مسك ومسوك . (٢) أى عن أن تفرش جلودها على السرج والرحال للجلوس عليها لمـا فيه من التكبر ، أو لأنه زى العجم ، أو لأن الشعر نجس لا يقبل الدباغ . (عن شرح سنن النسائى) .

العــاشرة — قوله تعــالى : ﴿ أَثَاثًا ﴾ الأثاث متاع البيت ، واحدها أثاثة ؛ هذا قول أبي زيد الأنصاري . وقال الأموي : الأثاث متاع البيت ، وجمعــه آثة وأُثُث . وقال غيرهما : الأثاث جميع أنواع المــال ولا واحد له من لفظه . وقال الخليل : أصله من الكثرة واجتماع بعض المتاع إلى بعض حتى يكثر ؛ ومنــه شعر أثيث أي كثير . وأثّ شــعر فلان يأثّ أثًّا إذا كثر والتفّ ؛ قال امرؤ القيس :

وفَرْعٍ يَزِينُ المتنَ أسودَ فاحمٍ * أَثِيثٍ كقِنْوِ النّخلة المُتَعَثْكِلِ

وقيل : الأثاث ما يلبس ويفــترش . وقد تأثّثت إذا اتخذت أثاثا . وعن ابن عباس رضي الله عنه « أثاثا » مالًا . وقد تقــدم القول في الحين[1] ؛ وهو هنا وقت غير معــيّن بحسب كل إنسان ، إما بموته وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث . ومن هذه اللفظة قول الشاعر :

أهاجتــك الظعائن يوم بانوا * بذي الزِّيِّ الجميل من الأثاث

قوله تعــالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعــالى : ﴿ ظِلَالًا ﴾ الظّلال : كلّ ما يستظَلّ به من البيوت والشجر . وقوله ﴿ مِمَّا خَلَقَ ﴾ يعمّ جميع الأشخاص المظِلّة .

الثانيــة — قوله تعــالى : ﴿ أَكْنَانًا ﴾ الأكنان : جمع كِنّ ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك ؛ وهي هنا الغــيران في الجبال ، جعلها الله عدّة للخلق يأوون إليها ويتحصنون بها ويعتزلون عن الخلق فيها . وفي الصحيح أنه عليه السلام كان في أول أمره يتعبّد بغار حِرَاء ويمكث فيه الليالي ... الحديث . وفي صحيح البخاري قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) راجع المسألة السادسة جـ ١ ص ٣٢١ طبعة ثانية أو ثالثة .

من مكة مهاجرا هاربا من قومه فارا بدينه مع صاحبه أبي بكر حتى لحقا بغـار فى جبل ثَوْر ، فكَمَنا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما فيه عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثَقِف لَقِن (١) فيُدْلج من عندهما بسحَر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فلا يسمع أمرا يكادان به (٢) إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ، ويرعى عليهما عامر بن فُهيرة مولى أبي بكر مِنْحة (٣) من غنم فيريحها عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبيتان فى رِسْل ، وهو لبن منحتهما ورَضيفهما (٤) حتى ينعق بهما عامر بن فُهيرة بغَلَس ، يفعل ذلك فى كل ليلة من تلك الليالى الثلاث ... وذكر الحديث . انفرد بإخراجه البخارى .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ ﴾ يعنى القُمص ، واحدها سربال . ﴿ وسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ يعنى الدروع التى تقى الناس فى الحرب ؛ ومنه قول كعب بن زهـــير :

شُــــمُّ العرانين أبطال لَبُوسهـــمُ * من نَسْج داودَ فى الهَيْجا سَرابيلُ

الرابعـــة — إن قال قائل : كيف قال «وجعل لكم من الجبال أكنانا» ولم يذكر السهل ، وقال «تقيكم الحرّ» ولم يذكر البرد؟ فالجواب أن القوم كانوا أصحاب جبال ولم يكونوا أصحاب سهل ، وكانوا أهل حَرٍّ ولم يكونوا أهل برد ، فذكر لهم نعمه التى تختص بهم كما خصّهم بذكر الصوف وغيره ، ولم يذكر القطن والكَتّان ولا الثلج — كما تقدم — فإنه لم يكن ببلادهم ؛ قال معناه عطاء الخراسانىّ وغيره . وأيضا : فذكر أحدهما يدل على الآخر؛ ومنه قول الشاعر :

وما أدرى إذا يمّمت أرضًا * أريد الخـــير أيهمـا يَلِينى

أألخـــير الذى أنا أبتغيـــه * أم الشر الذى هـــو يبتغينى

الخامســـة — قال العلماء : فى قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾ دليل على اتخاذ العباد عدّة الجهاد ليستعينوا بها على قتـال الأعداء ، وقد لبسها النبىّ صلى الله عليه وسلم تقاة

---

(١) أى حاذق سريع الفهم . (٢) من الكيد ؛ أى يطلب لهما ما فيه المكروه . (٣) أى شاة تحلب إناء بالغداة وإناء بالعشى . (٤) الرضيف : اللبن المرضوف ، وهو الذى طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه .

الجراحة و إن كان يطلب الشهادة ، وليس للعبد أن يطلبها بأن يستسلم للحتوف وللطعن بالسنان وللضرب بالسيوف ، ولكنه يلبس لأمة[1] حرب لتكون له قوة على قتال عدوه ، و يقاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، و يفعل الله بعدُ مايشاء .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وحميد « تتم » بتاءين ، « نعمتُه » رفعا على أنها الفاعل . الباقون « يتم » بضم الياء على أن الله هو يتمها . و « تسلمون » قراءة ابن عباس وعكرمة « تَسْلَمون » بفتح التاء واللام ، أى تسلمون من الجراح ، وإسناده ضعيف ؛ رواه عَباد بن العوّام عن حنظلة عن شَهْر عن ابن عبـاس . الباقون بضم التاء ، ومعناه تستسلمون وتنقادون إلى معرفة الله وطاعته شكرا على نعمــه . قال أبو عبيد : والاختيار قراءة العامّة ؛ لأن ما أنعم الله به علينا من الإســلام أفضل ممـا أنعم به من السلامة من الجراح .

قوله تعـالى : فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَـا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عن النظر والاستدلال والإيمان . ﴿ فَإِنَّمَـا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ﴾ أى ليس عليك إلا التبليغ ، وأما الهداية فإلينا .

قوله تعـالى : يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ﴾ قال السُّدّى : يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ، أى يعرفون نبوّته ﴿ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ ويكذبونه . وقال مجـاهد : يريد ماعدّد الله عليهم فى هـذه السورة من النعم ؛ أى يعرفون أنها من عند الله و ينكرونها بقولهم إنهم ورثوا ذلك عن آبائهم . وبمثله قال قتادة . وقال عَوْن بن عبـد الله : هو قول الرجل لولا فـلان لكان كذا ، ولولا فـلان ما أصبت كذا ، وهم يعرفون النفع والضر من عند الله . وقال الكَلْبى : هو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمـا عرّفهم بهذه النعم كلها عرفوها وقالوا : نَعم ، هى كلها نِعم من الله ، ولكنها

(١) لأمة الحرب : أداته ؛ وقد يترك الهمز تخفيفا .

بشفاعة آلهتنا . وقيل : يعرفون نعمة الله بتقلّبهم فيها، وينكرونها بترك الشكر عليها . و يحتمل سادسا — يعرفونها فى الشدّة وينكرونها فى الرخاء . ويحتمل سابعا — يعرفونها بأقوالهم و ينكرونها بأفعالهم . ويحتمل ثامنا — يعرفونها بقلوبهم و يجحدونها بالسنتهم؛ نظيرها «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ»(١) ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ يعنى جميعهم؛ حسبما تقدّم .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾ نظيره : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ »(٢) وقد تقدّم . ﴿ ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى فى الاعتذار والكلام ؛ كقوله : « وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ »(٣) . وذلك حين تطبق عليهم جهنم، كما تقـدّم فى أول « الحجر » ويأتى . ﴿ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ يعنى يسترضون ، أى لا يكلفون أن يرضوا ربهم؛ لأن الآخرة ليست بدار تكليف، ولا يتركون إلى رجوع الدنيا فيتوبون . وأصل الكلمة من العَتْب وهى المَوْجِدة ؛ يقال : عَتَب عليه يعتُب إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ماعَتَب عليه فيه قيل عاتبه، فإذا رجـع إلى مسرّتك فقـد أعتَب، والاسم العُتْبى وهو رجوع المعتوب عليـه إلى ما يُرضى العاتبَ؛ قاله الهَرَوِىّ . وقال النابغة :

فإن كنتُ مظلوما فعبدا ظلمتَه * وإن كنتَ ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ

قوله تعـالى : وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ٱلْعَذَابَ فَـلَا يُخَفَّفُ عَنْهُـمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى أشركوا . ﴿ الْعَذَابَ ﴾ أى عذاب جهنم بالدخول فيها . ﴿ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يمهلون؛ إذ لا توبة لهم ثَمَّ .

(١) آية ١٤ سورة النمل . (٢) آية ٤١ سورة النساء . راجع جـ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) آية ٣٦ سورة المرسلات .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿وَ إِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ أى أصنامهم وأوثانهم التى عبدوها ؛ وذلك أن الله يبعث معبوديهم فيتبعونهم حتى يُوردوهم النار . وفى صحيح مسلم : "من كان يعبد شيئا فَلْيَتَّبِعْه فيتّبِـع من كان يعبد الشمس الشمسَ و يتّبع من كان يعبد القمر القمرَ و يتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت" الحديث[1]، خرجه من حديث أنس، والترمذى من حديث أبى هريرة، وفيه : "فيُمَثَّل لصاحب الصليب صليبُه ولصاحب التصاوير تصاويرُه ولصاحب النار نارُه فيتبعون ما كانوا يعبـدون" وذكر الحديث[2] . ﴿ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ ﴾ أى الذين جعلناهم لك شركاء . ﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِـمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أى ألقت إليهم الآلهة القول، أى نطقت بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، فيُنطق الله الأصنامَ حتى تظهـر عند ذلك فضيحة الكفار . وقيل : المراد بذلك الملائكة الذين عبدوهم . ﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ ﴾ يعنى المشركين، أى استسلموا لعذابه وخضعوا لعزّه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . ﴿ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى زال عنهم ما زيّن لهم الشيطان وما كانوا يؤمّلون من شفاعة آلهتهم .

قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

---

(١) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة . راجع كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) راجع الحديث فى سنن الترمذى فى باب صفة الجنة .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾ قال ابن مسعود : عقارب أنيابها كالنخل الطوال، وحيات مثـل أعناق الإبل ، وأفاعى كأنها البَخَاتِيّ [(1)] تضربهم، فتلك الزيادة . وقيـل : المعنى يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شـدة برده إلى النار . وقيل : المعنى زدنا القادة عذابا فوق السّفلة، فأحد العذابين على كفرهم والعذاب الآخر على صدّهم . ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ فى الدنيا من الكفر والمعصية .

قوله تعـالى : وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ وهم الأنبياء، شهداء على أممهم يوم القيامة بأنهم قد بلغوا الرسالة ودعَوْهم إلى الإيمـان، فى كل زمان شهيد وإن لم يكن نبيا ؛ وفيهم قولان : أحدهما — أنهم أئمة الهدى الذين هم خلفاء الأنبياء . الثانى — أنهم العلماء الذين حفظ الله بهم شرائع أنبيائه .

قلت : فعلى هذا لم تكن فترة إلا وفيها من يوحّد الله؛ كقُسّ بن ساعدة، وزيد بن عمرو ابن نُفيل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : "يُبعث أمةً وحده"، وسَطِيح [(2)]، ووَرَقة ابن نَوْفل الذى قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " رأيته ينغمس فى أنهار الجنة " . فهؤلاء ومن كان مثلهم حجةٌ على أهل زمانهـم وشهيد عليهم . والله أعلم . وقوله « وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هٰؤُلَاءِ » تقدّم [(3)] فى البقرة والنساء .

قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ نظيره : « مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ [(4)] » وقد تقدّم، فلينظر هناك . وقال مجاهد : تبيانا للحلال والحرام .

(1) البخاتى : جمال طوال الأعناق . (2) هو كاهن بنى ذئب ، كان يتكهن فى الجاهلية، واسمه : ربيع بن ربيعة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٩ طبع أوربا) . (3) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ طبعة ثانية وجـ٥ ص ١٩٧ طبعة أولى أو ثانية . (4) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ رُوى عن عثمان بن مَظْعُون أنه قال : لمـا نزلت هذه الآية قرأتُها على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فتعجّب فقال : يا آل غالب، اتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق. وفى حديث — إن أبا طالب لمـا قيـل له : إن آبن أخيك زعم أن الله أنزل عليه « إن الله يأمر بالعدل والإحسـان » الآية ، قال : اتبعوا آبن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق . وقال عكرمة : قرأ النبىّ صـلى الله عليه وسـلم على الوليد بن المغيرة « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، فقال : يابن أخى أعد ! فأعاد عليه فقال : والله إن له لحلاوة ، و إن عليه لَطُلاوة ، و إن أصله لمُورِق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر ! وذكر الغَزْنَوِىّ أن عثمان بن مظعون هو القارئ . قال عثمان : ما أسـلمت ابتـداءً إلّا حياءً من رسول الله صـلى الله عليه وسـلم حتى نزلت هـذه الآية وأنا عنده فآستقر الإيمـان فى قلبى ، فقـرأتها على الوليد بن المغيرة فقال : يابن أخى أعد ! فأعدت فقال : والله إن له لحلاوة، ... وذكر تمام الخبر. وقال ابن مسعود : هذه أجمع آية فى القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب . وحكى النقاش قال : يقال زكاة العـدل الإحسان ، وزكاة القـدرة العفو ، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كَتْبُ الرجل إلى إخوانه .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى تأويل العدل والإحسان ؛ فقال ابن عباس : العـدل لا إله إلا الله، والإحسان أداء الفرائض . وقيل : العدل الفرض، والإحسان النافلة . وقال سـفيان بن عُيينة : العـدل ها هنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية . علىّ بن أبى طالب : العـدل الإنصاف ، والإحسان التفضل . قال ابن عطية :

العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات، وترك الظلم والإنصاف، وإعطاء الحق . والإحسان هو فعـل كل مندوب إليه؛ فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنهـا ما هو فرض، إلا أن حَدّ الإجزاء منـه داخل فى العـدل ، والتكميلُ الزائد على الإجزاء داخل فى الإحسان . وأما قول ابن عباس ففيه نظر؛ لأن أداء الفرائض هى الإسلام حسبما فسره رسـول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل، وذلك هو العدل ، و إنما الإحسان التكميلات والمندوب إليه حسبما يقتضيه تفسير النبيّ صلى الله عليه وسلم فى حديث سؤال جبريل بقوله : "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". فإن صح هذا عن ابن عباس فإنما أراد الفرائض مكملة . وقال ابن العربى : العـدل بين العبد و بين ربه إيثارُ حقـه تعالى على حظ نفسه ، وتقديمُ رضاه على هواه ، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للاوامر . وأما العـدل بينـه و بين نفسه فمنعها ممـا فيه هلاكها؛ قال الله تعـالى : «وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَـوَى»[1] وعُزوبُ الأطماع عن الاتبـاع ، ولزومُ القناعة فى كل حالٍ ومعنًى . وأما العـدل بينه و بين الخلق فبـذلُ النصيحة ، وتركُ الخيـانة فيما قَلّ وكَثُر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعـل لا فى سِرٍّ ولا فى عَلَن ، والصبرُ على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلّ ذلك الإنصافُ وتركُ الأذى .

قلت : هذا التفصيل فى العدل حَسَنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا : الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحسانا . و يقال على معنيين: أحدهما متعد بنفسه؛ كقولك : أحسنت كذا، أى حسّنته وكمّلته، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشئ . وثانيهما متعدٍّ بحـرف جر؛ كقولك : أحسنت إلى فلان، أى أوصلت إليه ما ينتفع به .

قلت : وهو فى هذه الآية مراد بالمعنيين معًا؛ فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى أن الطائر فى سجنك والسِّنّور فى دارك لا ينبغى أن تقصر تعهّده بإحسانك؛ وهو تعالى غنيّ عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن . وهو فى حديث جبريل

(١) آية ٤٠ سورة النازعات .

بالمعنى الأوّل لا بالثانى؛ فإن المعنى الأوّل راجع إلى إتقان العبادة ومراعاتها بآدائها المصححة والمكملة، ومراقبة الحق فيها، واستحضار عظمته وجلاله حالة الشروع وحالة الاستمرار. وهو المراد بقوله "أنْ تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك". وأرباب القلوب فى هذه المراقبة على حالين: أحدهما غالب عليه مشاهدة الحق فكأنه يراه. ولعلّ النبيّ صلى الله عليه وسلم أشار إلى هذه الحالة بقوله: "وجُعلت قرّة عينى فى الصلاة". وثانيهما — لاتنتهى إلى هذا، لكن يغلب عليه أن الحق سبحانه مطلع عليه ومشاهد له، وإليه الإشارة بقوله تعالى «الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ»[1] وقوله: «إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ»[2].

الثالثـــة — قوله تعـالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَىٰ﴾ أى القرابة؛ يقول: يعطيهم المـال كما قال «وآتِ ذَا الْقُرْبى حقَّه»[3] يعنى صلته. وهذا من باب عطف المندوب على الواجب، وبه استدلّ الشافعيّ فى إيجاب إيتاء المُكاتَب؛ على ما يأتى بيانه. وإنمـا خص ذا القربى لأن حقوقهم أوْكد وصلتهم أوجب؛ لتأكيد حق الرّحم التى اشتق الله آسمها من آسمه، وجعل صلتها من صلته، فقال فى الصحيح: "أمَا تَرْضَيْن أن أَصِل من وصلك وأقطعَ من قطعك"[4]. ولا سيّما إذا كانوا فقراء.

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ الفحشاء: الفُحْش، وهو كل قبيح من قول أو فعـل. ابن عباس: هو الزنى. والمنكر: ما أنكره الشرع بالنهى عنه، وهو يعم جميع المعاصى والرذائل والدناءات على اختلاف أنواعها. وقيل هو الشرك. والبغى: هو الكِبْر والظلم والحقد والتّعدّى؛ وحقيقته تجاوز الحدّ، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصه بالذكر اهتماما به لشدة ضرره. وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ذنب أسرع عقوبةً من بَغْيٍ". وقال عليه السلام: "الباغى مصروع". وقد وعد الله من بُغِيَ عليه بالنصر. وفى بعض الكتب المنزّلة: لو بَغَى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دَكًّا.

---

(١) آية ٢١٨ سورة الشعراء. (٢) آية ٦١ سورة يونس. (٣) آية ٢٦ سورة الإسراء.
(٤) راجع صحيح البخارى فى كتاب التفسير فى سورة محمد وكتاب الأدب والتوحيد؛ وصحيح مسلم فى كتاب الأدب.

الخامسـة ــ ترجم الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فى صحيحه فقال : (باب قول الله تعـالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » ، وقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » ، «ثم بُغِيَ عليه لينصرنّه الله» ، وترك إثارة الشر على مسـلم أو كافر) ثم ذكر حديث عائشـة فى سِحْر لبيـد ابن الأعصم النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال ابن بطال : فتأوّل رضى الله عنه من هذه الآيات ترك إثارة الشر على مسلم أو كافر، كما دلّ عليه حديث عائشة حيث قال عليه السلام : "أمّا الله فقد شفانى وأما أنا فأكره أن أثير على الناس شرا" . ووجه ذلك ــ والله أعلم ــ أنه تأوّل فى قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » الندب بالإحسان إلى المسيء وترك معاقبته على إساءته . فإن قيـل : كيف يصح هـذا التأويل فى آيات البغى . قيـل : وجه ذلك ــ والله أعلم ــ أنه لمّـا أعلم الله عباده بأن ضرر البغى ينصرف على البـاغى بقوله : « إنما بغيكم على أنفسكم » وضمن تعالى نُصرة من بُغِيَ عليه، كان الأولى بمن بغى عليه شكر الله على ما ضمن من نصره ومقابلةَ ذلك بالعفو عمن بغى عليـه ؛ وكذلك فعل النبيّ صلى الله عليه وسـلم باليهودى الذى سحره ، وقد كان له الآنتقام منه بقوله : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثـل ما عُوقِبتم بِهِ »(1) . ولكن آثر الصـفح أخذا بقوله : « وَلَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلك لمن عَزْمِ الأمـورِ »(2) .

السادسـة ــ تضمنت هذه الآية الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وقد تقدّم القول فيهما(3) . روى أن جماعة رفعت عاملها إلى أبى جعفر المنصور العباسى، فحاجّها العامل وغلبها، بأنهم لم يُثبِتوا عليه كبير ظلم ولا جوره فى شيء ؛ فقام فتًى من القوم فقال : يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدل ولم يحسن . قال : فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل .

---

(1) آية ١٢٦ من هذه السورة . (2) آية ٤٣ سورة الشورى . (3) راجع جـ ٤ ص ٤٧ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَأَوْفُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ ﴾ لفظٌ عام لجميع ما يُعقد باللسان ويلتزمه الإنسان من بيع أوصلة أو مواثقة فى أمر موافق للديانة . وهذه الآية مضمّن قوله « إن الله يأمر بالعـدل والإحسان » لأن المعنى فيها : افعلوا كذا، وانتهوا عن كذا؛ فعطف على ذلك التقدير . وقد قيل : إنها نزلت فى بيعة النبيّ صلى الله عليه وسلم على الإسلام . وقيل : نزلت فى التزام الحلف الذى كان فى الجاهلية وجاء الإسلام بالوفاء به؛ قاله قتادة ومجاهد وٱبن زيد . والعموم يتناول كل ذلك كما بينـاه . روى الصحيح عن جُبير بن مُطْعِم قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لا حِلْف فى الإسلام وأيُّمـا حِلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدّة " يعنى فى نصرة الحق والقيام به والمواساة . وهذا كنحو حِلف الفُضُول الذى ذكره ٱبن إسحاق قال : اجتمعت قبائل من قريش فى دار عبد الله بن جُدْعان لشرفه ونسبه[1]، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم إلا قاموا معه حتى تُرَدّ عليه مَظْلِمته؛ فسمت قريش ذلك الحلف حِلْف الفضول، أى حلف الفضائل . والفضول هنا جمع فضل للكثرة كفلس وفلوس . روى ٱبن إسحـاق عن ٱبن شهاب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعان حِلفا ما أحِبّ أن لى به حُمْر النَّعَم لو أدعى به فى الإسلام لأجبت " . وقال ٱبن إسحاق : تحامل الوليد بن عُتبة على حسين بن علىّ فى مال له، لسلطان الوليد فإنه كان أميرا على المدينة؛ فقال له حسين بن علىّ : أحلِفُ بالله لتُنْصِفَنّى من حقى أو لآخذنّ سيفى ثم لأقومنّ فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لأدعونّ بحلف الفضول . قال عبـد الله بن الزبير : وأنا أحلف والله لئن دعانا[2] لآخذن سيفى ثم لأقومنّ معه حتى ينتصف من حقه أو نموت جميعا . و بلغت المِسْوَر بن مَخْرمة فقال مثل ذلك . و بلغت

(١) فى سيرة ابن هشام : « لشرفه وسنه » . (٢) فى سيرة ابن هشام : «لئن دعا به» .

عبدَ الرحمن بن عثمان بن عبيد الله التيمى فقال مثل ذلك . فلما بلغ ذلك الوليدَ أنصفه . قال العلماء : فهذا الحِلف الذى كان فى الجاهلية هو الذى شدّه الإسلام وخصّه النبيّ عليه الصلاة والسلام من عموم قوله : " لا حِلْف فى الإسلام ". والحكمة فى ذلك أن الشرع جاء بالانتصار من الظالم وأخذ الحق منه وإيصاله إلى المظلوم، وأوجب ذلك بأصل الشريعة إيجابا عاما على من قدر من المكلّفين ، وجعل لهم السبيل على الظالمين فقال تعالى : « إِنَّمَا السَّبِيلُ على الذين يَظْلِمون النـاسَ ويَبْغُونَ فِي الأرضِ بِغَيْرِ الحقِّ أولئك لهم عذابٌ أليم » (١) . وفى الصـحيح : " أُنصر أخاك ظالمـا أو مظلوما " قالوا : يا رسول الله ، هـذا ننصره مظلوما فكيف ننصره ظالمـا؟ قال : " تأخذ على يديه — فى رواية : تمنعه من الظلم — فإن ذلك نصره " . وقد تقدّم قوله عليه السلام : " إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده " .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ يقول بعد تشديدها وتغليظها ؛ يقال : توكيد وتأكيد ، ووكّد وأكّد ، وهما لغتان .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ يعنى شهيدا . ويقال حافظا ، ويقال ضامنا . وإنمـا قال « بَعْدَ تَوْكِيدِها » فَرْقًا بين اليمين المؤكّدة بالعزم وبين لَغْو اليمين . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك : التوكيد هو حلف الإنسان فى الشيء الواحد مرارا ، يردّد فيه الأيمـان ثلاثا أو أكثر من ذلك ؛ كقوله : والله لا أُنقصه من كذا ، والله لا أنقصه من كذا ، والله لا أنقصه مِن كذا . قال : فكفارة ذلك واحدةٌ مثل كفّارة اليمين . وقال يحيى بن سـعيد : هى العهود ، والعهد يمين ، ولكن الفرق بينهما أن العهد لا يكفّر . قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " يُنْصَب لكل غادر لواء يوم القيامة عند آسته بقدر غَدْرته يقال هذه غدرة فلان " . وأما اليمين بالله فقد شرع الله سبحانه فيها الكفارة بخصلة واحدة ، وحلّ ما انعقدت عليـه اليمين . وقال ابن عمر : التوكيد هو أن يحلف مرتين ، فإن حلف واحدة فلا كفارة فيه . وقد تقدّم فى المـائدة (٢) .

(١) آية ٤٢ سورة الشورى . (٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢)

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ النّقض والنّكث واحد، والاسم النكث والنقض، والجمع الأنكاث . فشّبهت هذه الآية الذى يحلف ويعاهد ويُبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله مُحْكَمًا ثم تَحُلّه . ويروى أن امرأة حمقاء كانت بمكة تسمى رَيْطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مُرّة كانت تفعل ذلك، فبها وقع التشبيه؛ قاله الفراء، وحكاه عبد الله بن كثير والسُّدّى ولم يسمّيا المرأة. وقال مجاهد وقتادة : وذلك ضَرْبُ مثلٍ، لا على امرأة معيّنة . و «أنكاثا» نصب على الحال . والدَّخَل : الدَّغَل والخديعة والغش . قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل . ﴿ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أربى من أمّةٍ ﴾ قال المفسرون : نزلت هذه الآية فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى — قاله مجاهد — فقال الله تعالى : لا تنقضوا العهود من أجل أن طائفة أكثر من طائفة أخرى أو أكثر أموالا فتنقضون أيمانكم إذا رأيتم الكثرة والسعة فى الدنيا لأعدائكم المشركين . والمقصود النّهى عن العَوْد إلى الكفر بسبب كثرة الكفار وكثرة أموالهم . وقال الفراء : المعنى لا تغدروا بقوم لقلتهم وكثرتكم أو لقلتكم وكثرتهم ، وقد عززتموهم بالأيمان . ﴿ أَرْبَى ﴾ أى أكثر؛ من رَبَا الشيء يربو إذا كثر . والضمير فى « به » يحتمل أن يعود على الوفاء الذى أمر الله به . ويحتمل أن يعود على الرباء ؛ أى أن الله تعالى ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهورَ على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه فيخالفها ممن يتبعها ويعمل بمقتضى هواها ؛ وهو معنى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لكم يومَ القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ من البعث وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أى على ملة واحدة . ﴿ وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ ﴾ بخذلانه إياهم؛ عَدْلًا منه فيهم . ﴿ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ بتوفيقه إياهم ؛ فضلا منه عليهـم ، ولا يُسأل عما يفعل بل تسألون أنتم . والآية ترد على أهـل القدر كما تقدم . واللام فى «وليبينن ولتسئلن» مع النون المشددة يدلان على قسم مضمر، أى والله ليبينن لكم ولتسئلن .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ ﴾ كرر ذلك تأكيدا . ﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ مبالغة فى النهى عنه لعظم موقعه فى الدِّين وتردده فى معاشرات الناس؛ أى لا تعقدوا الأيمان بالانطواء على الخديعة والفساد فتزل قدم بعد ثبوتها ، أى عن الأيمان بعد المعرفة بالله . وهذه استعارة للستقيم الحال يقع فى شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلّت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر؛ ومن هذا المعنى قول كُثَيِّر :

* فلما توافينا ثَبَتُّ وزَلّتِ *

والعرب تقول لكل مبتلًى بعد عافية أو ساقط فى وَرْطة : زلّت قدمه؛ كقول الشاعر :

سَيُمْنَعُ منك السبقُ إن كنتَ سابقا * وتقتـل إن زلّت بك القدمان

ويقال لمن أخطأ فى شىء : زلّ فيـه . ثم توعّد تعالى بعـدُ بعذاب فى الدنيا وعذاب عظيم فى الآخرة . وهذا الوعيد إنما هو فيمن نقض عهد رسول الله صلى الله عليـه وسلم؛ فإن من عاهده ثم نقض عهـده خرج عن الإيمـان ، ولهذا قال : ﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى بصدّكم . وذَوْقُ السوء فى الدنيا هو مايحل بهم من المكروه .

قوله تعـالى : وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ولا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ نهى عن الرُّشَا وأخذ الأموال على نقض العهد ؛ أى لا تنقضوا عهودكم لعَرَض قليل من الدنيا . وإنمـا كان قليلا وإن كثر لأنه ممـا يزول، فهو على التحقيق قليل، وهو المراد بقوله : « مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَـد وما عند اللهِ باقٍ » فبين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هـذه تنفَد وتحول ، وما عند الله من مواهب فضله ونعيم جنته ثابت لا يزول لمن وَفَّى بالعهد وثَبَت على العقد . ولقد أحسن من قال :

المـالُ ينفَدُ حِـلُّه وحرامه * يوما وتبـقى فى غـدٍ آثامهُ
ليس التَّقِيُّ بمتَّـقٍ لإلٰهـه (١) * حتى يطيب شرابه وطعـامه

آخـر :

هَبِ الدنيا تساق إليك عفْوًا * أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنيـاك إلا مثـلُ فَيْءٍ * أظـلَّك ثم آذنَ بالزوال

قوله تعـالى : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ أى على الإسلام والطاعات وعن المعاصى . ﴿ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَـلُونَ ﴾ أى من الطاعات، وجعلها أحسن لأن ما عداها من الحسن مباح، والجزاء إنما يكون على الطاعات من حيث الوعد من الله . وقرأ عاصم وابن كثير « ولنجزِيَنّ » بالنون على التعظيم . الباقون باليـاء . وقيل : إن هـذه الآية « ولا تشتروا » إلى هنا نزلت فى امرئ القيس بن عابس الكندى وخصمه آبن أَسْوع (٢)، اختصما فى أرض فأراد آمرؤ القيس أن يحلف فلما سمع هذه الآية نكل وأقرّ له بحقه ؛ والله أعلم .

---

(١) فى نسخ الأصل : * ليس التـقى بمن يمير بأهله * والتصويب عن أدب الدنيا والدين ص ٢١٢ طبع بولاق . (٢) الذى فى كتب الصحابة فى ترجمة امرئ القيس ابن عابس أنه ربيعة بن عيدان . وقال صاحب كتاب الإصابة فى ترجمة عيدان بن أسوع : «ذكر مقاتل فى تفسيره أنه الذى حاصر آمرأ القيس بن عابس الكندى فى أرضه ، وفيه نزلت « إن الذين يشترون بعهد الله ... » الآية .

قوله تعالى : مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ شرط وجوابه . وفى الحياة الطيبة خمسة أقوال : الأول — أنه الرزق الحلال؛ قاله ابن عباس وسعيد بن جُبير وعطاء والضحاك . الثانى — القناعة ؛ قاله الحسن البصرى وزيد بن وهب ووهب بن منبّه ، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس ، وهو قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . الثالث — توفيقه إلى الطاعات فإنها تؤديه إلى رضوان الله ؛ قال معناه الضحاك . وقال أيضا : من عمل صالحا وهو مؤمن فى فاقة ومَيْسرة فحياتُه طيبة ، ومن أعرض عن ذكر الله ولم يؤمن بربه ولا عمل صالحا فمعيشته ضَنْكٌ لا خير فيها . وقال مجاهد وقَتادة وابن زيد : هى الجنة ، وقاله الحسن ، وقال : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة . وقيل هى السعادة ، روى عن ابن عباس أيضا . وقال أبو بكر الورّاق : هى حلاوة الطاعة . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرِىّ : هى أن ينزع عن العبد تدبيره ويردّ تدبيره إلى الحق . وقال جعفر الصادق : هى المعرفة بالله ، وصدقُ المقام بين يدى الله . وقيل : الاستغناء عن الخلق والافتقارُ إلى الحق . وقيل : الرضا بالقضاء . ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ أى فى الآخرة . ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وقال « فلنحيينه » ثم قال « ولنجزينهم » لأن « مَن » يصلح للواحد والجمع ، فأعاد مرة على اللفظ ومرة على المعنى ؛ وقد تقدّم . وقال أبو صالح : جلس ناس من أهل التوراة وناس من أهل الإنجيل وناس من أهل الأوثان ، فقال هؤلاء : نحن أفضل ، وقال هؤلاء : نحن أفضل ؛ فنزلت .

قوله تعالى : فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

فيه مسألة واحدة — وهى أن هذه الآية متصلة بقوله : « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » فإذا أخذْتَ فى قراءته فآستعذ بالله من أن يعرض لك الشيطان فيصدّك عن

تدبّره والعمل بمـا فيه؛ وليس يريد استعذ بعـد القراءة؛ بل هو كقولك : إذا أكلت فقل بسم الله؛ أى إذا أردت أن تأكل. وقد روى جُبير بن مُطْعِم عن أبيه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم حين افتتح الصلاة قال : "اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه"[1] . وروى أبو سعيد الخُدْرِىّ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يتعوّذ فى صلاته قبل القراءة . قال الكِيَا الطبرى : ونُقل عن بعض السلف التعوّذ بعد القراءة مطلقا، احتجاجا بقوله تعـالى : « فإذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » ولا شـك أن ظاهر ذلك يقتضى أن تكون الاستعاذة بعد القراءة؛ كقوله تعـالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاةَ فاذكروا اللهَ قِيَامًا وقُعُودًا »[2] . إلا أن غيره محتمل، مثل قوله تعـالى : « وإذا قلتم فاعدلوا »[3] « وإذا سألتموهُنّ مَتاعًا فاسألوهن مِن وراءِ حِجاب »[4] وليس المراد به أن يسألها من وراء حجاب بعـد سؤال متقدم . ومثله قول القائل : إذا قلت فأَصْدُق ، وإذا أحرمت فاغتسل؛ يعنى قبـل الإحرام. والمعنى فى جميع ذلك : إذا أردت ذلك؛ فكذلك الاستعاذة. وقد تقدم هذا المعنى، وتقدّم القول فى الاستعاذة مستوفًى[5] .

قوله تعـالى : إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بالإغواء والكُفْر، أى ليس لك قدرة على أن تحملهم على ذنب لا يُغفر؛ قاله سـفيان . وقال مجاهد : لا حجة له على ما يدعوهم إليه من المعاصى . وقيل : إنه ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله تعالى صرف

---

(١) الهمز : النخس والغمز، وكل شىء دفعته فقـد همزته . والنفخ : الكبر؛ لأن المتكبر يتعاظم ويجمـع نفسه ونَفَسه فيحتاج أن ينفخ . والنفث : قال ابن الأثير : جاء تفسيره فى الحديث أنه الشِّعر؛ لأنه ينفث من الفم .

(٢) آية ١٠٣ سورة النساء . (٣) آية ١٥٢ سورة الأنعام . (٤) آية ٥٣ سورة الأحزاب .

(٥) راجع جـ ١ ص ٨٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

سلطانه عليهـم حين قال عدو الله إبليس لعنـه الله « ولأغوينهم أجمعين[1] . إلا عبادَك منهـمُ المخلَصين» قال الله تعالى : «إن عبادِى ليس لك عليهم سلطان إلا من آتبعك مِن الغاوِين» .

قلت : قد بينا أن هـذا عامٌّ يدخله التخصيص ، وقد أغوى آدمَ وحوّاءَ عليهما السلام بسلطانه ، وقد شَوّش على الفضلاء أوقاتهم بقوله : من خلق ربّك ؟ حسبما تقـدّم فى آخر الأعراف بيانه[2] . ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أى يطيعونه . يقال : تولّيته أى أطعته ، وتوليت عنـه ، أى أعرضت عنـه . ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أى بالله ؛ قاله مجـاهد والضحاك . وقيـل : يرجع « به » إلى الشيطان ؛ قاله الربيع بن أنس والقُتَبِىّ . والمعنى : والذين هم من أجله مشركون . يقال : كفرت بهذه الكلمة ، أى من أجلها . وصار فلانٌ بك عالمـا ، أى من أجلك . أى والذى تولّى الشيطانَ مشركون بالله .

قوله تعـالى : وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

قوله تعـالى : ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ قيل : المعنى بدلنا شريعة متقـدّمة بشريعة مستأنفة ؛ قاله ابن بحر . مجـاهد : أى رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها . وقال الجمهور : نسخنا آية بآية أشدّ منهـا عليهم . والنسخ والتبديل رفعُ الشئ مع وضع غيره مكانه . وقد تقدّم الكلام فى النسخ فى البقرة مستوفًى[3] . ﴿قَالُوا﴾ يريد كفار قريش . ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أى كاذبٌ مختاِق ، وذلك لمـا رأوا من تبديل الحكم . فقال الله : ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾ أن الله شرع الأحكام وتبـديل البعض بالبعض . وقوله : ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ

(١) آية ٣٩ وما بعدها سورة الحجر . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٨ (٣) راجع جـ ٢ ص ٦١ وما بعدها طبعة ثانية .

﴿ الْقُـدُسِ ﴾ يعنى جبريل، نزل بالقرآن كلّه ناسخه ومنسوخه . وروى بإسناد صحيح عن عامر الشّعْبِيّ قال : وُكِّل إسرافيل بمحمد صلى الله عليه وسلم ثلاث سـنين، فكان يأتيـه بالكلمة والكلمة، ثم نزل عليه جبريل بالقرآن . وفى صحيح مسلم أيضا أنه نزل عليه بسورة « الحمد » مَلَكٌ لم ينزل إلى الأرض قطُّ . كما تقدّم فى الفاتحة بيانه[1] . ﴿ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ أى من كلام ربك . ﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى بما فيه من الحجج والآيات . ﴿ وَهُدًى ﴾ أى وهو هدى . ﴿ وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

قوله تعـالى : وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ اختلف فى اسم هـذا الذى قالوا إنما يعلّمه؛ فقيل : هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر، كان نصرانيا فأسلم؛ وكانوا إذا سمعوا من النبيّ صلى الله عليه وسلم ما مضى وما هو آت مع أنه أُمِّىٌّ لم يقرأ قالوا : إنما يعلمه جبر وهو أعجمى؛ فقال الله تعالى : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾ أى كيف يعلّمه جبر وهو أعجمى هذا الكلام الذى لا يستطيع الإنس والجن أن يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها . وذكر النقاش أن مولى جبر كان يضربه ويقول له : أنت تعلّم محمدا، فيقول : لا والله، بل هو يعلمنى ويهدينى . وقال ابن إسحاق : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى — كثيرا ما يجلس عند المَرْوَة إلى غلام نصرانى يقال له جبر، عبدُ بنى الحضرمى، وكان يقرأ الكتب ، فقال المشركون : والله ما يعـلّم محمدا ما يأتى به إلا جبر النصرانى . وقال عكرمة : اسمه يعيش عبدٌ لبنى الحضرمى ، كان رسول الله صلى الله عليـه وسلم يلقّنه القرآن ؛ ذكره المـاوردىّ . وذكر الثعلبيّ عن عكرمة وقتـادة أنه غلام لبنى المغيرة اسمه يعيش، وكان يقرأ الكتب الأعجمية، فقالت قريش : إنمـا يعلّمه بشر، فنزلت . المهدوىّ عن عكرمة :

---

(١) راجع جـ ١ ص ١١٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

هو غلام لبنى عامر بن لؤى ، واسمه يعيش . وقال عبـد الله بن مسلم الحضرمىّ : كان لنـا غلامان نصرانيان من أهل عين التمر، اسم أحدهما يسار واسم الآخر جبر. كذا ذكر المـاوردىّ والقشيرىّ والثعلبى؛ إلا أن الثعلبىّ قال: يقال لأحدهما نَبْت و يكنى أبا فُكَيْهة ، والآخر جبر، وكانا صَيْقَلَين[1] يعملان السيوف؛ وكانا يقرأان كتابا لهم . الثعلبى : يقرأان التوراة والإنجيل . المـاوردىّ والمهدوىّ : التوراة . فكان رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يمرّ بهما ويسمع قراءتهما، وكان المشركون يقولون : يتعـلّم منهما ، فأنزل الله هذه الآية وأكذبهم . وقيل : عنَوْا سلمان الفارسى رضى الله عنه؛ قاله الضحاك . وقيل : نصرانيا بمكة آسمه بلعام، وكان غلاما يقرأ التوراة؛ قاله آبن عبـاس . وكان المشركون يرون رسـول الله صلى الله عليه وسلم حين يدخل عليه ويخرج من عنـده ، فقالوا : إنمـا يعلمه بلعام . وقال القُتَبِىّ : كان بمكة رجل نصرانى يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرومية، فربما قعد إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الكفار : إنما يتعلّم محمـد منه ، فنزلت . وفى رواية أنه عدّاس غلام عتبة بن ربيعة . وقيل : عابس غلام حو يطب بن عبـد العُزّى و يسار أبو فكيهة مولى آبن الحضرمى ، وكانا قد أسلما . والله أعلم .

قلت : والكل محتمل؛ فإن النبىّ صلى الله عليه وسلم ربما جلس إليهم فى أوقات مختلفة ليعلّمهم مما علمه الله،وكان ذلك بمكة . وقال النحاس : وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛لأنه يجوز أن يكونوا أَوْمَـئُوا إلى هؤلاء جميعا، وزعموا أنهم يعلمونه .

قلت : وأما ما ذكره الضحاك من أنه سلمان ففيه بُعْدٌ؛ لأن سلمان إنما أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهذه الآية مكية.﴿ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ ﴾ الإلحاد: الميل؛ يقال : لحد وألحد، أى مال عن القصد . وقد تقدّم فى الأعراف[2] . وقرأ حمزة «يَلْحَدون» بفتح الياء والحاء؛ أى لسان الذى يميلون إليه و يشيرون أعجمىّ . والعُجْمة : الإخفاء وضدّ البيان . ورجل أعجم وآمرأة عجماء ، أى لا يُفصح؛ ومنه عُجْم الذنب لآستتاره . والعجماء:

---

(١) الصيقل : شحاذ السيوف وجلاؤها . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٢٨ طبعة أولى أو ثانية .

البهيمة؛ لأنها لا توضح عن نفسها . وأعجمت الكتاب أى أزلت عجمته . والعرب تسمى كل من لا يعرف لغتهم ولا يتكلم بكلامهم أعجميا . وقال الفرّاء : الأعجم الذى فى لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والأعجمى أو العجمى الذى أصله من العجم . وقال أبو على : الأعجمى الذى لا يفصح ، سواء كان من العرب أو من العجم ، وكذلك الأعجم والأعجمى المنسوب إلى العجم وإن كان فصيحا . وأراد باللسان القرآن ؛ لأن العرب تقول للقصيدة والبيت : لسان؛ قال الشاعر :

لسانُ الشر تهديها إلينا　*　وخُنت وما حسبتك أن تخونا

يعنى باللسان القصيدة . ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ أى أفصح ما يكون من العربية .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ أى هؤلاء المشركون الذين لا يؤمنون بالقرآن . ﴿ لَا يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ هذا جواب وصفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم بالافتراء . ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ هذا مبالغة فى وصفهم بالكذب؛ أى كل كذب قليل بالنسبة إلى كذبهم . ويقال : كذب فلان ولا يقال إنه كاذب؛ لأنّ الفعل قد يكون لازما وقد لا يكون لازما . فأما النعت فيكون لازما ولهذا يقال : عصى آدمُ ربَّه فغَوَى ، ولا يقال : إنه عاصٍ غاوٍ . فإذا قيل : كذب فلان فهو كاذب ، كان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ قاله القشيرى .

قوله تعالى : مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)

فيه إحدى وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» فكان مبالغة فى الوصف بالكذب؛ لأن معناه لا ترتدوا عن بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم . أى من كفر من بعد إيمانه وارتد فعليه غضب الله . قال الكلبي : نزلت فى عبد الله بن سعد بن أبى سرح ومقيس بن صبابة وعبد الله بن خطل[1]، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، كفروا بعد إيمانهم . ثم قال : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ . وقال الزجاج : « من كفر بالله من بعد إيمانه » بدل ممن يفترى الكذب؛ أى إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه؛ لأنه رأى الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام فعلقه بما قبله . وقال الأخفش : « مَن » ابتداء وخبره محذوف، اكتفى منه بخبر « مَن » الثانية؛ كقولك : مَن يأتنا مَن يحسن نكرمه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ ﴾ هذه الآية نزلت فى عمّار بن ياسر، فى قول أهل التفسير؛ لأنه قارب بعض ما ندبوه إليه . قال ابن عباس : أخذه المشركون وأخذوا أباه وأمّه سُمَيّة وصُهيبا وبلالا وخَبّابا وسالما فعذّبوهم، ورُبطت سُمَيّة بين بعيرين ووُجئ قُبُلها بحربة ، وقيل لها إنك أسلمت من أجل الرجال؛ فقتلت وقتل زوجها ياسر، وهما أول قتيلين فى الإسلام . وأما عمّار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكْرَهًا ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " كيف تجد قلبك " ؟ قال: مطمئن بالإيمان . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فإن عادوا فَعُدْ " . وروى منصور بن المُعْتَمِر عن مجاهد قال : أول شهيدة فى الإسلام أمّ عمار، قتلها أبو جهل، وأول

(١) فى الأصول : « عبد الله بن أنس بن خطل » وهو تحريف .

شهيد من الرجال مِهْجَع مولى عمر . وروى منصور أيضا عن مجاهــد قال : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم ، وأبو بكر ، وبلال ، وخَبّاب ، وصهيب ، وعَمّـار ، وسُميّة أمّ عمار . فأما رسول الله صلى الله عليه وسـلم فمنعه أبو طالب ، وأما أبو بكر فمنعه قومه ، وأخذوا الآخرين فألبسوهم أدراع الحديد ، ثم صَهَروهم في الشمس حتى بلغ منهم الجهد كل مبلغ من حر الحديد والشمس ، فلما كان من العشيّ أتاهم أبو جهل ومعه حربة ، فجعل يَسُبُّهم ويوبخهم ، وأتى سُمَيّة فجعل يسبها ويَرْفُث[1] ، ثم طعن فرجها حتى خرجت الحربة من فمها فقتلها ؛ رضي الله عنها . قال : وقال الآخرون ما سُئلوا ، إلا بلالا فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فجعلوا يعذبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول أَحَدٌ أحد ؛ حتى ملّوه ، ثم كتّفوه وجعلوا في عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أَخْشَبَيْ[2] مكة حتى ملّوه وتركوه ، قال فقال عمار : كلنا تكلم بالذي قالوا — لولا أن الله تداركنا — غير بلال فإنه هانت عليه نفسه في الله ، فهان على قومه حتى ملّوه وتركوه . والصحيح أن أبا بكر اشترى بلالا فأعتقه . وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أن ناسا من أهل مكة آمنوا ، فكتب إليهم بعض أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بالمدينة : أنْ هاجروا إلينا ، فإنا لا نراكم منا حتى تهاجروا إلينا ، فخرجوا يريدون المدينــة حتى أدركتهم قريش بالطريق ، ففتنوهم فكفروا مكرهين ، ففيهــم نزلت هذه الآية . ذكر الروايتين عن مجاهد إسماعيلُ بن إسحاق . وروى الترمذيّ عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما خُيِّر عَمّار بين أمرين إلا اختار أرشــدهما " هــذا حديث حسن غريب . وروى عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إن الجنــة تشتاق إلى ثلاثة عليّ وعمّـار وسلمان بن ربيعــة " . قال الترمذيّ : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن بن صالح .

الثالثــة — لمــا سمح الله عز وجل بالكفر به وهو أصل الشريعة عنــد الإكراه ولم يؤاخذ به ، حمل العلماء عليه فروع الشريعة كلّها ، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به ولم يترتب

---

(١) الرفث : الفحش من القول .　　(٢) الأخشبان : الجبلان المطيفان بمكة ؛ وهما أبو قبيس والأحمر .

عليه حكم؛ وبه جاء الأثر المشهور عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: "رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه" الحديث. والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء؛ قاله القاضى أبو بكر بن العربيّ . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح ، قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد وابن المنذر فى كتاب الإقناع .

الرابعة — أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خَشِيَ على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبُه مطمئن بالإيمان، ولا تَبِين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعيّ؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال : إذا أظهر الشرك كان مرتدا فى الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتَبِين منه امرأته ولا يصلَّى عليه إن مات، ولا يَرِث أباه إن مات مسلما . وهذا قول يرده الكتاب والسنة، قال الله تعالى : «إِلَّا مَن أُكْرِهَ» الآية. وقال : «إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً»(١) وقال : «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ»(٢) الآية. وقال: «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ»(٢) الآية . فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاريّ .

الخامسة — ذهبت طائفة من العلماء إلى أن الرخصة إنما جاءت فى القول، وأما فى الفعل فلا رخصة فيه ، مثل أن يكرهوا على السجود لغير الله أو الصلاة لغير القبلة ، أو قتل مسلم أو ضربه أو أكل ماله ، أو الزنى وشرب الخمر وأكل الربا ؛ يروى هذا عن الحسن البصريّ ، رضى الله عنه . وهو قول الأوزاعيّ وسُحْنون من علمائنا . وقال محمد بن الحسن : إذا قيل للأسير: اسجد لهذا الصنم وإلا قتلتك . فقال : إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويكون نيته لله تعالى ، وإن كان لغير القبلة فلا يسجد وإن قتلوه . والصحيح أنه يسجد وإن كان لغير القبلة، وما أحراه بالسجود حينئذ ؛ ففى الصحيح عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان

(١) آية ٢٨ سورة آل عمران جـ ٤ ص ٥٧ (٢) آية ٩٧ سورة النساء جـ ٥ ص ٣٤٥

وجهه، قال : وفيــه نزلت « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ »[1] فى رواية : ويُوتِر عليها ، غير أنه لا يصلّى عليهـا المكتوبة . فإذا كان هـذا مباحا فى السفر فى حالة الأمن لتعب النزول عن الدابة للتنفل فكيف بهذا . واحتج من قصر الرخصة على القول بقول ابن مسعود : ما من كلام يَدرأ عنّى سوطين من ذى سـلطان إلا كنت متكلّما به . فقصَر الرخصـة على القول ولم يذكر الفعل، وهذا لا حجة فيه؛ لأنه يحتمل أن يجعل للكلام مثالا وهو يريد أن الفعل فى حكمه . وقالت طائفـة : الإكراه فى الفعل والقول سواء إذا أسرّ الإيمـان . روى ذلك عن عمر بن الخطاب ومكحول، وهو قول مالك وطائفة من أهل العراق. روى ابن القاسم عن مالك أن من أكره على شرب الخمر وترك الصلاة أو الإفطار فى رمضان، أن الإثم عنه مرفوع .

السادســة ــ أجمع العلمـاء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجـوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذى نزل به، ولا يحلّ له أن يَفْدِى نفسه بغيره ، ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

واختلف فى الزنى ، فقال مُطَرِّف وأَصْبَغ وابن عبد الحكم وابن المـاجِشُون : لا يفعل أحد ذلك، وإن قُتل لم يفعله ، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحَدّ ؛ وبه قال أبو ثَوْر والحسن . قال ابن العربى : الصحيح أنه يجوز الإقدام على الزنى ولا حَدّ عليه، خلافا لمن ألزمه ذلك؛ لأنه رأى أنها شهوة خِلقية لا يتصوّر الإكراه عليها، وغفل عن السبب فى باعث الشهوة وهو الإلجاء إلى ذلك، وهو الذى أسـقط حكمه ، وإنمـا يجب الحَدّ على شهوة بعث عليها سبب اختيارى، فقاس الشىء على ضـده، فلم يحـل بصواب من عنده . وقال ابن خُوَيْزِ مَنْداد فى أحكامه : اختلف أصحابنا متى أكره الرجل على الزنى؛ فقال بعضهم : عليه الحـدّ؛ لأنه إنمـا يفعل ذلك باختياره. وقال بعضهم: لا حدّ عليه. قال ابن خُوَيْزِ منداد: وهو الصحيح. وقال أبو حنيفة : إن أكرهه غير السلطان حُدّ، وإن أكرهه السلطان فالقياس أن يحدّ، ولكن أستحسن ألا يحـدّ . وخالفه صاحباه فقالا : لاحدّ عليه فى الوجهين ، ولم يراعوا الانتشار،

---

(١) آية ١١٥ سورة البقرة، جـ ٢ ص ٧٩ طبعة ثانية .

وقالوا : متى علم أنه يتخلص من القتل بفعل الزنى جاز أن ينتشر . قال ابن المنذر : لا حدّ عليه، ولا فرق بين السلطان فى ذلك وغير السلطان .

السابعـــة — اختلف العلمـاء فى طلاق المكره وعتاقـه ؛ فقال الشافعىّ وأصحـابه : لا يلزمه شيء . وذكر ابن وهب عن عمر وعلىّ وابن عباس أنهم كانوا لا يرون طلاقه شيئا . وذكره ابن المنذر عن ابن الزبير وابن عمر وابن عبـاس وعطاء وطاوس والحسن وشريح والقاسم وسالم ومالك والأوزاعى وأحمد و إسحاق وأبى ثور . وأجازت طائفة طلاقه؛ روى ذلك عن الشَّعْبِىّ والنَّخَعِىّ وأبى قلابة والزهرى وقتادة، وهو قول الكوفيين . قال أبو حنيفة: طلاق المكره يلزم؛ لأنه لم يعدم فيه أكثر من الرضا، وليس وجوده بشرط فى الطلاق كالهازل. وهذا قياس باطل؛ فإن الهازل قاصد إلى إيقاع الطلاق راضٍ به، والمكره غير راض ولا نية له فى الطلاق، وقـد قال عليه السلام : " إنمـا الأعمال بالنيات " . وفى البخارى : وقال ابن عباس فيمن يُكرهه اللصوص فيطلق : ليس بشىء؛ وبه قال ابن عمر وابن الزبير والشعبى والحسن . وقال الشعبى : إن أكرهه اللصوص فليس بطلاق، وإن أكرهه السلطان فهـو طلاق . وفسّره ابن عيينة فقال : إن اللّص يقْدِم على قتله والسلطان لا يقتله .

الثامنـــة — وأما بيع المكره والمضغوط فله حالتان . الأولى — أن يبيع ماله فى حق وجب عليه؛ فذلك ماضٍ سائغٌ لا رجوع فيـه عند الفقهاء؛ لأنه يلزمه أداء الحـق إلى ربه من غير المبيع ، فلما لم يفعل ذلك كان بيعه اختيارا منه فلزمه . وأما بيع المكره ظلما أو قهرا فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه يأخذه بلا ثمن، ويتبع المشترى بالثمن ذلك الظالم؛ فإن فات المتاع رجع بثمنه أو بقيمته بالأكثر من ذلك على الظالم إذا كان المشترى غير عالم بظلمه . قال مُطَرِّف : ومن كان من المشترين يعـلم حال المكره فإنه ضامن لمـا ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب ، وكلمـا أحدث المبتاع فى ذلك من عتـق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكره، وله أخذ متاعه . قال سُحْنون : أجمع أصحابنا وأهل العراق على أن بيع المكره على الظلم والجَوْر لا يجوز . وقال الأَبْهَرِىّ : إنه إجماع .

التاســـعة — وأما نكاح المكره ؛ فقال سُحْنون : أجمع أصحابنا على إبطال نكاح المكره والمكرهة، وقالوا : لا يجوز المقام عليه، لأنه لم ينعقد . قال محمــد بن سُحنون : وأجاز أهل العراق نكاح المكره، وقالوا : لو أكره على أن ينكح امرأة بعشرة آلاف درهم، وصداقُ مثلها ألف درهم ، أن النكاح جائز وتلزمه الألف ويبطل الفضل . قال محمــد : فكما أبطلوا الزائد على الألف فكذلك يلزمهم إبطال النكاح بالإكراه . وقولهم خلاف السنة الثابتــة في حديث خَنْساء بنت خِذام الأنصارية، ولأمره صلى الله عليــه وسلم بالاســتئمار في أبضاعهن، وقــد تقدّم، فلا معنى لقولهم .

العاشـــرة — فإن وطئها المكره على النكاح غير مكره على الوطء والرضا بالنكاح لزمه النكاح عندنا على المسمّى من الصداق ودُرِئ عنه الحد . وإن قال : وطئتها على غير رضًا مني بالنكاح فعليه الحــد والصداق المسمّى ؛ لأنه مدّعٍ لإبطال الصداق المسمى، وتُحَدّ المرأة إن أقدمت وهي عالمــة أنه مكره على النكاح . وأما المكرهــة على النكاح وعلى الوطء فلا حدّ عليها ولهــا الصداق، ويحدّ الواطئ؛ فاعلمه . قاله سحنون .

الحادية عشرة — إذا اســتكرهت المرأة على الزنى فلا حدّ عليها؛ لقوله « إلا من أكره » وقوله عليه السلام : « إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » . ولقول الله تعالى : « فإنّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إكراهِهِنّ غفور رحيم »[1] يريد الفتيات . وبهذا المعنى حكم عمر في الوليدة التي استكرهها العبد فلم يحدّها . والعلماء متفقون على أنه لا حدّ على امرأة مستكرَهة . وقال مالك : إذا وجدت المرأة حاملا وليس لها زوج فقالت ٱستكرِهت فلا يقبل ذلك منها وعليها الحدّ، إلا أن تكون لها بيّنة أو جاءت تَدْمِي على أنها أوتيت[2]، أوما أشبه ذلك . واحتج بحديث عمــر بن الخطاب أنه قال : الرجم في كتاب الله حق على من زنى من الرجال والنساء إذا أحصن إذا قامت البينة ، أوكان الحَبَل أو الاعتراف . قال ابن المنــذر : وبالقول الأوّل أقـــول .

---

(١) آية ٣٣ سورة النور .

(٢) عبارة الموطأ : « أو جاءت تدمى إن كانت بكرا أو استغاثت حتى أتيت وعلى ذلك ... » الخ .

الثانية عشرة — واختلفوا فى وجوب الصداق للستكرهة ؛ فقال عطاء والزُّهْرِىّ : لهـا صداق مثلها ؛ وهو قول مالك والشافعىّ وأحمد وإسحاق وأبى ثور . وقال الثَّوْرِىّ : إذا أقيم الحـدّ على الذى زنى بها بطل الصداق . وروى ذلك عن الشعبى ؛ وبه قال أصحاب مالك وأصحاب الرأى . قال ابن المنذر : القول الأوّل صحيح .

الثالثة عشرة — إذا أكره الإنسان على إسلام أهله لمـا لم يَحِلّ أسلمها ، ولم يقتل نفسه دونها ولا آحتمل أذية فى تخليصها . والأصل فى ذلك ما خَرّجه البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " هاجر إبراهيمُ عليه السلام بسارة ودخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة فأرسل إليه أن أرسل بها إلىّ فأرسل بها فقام إليها فقامت تتوضأ وتصلّى فقالت اللهـم إن كنتُ آمنتُ بك وبرسولك فلا تسلّط على هـذا الكافر فغُطّ حتى رَكَض برجله"(١) . ودل هذا الحديث أيضا على أن سارة لمـا لم يكن عليها ملامة ، فكذلك لا يكون على المستكرهة ملامة ، ولا حدّ فيما هو أكبر من الخلوة . والله أعلم .

الرابعة عشرة — وأما يمين المكره فغير لازمة عنـد مالك والشافعى وأبى ثور وأكثر العلماء . قال ابن المـاجشون : وسواء حلف فيما هو طاعة لله أو فيما هو معصيـة إذا أكره على اليمين ؛ وقاله أَصْبَغ . وقال مطرّف : إن أكره على اليمين فيما هو لله معصية أو ليس فى فعله طاعة ولا معصية فاليمين فيه ساقطة ، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة مثل أن يأخذ الوالى رجلا فاسقا فيكرهه أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرا ، أولا يفسق ولا يَغُشّ فى عمله ، أو الوالد يحلّف ولده تأديبا له فإن اليمين تلزم ؛ وإن كان المكره قد أخطأ فيما يكلّف من ذلك . وقال به ابن حبيب . وقال أبو حنيفة ومن اتبعـه من الكوفيين : إنه إن حلف ألا يفعل ففعل حنث ، قالوا : لأن المكره له أن يورِّىَ فى يمينه كلها ، فلما لم يورّ ولا ذهبت نيّته إلى خلاف ما أكره عليـه فقد قصد إلى اليمين . احتج الأوّلون بأن قالوا : إذا أكره عليها فنيّته مخالفـة لقوله ؛ لأنه كاره لمـا حلف عليه .

---

(١) ذكر المؤلف هذا الحديث مختصرا ، فراجعه فى شرح القسطلانى ، كتاب البيوع جـ ٤ ص ١٢٢ طبعة بولاق .

الخامسة عشرة — قال ابن العربي : ومن غريب الأمر أن علماءنا اختلفوا في الإكراه على الحنث هل يقع به أم لا؟ وهـذه مسئلة عراقية سرت لنا منهم، لا كانت هـذه المسئلة ولا كانوا ! وأيّ فرق يا معشر أصحابنا بين الإكراه على اليمين في أنهـا لا تلزم وبين الحنث في أنه لا يقع ! فاتقوا الله وراجعوا بصائركم، ولا تغتروا بهذه الرواية فإنها وصمة في الدراية .

السادسة عشرة — إذا أكره الرجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال كأصحاب المَكْس وظلمة السعاة وأهل الاعتداء؛ فقال مالك : لا تَقِيّة له في ذلك، وإنما يدرأ المرء بيمينه عن بدنه لا ماله . وقال ابن المـاجشون : لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه . وقال ابن القاسم بقول مطرّف، ورواه عن مالك، وقاله ابن عبد الحكم وأَصْبَغ .

قلت : قول ابن المـاجشون صحيح؛ لأن المدافعـة عن المـال كالمدافعـة عن النفس؛ وهـو قول الحسن وقتادة وسـيأتي . وقال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام" وقال: "كلُّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه" . وروى أبو هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال : " فلا تُعْطِه مالك " . قال : أرأيت إن قاتلني؟ قال : " قاتله " قال : أرأيت إن قتلني؟ قال : " فأنت شهيـد " قال : أرايت إن قتلته؟ قال : "هو في النار" خرجه مسلم . وقد مضى الكلام فيه . وقال مطرّف وابن المـاجشون : وإن بدر الحالف بيمينه للوالي الظالم قبل أن يَسألها ليَذُبّ بها عما خاف عليه من ماله وبدنه فحلف له فإنها تلزمه . وقاله ابن عبد الحكم وأصبغ . وقال أيضا ابن المـاجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق ألبتّة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفا من ضربه وقتله وأخذ ماله : فإن كان إنما تبرع باليمين غلبـة خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث .

السابعة عشرة — قال المحققون من العلماء : إذا تلفظ المكره بالكفر فلا يجـوز له أن يجريه على لسانه إلا مجرى المعاريض[1]؛ فإن في المعاريض لمندوحةً عن الكذب . ومتى لم يكن

(١) المعاريض : التورية بالشيء عن الشيء . وأعراض الكلام ومعارضه ومعاريضه : كلام يشبه بعضه بعضا في المعاني .

كذلك كان كافرا؛ لأن المعـاريض لا سلطان للإكراه عليها . مثاله — أن يقال له : أكفر بالله فيقول باللاهى ؛ فيزيد الياء . وكذلك إذا قيل له : أكفر بالنبىّ فيقول هو كافر بالنبىّ، مشددا وهو المكان المرتفع من الأرض[١] . ويطلق على ما يعمل من الخوص شبه المائدة، فيقصد أحدهما بقلبه ويبرأ من الكفر ويبرأ من إثمه . فإن قيل له : أكفر بالنبئ (مهموزا) فيقول هو كافر بالنبئ يريد بالمخبر، أى مخبر كان كطليحة[٢] ومُسَيْلِمة الكذاب . أو يريد به النبئ الذى قال فيه الشاعر :

فأصبح رَتْماً دُقاق الحَصَى * مكان النبئ من الكاثب[٣]

الثامنة عشرة — أجمع العلمـاء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجرا عنـد الله ممن ٱختار الرخصة . وٱختلفوا فيمن أكره على غير القتل من فعل ما لا يحـل له ؛ فقال أصحاب مالك : الأخذ بالشدّة فى ذلك وٱختيار القتل والضرب أفضل عند الله من الأخذ بالرخصة، ذكره ابن حبيب وسُحنون . وذكر ابن سُحنون عن أهل العراق أنه إذا تهدّد بقتل أو قطع أو ضرب يخاف منه التلف فله أن يفعل ما أكره عليه من شرب خمر أو أكل خنزير؛ فإن لم يفعل حتى قتل خِفنا أن يكون آثمـا لأنه كالمضطر . وروى خَبّاب بن الأَرَتّ قال : شكونا إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وهو متوسّـد بُرْدَةً له فى ظل الكعبـة فقلت : أَلَا تَسْتَنْصِرْ لنا أَلَا تدعو لنا ؟ فقال : "قدكان مَن قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له فى الأرض فيُجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يَصُدّه ذلك عن دينه والله لَيَتِمَّنّ هذا الأمر[٤] حتى يسير الراكب من صنعاءَ إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله والذئبَ على غنمه ولكنكم تستعجلون" . فوَصْفُه صلى الله عليه وسلم هـذا عن الأمم السالفة على جهة المـدح لهم والصبر على المكروه فى ذات الله ، وأنهـم لم يكفروا فى الظاهر وتبطّنوا الإيمان ليدفعوا العذاب عن أنفسهم . وهذه حجة مَن آثر الضرب

(١) ومنه الحـديث : « لا تصلوا على النبىّ » أى على الأرض المرتفعة المُحْدَوْدِبَة . (٢) هو طليحة ابن خويلد بن نوفل الأسدى، ارتد بعد النبى صلى الله عليه وسلم وٱدعى النبوّة ثم أسلم . (٣) الرتم (بالتاء والثاء) : الدّق والكسر . ويريد بالنبيء المكان المرتفع . والكاثب : الرمل المجتمع . (٤) يريد الاسلام .

والقتل والهوان على الرخصة والمقام بدار الجنان . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الأخدود»[١] إن شاء الله تعـالى . وذكر أبو بكر محمد بن محمد بن الفرج البَغْدادِىّ قال : حدثنا شريح بن يونس عن إسماعيل بن إبراهيم عن يونس بن عبيد عن الحسن أن عيونا لمسيلَمة أخذوا رجلين من أصحاب النبىّ صلى الله عليـه وسلم فذهبوا بهما إلى مسيلِمة ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمدا رسـول الله ؟ قال نعم . قال : أتشهد أنى رسـول الله ؟ قال نعم . فخلّى عنـه . وقال للآخر : أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ قال نعم . قال : وتشهد أنى رسول الله ؟ قال : أنا أصمّ لا أسمع ؛ فقدّمه وضرب عنقه . فجاء هــذا إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال : هلكتُ ! قال : "وما أهلكك"؟ فذكر الحديث ، قال : "أمّا صاحبك فأخذ بالثّقة[٢] وأما أنت فأخذت بالرخصة . على ما أنت عليـه الساعة"؟ قال : أشهد أنك رسـول الله . قال : "أنت على ما أنت عليه" . الرخصة فيمن حلفه سلطان ظالم على نفسه أو على أن يدله على رجل أو مال رجل ؛ فقال الحسن : إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفر يمينه ؛ وهو قول قتادة إذا حلف على نفسه أو مال نفسه . وقد تقــدّم ما للعلماء فى هــذا . وذكر موسى بن معاوية أن أبا سـعيد بن أشرس صاحب مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه ، ولا يعلم له موضعا ؛ قال : فحلف له ابن أشرس ؛ وابن أشرس يومئــذ قد علم موضعه وآواه ، فحلفه بالطلاق ثلاثا ، فحلف له ابن أشرس ، ثم قال لامرأته : اعتزلى فاعتزلته ؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على البهلول بن راشد القيروانى ، فأخبره بالخبر ؛ فقال له البهلول : قال مالك إنك حانث . فقـال ابن أشرس : وأنا سمعت مالكا يقول ذلك ، و إنمـا أردت الرخصة ، أو كلام هــذا معناه ؛ فقال له البهلول بن راشد : قال الحسن البصرى إنه لا حنث عليك . قال : فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن . وذكر عبد الملك بن حبيب قال : حدّثنى معبــد عن المسيب بن شريك عن أبى شيبة قال : سألت أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل ، هل ترى أن يحلف ليَقيه بيمينه ؟ فقال نعم ؛ وَلأن أحلف سبعين يمينا

---

(١) هى سورة البروج رقم ٨٥ (٢) عبارة الدر المنثور : « أما صاحبك فمضى على إيمانه » .

وأحنث أحبّ إلىّ أن أدلّ على مسـلم . وقال إدريس بن يحيى كان الوليـد بن عبـد الملك يأمر جواسيس يتجسسون الخلق يأتونه بالأخبار، قال : فجلس رجل منهم فى حَلْقة رجاء بن حَيْوة فسمع بعضهم يقع فى الوليد ، فرفع ذلك إليه فقال : يا رجاء ! أُذْكَرُ بالسوء فى مجلسك ولم تغيّر! فقـال : ما كان ذلك يا أمير المؤمنين ؛ فقـال له الوليـد : قل : آلله الذى لا إله إلا هو ، قال : الله الذى لا إله إلا هو ؛ فأمر الوليـد بالجاسوس فضربه سبعين سوطـا ، فكان يلقى رجاء فيقول : يا رجاء ، بك يسـتقى المطر، وسبعون سـوطا فى ظهرى ! فيقول رجاء : سبعون سوطا فى ظهرك خير لك من أن يقتل رجل مسلم .

التاسعة عشرة — واختلف العلماء فى حدّ الإكراه؛ فروى عن عمـر بن الخطاب رضى عنه أنه قال : ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته . وقال ابن مسعود : ما كلام يدرأ عنى سوطين إلا كنتُ متكلمـا به . وقال الحسن : التقية جائزة للؤمن إلى يوم القيامة؛ إلا أن الله تبارك وتعـالى ليس يجعل فى القتل تقيّة . وقال النَّخَعِىّ : القيد إكراه، والسجن إكراه . وهـذا قول مالك ، إلا أنه قال : والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلم ذلك المتعدى وإنفاذه لمـا يتوعّد به ، وليس عند مالك وأصحابه فى الضرب والسجن توقيت، إنما هو ما كان يؤلم من الضرب ، وما كان من سجن يدخل منه الضيق على المكره . وإكراه السلطان وغيره عنـد مالك إكراه . وتنـاقض الكوفيون فلم يجعـلوا السجن والقيد إكراها على شرب الخمـر وأكل الميتة؛ لأنه يخاف منهما التلف . وجعلوهما إكراها فى إقراره لفلان عنـدى ألف درهم . قال ابن سُحْنون : وفى إجماعهم على أن الألم والوجع الشـديد إكراه ما يدل على أن الإكراه يكون من غير تلف نفس . وذهب مالك إلى أن من أكره على يمين بوعيد أوسجن أو ضرب أنه يحلف ولا حنث عليه ؛ وهو قول الشافعى وأحمد وأبى ثَوْر وأكثر العلمـاء .

الموفيـة عشرين — ومن هذا الباب ما ثبت إن من المعاريض لمندوحةً عن الكذب . وروى الأعمش عن إبراهيم النَّخَعِىّ أنه قال : لا بأس إذا بلغ الرجلَ عنـك شىء أن تقول :

والله، إن الله يعلم ما قلتُ فيك من ذلك من شيء . قال عبد الملك بن حبيب : معناه أن الله يعلم أن الذى قلت ، وهو فى ظاهره انتفاء من القول ، ولا حنث على من قال ذلك فى يمينه ولا كذب عليـه فى كلامه . وقال النخعيّ : كان لهم كلام من ألغاز الأيمـان يدرءون به عن أنفسهم، لا يرون ذلك من الكذب ولا يخشون فيه الحنث. قال عبد الملك : وكانوا يسمون ذلك المعاريض من الكلام، إذا كان ذلك فى غير مكر ولا خديعة فى حق . وقال الأعمش: كان إبراهيم النخعى إذا أتاه أحد يكره الخروج إليه جلس فى مسجد بيته وقال لجاريته : قولى له هو والله فى المسجد . وروى مغيرة عن إبراهيم أنه كان يجـيز للرجل من البَعْث إذا عُرِضوا على أميرهم أن يقول : والله ما أهتدى إلا ما سدّد لى غيرى، ولا أركب إلا ما حملنى غيرى؛ ونحو هذا من الكلام . قال عبد الملك : يعنى بقوله « غيرى » اللهَ تعالى ، هو مسدّده وهو يحمله ؛ فلم يكونوا يرون على الرجل فى هذا حنثا فى يمينه، ولا كذبا فى كلامه ، وكانوا يكرهون أن يقال هـذا فى خديعة وظلم وجُحدان (١) حق فمن اجترأ وفعل أثم فى خديعته ولم تجب عليـه كفارة فى يمينه .

الحادية والعشرون — قوله تعـالى : ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أى وسّـعه لقبول الكفر، ولا يقـدر أحد على ذلك إلا الله؛ فهو يرد على القدرية . و «صدرا» نصب على المفعول . ﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وهو عذاب جهنم .

قوله تعـالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(١) هذا المصدر لم تورده كتب اللغة فى هذه المـادة .

قوله تعالى: ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أى ذلك الغضب . ﴿ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى اختاروها على الآخرة . ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ « أنّ » فى موضع خفض عطفا على « بأنهم » . ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ ثم وصفهم فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ أى عن فهم المواعظ . ﴿ وَسَمْعِهِمْ ﴾ عن كلام الله تعالى . ﴿ وَأَبْصَارِهِمْ ﴾ عن النظر فى الآيات . ﴿ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْغَافِلُونَ ﴾ عما يراد بهم . ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ تقدّم (١) .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠)

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ هذا كله فى عمّار . والمعنى وصبروا على الجهاد ؛ ذكره النحاس . وقال قتادة : نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين إلى المدينة بعد أن فتنهم المشركون وعذبوهم ، وقد تقدّم ذكرهم فى هذه السورة (٢) . وقيل : نزلت فى ابن أبى سرح ، وكان قد ارتد ولحق بالمشركين فأمر النبىّ صلى الله عليه وسلم بقتله يوم فتح مكة ؛ فاستجار بعثمان فأجاره النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره النسائى عن عكرمة عن ابن عباس قال : فى سورة النحل « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره — إلى قوله — ولهم عذاب عظيم » فنسخ ، واستثنى من ذلك فقال « ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وهو عبد الله بن سعد بن أبى سرح الذى كان على مصر ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأزله الشيطان فلحق بالكفار فأمر به أن يقتل يوم الفتح ؛ فاستجار له عثمان بن عفان فأجاره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ص ١٨٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ أى إن الله غفور رحيم فى ذلك . أو ذَكِّرهم « يوم تأتِى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها » أى تخاصم وتحاجّ عن نفسها ؛ جاء فى الخبر أن كل أحد يقول يوم القيامة : نفسى نفسى ! من شدة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يسأل فى أمته . وفى حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار : يا كعب ، خوّفنا هيّجنا حدّثنا نبّهنا . فقال له كعب : يا أمير المؤمنين ، والذى نفسى بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبيا لأتت عليك تاراتٌ لا يُهمّك إلا نفسك ، وإن لجهنم زفرة لا يبقى مَلَك مقرّب ولا نبيّ منتخب إلا وقع جاثيا على ركبتيه ، حتى إن إبراهيم الخليل لَيُدْلِى بالخُلّة فيقول : يارب ، أنا خليلك إبراهيم ، لا أسألك اليوم إلا نفسى ! قال : يا كعب ، أين تجد ذلك فى كتاب الله؟ قال : قوله تعـالى : « يوم تأتِى كلُّ نفسٍ تجادِل عن نفسِها وتُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما عمِلت وهم لا يظلمون » . وقال ابن عباس فى هـذه الآية : ما تزال الخصومة بالناس يوم القيامة حتى تخاصم الروح الجسد؛ فتقول الروح : ربِّ، الروح منك أنت خلقته ، لم تكن لى يد أَبْطُش بها ، ولا رجل أمشى بهـا ، ولا عين أبصر بها ، ولا أذن أسمع بها ولا عقل أعقل به ، حتى جئت فدخلت فى هـذا الجسد ، فضعف عليه أنواع العذاب ونجنى ؛ فيقول الجسد : ربّ ، أنت خلقتنى بيدك فكنتُ كالخشبة ، ليس لى يد أبطش بها ، ولا قدم أسعى به ، ولا بصر أبصر به ، ولا سمع أسمع به ، فجاء هذا كشعاع النور ، فبه نطق لسانى ، وبه أبصرت عينى ، وبه مشت رجلى ، وبه سمعت أذنى ، فضعِّف عليـه أنواع العذاب ونجنى منه . قال : فيضرب الله لهما مثلا أعمى ومُقْعدًا دخلا بستانا فيـه ثمـار ، فالأعمى لا يبصر الثمرة والمُقْعد لا ينالها ، فنادى المقعدُ الأعمى ايتنى فاحملنى آكل وأطعمك ، فدنا منـه فحمله ، فأصابوا من الثمرة ؛ فعلى من يكون العذاب ؟ قال : عليكما جميعا العذاب ؛ ذكره الثعلبي .

قوله تعـالى : وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ﴾ هذا متصل بذكر المشركين . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا على مشركى قريش وقال : " اللَّهُمَّ اشْدُدْ وطأتك على مُضَرَ واجعلها عليهم سنينَ كسِنِي يوسف " . فابتُلُوا بالقحط حتى أكلوا العظام، ووجّه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاما ففرّق فيهم . ﴿ كَانَتْ آمِنَةً ﴾ لا يُهاج أهلها . ﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ من البر والبحر؛ نظيره « يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ »(1) الاية . ﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ ﴾ الأنعم : جمع النِّعمة؛ كالأَشُدّ جمع الشِّدة . وقيل : جمع نُعْمَى؛ مثل بؤسى وأبؤس . وهذا الكفران تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ ﴾ أى اذاق أهلها . ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ سماه لباسا لأنه يظهر عليهم من الهزال وشحوبة اللون وسوء الحال ما هو كاللباس . ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ أى من الكفر والمعاصى . وقرأه حفص ابن غياث ونصر بن عاصم وابن أبى إسحاق والحسن وأبو عمرو فيما روى عنه عبد الوارث وعبيد وعباس « والخوفَ » نصبا بإيقاع أذاقها عليه، عطفا على « لباسَ الجوع » وأذاقها الخوف . وهو بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم سراياه التى كانت تُطيف بهم . وأصل الذوق بالفم ثم يستعار فيوضع موضع الابتلاء . وضرب مكة مثلا لغيرها من البلاد؛ أى أنها مع جوار بيت الله وعمارة مسجده لمّا كفر أهلها أصابهم القَحْط فكيف بغيرها من القرى . وقد قيل : إنها المدينة، آمنت برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كفرت بأنْعُم الله لقتل عثمان ابن عفان، وما حدث بها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتن . وهذا قول عائشة وحفصة زَوْجَيِ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقيل : إنه مَثَل مضروب بأىّ قرية كانت على هذه الصفة من سائر القُرَى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

---

(1) آية ٥٧ سورة القصص .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ هذا يدل على أنها مكة . وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة . ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ﴾ وهو الجوع الذى وقع بمكة . وقيل : الشدائد والجوع منها .

قوله تعالى : فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ﴾ أى كلوا يا معشر المسلمين من الغنائم . وقيل : الخطاب للشركين ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث إليهم بطعام رِقّةً عليهم ، وذلك أنهم لمـا ٱبتُلُوا بالجوع سبع سنين ، وقطع العرب عنهم المِيرَة بأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أكلوا العظام المحرَقة والجيفة والكلاب الميتة والجلود والعِلْهِز ، وهو الوَبَر يعالج بالدّم . ثم إن رؤساء مكة كلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جُهدوا وقالوا : هذا عذاب الرجال فما بال النساء والصبيان . وقال له أبو سفيان : يا محمد ، إنك جئت تأمر بصلة الرَّحم والعفو ، و إن قومك قد هلكوا ؛ فآدع الله لهم . فدعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأذن للناس بحمل الطعام إليهم وهم بعدُ مشركون .

قوله تعالى : إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

تقدم فى « البقرة » القولُ فيها مستوفًى[1] .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٢١٦ وما بعدها طبعة ثانية .

فيــه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ لِمَا تَصِفُ ﴾ ما هنا مصدرية ، أى لوصف . وقيل : اللام لام سبب وأجْل ، أى لا تقول لأجل وصفكم « الكذب » بنزع الخافض ، أى لما تصف ألسنتكم من الكذب . وقرئ «الكُذُبُ» بضم الكاف والذال والباء ، نعتا للألسنة ، وقد تقدّم[(١)] . وقرأ الحسن هنا خاصّةً « الكَذِبِ » بفتح الكاف وخفض الذال والباء ، نعتا «لما» ؛ التقدير : ولا تقولوا لوصف ألسنتكم الكذبِ . وقيل على البدل من ما ؛ أى ولا تقولوا للكذب الذى تصفه ألسنتكم هــذا حلال وهذا حرام لِتفتروا على اللهِ الكذب . الآية خطاب للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلوا ما فى بطون الأنعام و إن كان ميتة . فقوله « هذا حلال » إشارة إلى ميتة بطون الأنعــام ، وكل ما أحلّوه . وقوله « وهــذا حرام » إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حرّموه . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى ما هم فيه من نعيم الدنيا يزول عن قريب . وقال الزجاج : أى متاعهم متاع قليل . وقيل : لهم متاع قليل ثم يردون إلى عذاب أليم .

الثانيـــة ـــ أسند الدّارِمِيّ أبو محمــد فى مسنده أخبرنا هارون عن حفص عن الأعمش قال : ما سمعت إبراهيم قطّ يقول حلال ولا حرام ، ولكن كان يقول : كانوا يكرهون وكانوا يستحبون . وقال ابن وهب قال مالك : لم يكن من فُتْيا الناس أن يقولوا هــذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا إيّاكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هــذا . ومعنى هــذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرّح بهذا فى عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارئ تعــالى يخــبر بذلك عنه . وما يؤدى إليــه الاجتهاد فى أنه حرام يقول : إنى أكره [ كذا ] . وكذلك كان مالك يفعل اقتداءً بمن تقدم من أهل الفتوى . فإن قيــل : فقد قال فيمن قال لزوجته أنت علىّ حرام إنها حرام ويكون ثلاثا . فالجــواب أن مالكا لمّا سمع علىّ بن أبى طالب يقول إنها حرام اقتدى به . وقد يقوى الدليل على التحريم

(١) راجع ص ١٢٠ من هذا الجزء .

عند المجتهد فلا بأس عند ذلك أن يقول ذلك، كما يقول إن الربا حرام في غير الأعيان الستة[1]، وكثيرا ما يطلق مالك رحمه الله؛ فذلك حرام لا يصلح في الأموال الرّبوية وفيما خالف المصالح وخرج عن طريق المقاصد لقوة الأدلة في ذلك .

قوله تعالى : وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ بيّن أن الأنعام والحرث حلال لهذه الأمة، فأما اليهود فحرمت عليهم منها أشياء . ﴿ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي في سورة الأنعام[2]. ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ ﴾ أي بتحريم ما حرمنا عليهم ، ولكن ظلموا أنفسهم فحرمنا عليهم تلك الأشياء عقوبة لهم؛ كما تقدم في النساء[3] .

قوله تعالى : ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ ﴾ أي الشرك؛ قاله ابن عباس . وقد تقدم في النساء[4] .

قوله تعالى : إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا ﴾ دعا عليه السلام مشركي العرب إلى ملّة إبراهيم؛ إذ كان أباهم وباني البيت الذي به عزّهم؛ والأمّة : الرجل الجامع للخير، وقد تقدم محامله[5] . وقال ابن وهب وابن القاسم عن مالك قال : بلغني أن عبد الله بن مسعود

(١) هي الذهب والفضة والبر والشعير والتمر والملح . (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٤ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ٦ ص١٢ طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ٥ ص٩٢ (٥) راجع جـ ٢ ص١٢٧ طبعة ثانية .

قال : يرحم الله معاذا ! كان أُمّة قانتا . فقيل له : يا أبا عبد الرحمن، إنما ذكر الله عز وجل بهذا إبراهيم عليه السلام . فقال ابن مسعود : إن الأمّة الذى يعلّم الناس الخير ، و إن القانت هو المطيع . وقد تقدم القنوت فى البقرة[1] و « حنيفا » فى الأنعام[2] .

قوله تعالى : شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا ﴾ أى كان شاكرا . ﴿ لأَنْعُمِهِ ﴾ الأَنْعم جمع نِعْمة ، وقد تقدم . ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أى اختاره . ﴿ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ قيل : الولد الطيب . وقيل الثناء الحسن . وقيل : النبوة . وقيل : الصلاة مقرونة بالصلاة على محمد عليه السلام فى التشهد . وقيل : إنه ليس أهل دين إلّا وهم يتولّونه . وقيل : بقاء ضيافته و زيارة قبره . وكل ذلك أعطاه الله و زاده صلى الله عليه وسلم . ﴿ وإِنَّهُ فى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . « مِن » بمعنى مع ، أى مع الصالحين ؛ لأنه كان فى الدنيا أيضا مع الصالحين . وقد تقدم هذا فى البقرة[3] .

قوله تعالى : ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

قال ابن عمر : أمر باتباعه فى مناسك الحج كما علّم إبراهيمَ جبريل عليهما السلام . وقال الطبرى : أمر بأتباعه فى التبرؤ من الأوثان والتزين بالإسلام . وقيل : أمر باتباعه فى جميع ملته إلا ما أمر بتركه ؛ قاله بعض أصحاب الشافعى على ما حكاه الماوردى . والصحيح الاتباع فى عقائد الشرع دون الفروع ؛ لقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا[4] » .

---

(١) راجع المسألة الخامسة جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٣ ص ٢١٣ (٢) ذكر فى الأنعام فى موضعين ، (جـ ٧ ص ٢٨ ، ١٥٢) ولم يذكر المؤلف اشتقاقه فيهما ، و إنما تكلم عليه فى سورة البقرة جـ ٢ ص ١٣٩ فراجعه . (٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ طبعة ثانية . (٤) راجع جـ ٦ ص ٢١١ طبعة أولى أو ثانية .

مسئلة : فى هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للفضول — لما تقدم فى الأصول — والعمل به ، ولا دَرَك[(١)] على الفاضل فى ذلك ؛ لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء عليهم السلام ، وقد أمر بالاقتداء بهم فقال : « فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ[(٢)] » . وقال هنا : « ثم أوحينا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ » .

قوله تعالى : إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ أى لم يكن فى شرع إبراهيم ولا من دينه ، بل كان سَمْحا لا تغليظ فيه ، وكان السبت تغليظا على اليهود فى رفض الأعمال وترك التبسط فى المعاش بسبب اختلافهم فيه ، ثم جاء عيسى عليه السلام بيوم الجمعة فقال : تفرغوا للعبادة فى كل سبعة أيام يوما واحدا . فقالوا : لا نريد أن يكون عيدهم بعد عيدنا ، فاختاروا الأحد . وقد اختلف العلماء فى كيفية ما وقع لهم من الاختلاف ؛ فقالت طائفة : إن موسى عليه السلام أمرهم بيوم الجمعة وعيّنه لهم ، وأخبرهم بفضيلته على غيره ، فناظروه أن السبت أفضل ؛ فقال الله له : "دعهم وما اختاروا لأنفسهم" . وقيل : إن الله تعالى لم يعيّنه لهم ، وإنما أمرهم بتعظيم يوم فى الجمعة فاختلف اجتهادهم فى تعيينه ، فعينت اليهود السبت ؛ لأن الله تعالى فرغ فيه من الخلق . وعينت النصارى يوم الأحد ؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بالخلق . فألزم كلّ منهم ما أداه إليه اجتهاده . وعيّن الله لهذه الأمة يوم الجمعة من غير أن يَكِلَهم إلى اجتهادهم فضلا منه ونعمة ، فكانت خيرَ الأمم أمة . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ونحن أوّل من يدخل الجنة بَيْدَ أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فاختلفوا فيه فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق فهذا يومهم الذى

---

(١) الدرك : التَّبعة .     (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٥ طبعة أولى أو ثانية .

اختلفوا فيه فهدانا الله له — قال يوم الجمعة — فاليوم لنا وغدا لليهود و بعد غد للنصارى". فقوله : " فهذا يومهم الذى اختلفوا فيـه " يقوّى قول من قال : إنه لم يعيّن لهم ؛ فإنه لو عيّن لهم وعاندوا لمـا قيل « اختلفوا » . وإنمـا كان ينبغى أن يقال نخالفوا فيـه وعاندوا . وممـا يقوّيه أيضا قوله عليه السلام : " أضل الله عن الجمعة مَن كان قبلنا " . وهـذا نص فى المعنى . وقـد جاء فى بعض طرقه " فهذا يومهم الذى فرض الله عليهم اختلفوا فيه " . وهو حجـة للقول الأول . وقد روى : " إن الله كتب الجمعة على من كان قبلنا فاختلفوا فيه وهدانا الله له فالناس لنا فيه تَبَعٌ " .

قوله تعالى : ﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ يريد فى يوم الجمعة كما بيناه؛ اختلفوا على نبيّهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمِر باتباع الحق، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدّد عليهم كما شدّد على اليهود .

قوله تعـالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

فيه مسألة واحدة — هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأمر بمهادنة قريش ، وأمَره أن يدعوَ إلى دين الله وشرعه بتلطف ولين دون مخاشنة وتعنيف، وهكذا ينبغى أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة . فهى محكمـة فى جهة العصاة من الموحِّدين ، ومنسوخة بالقتال فى حق الكافرين . وقد قيل : إن من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار ورُجى إيمانه بها دون قتال فهى فيه محكمة . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية، نزلت فى شأن التمثيل بحمزة فى يوم أُحُد، ووقع ذلك فى صحيح البخارى وفى كتاب السِّيَر. وذهب النحاس إلى أنها مكية، والمعنى متصل بمـا قبلها من المكى اتصالا حسنا ؛ لأنهـا تتدرّج الرتبُ من الذى يُدْعَى ويُوعَظ ، إلى الذى يجَادل ، إلى الذى يجازَى على فعـله . ولكن ما روى الجمهور أثبت . روى الدّارَقُطْنِيّ عن ٱبن عبـاس قال : لمـا ٱنصرف المشركون عن قتلى أُحُد ٱنصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى منظراً ساءه، رأى حمـزة قد شُقّ بطنه ، وٱصطُلِم أنفه، وجُدِعت أذناه ، فقـال : "لولا أن يحزن النساء أو تكون سـنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلنّ مكانه بسبعين رجلا" ثم دعا ببردة وغطّى بهـا وجهه، فخرجت رجلاه فغطى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وجهه وجعل على رجليـه من الإذْخَر، ثم قدّمه فكبر عليه عشرا، ثم جعل يجـاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه، حتى صلّى عليه سبعين صلاة، وكان القتلى سبعين، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية : « ٱدْعُ إلى سبيل رَبِّكَ بالحكمة والموعظة الحسَنة — إلى قوله — وٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بالله » فصبر رسول صلى الله عليه وسـلم ولم يُمَثِّل بأحد . خرجه إسمـاعيل بن إسحـاق من حديث أبى هريرة، وحديثُ ٱبن عبـاس أكمل . وحكى الطبرى عن فرقة أنها قالت: إنمـا نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامة ألا ينال من ظالمه إذا تمكّن إلا مثل ظلامته لايتـعدّاه الى غيره . وحكاه المـاوردى عن ٱبن سيرين ومجاهد .

الثانيـــة — وٱختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل فى أخذ مال ثم ٱئتمن الظالمُ المظلومَ على مال، هل يجوز له خيانته فى القدر الذى ظلمه ؛ فقالت فرقة : له ذلك ؛ منهم ٱبن سيرين وإبراهيم النخعيّ وسفيان ومجاهد ؛ واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها . وقال مالك وفرقة معه : لا يجوز له ذلك ؛ وٱحتجوا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أدّ الأمانة إلى من ٱئتمنك ولا تخن من خانك" . رواه الدار قطنى وقد تقدّم هـذا فى « البقرة » مسـتوفًى[1] .

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية .

ووقع فى مسند ابن إسحاق أن هذا الحديث إنما ورد فى رجل زنى بامرأة آخر، ثم تمكن الاخر من زوجة الثانى بأن تركها عنـده وسافر ؛ فاستشار ذلك الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأمر فقال له : " أدّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تخن من خانك " . وعلى هـذا يتقوّى قول مالك فى أمر المـال؛ لأن الخيانة لاحقة فى ذلك ، وهى رذيلة لا انفكاك عنها، فينبغى أن يتجنبها لنفسه؛ فإن تمكن من الانتصاف من مالٍ لم يأتمنه عليه فيشبه أن ذلك جائز وكأن الله حكم له ؛ كما لو تمكن الاخذ بالحكم من الحـاكم . وقد قيل : إن هذه الآية منسوخة ، نسختها « واصبر وما صبرك إلا بالله » .

الثالثـــة — فى هـذه الاية دليل على جواز التماثل فى القصاص؛ فمن قتل بحديدة قُتل بها . ومن قتل بحجر قُتل به، ولا يتعدّى قدر الواجب، وقد تقدّم هذا المعنى فى « البقرة » مستوفى[1]، والحمد لله .

الرابعـــة — سمّى الله تعالى الإذايات فى هـذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هى الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوى اللفظان وتتناسب دباجة القول، وهذا بعكس قوله : «ومكروا ومكرالله» وقوله : «الله يستهزئ بهم» فإن الثانى هنا هو المجاز والأوّل هو الحقيقة؛ قاله ابن عطية.

قوله تعـالى : وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فيه مسئلة واحدة — قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور النـاس على أنها مُحْكَمة . أى اصبر بالعفو عن المعـاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى على قتلى أحد فإنهم صاروا إلى رحمة الله . ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ ﴾ ضَيْق جمع ضيقة؛ قال الشاعر :

* كَشَفَ الضَّيقةَ عنا وفَسَحْ[2] *

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٣٥٥ طبعة ثانية . (٢) هذا عجز بيت للأعشى . وصدره كما فى اللسان وديوانه :

* فلئن ربك من رحمته *

وقراءة الجمهور بفتح الضاد . وقرأ ابن كثير بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وهو غلط ممن رواه . قال بعض اللغويين : الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر . قال الأخفش : الضَّيق والضِّيق مصدر ضاق يضيق . والمعنى : لا يضيق صدرك من كفرهم . وقال الفراء : الضَّيق ما ضاق عنه صدرك، والضِّيق ما يكون في الذي يتّسع ويضيق؛ مثلُ الدار والثوب . وقال ابن السِّكّيت : هما سواء؛ يقال : في صدره ضَيق وضِيق . القُتَبيّ : ضَيْق مخفف ضيّق؛ أي لا تكن في أمر ضَيّق فخفف؛ مثل هَيّن وهَيْن . وقال ابن عرفة : يقال ضاق الرجل إذا بخل، وأضاق إذا افتقر . وقوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ أي الفواحش والكبائر بالنصر والمعونة والفضل والبر والتأييد . وتقدّم معنى الإحسان . وقيل لِهَرِم بن حِيّان عند موته : أوصنا؛ فقال : أوصيكم بآيات الله وآخر سورة النحل : « ادْعُ إلى سبيل ربك » إلى آخرها .

تمت سورة النحل، والحمد لله رب العالمين

# تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية، إلا ثلاث آيات : قوله عز وجل « وإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ »(١) نزلت حين جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وَفْدُ ثقيف، وحين قالت اليهود : ليست هذه بأرض الأنبياء . وقوله عز وجل : « وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ »(٢) . وقوله تعالى « إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ »(٣) الآية . وقال مقاتل : وقوله عز وجل « إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ »(٤) الآية . وقال ابن مسعود رضي الله عنه في بني إسرائيل والكهف [ ومريم ] : إنهن من العِتاق الأُوَل، وهنّ من تِلادِي؛ يريد من قديم كسبه .

(١) آية ٧٦　(٢) آية ٨٠　(٣) آية ٦٠　(٤) آية ١٠٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعـالى : سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

فيـه ثمـان[1] مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ ﴾ « سبحان » اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكن؛ لأنه لا يجرى بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليـه الألف واللام، ولم يجر منه فعل، ولم ينصرف لأن فى آخره زائدتين، تقول : سبّحت تسبيحا وسُبحانا، مثل كفّرت اليمين تكفيرا وكفرانا . ومعناه التنزيه والبراءة لله عز وجل من كل نقص . فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره؛ فأما قول الشاعر :

أقـول لمّـا جاءنى فَخْـــرُهُ * سبحانَ من عَلْقَمـةَ الفاخرِ[2]

فإنمـا ذكره على طريق النادر . وقـد روى طلحة بن عبيد الله الفَيّاض أحدُ العشرة أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما معنى سبحان الله؟ فقال : "تنزيه الله من كل سوء" . والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذى من معناه لا من لفظه ، إذ لم يجر من لفظه فعل، وذلك مثل قعد القُرْفُصاء، واشتمل الصَّمّاء[3]؛ فالتقدير عنده : أنزّه الله تنزيها؛ فوقع «سبحان الله» مكان قولك تنزيهـا .

---

(١) كذا فى جميع الأصول، و يلاحظ أن المسائل ست . (٢) البيت للأعشى . يقول هذا لعلقمة بن علاثة الجعفرى فى منافرته لعامر بن الطفيل ، وكان الأعشى قد فضل عامرا وتبرأ من علقمة وفخره على عامر (عن الشنتمرى).

(٣) الصماء ، ضرب من الاشتمال . واشتمال الصماء : أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الاعراب بأكسيتهم ، وهو أن يردّ الكساء من قبل يمينه على يده اليسرى وعاتقه الأيسر ثم يردّه ثانيـة من خلفه على يده اليمنى وعاتقه الأيمن فيغطيهما جميعا .

الثانيـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ « أسرى » فيــه لغتان : سرى وأسرى؛ كسقى وأسقى، كما تقدّم[1] . قال :

أَسْرتْ عليــه من الجَوْزاء سارِيَةٌ * تُزجِى الشَّمال عليــه جامدَ الــبَرَدِ[2]

وقال آخــر :

حَيِّ النَّضِـــيرة ربة الخِـــدْرِ * أَسْرَتْ إلىّ ولم تكن تَسْرِى[3]

فجمع بين اللغتين فى البيتين . والإسراء : سير الليل؛ يقال : سَرَيت مَسْرًى وسُرًى، وأسريت إسراء؛ قال الشاعر :

وليلةٍ ذات نَدًى سريتُ * ولم يَلِتْنِى من سُراها لَيْتُ

وقيل : أسرى سار من أوّل الليل، وسرى سار من آخره؛ والأوّل أعرف .

الثالثـــة ــ قوله تعالى : ﴿ بِعَبْدِه ﴾ قال العلماء : لو كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم اسم أشرفُ منه لسمّاه به فى تلك الحالة العلية . وفى معناه أنشدوا :

يا قومِ قلبي عنـد زهراءِ * يعـــرفه السامع والرائى

لا تَدْعُنِى إلّا بيا عبـدها * فإنه أشـــرف أسمـائى

وقد تقدّم[4] . قال القُشَيْرِىّ : لمـا رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسمَ العبودية تواضعا للأُمة .

الرابعـــة ــ ثبت الإسراء فى جميع مصنّفات الحديث، ورُوِى عن الصحابة فى كل أقطار الإسلام فهو من المتواتر بهذا الوجه . وذكر النقاش : ممن رواه عشرين صحابيا . روى الصحيح عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أُتيت بالبراق وهو دابة أبيضُ [طويل] فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طَرفه ــ قال ــ فركبته حتى أتيت بيت المقدس ــ قال ــ فربطته بالحَلْقة التى تربط بها الأنبياء ــ قال ــ ثم دخلت المسجد

---

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٧ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٢) البيت للنابغة الذبيانى، من قصيدته التى مطلعها : يا دار مية بالعلياء .
(٣) البيت لحسان بن ثابت .
(٤) راجع جـ ١ ص ٢٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فصليت فيه ركعتين ثم خرجت بجاءنى جبريل عليه السلام بإناء من خمر و إناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترتَ الفِطْرة — قال — ثم عَرج بنا إلى السماء ... " وذكر الحديث .

ومما ليس فى الصحيحين ماخرّجه الآجُرِّىّ والسَّمَرْقَنْدىّ، قال الآجرى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ فى قوله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » قال أبو سعيد : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ليلةِ أُسْرِىَ به ، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أُتيت بدابّة هى أشبه الدواب بالبغل له أذنان يضطربان(١) وهو البراق الذى كانت الأنبياء تركبه قبلُ فركبته فانطلق تقع يداه عند منتهى بصره فسمعت نداء عن يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم سمعت نداء عن يسارى يا محمد على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرِّج عليه ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرِّج ثم أتيت بيت المقدس الأقصى فنزلت عن الدابة فأوثقته فى الحَلْقة التى كانت الأنبياء تُوثق بها ثم دخلت المسجد وصلّيت فيه فقال لى جبريل عليه السلام ما سمعتَ يا محمد فقلتُ سمعتُ نداءً عن يمينى يا محمد على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرّج فقال ذلك داعى اليهود ولو وقفتَ لتهوّدت أمتك — قال — ثم سمعت نداء عن يسارى على رِسْلِك حتى أسألك فمضيت ولم أُعَرّج عليه فقال ذلك داعى النصارى أمَا إنك لو وقفت لتنصّرت أمتك — قال — ثم استقبلتنى آمرأة عليها من كل زينة الدنيا رافعة يديها تقول على رِسْلِك فمضيت ولم أُعَرّج عليها فقال تلك الدنيا لو وقفتَ لآخترت الدنيا على الآخرة — قال — ثم أتيت باناءين أحدهما فيه لبن والآخر فيه خمر فقيل لى خذ فآشرب أيّهما شئت فأخذت اللبن فشربته فقال لى جبريل أصبت الفِطْرة ولو أنك أخذت الخمر غَوَتْ أمتك ثم جاء بالمعراج الذى تعرج فيه أرواح بنى آدم فإذا هو أحسن ما رأيتُ أو لم تروا إلى الميت كيف يحدّ بصره إليه فعرج بنا حتى أتينا باب السماء الدنيا فآستفتح جبريل فقيل من هذا قال جبريل قالوا ومن معك قال محمد قالوا وقد أرسل إليه ؟

(١) فى الأصول : « يخطرفان » والتصويب عن الدر المنثور .

قال نعم ففتحوا لى وسلّموا علىّ و إذا مَلَك يحرس السماء يقال له إسماعيل معــه سبعون ألف ملك مع كل ملك مائة ألف — قال — وما يعلم جُنُودَ رَبِّك إلا هو ... " وذكر الحــديث إلى أن قال : " ثم مضينا إلى السماء الخامسة و إذا أنا بهارون بن عمران الُمحَبّ فى قومه وحوله تبع كثير من أمته فوصفه النبيّ صــلى الله عليه وسلم وقال طو يل اللحيــة تكاد لحيته تضرب فى سُرّته ثم مضينا إلى السماء السادسة فإذا أنا بموسى فسلم علىّ ورحب بى — فوصفه النبي صلى الله عليه وسلم فقال — رجل كثير الشعر ولوكان عليه قميصان خرج شعره منهما ... " الحديث . وروى البزّار أن رسول الله صــلى الله عليه وســلم أُتِى بفرس فحمل عليــه، كلُّ خُطوة منه أقصى بصره ... وذكر الحديث . وقد جاء فى صفة البراق من حديث ابن عباس قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : " بينا أنا نائم فى الحِجْر إذ أتانى آتٍ فحركنى برجله فاتبعت الشخص فإذا هو جبريل عليــه السلام قائم على باب المسجد معــه دابة دون البغل وفوق الحمــار وجهها وجه إنسان وخُفّها خُفُّ حافر وذَنَبهــا ذنب ثور وعُرْفها عرف الفرس فلما أدناها منى جبريل عليه السلام نفرت ونفشت عرفها فمسحها جبريل عليه السلام وقال يا بُرْقة لا تَنْفِرى من محمد فوالله ما ركبكِ مَلك مقرّب ولا نبىّ مُرْسَل أفضــلُ من محمد صــلى الله عليه وســلم ولا أكرم على الله منه قالت قــد علمت أنه كذلك وأنه صاحب الشفاعة و إنى أحِبّ أن أكون فى شفاعته فقلت أنت فى شفاعتى إن شاء الله تعــالى ... " الحــديث . وذكر ابو سعيد عبــد الملك بن محمد النّيسابورى عن أبى سعيد الخدرى قال : لمــا مر النبيّ صــلى الله عليه وســلم بإدريس عليه الســلام فى السماء الرابعــة قال : مرحبا بالأخ الصالح والنبيّ الصالح الذى وُعدنا أن نراه فلم نره إلا الليلة قال فإذا فيها مريم بنت عمران لها سبعون قصرا من لؤلؤ ولأم موسى بن عمران سبعون قصرا من مرجانة حمراء مكللة باللؤلؤ أبوابها وأسِرّتها من عرق واحد فلمــا عرج المعراج إلى السماء الخامسة وتسبيحُ أهلها سبحان من جمــع بين الثلج والنار من قالهــا مرة واحدة كان له مثلُ ثوابهــم ٱستفتح الباب جبريلُ عليه السلام ففُتح له فإذا هو بكهل لم يُرَ قطّ كَهْلٌ أجمل منه عظيم العينين تضرب لحيته

قريبا من سرته قـد كاد أن تكون شَمْطة[1] وحوله قوم جلوس يقصّ عليهم فقلت يا جبريل من هذا قال هارون المُحَبّ فى قومه ... " وذكر الحديث .

فهذه نبذة مختصرة من أحاديث الإسراء خارجة عن الصحيحين، ذكرها ابو الربيع سليمان ابن سبع بكمالها فى كتاب ( شفاء الصدور ) له . ولا خلاف بين أهل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنمـا فرضت على النبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة فى حين الإسراء حين عرج به إلى السماء . واختلفوا فى تاريخ الإسراء وهيئة الصلاة، وهل كان إسراءً بروحه أو جسده؛فهذه ثلاث مسائل تتعلق بالآية، وهى ممـا ينبغى الوقوف عليها والبحث عنها، وهى أهمّ من سَرْد تلك الأحاديث ، وأنا أذكر ما وقفت عليه فيهـا من أقاويل العلماء واختلاف الفقهاء بعـون الله تعـالى .

فأما المسألة الأولى — وهى هل كان إسراء بروحه أو جسده؛ اختلَف فى ذلك السلف والخلف ،فذهبت طائفة إلى أنه إسراء بالروح ،ولم يفارق شخصُه مضجَعه ، وأنها كانت رؤيا رأى فيها الحقائق، ورؤيا الانبياء حق . ذهب إلى هذا معاوية وعائشة، وحكى عن الحسن وابن إسحـاق . وقالت طائفة : كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقـدس، و إلى السماء بالروح؛واحتجوا بقوله تعالى: «سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فجعـل المسجد الأقصى غاية الإسراء . قالوا : ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فإنه كان يكون أبلغ فى المدح . وذهب معظم السلف والمسلمين إلى أنه كان إسراء بالجسد وفى اليقظة ، وأنه ركب البراق بمكة ، ووصل إلى بيت المقـدس وصلّى فيه ثم أُسْرِىَ بجسده . وعلى هذا تدل الأخبار التى أشرنا إليها والآية . وليس فى الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، ولو كان مناما لقال بروح عبده ولم يقل بعبده. وقوله «مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى» يدل على ذلك. ولو كان مناما لمـا كانت فيـه آية ولا معجزة ، ولمـا قالت له أم هانئ : لا تحـدِّث الناس

(١) الشمط فى الشعر : اختلافه بلونين من سواد و بياض .

فيكذبوك، ولا فُضّل ابو بكر بالتصديق ، ولمـا أمكن قريشا التشنيعُ والتكذيب ، وقـد كذبه قريش فيما أخبر به حتى آرتد أقوام كانوا آمنوا، فلو كان بالرؤيا لم يستنكر، وقـد قال له المشركون : إن كنت صادقا فخبّرنا عن عيرنا أين لقيتَها ؟ قال : " بمكان كذا وكذا مررتُ عليها ففزِع فلان فقيل له : ما رأيت يافلان، قال : ما رأيت شيئا ! غير أن الإبل قد نفرت" . قالوا : فأخبرنا متى تأتنا العير؟ قال : " تأتيكم يوم كذا وكذا " . قالوا : أيّةَ ساعة ؟ قال : " ما أدرى ، طلوع الشـمس من هاهنا أسرع أم طلوع العِـيرُ من هاهنا " . فقال رجل : ذلك اليوم ؟ هـذه الشمس قد طلعت . وقال رجل : هـذه عِيركم قد طلعت، وآستخبروا النبيّ صـلى الله عليه وسلم عن صفة بيت المقدس فوصفه لهم ولم يكن رآه قبل ذلك . روى الصحيح عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : " لقـد رأيتُنِي فى الحِجْـر وقريش تسألنى عن مَسْرَاى فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبِتْها(١) فكُرِبْتُ كَرْبًا ما كُرِبت مثله قطّ — قال — فرفعه الله لى أنظر إليه فما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به " الحديث .

وقد اعتُرض قول عائشة ومعاوية : « إنما أسرى بنَفْس رسول الله صلى الله عليه وسلم » بأنها كانت صغيرة لم تشاهد، ولا حدّثت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وأما معاوية فكان كافرا فى ذلك الوقت غير مشاهد للحال، ولم يحدّث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ومن أراد الزيادة على ما ذكرنا فليقف على ( كتاب الشفاء ) للقاضى عياض يجد من ذلك الشفاء . وقد احتجّ لعائشة بقوله تعالى : « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ(٢) » فسماها رؤيا . وهذا يردّه قوله تعالى : « سبحان الذى أَسْرَى بِعبدِه ليلا » ولا يقال فى النوم أسرى . وأيضا فقد يقال لرؤية العين : رؤيا، على ما يأتى بيانه فى هـذه السورة . وفى نصوص الأخبار الثابتـة دلالةٌ واضحة على أن الإسراء كان بالبدن ، وإذا ورد الخـبر بشيء هو مجوّز فى العقل فى قدرة الله تعالى فلا طريق إلى الإنكار، لا سيما فى زمن خرق العوائد، وقد كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم معارجُ ؛ فلا يبعد أن يكون البعض بالرؤيا، وعليه يحمل قوله عليه السلام فى الصحيح : "بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان" الحديث . ويحتمل أن يردّ من الإسراء إلى نوم . والله أعلم .

(١) أى لم أعرفها حق المعرفة ؛ يقال : أثبت الشيء وثابته اذا عرفه حق المعرفة .	(٢) آية ٦٠ من هذه السورة .

المسألة الثانية — فى تاريخ الإسراء ، وقــد اختلف العلمــاء فى ذلك أيضا ، واختُلف فى ذلك على ابن شهاب ؛ فروى عنه موسى بن عقبة أنه أسرِىَ به إلى بيت المقدس قبل خروجه إلى المدينة بسنة . وروى عنــه يونس عن عروة عن عائشة قالت : تُوفِّيت خديجة قبل أن تُفرض الصلاة . قال ابن شهاب : وذلك بعد مبعث النبيّ صلى الله عليه وسلم بسبعة أعوام . وروى عنه الوَقّاصيّ قال : أُسْرِىَ به بعــد مبعثه بخمس سنين . قال ابن شهــاب : وفُرض الصيام بالمدينة قبــل بدر ، وفرضت الزكاة والحج بالمدينة ، وحُرّمت الخمر بعــد أُحُد . وقال ابن إسحاق : أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وهو بيت المقدس، وقد فشا الإسلام بمكة فى القبائل . وروى عنه يونس بن بكير قال : صلّت خديجة مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى . قال أبو عمر : وهذا يدلك على أن الإسراء كان قبل الهجرة بأعوام ؛ لأن خديجة قد توفيت قبل الهجرة بخمس سنين وقيل بثلاث وقيل بأربع . وقول ابن إسحاق مخالف لقول ابن شهاب، على أن ابن شهاب قــد اختلف عنه كما تقــدّم . وقال الحَرْبِيّ : أسرى به ليلة سبع وعشرين من [شهر] ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة . وقال أبو بكر محمد بن علىّ ابن القاسم الذهبى فى تاريخه : أسرى به من مكة إلى بيت المقــدس ، وعرج به إلى السماء بعد مبعثه بثمانية عشر شهرا . قال أبو عمر : لا أعلم أحدا من أهل السير قال ما حكاه الذهبى، ولم يُسْنِد قوله إلى أحد ممن يضاف إليه هــذا العلم منهم ، ولا رفعه إلى من يحتج به عليهم .

المسألة الثالثة — وأما فرض الصلاة وهيئتها حين فرضت ، فلا خلاف بين أهــل العلم وجماعة أهل السِّيَر أن الصلاة إنما فرضت بمكة ليلة الإسراء حين عُرِج به إلى السماء، وذلك منصوص فى الصحيح وغيره . وإنمــا اختلفوا فى هيئتهــا حين فرضت ؛ فروى عن عائشــة رضى الله عنها أنها فرضت ركعتين ركعتين ، ثم زيد فى صلاة الحضر فأكملت أربعا ، وأُقرّت صــلاة السفر على ركعتين . وبذلك قال الشَّعْبِيّ وميمون بن مِهْران ومحمــد بن إسحاق . قال الشعبيّ : إلا المغــرب . قال يونس بن بكير : وقال ابن إسحاق ثم إن جبريل عليــه السلام أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم حين فرضت عليه الصلاة يعنى فى الإسراء فهمز له بعقِبه فى ناحية

الوادى فآنفجرت عين ماء فتوضأ جبريل ومحمد ينظر عليهما السلام فوضّأ وجهه واستنشق وتمضمض ومسح برأسه وأذنيه ورجليه إلى الكعبين ونضح فرجه، ثم قام يصلى ركعتين بأربع سجدات ؛ فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أقر الله عينه وطابت نفسه وجاءه ما يحب من أمر الله تعالى، فأخذ بيد خديجة ثم أتى بها العين فتوضأ كما توضأ جبريل ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة ، ثم كان هو وخديجة يصليان سواء . وروى عن ابن عباس أنها فرضت فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين . وكذلك قال نافع بن جبير والحسن بن أبى الحسن البصرى، وهو قول ابن جريج ، وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ما يوافق ذلك . ولم يختلفوا فى أن جبريل عليه السلام هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال، فعلّم النبيّ صلى الله عليه وسلم الصلاة ومواقيتها . وروى يونس بن بكير عن سالم مولى أبى المهاجر قال سمعت ميمون بن مهران يقول : كان أوّل الصلاة مثنى ، ثم صلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا فصارت سُنّة ، وأُقرت الصلاة للمسافر وهى تمام . قال أبو عمر : وهذا إسناد لايحتج بمثله ، وقوله «فصارت سُنّة» قول منكر، وكذلك استثناء الشعبي المغرب وحدها ولم يذكر الصبح قولٌ لا معنى له . وقد أجمع المسلمون أن فرض الصلاة فى الحضر أربع إلا المغرب والصبح ولا يعرفون غير ذلك عملا ونقلا مستفيضا، ولا يضرهم الاختلاف فيما كان أصل فرضها .

الخامســـة ــ قد مضى الكلام فى الأذان فى «المائدة»(١) والحمد لله . ومضى فى «آل عمران»(٢) أن أوّل مسجد وُضع فى الأرض المسـجدُ الحرام، ثم المسجد الأقصى . وأن بينهما أربعين عاما من حديث أبى ذرّ، و بناء سـليمان عليه السـلام المسجد الأقصى ودعاؤه له من حديث عبد الله بن عمرو ووجه الجمـع فى ذلك ؛ فتأمله هنـاك فلا معنى للإعادة . ونذكر هنا قوله صلى الله عليه وسلم : "لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدى هذا وإلى مسجد إيلياء أو بيت المقدس" . خرّجه مالك من حديث أبى هريرة . وفيه مايدل على فضل هذه المساجد الثلاثة على سائر المساجد؛ لهذا قال العلماء : من نذر صلاة فى مسجد

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢٤		(٢) جـ ٤ ص ١٣٧

لا يصل إليــه إلا برحلة وراحلة فلا يفعــل ، ويصلّى فى مسجده، إلا فى الثـلاثة المساجد المذكورة فإنه من نذر صلاة فيها خرج إليها . وقد قال مالك وجماعة من أهل العلم فيمن نذر رِباطا فى ثَغْر يسدّه : فإنه يلزمه الوفاء حيث كان الرباط لأنه طاعة لله عزّ وجل . وقد زاد أبو البَخْتَرِىّ فى هذا الحديث مسجد الجند ، ولا يصح وهو موضوع ، وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب .

السادســـة — قوله تعالى : ﴿ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ سُمِّىَ الأقصى لبعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وكان أبعد مسجد عن أهل مكة فى الأرض يعظَّم بالزيارة، ثم قال : ﴿ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ قيل : بالثمار وبمجارى الأنهار . وقيل : بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين؛ وبهذا جعله مقدّسا . وروى معاذ بن جبل عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يقول الله تعالى ياشام أنت صَفْوَتى من بلادى وأنا سائق إليك صفوتى من عبادى". ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ هذا من باب تلوين الخطاب . والآيات التى أراه الله من العجائب التى أخبر بها الناس، وإسراؤه من مكة إلى المســجد الأقصى فى ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدا واحدا، حسبما ثبت فى صحيح مسلم وغيره . ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ تقدّم[1] .

قوله تعـالى : وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِـذُوا مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾

أى كرّمنا محمدا صلى الله عليــه وسلم بالمعــراج ، وأكرمنا موسى بالكتاب وهو التوراة . ﴿ وَجَعَلْنَاهُ ﴾ أى ذلك الكتاب . وقيــل موسى . وقيل معنى الكلام : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا وآتى موسى الكتاب؛ فخرج من الغيبة إلى الإخبار عن نفسه جل وعز . وقيل : إن معنى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا، معناه أسرينا، يدل عليه ما بعده من قوله : « لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا » فحمل « وآتينا موسى الكتاب » على المعنى . ﴿ أَلَّا تَتَّخِذُوا ﴾ قرأ أبو عمرو «يتخذوا»

---

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

بالياء . الباقون بالتاء . فيكون من باب تلوين الخطاب . ﴿ وَكِيلًا ﴾ أى شريكا؛ عن مجاهد . وقيل : كفيلا بأمورهم؛ حكاه الفراء . وقيل : رَبًّا يتوكّلون عليه فى أمورهم؛ قاله الكلبي . وقال الفراء : كافيا ؛ والتقدير : عهدنا إليه فى الكتاب ألا تتخذوا من دونى وكيلا . وقيل : التقدير لئلا تتخذوا . والوكيل : من يُوكَل إليه الأمر .

قوله تعالى : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾

أى يا ذرية من حملنا ، على النداء؛ قاله مجاهد ورواه عنه ابن أبى نجيح . والمراد بالذرية كلُّ من احتج عليه بالقرآن، وهم جميع مَن على الأرض؛ ذكره المهدوىّ . وقال الماوَرْدِىّ : يعنى موسى وقومه من بنى إسرائيل، والمعنى ياذرية من حملنا مع نوح لا تشركوا . وذكر نوحا ليذكّرهم نعمة الإنجاء من الغرق على آبائهم . وروى سفيان عن حُميد عن مجاهد أنه قرأ « ذَرِّيّة »[1] بفتح الذال وتشديد الراء والياء . وروى هذه القراءة عامر بن الواجد عن زيد ابن ثابت . ورُوى عن زيد بن ثابت أيضا « ذِرِّية » بكسر الذال وشدّ الراء . ثم بين أن نوحا كان عبدا شكورا يشكر الله على نعمه ولا يرى الخير إلا من عنده . قال قتادة : كان إذا لبس ثوبا قال : بسم الله، فإذا نزعه قال : الحمد لله . كذا روى عنه معمر . وروى معمر عن منصور عن إبراهيم قال : شُكْرُه إذا أكل قال : بسم الله ، فإذا فرغ من الأكل قال : الحمد لله . قال سلمان الفارسى : لأنه كان يحمد الله على طعامه . وقال عمران بن سليم : إنما سمى نوحا عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى ولو شاء لأجاعنى، وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ولو شاء لأظمأنى ، وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسانى ولو شاء لأعرانى، وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ولو شاء لأحفانى ، وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى الأذى ولو شاء لحبسه فىّ . ومقصود الآية : إنكم من ذرية نوح وقد كان عبدا شكورا فأنتم أحق بالاقتداء به دون آبائكم الجهال . وقيل : المعنى أن موسى كان عبدا شكورا إذ جعله الله من ذرية نوح . وقيل : يجوز أن يكون

(١) كذا فى نسخ الأصل، ولم نعثر عليه فى المظان .

« ذرية » مفعولا ثانيا لـ « تتخذوا » ، ويكون قوله : « وكيلا » يراد به الجمع فيسوغ ذلك فى القراءتين جميعا أعنى الياء والتاء فى « تتخذوا » . ويجوز أيضا فى القراءتين جميعا أن يكون « ذرية » بدلا من قوله « وكيلا » لأنه بمعنى الجمع؛ فكأنه قال لا تتخذوا ذرية من حملنا مع نوح . ويجوز نصبها بإضمار أعنى وأمدح ، والعرب قد تنصب على المدح والذم . ويجوز رفعها على البدل من المضمر فى « تتخـذوا » فى قراءة من قرأ بالياء؛ ولا يحسن ذلك لمن قرأ بالتاء لأن المخاطب لا يبدل منه الغائب . ويجوز جرها على البدل من بنى إسرائيل فى الوجهين . فأما « أنْ » من قوله « ألا تتخـذوا » فهى على قراءة من قرأ بالياء فى موضع نصب بحذف الجار ، التقدير : هديناهم لئلا يتخذوا . ويصلح على قراءة التاء أن تكون زائدة والقول مضمر كما تقدّم . ويصلح أن تكون مفسرة بمعنى أى ، لا موضع لها من الإعراب ، وتكون « لا » للنهى فيكون خروجا من الخبر إلى النهى .

قوله تعـالى : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ فِى الْكِتَابِ ﴾ وقرأ سعيد بن جبير وأبو العالية « فِى الكتب » على لفظ الجمع . وقد يرد لفظ الواحد ويكون معناه الجمع؛ فتكون القراءتان بمعنًى واحد . ومعنى « قَضَينا » أعلمنـا وأخبرنا؛ قاله ابن عباس : وقال قتـادة : حكمنا؛ وأصـل القضاء الإحكام للشئ والفراغ منـه . وقيل : قضينا أوحينا ؛ ولذلك قال : « إلى بنى إسرائيل » . وعلى قول قتادة يكون « إلى » بمعنى على؛ أى قضينا عليهم وحكمنا . وقاله ابن عباس أيضا . والمعنِيّ بالكتاب اللوح المحفوظ . ﴿ لَتُفْسِدُنَّ ﴾ وقرأ ابن عباس « لَتُفْسَدُنّ » . عيسى الثقفى « لَتَفْسُدُنّ » . والمعنى فى القراءتين قريب؛ لأنهم إذا أفسدوا فسدوا ، والمراد بالفساد مخالفة أحكام التوراة . ﴿ فِى الأرضِ ﴾ يريد أرض الشام وبيت المقدس وما والاها . ﴿ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ ﴾ اللام فى « لتفسدن ولتعلن » لام قسم مضمر كما تقـدم . ﴿ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ أراد التكبر والبَغْى والطغيان والاستطالة والغَلَبة والعدوان .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا ﴾ أى أُولَى المرّتين من فسادهم . ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْـكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَـدِيدٍ ﴾ هم أهل بابل، وكان عليهـم بُخْتَنَصَّر فى المرة الأولى حين كذبوا إرمياء وجرحوه وحبسوه؛ قاله ابن عباس وغيره . وقال قتادة : أرسل عليهم جالوت فقتلهم ، فهو وقومه أولوا بأس شـديد . وقال مجاهد : جاءهم جند من فارس يتجسّسون أخبـارهم ومعهم بختنصر فوَعَى حديثهم من بين أصحـابه ، ثم رجعوا إلى فارس ولم يكن قتال، وهـذا فى المـرة الأولى ، فكان منهم جَوْسٌ خلال الديار لا قتل ؛ ذكره القشيرى أبو نصر . وذكر المهدوىّ عن مجـاهد أنه جاءهم بختنصر فهزمه بنو إسرائيل ، ثم جاءهم ثانية فقتلهم ودمرهم تدميرا . ورواه ابن أبى نَجيح عن مجاهد ؛ ذكره النحاس . وقال محمد بن إسحاق فى خبر فيه طول : إن المهزوم سَنْحَاريب[1] ملك بابل، جاء ومعه ستمائة ألف راية تحت كل راية مائة ألف فارس فنزل حول بيت المقدس فهزمه الله تعالى وأمات جميعهم إلا سنحاريب وخمسة نفر من كُتَّابه، وبعث ملك بنى إسرائيل واسمه صديقة فى طلب سنحاريب فأخذ مع الخمسة، أحدهم بختنصر، فطرح فى رقابهم الجـوامع[2] وطاف بهم سـبعين يوما حول بيت المقـدس وإيلياء ويرزقهم كل يوم خبزتين من شعير لكل رجل منهم، ثم أطلقهم فرجعوا إلى بابل، ثم مات سنحاريب بعد سبع سنين، واستخلف بختنصر وعظمت الأحداث فى بنى إسرائيل، واستحلوا المحارم وقتلوا نبيهم شَعْيَا؛ فجاءهم بختنصر ودخل هو وجنوده بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل حتى أفناهم . وقال ابن عباس وابن مسعود : أوّل الفساد قتل زكريا . وقال ابن إسحاق : فسادهم فى المرة الأولى قتل شعيا نبىّ الله فى الشجرة؛ وذلك أنه لمـا مات صديقة ملكهم مَرِج[3] أمرهم

(١) راجع كتاب قصص الأنبياء، المسمى بالعرائس ص ٢٥٩ طبع بلاق وتاريخ الطبرى ج ٢ قسم أول ص ٦٣٨ وما بعدها طبع أوربا . (٢) الجوامع : الأغلال، والواحد جامعة . (٣) مرج الأمر : فسد واختلط والتبس المخرج فيه .

وتنافسوا على المُلْك وقتل بعضهم بعضا وهم لا يسمعون من نبيهم؛ فقال الله تعالى له قم فى قومك أُوحِ على لسانك، فلما فرغ مما أوحى الله إليه عَدَوْا عليه ليقتلوه فهرب فانفلقت له شجرة فدخل فيها، وأدركه الشيطان فأخذ هُدْبة من ثوبه فأراهم إياها، فوضعوا المنشار فى وسطها فنشروها حتى قطعوها وقطعوه فى وسطها . وذكر ابن إسحاق أن بعض العلماء أخبره أن زكريا مات موتا ولم يقتل وإنما المقتول شَعْيا . وقال سعيد بن جبير فى قوله تعالى : « ثم بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار » هو سنحاريب من أهل نِينَوى بالمَوْصل ملكُ بابل. وهذا خلاف ما قال ابن إسحاق، فالله أعلم . وقيل : إنهم العمالقة وكانوا كفارا، قاله الحسن. ومعنى جاسوا : عاثوا وقتلوا ؛ وكذلك جاسوا وهاسوا وداسوا ؛ قاله ابن عَزيز، وهو قول القُتَبِيّ . وقرأ ابن عباس : « حاسوا » بالحاء المهملة. قال أبو زيد : الحَوْس والجَوْس والعَوْس والهَوْس : الطواف بالليل . وقال الجوهرى : الجوس مصدر قولك جاسوا خلال الديار، أى تخللوها فطلبوا ما فيها كما يجوس الرجل الأخبار أى يطلبها؛ وكذلك الاجتياس. والجَوَسان (بالتحريك) الطوفان بالليل ؛ وهو قول أبى عبيدة . وقال الطبرى : طافوا بين الديار يطلبونهم ويقتلونهم ذاهبين وجائين؛ فجمع بين قول أهل اللغة . قال ابن عباس : مشوا وتردّدوا بين الدُّور والمساكن . وقال الفراء : قتلوكم بين بيوتكم؛ وأنشد لحسان :

ومنّا الذى لاقى بسيف محمد * فجاس به الأعداء عرض العساكر

وقال قطرب : نزلوا؛ قال :

فجُسْنَا ديارهُمُ عَنْوةً * وأُبْنَا بسادتهم مُوثَقينا

﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴾ أى قضاء كائنا لا خُلف فيه .

قوله تعالى : ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ﴾ أى الدَّولة والرجعة؛ وذلك لمّا تبتم وأطعتم . ثم قيل : ذلك بقتل داود جالوت أو بقتل غيره ، على الخلاف فى من قتلهم . ﴿ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ﴾ حتى عاد أمركم كما كان . ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ أى أكثر عددا ورجالا من عدوّكم . والنفير من نفر مع الرجل من عشيرته؛ يقال : نفير ونافر مثل قدير وقادر . ويجوز أن يكون النفير جمع نَفْر كالكليب والمعيز والعبيد؛ قال الشاعر :

فأكْرِمْ بقحطانَ من والد * وحِمْـيَرَ أكرم بقوم نفـيرا

والمعنى : أنهم صاروا بعد هذه الوقعة الأولى أكثر انضماما وأصلح أحوالا ، جزاءً من الله تعالى لهم على عودهم إلى الطاعة .

قوله تعالى : إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ أى نفع إحسانكم عائد عليكم . ﴿ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ أى فعليها؛ نحو سلام لك ، أى سلام عليك . قال :

* فخرّ صريعا لليدين وللفم * (1)

أى على اليدين وعلى الفم . وقال الطبرى : اللام بمعنى إلى ، يعنى وإن أسأتم فإليها ، أى فإليها ترجع الإساءة ؛ لقوله تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » أى إليها . وقيل : فلها الجزاء والعقاب . وقال الحسين بن الفضل : فلها ربٌّ يغفر الإساءة . ثم يحتمل أن يكون هذا

---

(1) هذا عجز بيت لربيعة بن مُكَدَّم . وصدره :

* وهتكت بالرمح الطويل إهابه *

وقبل هذا البيت :

فصرفت راحلة الظعينة نحوه * عمدا ليعلم بعض ما لم يعلم

وبعده :

ومنحت آخر بعده جيّاشة * نجلاء فاغرة كشدق الأضجم

وهذه الأبيات قيلت يوم الظعينة . راجع أمالى القالى ج ٢ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية .

خطابا لبنى إسرائيــل فى أول الأمر؛ أى أسأتم فحلّ بكم القتل والسَّبْىُ والتخريب ثم أحسنتم فعاد إليكم الملك والعُــلُوّ وآنتظام الحال . ويحتمل أنه خوطب بهذا بنو إسرائيــل فى زمن محمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرفتم استحقاق أسلافكم للعقوبة على العصيان فآرتقبوا مثله . أو يكون خطابا لمشركى قريش على هذا الوجه . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ ﴾ من إفسادكم؛ وذلك أنهم قتلوا فى المرة الثانية يحيى بن زكريا عليهما الســلام، قتله مَلِكٌ من بنى إسرائيل يقال له لاخت؛ قاله القُتَبِىّ . وقال الطبرى : اسمه هردوس، ذكره فى التاريخ؛ حمله على قتله آمرأة اسمها أزبيل . وقال السدّى : كان ملك بنى إسرائيل يكرم يحيى بن زكريا ويستشيره فى الأمر، فآستشاره الملك أن يتزوج بنت آمرأة له فنهاه عنها وقال : إنها لا تحل لك؛ فحقدت أمّها على يحيى عليه السلام، ثم ألبست ابنتها ثيابا حمرا رقاقا وطيّبتها وأرسلتها إلى الملك وهو على شرابه، وأمرتها أن تتعرض له، وإن أرادها أبت حتى يعطيها ما تسأله؛ فإذا أجاب سألتْ أن يؤتى برأس يحيى بن زكريا فى طَسْت من ذهب؛ ففــعلت ذلك حتى أتى برأس يحيى بن زكريا والرأس تتكلم حتى وضع بين يديه وهو يقول : لا تحلّ لك؛ لا تحلّ لك؛ فلما أصبح إذ دمه يَغْلِى، فألقى عليه التراب فغلَى فوقه، فلم يزل يُلْقى عليه التراب حتى بلغ سور المدينة وهو فى ذلك يَغْلِى؛ ذكره الثعلبى وغيره . وذكر ابن عساكر الحافظ فى تاريخه عن الحسين بن علىّ قال : كان ملك من هــذه الملوك مات وترك امرأته وآبنته فورِث مُلْكَه أخوه، فأراد أن يتزوج امرأة أخيه، فآستشار يحيى بن زكريا فى ذلك، وكانت الملوك فى ذلك الزمان يعملون بأمر الأنبياء، فقال له : لا تتزوجها فإنها بَغِىّ؛ فعرفت ذلك المرأةُ أنه قــد ذكرها وصرفه عنها، فقالت : من أين هذا! حتى بلغها أنه من قِبَــل يحيى، فقالت : ليقتلن يحيى أو ليخرجن من ملكه، فعمَدت إلى ابنتها وصنّعتها، ثم قالت : اذهبى إلى عمك عنــد الملأ فإنه إذا رآك سيدعوك ويجلسك فى حجره، ويقول سلينى ما شئت، فإنك لن تسألينى شيئا إلا أعطيتك، فإذا قال لك ذلك فقولى : لا أسأل إلا رأس يحيى . قال : وكانت الملوك إذا تكلم أحدهم بشىء على رءوس الملأ ثم لم يُمْضِ له نُزِع من ملكه؛ ففعلت ذلك . قال : فجعل يأتيه الموت من قتله يحيى،

وجعل يأتيه الموت من خروجه من ملكه ، فآختار ملكه فقتله . قال : فساخت بأمّها الأرضُ . قال ابن جُدْعان : فحدّثت بهذا الحديث ابنَ المسيّب فقال أفما أخبرك كيف كان قتل زكريا؟ قلت لا؛ قال: إن زكريا حيث قُتل ابنه آنطلق هاربا منهم وآتبعوه حتى أتى على شجرة ذات ساق فدعته إليها فآنطوت عليه وبقيت من ثوبه هُدْبة تكفّتها الرياح، فآنطلقوا إلى الشجرة فلم يجدوا أثره بعدها، ونظروا بتلك الهُدْبة فدعوا بالمِنشار فقطعوا الشجرة فقطعوه معها.

قلت : وقع فى التاريخ الكبير للطبرى[١] حدثنى أبو السائب قال حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المِنْهال عن سعيد بن جُبير عن آبن عباس قال : بعث عيسى بنُ مريم يحيى بنَ زكريا فى اثنى عشر من الحواريّين يعلّمون الناس، قال : كان فيما نهوهم عنه نكاح ابنة الأخ، قال : وكان لملكهم ابنة أخ تعجبه ... وذكر الخبر بمعناه . وعن ابن عباس قال : بُعث يحيى آبنُ زكريا فى اثنى عشر من الحواريّين يعلمون الناس، وكان فيما يعلّمونهم ينهونهم عن نكاح بنت الأخت ، وكان لملكهم بنت أخت تعجبه ، وكان يريد أن يتزوجها ، وكان لها كلّ يوم حاجةٌ يقضيها ، فلما بلغ ذلك أمّها أنهم نهوا عن نكاح بنت الأخت قالت لها : إذا دخلت على الملك فقال ألك حاجةٌ فقولى : حاجتى أن تذبح يحيى بن زكريا ، فقال : سلينى سوى هذا ! قالت : ماأسألك إلا هذا . فلما أبت عليه دعا بطَسْت ودعابه فذبحه، فندَرت قطرة من دمه على وجه الأرض فلم تزل تَغْلِى حتى بعث الله عليهم بختنصّر فألْقِىَ فى نفسه أن يقتل على ذلك الدّم منهم حتى يسكن ذلك الدم، فقتل عليه منهم سبعين ألفا ، فى رواية خمسة وسبعين ألفا . قال سعيد بن المسيّب : هى دِيةُ كل نبىّ . وعن ابن عباس قال : أوحى الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم إنى قتلت بيحيى بن زكريا سبعين ألفا ، وإنى قاتل بآبن ابنتك سبعين ألفا وسبعين ألفا . وعن سمير بن عطية قال : قتل على الصخرة التى فى بيت المقدس سبعون نبيا منهم يحيى بن زكريا . وعن زيد بن واقد قال : رأيت رأس يحيى عليه السلام حيث أرادوا بناء مسجد دمشق أخرج من تحت ركن من أركان القبة التى تلى المحراب

---

(١) راجع جـ ٣ قسم أول ص ٧١٣ طبع أوروبا .

ممـا يلى الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغيّر . وعن قُرّة بن خالد قال : ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن علىّ؛ وحمرتها بكاؤها . وعن سفيان بن عُيَيْنة قال : أوحش ما يكون بن آدم فى ثلاثة مواطن : يوم ولد فيخرج إلى دار همّ ، وليلة يبيت مع الموتى فيجاور جيرانا لم ير مثلهــم ، ويوم يُبعث فيشهد مشهدا لم ير مثـله ؛ قال الله تعالى ليحيى فى هذه الثلاثة مواطن : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » . كله من التاريخ المذكور .

واختلف فيمن كان المبعوث عليهــم فى المرة الآخرة؛ فقيل : بختنصر . وقاله القشيرى أبو نصر، لم يذكر غيره . قال السُّهَيْلِىّ : وهذا لا يصح؛ لأن قتل يحيى كان بعد رفع عيسى، وبختنصر كان قبــل عيسى بن مريم عليهما الســلام بزمان طويل ، وقبل الإسكندر ؛ وبين الإسكندر وعيسى نحوٌ من ثلثمائة سنة، ولكنه أريد بالمرة الأخرى حين قتلوا شعيا ، فقد كان بختنصر إذ ذاك حيا ، فهو الذى قتلهم وخرّب بيت المقدس وأتبعهم إلى مصر وأخرجهم منها . وقال الثعلبى : ومن روى أن بختنصّر هو الذى غزا بنى إسرائيل عنــد قتلهم يحيى بن زكريا فغلط عند أهل السِّيَر والأخبار؛ لأنهم مجمعون على أن بختنصر إنمـا غزا بنى إسرائيل عند قتلهم شَعْيَا وفى عهد إِرْمِيَاء . قالوا : ومن عهد إرمياء وتخريب بختنصّر بيت المقدس إلى مولد يحيى ابن زكريا عليهما السلام أربعمائة سنة وإحدى وستون ســنة ، وذلك أنهم يعدّون من عهد تخريب بيت المقدس إلى عمارته فى عهد كوسك[1] سبعين سنة ، ثم من بعد عمارته إلى ظهور الإسكندر على بيت المقدس ثمانية وثمانين سنة ، ثم من بعد مملكة الإسكندر إلى مولد يحيى ثلثمائة وثلاثا وستين[2] سنة .

قلت : ذكر جميعه الطبرى فى التاريخ رحمه الله . قال الثعلبى : والصحيح من ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق قال : لمـا رفع الله عيسى من بين أظهرهم وقتـلوا يحيى — وبعض

(١) الذى فى تاريخ الطبرى : « كيرش » ولم نوفق لتصويبه . (٢) فى الطبرى : « ثلثمائة وثلاث سنين » . راجع ص ٧١٨ من القسم الأول .

الناس يقول : لمـا قتلوا زكريا — بعث الله إليهم ملكا من ملوك بابل يقال له : خردوس، فسار إليهم بأهـل بابل وظهر عليهم بالشأم ، ثم قال لرئيس جنوده : كنت حلفت بإلهي لئن أظهرني الله على بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم فى وسط عسكرى، وأمر أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم، فدخل الرئيس بيت المقدس فوجد فيهـا دماء تَغْـلِي ، فسألهم فقالوا : دَمُ قربان قرّبناه فـلم يتقبل منا منـذ ثمانين[1] سنة . قال ما صَدَقتمونى ، فذبح على ذلك الدم سبعمائة وسبعين رجلا من رؤسائهم فلم يهدأ، [فأتى بسبعمائة غلام من غلمانهم فذُبحوا على الدم فلم يهـدأ[2] ] ، فأمر بسبعة آلاف من سَبْيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فـلم يَبْرَد ، فقال : يابني إسرائيل، أصدقونى قبل ألا أترك منكم نافخ نار من أنثى ولا من ذكر إلا قتلتُه . فلما رأوا الجَهد قالوا : إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سَخَط الله فقتلناه ، فهذا دمه ، كان آسمه يحيى بن زكريا ، ما عصى الله قطّ طرفة عين ولا هَمّ بمعصية . فقال : الآن صدقتمونى ، وخر ساجدا ثم قال: لمثل هذا يُنتقم منكم، وأمر بغلق الأبواب وقال : أخرجوا من كان هاهنا من جيش خردوس، وخلا فى بنى إسرائيل وقال: يا نبيّ الله، يا يحيى بن زكريا قد علم ربى وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، فآهدأ بإذن الله قبل ألا أبقى منهم أحدا . فهدأ دم يحيى بن زكريا بإذن الله عز وجل، ورفع عنهم القتـل وقال : رب ، إنى آمنت بمـا آمن به بنو إسرائيل وصدّقت به ؛ فأوحى الله تعالى إلى رأس مر. رءوس الأنبياء : إن هـذا الرئيس مؤمن صدوق . ثم قال : إن عدّو الله خردوس أمرنى أن أقتل منكم حتى تسيل دماؤكم وسط عسكره، وإنى لا أعصيه ، فأمرهم فحفروا خَنْدَقًا وأمر بأموالهم من الإبل والخيل والبغال والحمير والبقر والغنم فذبحوها حتى سال الدم إلى العسكر، وأمر بالقتلى الذين كانوا قتلوا قبل ذلك فطرحوا على ما قتل من مواشيهم، ثم انصرف عنهم إلى بابل، وقد كاد أن يفنى بنى إسرائيل .

---

(١) فى تاريخ الطبرى ص ٧٢١ : « منذ ثمـانمـائة سنة » .

(٢) زيادة عن تاريخ الطبرى .

قلت : قد ورد فى هذا الباب حديث مرفوع فيه طول من حديث حُذيفة، وقد كتبناه فى (كتاب التذكرة) مقطعا فى أبوابٍ فى أخبار المَهْـدِى"، نذكر منهـا هناما يبيّن معنى الآية ويفسّرها حتى لا يحتاج معـه إلى بيان ، قال حذيفة : قلت يا رسول الله، لقـد كان بيت المقدس عنـد الله عظيما جسيم الخطر عظيم القـدر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "هو من أجَلّ البيوت ابتناه الله لسليمان بن داود عليهما السلام من ذهب وفضة ودُرّ وياقوت وزمرذ" : وذلك أن سليمان بن داود لمـا بناه سَخّـر الله له الجن فأتوه بالذهب والفضة من المعـادن، وأتوه بالجواهر والياقوت والزمرذ ، وسخر الله تعـالى له الجن حتى بنوه من هذه الأصناف . قال حذيفـة : فقلت يا رسول الله ، وكيف أخذت هذه الأشياء من بيت المقدس . فقال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : إن بنى إسرائيـل لمـا عصوا الله وقتلوا الأنبيـاء سلط الله عليهـم بختنصّر وهو من المجوس وكان ملكه سبعمائة سـنة ، وهو قوله : « فإذا جاء وَعْدُ أُولَاهُمَا بعثنا عليكم عِبادا لنا أُولِى بأسٍ شديدٍ فجاسُوا خِلاَلَ الديارِ وكان وَعْدًا مفعولا » فدخلوا بيت المقدس وقتلوا الرجال وسَبَوُا النساء والأطفال وأخذوا الأموال وجميع ما كان فى بيت المقدس من هـذه الأصناف فاحتملوها على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلَة حتى أودعوها أرض بابل ، فأقاموا يستخدمون بنى إسرائيـل ويستملكونهم بالخـزى والعقاب والنكال مائة عام ، ثم إن الله عز وجل رحمهم فأوحى إلى ملك من ملوك فارس أن يسير إلى المجوس فى أرض بابل، وأن يستنقذ مَن فى أيديهم من بنى إسرائيـل ؛ فسار إليهم ذلك الملك حتى دخل أرض بابل فاستنقذ من بقى من بنى إسرائيل من أيدى المجوس واستنقذ ذلك الحلى الذى كان من بيت المقدس وردّه الله إليه كما كان أول مرة وقال لهم : يا بنى إسرائيل إن عدتم إلى المعاصى عدنا عليكم بالسَّبْى والقتل ، وهو قوله : « عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا » فلمـا رجعت بنو إسرائيل إلى بيت المقدس عادوا إلى المعاصى فسلّط الله عليهم ملك الروم قَيْصر، وهو قوله : «فإذا جاء وَعْدُ الآخرة لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كما دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا » فغزاهم فى البر والبحر فسباهم وقتلهم وأخذ أموالهم ونساءهم، وأخذ حلى جميع بيت المقدس واحتمله على سبعين ألفا ومائة ألف عَجَلَة حتى أودعه

في كنيسة الذهب ، فهو فيها الآن حتى يأخذه المهـدى فيردّه إلى بيت المقدس ، وهو ألف سفينة وسـبعمائة سفينة يُرسَى بها على يافا (١) حتى تنقل إلى بيت المقـدس وبها يجمع الله الأولين والآخرين ... وذكر الحديث .

قوله تعـالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أي من المرتين ؛ وجواب « إذا » محذوف ، تقديره بعثناهم؛ دلّ عليـه « بعثنا » الأول . ﴿ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ أي بالسّبي والقتل فيظهر أثر الحزن في وجوهكم؛ فـ « ليسوءوا » متعلق بمحذوف ؛ أي بعثنا عبادا ليفعلوا بكم ما يسوء وجوهكم . قيل : المراد بالوجوه السادة ؛ أي لِيُذِلّوهم . وقرأ الكسائي « لنسوءَ » بنون وفتح الهمزة، فعلُ مخبرٍ عن نفسه معظِّم، اعتبارا بقوله « وقضينا ، وبعثنا ورددنا » . ونحوه عن عليّ . وتصديقها قراءة أُبيٍّ « لنسوءنّ » بالنون وحرف التوكيد . وقرأ أبو بكر والأعمش وابن وَثّاب وحمـزة وابن عامر « ليسوءَ » بالياء على التوحيد وفتح الهمزة؛ ولهـا وجهان : أحدهما — ليسوء الله وجوهكم . والثاني — ليسوء الوعدُ وجوهكم . وقرأ الباقون «ليسوءوا» باليـاء وضم الهمزة على الجمـع ؛ أي ليسـوء العباد الذين هم أولوا بأس شـديد وجوهكم . ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أي ليدمّروا ويهلكوا . وقال قُطْرُب : يهدموا؛ قال الشاعر :

فمـا الناس إلا عاملان فعامل　*　يُتَـبِّرُ ما يَبْني وآخر رافـع

﴿ مَا عَلَوْا ﴾ أي غلبوا عليه من بلادكم ﴿ تَتْبِيرًا ﴾ .

قوله تعـالى : عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ وهذا ممـا أخبروا به في كتابهم . و « عسى » وعد من الله أن يكشف عنهـم . و « عسى » من الله واجبة . ﴿ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ بعد انتقامه منكم ، وكذلك كان؛ فكثّر عددهم وجعل منهـم الملوك . ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾ قال قتـادة :

(١) في الأصول : « يرمى بها على بابي » والتصويب عن الدر المنثور .

فعادوا فبعث الله عليهـم محمدا صـلى الله عليه وسـلم ؛ فهم يُعطون الجـزية بالصَّغار ؛ وروى عن ابن عباس . وهـذا خلاف ما تقدم فى الحديث وغيره . وقال القُشَيْرِىّ : وقـد حلّ العقاب ببنى إسرائيـل مرتين على أيدى الكفار ، ومرة على أيدى المسلمين . وهـذا حين عادوا فعاد الله عليهم . وعلى هـذا يصح قول قتـادة . ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ﴾ أى مَحْبِسًا وسِجْنًا ، من الحَصْر وهو الحبس . قال الجوهرى : يقال حصره يحصره حصرا ضيق عليه وأحاط به . والحصير : الضيق البخيل . والحصير : البارِيّة . والحصير : الجَنْب ، قال الأَصْمَعِىّ : هو ما بين العِرْق الذى يظهر فى جنب البعير والفـرس معترِضا فمـا فوقه إلى منقطع الجنب . والحصير : الملك ؛ لأنه محجوب . قال لبيد :

وقمـاقِم غُلْبِ الرّقاب كأنهم * جنّ لدى باب الحصير قيام

ويُروى : * ومَقامةٍ غُلْب الرقاب ... ... *

على أن يكون « غلب » بدلا من « مقامة » كأنه قال : ورُبَّ غُلْبِ الرقاب . وروى عن أبى عبيدة : * ... لدى طرف الحصير قيام *

أى عنـد طرف البساط للنعمان بن المنـذر . والحِصير : المَحْبِس ؛ قال الله تعـالى : « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً » . قال القُشَيْرِىّ : ويقال للذى يُفترش حصير؛ لحصر بعضه على بعض بالنسج . وقال الحسن : أى فراشا ومهادا؛ ذهب إلى الحصير الذى يفرش ، لأن العرب تسمى البساط الصغير حصـيرا . قال الثعلبى : وهو وجه حسن .

قوله تعـالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ لمـا ذكر المعراج ذكر ما قضى إلى بنى إسرائيل ، وكان ذلك دلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم بيّن أن الكتاب الذى

أنزله الله عليه بسبب اهتـداء . ومعنى ﴿ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ أى الطريقة التي هى أسـدّ وأعدل وأصوب؛ فـ « ـالتى » نعت لموصوف محذوف، أى الطريقة إلى نص أقوم . وقال الزجاج : للحال التى هى أقوم الحالات، وهى توحيد الله والإيمـان برسله . وقاله الكلبي والفرّاء .

قوله تعالى : ﴿ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ ﴾ تقدّم [(1)] . ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ أى الجنة . ﴿ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ أى ويبشرهم بأن لأعدائهم العقاب . والقرآن معظمه وعد ووعيـد . وقرأ حمـزة والكسائى « وَيَبْشُرُ » مخففـا بفتح الياء وضم الشين؛ وقد ذُكر [(2)] .

قوله تعـالى : وَيَدْعُ ٱلْإِنسَـٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُـولًا ﴿١١﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بمـا لايحب أن يستجاب له : اللّهمّ أهلكه، ونحـوه . ﴿ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ﴾ أى كدعائه ربّه أن يَهب له العافية ؛ فـلو استجاب الله دعاءه على نفسـه بالشر هلك لكن بفضله لايستجيب له فى ذلك . نظيره : « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ » وقد تقدّم [(3)] . وقيل : نزلت فى النضر بن الحارث، كان يدعو ويقول : « اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو آئتنا بعذاب أليم [(4)] » . وقيل : هو أن يدعو فى طلب المحظور كما يدعو فى طلب المباح ، قال الشاعر وهو ابن جامع :

أطـوف بالبيت فيمن يطوف * وأرفع من مـئزرى المُسْبَلِ

وأسجـد بالليل حـتى الصبـاح * وأتلو من المُحْكَم المُـنْزَلِ

عسى فارجُ الهمّ عن يوسفٍ * يُسَخِّـر لى ربّة المَحْمِـلِ

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٨ ص ٣١٤ . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٩٨ وجـ ٨ ص ٣١٥ طبعة أولى أو ثانية .

قال الجوهرى : يقال ماعلى فلان مَحْمِل مثال مجلس أى معتمد . والمَحْمِل أيضا : واحد محامل الحاج . والمِحْمَل مثال المِرْجَل : عِلاقة السيف . وحذفت الواو من « ويدع الإنسان» فى اللفظ والخط ولم تحذف فى المعنى لأن موضعها رفع فحذفت لاستقبالها اللام الساكنة؛ كقوله تعالى : « سَنَدْعُ الزَّبَانية»[1] «وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ»[2] «وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ»[3] «يُنَادِ الْمُنَادِ»[4] «فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ»[5] . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ أى طبعه العَجَلة، فيَعْجَل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير . وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركّب فيه الروح على الكمال . قال سلمان : أوّل ماخلق الله تعالى من آدم رأسه فجعل ينظر وهو يخلق جسده ، فلما كان عند العصر بقيت رجلاه لم ينفخ فيهما الروح فقال : ياربّ عجّل قبل الليـل؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن عباس : لمـا انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فذهب لينهض فلم يقـدر؛ فذلك قوله : « وكان الإنسان عجولا » . وقال ابن مسعود : لمـا دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عَجْلانَ إلى ثمار الجنة؛ فذلك حين يقول : « خُلِق الإنسان مِن عجل» ذكره البيهقى . وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم قال : "لمـا صور الله تعالى آدم فى الجنة تركه ماشاء الله أن يتركه فجعل إبليس يُطيف به ينظر ماهو فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِق خلقا لا يتمالك " وقد تقدّم[6] . وقيل : سلّم عليه السلام أسيرا إلى سَوْدة فبات يئنّ فسألته فقال : أنيني لشدّة القِدّ والأسر؛ فأرخت من كتافه فلما نامت هرب ؛ فأخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : " قطع الله يديك " فلما أصبحت كانت تتوقّع الآفة؛ فقال عليه السلام : " إنى سألت الله تعالى أن يجعل دعائى على من لا يستحق من أهلى رحمة لأنى بشر أغضب كما يغضب البشر " ونزلت الآية؛ ذكره القشيرى أبو نصر رحمه الله . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(١) آية ١٨ سورة العلق . (٢) آية ٢٤ سورة الشورى . (٣) آية ١٤٦ سورة النساء .
(٤) آية ٤١ سورة ق . (٥) آية ٥ سورة القمر . (٦) راجع جـ ١ ص ٢٨١ طبعة ثانية أو ثالثة .

" اللّهمّ إنما محمد بشر يغضَب كما يغضَب البشر و إنى قد آتخذت عندك عهدا لن تُخْلِفَنِيه فأيُّما مؤمنٍ آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارةً وقُرْبةً تقرّبه بهـا إليك يوم القيامـة " . وفى الباب عن عائشة وجابر . وقيل : معنى « وكان الإنسان عجولا » أى يؤثر العاجل و إن قلّ، على الآجل و إن جلّ .

قوله تعـالى : وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا (١٢)

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ﴾ أى علامتين على وحدانيتنا ووجودنا وكمال علمنا وقدرتنا . والآية فيهما : إقبال كلّ واحد منهما من حيث لا يعلم، و إدباره إلى حيث لا يعـلم . ونقصان أحدهما بزيادة الآخر وبالعكس آيةٌ أيضا . وكذلك ضـوء النهار وظلمة الليل . وقد مضى هـذا (١) . ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ ولم يقل : فمحونا الليل ، فلما أضاف الآية إلى الليـل والنهار دل على أن الآيتين المذكورتين لهما لاهما . و « مَحَـوْنَا » معناه طمسنا . وفى الخـبر أن الله تعالى أمر جبريل عليه السـلام فأمرّ جناحه على وجه القمر فطمس عنـه الضوء وكان كالشمس فى النور، والسوادُ الذى يُرَى فى القمر من أثر المحو . قال ابن عباس : جعـل الله الشمس سبعين جزءا والقمر سبعين جزءًا ، فمحا من نور القمر تسعـة وستين جزءا فجعله مع نور الشمس، فالشمس على مائة [وتسع] وثلاثين جزءا والقمرُ على جزء واحد . وعنه أيضا : خلق الله شمسين من نور عرشه ، فجعل ما سبق فى علمه أن يكون شمسا مثـل الدنيا على قـدرها ما بين مشارقها إلى مغاربها ، وجعـل القمر دون الشمس ؛ فأرسـل جبريلَ عليـه السلام فأمرّ جناحه على وجهه ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس ضـوءه وبقى نوره؛ فالسواد الذى ترونه فى القمر أثر المحو، ولو تركه شمسا لم يعرف الليل من النهار . ذكر

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٢ طبعة ثانية .

عنه الأول الثعلبي والثاني المهدوي؛ وسيأتي مرفوعا . وقال علي رضي الله عنه وقتادة : يريد بالمحو اللطخة السوداء التي في القمر، ليكون ضوء القمر أقل من ضوء الشمس فيتميز به الليل من النهار . ﴿ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ أي جعلنا شمسه مضيئة للأبصار . قال أبو عمرو بن العلاء : أي يُبْصَر بها . قال الكسائي : وهو من قول العرب أبصر النهار إذا أضاء، وصار بحالة يُبْصَر بها . وقيل : هو كقولهم خبيث مُخْبِث إذا كان أصحابه خبثاء . ورجل مضعِف إذا كانت دوابه ضعافا ؛ فكذلك النهار مُبْصِرا إذا كان أهله بصراء . ﴿ لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ يريد التصرف في المعاش . ولم يذكر السكون في الليل اكتفاء بما ذكر في النهار . وقد قال في موضع آخر : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا »[1] . ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ أي لو لم يفعل ذلك لما عُرِف الليل من النهار، ولا كان يُعرف الحساب والعدد . ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴾ أي من أحكام التكليف؛ وهو كقوله : « تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ »[2] « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ »[3] . وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "لما أبرم الله خلقه فلم يبق من خلقه غير آدم خلق شمسا من نور عرشه وقمرا فكانا جميعا شمسين فأما ما كان في سابق علم الله أن يدعها شمسا فخلقها مثل الدنيا ما بين مشارقها ومغاربها وأما ما كان في علم الله أن يخلقها قمرا فخلقها دون الشمس في العِظَم ولكن إنما يرى صغرهما من شدة ارتفاع السماء وبعدها من الأرض فلو ترك الله الشمس والقمر كما خلقهما لم يعرف الليل من النهار ولا كان الأجير يدري إلى متى يعمل ولا الصائم إلى متى يصوم ولا المرأة كيف تعتد ولا تُدْرَى أوقات الصلوات والحج ولا تحل الديون ولا حين يبذرون ويزرعون ولا متى يسكنون للراحة لأبدانهم وكأن الله نظر إلى عباده وهو أرحم بهم من أنفسهم فأرسل جبريل فأمر جناحه على وجه القمر ثلاث مرات وهو يومئذ شمس فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور فذلك قوله وجعلنا الليل والنهار آيتين" الآية .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦٠ طبعة أولى أو ثانية . (٢) آية ٨٩ سورة النحل .
(٣) آية ٣٨ سورة الأنعام . راجع جـ ٦ ص ٤٢٠

قوله تعالى : وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)

قوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ قال الزجاج : ذِكر العنق عبارةٌ عن اللزوم كلزوم القِلادة للعنق . وقال ابن عباس : « طائره » عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر، وهو ملازمه أينما كان . وقال مقاتل والكلبي : خيره وشره معه لا يفارقه حتى يحاسَب به . وقال مجاهد : عمله ورزقه، وعنه : ما من مولود يولد إلا وفي عنقه ورقة فيها مكتوب شَقِيّ أو سعيد . وقال الحسن : « ألزمناه طائره » أي شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقـديرِ، أي صار له عنـد القسمة في الأزل . وقيـل : أراد به التكليف، أي قدرناه إلزام الشرع ، وهو بحيث لو أراد أن يفعـل ما أُمِر به وينزجر عما زُجِر به أمكنه ذلك . ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً ﴾ يعني كتاب طائره الذي في عنقه . وقرأ الحسن وأبو رجاء ومجاهد : « طيره » بغير ألف ؛ ومنـه ما روى في الخبر " اللّٰهُـمّ لا خيرَ إلا خيرُك ولا طَيْرَ إلا طيرك ولا ربّ غيرك " . وقرأ ابن عباس والحسن ومجاهد وابن مُحَيْصِن وأبو جعفر ويعقوب « ويَخْرُج » بفتح اليـاء وضم الراء، على معنى ويخرج له الطائر كتابا ؛ فـ«كتابا» منصوب على الحال . ويحتمل أن يكون المعنى : ويخرج الطائر فيصير كتابا . وقرأ يحيى بن وَثّاب «ويُخْرِج» بضم الياء وكسر الراء؛ وروى عن مجاهد؛ أي يخرج الله . وقرأ شيبة ومحمد بن السَّمَيْقَع، وروى أيضا عن أبي جعفر : « ويُخْرَج » بضم الياء وفتح الراء على الفعل المجهول ، ومعناه : ويُخرج له الطائرُ كتابا . الباقون « ونخرج » بنون مضمومة وكسر الراء ؛ أي ونحن نخرج . احتج أبو عمرو في هذه القراءة بقوله « ألزمناه » . وقرأ أبو جعفر والحسن وابن عامر « يُلَقّاه » بضم اليـاء وفتح اللام وتشديد القاف، بمعنى يؤتاه . الباقون بفتح الياء خفيفة، أي يراه منشورا . وقال « منشورا » تعجيلا للبشرى بالحسنة والتوبيخ بالسيئة . وقال

أبو السوّار العدوى وقرأ هذه الآية « وكلّ إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » قال : هما نشرتان وَطَيّة ؛ أما ما حييت يابن آدم فصحيفتك المنشورة فأَمْلِ فيها ما شئت ، فإذا متّ طُوِيت حتى إذا بُعثت نُشرت . ﴿ ٱقْرَأْ كِتَابَكَ ﴾ قال الحسن : يقرأ الإنسان كتابه أُمِّيًّا كان أو غير أُمّىّ . ﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أى محاسبا . وقال بعض الصلحاء : هذا كتاب ، لسانك قلمه ، وريقك مداده ، وأعضاؤك قرطاسه ، أنت كنت المُمْلِي على حفظتك ، ما زيد فيه ولا نُقص منه ، ومتى أنكرت منه شيئا يكون فيه الشاهد منك عليك .

قوله تعالى : مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ أى إنما كلّ أحد يحاسب عن نفسه لا عن غيره ؛ فمن اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلّ فعقاب كفره عليه . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ تقدّم فى الأنعام (١) . وقال ابن عباس : نزلت فى الوليد ابن المغيرة ، قال لأهل مكة : اتبعونى واكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم ، فنزلت هذه الآية ؛ أى إن الوليد لا يحمل آثامكم وإنما إثم كل واحد عليه . يقال : وَزَرَ يَزِر وَزْرا وَوِزْرَة ، أى أثم . والوِزر : الثِّقل المثقل والجمع أوزار ؛ ومنه « يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ » (٢) أى أثقال ذنوبهم . وقد وَزَر إذا حَمَل فهو وازر ؛ ومنه وزير السلطان الذى يحمل ثِقْل دولته . والهاء فى قوله كناية عن النفس ، أى لا تؤخذ نفس آثمة بإثم أخرى ، حتى أن الوالدة تَلْقى ولدها يوم القيامة فتقول : يابنىّ ! ألم يكن حجرى لك وطاء ، ألم يكن ثديى لك سقاء ، ألم يكن بطنى لك وعاء ، ! فيقول : بلى يا أُمّهْ ! فتقول : يا بنىّ ! فإن ذنوبى أثقلتنى فاحمل عنى منها ذنبا واحدا ! فيقول : إليك عنى يا أمّه ! فإنى بذنبى عنك اليوم مشغول .

---

(١) راجع ج ٧ ص ١٥٥ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٦ ص ٤١٣

مسألة ـــ نزعت عائشة رضى الله عنها بهذه الآية فى الرّد على ابن عمر حيث قال : إن الميت لَيُعذَّب ببكاء أهله . قال علماؤنا : و إنما حملها على ذلك أنه لم تسمعه، وأنه معارض للآية . ولا وجه لإنكارها، فإن الرواة لهذا المعنى كثير؛ كعمر وابنه والمغيرة بن شعبة وقَيْلَة بنت مخرمة، وهم جازمون بالرواية؛ فلا وجه لتخطئتهم . ولا معارَضة بين الآية والحديث؛ فإن الحديث محمله على ما إذا كان النوح من وصيّة الميت وسنّته، كما كانت الجاهلية تفعله، حتى قال طَرَفة :

إذا مِتّ فانعينى بما أنا أهـله * وشُـقّ علىّ الجيب يابنت مَعْبَد

وقـــال :

إلى الحَوْل ثم آسم السلام عليكما * ومن يَبْكِ حولا كاملا فقد اعتذر

و إلى هـذا نحا البخارى . وقد ذهب جماعة من أهل العلم منهم داود إلى اعتقاد ظاهر الحديث، وأنه إنما يعذّب بنَوْحِهم؛ لأنه أهمل نهيهم عنه قبل موته وتأديبهم بذلك، فيعذَّب بتفـريطه فى ذلك؛ وبترك ما أمره الله به من قوله : « قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا »(1) لا بذنب غيره، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ أى لم نترك الخلق سُدًى، بل أرسلنا الرسـل . وفى هـذا دليل على أن الأحكام لا تثبت إلا بالشرع، خلافا للمعتزلة القائلين بأن العقل يقبّح ويحسّن و يبيح ويحظر . وقد تقدّم فى البقرة القول فيه(2) . والجمهور على أن هذا فى حكم الدنيا؛ أى أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا بعد الرسالة إليهم والإنذار . وقالت فرقة : هذا عام فى الدنيا والآخرة، لقوله تعـالى : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا »(3) . قال ابن عطية : والذى يعطيه النظر أن بعثه آدم عليـه السلام بالتوحيد وبَثّ المعتقدات فى بنيه مع نصب الأدلة الدالة على الصانع مع سلامة الفِطَر توجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم تجدد ذلك فى زمن نوح عليه السلام بعد

(1) آية ٦ سورة التحريم.　(2) راجع جـ ١ ص ٢٥١ طبعة ثانية أو ثالثة.　(3) آية ٨ سورة الملك.

غرق الكفار . وهذه الآية أيضا يعطى احتمال ألفاظها نحو هذا فى الذين لم تصلهم رسالة، وهم أهل الفَتَرات الذين قد قدّر وجودَهم بعضُ أهل العلم . وأما ما روى من أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال فحديث لم يصح، ولا يقتضى ماتعطيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف . قال المهدوىّ : وروى عن أبى هريرة أن الله عز وجل يبعث يوم القيامة رسولا إلى أهل الفترة والأبكم والأخرس والأصم؛ فيطيعه منهم من كان يريد أن يطيعه فى الدنيا، وتلا الآية؛ رواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة، ذكره النحاس .

قلت : هذا موقوف، وسيأتى مرفوعا فى آخر سورة طه إن شاء الله تعالى؛ ولا يصح . وقد استدلّ قوم فى أن أهل الجزائر إذا سمعوا بالإسلام وآمنوا فلا تكليف عليهم فيما مضى؛ وهذا صحيح، ومن لم تبلغه الدعوة فهو غير مستحق للعذاب من جهة العقل، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — أخبر الله تعالى فى الآية التى قبلُ أنه لم يهلك القرى قبل ابتعاث الرسل، لا لأنه يقبح منه ذلك إن فعل، ولكنه وعد منه، ولا خلف فى وعده . فإذا أراد إهلاك قرية مع تحقيق وعده على ماقاله تعالى أمر مترفيها بالفسق والظلم فيها فحق عليها القول بالتدمير. يعلمك أن من هلك هلك بإرادته، فهو الذى يسبب الأسباب ويسوقها إلى غاياتها ليحق القول السابق من الله تعالى .

الثانية — قوله تعالى : ﴿أَمَرْنَا﴾ قرأ أبو عثمان النَّهدىّ وأبو رجاء وأبو العالية، والربيع ومجاهد والحسن «أمّرنا» بالتشديد، وهى قراءة علىّ رضى الله عنه؛ أى سلّطنا شرارها فعصَوْا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم . وقال أبو عثمان النهدىّ « أمّرنا » بتشديد الميم ، جعلناهم

أمراء مسلطين؛ وقاله ابن عزيز. وتأمّر عليهم تسلط عليهم. وقرأ الحسن أيضا وقتادة وأبو حَيْوة الشامي ويعقوب وخارجة عن نافع وحماد بن مسلمة عن ابن كثير وعليّ وابن عباس باختلاف عنهما «آمرنا» بالمد والتخفيف، أي أكثرنا جبابرتها وأمراءها؛ قاله الكسائيّ. وقال أبو عبيدة: آمرته بالمد وأمرته، لغتان بمعنى كثّرته؛ ومنه الحديث "خير المال مُهْرةٌ مأمُورة أو سِكّة مأبورة" أي كثيرة النِّتاج والنَّسل[1]. وكذلك قال ابن عزيز: آمرنا وأمرنا بمعنًى واحد؛ أي أكثرنا. وعن الحسن أيضا ويحيى بن يَعْمَر «امِرنا» بالقصر وكسر الميم على فَعِلنا، ورويت عن ابن عباس. قال قتادة والحسن: المعنى أكثرنا؛ وحكى نحوه أبو زيد وأبو عبيد، وأنكره الكسائي وقال: لا يقال من الكثرة إلا آمرنا بالمد؛ قال وأصلها «أأمرنا» فخفف، حكاه المهدوي. وفي الصحاح: وقال أبو الحسن أَمِر ماله (بالكسر) أي كثر. وأَمِر القوم أي كثروا؛ قال الشاعر:

* أَمِرون لا يرثون سَهْمَ القُعْدُدِ[2] *

وآمر الله ماله (بالمد). الثعلبي: ويقال للشيء الكثير أَمِرٌ، والفعل منه: أَمِرَ القومُ يأمَرون أمرا إذا كثروا. قال ابن مسعود: كنا نقول في الجاهلية للحيّ إذا كثروا: أَمِر أَمْرُ بني فلان؛ قال لَبيد:

كُلُّ بني حُرَّةٍ مَصيرُهُمُ * قُلٌّ وإن أكثرَتْ من العدَدِ
إن يُغْبَطُوا يَهْبِطُوا وإن أَمِرُوا * يومًا يصيروا للهُلْك والنَّكَدِ[3]

---

(١) السكة: الطريقة المصطفة من النخل. والمأبورة: الملقحة؛ يقال: أبرت النخلة وأبّرتها؛ فهى مأبورة ومؤبرة. وقيل: السكة سكة الحرث، والمأبورة المصلحة له. أراد: خير المال نتاج وزرع. (ابن الأثير).

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره:

* طَرِفون ولّا دون كل مبارك *

الطرف والطريف: الكثير الآباء إلى الجد الأكبر. والقعدد: القليل الآباء إلى الجد الأكبر.

(٣) يقول: إن غبطوا يوما فإنهم يموتون. و«يهبطوا» هاهنا يموتوا. ويروى: «إن يغبطوا يعبطوا» يموتوا عبطة؛ كأنهم يموتون من غير مرض. (راجع الديوان).

قلت : وفى حديث هِرَقل الحديثِ الصحيح : "لقد أَمِرَ أَمْرُ ابنِ أبى كَبْشة[1] ، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر" أى كثر . وكله غير متعدّ ولذلك أنكره الكسائى ، والله أعلم . قال المهدوى : ومن قرأ «آمَر» فهى لغة ، ووجه تعدية « أمر » أنه شبهه بعمر من حيث كانت الكثرة أقرب شىء إلى العمارة ، فعدّى كما عدّى عمر[2] . الباقون «أَمَرْنا» من الأمر ؛ أى أمرناهم بالطاعة إعذارا وإنذارا وتخويفا ووعيدا . ﴿فَفَسَقُوا﴾ أى خرجوا عن الطاعة عاصين لنا . ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد ؛ عن ابن عباس . وقيل : «أَمَّرْنا» جعلناهم أمراء ؛ لأن العرب تقول : أمير غير مأمور ، أى غير مؤمر . وقيل : معناه بعثنا مستكبريها . قال هارون : وهى قراءة أُبَىّ « بعثنا أكابر مجرميها ففسقوا » ذكره الماوَرْدىّ . وحكى النحاس : وقال هارون فى قراءة أُبَىّ « وإذا أردنا أن نهلك قرية بعثنا فيها أكابر مجرميها فمكروا فيها فحق عليها القول » . ويجوز أن يكون « أمرنا » بمعنى أكثرنا ؛ ومنه "خير المال مُهْرَةٌ مأمورة" على ما تقدّم . وقال قوم : مأمورة اتباع لمأبورة ؛ كالغدايا والعشايا . وكقوله : "ارْجِعن مأزورات غير مأجورات" . وعلى هذا لا يقال : أَمَرهم الله ، بمعنى كثرهم ، بل يقال : آمره وأمره . واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءة العامة . قال أبو عبيد : وإنما اخترنا « أمرنا » لأن المعانى الثلاثة تجتمع فيها من الأمر والإمارة والكثرة . والمُتْرَف : المنعّم ؛ وخُصّوا بالأمر لأن غيرهم تبع لهم .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ فَدَمَّرْنَاهَا ﴾ أى آستأصلناها بالهلاك . ﴿ تَدْمِيرًا ﴾ ذكر المصدر للبالغة فى العذاب الواقع بهم . وفى الصحيح من حديث زينب بنت جَحْش زوج النبىّ صلى الله عليه وسلم قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فَزِعا مُحْمَرًّا وجهه يقول : "لا إله إلا الله وَيْلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب فُتح اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج مثل هذه" وحلّق بأصبعه الإبهام والتى تليها . قالت : فقلت يا رسول الله ، أنهلك وفينا

---

(١) يريد : رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وكان المشركون يقولون للنبىّ صلى الله عليه وسلم «ابن أبى كبشة» شبهوه بأبى كبشة ، رجل من خزاعة خالف قريشا فى عبادة الأوثان . أو هى كنية وهب بن عبد مناف جده صلى الله عليه وسلم من قبل أمه ؛ لأنه كان نزع إليه فى الشبه . أو كنية زوج حليمة السعدية .

(٢) كذا فى الأصول .

الصالحون ؟ قال : "نعم إذا كثر الخبث" . وقد تقدّم الكلام فى هذا الباب، وأن المعاصى إذا ظهرت ولم تُغيّر كانت سببا لهلاك الجميع (١)؛ والله أعلم .

قوله تعـالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ أى كم من قوم كفروا حلّ بهم البوار . يخوّف كفّار مكة؛ وقد تقـدّم القول فى القرن فى أوّل سورة الأنعام (٢)، والحمد لله . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ « خبيرا » عليما بهم . « بَصِيرًا » يُبصر أعمالهم؛ وقد تقـدّم (٣) .

قوله تعـالى : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ يعنى الدنيا، والمراد الدار العاجلة؛ فعبّر بالنعت عن المنعوت . ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ أى لم نعطـه منها إلا ما نشاء ثم نؤاخذه بعمله، وعاقبتُه دخولُ النـار . ﴿ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ أى مطردا مبعدا من رحمة الله . وهذه صفة المنافقين الفاسـقين، والمرائين المداجين، يلبِسون الإسلام والطاعة لينالوا عاجل الدنيا من الغنائم وغيرها، فلا يقبل ذلك العمل منهم فى الآخرة ولا يُعطون فى الدنيا إلا ما قُسم لهم . وقد تقدّم فى «هود» أن هذه الآية تقيّد تلك الآيات المطلقة؛ فتأمّله . ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ ﴾ أى الدار الآخرة . ﴿ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا ﴾ أى عمل لهـا عملها من الطاعات . ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن الطاعات لا تقبل إلا من مؤمن . ﴿ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ أى مقبولا غير

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٦ ص ٣٩١ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٣٥ طبعة ثانية .

مردود . وقيل : مضاعَفا؛ أى تضاعف لهم الحسنات إلى عشر، و إلى سبعين و إلى سبعمائة ضعف ، و إلى أضعاف كثيرة ؛ كما روى عن أبى هريرة وقد قيل له : أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله ليَجْزِى على الحسنة الواحدة ألف ألف حسنة " ؟ فقال سمعته يقول : " إن الله ليَجْزِى على الحسنة الواحدة ألفى ألف حسنة " .

قوله تعالى : كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَـؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ﴾ أعلم أنه يرزق المؤمنين والكافرين . ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ أى محبوسا ممنوعا ؛ من حَظَر يحظُر حَظْرا وحِظارا . ثم قال تعالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ فى الرزق والعمل ؛ فمن مُقِلّ ومكثر . ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ أى للؤمنين؛ فالكافر وإن وُسّع عليه فى الدنيا مرة ، وقُتّر على المؤمن مَرّة فالآخرة لا تقسم إلا مرة واحدة بأعمالهم ؛ فمن فاته شىء منها لم يستدركه فيها . وقوله ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته . وقيل : الخطاب للإنسان . ﴿ فَتَقْعُدَ ﴾ أى تبقى . ﴿ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ لا ناصر لك ولا وَليا .

قوله تعالى : وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

فيــه ست عشرة مسألة :

الأولى — ﴿ قَضَى ﴾ أى أمر وألزم وأوجب . قال ابن عباس والحسن وقتادة : وليس هذا قضاء حُكْم بل هو قضاء أمر . وفى مصحف ابن مسعود « ووصّى » وهى قراءة أصحابه وقراءة ابن عباس أيضا وعلىّ وغيرهما ، وكذلك عند أُبَىّ بن كعب . قال ابن عباس : إنما هو « ووصى ربك » فالتصقت إحدى الواوين فقرئت « وقضى ربك » إذ لو كان على القضاء ما عصى الله أحد . وقال الضحاك : تصحفت على قوم «وصى بقضى» حين اختلطت الواو بالصاد وقت كَتْب المصحف . وذكر أبو حاتم عن ابن عباس مثل قول الضحاك . وقال عن ميمون بن مهْران أنه قال : إن على قول ابن عباس لنورا؛ قال الله تعـالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ »(١) ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عبـاس قال ذلك . وقال : لو قلنا هــذا لطعن الزنادقة فى مصحفنا ، ثم قال علماؤنا المتكلمون وغيرهم : القضاء يستعمل فى اللغــة على وجوه : فالقضاء بمعنى الأمر؛ كقوله تعالى : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ » معناه أمر . والقضاء بمعنى الخلق ؛ كقوله : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ »(٢) يعنى خلقهن . والقضاء بمعنى الحكم ؛ كقوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ »(٣) يعنى احكم ما أنت تحكم . والقضاء بمعنى الفراغ ؛ كقوله : «قُضِىَ الأَمْرُ الَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ»(٤) . أى فُرغ منــه ؛ ومنه قوله تعـالى « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ »(٥) . وقوله تعالى : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّـلَاةُ »(٦) . والقضاء بمعنى الإرادة ؛ كقوله تعـالى : « إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ »(٧) . والقضاء بمعنى العهـد ؛ كقوله تعـالى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَـرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ »(٨) .

فإذا كانـــ القضاء يحتمل هــذه المعانى فلا يجوز إطلاق القول بأن المعاصى بقضاء الله؛ لأنه إن أريد به الأمر فلا خلاف أنه لا يجوز ذلك، لأنـــ الله تعالى لم يأمر بهـا،

(١) آية ١٣ سورة الشورى .　(٢) آية ١٢ سورة فصلت .　(٣) آية ١٢ سورة طـه .
(٤) آية ٤١ سورة يوسف .　(٥) آية ٢٠٠ سورة البقرة .　(٦) آية ١٠ سورة الجمعة .
(٧) آية ٤٧ سورة آل عمران .　(٨) آية ٤٤ سورة القصص .

فإنه لا يأمر بالفحشاء . وقال زكريا بن سلام : جاء رجل إلى الحسن فقال إنه طلّق امرأته ثلاثا . فقال : إنك قــد عصيت ربك و بانَتْ منك . فقال الرجل : قضى الله ذلك عليّ ! فقال الحسن وكان فصــيحا : ما قضى الله ذلك ! أى ما أمر الله به ، وقرأ هــذه الآية : « وقَضَى رَبُّك ألَّا تعبدوا إلا إيّاه » .

الثانيـــة ــ أمر الله سبحانه بعبادته وتوحيده، وجعل برّ الوالدين مقرونا بذلك، كما قرَن شكرهما بشكره فقال : « وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلّا إيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً » . وقال : « أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىَّ الْمَصِيرُ »(1) . وفى صحيح البخارىّ عن عبد الله قال: سألت النبىّ صلى الله عليه وسلم أىّ العمل أحبّ إلى الله عز وجل؟ قال : "الصلاة على وقتها" قال : ثم أىّ؟ قال : "ثم برُّ الوالدين" قال ثم أىّ ؟ قال : "الجهاد فى سبيل الله" فأخبر صلى الله عليــه وسلم أن برّ الوالدين أفضل الأعمال بعد الصلاة التى هى أعظم دعائم الإسلام . ورتّب ذلك بـ « ثُمّ » التى تعطى الترتيب والمهلة .

الثالثـــة ــ من البِرّ بهما والإحسانِ إليهما ألّا يتعرض لسبّهما ولا يعُقُّهما ؛ فإن ذلك من الكبائر بلا خلاف ، و بذلك وردت السنة الثابتة ؛ ففى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن من الكبائر شَتْمَ الرجلِ والديه" قالوا : يا رسول الله ، وهل يَشْتُمُ الرجل والديه ؟ قال "نعم . يسبّ الرجلُ أبا الرجل فيَسُبّ أباه ويَسُبُّ أمّه فيسب أمّه" .

الرابعـــة ــ عقوق الوالدين مخالفتهما فى أغراضهما الجائزة لهما؛ كما أن بِرَّهما موافقتهما على أغراضهما . وعلى هذا إذا أمرا أو أحدُهما ولدَهما بأمر وجبت طاعتهما فيه، إذا لم يكن ذلك الأمر معصية،و إن كان ذلك المأمور به من قبيل المباح فى أصله ، وكذلك إذا كان من قبيل المندوب . وقد ذهب بعض الناس إلى أن أَمْرَهما بالمباح يصيّره فى حق الولد مندوبا إليه وأمرُهما بالمندوب يزيده تأكيدا فى نَدْبيّته .

(1) آية ١٤ سورة لقمان .

الخامســة — روى الترمذي عن ابن عمر قال : كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها فأمرني أن أطلقها فأبيتُ، فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: " يا عبدالله ابن عمر طلّق امرأتك " . قال هذا حديث حسن صحيح .

السادســة — روى الصحيح عن أبي هريرة قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : مَن أحقّ الناس بحسن صحابتي؟ قال : " أمّك " قال : ثم مَن؟ قال : " ثم أمّك " قال : ثم من؟ قال : "ثم أمك" قال : ثم من؟ قال : " ثم أبوك ". فهذا الحديث يدلّ على أن محبة الأم والشفقةَ عليها ينبغي أن تكون ثلاثةَ أمثال محبة الأب؛ لذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم الأمّ ثلاث مرات وذِكْرِ الأب في الرابعة فقط . وإذا توصّل[1] هذا المعنى شهد له العِيان . وذلك أن صعوبة الحمل وصعوبة الوضع وصعوبة الرضاع والتربية تنفرد بها الأم دون الأب؛ فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب . ورُوى عن مالك أن رجلا قال له : إن أبي في بلد السودان، وقد كتب إليّ أن أقدَم عليه، وأمّي تمنعني من ذلك؛ فقال له : أطع أباك، ولا تَعْص أمك . فدلّ قول مالك هذا أن بِرّهما متساوٍ عنده . وقد سئل الليث عن هذه المسئلة فأمره بطاعة الأم؛ وزعم أن لها ثلثي البر . وحديث أبي هريرة يدل على أن لها ثلاثة أرباع البر؛ وهو الحجة على من خالف . وقد زعم المحاسِبي في (كتاب الرعاية) له أنه لا خلاف بين العلماء أن للأم ثلاثةَ أرباع البر وللأب الربع؛ على مقتضى حديث أبي هريرة رضى الله عنه . والله أعلم .

السابعــة — لا يختص بِرّ الوالدين بأن يكونا مسلمين ، بل إن كانا كافرَين يبَرّهما ويحسن إليهما إذا كان لها عهد؛ قال الله تعالى : «لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ»[2] . وفي صحيح البخاريّ عن أسماء قالت : قَدِمتْ أمّي وهي مشركة في عهد قريش ومدّتهم إذ عاهدوا النبيّ صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت : إن أمّي قَدِمت وهي راغبة[3] أفأصِلُها؟ قال : " نعم صِلِي أمّك ".

(١) كذا في الأصول . (٢) آية ٨ سورة الممتحنة . (٣) قولها راغبة : أي راغبة في برى وصلتى، أو راغبة عن الإسلام كارهة له .

وروى أيضا عن أسماء قالت : أتتنى أمّى راغبة فى عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم أأصلها ؟ قال : " نعم " . قال ٱبن عُيينة : فأنزل الله عز وجل فيها : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ » الأوّل معلّق والثانى مسند .

الثامنـــة — من الإحسان إليهما والبرّ بهما إذا لم يتعيّن الجهاد ألّا يجاهد إلا بإذنهما . روى الصحيح عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد فقال : " أحَيٌّ والداك " ؟ قال نعم . قال : " ففيهما فجاهد " . لفظ مسلم . فى غير الصحيح قال : نعم ، وتركتهما يبكيان . قال : " اذهب فأضحكهما كما أبكيتهما " . وفى خبر آخر أنه قال : " نومك مع أبويك على فراشهما يضاحكانك ويلاعبانك أفضل لك من الجهاد معى " . ذكره ٱبن خُوَيْزمنداد . ولفظ البخاريّ فى كتاب برّ الوالدين : أخبرنا أبو نعيم أخبرنا سفيان عن عطاء بن السّائب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يبايعه على الهجرة ، وترَكَ أبويه يبكيان فقال : "ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما" . قال ابن المنذر : فى هـذا الحديث النّهيُ عن الخروج بغير إذن الأبوين مالم يقع النّفير ؛ فإذا وقع وجب الخروج على الجميع . وذلك بيِّنٌ فى حديث أبى قتادة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيش الأمراء ... ؛ فذكر قصة زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وابن رَوَاحة وأن منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى بعـد ذلك : أن الصلاة جامعة ؛ فٱجتمع الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس ، ٱخرجوا فأمِدّوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد " فخرج الناس مشاةً وركبانا فى حَرٍّ شـديد . فدلّ قوله : " ٱخرجوا فأمدوا إخوانكم " أن العـذر فى التخلف عن الجهاد إنما هو مالم يقع النفير ؛ مع قوله عليه السلام : "فإذا استنفرتم فانفُروا" .

قلت : وفى هذه الأحاديث دليل على أن المفروض أو المندوبات متى اجتمعت قُدّم الأهم منها . وقد استوفى هذا المعنى المحاسبيّ فى كتاب الرعاية .

التاســعة — واختلفوا فى الوالدين المشركَيْن هـل يخرج بإذنهما إذا كان الجهـاد من فروض الكفاية ؛ فكان الثّوريّ يقول : لا يغزو إلا بإذنهما . وقال الشافعيّ : له أن يغزو

بغير إذنهما . قال ابن المنذر : والأجداد آباء ، والجدّات أمهات فلا يغزو المرء إلا بإذنهم ، ولا أعلم دلالة توجب ذلك لغيرهم من الإخوة وسائر القرابات . وكان طاوس يرى السّعى على الأخوات أفضل من الجهاد فى سبيل الله عز وجل .

العاشرة — من تمام برّهما صلة أهل ودّهما ؛ ففى الصحيح عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إن من أبرّ البر صلةَ الرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يُولّيَ". وروى أبو أسَيد وكان بَدْرِيًّا قال : كنت مع النبيّ صلى الله عليه وسلم جالسا فجاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، هل بقى من برّ والدَيّ من بعد موتهما شىء أبرّهما به ؟ قال : "نعم . الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما بعدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما فهذا الذى بقى عليك". وكان صلى الله عليه وسلم يُهدى لصدائق خديجة برًّا بها ووفاء لها وهى زوجته ، فما ظنّك بالوالدين .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ﴾ خصّ حالة الكبر لأنها الحالة التى يحتاجان فيها إلى برّه لتغيّر الحال عليهما بالضّعف والكبر ؛ فألزم فى هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل ، لأنهما فى هذه الحالة قد صارا كَلًّا عليه ، فيحتاجان أن يَلِيَ منهما فى الكبر ما كان يحتاج فى صغره أن يليا منه ؛ فلذلك خصّ هذه الحالة بالذكر . وأيضا فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال للمرء عادة ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه وتنتفخ لهما أوداجه ، ويستطيل عليهما بدالّة البنوة وقلّة الديانة ، وأقلّ المكروه ما يظهره بتنفسه المتردّد من الضجر . وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة ، وهو السالم عن كل عيب فقال : « فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا » . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رَغِمَ أنفُه رغم أنفه رغم أنفه" قيل : مَن يا رسول الله ؟ قال : "مَن أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة" . وقال البخارى فى كتاب بر الوالدين : حدّثنا مسدّد حدّثنا بشر بن المفضل حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن أبى سعيد المَقْبُرِيّ عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

" رَغِمَ أنف رجل ذُكرت عنــده فلم يصلّ علىّ . رَغِمَ أنفُ رجلٍ أدرك أبويه عنـد الكبر أو أحدَهما فلم يدخلاه الجنـة . ورغم أنف رجل دخل عليـه رمضان ثم آنسلخ قبـل أن يُغفر له " . حدّثنا آبن أبى أُوَيْس حدّثنى أخى عن سليمان بن بلال عن محمـد بن هلال عن سـعد بن إسحاق بن كعب بن عُجْرَة السالمىّ عن أبيـه رضى الله عنه قال : إن كعب بن عُجْرة رضى الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أحضروا المنبر " فلما خرج رَقِىَ [ إلى ] المنبر، فرقى فى أوّل درجة منه قال آمين ثم رقى فى الثانية فقال آمين ثم لمـا رقى فى الثالثة قال آمين ، فلما فرغ ونزل من المنبر قلنا : يارسول الله ، لقد سمعنا منك اليوم شيئا ما كنا نسمعه منك ؟ قال : " وسمعتموه " ؟ قلنا نعم . قال : " إن جبريل عليه السـلام اعترض قال : بَعُـد من أدرك رمضان فلم يغفر له فقلت آمين فلما رَقيت فى الثانية قال بَعُـدَ من ذُكرتَ عنـده فلم يصل عليك فقلت آمين فلما رقيت فى الثالثة قال بَعُـدَ من أدرك عنده أبواه الكبرَ أو أحدُهما فلم يُدخلاه الجنـة قلت آمين " . حدّثنا أبو نعيم حدّثنا سـلمة بن وردان سمعت أنسا رضى الله عنه يقول : ارتقى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم على المنبر درجة فقال آمين ثم ارتقى درجة فقال آمين ثم ارتقى الدرجة الثالثة فقال آمين، ثم استوى وجلس فقال أصحابه : يا رسول الله، علام أمّنت ؟ قال : " أتانى جبريل عليـه السلام فقال رَغِم أنف من ذُكرتَ عنـده فلم يصلّ عليك فقلت آمين ورغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخل الجنـة فقلت آمين " الحـديث . فالسعيد الذى يبادر اغتنام فرصة بِرّهما لئلا تفوته بموتهما فيندم على ذلك . والشقىّ من عقّهما، لا سيما من بلغه الأمر ببرّهما .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ ﴾ أى لا تقل لها ما يكون فيه أدنى تبرّم . وعن أبى رجاء العُطَارِدِىّ قال : الأُفّ الكلام القَذَع الردىء الخفِىّ . وقال مجاهد : معناه إذا رأيت منهما فى حال الشـيخ الغائطَ والبول الذى رأياه منك فى الصغر فلا تَقْذَرْهما وتقول أُفّ . والآية أعمّ من هـذا . والأُفّ والتُّفّ وسخ الأظفار . ويقال لكل ما يُضجر ويستثقل : أُفّ له . قال الأزهرى : والتُّفّ أيضا الشىء الحقـير . وقرئ « أُفٍّ » منون

مخفوض؛ كما تُخفض الأصوات وتُنَوّن، تقول : صَهٍ ومهٍ . وفيه عشر لغات : أُفَّ، وأُفُّ، وأُفِّ، وأُفًّا وأُفٍّ، وأُفٌّ، وأُفَّهْ، و إفْ لك (بكسر الهمزة)، وأُفْ (بضم الهمزة وتسكين الفاء)، وأُفًا (مخففة الفــاء) . وفى الحديث : " فألقى طرف ثوبه على أنفه ثم قال أف أف " . قال أبو بكر : معناه استقذار لمــا شَمّ . وقال بعضهم : معنى أف الاحتقار والاستقلال؛ أُخذ من الأَفَف وهو القليل . وقال القُتَبِيّ : أصله نفخك الشيء يَســقط عليك من رماد وتراب وغير ذلك، وللكان تريد إماطة شيء لتقعد فيه؛ فقيلت هذه الكلمة لكل مستثقل . وقال أبو عمرو ابن العَلاء : الأُفّ وسخ بين الأظفار، والتُّف قُلامتها . وقال الزجاج : معنى أف النَّتْن . وقال الأَصْمعِيّ : الأف وسخ الأذن، والتّف وسخ الأظفار؛ فكثر استعماله حتى ذكر فى كل ما يُتأذّى به . وروى من حديث عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو علم الله من العقوق شيئا أردأ من «أف» لذكره فليعمل البارّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل النــار . وليعمل العاقّ ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة " . قال علماؤنا : و إنمــا صارت قولة « أف » للأبوين أردأ شيء لأنه رفضهما رفض كفر النعمة ، وجحد التربية و ردّ الوصية التي أوصاه فى التنزيل . و «أفّ» كلمة مقولة لكل شيء مرفوض؛ ولذلك قال إبراهيم لقومه : « أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دونِ اللهِ »[1] أى رَفْض لكم ولهذه الأصنام معكم .

الثالثة عشرة ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهْر : الزجر والغلظة . ﴿ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ أى لَيِّنًا لطيفا، مثل : يا أبتاه ويا أمّاه، من غير أن يسميهما ويُكَنّيهما؛ قاله عطاء . وقال ابن البَدّاح[2] التُّجِيبيّ : قلت لسعيد بن المسيّب كلّ ما فى القرآن من برّ الوالدين قد عرفته إلا قوله : « وقل لهما قولا كريما » ما هــذا القول الكريم ؟ قال ابن المسيّب : قولُ العبــد المذنب للسيد الفَظّ الغليظ .

الرابعة عشرة ــ قوله تعــالى : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ هذه استعارة فى الشفقة والرحمة بهما والتذلل لهما تذلّل الرعيــة للأمير والعبيد للسادة؛ كما أشار إليه سعيد بن

(١) آية ٦٧ سورة الأنبياء . (٢) كذا فى الأصول . والذى فى ابن جرير والدر المنثور : «أبو الهداج» .

المسيّب . وضَرَبَ خَفْضَ الجناح ونصبه مثلا لجناح الطائر حين ينتصب بجناحه لولده .
والذل : هو اللين . وقراءة الجمهور بضم الذال، من ذَلّ يَذِل ذُلًّا وذِلّة ومَذلة فهو ذالّ وذليل .
وقرأ سعيد بن جُبير وابن عباس وعروة بن الزبير «الذِّل» بكسر الذال، ورُويت عن عاصم؛
من قولهم : دابّة ذَلول بينة الذِّل . والذِّل فى الدواب المنقاد السهل دون الصعب . فينبغى
بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه فى خير ذِلة ، فى أقواله وسكناته ونظره ،
ولا يُحِدّ إليهما بصره فإن تلك هى نظرة الغاضب .

الخامسة عشرة — الخطاب فى هذه الآية للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمراد به أمته؛
إذ لم يكن له عليه السلام فى ذلك الوقت أبوان . ولم يذكر الذّل فى قوله تعالى : « واخْفِض
جَناحَك لِمَنِ اتَّبعكَ مِن المؤمِنِين »(1) وذكره هنا بحسب عظم الحق وتأكيده . و« مِن »
فى قوله : « مِنَ الرَّحْمةِ » لبيان الجنس ، أى إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنّة
فى النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالا . ويصح أن يكون لانتهاء الغاية، ثم أمر تعالى عباده
بالترحّم على آبائهم والدعاء لهم، وأنْ ترحمهما كما رحماك وترْفُق بهما كما رَفَقا بك؛ إذ وَلِيَاك
صغيرا جاهلا محتاجا فآثراك على أنفسهما، وأسهرا ليلهما، وجاعا وأشبعاك، وتعرّيا وكَسَواك،
فلا تجزيهما إلا أن يبلغا من الكبر الحدّ الذى كنت فيه من الصغر، فتلى منهما ما وَلِيَا منك،
ويكون لهما حينئذ فضل التقدّم . قال صلى الله عليه وسلم : "لا يَجْزِى ولد والدًا إلا أن يجده
مملوكا فيشترِيَه فيُعْتِقه" . وسيأتى فى سورة « مريم » الكلام على هذا الحديث .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ كَمَا رَبَّيَانِى ﴾ خصّ التربية بالذكر ليتذكر العبد شفقة
الأبوين وتعبهما فى التربية، فيزيده ذلك إشفاقا لهما وحنانا عليهما، وهذا كله فى الأبوين
المؤمنين . وقد نهى القرآن عن الاستغفار للشركين الأموات ولو كانوا أولى قُرْبَى، كما تقدم(2) .
وذُكر عن ابن عباس وقتادة أن هذا كله منسوخ بقوله : « ما كَانَ لِلنَّبِىّ والذينَ آمَنُوا أنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ — إلى قوله — أَصْحَابُ الجَحِيم » فإذا كان والدا المسلم ذِمّيّين استعمل

(1) آية ٢١٥ سورة الشعراء . (2) راجع جـ ٨ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية .

معهما ما أمره الله به هاهنا؛ إلا الترحم لهما بعـد موتهما على الكفر؛ لأن هـذا وحده نسخ بالآية المذكورة . وقيل : ليس هذا موضع نسخ، فهو دعاء بالرحمة الدنيوية للأبوين المشركين ما داما حيين، كما تقدم. أو يكون عموم هذه الآية خُصّ بتلك، لا رحمة الآخرة، لاسيما وقد قيل إن قوله : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا » نزلت في سـعد بن أبي وقاص، فإنه أسـلم، فألقت أمه نفسها في الرَّمْضَاء متجرّدة، فذكر ذلك لسعد فقـال : لِتَمُتْ، فنزلت الآية . وقيـل : الآية خاصة في الدعاء للأبوين المسلمين . والصواب أن ذلك عموم كما ذكرنا، وقال ابن عباس قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " من أمسى مُرْضِيًا لوالدَيْه وأصبح أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان من الجنة وإن واحدا فواحدا . ومن أمسى وأصبح مُسْخِطا لوالديه أمسى وأصبح وله بابان مفتوحان إلى النار وإن واحدا فواحدا " فقال رجل : يارسول الله، وإن ظلماه ؟ قال : "وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه" . وقد روينا بالإسناد المتصل عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنـه قال : جاء رجل إلى النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : يا رسـول الله ، إن أبي أخذ مالى . فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم للرجل : " فأتنى بأبيك " فنزل جبريل عليه السلام على النبيّ صـلى الله عليه وسلم فقال : " إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك إذا جاءك الشيخ فأساله عن شيء قاله في نفسه ما سمِعته أذناه " فلمـا جاء الشيخ قال له النبيّ صلى الله عليه وسـلم : " ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ " فقال : سـله يارسول الله، هل أنفقه إلا على إحدى عمّاته أو خالاته أو على نفسي! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " إيهِ[(1)]، دعنا من هـذا . أخبرنى عن شيء قلتَه في نفسك ما سمِعَتْه أذناك " ؟ فقال الشيخ : والله يارسول الله، مازال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا، لقـد قلتُ في نفسي شيئا ما سمعته أذناى . قال : " قل وأنا أسمع " قال قلت :

---

(١) إيهِ (بكسر الهاء) : كلمة استزادة واستنطاق . وإذا قلت « إيهًا » بالنصب والتنوين فإنما تأمره بالسكوت . وقال ابن سيده : « وإيه (بالكسر) كلمة زجر بمعنى حسبك، وتنون فيقال إيهًا » . وحكى عن الليث : « إيه وإيهِ في الاستزادة والاستنطاق . وإيهِ وإيهًا في الزجر؛ كقولك : إيه حسبك، وإيهًا حسبك » .

غذوتك مولودا ومنتك يافعا (١) (٢) * تعل بما أجني عليك وتنهل
إذا ليلة ضاقتك بالسقم لم أبت (٣) * لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي * طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها * لتعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي * إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة * كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي * فعلت كما الجار المصاقب يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن * علي بمال دون مالك تبخل

قال : فحينئذ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلابيب ابنه وقال : "أنت ومالك لأبيك". قال الطبراني : اللخمي لا يروى — يعني هذا الحديث — عن ابن المنكدر بهذا التمام والشعر إلا بهذا الإسناد، وتفرد به عبيد الله بن خلصة . والله أعلم .

قوله تعالى : رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥)

قوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾ أي من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما ، أو من غير ذلك من العقوق ، أو من جعل ظاهر برهما رياء . وقال ابن جبير : يريد البادرة التي تبدر، كالفلتة والزلة، تكون من الرجل إلى أبويه او أحدهما ، لا يريد بذلك بأسا؛ قال الله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ ﴾ أي صادقين في نية البر بالوالدين فإن الله يغفر البادرة . وقوله : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ وعد بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة بعد الأوبة

(١) نسبت هذه الأبيات في أشعار الحماسة لأمية بن أبي الصلت . قال التبريزي : « وتروى لابن عبد الأعلى . وقيل لأبي العباس الأعمى » . (٢) في الأصول : «وصنتك» . وفي أشعار الحماسة : «وعلتك» أي قمت بمؤونتك . و «يافعا» شابا . و «تعل» من عله يعله ؛ سقاه ثانية . و «أجني» أكسب . و «تنهل» من أنهله ؛ سقاه أول سقية . (٣) في الحماسة :

اذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت * لشكواك ... ... ... الخ .

إلى طاعة الله سبحانه وتعالى . قال سعيد بن المسيِّب : هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب . وقال ابن عباس رضى الله عنه : الأوّاب : الحفيظ الذى إذا ذكر خطاياه استغفر منها . وقال عُبيد بن عُمير : هم الذين يذكرون ذنوبهم فى الخلاء ثم يستغفرون الله عز وجل . وهذه الأقوال متقاربة . وقال عَون العُقَيلىّ : الأوّابون هم الذين يصلون صلاة الضحا . وفى الصحيح : " صلاة الأوّابين حين تَرْمَضُ الفِصال [1] " . وحقيقة اللفظ من آب يؤوب إذا رجع .

قوله تعالى : وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ ﴾ أى كما راعيت حق الوالدَيْن فصل الرحم ، ثم تصدّق على المسكين وابن السبيل . وقال علىّ بن الحسين فى قوله تعالى « وآتِ ذا القُرْبَى حَقّه » : هم قرابة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، أمر صلى الله عليه وسلم بإعطائهم حقوقَهم من بيت المال ، أى من سهم ذَوِى القربى من الغَزْو والغنيمة ، ويكون خطابا للولاة أو من قام مقامهم . وألحق فى هذه الآية ما يتعين من صلة الرحم ، وسَدّ الخَلّة ، والمواساة عند الحاجة بالمال ، والمعونة بكل وجه .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ ﴾ أى لا تُسرف فى الإنفاق فى غير حق ، قال الشافعىّ رضى الله عنه : والتبذير إنفاق المال فى غير حقه ، ولا تبذير فى عمل الخير . وهذا قول الجمهور . وقال أشهب عن مالك : التبذير هو أخذ المال من حقه ووضعُه فى غير حقه ، وهو الإسراف ، وهو حرام لقوله تعالى : « إنّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا إخْوَانَ الشياطين » وقوله

(١) هى أن تحمى الرمضاء ، وهى الرمل ، فتبرك الفصال من شدة حرها وإحراقها أخفافها .

« إخوان » يعنى أنهم فى حكمهم ؛ إذ المبـذّر ساعٍ فى إفساد كالشياطين، او أنهـم يفعلون ما تسوّل لهم أنفسهـم، أو أنهم يُقرَنون بهم غدا فى النار؛ ثلاثة أقوال . والإخوان هنا جمع أخٍ من غير النسب؛ ومنه قوله تعـالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »(١) . وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً ﴾ أى آحذروا متابعته والتشبه به فى الفساد . والشيطان اسم الجنس . وقرأ الضحاك « إخوان الشيطان » على الآنفراد ، وكذلك ثبت فى مصحف أنس بن مالك رضى الله عنه .

الثالثـــة — من أنفق ماله فى الشهوات زائدا على قدر الحاجات وعرّضه بذلك للنفاد فهو مبذّر . ومن أنفق رِبْح ماله فى شهواته وحَفِظ الأصل أو الرقبة فليس بمبذّر . ومن أنفق درهما فى حرام فهو مبذّر ، ويُحجر عليـه فى نفقته الدرهم فى الحرام ، ولا يحجر عليه إن بذله فى الشهوات إلا إذا خيف عليه النفاد .

قوله تعـالى : وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُـمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَـةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً ﴿٢٨﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — وهو أنه سبحانه وتعالى خصّ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » . وهو تأديب عجيب وقول لطيف بديع؛ أى لا تعرض عنهم إعراض مستهين عن ظهر الغنى والقدرة فتَحْرِمهم . وإنمـا يجوز أن تُعرض عنهم عند عجـزٍ يَعرِض وعائق يعوق ، وأنت عنـد ذلك ترجو من الله سـبحانه وتعالى فتح باب الخير لتتوصل به إلى مواساة السائل؛ فإن قعد بك الحال فقُلْ لهم قولا ميسورا .

الثانيـــة — فى سبب نزولها ؛ قال ابن زيد : نزلت الآية فى قوم كانوا يسـئلون رسول الله صلى الله عليه وسـلم فيأبَى أن يعطيَهم ؛ لأنه كان يعلم منهم نفقة المـال فى فساد ،

(١) آية ١٠ سورة الحجرات .

فكان يُعرض عنهم رغبة فى الأجر فى منعهم لئلا يعينهم على فسادهم . وقال عطاء الخراسانيّ فى قوله تعالى « وإمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا » قال : ليس هذا فى ذكر الوالدين، جاء ناس من مُزَيْنَة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يستحملونه ؛ فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولَّوْا وأعينُهم تَفيض من الدمع حَزَنًا ؛ فأنزل الله تعالى : « وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عنهم ٱبتغاءَ رحمةٍ مِن ربِّك تَرْجُوها » . والرحمة الفَيْءُ .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً ﴾ أمره بالدعاء لهم ، أى يَسِّر فقرهم عليهـــم بدعائك لهم . وقيـــل : أُدْعُ لهم دعاءً يتضمّن الفتح لهم والإصلاح . وقيـــل : المعنى "و إما تعرضن" أى إن أعرضت يا محمد عن إعطائهم لضيق يدٍ فقل لهم قولا ميسورا ؛ أى أحسن القول وابسط العذر، وادع لهم بسَعة الرزق، وقل إذا وجدتُ فعلتُ وأكرمتُ؛ فإن ذلك يعمل فى مَسَرّة نفسه عمل المواساة . وكان عليـــه الصلاة والسلام إذا سئل وليس عنده ما يُعطِى سكت انتظارا لرزق يأتى من الله سبحانه وتعـــالى كراهة الردّ ، فنزلت هـــذه الآية ، فكان صلى الله عليه وسلم إذا سئل وليس عنده ما يعطى قال : " يرزقنا الله وإياكم من فضله " . فالرحمة على هذا التأويل الرزق المنتظر . وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة . والضمير فى «عنهم» عائد على من تقدّم ذكرهم من الآباء والقرابة والمساكين وأبناء السبيل . و « قولا ميسورا » أى ليّنـــا لطيفا طيبا ، مفعول بمعنى الفاعل ، من لفظ اليسر كالميمون ، أى وعدا جميلا ، على ما بيناه . ولقد أحسن من قال :

إلّا تكن وَرِقٌ يوما أجود بها * للسائلين فإنى ليّن العُـــودِ
لا يَعْدَم السائلون الخيرَ من خلق * إمّا نَوالِي وإمّا حسنُ مردودى

تقول : يَسَّرت لك كذا إذا أعددته .

قوله تعـــالى : وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَـــا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

فيـــه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ هذا مجاز عبّر به عن البخيل الذى لا يقدر من قلبه على إخراج شيء من ماله ؛ فضرب له مثل الغَلّ الذى يمنع من التصرف باليـد . وفى صحيح البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنـه قال : ضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم مَثَل البخيل والمتصدّق كمثل رجلين عليهما جُبّتان من حديد قد اضْطَرّت أيديهما إلى ثُدِيّهما وتَرَاقيهما فجعل المتصدّق كلما تصدّق بصدقة انبسطت[1] عنـه حتى تَغْشَى أناملَه وتَعْفُوَ أثره[2] وجعل البخيلُ كلمـا همّ بصدقة قَلَصت[3] وأخذت كلُّ حَلْقـة بمكانها . قال أبو هريرة رضى الله عنـه : فأنا رأيت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقول[4] بأصبعيه هكذا فى جيْبه فلو رأيتَه يُوسِّعها ولا تتوسّع[5] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ ضرب بَسْطَ اليـد مثلا لذهاب المـال ، فإن قبض الكف يحبس ما فيها ، وبسطها يذهب ما فيها . وهـذا كله خطاب للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم والمراد أمته ، وكثيرا ما جاء فى القرآن ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسـلم لمـا كان سيّدهم وواسطتهم إلى ربهم عبّر به عنهم على عادة العرب فى ذلك . وأيضا فإنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يدّخر شيئا لغد ، وكان يجوع حتى يشدّ الحجـر على بطنه من الجوع . وكان كثير من الصحابة ينفقون فى سـبيل الله جميع أموالهم ، فلم يعنّفهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم لصحة يقينهم وشدّة بصائرهم . وإنما نهى الله سبحانه وتعالى عن الإفراط فى الإنفاق ، وإخراج ما حَوَتْه يده من المـال مَن خِيف عليه الحسرة على ما خرج من يده ، فأما من وثق بموعود الله عز وجل وجزيل ثوابه فيما أنفقه فغير مراد بالآية ، والله أعلم . وقيل : إن هذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى خاصّة نفسه ، علّمه فيه كيفية الإنفاق ، وأمره بالاقتصاد . قال جابر وابن مسعود : جاء غلام إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : إن أمّى

(١) أى انتشرت عنه الجبة . (٢) أى أثر مشيه لسبوغها . (٣) أى انضمت وارتفعت .
(٤) العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان ؛ فتقول : قال بيده ، أى أخذ . وقال برجله ، أى مشى . وكل ذلك على المجاز والاتساع . (٥) جواب لو محذوف ؛ أى لتعجبت .

تسألك كذا وكذا . فقال : " ما عنـدنا اليوم شيء " . قال : فتقول لك اكسنى قميصك ؛ فخلع قميصه فدفعه إليه وجلس فى البيت عُريانا . وفى رواية جابر : فأذّن بلال للصلاة وانتظر رسول صلى الله عليه وسـلم يخرج ، واشتغلت القلوب ، فدخل بعضهم فإذا هو عار ؛ فنزلت هذه الآية . وكل هذا فى إنفاق الخير . وأما إنفاق الفساد فقليله وكثيره حرام ، كما تقدّم .

الثالثـة — نهت هـذه الآية عن استفراغ الوجد (1) فيما يطرأ أوّلا من سؤال المؤمنين ؛ لئلا يبقى من يأتى بعد ذلك لا شيء له ، أو لئلا يضيّع المنفِق عياله . ونحوُه من كلام الحكمة : ما رأيت قطُّ سَرَفاً إلا ومعه حق مضيّع . وهذه من آيات فقه الحال فلا يُبيَّن حكمها إلا باعتبار شخص شخص من الناس .

الرابعـة — قوله تعـالى : ﴿ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ قال ابن عرفة : يقول لا تسرف ولا تُتلف مالك فتبقى محسورا منقطعا عن النفقة والتصرف ؛ كما يكون البعير الحسير ، وهو الذى ذهبت قوته فلا انبعاث به ؛ ومنـه قوله تعالى : « يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ (2) » أى كليل منقطع . وقال قتادة : أى نادما على ما سلف منك ؛ فجعله من الحسرة ، وفيه بعد ؛ لأن الفاعل من الحسرة حَسِر وحسران ولا يقـال محسور . والملوم : الذى يلام على إتلاف ماله ، أو يلومه من لا يعطيه .

قوله تعـالى : إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ (3)

(1) الوجد (مثلثة الواو) : اليسار والسعة .　(2) آية ٤ سورة الملك .　(3) هذه الآية لم يتكلم عليها المؤلف ولم تذكر فى النسخ التى بين أيدينا ولعله تكلم عليها وحصل سقط من النساخ .

وعبارة ابن جرير الطبرى فى كلامه على الآية كما وردت فى تفسيره : « يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن ربك يا محمد يبسط رزقه لمن يشاء من عباده فيوسع عليه ، و يقدر على من يشاء ، يقول : و يقتر على من يشاء منهم فيضيق عليـه . « إنه كان بعباده خبـيرا » يقول : إن ربك ذو خبرة بعباده ، ومن الذى تصلحه السعـة فى الرزق وتفسده ، ومن الذى يصلحه الاقتار والضيق و يهلكه . « بصيرا » يقول : هو ذو بصر بتدبيرهم وسياستهم . يقول : فانته يا محمد إلى أمرنا فيما أمرناك ونهيناك من بسط يدك فيما تبسطها فيـه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عمن تكفها عنه وتكفها فيه ؛ فنحن أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق وأبصر بتدبيرهم » .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

فيـــه مسألتان :

الأولى ـــ قد مضى الكلام في هذه الآية في الأنعام، والحمد لله[1]. والإملاق: الفقر وعدم الملك. أملق الرجل أي لم يبق له إلا المَلَقات؛ وهي الحجارة العظام المُلْس. قال الهُذَلي يصف صائدا:

أُتيِحَ لها أُقَيْدِرُ ذو حَشِيف * إذا سامَتْ على المَلَقَات ساما

الواحدة مَلَقة. والأُقَيْدِر تصغير الأقدر، وهو الرجل القصير. والحَشِيف من الثياب: الخَلَق. وسامت مرّت. وقال شَمِر: أملق لازمٌ ومتعدٍّ، أملق إذا افتقر، وأملق الدهر ما بيده. قال أوس:

* وأَمْلَق ما عندى خطوب تَنَبَّلُ[2] *

الثانيـــة ـــ قوله تعالى: ﴿ خِطْـًٔا ﴾ « خطئا » قراءة الجمهور بكسر الخاء وسكون الطاء وبالهمزة والقصر. وقرأ ابن عامر « خَطَأً » بفتح الخاء والطاء والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي جعفر يزيد. وهاتان قراءتان مأخوذتان من « خطئ » إذا أتى الذنب على عمـد. قال ابن عرفة: يقال خَطِئ في ذنبه خَطَأً إذا أَثِم فيه، وأخطأ إذا سلك سبيلَ خطأ عامدا أو غير عامد. قال: ويقال خَطِئ في معنى أخطأ. وقال الأزهرى: يقال خَطِئ يخطأ خِطْئًا إذا تعمّد الخطأ؛ مثلُ أَثِم يَأْثَم إثما. وأخطأ إذا لم يتعمّد، إخطاء وخطأ. قال الشاعر:

دَعِيني إنما خَطَئي وصَوْبِي * عليّ وإنّ ما أهلكتُ مالُ[3]

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

(٢) صدر البيت:

* لما رأيت العُدْم قيّد نائلي *

(٣) في الأصول: « وان ما أهلكت مالى ». والتصويب عن كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة وطبقات الشعراء لابن سلام في ترجمة أوس بن غَلْفاء، ولسان العرب في مادة « صوب ». وقبل هذا البيت:

ألا قالت امامة يوم غَوْل * تُقَطَّع يابن غلفاء الحبال

يقول: وان الذى أهلكت إنما هو مال، والمال يستخلف ولم أتلف عرضا.

وغول: مكان كان فيه وقعة للعرب لضبّة على بنى كلاب. (راجع معجم ياقوت).

والخطأ الاسم يقوم مقام الإخطاء، وهو ضدّ الصواب . وفيه لغتان : القصر وهو الجيد، والمدّ وهو قليل. وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما «خَطْأً» بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة . وقرأ ابن كثير بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة . قال النحاس : ولا أعرف لهذه القراءة وجهًا، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطا. قال أبو علىّ : هى مصدر من خاطأ يخاطئ، وإن كنا لا نجد خاطأ، ولكن وجدنا تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ، فدلنا عليه؛ ومنه قول الشاعر :

تَخَاطَأَت النَّبْـلُ أحشاءَه * وأُخِّرَ(١) يـومِى فـلم أَعْجَـلِ

وقول الآخر فى وصف مَهاة :

تخاطأه القَنّاص حتى وجدتُه * وخرطومُه فى مَنْقع الماء راسبُ

الجوهرى : تخاطاه أى أخطأه؛ وقال أوفَى بن مطر المازنى :

ألَا أبلغـا خُلَّـتى جابرًا * بأنّ خليلك لم يُقتَـل
تخـاطأت النّبـل أحشاءه * وأُخِّر(١) يومى فـلم يَعْجَـل

وقرأ الحسن «خَطَاء» بفتح الخاء والطاء والمد فى الهمزة . قال أبو حاتم : لا يعرف هـذا فى اللغة وهى غلط غير جائز . وقال أبو الفتح: الخطأ من أخطأت بمنزلة العطاء من أعطيت، هو اسم بمعنى المصدر، وعن الحسن أيضا «خَطًى» بفتح الخاء والطاء منونة من غير همز .

قوله تعـالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

فيه مسئلة واحدة :

قال العلماء : قوله تعـالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أبلغ من أن يقول : ولا تزنوا؛ فإن معناه لا تدنوا من الزنى . والزنى يمد ويقصر، لغتان . قال الشاعر :

كانت فريضة ما تقول كما * كان الزِّناء فريضةَ الرَّجْمِ

و﴿سَبِيلًا﴾ نصب على التمييز، التقدير: وساء سبيله سبيلا . أى لأنه يؤدّى إلى النار . والزنى من الكبائر، ولا خلاف فيه وفى قبحه لا سيما بحليلة الجـار . وينشأ عنـه استخدام ولد الغير

(١) أخر : بمعنى يتأخر، ويجوز «أُخِّرَ» .

واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه . وفى الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتى بامرأة مُجِحّ[1] على باب فسطاط فقال : " لعله يريد أن يُلِمّ بها " فقالوا : نعم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لقد هممتُ أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره كيف يُورِّثه وهو لا يحلّ له كيف يستخدمه وهو لا يحلّ له " .

قوله تعالى : وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣)

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[2].

قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾ . فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا ﴾ أى بغير سبب يوجب القتل . ﴿ فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ ﴾ أى لمستحق دمه . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد: الوليّ يجب أن يكون ذكرا؛ لأنه أفرده بالولاية بلفظ التذكير . وذكر إسماعيل بن إسحاق فى قوله تعالى: « فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ » ما يدل على خروج المرأة عن مطلق لفظ الوليّ، فلا جَرَم، ليس للنساء حق فى القصاص لذلك ولا أثر

---

(١) قوله « أتى بامرأة » أى مر عليها فى بعض أسفاره . و «المجح» (بميم مضمومة وجيم مكسورة وحاء مهملة) صفة لامرأة، وهى الحامل التى قربت ولادتها . وقوله : فقال لعله ... الخ فيه حذف تقديره : فسأل عنها فقالوا أَمَة فلان؛ أى مَسْبِيَّته . ومعنى «يلم بها» : أى يطؤها، وكانت حاملا مسبية، لا يحل جماعها حتى تضع . وقوله « كيف يورثه ... الخ » معناه : أنه قد تتأخر ولادتها ستة أشهر، بحيث يحتمل كون الولد من هذا السابى، ويحتمل أنه كان ممن قبله . فعلى تقدير كونه من السابى يكون ولدا له، و يتوارثان . وعلى تقدير كونه من غير السابى لا يتوارثان هو ولا السابى لعدم القرابة، بل له استخدامه لأنه مملوكه . فتقدير الحديث : أنه قد يستلحقه و يجعله ابنا له و يورثه مع أنه لا يحل له توريثه لكونه ليس منه، ولا يحل توريثه ومزاحمته لباقى الورثة . وقد يستخدمه استخدام العبيد و يجعله عبدا يتملكه، مع أنه لا يحل له ذلك لكونه منه اذا وضعته لمدة محتملة كونه من كل واحد منهما ؛ فيجب عليه الامتناع من وطئها خوفا من هذا المحظور . (راجع شرح النووى على صحيح مسلم، كتاب النكاح باب تحريم وطء الحامل المسبية) .

(٢) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .

لعفوها، وليس لها الاستيفاء. وقال المخالف: إن المراد هاهنا بالولي الوارث؛ وقد قال تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»[(١)]، وقال: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ»[(٢)]، وقال: «وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ»[(٣)] فاقتضى ذلك إثبات القود لسائر الورثة؛ وأمّا ما ذكروه من أن الولي في ظاهره على التذكير وهو واحد، كأن ما كان بمعنى الجنس يستوى المذكر والمؤنث فيه، وتتمته في كتب الخلاف. ﴿سُلْطَانًا﴾ أي تسليطا إن شاء قتل وإن شاء عفا، وإن شاء أخذ الدّية؛ قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والضحاك وأشهب والشافعي. وقال ابن وهب قال مالك: السلطانُ أمر الله. ابن عباس: السلطان الحجة. وقيل: السلطان طلبه حتى يدفع إليه. قال ابن العربي: وهذه الأقوال متقاربة، وأوضحها قول مالك: إنه أمر الله. ثم إن أمر الله عز وجل لم يقع نصًّا فاختلف العلماء فيه؛ فقال ابن القاسم عن مالك وأبي حنيفة: القتل خاصّةً. وقال أشهب: الخيرة؛ كما ذكرنا آنفا، وبه قال الشافعيّ. وقد مضى في سورة «البقرة»[(٤)] هذا المعنى.

الثانيــــة — قوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ فيه ثلاثة أقوال: لا يقتل غير قاتله؛ قاله الحسن والضحاك ومجاهد وسعيد بن جبير. الثــاني — لا يقتل بدل وَلِيّه اثنين كما كانت العرب تفعله. الثالث — لا يمثّل بالقاتل؛ قاله طَلْق بن حبيب، وكله مراد لأنه إسراف منهيٌّ عنه. وقد مضى في «البقرة»[(٤)] القول في هــذا مستوفًى. وقرأ الجمهور «يُسْرِفْ» بالياء، يريد الولي، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي «تسرف» بالتاء من فوق، وهي قراءة حُذيفة. وروى العــلاء بن عبد الكريم عن مجاهد قال: هو للقاتل الأوّل، والمعنى عندنا فلا تسرف أيهــا القاتل. وقال الطبريّ: هو على معنى الخطاب للنبيّ صــلى الله عليه وســلم والأئمــة من بعده. أي لا تقتلوا غير القاتل. وفي حرف أُبَيٍّ «فلا تسرفوا في القتل».

(١) آية ٧١ سورة التوبة.	(٢) آية ٧٢ سورة الأنفال.	(٣) آخر سورة الأنفال.

(٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٤ وما بعدها طبعة ثانية.

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ أى مُعانا، يعنى الولىّ . فإن قيل : وكم من وَلِىّ مخذول لا يصل إلى حقّه . قلنا : المعونة تكون بظهور الحجة تارة وباستيفائها أخرى، وبمجموعهما ثالثة، فأيّها كان فهو نصر من الله سبحانه وتعالى. وروى ابن كثير عن مجاهد قال : إن المقتول كان منصورا . النحاس : ومعنى قوله إن الله نصره بوليّه . وروى أنه فى قراءة أُبَىّ « فلا تسرفوا فِى القتلِ إن وَلِىّ المقتولِ كان منصورا » . قال النحاس : الأَبْيَنُ بالياء ويكون للولىّ؛ لأنه إنما يقال : لا يسرف إن كان له أن يقتل، فهذا للولىّ . وقد يجوز بالتاء ويكون للولىّ أيضا، إلا أنه يحتاج فيه إلى تحويل المخاطبة . قال الضحاك : هـذا أوّل ما نزل من القرآن فى شأن القتل، وهى مكية .

قوله تعـالى : وَلَا تَقْـرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾

فيـــه مسألتانـــ :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ قد مضى الكلام فيه فى الأنعام[1] .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ قد مضى الكلام فيه فى غير موضع[2] . قال الزجاج : كل ما أمر الله به ونَهَى عنــه فهو من العهد . ﴿ إِنَّ الْعَهْـدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ عنه، فحذف؛ كقوله : «وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» به وقيل : إن العهد يسأل تبكيتا لناقضه فيقال : نقضت، كما تسأل المَوْءُودة تبكيتا لوائدها .

قوله تعـالى : وَأَوْفُوا ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِٱلْقِسْـطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .    (٢) راجع جـ ١ ص ٣٣٢ طبعة ثانية أو ثالثة .

فيـــه مسألتانـــ :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ تقــدم الكلام فيه أيضا فى الأنعام[1] . وتقتضى هذه الآية أن الكيل على البائع ، وقــد مضى فى سورة «يوسف» فلا معنى للإعادة[2] . والقُِسطاس (بضم القاف وكسرها) : الميزان بلغــة الروم ؛ قاله ابن عَزيز . وقال الزجاج : القسطاس : الميزان صغيرا كان أو كبيرا . وقال مجاهــد : القسطاس العــدل ، وكان يقول : هى لغة رومية ، وكأن الناس قيل لهم : زِنوا بمَعْدَلة فى وزنكم . وقرأ ابن كَثير وأبو عمرو ونافع وابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر «القُسطاس» بضم القاف ، وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم (بكسر القاف) وهما لغتان .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أى وفاءُ الكيل وإقامة الوزن خير عند ربك وأبرك . « وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » أى عاقبة . قال الحسن : ذُكر لنا أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " لا يقدر رجل على حرام ثم يَدَعُه ليس لديه إلا مخافة الله تعالى إلا أبدله الله فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك " .

قوله تعــالى : وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أى لا تتبع ما لا تعلم ولا يَعْنيك . قال قتادة : لا تقل رأيتُ وأنت لم تر، وسمعتُ وأنت لم تسمع، وعلمتُ وأنت لم تعــلم؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما . قال مجاهد : لا تذُمّ أحدا بمــا ليس لك به علم؛ وقاله ابن عباس رضى الله عنهما أيضا . وقال محمد بن الحنفية : هى شهادة الزور . وقال القُتَبِى : المعنى لا تتبع الحَدْس

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ طبعة أولى أو ثانية .　　(٢) راجع جـ ٩ ص ٢٥٤ طبعة أولى أو ثانية .

والظنون؛ وكلها متقاربة . وأصــل القَفْو البُهْتُ والقذفُ بالباطل؛ ومنــه قوله عليه الصلاة والســلام : "نحن بنو النضر بن كنانة لا نَقفو أُمَّنا ولا ننتفى من أبينا" أى لا نَسُبّ أمنــا . وقال الكُمَيت : —

فــلا أرمى البرىء بغــــير ذنب * ولا أَقْفُو الحــواصن إن قُفينا

يقال : قَفَوْتُه أقفوه، وقُفْتــه أَقُوفُه، وقَفّيتــه إذا آتّبَعت أثره . ومنــه القافة لتبعهم الآثار وقافية كلِّ شيء آخره ، ومنه قافية الشِّعر؛ لأنها تقفو البيت . ومنه آسم النبيّ صلى الله عليــه وســلم المُقَفِّى؛ لأنه جاء آخر الأنبيــاء . ومنــه القائف، وهو الذى يتبع أثر الشَّبَه . يقال : قاف القائف يقوف إذا فعــل ذلك . وتقول : فَقَوْت الأثر، بتقــديم الفاء على القــاف . ابنُ عطيــة : ويشبه أن يكون هــذا من تلعّب العرب فى بعض الألفاظ ، كما قالوا : رَعَمْلِى فى لَعَمْرِى . وحكى الطبرىّ عن فرقة أنهــا قالت : قفا وقاف، مثــل عتا وعات . وذهب منذر بن سعيد إلى أن قفا وقاف مثــل جَبَذ وجَذَب . وبالجمــلة فهذه الآية تنهى عن قول الزور والقذف ، وما أشــبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة . وقرأ بعض الناس فيما حكى الكسائى « تَقُفْ » بضم القاف وسكون الفاء . وقرأ الجراح « والفَآد » بفتح الفــاء، وهى لغة لبعض الناس، وأنكرها أبو حاتم وغيره .

الثانيـــة — قال ابن خُوَيْزِمنداد : تضمنت هذه الآية الحكم بالقافة؛ لأنه لمــا قال : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » دلّ على جواز ما لنا به علم؛ فكلّ ما علمه الإنسان أو غلب على ظنه جاز أن يحكم به، وبهذا احتججنا على إثبات القُرْعة والخَرْص؛ لأنه ضرب من غلبة الظن، وقد يُسَمَّى علما آتساعا . فالقائف يُلحق الولد بأبيه من طريق الشبه بينهما كما يلحق الفقيه الفــرع بالأصل من طريق الشبه . وفى الصحيح عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل علىّ مسرورا تَبرُق أسارير وجهه فقال : "ألم تَرَىْ أن مُجَزِّزًا نظر إلى زيد ابن حارثة وأسامة بن زيد عليهما قطيفة قد غَطّيا رءوسهما وبَدَتْ أقدامهما فقال إن بعض هذه الأقدام لَمِن بعض" . وفى حديث يونس بن يزيد : "وكان مُجَزِّز قائفا" .

الثالثـــة ــ قال الإمام أبو عبـد الله المـازَرِى : كانت الجاهليـة تقـدح فى نسب أسامة لكونه أسـود شديد السـواد ، وكان زيد أبوه أبيضَ من القطن ، هكذا ذكره أبو داود عن أحمد بن صالح . قال القاضى عِيَاض : وقال غير أحمد كان زيد أزهرَ اللون ، وكان أسامة شديد الأُدْمة؛ وزيد بن حارثة عربىّ صريح من كَلْب، أصابه سِباء، حسبما يأتى فى سورة « الأحزاب »[1] إن شاء الله تعالى .

الرابعـــة ــ استدل جمهور العلماء على الرجوع إلى القافة عند التنازع فى الولد، بسرور النبىّ صلى الله عليه وسلم بقول هذا القائف؛ وما كان عليه السلام بالذى يُسَرّ بالباطل ولا يعجبه . ولم يأخذ بذلك أبو حنيفة و إسحاق والثّورِىّ وأصحابهم متمسّكين بإلغاء النبىّ صلى الله عليه وسلم الشبه فى حديث اللّعان؛ على ما يأتى فى سورة « النور » إن شاء الله تعالى .

الخامســـة ــ واختلف الآخذون بأقوال القافـة ، هل يؤخذ بذلك فى أولاد الحرائر والإماء أو يختص بأولاد الإماء، على قولين؛ فالأوّل ــ قول الشافعىّ ومالك رضى الله عنهما فى رواية ابن وهب عنه، ومشهورُ مذهبه قَصْرُه على ولد الأَمَة . والصحيح ما رواه ابن وهب عنه وقاله الشافعىّ رضى الله عنه؛ لأن الحديث الذى هو الأصل فى الباب إنمـا وقع فى الحرائر، فإن أسامة وأباه حُرّان فكيف يُلْغَى السبب الذى خُرّج عليه دليل الحكم وهو الباعث عليـه، هذا مما لا يجوز عند الأصوليين . وكذلك اختلف هؤلاء، هل يكتفَى بقول واحد من القافة أو لابُدّ من اثنين لأنها شهادة؛ وبالأوّل قال ابن القاسم وهو ظاهر الخبر بل نصّه . وبالثانى قال مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

السادســـة ــ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ أى يسأل كل واحد منهم عما اكتسب، فالفؤاد يسأل عما افتكر فيه واعتقده، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع . وقيل : المعنى أن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ؛ ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : "كلّكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته"

(١) راجع المسألة الخامسة من قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين ... » آية ٤

فالإنسان راع على جوارحه ؛ فكأنه قال كل هذه كان الإنسان عنه مسئولا ، فهو على حذف مضاف . والمعنى الأول أبلغ في الحجة ؛ فإنه يقع تكذيبه من جوارحه ، وتلك غاية الخزى ؛ كما قال : « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ »[1] ، وقوله « شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »[2] . وعبّر عن السمع والبصر والفؤاد بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هـذه الآية مسـئولة ، فهى حالة من يعقل ، فلذلك عبر عنها بأولئك . وقال سيبويه رحمه الله في قوله تعالى «رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ» : إنما قال : « رأيتهـم » في نجوم ، لأنه لما وصفها بالسـجود وهو من فعل مَن يعقل عبّر عنهـا بكناية مَن يعقل ؛ وقد تقـدّم[3] . وحكى الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل وعما لا يعقل بأولئك ، وأنشد هو والطبرى :

ذُمّ المنازل بعـد منزلة اللِّوَى * والعيش بعـد أولئك الأيام

وهذا أمر يوقف عنده . وأما البيت فالرواية فيه « الأقوام » والله أعلم .

قوله تعـالى : وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

فيـــه خمس مسائل :

الأولى ــ قوله تعـالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ هذا نَهْيٌ عن الخُيَلاء وأمرٌ بالتواضع . والمَرَح : شدّة الفرح . وقيل : التكبر في المشى . وقيل : تجاوز الإنسان قدره . وقال قتادة : هو الخيلاء في المشى . وقيل : هو البطر والأَشَر . وقيل : هو النشاط . وهذه الأقوال متقاربة ولكنها منقسمة قسمين : أحدهما مذموم والآخر محمـود ؛ فالتكبّر والبَطَر والخُيَلاء وتجاوز الإنسان قدره مذموم والفرح والنشاط محمود . وقد وصف الله تعالى نفسه بأحدهما ؛ ففى الحديث الصحيح "لَلّهُ أفرح بتوبة العبد من رجل ..." الحديث . والكسل

---

(١) آية ٦٥ سورة يس. (٢) آية ٢٠ سورة فصلت. (٣) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية.

مذموم شرعا والنشاط ضــدّه . وقد يكون التكبر وما فى معناه محمودا ، وذلك على أعداء الله والظلمة . أســند أبو حاتم محمد بن حِبّان عن ابن جابر بن عتيك عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مِن الغَيْرة مايبغض الله عز وجل ومنها مايحب الله عز وجل ومن الخُيَلاء مايحب الله عز وجل ومنها مايبغض الله فأما الغيرة التى يحب الله الغَيْرةُ فى الدِّين والغيرة التى يبغض الله الغيرةُ فى غير دينه والخيلاء التى يحب الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال وعند الصدقة والاختيال الذى يبغض الله الخيلاء فى الباطل " وأخرجه أبو داود فى مصنَّفه وغيره . وأنشــدوا :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا * فكم تحتهــا قوم همو منــك أرفع
وإن كنتَ فى عزٍّ وحِرْز ومَنْعة * فكم مات من قوم همو منك أمنع

الثانيـــة — إقبال الإنسان على الصيد ونحوه ترفُّعاً دون حاجة إلى ذلك داخل فى هذه الآية، وفيه تعذيب الحيوان وإجراؤه لغير معنًى . وأما الرجل يستريح فى اليوم النادر (١) والساعة من يومه ، يجُم فيهــا نفسه فى التطرّح والراحة ليستعين بذلك على شــغل من البر، كقراءة علم أو صلاة، فليس بداخل فى هذه الآية .

قوله تعــالى : ﴿ مَرَحًا ﴾ قراءة الجمهور بفتح الراء . وقراءة فرقة فيما حكى يعقوب بكسر الراء على بنــاء آسم الفاعل . والأوّل أبلغ، فان قولك : جاء زيد رَكْضاً أبلغ من قولك : جاء زيد راكضا؛ فكذلك قولك مَرَحًا . والمرح المصدر أبلغ من أن يقال مَرِحًا .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ﴾ يعنى لن تتولج باطنها فتعلم ما فيها ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ أى لن تساوى الجبال بطولك ولا تطاولك. ويقال : خرق الثوب أى شــقه، وخرق الأرض قطعها . والخرق : الواسع من الأرض . أى لن تخرق الأرض بكبرك ومشيك عليها . ﴿ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ بعظمتك، أى بقدرتك لا تبلغ هذا المبلغ، بل أنت عبد ذليل، محاط بك من تحتك ومن فوقك، والمحاط محصور ضعيف؛ فلا يليق بك

---

(١) فى بعض نسخ الأصل : « فى اليوم البارد » .

التكبر. والمراد بخرق الأرض هنا نقبها لا قطعها بالمسافة؛ والله أعلم. وقال الأزهرى : معناه لن تقطعها. النحاس: وهذا أبين؛ لأنه مأخوذ من الخرق وهى الصحراء الواسعة. ويقال: فلان أخرق من فلان، أى أكثر سفرا وعزة ومَنعة. ويروى أن سَبَأ دوّخ الأرض بأجناده شرقا وغربا وسَهْلا وجبلا، وقتل سادة وسبى — وبه سُمِّىَ سبأ — ودان له الخلق، فلما رأى ذلك انفرد عن أصحابه ثلاثة أيام ثم خرج إليهم فقال : إنى لما نلت مالم ينل أحد رأيت الابتداء بشكر هـذه النعم، فلم أر أوقع فى ذلك من السجود للشمس إذا أشرقت، فسجدوا لها، وكان ذلك أوّل عبادة الشمس؛ فهذه عاقبة الخُيَلاء والتكبر والمرَح، نعوذ بالله من ذلك .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ «ذلك» إشارة إلى جملة ما تقـدّم ذكره مما أمر به ونَهَى عنـه . و « ذلك » يصلح للواحد والجمـع والمؤنث والمذكر . وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة والكسائى ومسروق « سـيِّئُهُ » على إضافة سَيِّئ إلى الضمير، ولذلك قال : « مَكْرُوهًا » نصب على خبر كان . والسيِّئ : هو المكروه، وهو الذى لا يرضاه الله عز وجل ولا يأمر به . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآى من قوله : « وَقَضَى رَبُّكَ — إلى قوله — كان سيِّئُه » مأمورات بهـا ومنهيات عنها ، فلا يخـبر عن الجميع بأنه سيِّئة فيدخل المأمور به فى المنهىّ عنـه . واختار هـذه القراءة أبو عبيد . ولأن فى قراءة أُبَىّ « كلُّ ذٰلِك كان سيئاته » فهـذه لا تكون إلا للإضافة . وقـرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو « سيئةً » بالتنوين؛ أى كل ما نهى الله ورسوله عنـه سيئة . وعلى هـذا انقطع الكلام عنـد قوله : « وَأَحْسَـنُ تَأْوِيلًا » ثم قال : « وَلَا تَقْفُ ما ليسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » ، « وَلَا تَمْشِ » ، ثم قال : « كُلُّ ذلك كان سيِّئةً » بالتنوين . وقيل : إن قوله « ولا تقتلوا أولادكم » إلى هذه الآية كان سيئةً لا حسنة فيـه، فجعلوا « كلا » محيطا بالمنهىّ عنه دون غيره . وقوله : « مكروها » ليس نعتا لسيئة، بل هو بدل منـه؛ والتقدير : كان سيئة وكان مكروها . وقد قيل : إن « مكروها » خبر ثان لكان حمل على لفظة كلّ ، و « سيئة » محمول على المعنى فى جميع هذه الأشياء المذكورة قبلُ . وقال بعضهم : هو نعت لسيئة؛ لأنه لما كان

تأنيثها غير حقيق جاز أن توصف بمذكر . وضعّف أبو على الفارسيّ هذا وقال : إن المؤنث إذا ذُكّر فإنما ينبغى أن يكون ما بعده مذكرا، وإنما التساهل أن يتقدّم الفعل المسند إلى المؤنث وهو فى صيغة ما يسند إلى المذكّر؛ ألا ترى قولَ الشاعر :

فـلا مزنة ودَقَتْ وَدْقَها * ولا أرضَ أبقـل إبقالها

مستقبح عندهم . ولو قال قائل : أبقل أرض لم يكن قبيحا . قال أبو علىّ : ولكن يجـوز فى قوله « مكروها » أن يكون بدلا من « سيئة » . ويجوز أن يكون حالا من الضمير الذى فى « عند ربك » ويكون « عند ربك » فى موضع الصفة لسيئة .

الخامســـة — استدلّ العلماء بهذه الآية على ذمّ الرّقص وتعاطيه . قال الإمام أبو الوفاء ابن عقيل : قـد نصّ القرآن على النّهى عن الرقص فقال : « ولا تمش فى الأرض مَرَحًا » وذم المختال . والرقصُ أشـد المرح والبطر . أو لسنا الذين قِسْنا النبيذ على الخمـر لاتفاقهما فى الإطراب والسكر، فـا بالنا لا نقيس القضيب وتلحين الشّعر معـه على الطُّنبور والمزمار والطّبل لاجتماعهما . فـا أقبح من ذى لِحْية ، وكيف إذا كان شيبةً ، يرقص و يصفّق على إيقاع الألحان والقضبان، وخصوصا إن كانت أصواتُ لنسوان ومردان ، وهل يحسن لمن بين يديه الموت والسـؤال والحشر والصراط ، ثم هو إلى إحدى الدّارين ، يَشْمُس[(١)] بالرقص شمس البهـائم ، و يصفّق تصفيق النسوان ، ولقد رأيت مشايخ فى عمرى ما بان لهم سِنّ من التبسّم فضلا عن الضحك مع إدمان مخالطتى لهم . وقال أبو الفرج ابن الجوزى رحمـه الله : ولقد حدّثنى بعض المشايخ عن الإمام الغزالى رضى الله عنـه أنه قال : الرقص حمـاقة بين الكتفين لا تزول إلا باللعب . وسيأتى لهـذا الباب مزيد بيـان فى « الكهف[(٢)] » وغيرها[(٣)] إن شاء الله تعالى .

---

(١) شمست الدابة : شردت وجمحت .	(٢) فى المسألة الثانية من قوله تعالى : « وربطنا على قلوبهم ... » آية ١٤	(٣) فى أول سورة لقمان .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ ﴾

الإشارة بـ«ذلك» إلى هذه الآداب والقصص والأحكام التى تضمنتها هذه الآيات المتقدمة التى نزل بها جبريل عليه السلام . أى هذه من الأفعال المحكمة التى تقتضيها حكمة الله عز وجل فى عباده، وخلقها لهم من محاسن الأخلاق والحكمة وقوانين المعانى المحكمة والأفعال الفاضلة . ثم عطف قوله « ولا تجعل » على ما تقدّم من النواهى . والخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم والمرادُ كلُّ من سمع الآية من البشر . والمدحور : المُهان المبعد المُقْصَى . وقد تقدّم فى هذه السورة . ويقال فى الدعاء : اللهم ادْحر عنا الشيطان؛ أى أبعده .(1)

قوله تعالى : ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا يردّ على من قال من العرب : الملائكة بنات الله ، وكان لهم بنات أيضا مع البنين، ولكنه أراد : أفأخلص لكم البنين دونه وجعل البنات مشتركة بينكم و بينه . ﴿ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴾ أى فى الإثم عند الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا ﴾ أى بيّنا . وقيل كررنا . ﴿ فى هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ قيل « فى » زائدة، والتقدير : ولقد صرفنا هذا القرآن؛ مثلُ « وأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي» أى أصلح ذريتى . والتصريف : صرف الشىء من جهة إلى جهة . والمراد بهـذا التصريف البيان والتكرير . وقيل : المغايرة؛ أى غايرنا بين المواعظ ليذّكروا و يعتبروا و يتّعظوا . وقراءة العامة « صَرّفنا »

(1) راجع ص ٢٣٥ من هذا الجزء .

بالتشـديد على التكثير حيث وقع . وقرأ الحسن بالتخفيف . وقوله « فى هـذا القرآن » يعنى الأمثال والعِبَر والحِكَم والمواعظ والأحكام والإعلام . قال الثعلبى : سمعت أبا القاسم الحسين يقول بحضرة الإمام الشيخ أبى الطيب : لقوله تعـالى « صرفنا » معنيان ؛ أحدهما لم يجعله نوعا واحدا بل وعدا ووعيدا ومُحْكَما ومتشابها ونهيا وأمرا وناسخـا ومنسوخا وأخبارا وأمثالا ؛ مثل تصريف الرياح من صَبًا ودَبُور وجنوب وشمال ، وتصريف الأفعال من المـاضى والمستقبل والأمر والنّهى والفعل والفاعل والمفعول ونحوها . والثانى أنه لم ينزل مرة واحدة بل نجوما ؛ نحو قوله « وقرآنا فرقناه » ومعناه : أكثرنا صرف جبريل عليـه السلام إليك . ﴿ ليذَّكَّروا ﴾ قراءة يحيى والأعمش وحمزة والكسائى « ليَذْكُروا » مخفّفا ، وكذلك فى الفرقان « ولقد صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذكروا »[1] . الباقون بالتشديد . واختاره أبو عبيد ؛ لأن معناه ليتذكروا وليتعظوا . قال المَهْدوىّ : من شدّد « ليَذَّكّروا » أراد التدبر . وكذلك من قرأ « لِيَذْكُروا » . ونظير الأول « وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرونَ »[2] والثانى — « وَاذْكُرُوا ما فيه »[3] . ﴿ وَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ أى التصريف والتذكير . ﴿ إِلَّا نُفُورًا ﴾ أى تباعدا عن الحق وغفلة عن النظر والاعتبار ؛ وذلك لأنهم اعتقدوا فى القرآن أنه حيلة وسحر وكهانة وشعر .

قوله تعـالى : قُـلْ لَّوْ كَانَ مَعَــهُۥٓ ءَالِهَـةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ﴾ هذا متصل بقوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ » وهو ردّ على عُبّاد الأصنام . ﴿ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ قرأ ابن كثير وحفص « يقولون » بالياء . الباقون « تقولون » بالتاء على الخطاب . ﴿ إِذًا لَابْتَغَوْا ﴾ يعنى الآلهـة . ﴿ إِلَى ذِى الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ قال ابن العباس رضى الله تعالى عنهما : لطلبوا مع الله منازعة وقتالا كما تفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض . وقال سـعيد بن جُبير رضى الله تعالى عنه : المعنى إذًا لطلبوا

---

(١) آية ٥٠ .　　(٢) آية ٥١ سورة القصص .　　(٣) آية ٦٣ سورة البقرة .

طريقا إلى الوصــول إليه ليزيلوا ملكه ، لأنهــم شركاؤه . وقال قَتادة : المعنى إذًا لآبتغتْ الآلهة القُرْبة إلى ذى العرش سبيلا ، والتمست الزُّلْفة عنده لأنهم دونه ، والقوم آعتقدوا أن الأصنام تقربهم إلى الله زلفى، فإذا آعتقدوا فى الأصنام أنها محتاجة إلى الله سبحانه وتعالى فقد بطل أنها آلهة . ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ نزّه سبحانه نفسه وقدّســه ومجده عما لا يليق به . والتسبيح : التنزيه . وقد تقدّم[1] .

قوله تعـالى : تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل، لمـا أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح . وقوله : ﴿ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمّ بعــد ذلك الأشـياء كلّها فى قوله : « وإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ » . واختلف فى هــذا العموم ، هل هو مخصّص أم لا ؛ فقالت فرقة : ليس مخصوصا والمراد به تسبيح الدلالة ، وكل محــدَث يشهد على نفســه بأن الله عز وجل خالق قادر . وقالت طـائفة : هــذا التسبيح حقيقة ، وكلّ شىء على العموم يسبّح تسبيحا لا يسمعه البشر ولا يفقهه ، ولو كان ما قاله الأوّلون من أنه أثر الصنعة والدلالة لكان أمرا مفهوما، والآية تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفقه . وأجيبوا بأن المراد بقوله : « لا تفقهون » الكفارُ الذين يعرضون عن الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله سبحانه وتعالى فى الأشياء . وقالت فرقة : قوله « مِنْ شَيْءٍ » عموم، ومعناه الخصوص فى كل حَىٍّ ونامٍ، وليس ذلك فى الجمادات . ومن هذا قول عكرمة : الشجرة تسبح والأسطوان لا يسبّح . وقال يزيد الرَّقَاشِىّ للحسن وهما فى طعام وقد قُدِّم الخِوان : أيسبّح هــذا الخِوان يا أبا سعيد ؟ فقال : قد كان يسبح مرّة ؛ يريد أن الشجرة فى زمن ثمرها واعتدالها كانت تسبّح ، وأما الآن فقد صار خِوانا مدهونا .

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ طبعة ثانية أو ثالثة .

قلت : ويستدلّ لهذا القول من السُّنّة بما ثبت عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال : "إنهما لَيُعَذَّبان وما يُعَذَّبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشى بالنَّميمة وأما الآخر فكان لا يستبرئ من البول" قال : فدعا بعَسيب رَطْب فشقّه آثنين، ثم غرس على هذا واحدا وعلى هذا واحدا ثم قال : "لعلّه يخفّف عنهما ما لم يَيْبَسَا". فقوله عليه الصلاة والسلام . "ما لم ييبسا" إشارة إلى أنهما ما داما رطبين يسبّحان، فإذا يبسا صارا جمادا . والله أعلم . وفى مسند أبى داود الطّيالسى : فوضع على أحدهما نصفا وعلى الآخر نصفا وقال : "لعله أن يهوّن عليهما العذاب ما دام فيهما من بلولتهما شىء" . قال علماؤنا : ويستفاد من هذا غرس الأشجار وقراءة القرآن على القبور، وإذا خُفف عنهم بالأشجار فكيف بقراءة الرجل المؤمن القرآن . وقد بينا هذا المعنى فى (كتاب التذكرة) بيانا شافيا، وأنه يصل إلى الميت ثواب ما يُهْدَى إليه . والحمد لله على ذلك . وعلى التأويل الثانى لا يحتاج إلى ذلك؛ فإن كل شىء من الجماد وغيره يسبح .

قلت : ويستدلّ لهذا التأويل وهذا القول من الكتاب بقوله سبحانه وتعالى : «وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ . إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ»[1]، وقوله : «وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ»[2] — على قول مجاهد — ، وقوله : «وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا»[3] . وذكر ابن المبارك فى (دقائقه) أخبرنا مِسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف بن عبد الله قال قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : إن الجبل يقول للجبل : يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرٌ لله عز وجل ؟ فإن قال نعم سُرّ به . ثم قرأ عبد الله «وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا» الآية . قال : أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير . وفيه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : ما من صباح ولا رواح إلا تنادى بقاع الأرض بعضها بعضا : يا جاراه، هل مَرّ بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر اللهَ عليك ؟ فمن قائلة لا ، ومن قائلة نعم ، فإذا قالت نعم رأت لها بذلك فضلا عليها . وقال رسول الله صلى

---

(١) آية ١٧ سورة ص .　　(٢) آية ٧٤ سورة البقرة .　　(٣) آية ٩٠ سورة مريم .

الله عليه وسلم : "لا يَسمع صـوتَ المؤذن جِنٌّ ولا إنس ولا شجر ولا حَجَر ولا مَدَر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة" . رواه ابن ماجه فى سننه ، ومالك فى موطّئه من حديث أبى سعيد الخُدْرىّ رضى الله عنـه . وخرّج البخارىّ عن عبـد الله رضى الله عنه قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل . فى غير هذه الرواية عن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه : كنا نأكل مع رسول الله صـلى الله عليه وسلم الطعام ونحن نسمع تسبيحه . وفى صحيح مسلم عن جابر بن سَمُرَة رضى الله عنه قال قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن" . قيل : إنه الحجر الأسود، والله أعلم . والأخبار فى هـذا المعنى كثيرة ؛ وقد أتينا على جمـلة منها فى اللّمع اللؤلؤية فى شرح العشرنيات النبوية للفادارى رحمه الله ، وخبر الجذع أيضا مشهور فى هذا الباب خرّجه البخارى فى مواضع من كتابه . وإذا ثبت ذلك فى جماد واحد جاز فى جميع الجمادات ، ولا آستحالة فى شىء من ذلك ؛ فكل شىء يسبح للعموم . وكذا قال النَّخَعِىّ وغيره : هو عام فيما فيه روح وفيما لا روح فيه حتى صرير الباب . واحتجّوا بالأخبار التى ذكرنا . وقيل : تسبيح الجمادات أنها تدعو الناظر إليها إلى أن يقول : سبحان الله ! لعدم الإدراك منها . وقال الشاعر :

تُلْقَى بتسبيحة من حيث ما انصرفت * وتَسـتقر حَشَـا الرائى بتَرْعادِ

أى يقول من رآها : سـبحانَ خالقها . فالصحيح أن الكل يسـبّح للأخبار الدالة على ذلك ولو كان ذلك التسبيح تسبيح دلالة فأىّ تخصيص لداود ، وإنمـا ذلك تسـبيح المقال بخلق الحياة والإنطاق بالتسبيح كما ذكرنا . وقد نصّت السنة على مادل عليه ظاهر القرآن من تسبيح كل شىء فالقول به أَوْلى . والله أعلم . وقرأ الحسن وأبو عمـرو ويعقوب وحفص وحمـزة والكسائى وخَلَف «تفقهون» بالتاء لتأنيث الفاعل . الباقون باليـاء، واختاره أبو عبيـد ، قال : للحائل بين الفعل والتأنيث . ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا﴾ عن ذنوب عباده فى الدنيا . ﴿غَفُورًا﴾ للمؤمنين فى الآخرة .

قوله تعالى : وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » أقبلت العَوْراءُ أُمُّ جميل بنت حرب ولها وَلْوَلة وفي يدها فِهْر(١) وهي تقول :

* مُذَمَّمًا عَصَيْنَا * وأَمْرَه أَبَيْنَا * وَدِينَه قَلَيْنَا(٢) *

والنبيّ صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه؛ فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله، لقد أقبلتْ وأنا أخاف أن تراك! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنها لن تراني " وقرأ قرآنا فاعتصم به كما قال . وقرأ « وإذا قَرَأْتَ القرآنَ جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مَسْتُورًا » . فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا أبا بكر، أُخبِرتُ أن صاحبك هجاني ! فقال : لا وربِّ هذا البيت ما هجاك . قال : فولّت وهي تقول : قد علمتْ قريش أني ابنة سيدها . وقال سعيد بن جُبير رضي الله عنه : لما نزلت «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» جاءت امرأة أبي لهب إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فقال أبو بكر : لو تَنَحَّيْتَ عنها لئلا تُسمِعَك ما يؤذيك ، فإنها امرأة بذِيّة . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنه سيحال بيني وبينها " فلم تره . فقالت لأبي بكر: يا أبا بكر، هجانا صاحبك! فقال : واللهِ ما ينطق بالشعر ولا يقوله . فقالت : وإنك لمصدّقه؛ فاندفعت راجعة . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله، أَمَا رأتك؟ قال: "لا . ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت". وقال كعب رضي الله عنه في هذه الآية : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستتر من المشركين بثلاث آيات : الآية التي في الكهف « إِنَّا جَعَلْنَا على قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا(٣) »، والآية التي في النحل

---

(١) الفهر (بالكسر) : الحجر ملء الكف . وقيل : هو الحجر مطلقا .　(٢) هذا ما ورد في سيرة ابن هشام . والذي في نسخ الأصل :　مذمما أبينا * ودينه قلينا　(٣) آية ٥٧

« أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ »(١) ، والآية التى فى الجاثية(٢) « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً(٣) » الآية . فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا قرأهن يستتر من المشركين . قال كعب رضى الله تعالى عنه : فحدّثت بهن رجلا من أهـل الشام ، فأتى أرض الروم فأقام بها زمانا ، ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن فصاروا يكونون معه على طريقه ولا يبصرونه . قال الثعلبى(٤) : وهذا الذى يروُونه عن كعب حدّثت به رجلا من أهل الرىّ فأسر بالدَّيْلَم ، فمكث زمانا ثم خرج هاربا فخرجوا فى طلبه فقرأ بهن حتى جعلت ثيابهن لتلمس ثيابه فما يبصرونه .

قلت : ويزاد إلى هذه الآى أوّلُ سورة يس إلى قوله «فهم لايبصرون» . فإن فى السيرة فى هجرة النبىّ صلى الله عليـه وسلم ومقامِ علىّ رضى الله عنه فى فراشه قال : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حَفْنة من تراب فى يده ، وأخذ الله عز وجل على أبصارهم عنه فلا يَرَوْنه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رءوسهم وهو يتلو هذه الآيات من يس : « يس . وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . — إلى قوله — وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ » . حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من هـذه الآيات ، ولم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

قلت : ولقد اتفق لى ببلادنا الأندلس بحصن منثور(٥) من أعمال قرطبة مثل هذا . وذلك أنى هربت أمام العـدوّ وانحزت إلى ناحية عنـه ، فلم ألبث أن خرج فى طلبى فارسان وأنا فى فضاء من الأرض قاعد ليس يسترنى عنهما شىء ، وأنا أقرأ أول سورة يس وغير ذلك من القرآن ؛ فعبرا علىّ ثم رجعا من حيث جاءا وأحدهما يقول للآخر: هذا دِيبْلُه(٦) ؛ يعنون شيطانا . وأعمى الله عز وجل أبصارهم فلم يرونى ، والحمد لله حمدا كثيرا على ذلك . وقيـل : الحجاب

(١) آية ١٠٨ (٢) فى الأصـول : « فى الشورى » وهو خطأ . (٣) آية ٢٣
(٤) فى بعض الأصول : «الكلبى» . (٥) كذا فى الأصول . (٦) ضبطناها بذلك لأنها ينطق بها فى الاسبانية «ديبلو» ( بكسر الدال وفتح الياء وسكون الباء الموحدة وضم اللام ) .

المستور طَبْعُ اللهِ على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة؛ قاله قتادة . وقال الحسن : أى أنهم لإعراضهم عن قراءتك وتغافلهم عنك كمن بينك وبينه حجاب فى عدم رؤيته لك حتى كأن على قلوبهم أغطية . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ القرآن، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل آمرأة أبى لهب وحُوَيطب؛ فحجب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يمرّون به ولا يرونه؛ قاله الزجاج وغيره . وهو معنى القول الأول بعينه، وهو الأظهر فى الآية، والله أعلم . وقوله : ﴿ مَسْتُورًا ﴾ فيه قولان : أحدهما — ان الحجاب مستور عنكم لا ترونه . والثانى — أن الحجاب ساتر عنكم ما وراءه؛ ويكون مستورا بمعنى ساتر.

قوله تعالى : وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ « اكنة » جمع كِنان، وهو ماستر الشىء . وقد تقدم فى « الأنعام » (١) . ﴿ أَنْ يَفْقَهُوه ﴾ أى لئلا يفقهوه، أوكراهية أن يفقهوه، أى أن يفهموا ما فيه من الأوامر والنواهى والحكم والمعانى . وهذا ردّ على القدرية . ﴿ وَفِى آذانِهِمْ وَقْرًا ﴾ أى صمما وثقلا . وفى الكلام إضمار، أى أن يسمعوه . ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْآنِ وَحْدَهُ ﴾ أى قلت : لا إله إلا الله وأنت تتلو القرآن . وقال أبو الجَوْزاء أَوْس بن عبد الله : ليس شىء أطْرَدَ للشيطان من القلب من قول لا إله إلا الله، ثم تلا « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوا على أدبارهم نُفُورًا » . وقال على بن الحسين : هو قوله بسم الله الرحمن الرحيم . وقد تقدم هذا فى البسملة . ﴿ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴾ قيل : يعنى بذلك المشركين . وقيل الشياطين . و « نُفُورًا » جمع نافر؛ مثل شهود جمع شاهد، وقعود جمع قاعد، فهو منصوب على الحال . ويجوز أن يكون مصدرا على غير الصدر؛ إذ كان قوله « وَلَّوْا » بمعنى نفروا، فيكون معناه نفروا نفورا .

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٠٤ طبعه أولى أو ثانية .

قوله تعالى : نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ قيل : الباء زائدة في قوله « به » أي يستمعونه . وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم القرآن ثم ينفرون فيقولون : هو ساحر ومسحور؛ كما أخبر الله تعالى به عنهم ؛ قاله قتادة وغيره . ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى ﴾ أي متناجون في أمرك . قال قتادة : وكانت نجواهم قولهم إنه مجنون وإنه ساحر وإنه يأتي بأساطير الأولين ، وغير ذلك . وقيل : نزلت حين دعا عُتْبة أشرافَ قريش إلى طعام صنعه لهم ، فدخل عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى الله ؛ فتناجوا ؛ يقولون ساحر ومجنون . وقيل : أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم عليًّا أن يتخذ طعاما ويدعو إليه أشراف قريش من المشركين ؛ ففعل ذلك عليّ ودخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ودعاهم إلى التوحيد، وقال: " قولوا لا إله إلا الله لتطيعكم العرب وتدين لكم العجم " فأبَوْا ، وكانوا يستمعون من النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقولون بينهم متناجين : هو ساحر وهو مسحور ؛ فنزلت الآية . وقال الزجاج : النَّجْوَى اسم للمصدر؛ أي وإذ هم ذو نجوى ، أي سرار . ﴿ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ ﴾ أبو جهل والوليد بن المُغيرة وأمثالها . ﴿ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ أي مَطْبُوبا قد خبله السحر فاختلط عليه أمره ، يقولون ذلك لينفروا عنه الناس . وقال مجاهد : « مسحورا » أي مخدوعا، مثل قوله : « فَأَنَّى تُسْحَرُونَ »[(1)] أي من أين تخدعون . وقال أبو عبيدة : «مسحورا» معناه أن له سَحْرًا ، أي رئة ، فهو لا يستغني عن الطعام والشراب ؛ فهو مثلكم وليس بملك . وتقول العرب للجبان : قد انتفخ سَحْره . ولكل من أكل من آدمي وغيره أو شرب مسحور ومُسَحَّر . قال لبيد :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا * عصافيرُ من هذا الأنام المُسَحَّرِ

---

(1) آية ٨٩ سورة المؤمنون .

وقال امرؤ القيس :

أرانا مُوضِعين لأمرِ غَيْبٍ[1] * ونُسْحَر بالطعام وبالشّرابِ

أى نُغَـذّى ونُعَلّل . وفى الحـديث عن عائشـة رضى الله عنها أنهـا قالت : مَن هـذه التى تُساميني من أزواج النبي صلى الله عليـه وسلم، وقد تُوُفِّيَ رسول الله صلى الله عليـه وسلم بين سَحْرِى ونَحْرِى[2] .

قوله تعـالى : ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ﴾ عجّبه من صنعهم كيف يقولون تارةً ساحر وتارة مجنون وتارة شاعر . ﴿ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ أى حِيلةً فى صـدّ الناس عنك . وقيل : ضَلُّوا عن الحق فلا يجدون سبيلا، أى إلى الهدى . وقيل : مخرجا؛ لتناقض كلامهم فى قولهم : مجنون، ساحر، شاعر .

قوله تعـالى : وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَـٰمًا وَرُفَـٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا ائِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ أى قالوا وهم يتناجَوْن لمـا سمعوا القرآن وسمعوا أمر البعث: لو لم يكن مسحورا مخدوعا لمـا قال هذا . قال ابن عباس : الرُّفات الغبار. مجاهد : التراب . والرفات ما تكسّر وبَلِيَ من كل شيء؛ كالفُتات والحُطام والرُّضاض؛ عن أبي عبيـدة والكسائيّ والفَرّاء والأخفش . تقول منه : رُفِتَ الشيء رَفْتًا ، أى حُطِم ؛ فهو مرفوت . ﴿ أَئِنَّـا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدا ﴾ « أئنا » اسـتفهام والمراد به الجَحْد والإنكار . و « خلقا » نصب لأنه مصدر؛ أى بعثا جديدا . وكان هذا غايةَ الإنكار منهم .

---

(١) أوضع الرجل فى السير إذا أسرع . وقوله «لأمر غيب» يريد الموت، وأنه قد غيّب عنا وقته ونحن نلهى عنه بالطعام والشراب.

(٢) تريد أنه مات صلى الله عليه وسلم وهو مستند إلى صدرها وما يحاذى سحرها (وهو الرئة).

قوله تعالى : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ أى قل لهم يا محمد كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدا فى الشدّة والقوة . قال الطبرى : أى إن عجبتم من إنشاء الله لكم عظاما ولحما فكونوا أنتم حجارة أو حديدا إن قدرتم . وقال علىّ بن عيسى : معناه أنكم لو كنتم حجارة أو حديدا لم تفوتوا الله عز وجل إذا أرادكم؛ إلا أنه خرج مخرج الأمر، لأنه أبلغ فى الإلزام . وقيل : معناه لو كنتم حجارة أو حديدا لأعادكم كما بدأكم، ولأماتكم ثم أحياكم . وقال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون . النحاس : وهذا قول حسن؛ لأنهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة ، وإنما المعنى أنهم قد أقروا بخالقهم وأنكروا البعث فقيل لهم استشعروا أن تكونوا ماشئتم ، فلو كنتم حجارة أو حديدا لبُعثتم كما خُلقتم أوّل مرة . ﴿أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال مجاهد : يعنى السموات والأرض والجبال لعظمها فى النفوس . وهو معنى قول قتادة . يقول : كونوا ما شئتم ، فإن الله يميتكم ثم يبعثكم . وقال ابن عباس وابن عمر وعبد الله بن عمرو ابن العاص وابن جُبير ومجاهد أيضا وعكرمة وأبو صالح والضحاك : يعنى الموت ؛ لأنه ليس شىء أكبر فى نفس ابن آدم منه ؛ قال أميّة بن أبى الصلت :

* وللمَوْتُ خَلْق فى النفوس فظيع *

يقول . إنكم لو خُلقتم من حجارة أو حديد أو كنتم الموت لأميتنّكم ولأبعثنكم ؛ لأن القدرة التى بها أنشأتكم بها نعيدكم . وهو معنى قوله : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ . وفى الحديث أنه " يؤتى بالموت يوم القيامة فى صورة كَبْش أَمْلَح فيذبح بين الجنة والنار " . وقيل : أراد به البعث؛ لأنه كان أكبر فى صدورهم؛ قاله الكلبى . ﴿فَطَرَكُمْ﴾ خلقكم وأنشأكم . ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أى يحركون رءوسهم استهزاء ؛ يقال :

نَغَض رأسُه يَنْغُض ويَنْغِض نَغْضاً ونُغُوضا؛ أى تحرّك . وأنغض رأسه أى حركه، كالمتعجب من الشيء؛ ومنه قوله تعالى : « فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ » .

قال الراجـز :

* أنغض نحوى رأسه وأقنعا[1] *

ويقال أيضا : نغض فلان رأسه أى حرّكه؛ يتعـدّى ولا يتعدّى ، حكاه الأخفش .

ويقال : نَغَضت سِنّه ؛ أى تحركت وانقلعت .

قال الراجـز :

* ونغضت من هَرَم أسنانها *

وقال آخـر :

* لمـا رأتنى أنغضتُ لِى الرأسا *

وقال آخـر :

لا ماء فى المَقْراة إن لم تنهض * بمَسَـدٍ فوق المَحَـالِ النُّغَّض

المحال والمحالة : البكرة العظيمة التى يستقى بهـا الإبل . ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ﴾ أى البعث والإعادة وهـذا الوقت . ﴿ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ أى هو قريب؛ لأن عسى واجب؛ نظيره « وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً[2] » . و « لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ[3] » . وكل ما هو آت فهو قريب .

قوله تعـالى : يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِه ﴾ الدعاء : النداء إلى المحشر بكلام تسمعه الخلائق ، يدعوهم الله تعالى فيه بالخروج . وقيل : بالصيحة التى يسمعونها؛ فتكون داعية لهم إلى الاجتماع فى أرض القيامة . قال صلى الله عليه وسلم : " إنكم تُدْعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم " . ﴿ فَتَسْتَجِيبونَ بِحَمْدِه ﴾ أى باستحقاقه الحمـد على الإحياء .

---

(١) أقنع فلان رأسه : وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء .　(٢) آية ٦٣ سورة الأحزاب .　(٣) آية ١٧ سورة الشورى .

وقال أبو سهل : أى والحمد لله؛ كما قال :

فإنى بحمـد الله لا ثوب فاجر * لبِسْتُ، ولا من غَدْرة أتقنّع

وقيل: حامدين لله تعالى بألسنتكم . قال سعيد بن جُبير: تخرج الكفار من قبورهم وهم يقولون سبحانك وبحمـدك ؛ ولكن لا ينفعهم اعتراف ذلك اليوم . وقال ابن عباس : « بحمـده » بأمره ؛ أى تقرّون بأنه خالقكم . وقال قتادة : بمعرفته وطاعته . وقيـل : المعنى بقدرته . وقيـل : بدعائه إياكم . قال علماؤنا : وهو الصحيح ؛ فإن النفخ فى الصور إنمـا هو سبب لخروج أهل القبور؛ وبالحقيقة إنمـا هو خروج الخلق بدعوة الحق، قال الله تعالى : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » فيقومون يقولون سبحانك اللهم وبحمدك . قال: فيوم القيامة يوم يُبدأ بالحمد ويُختم به؛ قال الله تعالى «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » وقال فى آخره « وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[(1)]. ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعنى بين النفختين؛ وذلك أن العذاب يُكفّ عن المعذَّبين بين النفختين، وذلك أربعون عاما فينامون؛ فذلك قوله تعالى : «مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا »[(2)] فيكون خاصا للكفار . وقال مجاهد : للكافرين هَجْعة قبل يوم القيامة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صِيح بأهـل القبور قاموا مذعورين . وقال قتادة : المعنى أن الدنيا تحاقرت فى أعينهم وقلّت حين رأوا يوم القيامة . الحسن : «وَتَظُنُّون إن لبثتم إلا قليلا» فى الدنيا لطول لبثكم فى الآخرة .

قوله تعـالى : وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[(3)] تقـدّم إعرابه . والآية نزلت فى عمر بن الخطاب . وذلك أن رجلا من العرب شتمه ، وسبّه عمر وهمّ بقتله ، فكادت تثير فتنة فأنزل الله تعالى فيه : « وَقُلْ لِعِبادِى يقولوا التى هِى أحسن » ذكره الثعلبىّ والمـاوَرْدِىّ

(١) آية ٧٥ سورة الزمر . (٢) آية ٥٢ سورة يس . (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٦٦ طبعة أولى أو ثانية .

وابن عطية والواحدي. وقيل : نزلت لما قال المسلمون : ايذن لنا يا رسول الله في قتالهم فقد طال إيذاؤهم إيانا ، فقال : "لم أُومَرْ بعدُ بالقتال" فأنزل الله تعالى « وقل لِعبادِي يقولوا الّتِي هِي أحسن » ؛ قاله الكلبي . وقيل : المعنى قل لعبادى الذين اعترفوا بأنى خالقهم وهم يعبدون الأصنام، يقولوا التى هى أحسن من كلمة التوحيد والإقرار بالنبوة . وقيل : المعنى وقل لعبادى المؤمنين إذا جادلوا الكفار فى التوحيد، أن يقولوا الكلمة التى هى أحسن . كما قال : « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »(١) . وقال الحسن: هو أن يقول للكافر إذا تشطط : هداك الله ! يرحمك الله! وهذا قبل أن أمروا بالجهاد . وقيل : المعنى قل لهم يأمروا بما أمر الله به وينهوا عما نهى الله عنه؛ وعلى هذا تكون الآية عامّةً فى المؤمن والكافر، أى قل للجميع . والله أعلم . وقالت طائفة : أمر الله تعالى فى هذه الآية المؤمنين فيما بينهم خاصّةً، بحسن الأدب وإلانة القول، وخفض الجناح وٱطّراح نزغات الشيطان؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم : "وكونوا عباد الله إخوانا" . وهذا أحسن، وتكون الآية محكمة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى بالفساد وإلقاء العداوة والإغواء . وقد تقدّم فى آخر الأعراف ويوسف(٢) . يقال : نزغ بيننا أى أفسد؛ قاله اليزيدى . وقال غيره: النزغ الإغراء . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ أى شديد العداوة . وقد تقدّم فى البقرة(٣) . وفى الخبر "أن قوما جلسوا يذكرون الله عز وجل فجاء الشيطان ليقطع مجلسهم فمنعته الملائكة فجاء إلى قوم جلسوا قريبا منهم لا يذكرون الله فحرّش بينهم فتخاصموا وتواثبوا فقال هؤلاء الذاكرون قوموا بنا نصلح بين إخواننا فقاموا وقطعوا مجلسهم وفرح بذلك الشيطان" . فهذا من بعض عداوته .

---

(١) آية ١٠٨ سورة الأنعام .	(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٤٧ وجـ ٩ ص ٢٦٧ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠٩ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ هذا خطاب للشركين، والمعنى : إن يشأ يوفقكم للإســلام فيرحمكم، أو يميتكم على الشرك فيعذبكم ؛ قاله ابن جُريج . و « أعلم » بمعنى عليم؛ نحو قولهم : الله أكبر، بمعنى كبير . وقيــل : الخطاب للؤمنين؛ أى إن يشأ يرحمكم بأن يحفظكم من كفار مكة، أو إن يشأ يعذبكم بتسليطهم عليكم؛ قاله الكلبي . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أى وما وكّلناك فى منعهم من الكفر ولا جعلنا إليك إيمانهم . وقيل : ما جعلناك كفيلا لهم تؤخذ بهم؛ قاله الكلبي . وقال الشاعر :

ذكرت أبا أَرْوَى فبتّ كأننى * بردّ الأمور الماضيات وكيل

أى كفيل .

قوله تعـالى : وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾ أعاد بعد أن قال : « ربكم أعلم بكم » ليبيّن أنه خالقهم وأنه جعلهم مختلفين فى أخلاقهم وصورهم وأحوالهم ومالهم؛ « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ »[1] . وكذا النبيّون فضّل بعضهم على بعض عن علم منه بحالهم . وقد مضى القول فى هــذا فى « البقرة »[2] . ﴿ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ الزبور : كتاب ليس فيه حلال ولا حرام، ولا فرائض ولا حدود ؛ وإنما هو دعاء وتحميد وتمجيد . أى كما آتينا داود الزبور فلا تنكروا أن يؤتى محمد القرآن . وهو فى مُحاجّة اليهود .

قوله تعـالى : قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾

(١) آية ١٤ سورة الملك . (٢) راجع ج ٣ ص ٢٦١ وما بعدها .

قوله تعـالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ لمـا ابتليت قريش بالقَحْط وشَكُوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية ؛ أى ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلهة . وقال الحسن : يعنى الملائكة وعيسى وعزيرا . ابن مسعود : يعنى الجن . ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ ﴾ أى القحط سبع سنين، على قول مقاتل . ﴿ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ من الفقر إلى الغنى ومن السَّقَم إلى الصحة .

قوله تعـالى : أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أولئك الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ « أولئك » مبتدأ « الذين » صفة « أولئك » وضمير الصلة محذوف؛ أى يدعونهم . يعنى أولئك المدعوّون . و﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ خبر، أو يكون حالا ، و « الَّذِينَ يَدْعُون » خبر؛ أى يدعون إليـه عبادا إلى عبادته . وقرأ ابن مســعود « تدعون » بالتاء على الخطاب . الباقون بالياء على الخـبر . ولا خلاف فى « يبتغون » أنه بالياء . وفى صحيح مسلم من كتاب التفسير عن عبدالله بن مسعود فى قوله عز وجل : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوَسِيلة » قال : نفر من الجن أسـلموا وكانوا يعبدون ، فبقِيَ الذين كانوا يَعبدون على عبادتهم وقد أسلم النفر من الجن . فى رواية قال : نزلت فى نفر من العرب كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون و[ الإنس ][1] الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون؛ فنزلت « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسـيلة » . وعنه أيضا أنهم الملائكة كانت تعبدهم قبائل من العرب؛ ذكره المـاوردى . وقال ابن عباس ومجـاهد : عُزير وعيسى . و« يبتغون » يطلبون من الله الزلفة والقربة، ويتضرعون إلى الله تعالى فى طلب الجنة، وهى الوسيلة . أعلمهم الله تعالى أن المعبودين يبتغون القربة إلى ربهم . والهاء والميم فى « ربهم » تعـود على العابدين أو على المعبودين أو عليهـم جميعا . وأما « يدعون » فعلى العـابدين . « ويبتغون » على المعبودين . ﴿ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ ابتداء وخبر . ويجوز أن يكون « أيهم أقرب »

(١) زيادة عن صحيح مسلم .

بدلا من الضـمير فى « يبتغون » ، والمعنى يبتغى أيهم أقرب الوسـيلة إلى الله . ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ أى مخوفا لا أمان لأحد منه ؛ فينبغى أن يُحذر منـه ويُخاف . وقال سهل بن عبد الله : الرجاء والخوف زمانان على الإنسـان ، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجح أحدهما بطل الآخر .

قوله تعـالى : وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا ﴾ أى مخربوها . ﴿ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ قال مقاتل : أما الصالحة فبالموت ، وأما الطالحة فبالعذاب . وقال ابن مسعود : إذا ظهر الزنى والربا فى قرية أذن الله فى هلاكهم . فقيـل : المعنى وإن من قرية ظالمة ؛ يقوّى ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ »[(١)] . أى فليتق المشركون ، فإنه ما من قرية كافرة إلا سيحل بهـا العذاب . ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ ﴾ أى فى اللّوح . ﴿ مَسْطُورًا ﴾ أى مكتوبا . والسطر : الخط والكتابة وهو فى الأصل مصدر . والسَّطَر (بالتحريك) ، مثله . قال جرير :

من شاء بايعتـه مالى وخُلْعَتَه * ما تُكْمِل التَّيْمُ[(٢)] فى ديوانهم سَطَرَا

الخلعة (بضم الخاء) : خيار المال . والسطر جمع أسطار ، مثل سبب وأسباب ، ثم يجمع على أساطير . وجمع السطر أسـطر وسطور ، مثل أفلس وفلوس . والكتاب هنا يراد به اللوح المحفوظ .

قوله تعـالى : وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

(١) ٥٩ سورة القصص . (٢) فى ديوان جرير : « ما تكمل الخُلج » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ فى الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا أن نرسل بالآيات التى اقترحوها إلا أن يكذبوا بها فيهلكوا كما فُعِل بمن كان قبلهم . قال معناه قَتادة وابن جُريج وغيرهما . فأخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه أن فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا . وقد تقدّم فى « الأنعام » وغيرها أنهم طلبوا أن يحوّل الله لهم الصَّفَا ذهبا وتُنحّى الجبال عنهم؛ فنزل جبريل وقال : "إن شئت كان ما سأل قومك ولكنهم إن لم يؤمنوا لم يمهلوا . وإن شئت استأنيت بهم" . فقال : "لا ، بل استأن بهم" . و « أن » الأولى فى محل نصب بوقوع المنع عليهم، و «أن» الثانية فى محل رفع . والباء فى « بالآيات » زائدة . ومجاز الكلام : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأوّلين، والله تعالى لا يكون ممنوعا عن شيء؛ فالمعنى المبالغة فى أنه لا يفعل ، فكأنه قد منع عنه . ثم بيّن ما فعل بمن سأل الآيات فلم يؤمن بها فقال : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ أى آية دالة مضيئة نيّرة على صدق صالح ، وعلى قدرة الله تعالى . وقد تقدّم ذلك[1] . ﴿ فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ أى ظلموا بتكذيبها . وقيل : جحدوا بها وكفروا أنها من عند الله فاستأصلهم الله بالعذاب . ﴿ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ فيه خمسة أقوال : الأوّل — العبر والمعجزات التى جعلها الله على أيدى الرسل من دلائل الإنذار تخويفا للمكذّبين . الثانى — أنها آيات الانتقام تخويفا من المعاصى . الثالث — أنها تقلب الأحوال من صغر إلى شباب ثم إلى تكهّل ثم إلى مشيب، لتعتبر بتقلب أحوالك فتخاف عاقبة أمرك؛ وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنه . الرابع — القرآن . الخامس — الموت الذّريع[2]؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٨ و جـ ٩ ص ٦٠ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى السريع الفاشى لا يكاد الناس يتدافنون .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ﴾ قال ابن عباس : الناس هنا أهل مكة، وإحاطته بهم إهلاكه إياهم؛ أى أن الله سيهلكهم. وذكره بلفظ الماضى لتحقق كونه . وعنى بهذا الإهلاك الموعود ما جرى يوم بدر ويوم الفتح . وقيل : معنى « أحاط بالناس» أى أحاطت قدرته بهم، فهم فى قبضته لا يقدرون على الخروج من مشيئته؛ قاله مجاهد وابن أبى نَجيح . وقال الكلبيّ : المعنى أحاط علمه بالناس . وقيل : المراد عصمته من الناس أن يقتلوه حتى يبلّغ رسالة ربه؛ أى وما أرسلناك عليهم حفيظا، بل عليك التبليغ، فبلغ بجدّك فإنا نعصمك منهم ونحفظك، فلا تَهَبْهم، وآمض لما آمرك به من تبليغ الرسالة، فقدرتنا محيطة بالكل؛ قال معناه الحسن وعروة وقتادة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ لمّا بين أن إنزال آيات القرآن تتضمن التخويف ضمّ إليه ذكر آية الإسراء، وهى المذكورة فى صدر السورة . وفى البخاريّ والترمذيّ عن ابن عباس فى قوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فتنةً للناس » قال : هى رؤيا عَيْن أُرِيها النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِىَ به إلى بيت المقدس . قال : « والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ » هى شجرة الزَّقُّوم . قال أبو عيسى الترمذيّ : هذا حديث صحيح . وبقول ابن عباس قالت عائشة ومعاوية والحسن ومجاهد وقَتادة وسعيد ابن جُبير والضحاك وابن أبى نَجيح وابن زيد . وكانت الفتنة ارتدادَ قوم كانوا أسلموا حين أخبرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه أُسْرِىَ به . وقيل : كانت رؤيا نوم . وهذه الآية تقضى بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها . وعن ابن عباس قال : الرؤيا التى فى هذه الآية هى رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدخل مكة فى سنة الحُدَيْبِيَة، فرُدّ فآفتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآية، فلما كان العام المقبل دخلها، وأنزل الله تعالى « لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ [1] » . وفى هذا التأويل ضعف؛ لأن السورة مكية وتلك الرؤيا كانت بالمدينة . وقال فى رواية ثالثة : إنه عليه السلام رأى فى المنام بنى مروان يَنْزُون

(١) آية ٢٧ سورة الفتح .

على منبره نَزْوَ القِرَدة، فساءه ذلك فقيل : إنمـا هى الدنيا أعطوها ، فسُرِّىَ عنه، وما كان له بمكة منبر ولكنه يجوز أن يرى بمكة رؤيا المنبر بالمدينة . وهذا التأويل الثالث قاله أيضا سهل ابن سعد رضى الله عنه . قال سهل : إنمـا هذه الرؤيا هى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى بنى أميـة ينزون على منبره نزو القردة، فاغتم لذلك، وما استجمع ضاحكا من يومئذ حتى مات صلى الله عليه وسلم . فنزلت الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم يجعلها الله فتنة للناس وامتحانا . وقرأ الحسن بن علىّ فى خطبته فى شأن بيعته لمعاوية : « وإِنْ أَدْرى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لكم ومتاعٌ إلى حينٍ »(1) . قال ابن عطية : وفى هذا التأويل نظر، ولا يدخل فى هذه الرؤيا عثمان ولا عمر بن عبد العزيز ولا معاوية .

قوله تعالى : ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ فيه تقديم وتأخير، أى ما جعلنا الرؤيا التى أريناك والشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس . وفتنتها أنهم لمـا خُوِّفوا بها قال أبو جهل استهزاء : هذا محمد يتوعّدكم بنار تحرق الحجارة، ثم يزعم أنها تنبت الشجر والنارُ تأكل الشجر، وما نعـرف الزقوم إلا التمر والزبد ، ثم أمر أبو جهـل جاريةً فأحضرت تمـرا وزبدا وقال لأصحابه : تزقّموا . وقد قيـل : إن القائل ما نعـلم الزقوم إلا التمر والزبد ابن الزِّبَعْرَى حيث قال : كثّر الله من الزقوم فى داركم؛ فإنه التمر بالزبد بلغة اليمن . وجائز أن يقول كلاهما ذلك . فافتتن أيضا لهذه المقالة بعض الضعفاء ، فأخبر الله تعالى نبيّه عليـه السلام أنه إنمـا جعل الإسراء وذكر شجرة الزقوم فتنة واختبارا ليكفر من سبق عليه الكفر و يصدّق من سبق له الإيمـان . كما روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قيل له صبيحة الإسراء : إن صاحبك يزعم أنه جاء البارحة من بيت المقدس ! فقال : إن كان قال ذلك فلقد صدق . فقيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدّقه بخبر السماء، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير .

---

(1) آية ١١١ سورة الأنبياء .

قلت : ذكر هـذا الخبر ابن إسحاق ، ونصـه : « قال كان من الحديث فيما بلغنى عن مسراه صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخُدْرِىّ وعائشة ومعاوية بن أبى سفيان والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الزُّهْرِىّ وقتادة وغيرهم من أهل العلم وأم هانئ بنت أبى طالب، ما اجتمع فى هذا الحديث ، كُلٌّ يحدّث عنه بعض ما ذكر من أمره حين أسرى به صلى الله عليه وسلم، وكان فى مسراه وما ذكر عنه بلاء وتمحيص وأمر من أمر الله عز وجل فى قدرته وسلطانه فيه عبرة لأولى الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدّق وكان من أمر الله تعالى على يقين ؛ فأسرى به صلى الله عليـه وسلم كيف شاء وكما شاء لِيُرِيَه من آياته ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التى يصنع بها ما يريد . وكان عبد الله بن مسعود فيما بلغنى عنه يقول : أُتِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبراق — وهى الدابة التى كانت تُحمل عليها الأنبياء قبله تضع حافرها فى منتهى طرفها — فحمل عليها ، ثم خرج به صاحبه يُرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء قد جُمعوا له فصلّى بهم ثم أُتِىَ بثلاثة آنية : إناء فيه لبن وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فسمعت قائلا يقول حين عُرضت علىّ إن أخذ المـاء فغَرِق وغَرِقت أمّته وإن أخذ الخمر فغَوِىَ وغَوَتْ أمتـه وإن أخذ اللبن فهُدِىَ وهُدِيَتْ أمتـه قال فأخذت إناء اللبن فشربت فقال لى جبريل هُدِيتَ وهُدِيتْ أمتُك يا محمد" .

قال ابن إسحاق: وحدّث عن الحسن أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بينما أنا نائم فى الحِجْر جاءنى جبريل عليه السلام فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا ثم عُدت لمضجعى فجاءنى الثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئا فعدت لمضجعى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة أبيضُ بين البغل والحمار فى فخـذيه جناحان يَحْفِز بهما رجليه يضـع حافره فى منتهى طَرْفه فحملنى عليـه ثم خرج معى لا يفوتنى ولا أفوته" .

قال ابن إسحاق : وحُدّثت عن قتادة أنه قال : حُدّثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لما دنوت منه لأركبه شَمَس(١) فوضع جبريل يده على مَعْرَفَته ثم قال ألا تستحي يابُراق مما تصنع فوالله ما ركبك عبدٌ لله قبل محمد أكرم عليه منه قال فاستحيا حتى ارفضّ عَرَقًا ثم قرّ حتى ركبته " .

قال الحسن فى حديثه : فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى معه [ جبريل ] حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى نفر من الأنبياء ، فأمّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلّى بهم ثم أُتِىَ بإناءين : فى أحدهما خمر وفى الآخر لبن ، قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء الخمر . قال : فقال له جبريل : هُدِيت الفِطْرة وهُدِيت أمّتك وحُرّمت عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فلما أصبح غَدَا على قريش فأخبرهم الخبر ؛ فقال أكثر الناس : هذا والله الأمر البَيّنُ ! والله إن العِير لتُطرد شهرا من مكة إلى الشأم ، مدبرةً شهرا ومقبلةً شهرا ، فيذهب ذلك محمد فى ليلة واحدة ويرجع إلى مكة ! قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبى بكر فقالوا : هل لك يا أبا بكر فى صاحبك ! يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس ، وصلّى فيه ورجع إلى مكة . قال فقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، ها هو ذا فى المسجد يحدّث به الناس . فقال أبو بكر : والله لئن كان قاله لقد صدق فما يعجّبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرنى أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدّقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبىّ الله ، أحدّثتَ هؤلاء أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال " نعم " قال : يا نبىّ الله ، فصفه لى فإنى قد جئته ؟ فقال الحسن : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " رفع لى حتى نظرت إليه " فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبى بكر ويقول أبو بكر رضى الله عنه : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . كلما

---

(١) شمست الدابة والفرس تشمس : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

وصف له منه شـيئا قال : صدقت ، أشهد أنك رسـول الله . قال : حتى إذا انتهى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر رضى الله عنه : " وأنت يا أبا بكر الصدّيق " فيومئذ سماه الصدّيق . قال الحسن : وأنزل الله تعالى فيمن ارتدّ عن الإسلام لذلك : « وما جعلنا الرؤيا التى أَرَيْنَاكَ إلا فِتنةً لِلنّاسِ والشجرةَ الْمَلْعُونَةَ فِى القرآنِ ونُخَوِّفُهُمْ فما يَزِيدُهم إلا طُغْيَانًا كبيرا » . فهذا حديث الحسن عن مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما دخل فيـه من حديث قتادة . وذكر باقى الإسراء عمن تقـدّم فى السيرة . وقال ابن عباس : هـذه الشجرة بنو أميّـة ، وأن النبيّ صلى الله عليه وسـلم نفى الحَكَم . وهذا قول ضعيف محدَث والسورة مكية ، فيبعد هذا التأويل ؛ إلا أن تكون هذه الآية مدنية ، ولم يثبت ذلك . وقـد قالت عائشة لمروان : لعن الله أباك وأنت فى صلبه فأنت بعض من لعنة الله (1) . ثم قال : « والشّجرةَ الملعونة فِى القرآنِ» ولم يجر فى القرآن لعن هذه الشجرة ، ولكن الله لعن الكفار وهم آكلوها . والمعنى : والشجرة الملعونة فى القرآن آكلوها . ويمكن أن يكون هـذا على قول العرب لكل طعـام مكروه ضار : ملعون . وقال ابن عباس : الشجرة الملعونة هى هـذه الشجرة التى تلتوى على الشجر فتقتله ، يعنى الكَشُوث . ﴿ وَنُخَوِّفُهُمْ ﴾ أى بالزقوم . ﴿ فَمَا يَزِيدُهُمْ ﴾ التخويف إلا الكفر .

قوله تعـالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ تقـدّم ذكر كون الشـيطان عدوّ الإنسان ، فانجرّ الكلام إلى ذكر آدم . والمعنى : اذكر بتمادى هؤلاء المشركين وعتوّهم على ربهم قصة إبليس حين عصى ربه وأبى السجود ، وقال ما قال ، وهو ما أخبر الله تعالى فى قوله تعالى :

(1) هذه عبارة الفخر الرازى . والذى فى الأصول : « فأنت قطط من لعنة الله » . والقطط : القصير الجعد من الشعر ، وشعر الزنجى .

﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ أى من طين . وهذا استفهام إنكار . وقد تقــدّم القول فى خلق آدم فى « البقرة ، والأنعام » مستوفًى (١) . ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ ﴾ أى قال إبليس . والكاف توكيد للمخاطبة . ﴿ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ أى فضّلته علىّ . ورأى جوهر النار خيرا من جوهر الطين ولم يعلم أن الجواهر متماثلة . وقد تقدّم هــذا فى الأعراف . و « هذا » نصب بأرأيت . « الذى » نعته . والإكرام : اسم جامع لكل ما يحمد . وفى الكلام حذف تقديره : أخبرنى عن هذا الذى فضلته علىّ ، لم فضلته وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين؟ فحذف لعلم السامع . وقيل : لا حاجة إلى تقدير الحذف ؛ أى أترى هذا الذى كرمته علىّ لأفعلن به كذا وكذا . ومعنى ﴿ لَأَحْتَنِكَنَّ ﴾ فى قول ابن عباس : لأستولِيَنّ عليهم . وقاله الفراء . مجاهد : لأحتوِيَنّهم . ابن زيد : لأضلنهم . والمعنى متقارب ؛ أى لأستأصلنّ ذريته بالإغواء والإضلال ، ولأجتاحنّهم . وروى عن العــرب : احْتَنَك الجراد الزرع إذا ذهب به كلّه . وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت وأقودنّهم حيث أردت . من قولهم : حنكتُ الفــرس أحنِكه وأحنُكه حنكا إذا جعلت فى فيه الرّسن . وكذلك احتنكه . والقول الأوّل قريب من هذا ؛ لأنه إنمــا يأتى على الزرع بالحَنَك . وقال الشاعر :

أشــكو إليك سَنَةً قــد أجحفت * جهدا إلى جهــدٍ بنا وأضعفت
* واحتنكت أموالنا واجتلفت (٢) *

﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعنى المعصومين ، وهم الذين ذكرهم الله فى قوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » و إنما قال إبليس ذلك ظنا ؛ كما قال الله تعالى : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ (٣) » أو علم من طبع البشر تركّب الشهوة فيهم ، أو بنى على قول الملائكة : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَــا (٤) » . وقال الحسن : ظن ذلك لأنه وسوس إلى آدم عليه السلام فلم يجد له عَزْمًا .

قوله تعــالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُــمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا (٦٣)

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ طبعة ثانية أو ثالثة . و جـ ٧ ص ١٦٨ طبعة أولى أو ثانية .
(٢) أى أذهبت .	(٣) آية ٢٠ سورة سبأ .	(٤) آية ٣٠ سورة البقرة .

قوله تعـالى : ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ ﴾ هـذا أمر إهانة ؛ أى اجهد جهدك فقـد أنظرناك . ﴿ فَمَن تَبِعَكَ ﴾ أى أطاعك من ذرية آدم . ﴿ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ أى وافرا ؛ عن مجاهـد وغيره . وهو نصب على المصدر ؛ يقال : وَفَرته أَفِرُه وَفْرًا ، ووَفَر المـالُ بنفسه يَفِر وفورا فهو وافر؛ فهو لازم ومتعدّ .

قوله تعـالى : وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾

فيـــه ست مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ ﴾ أى ٱستزِلّ وٱستخِفّ ؛ وأصله القطع ، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع[(١)] . والمعنى استزِلّه بقطعك إياه عن الحق . وٱستفزّه الخوفُ أى ٱستخفه . وقعـد مُسْتَوْفِزًا أى غير مطمئن . « وٱسْتَفْزِز » أمر تعجيز؛ أى أنت لا تقـدر على إضلال أحد ، وليس لك على أحد سلطان فٱفعل ما شئت .

الثانيـــة ـــ قوله تعالى : ﴿ بِصَوْتِكَ ﴾ وصوتُه كلُّ داع يدعو إلى معصية الله تعالى ؛ عن ابن عبـاس . مجاهد : الغناء والمزامير واللهـو . الضحاك : صوت المزمار . وكان آدم عليه السلام أسكن أولاد هابيل أعلى الجبل ، وولد قابيل أسفله ، وفيهم بنات حسان ، فزَمَر اللعين فلم يتمالكوا أن ٱنحدروا فزَنَوْا ؛ ذكره الغزنوىّ . وقيل : «بصوتك» بوسوستك .

الثالثـــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ أصل الإجلاب السوقُ بجلبة من السائق ؛ يقال : أجلب إجلابا . والجَلَب والجَلَبَة : الأصوات ؛ تقول منه : جلّبوا بالتشديد . وجَلَب الشيء يجلِبه ويجلُبه جَلَبًا وجَلْبا . وجلبت الشي إلى نفسى واجتلبته بمعنًى . وأجلب على العدوّ إجلابا ؛ أى جمّع عليهم . فالمعنى أجمِـع عليهم كلما تقدر عليه من مكايدك .

(١) لم نجد فى كتب اللغة « تفزز الثوب » بزايين بهذا المعنى ، وانمـا هو « تفزر » بزاى ثم راء . فليلاحظ .

وقال أكثر المفسرين : يريد كل راكب وماشٍ فى معصية الله تعالى . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس ، فما كان من راكب وماشٍ يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ورَجَّالته . وروى سعيد بن جبير ومجاهد عن ابن عباس قال : كل خيل سارت فى معصية الله ، وكل رجل مَشَتْ فى معصية الله ، وكلّ مال أصيب من حرام ، وكلّ ولد بَغِيّـة فهو للشيطان . والرَّجْل جمع راجل ؛ مثـل صَحْب وصاحب . وقرأ حفص « ورَجِلك » بكسر الجيم وهما لغتان ؛ يقال : رَجْل ورَجِل بمعنى راجل . وقرأ عكرمة وقتادة « ورجالك » على الجمع .

الرابعـــة — ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ أى اجعـل لنفسك شركة فى ذلك . فشركته فى الأموال إنفاقها فى معصية الله ؛ قاله الحسن . وقيـل : هى التى أصابوها من غير حِلّها ؛ قاله مجاهد . ابن عباس : ما كانوا يحرّمونه من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة والحـام . وقاله قتادة . الضحاك : ما كانوا يذبحونه لآلهتهم . والأولاد قيـل : هم أولاد الزنى ؛ قاله مجاهد والضحاك وعبد الله بن عباس . وعنـه أيضا هو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيهم من الجرائم . وعنه أيضا : هو تسميتهم عبد الحارث وعبد العُزَّى وعبد اللّات وعبـد الشمس ونحوه . وقيـل : هو صِبغة أولادهم فى الكفر حتى هوّدوهم ونصّروهم ، كصنع النصـارى بأولادهم بالغمس فى المـاء الذى لهم ؛ قاله قتادة . وقول خامس — روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل ولم يُسَمِّ انطوى الجانّ على إحْليله فجامع معه ، فذلك قوله تعالى : « لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ »(١) وسيأتى . وروى من حديث عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن فيكم مُغَرِّبين" قلت : يارسول الله ، وما المغرّبون؟ قال : "الذين يشترك فيهم الجن". رواه الترمذى الحكيم فى (نوادر الأصول) . قال الهَرَوِىّ : سموا مغرّبين لأنه دخل فيهم عرق غريب . قال الترمذى الحكيم : فالجن مسامّاة(٢) بابن آدم فى الأمور والاختلاط ؛ فمنهم من يتزوّج فيهم ، وكانت بِلْقِيس ملكة سَبأ أحد أبويها من الجن . وسيأتى بيانه إن شاء الله تعـالى .

---

(١) آية ٥٦ ، ٧٤ سورة الرحمن .		(٢) المساماة : المباراة .

الخامســـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَعِدْهُمْ ﴾ أى مَنّهــم الأمانى الكاذبة ، وأنه لا قيامة ولا حساب ، وأنه إن كان حساب وجنة ونار فأنتم أولى بالجنة من غيركم . يقوّيه قوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا[1] » أى باطلا . وقيــل « وَعِدْهُمْ » أى عِدهم النُّصرة على من أرادهم بسوء . وهــذا الأمر للشيطان تهدّد ووعيد له . وقيل : استخفاف به وبمن اتبعــه .

السادســـة — فى الآية ما يدلّ على تحــريم المزامير والغناء واللّهو ؛ لقوله : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ » على قول مجاهد . وما كان من صوت الشيطان أو فعــله وما يستحسنه فواجب التنزه عنــه . وروى نافع عن ابن عمر أنه سمع صوت زمّارة فوضع أصبعيه فى أذنيــه ، وعدل راحلتــه عن الطريق وهو يقول : يانافع ! أتسمع؟ فأقول نعم ؛ فمضى حتى قلت له لا ، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق وقال : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع [ صوت ] زَمّارة راع فصنع مثل هذا . قال علماؤنا : إذا كان هذا فعلهم فى حق صوت لا يخرج عن الاعتدال ، فكيف بغناء أهل هذا الزمان وزمرهم . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «لقمان» إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ قال ابن عباس : هم المؤمنون . وقد تقــدّم الكلام فيه[2] . ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ أى عاصما من القبول من إبليس ، وحافظا من كيده وسوء مكره .

قوله تعـالى : رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾

(١) آية ١٢٠ سورة النساء . (٢) راجع ص ٢٨ من هذا الجزء .

قوله تعـالى : ﴿ رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ﴾ الإزجاء : السوق ؛ ومنـه قوله تعـالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سحابا »(1) . وقال الشاعر(2) :

يأيها الراكب المُـزْجِي مطيّتَـه * سائل بنى أَسَد ما هذه الصَّوْتُ

وإزجاء الفلك : سـوقه بالريح اللينة . والفلك هنا جمـع ، وقد تقدّم(3) . والبحر المـاء الكثير عذبا كان أو ملحا ، وقد غلب هـذا الاسم على المِلْح . وهذه الآية توقيف على آلاء الله وفضله عند عباده ؛ أى ربكم الذى أنعم عليكم بكذا وكذا فلا تشركوا به شيئا . ﴿ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى فى التجارات . وقد تقدّم(4) . ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ .

قوله تعـالى : وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ﴾ «الضر» لفظ يعم خوف الغرق والإمساك عن الجَرْى . وأهوال حالاته اضطرابه وتموّجه . ﴿ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ « ضـل » معناه تَلِف وفُقِـد ؛ وهى عبارة تحقير لمن يدعى إلهـا من دون الله . والمعنى فى هذه الآية : أن الكفار إنمـا يعتقدون فى أصنامهم أنها شافعة ، وأن لها فضلا ؛ وكلّ واحد منهم بالفطرة يعلم علما لا يقدر على مدافعته أن الأصنام لا فعل لها فى الشدائد العظام ؛ فوقّفهم الله من ذلك على حالة البحر حيث تنقطع الحيل . ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ أى عن الإخلاص . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ الإنسان هنا الكافر . وقيـل : وطبع الإنسان كفورا للنعم إلا مَن عَصَمه الله ؛ فالإنسان لفظ الجنس .

قوله تعـالى : أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾

---

(1) آية ٤٣ سورة النور. (2) هو رُويشد بن كثير الطائى ؛ كما فى اللسان. (3) راجع ج ٢ ص ١٩٤ طبعة ثانية . (4) راجع ج ٢ ص ٤١٣ طبعة ثانية .

قوله تعـالى : ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ ﴾ بيّن أنه قادر على هلاكهم فى البر وإنْ سَلِموا من البحر . والخَسْف : أن تنهار الأرض بالشىء؛ يقال : بئر خسيف إذا انهدم أصلها . وعين خاسف أى غارت حدقتها فى الرأس . وعَيْنٌ من المـاء خاسفة أى غار ماؤها . وخَسَفت الشمس أى غابت عن الأرض . وقال أبو عمرو : والخَسيف البئر التى تحفر فى الحجارة فلا ينقطع ماؤها كثرةً . والجمع خُسُف . وجانب البر : ناحية الأرض؛ وسماه جانبا لأنه يصـير بعد الخسف جانبا . وأيضا فإن البحر جانب والبرّ جانب . وقيـل : إنهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البر، وكانوا فيـه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البر كما حذرهم ما خافوه من البحر . ﴿ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ يعنى ريحا شديدة ، وهى التى تَرْمى بالحصباء ، وهى الحصى الصغار ؛ قاله أبو عبيـدة والقُتَبِىّ . وقال قتادة : يعنى حجارة من السماء تَحصِبهم ، كما فُعـل بقوم لوط . ويقال للسحابة التى ترمى بالبَرَد: حاصب، وللريح التى تحمل التراب والحصباء حاصب وحَصِبة أيضا . قال لَبِيد :

جرّت عليها أن خَوَتْ من أهلها * أذيالَهـا كُلُّ عَصُوفٍ حَصِـبَهْ

وقال الفَرَزْدَق :

مستقبلين شَمَال الشام يضربنـا * بحاصب كنَديف القطن منثور

﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ أى حافظا ونصيرا يمنعكم من بأس الله .

قوله تعـالى : أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى ﴾ يعنى فى البحر . ﴿ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ ﴾ القاصف : الريح الشديدة التى تَكْسر بشدة ؛ من قَصَف الشىءَ يَقْصِفه؛ أى كسره بشـدة . والقصف : الكسر؛ يقال : قصفت الريح السفينة . وريح قاصف :

شديدة . ورعد قاصف : شديد الصوت . يقال : قَصَف الرعدُ وغيرُه قَصيفا . والقَصيف : هشيم الشّجر . والتقصّف التكسر . والقصف أيضا : اللّهو واللعب ، يقال : إنها مُوَلّدة .
﴿ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ أى بكفركم . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو « نَخْسِفَ بِكُم » « أو نُرْسِل عليكم » « أن نُعيدكم » « فنُرْسِل عليكم » « فنُغرِقكم » بالنون فى الخمسة على التعظيم ، ولقوله : « علينا » الباقون بالياء ؛ لقوله فى الآية قبـل : « إياه » . وقرأ أبو جعفر وشيبة ورُوَيْس ومجاهـد « فتغرِقكم » بالتاء نعتا للريح . وعن الحسن وقتادة « فيغرّقكم » باليـاء مع التشديد فى الراء . وقرأ أبو جعفر «الرياح» هنا وفى كل القرآن . وقيل : إن القاصف المهلكةُ فى البر، والعاصفَ المغرقةُ فى البحر ؛ حكاه المـاوردىّ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال مجاهد : ثائرا . النحاس : وهو من الثأر . وكذلك يقـال لكل من طلب بثأر أو غيره : تبيع وتابع ؛ ومنه « فاتّباع بالمعروف»[1] أى مطالبة .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فيـه ثلاث مسائل[2] :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ الآية . لـما ذكر من الترهيب ما ذكر بين النعمة عليهم أيضا . « كرمنا» تضعيف كرم ؛ أى جعلنا لهم كرما أى شرفا وفضلا . وهذا هو كرم نفى النقصان لا كرم المـال . وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة فى امتداد القامة وحسن الصورة ، وحملهم فى البر والبحر ممـا لا يصح لحيوان سوى بنى آدم أن يكون يتحمل بإرادته وقصده وتدبيره . وتخصيصهم بما خصهم به من المطاعم والمشارب والملابس ، وهذا لا يتسع فيه حيوان اتساع بنى آدم ؛ لأنهم يكسبون المـال خاصة دون الحيوان ، ويلبسون الثيـاب ويأكلون المركّبات من الأطعمة . وغاية كلّ حيوان يأكل لحما نيئاً أو طعاما غير

(١) آية ١٧٨ سورة البقرة . (٢) يلاحظ أن المسائل أربع .

مركّب . وحكى الطبرىّ عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيــده وسائرالحيوان بالفم . وروى عن ابن عباس ؛ ذكره المهــدوىّ والنحاس ؛ وهو قول الكلبىّ ومقاتل ؛ ذكره المــاوردىّ . وقال الضحاك : كرّمهــم بالنطق والتمييز . عطاء : كرّمهم بتــعديل القامة وآمتدادها . يمان : بحسن الصورة . محمد بن كعب : بأن جعل محمدا صلّى الله عليه وسلم منهم . وقيل أكرم الرجال باللِّحَى والنساء بالذوائب . وقال محمد بن جرير الطبرىّ : بتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم . وقيل : بالكلام والخط . وقيل : بالفهم والتمييز . والصحيح الذى يعوّل عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذى هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله ؛ إلا أنه لمــا لم ينهض بكل المراد من العبد بُعثت الرسل وأنزلت الكتب . فمثال الشرع الشمس، ومثــال العقل العين، فإذا فتحت وكانت ســليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء . وما تقدّم من الأقوال بعضــه أقوى من بعض . وقد جعل الله فى بعض الحيوان خصالا يفضل بهــا ابن آدم أيضا ؛ كجرى الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك . وإنما التكريم والتفضيل بالعقل كما بيناه . والله أعلم .

الثانيــــة — قالت فرقة : هــذه الآية تقتضى تفضيل الملائكة على الإنس والجن من حيث إنهم المستثنون فى قوله تعالى : « وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ »[1] . وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل فيها بين الإنس والجن ؛ فإن هذه الآية إنما عدد الله فيها على بنى آدم ما خصهم به من سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضول، والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول، ولم تتعرض الآية لذكرهم، بل يحتمل أن الملائكة أفضــل، ويحتمل العكس، ويحتمل التساوى، وعلى الجمــلة فالكلام لا ينتهى فى هــذه المسألة إلى القطع . وقد تحاشى قوم من الكلام فى هــذا كما تحاشوا من الكلام فى تفضيل بعض الأنبياء على بعض ؛ إذ فى الخبر "لا تُخايروا بين الأنبياء ولا تفضــلونى على يونس بن متّى" . وهــذا ليس بشىء ؛ لوجود

---

(١) آية ١٧١ سورة النساء .

النص فى القرآن فى التفضيل بين الأنبيــاء . وقد بيناه فى « البقــرة »[1] ومضى فيهــا الكلام فى تفضيل الملائكة والمؤمن[2] .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ يعنى لذيذ المطاعم والمشارب ، قال مقاتل : السمن والعســل والزبد والتمر والحلوى ، وجعــل رزق غيرهم ما لا يخفى عليكم من التبن والعظام وغيرها . ﴿ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ أى على البهائم والدواب والوحش والطير بالغلبة والاستيلاء ، والثواب والجزاء والحفظ والتمييز و إصابة الفراسة .

الرابعــة — هــذه الآية تردّ ما روى عن عائشــة رضى الله عنها ، قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اِحْرِمُوا أنفسكم طَيِّب الطعام فإنما قوى الشيطان أن يجرى فى العروق منها" . وبه يستدلّ كثير من الصُّوفيــة فى ترك أكل الطيبات ، ولا أصــل له ؛ لأن القرآن يردّه ، والسنة الثابتة بخلافه ، على ما تقرّر فى غير موضع . وقد حكى أبو حامد الطُّوسىّ قال : كان سهل يقتات ورق النّبْق مدة ، وأكل دُقاق ورق التين ثلاث سنين . وذكر إبراهيم بن البنا قال : صحبت ذا النُّــون من إخميم إلى الإسكندرية ، فلمــا كان وقت إفطاره أخرجت قرصا ومِلْحًا كان معى ، وقلت : هَلُمّ . فقال لى : ملحك مدقوق ؟ قلت نعم . قال : لست تُفلح ! فنظرت إلى مِزْوَده وإذا فيه قليل سَوِيق شعير يَسَفّ منه . وقال أبو يزيد : ما أكلت شيئا ممــا يأكله بنو آدم أربعين سنة . قال علماؤنا : وهــذا ممــا لا يجوز حمل النفس عليه ؛ لأن الله تعــالى أكرم الآدمىّ بالحنطة وجعل قشورها لبهائمهم ، فلا يصح مزاحمــة الدواب فى أكل التبن ، وأما سَويق الشعير فإنه يورث القُولَنْج[3] ، وإذا اقتصر الإنسان على خبز الشعير والملح الجَريش فإنه ينحرف مِزاجه ؛ لأن خبز الشعير بارد مجفف ، والملح يابس قابض يضر الدّماغ والبصر . وإذا مالت النفس إلى ما يصلحها فُمنعت فقد قووِمت حكمة البارئ سبحانه بردّها ، ثم يؤثر ذلك فى البدن ، فكان هــذا الفعل مخالفا للشرع والعقل . ومعلوم أن البــدن

---

(١) راجع ج ٣ ص ٢٦١ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١ ص ٢٨٩ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) القولنج : مرض مِعَوىّ مؤلم يعسر معه خروج الثُّفل والريح . معرّب .

مطيّة الآدمىّ، ومتى لم يرفُق بالمطيّة لم تُبَلِّغ. وروى عن إبراهيم بن أدهم أنه اشترى زبدا وعسلا وخبزَ حُوّارَى، فقيل له : هـذا كله ؟ فقال : إذا وجدنا أكلنـا أكل الرجال، وإذا عدمنا صَبَرنا صبر الرجال . وكان الثورى يأكل اللحم والعنب والفالوذج(١) ثم يقوم إلى الصلاة . ومثل هـذا عن السلف كثير . وقـد تقدم منه ما يكفى فى المـائدة(٢) والأعراف(٣) وغيرهما . والأول غُلُوٌّ فى الدِّين إن صح عنهم « وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ(٤) » .

قوله تعـالى : يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١)

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ ﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : « يوم نَدْعُوا كل أناسٍ بإمَامِهم » قال : " يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويُمـدّ له فى جسمه ستون ذراعا، ويُبَيّض وجهه ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ فينطلق إلى أصحابه فيرَوْنه من بعيد فيقولون اللهم ائتنا بهذا وبارك لنـا فى هذا حتى يأتيهم فيقول أبشروا لكل منكم مثلُ هذا — قال — وأما الكافر فيُسَوّد وجهه ويُمَدّ له فى جسمه ستون ذراعا على صـورة آدم ويلبس تاجا فيراه أصحابه فيقولون نعوذ بالله من شر هـذا ! اللهم لا تأتنا بهـذا . قال : فيأتيهم فيقولون اللّهُمّ أخزه . فيقول أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا " . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ونظير هذا قـوله : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّـةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَـوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٥) » . والكتاب يسمى إماما؛ لأنه يُرجع إليـه فى تعرّف أعمالهم . وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك : « بإمامهم » أى بكتابهم، أى بكتاب كلّ إنسان منهم الذى فيـه عمله ؛ دليـله « فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه » . وقال ابن زيد : بالكتاب المنزّل عليهم . أى يدعَى كل إنسان

(١) الفالوذج : حلواء تعمل من الدقيق والمـاء والعسل . وفيه لغات (عن الألفاظ الفارسية) .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٢٦٠ . (٣) راجع جـ ٧ ص ١٩٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٤) آية ٢٧ سورة الحديد . (٥) آية ٢٨ سورة الجاثية .

بكتابه الذى كان يتلوه ؛ فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل القرآن بالقرآن ؛ فيقال : يأهل القرآن، ماذا عملتم ،هل امتثلتم أوامره هل اجتنبتم نواهيه ! وهكذا . وقال مجاهد: «بإمامهم» بنبيّهم ، والإمام من يؤتمّ به . فيقال : هاتوا متّبِعِى إبراهيم عليه السلام، هاتوا متّبعى موسى عليه السلام، هاتوا متبعى الشيطان، هاتوا متبعى الأصنام . فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ، ويقوم أهل الباطل فيأخذون كتابهم بشمالهم . وقاله قتادة . وقال علىّ رضى الله عنه : بإمام عصرهم . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : «يوم ندعو كلّ أناسٍ بِإمامِهِم» فقال : "كلٌّ يدعى بإمام زمانهم وكتابِ ربّهم وسنّةِ نبيّهم فيقول هاتوا متبعى إبراهيم هاتوا متبعى موسى هاتوا متبعى عيسى هاتوا متبعى محمدا — عليهم أفضل الصلوات والسلام — فيقوم أهل الحق فيأخذون كتابهم بأيمانهم ويقول هاتوا متبعى الشيطان هاتوا متبعى رؤساء الضلالة إمامَ هدًى وإمامَ ضلالة". وقال الحسن وأبو العالية : «بِإمامِهِم» أى بأعمالهم . وقاله ابن عباس . فيقال : أين الراضون بالمقدور، أين الصابرون عن المحذور . وقيل : بمذاهبهم؛ فيُدْعَوْن بمن كانوا يأتمون به فى الدنيا : ياحنفىّ، ياشافعىّ، يامعتزلىّ، ياقدرىّ، ونحوه؛ فيتبعونه فى خير أو شر أو على حق أو باطل ، وهـذا معنى قول أبى عبيدة . وقد تقدّم . وقال أبو هريرة : يدعى أهل الصدقة من باب الصدقة ، وأهل الجهاد من باب الجهاد ...، الحديث بطوله . أبو سهل : يقال أين فلان المصلّى والصوّام، وعكسه الدّفاف(1) والنمام . وقال محمد بن كعب : « بِإمامِهِم » بأمهاتهم . وإمام جمع آمّ . قالت الحكماء : وفى ذلك ثلاثة أوجه من الحكمة؛ أحدها — لأجل عيسى . والثـانى — إظهار لشرف الحسن والحسين . والثالث — لئلا يفتضح أولاد الزنى .

قلت : وفى هذا القول نظر؛ فإن فى الحديث الصحيح عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا جمع الله الأوّلين والآخرين يوم القيامة يُرفع لكل غادر لواء فيقال هذه غَدْرة فلان بن فلان " خرّجه مسلم والبخارى . فقوله : " هذه غَدْرة فلان بن فلان "

---

(1) الدفاف : الضارب بالدف . وفى الأصول : « الزفاف » بالزاى المعجمة .

دليلٌ على أن الناس يُدْعَوْن فى الاخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا يردّ على من قال : إنمـا يُدْعَوْن بأسماء أمّهاتهم لأن فى ذلك ستْرًا على آبائهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ هذا يقوّى قول من قال : « بِإِمامِهِم » بكتابهم . ويقوّيه أيضا قوله : « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ »(١) . ﴿فَأُولَئِكَ يَقْـرَءُونَ كِتَابَهُـمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ الفتيل الذى فى شقّ النواة . وقد مضى فى « النساء »(٢) .

قوله تعـالى : وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

قوله تعـالى : ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَى﴾ أى فى الدنيا عن الاعتبار وإبصار الحق . ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ﴾ أى فى أمر الآخرة ﴿أَعْمَى﴾ . وقال عكرمة : جاء نفر من أهـل اليمن إلى ابن عباس فسألوه عن هـذه الآية فقال : اقرءوا ما قبلها « رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ ــ إلى ــ تفضيلا »(٣) . قال ابن عباس : من كان فى هذه النعم والايات التى رأى أعمى فهو عن الآخرة التى لم يعاين أعمى وأضل سبيلا . وقيـل : المعنى من عمى عن النعم التى أنعم الله بها عليه فى الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى . وقيل : المعنى من كان فى الدنيا التى أُمْهِل فيها وفُسِّح له ووُعِد بقبول التوبة أعمى فهو فى الآخرة التى لا توبة فيها أعمى . وقال الحسن : من كان فى هـذه الدنيا كافرا ضالا فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا . وقيل : من كان فى الدنيا أعمى عن حجج الله بعثـه الله يوم القيامة أعمى ؛ كما قال : « ونحشره يوم القيامة أعمى »(٤) الآيات . وقال : «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ »(٥) . وقيـل : المعنى فى قوله « فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى » فى جميع الأقوال : أشدّ عَمًى ؛ لأنه من عَمَى القلب ، ولا يقال مثله فى عَمَى العين . قال الخليل وسيبويه : لأنه خِلقة بمنزلة

---

(١) آية ١٢ سورة يس . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٤٨ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٦٦ وما بعدها .
(٤) آية ١٢٤ سورة طه . (٥) آية ٩٧ من هذه السورة .

اليـد والرِّجْل ، فلم يقل ما أعمـاه كما لا يقال ما أيداه . الأخفش : لم يقل فيـه ذلك لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف، وأصله أعمى . وقد أجاز بعض النحويين ما أعماه وما أعشاه ؛ لأن فعـله عَمِيَ وعَشِيَ . وقال الفراء : حدثني بالشام شيخ بصرى أنه سمع العـرب تقول : ما أسود شعره . قال الشاعر :

ما في المعـالى لكم ظل ولا ثمـر * وفى المخازى لكم أشباح أشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهـم * لؤما وأبيضهم سِرْبال طبّـاخ

وأمال أبو بكر وحمزة والكسائيّ وخَلَف الحرفين « أعمى » و « أعمى» وفتح الباقون . وأمال أبو عمرو الأوّل وفتح الثاني . ﴿ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ يعنى أنه لا يجد طريقا إلى الهداية .

قوله تعـالى : وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾

قال سـعيد بن جبير : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تُلِمّ بآلهتنا . فحدّث نفسه وقال : " ما علىّ أن أُلِمّ بها بعد أن يَدَعُونى أستلم الحجر والله يعلم أنى لها كاره " فأبى الله تعالى ذلك وأنزل عليه هـذه الآية ؛ قاله مجاهد وقتادة . وقال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت فى وفد ثقيف ، أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألوه شَطَطًا وقالوا : متّعنا بآلهتنا سـنة حتى نأخذ ما يُهْدَى لها، فإذا أخذناه كسرناها وأسلمنا، وحَرّم وادينا كما حرّمت مكة، حتى تعرف العرب فضلنا عليهم ؛ فهَمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك فنزلت هذه الآية . وقيل : هو قول أكابر قريش للنبيّ صلى الله عليه وسلم : اطرد عنا هؤلاء السُّقّاط والموالى حتى نجلس معك ونسمع منك؛ فهمّ بذلك حتى نُهِى عنه . وقال قتادة : ذكر لنا أن قريشا خَلَوْا برسول الله صلى عليه وسـلم ذات ليلة إلى الصبح يكلمونه ويفخّمونه ، ويسوّدونه ويقاربونه ؛ فقالوا : إنك تأتى بشيء لا يأتى به أحد من الناس، وأنت سّيُدنا يا سّيَدنا ؛ وما زالوا به حتى كاد يقاربهم فى بعض ما يريدون،

ثم عصمه الله من ذلك، وأنزل الله تعالى هذه الآية . ومعنى ﴿ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ أى يزيلونك . يقال : فتنتُ الرجل عن رأيه إذا أزلته عما كان عليه؛ قاله الهَرَوِىّ . وقيل يصرفونك، والمعنى واحد. ﴿ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى حكم القرآن؛ لأن فى إعطائهم ما سألوه مخالفة لحكم القرآن . ﴿ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ أى لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك ، وهو قول ثقيف : وحَرِّم وادينا كما حرّمت مكة، شجـرها وطيرها ووحشها، فإن سألتك العرب لم خصّصتهم فقل الله أمرنى بذلك حتى يكون عذرا لك . ﴿ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾ أى لو فعلت ما أرادوا لاتخـذوك خليلا، أى والوك وصافوك؛ مأخوذ من الخلة ( بالضم ) وهى الصداقة لممايلته لهم . وقيل : « لاتخذوك خليلا » أى فقيرا . مأخوذ من الخَلّة ( بفتح الخاء ) وهى الفقر لحاجته إليهم .

قوله تعـالى : وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَـدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِـدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ أى على الحق وعصمناك من موافقتهم . ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ ﴾ أى تميل . ﴿ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ أى ركونا قليلا . قال قتادة : لمـا نزلت هـذه الآية قال عليه السلام : " اللّهُمَّ لا تكِلْنِى إلى نفسى طرفة عين " . وقيل : ظاهر الخطاب للنبىّ صلى الله عليه وسـلم وباطنه إخبار عن ثقيف . والمعنى : وإن كادوا ليركنونك ، أى كادوا يخبرون عنك بأنك مِلتَ إلى قولهم؛ فنسب فعلهم إليه مجازا واتساعا ؛ كما تقول لرجل: كدت تقتل نفسك، أى كاد الناس يقتلونك بسبب ما فعلت؛ ذكره المهدوىّ . وقيل : ما كان منه هَمٌّ بالركون إليهم ، بل المعنى : ولولا فضل الله عليك لكان منك مَيل إلى موافقتهم ، ولكن تمّ فضل الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيرى . وقال ابن عباس : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوما ، ولكن هـذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين فى شىء من أحكام الله تعالى وشرائعه .

وقوله : ﴿ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ﴾ أى لو ركنت لأذقناك مثلى عذاب الحياة فى الدنيا ومثلى عذاب الممات فى الآخرة؛ قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وهذا غاية الوعيد . وكلما كانت الدرجة أعلى كان العذاب عند المخالفة أعظم . قال الله تعالى : « يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ »[1] وضعف الشيء مثله مرتين، وقد يكون الضِّعف النصيب؛ كقوله عز وجل: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ» أى نصيب. وقد تقدّم فى الأعراف[2] .

قوله تعالى : وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾

هذه الآية قيل إنها مدنية؛ حسبما تقدّم فى أوّل السورة . قال ابن عباس : حسَدت اليهود مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا : إن الأنبياء إنما بعثوا بالشأم ، فإن كنت نبيًّا فالْحَق بها؛ فإنك إن خرجت إليها صدقناك وآمنا بك؛ فوقع ذلك فى قلبه لما يحب من إسلامهم، فرحَل من المدينة على مرحلة فأنزل الله هذه الآية . وقال عبد الرحمن بن غَنْم : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبُوك لا يريد إلا الشأم ، فلما نزل تبوك نزل « وإن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِن الْأَرْضِ » بعد ما ختمت السورة، وأمر بالرجوع . وقيل : إنها مكية . قال مجاهد وقتادة : نزلت فى همّ أهل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه لما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج، وهذا أصح؛ لأن السورة مكية، ولأن ماقبلها خبر عن أهل مكة، ولم يجر لليهود ذكر . وقوله : ﴿ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ يريد أرض مكة . كقوله : « فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ »[3] أى أرض مصر؛ دليله « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ »[4] يعنى مكة . معناه : همّ أهلها بإخراجه؛ فلهذا أضاف إليها[5] وقال « أخرجتك » . وقيل : همّ الكفار كلّهم أن يستخفّوه من أرض العرب بتظاهرهم عليه فمنعه الله ، ولو أخرجوه

(١) آية ٣٠ سورة الأحزاب. (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٥ طبعة أولى أو ثانية. (٣) آية ٨٠ سورة يوسف.
(٤) آية ١٣ سورة محمد . (٥) فى الأصول : « إليهم » وهو تحريف .

من أرض العرب لم يمهلوا؛ وهو معنى قوله : ﴿وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . وقرأ عطاء ابن أبي رَباح « لا يُلَبَّثون » الباء مشددة . « خلفك » نافع وابن كثير وأبو بكر وأبو عمرو، ومعناه بعـدك . وقرأ ابن عامر وحفص وحمزة والكسائيّ « خلافك » واختاره أبو حاتم ، اعتبارا بقوله : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ »[1] ومعناه أيضا بعدك؛ قال الشاعر:

عَقَت الديار خـلافهم فكأنما * بسط الشّـواطبُ بينهن حَصيـرَا

بسط البواسط؛ في المـاورديّ . يقال : شطبت المرأة الجريد إذا شقته لتعمل منـه الحصر . قال أبو عبيد : ثم تُلقيه الشاطبة إلى المُنَقِّية . وقيل : « خلفك » بمعنى بعـدك . « وخلافك » بمعنى مخالفتك؛ ذكره ابن الأنباريّ . ﴿ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن المدة التي لبثوها بعده ما بين إخراجهم له إلى قتلهم يوم بدر؛ وهذا قول من ذكر أنهم قريش. الثاني — ما بين ذلك وقتل بني قُريظة وجلاء بني النضير؛ وهذا قول من ذكر أنهم اليهود .

قوله تعـالى : سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ﴾ أي يعذّبون كسنة من قد أرسلنا ؛ فهو نصب بإضمار يعذبون؛ فلما سقط الخافض عمل الفعل ؛ قاله الفرّاء . وقيل : انتصب على معنى سنّناسنة من قد أرسلنا . وقيل : هو منصوب على تقدير حذف الكاف؛ التقـدير لا يلبثون خلفك إلا قليلا كسنة من قد أرسلنا ؛ فلا يوقف على هذا التقدير على قوله : «إلا قليلا» و يوقف على الأول والثاني . « قبلك من رسلنا » وقف حسن . ﴿ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ أي لا خُلف في وعدها .

قوله تعـالى : أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾

(١) آية ٨١ سورة التوبة .

فيـــه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ لمـا ذكر مكايد المشركين أمر نبيّه عليه السلام بالصبر والمحافظة على الصلاة، وفيها طلب النصر على الأعداء . ومثـله « وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَـدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » (١) . وتقدم القول فى معنى إقامة الصلاة فى أول سورة البقرة (٢) . وهذه الاية بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة . واختلف العلماء فى الدُّلوك على قولين : أحدهما — أنه زوال الشمس عن كَبِد السماء؛ قاله عمر وابنـه وأبو هريرة وابن عباس وطائفة سواهم من علمـاء التابعين وغيرهم . الثانى — أن الدلوك هو الغروب؛ قاله علىّ وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب، وروى عن ابن عباس . قال المـاوردىّ : من جعل الدُّلوك اسما لغروبهـا فلأن الإنسـان يدلُك عينيه براحته لتبيّنها حالة المغيب ، ومن جعـله اسما لزوالها فلأنه يدلك عينيه لشـدة شعاعها . وقال أبو عبيـد : دلوكها غروبهـا . ودلَكَتْ بَرَاحِ يعنى الشمس؛ أى غابت . وأنشد قُطْرب :

هــذا مُقامُ قَدَمَىْ رَبَاحِ　＊　ذَبَّب حـتى دَلَكتْ بَرَاحِ

براحِ (بفتح الباء) على وزن حَزام وقطام ورَقَاس اسم من أسماء الشمس . ورواه الفـرّاء (بكسر البـاء) (٣) وهو جمـع راحة وهى الكف؛ أى غابت وهو ينظر إليها وقد جعـل كفّه على حاجبه . ومنه قول العَجّاج :

والشمس قد كادت تكون دَنَفَا　＊　أدفعهـــا بالراح كى تَزَحْلَفَـا

قال ابن الأعرابىّ : الزُّحلوفة مكان منحدر أملس، لأنهم يتزحلفون فيه . قال : والزَّحْلفة كالدّحرجـة والدفع؛ يقال : زحلفتُـه فتزَحْلَف . ويقال : دلكت الشـمس إذا غابت . قال ذو الرُّمّة :

مصابيح ليست باللّواتى تقودها　＊　نجومٌ ولا بالافـلات الدّوالكِ

(١) آية ٩٧ سورة الحجر .　(٢) راجع جـ ١ ص ١٦٤ طبعة ثانية أو ثالثة .　(٣) أى باء الجر .

قال ابن عطية : الدلوك هو الميل — فى اللغـة — فأوّل الدلوك هو الزوال وآخره هو الغروب ؛ ومن وقت الزوال إلى الغروب يسمى دلوكا، لأنها فى حالة مَيل . فذكر الله تعالى الصلوات التى تكون فى حالة الدلوك وعنده؛ فيدخل فى ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخلة فى غَسَق الليل . وقد ذهب قوم إلى أن صلاة الظهر يتمادى وقتهـا من الزوال إلى الغروب؛ لأن الله سبحانه علق وجوبها على الدلوك، وهـذا دلوك كله؛ قاله الأوزاعىّ وأبو حنيفة فى تفصيل . وأشار إليه مالك والشافعىّ فى حالة الضرورة .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ﴾ روى مالك عن ابن عباس قال: دلوك الشمس ميلها ، وغسق الليل اجتماع الليل وظلمته . وقال أبو عبيدة : الغسق سواد الليل . قال ٱبن قَيْس الرُّقَيَّات :

إن هـــذا الليل قد غَسَقَا * واشتكيْتُ الهَمّ والأَرَقَا

وقد قيل : غسق الليل مغيب الشفق . وقيل : إقبال ظلمته . قال زهير :

ظلّت تجـود يداها وهى لاهية * حتى إذا جنح الإظلام والغَسق

يقال : غسق الليـل غسوقا . والغَسَق ٱسم بفتح السين . وأصل الكلمة من السيلان؛ يقال : غَسَقت العين إذا سالت ، تَغْسِق . وغَسَق الجرح غَسَقانا ، أى سال منه ماء أصفر . وأغسق المؤذّن ، أى أخر المغرب إلى غَسَق الليل . وحكى الفراء : غَسَق الليـل وأغسق ، وظَـلِم وأظلم، ودجا وأدجى ، وغَبَس وأغبس، وغَبِش وأغبش . وكان الربيع بن خُثَيم يقول لمؤذنه فى يوم غَيْم : أغسق أغسق . يقول : أخر المغرب حتى يَغسِق الليل ، وهو إظلامه .

الثالثـــة — اختلف العلماء فى آخر وقت المغرب ؛ فقيل : وقتها وقت واحد لا وقت لها إلا حين تحجب الشمس، وذلك بيّنٌ فى إمامة جبريل؛ فإنه صلاها باليومين لوقت واحد وذلك غروب الشـمس ، وهو الظـاهر من مذهب مالك عند أصحابه . وهو أحد قولى الشافعىّ فى المشهور عنه أيضا ، وبه قال الثورى . وقال مالك فى الموطأ : فإذا غاب الشفق فقد خرجْتَ من وقت المغرب ودخل وقت العشاء . وبهذا قال أبو حنيفة وأصحابه والحسن

ابن حَيّ وأحمد و إسحاق وأبو ثور وداود؛ لأن وقت الغروب إلى الشفق غسق كله . ولحديث أبي موسى ، وفيه : ان النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى بالسائل المغرب فى اليوم الثانى فأخّر حتى كان عند سقوط الشفق ؛ خرجه مسلم . قالوا : وهذا أولى من أخبار إمامة جبريل ؛ لأنه متأخر بالمدينــة و إمامة جبريل بمكة ، والمتأخر أولى من فعله وأمره ؛ لأنه ناسخ لمـا قبـله . وزعم ابن العربيّ أن هذا القول هو المشهور من مذهب مالك، وقوله فى موطّئه الذى أقرأه طول عمره وأملاه فى حياته .

والنكتة فى هذا أن الأحكام المتعلقة بالأسماء هل تتعلق بأوائلها أو بآخرها أو يرتبط الحكم بجميعها ؟ والأقوى فى النظر أن يرتبط الحكم بأوائلها لئلا يكون ذكرها لغوًا فإذا ارتبط بأوائلها جرى بعد ذلك النظر فى تعلقه بالكلّ إلى الآخر .

قلت : القول بالتّوسعة أرجح . وقد خرّج الإمام الحافظ أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث الأجلح بن عبدالله الكندى عن أبى الزبير عن جابر قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسـلم من مكة قريبا من غروب الشمس فلم يُصَـلّ المغرب حتى أتى سَرِف ، وذلك تسعة أميال . وأما القول بالنسخ فليس بالبيّن و إن كان التاريخ معـلوما ؛ فإن الجمـع ممكن . قال علماؤنا : تُحمل أحاديث جبريل على الأفضلية فى وقت المغرب ، ولذلك اتفقت الأمة فيها على تعجيلها والمبادرة إليهـا فى حين غروب الشمس . قال ابن خُوَيْزِمَنْداد : ولا نعلم أحدا من المسلمين تأخّر بإقامة المغرب فى مسجد جمـاعة عن وقت غروب الشمس . وأحاديث التّوسـعة تبين وقت الجواز ، فيرتفع التعارض و يصح الجمع ، وهو أولى من الترجيح باتفاق الأصوليين ؛ لأن فيه إعمال كل واحد من الدليلين ، والقول بالنسخ أو الترجيح فيه إسقاط أحدهما . والله أعلم .

الرابعــة ـــ قوله تعـالى : ﴿ وقُرْآنَ الْفَجْرِ ﴾ انتصب «قرآن» من وجهين : أحدهما أن يكون معطوفا على الصلاة ؛ المعنى : وأقم قرآن الفجر أى صلاة الصبح ؛ قاله الفراء . وقال أهل البصرة . انتصب على الإغراء ؛ أى فعليك بقرآن الفجر؛ قاله الزجاج . وعبّر عنها بالقرآن

خاصة دون غيرها من الصلوات؛ لأن القرآن هو أعظمها، إذ قراءتها طويلة مجهور بها حسبما هو مشهور مسطور؛ عن الزجاج أيضا .

قلت : وقد استقرّ عمل المدينة على استحباب إطالة القراءة فى الصبح قـدرا لا يضر بمن خلفه — يقرأ فيها بطوال المفصّل ، ويليها فى ذلك الظهر والجمعة — وتخفيف القراءة فى المغرب وتوسطها فى العصر والعشاء . وقـد قيل فى العصر : إنهـا تخفَّف كالمغرب . وأما ما ورد فى صحيح مسـلم وغيره من الإطالة فيما استقرّ فيه التقصير، أو من التقصير فيما اسـتقرّت فيه الإطالة؛ كقراءته فى الفجر المعوذتين — كما رواه النّسائىّ — وكقراءة الأعراف والمرسلات والطور فى المغـرب ، فمتروك بالعمل . ولإنكاره على معاذ التطويل حين أمّ قومه فى العشاء فافتتح سورة البقرة . خرّجه الصحيح . وبأمره الأئمة بالتخفيف فقال : "أيها الناس إن منكم منفّرين فأيكم أمّ الناس فليخفف فإن فيهم الصـغير والكبير والمريض والسقيم والضعيف وذا الحاجة" . وقال : "فإذا صلى أحدكم وحده فليطوّل ماشاء" . كله مسطور فى صحيح الحديث .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ دليل على أن لا صلاة إلا بقراءة؛ لأنه سَمّى الصلاة قرآنا . وقد اختلف العلمـاء فى القراءة فى الصلاة فذهب جمهورهم إلى وجوب قراءة أم القرآن للإمام والفَذّ فى كل ركعة . وهو مشهور قول مالك . وعنه أيضا أنها واجبة فى جُلّ الصلاة . وهو قول إسحاق . وعنه أيضا تجب فى ركعة واحدة؛ قاله المُغيرة وسُحْنُون . وعنه أن القراءة لا تجب فى شىء من الصلاة . وهو أشـذّ الروايات عنه . وحُكى عن مالك أيضا أنها تجب فى نصف الصلاة ، وإليه ذهب الأوزاعىّ . وعن الأوزاعىّ أيضا وأيوب أنهـا تجب على الإمام والفَـذّ والمأموم على كل حال . وهو أحد قولى الشافعىّ . وقد مضى فى (الفاتحة)[1] مستوفًى .

السادســـة — قوله تعـالى : ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾ روى الترمذىّ عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم فى قوله : « وقرآنَ الفجرِ إن قرآن الفَجْرِ كان مشهودًا » قال : "تشهده

(١) راجع جـ ١ ص ١١٧ وما يليها طبعة ثانية أو ثالثة .

ملائكة الليل وملائكة النهار" هذا حديث حسن صحيح . ورواه عليّ بن مُسْهِر عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة وأبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " فَضْلُ صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهــار في صلاة الصبح " . يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم « وقرآنَ الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا » . ولهذا المعنى يُبَكَّر بهذه الصلاة ، فمن لم يبكر لم تشهد صــلاته إلا إحدى الفئتين من الملائكة . ولهــذا المعنى أيضا قال مالك والشافعيّ : التغليس بالصبح أفضــل . وقال أبو حنيفــة : الأفضل الجمع بين التغليس والإسفار ، فإن فاته ذلك فالإسفار أَوْلَى من التغليس . وهــذا مخالف لمــا كان عليه السلام يفعله من المداومة على التغليس ، وأيضا فإن فيه تفويتَ شهود ملائكة الليل . والله أعلم .

السابعــــة ــ استدلّ بعض العلماء بقوله صلى الله عليــه وسلم : " تشهده ملائكة الليل وملائكة النهــار " على أن صلاة الصبح ليست من صلاة الليل ولا من صلاة النهار .

قلت : وعلى هذا فلا تكون صلاة العصر أيضا لا من صلاة الليل ولا من صلاة النهار ؛ فإن في الصحيح عن النبيّ الفصيح عليه السلام فيما رواه أبو هريرة : " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر " الحديث . ومعلوم أن صلاة العصر من النهار فكذلك تكون صلاة الفجر من الليل وليس كذلك ، وإنما هي من النهار كالعصر بدليل الصيام والأيمان ، وهذا واضح .

قوله تعــالى : وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعــالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ « من » للتبعيض . والفاء في قوله « فتهجّد » ناسقة على مضمر ، أي قم فتهجد . ﴿ به ﴾ أي بالقرآن . والتَّهجُّد من الهجود وهو من الأضداد . يقال : هجد نام ، وهجد سهر ؛ على الضد . قال الشاعر :

ألا زارَتْ وأهلُ مِنًى هجود * وليْت خيـالها بمِنًى يعـود

آخــر :

أَلَا طرقتنا والرّفاق هجـود * فباتت بِعَلّات النوال تجود (١)

يعنى نِيـاما . وهجد وتهجد بمعنًى . وهجّدته أى أنمته ، وهجّدته أى أيقظته . والتهجّد التيقظ بعـد رَقْدة ، فصار اسما للصلاة ؛ لأنه ينتبه لها . فالتهجد القيام إلى الصلاة من النوم . قال معناه الأسود وعلقمة وعبد الرحمن بن الأسود وغيرهم . وروى إسماعيل بن إسحاق القاضى من حديث الحجاج بن عمرو صاحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : أيحسب أحدكم إذا قام من الليل كلّه أنه قد تهجد ! إنمـا التهجد الصلاة بعـد رَقْدة ثم الصلاة بعد رَقْدة ثم الصلاة بعد رقدة . كذلك كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : الهجود النوم . يقال : تهجد الرجل إذا سهر ، وألقى الهجود وهو النوم . ويسمى من قام إلى الصلاة متهجدا ؛ لأن المتهجد هو الذى يُلقى الهجود الذى هو النـوم عن نفسه . وهـذا الفعل جارٍ مجـرى تحوّب وتحرّج وتأثّم وتحنّث وتقذّر وتنجّس ؛ إذا ألقى ذلك عن نفسه . ومثله قوله تعالى : « فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٢) » معناه تنـدّمون ؛ أى تطرحون الفكاهـة عن أنفسكم ، وهى انبساط النفـوس وسرورها . يقال رجل فَكِه إذا كان كثير السرور والضحك . والمعنى فى الآية : ووقتا من الليل اسْهر به فى صلاة وقراءة .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ نَافِلَةً لَكَ ﴾ أى كرامة لك ؛ قاله مقاتل . واختلف العلماء فى تخصيص النبيّ صلى الله عليه وسلم بالذكر دون أمتـه ؛ فقيل : كانت صلاة الليل فريضة عليه لقوله : « نافلة لك » أى فريضة زائدة على الفريضة الموظفة على الأمة .

قلت : وفى هذا التأويل بُعْدٌ لوجهين : أحدهما ــ تسمية الفرض بالنفل ، وذلك مجاز لا حقيقة . الثانى ــ قوله صلى الله عليه وسلم : "خمس صلوات فرضهن الله على العباد" ، وقوله تعالى : "هن خمس وهن خمسون لا يُبَدَّل القولُ لَدَىَّ" وهـذا نص ، فكيف يقال افترض عليه صلاة زائدة على الخمس ، هذا ما لا يصح ؛ وإن كان قد روى عنه عليه السلام :

(١) العَلّة (هنا) : ما يتعلل به ؛ مثل التَّعِلّة . (٢) آية ٦٥ سورة الواقعة .

" ثلاث علىّ فريضة ولأمتى تطوع قيام الليل والوتر والسواك " . وقيل : كانت صلاة الليل تطوعا منه وكانت فى الابتداء واجبة على الكل ، ثم نسخ الوجوب فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة ؛ كما قالت عائشة ، على ما يأتى مبيّنا فى سورة « المُزَّمِّل » إن شاء الله تعالى . وعلى هذا يكون الأمر بالتنفل على جهة الندب ويكون الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مغفور له . فهو إذا تطوّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادة فى الدرجات . وغيره من الأمة تطوّعهم كفارات وتدارك لخلل يقع فى الفرض؛ قال معناه مجاهد وغيره . وقيل : عطية؛ لأن العبد لا ينال من السعادة عطاء أفضل من التوفيق فى العبادة .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ اختلف فى المقام المحمود على أربعة أقوال :

الأوّل — وهو أصحها — الشفاعة للناس يوم القيامة؛ قاله حُذيفة بن اليَمَان . وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًا[1] كل أمة تتبع نبيها تقول : يا فلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فذلك يوم يبعثه الله المقامَ المحمود . وفى صحيح مسلم عن أنس قال حدّثنا محمد صلى الله عليه وسلم قال : " إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض فيأتون آدم فيقولون له اشفع لذرّيتك فيقول لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله فيأتون إبراهيم فيقول لست لها ولكن عليكم بموسى فإنه كليم الله فيؤتى موسى فيقول لست لها ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته فيؤتى عيسى فيقول لست لها ولكن عليكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فأُوتَى فأقول أنالها " وذكر الحديث . وروى الترمذيّ عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : « عسى أن يبعثك ربُّك مقاما محمودا » سئل عنها قال : " هى الشفاعة " قال : هذا حديث حسن صحيح .

---

(١) جثا (جمع جُثوة كخطوة وخطا) أى جماعات .

الرابعـــة — إذا ثبت أن المقام المحمود هو أمر الشفاعة الذى يتدافعه الأنبياء عليهم السلام، حتى ينتهى الأمر إلى نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم فيشفع هذه الشفاعة لأهل الموقف ليعجّل حسابهم و يراحوا من هول موقفهم، وهى الخاصة به صلى الله عليه وسلم؛ ولأجل ذلك قال: "أنا سيد ولد آدم ولا فخر". قال النقاش : لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث شفاعات: العامة، وشفاعة فى السبق إلى الجنة، وشفاعة فى أهل الكبائر. ابن عطية : والمشهور أنهما شفاعتان فقط: العامة، وشفاعة فى إخراج المذنبين من النار. وهذه الشفاعة الثانية لا يتدافعها الأنبياء بل يشفعون و يشفع العلماء. وقال القاضى أبو الفضل عياض : شفاعات نبينا صلى الله عليه وسلم يوم القيامة خمس شفاعات: العامة. والثانية فى إدخال قوم الجنة دون حساب. الثالثة فى قوم من موحِّدِى أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم، ومَن شاء الله أن يشفع و يدخلون الجنة. وهذه الشفاعة هى التى أنكرتها المبتدعة الخوارج والمعتزلة، فمنعتها على أصولهم الفاسدة، وهى الاستحقاق العقلى المبنىّ على التحسين والتقبيح. الرابعة فيمن دخل النار من المذنبين فيخرجون بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والملائكة و إخوانهم المؤمنين. الخامسة فى زيادة الدرجات فى الجنة لأهلها وترفيعها، وهذه لا تنكرها المعتزلة ولا تنكر شفاعة الحشر الأوّل.

الخامســـة — قال القاضى عياض : وعرف بالنقل المستفيض سؤالُ السلف الصالح لشفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم ورغبتهم فيها، وعلى هذا لا يلتفت لقول من قال : إنه يكره أن تسأل الله أن يرزقك شفاعة النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنها لا تكون إلا للمذنبين، فإنها قد تكون كما قدّمنا لتخفيف الحساب وزيادة الدرجات. ثم كل عاقل معترف بالتقصير محتاج إلى العفو غير معتدّ بعمله مشفق أن يكون من الهالكين، و يلزم هذا القائل ألا يدعو بالمغفرة والرحمة؛ لأنها لأصحاب الذنوب أيضا، وهذا كله خلاف ماعرف من دعاء السلف والخلف. روى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا — صلى الله عليه وسلم — الوسيلة والفضيلة وآبعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلّت له شفاعتى يوم القيامة".

القول الثاني — أن المقام المحمود إعطاؤه لواء الحمد يوم القيامة .

قلت : وهـذا القول لا تنافر بينه وبين الأول؛ فإنه يكون بيده لواء الحمـد ويشفع . روى الترمذى عن أبى سعيد الخُدْرِىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمـد ولا فخر وما من نبىّ يومئـذ آدمَ فمن سواه إلا تحت لوائى " الحديث .

القول الثالث — ما حكاه الطبرى عن فرقة، منها مجـاهد ، أنها قالت : المقام المحمود هو أن يُجلس الله تعـالى محمدا صلى الله عليه وسلم معه على كرسيّه؛ وروت فى ذلك حديثا . وعَضَد الطبرىّ جواز ذلك بشطط من القول، وهو لايخرج إلا على تلطُّف فى المعنى، وفيـه بُعْدٌ . ولا يُنْكَر مع ذلك أن يروَى، والعـلم يتأوّله . وذكر النقاش عن أبى داود السِّجِسْتَانىّ أنه قال : من أنكر هـذا الحديث فهو عندنا مُتَّهَم، ما زال أهل العلم يتحدّثون بهذا ، من أنكر جوازه على تأويله . قال أبو عمر ومجاهد : وإن كان أحد الأئمة يتأول القرآن فإن له قولين مهجورين عند أهل العـلم : أحدهما هذا والثانى فى تأويل قوله تعـالى : « وُجُوهٌ يومئـذٍ ناضِرَةٌ . إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ »[1] قال : تنتظر الثواب؛ ليس من النظر .

قلت : ذكر هذا فى باب ٱبْنُ شهاب فى حديث التنزيل. وروى عن مجاهد أيضا فى هذه الآية قال : يُجلسه على العرش . وهـذا تأويل غير مستحيل ؛ لأن الله تعالى كان قبل خلقه الأشياء كلِّها والعرشَ قائمـا بذاته ، ثم خلق الأشياء من غير حاجة إليها ، بل إظهارا لقـدرته وحكمته، وليُعـرف وجوده وتوحيده وكمال قدرته وعلمه بكل أفعاله المحكمـة ، وخلق لنفسه عرشا استوى عليـه كما شاء من غير أن صار له مماسا ، أو كان العرش له مكانا . قيل : هو الآن على الصفة التى كان عليها من قبل أن يخلق المكان والزمان؛ فعلى هذا القول سواء فى الجواز أقعد محمد على العرش أو على الأرض ؛ لأن استواء الله تعالى على العرش ليس بمعنى الانتقال والزوال وتحويل الأحوال من القيام والقعود والحال التى تشغل العرش ، بل هو مستوٍ على عرشه

(١) آية ٢٢ سورة القيامة .

كما أخبر عن نفسه بلا كَيْف . وليس إقعاده محمدا على العرش موجبا له صفة الربوبية أو مُخرجا له عن صــفة العبودية ، بل هو رفع لمحله وتشريف له على خلقــه . وأما قوله فى الإخبار : " معه " فهو بمنزلة قوله : « إن الذين عِند ربك »[(١)] ، و«رَبِّ ابْنِ لِى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الْجَنَّةِ»[(٢)] ، « وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »[(٣)] ونحو ذلك . كل ذلك عائد إلى الرتبة والمنزلة والحُظْوة والدرجة الرفيعة ، لا إلى المكان .

الرابـــع — إخراجه من النار بشفاعته من يخرج؛ قاله جابر بن عبد الله . ذكره مسلم . وقد ذكرناه فى ( كتاب التذكرة ) والله الموفق .

السادســـة — اختلف العلمـاء فى كون القيام بالليل سببا للمقـام المحمود على قولين : أحدهما — أن البارئ تعالى يجعل ما شاء من فعـله سببا لفضله من غير معرفة بوجه الحكمة فيه، أو بمعرفة وجه الحكمة . الثانى — أن قيام الليل فيه الخلوة مع البارئ والمناجاة دون الناس ، فأعطى الخلوة به ومناجاته فى قيامه وهو المقام المحمود . ويتفاضل فيه الخلق بحسب درجاتهم ، فأجلّهم فيــه درجة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه يُعْطَى ما لا يُعطى أحد ويشفع ما لا يشفع أحد . و« عسى» من الله عز وجل واجبة . و« مقاما » نصب على الظرف . أى فى مقام أو إلى مقام . وذكر الطبرى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المقام المحمود هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى". فالمقام الموضع الذى يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة كالمقامات بين يدى الملوك .

قوله تعـالى : وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠)

قيــل : المعنى أمتنى إماتة صدق، وابعثنى يوم القيامة مبعث صــدق؛ ليتصل بقوله : « عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُــودًا » . كأنه لمـا وعده ذلك أمره أن يدعو لِيُنْجِـز له

(١) آخر سورة الأعراف . (٢) آية ١١ سورة التحريم . (٣) آخر سورة العنكبوت .

الوعد . وقيل : أدخلنى فى المأمور وأخرجنى من المنهىّ . وقيل : علّمه ما يدعو به فى صلاته وغيرها من إخراجه من بين المشركين و إدخاله موضــع الأمن؛ فأخرجه من مكة وصــيره إلى المدينة . وهذا المعنى رواه الترمذى عن ابن عباس قال : كان النبيّ صلى الله عليــه وسلم بمكة ثم أمر بالهجرة فنزلت « وقل رب أدخلنى مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجنى مُخْـرَجَ صِدقٍ واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » قال : هــذا حديث حسن صحيح . وقال الضحاك : هو خروجه من مكة ودخوله مكة يوم الفتح آمنا . أبو سهل : حين رجع من تبُوك وقد قال المنافقون : « لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَـا الْأَذَلَّ »(1) يعنى إدخال عز و إخراج نصر إلى مكة . وقيــل : المعنى أدخلنى فى الأمر الذى أكرمتنى به من النبوّة مدخل صدق وأخرجنى منه مخرج صدق إذا أمَتَّنِى؛ قال معناه مجاهد . والمدخل والمخرج (بضم الميم) بمعنى الإدخال والإخراج؛ كقوله : « أَنْزِلْنِي مُنْزَلا مباركا »(2) أى إنزالا لا أرى فيه ما أكره . وهى قراءة العامة . وقرأ الحسن وأبو العالية ونصر بن عاصم « مَدخل » و « مخــرج » بفتح الميمين بمعنى الدخول والخــروج ؛ فالأوّل رباعى وهــذا ثلاثى . وقال ابن عباس : أدخلنى القبر مدخل صدق عنــد الموت وأخرجنى مخرج صــدق عند البعث . وقيل : أدخلنى حيثما أدخلتنى بالصدق وأخرجنى بالصدق ؛ أى لا تجعلنى ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه؛ فإن ذا الوجهين لا يكون وجيها عندك . وقيل : الآية عامة فى كل ما يُتناول من الأمور ويحاول من الأسفار والأعمــال ، ويُنتظر من تصرف المقادير فى الموت والحياة . فهى دعاء ، ومعناه : رب أصلح لى وِرْدِى فى كل الأمور وصَدَرِى . وقوله : ﴿وَٱجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ قال الشعبيّ وعكرمة : أى حجة ثابتة . وذهب الحسن إلى أنه العز والنصر و إظهار دينه على الدين كله . قال : فوعده الله لَيَنْزِعَنَّ مُلْك فارس والروم وغيرها فيجعله له .

قوله تعــالى : وَقُــلْ جَآءَ ٱلْحَــقُّ وَزَهَــقَ ٱلْبَـٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

---

(1) آية ٨ سورة المنافقون .		(2) آية ٢٩ سورة المؤمنون .

فيـــه ثلاث مسائل :

الأولى — روى البخارى والترمذى عن ابن مسعود قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة عام الفتح وحول الكعبة ثلثمائة وستون نُصُباً ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يطعنها بمخصرة فى يده — وربما قال بعود — ويقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا . جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد " لفظ الترمذى . وقال : هذا حديث حسن صحيح . وكذا فى حديث مسلم « نُصُبا » . وفى رواية صنما . قال علماؤنا : إنما كانت بهذا العدد لأنهم كانوا يعظّمون فى يوم صنما ويخصون أعظمها بيومين . وقوله : "فجعل يطعنها بعود فى يده" يقال : إنها كانت مثبتة بالرّصاص وأنه كلما طعن منها صنما فى وجهه خرّ لقفاه، أو فى قفاه خرّ لوجهه . وكان يقول : " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " حكاه أبو عمر والقاضى عِياض . وقال القشيرى : فما بقى منها صنم إلا خرّ لوجهه ، ثم أَمَر بها فكسرت .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليـل على كسر نُصُب المشركين وجميع الأوثان إذا غُلب عليهم ، ويدخل بالمعنى كسر آلة الباطل كله ، وما لا يصلح إلا لمعصية الله كالطنابير والعيدان والمزامير التى لا معنى لها إلا اللهو بها عن ذكر الله تعالى . قال ابن المنذر : وفى معنى الأصنام الصُّـوَر المتّخذة من المَدَر والخشب وشبهها ، وكل ما يتخذه الناس مما لا منفعة فيه إلا اللهو المنهىّ عنه . ولا يجوز بيع شىء منه إلا الأصنام التى تكون من الذهب والفضة والحديد والرصاص، إذا غُيِّرت عما هى عليه وصارت نُقَرا[1] أو قطعا فيجوز بيعها والشِّراء بها . قال المهلّب : وما كسر من آلات الباطل وكان فى حبسها بعد كسرها منفعةٌ فصاحبها أَوْلَى بها مكسورة ؛ إلا أن يرى الإمام حرقها بالنار على معنى التشديد والعقوبة فى المال . وقد تقدّم حرق ابن عمر رضى الله عنه . وقد همّ النبىّ صلى الله عليه وسلم بتحريق دور من تخلف عن صلاة الجماعة . وهذا أصل فى العقوبة فى المال مع قوله عليه السلام فى الناقة التى لعنتها صاحبتها :

(١) النقرة : السبيكة .

" دعوها فإنها ملعونة " فأزال ملكها عنهـا تأديبا لصاحبتها ، وعقوبة لهـا فيما دعت عليـه بمـا دعت به . وقد أراق عمر بن الخطاب رضى الله عنه لَبَناً شِيب بماء على صاحبه .

الثالثــة ـــ ما ذكرنا من تفسير الآية ينظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ عيسى بن مريم حكما عادلا فَلَيَكْسِرَنّ الصليب وَلَيقتلُنّ الخنزير ولَيَضَعنّ الجزْية وَلَتُتْرَكَنّ القِلاص[1] فلا يُسعى عليها " الحديث . خرجه الصحيحان . ومن هذا الباب هتك النبيّ صلى الله عليه وسلم الستر الذى فيه الصور، وذلك أيضا دليل على إفساد الصور وآلات الملاهى كما ذكرنا . وهذا كله يحظر المنع من اتخاذها و يوجب التغيير على صاحبها . إن أصحاب هــذه الصور يعذبون يوم القيامة و يقال لهم : أحيوا ما خلقتم ؛ وحسبك! وسيأتى هــذا المعنى فى « النمــل » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقّ ﴾ أى الإسلام . وقيل : القرآن؛ قاله مجاهد . وقيل : الجهاد . ﴿ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ قيل الشرك . وقيل الشيطان ؛ قاله مجاهـد . والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التفسير جاء الشرع بجميع ما انطوى فيــه . « وزهق الباطل » : بطــل الباطل . ومن هــذا زهوق النفس وهو بطلانها . يقــال زَهقت نفسه تَزهَق زهوقا ، وأزهقتها . ﴿ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أى لا بقاء له، والحق الذى يثبت .

قوله تعــالى : وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

فيـــه سبع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرأ الجمهور بالنون . وقرأ مجاهد « و يُنْزِل » بالياء خفيفة، ورواها المروزىّ عن حفص . و « مِن » لابتــداء الغاية ، و يصح أن تكون لبيان الجنس ؛ كأنه قال : وننزل ما فيــه شفاء من القرآن . وفى الخــبر" من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن

(١) القلاص ( بكسر القاف جمع القلوص بفتحها ) وهى الناقة الشابة .

فلا شفاه الله " . وأنكر بعض المتأولين أن تكون « مِن » للتبعيض ؛ لأنه يحفظ من أن يلزمه ان بعضه لا شفاء فيه . ابن عطية : وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون للتبعيض بحسب أن إنزاله إنما هو مبعّض ؛ فكأنه قال : وننزل من القرآن شيئا شفاء؛ ما فيه كله شفاء .

الثانيـــة — اختلف العلماء فى كونه شــفاء على قولين : أحدهما — أنه شفاء للقلوب بزوال الجهل عنها و إزالة الرّيب ، ولكشف غطاء القلب من مرض الجهل لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى . الثانى — شفاء من الأمراض الظاهرة بالرُّقَى والتعوّذ ونحوه . وقد روى الأئمة — واللفظ للدارقطنىّ — عن أبى ســعيد الخُدْرِىّ قال : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سَرِيّة ثلاثين راكبا قال : فنزلنا على قوم من العرب فسألناهم أن يُضيفونا فأبَوْا ؛ قال : فلُدِغ ســيد الحىّ ، فأتونا فقالوا : فيكم أحد يَرْقِى من العقرب ؟ فى رواية ابن قَتّــة : إن الملك يموت . قال : قلت أنا نعم ، ولكن لا أفعــل حتى تعطونا . فقالوا : فإنا نعطيكم ثلاثين شاة . قال : فقرأت عليه « الحمــد لله رب العــالمين » ســبع مرات فبرأ . فى رواية سليمان بن قتة عن أبى سعيد : فأفاق و برأ . فبعث إلينا بالنُّزل و بعث إلينا بالشاء ، فأكلنا الطعام أنا وأصحابى وأبَوْا أن يأكلوا من الغنم ، حتى أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته الخبر فقال : " وما يدريك أنها رقية " قلت : يا رســول الله ، شىء أُلقى فى رُوعِى . قال : " كلوا وأطعمونا من الغنم " خرّجه فى كتاب السنن . وخرّج فى (كتاب المــديح)[1] من حديث السِّرِىّ بن يحيى قال : حدثنى المعتمر بن ســليمان عن ليث بن أبى ســليم عن الحسن عن أبى أُمامة عن رســول الله صلى الله عليه وســلم أنه قال : " ينفــع باذن الله تعــالى من البرص والجنون والجذام والبطن والسُّلّ والحُمّى والنّفْس أن تكتب بزعفران أو بمشق — يعنى المَغْرة — أعوذ بكلمات الله التــامة وأسمائه كلّها عامةً من شر السّامة والغــامة ومن شر العين اللامّة ومن شر حاسد إذا حســد ومن أبى قَروة وما ولد " . كذا قال ، ولم يقل من شر أبى قِتْرة[2] . العين اللامّة : التى تصيب بسوء . تقول : أُعيذه من كل هامّة لامّة . وأما قوله :

(١) فى بعض الأصول : « المذبح » ولم نوفق لتصويبه .

(٢) أبو قترة (بكسر القاف وسكون التاء) : كنية إبليس .

أعيــذه من حادثات اللّمة فيقــول : هو الدهر . ويقال الشــدة . والسامة : الخــاصة . يقال : كيف السامة والعامة . والسامة السم . ومن أبى فروة وما ولد . وقال : ثلاثة وثلاثون من الملائكة أتوا ربّهم عز وجل فقــالوا : وَصَبٌ بأرضنا . فقال : خذوا تربة من أرضكم فآمسحوا نواصيكم . أو قال : نوصيكم رقيــة محمد صلى الله عليه وسلم لا أفلح من كتمها أبدا أو أخذ عليها صَفَدا(١) ". ثم تكتب فاتحة الكتاب وأربع آيات من أول البقرة ، والآية التى فيها تصريف الرياح وآية الكرسى والآيتين اللتين بعدها، وخواتيم ســورة البقرة من موضع « لِلّهِ ما فِى السموات وما فِى الارض » إلى آخرها، وعشرا من أوّل « آل عمرانــ » وعشرا من آخرها، وأوّل آية من النساء، وأوّل آية من المــائدة، وأوّل آية من الأنعــام، وأوّل آية من الأعراف، والآية التى فى الأعراف « إِنّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّــمَوَاتِ وَالْأَرْضَ(٢) » حتى تختم الآية ؛ والآية التى فى « يونس» من موضع « قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ(٣) » ، والآية التى فى طه « وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(٤) » ، وعشرا من أوّل الصافات ، و «قل هو الله أحد » ، والمعوِّذَتين . تكتب فى إناء نظيف ثم تغسل ثلاث مرات بماء نظيف ثم يحثو منه الوجع ثلاث حَثَوات ثم يتوضأ منــه كوضوئه للصلاة ويتوضأ قبل وضوئه للصلاة حتى يكون على طهر قبل أن يتوضأ به ثم يصب على رأسه وصدره وظهره ولا يستنجى به ثم يصلى ركعتين ثم يستشفى الله عز وجل؛ يفعل ذلك ثلاثة أيام، قدر ما يكتب فى كل يوم كتابا . فى رواية : ومن شر أبى قِتْرة وما ولد . وقال : " فآمسحوا نواصيكم" ولم يشك . وروى البخارىّ عن عائشة أن النبىّ صــلى الله عليه وسلم كان يَنْفُث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوِّذات فلما ثقل كنت أنْفُث عليــه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها . فسألت(٥) الزهرى كيف كان ينفث ؟ قال : كان يَنْفُث على يديه ثم يمسح بهما وجهــه . وروى مالك عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى قرأ على نفسه

(١) الصفد : العطاء .　(٢) آية ٥٤　(٣) آية ٨١　(٤) آية ٦٩

(٥) السائل هو عروة بن الزبير راوى الحديث .

المعوِّذتين وتَفَـل أو نَفَث . قال أبو بكر بن الأنبارى : قال اللغويون تفسير « نفث » نفخ نفخا ليس معه ريق . ومعنى « تَفَل » نفخ نفخا معه ريق . قال الشاعر :

فإن يَبْرأ فلم أنْفِث عليـه * وإن يُفْقَـد فحـقّ له الفُقُود

وقال ذو الرُّمّة :

ومن جَوْف ماءٍ عَرْمَض الحَوْل فـوقه * متى يَحْسُ منـه مائحُ القوم يَتْفُـلِ (١)

أراد ينفخ بريق . وسيأتى ما للعلماء فى النفث فى سورة الفلق إن شاء الله تعالى .

الثالثـة — روى ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليـه وسلم كان يكره الرُّقَى إلا بالمعوِّذات . قال الطبرى : وهذا حديث لا يجوز الاحتجاج بمثله فى الدِّين؛ إذ فى نقلته من لا يُعرف . ولو كان صحيحا لكان إما غلطا وإما منسوخا؛ لقوله عليه السلام فى الفاتحة "ما أدراك أنها رُقية" . وإذا جاز الرقى بالمعوذتين وهما سورتان من القرآن كانت الرقية بسائر القرآن مثلهما فى الجواز إذ كله قرآن . وروى عنه عليـه السلام أنه قال : "شـفاء أمتى فى ثلاثٍ آية من كتاب الله أو لعقة من عسل أو شرطة من مِحجم" . وقال رجاء الغَنَوِىّ : ومن لم يستشف بالقرآن فلا شفاء له .

الرابعـة — وٱختلف العلماء فى النُّشْرة، وهى أن يكتب شيئا من أسماء الله أو من القرآن ثم يغسله بالمـاء ثم يمسح به المريض أو يسقيه، فأجازها سعيد بن المسيِّب . قيل له : الرجل يؤخذ عن امرأته أيُحَلّ عنه ويُنْشر ؟ قال : لا بأس به ، وما ينفع لم يُنه عنه . ولم ير مجاهد أن تُكتب آيات من القرآن ثم تغسل ثم يسقاه صاحب الفزع . وكانت عائشة تقرأ بالمعوِّذتين فى إناء ثم تأمر أن يُصب على المريض . وقال المـازَرِىّ أبو عبد الله : النُّشرة أمر معروف عند أهل التعزيم؛ وسُمِّيت بذلك لأنهـا تنشر عن صاحبها أى تَحُلّ . ومنعها الحسن وإبراهيم النَّخَعِىّ، قال النَّخعِىّ : أخاف أن يصيبه بلاء؛ وكأنه ذهب إلى أنه مايجىء به القرآن فهـو

(١) العرمض : الخضرة التى تعلو الماء، وهى الرمض والعلق والطحلب . والمـائح (بالهمز) : الذى ينزل البئر فيملأ الدلو . والمـاتح (بالتاء) : الذى يجذب الدلو .

إلى أن يعقب بلاء أقرب منـه إلى أن يفيد شفاء . وقال الحسن : سألت أنسا فقال : ذكروا عن النبيّ صـلى الله عليه وسلم أنها من الشيطان . وقد روى أبو داود من حديث جابر آبن عبدالله قال : سئل رسول‌الله صلى‌الله عليه وسلم عن‌النُّشْرة فقال : "من عمل الشيطان". قال آبن عبد البر . وهذه آثار لينة ولهـا وجوه محتمله ، وقد قيل : إن هذا محمول على ما إذا كانت خارجة عما فى كتاب الله وسنة رسوله عليـه السلام ، وعن المداواة المعروفة . والنشرة من جنس الطب فهى غسالة شىء له فضل ، فهى كوضوء رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقال صلى الله عليه وسلم : " لا بأس بالرُّقَى مالم يكن فيـه شرك ومن استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل " .

قلت : قد ذكرنا النص فى النشرة مرفوعا وأن ذلك لا يكون إلا من كتاب الله فليعتمد عليه .

الخامســـة ــ قال مالك : لابأس بتعليق الكتب التى فيها أسمـاء الله عز وجل على أعناق المرضى على وجه التبرّك بها إذا لم يُرِد معلِّقُها بتعليقها مدافعة العين . وهذا معناه قبل أن ينزل به شىء من العين . وعلى هذا القول جماعة أهل العلم ، لا يجوز عندهم أن يعلَّق على الصحيح من البهائم أو بنى آدم شىء من العلائق خوف نزول العين ، وكل ما يعلَّق بعد نزول البلاء من أسماء الله عز وجل وكتابه رجاء الفرج والبُرْء من الله تعالى ، فهو كالرُّقَى المباح الذى وردت السنة بإباحته من العين وغيرها . وقد روى عبـد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا فَزِع أحدكم فى نومه فليقل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وسوء عقابه ومن شر الشياطين وأن يَحْضُرون " . وكان عبد الله يعلّمها ولده من أدرك منهم ، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليـه . فإن قيل : فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من علّق شيئا وُكِل إليه" . ورأى آبن مسعود على أمّ ولده تميمة مربوطة فجَبَـذَها جَبْذا شديدا فقطعها وقال : إن آل آبن مسعود لأغنياءُ عن الشِّرك ، ثم قال : إن التمائم والرّقى والتِّوَلَة من الشرك . قيـل : ما التِّوَلَة ؟ قال : ما تحبّبت به لزوجها . وروى عن عقبـة بن عامر الجهنى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " من علق تميمة فلا أتم الله له

ومن علق وَدَعة فلا وَدَع الله له قلبا". قال الخليل بن أحمد : التميمة قِلادة فيها عُوَذ، والوَدَعة خرز. وقال أبو عمر: التميمة فى كلام العرب القِلادة، ومعناه عند أهل العلم ما علق فى الأعناق من القلائد خشية العين أو غيرها أن تنزل أو لا تنزل قبل أن تنزل . فلا أتمّ الله عليه صحته وعافيته، ومن تعلّق وَدَعة — وهى مثلها فى المعنى — فلا ودَع الله له ؛ أى فلا بارك الله له ما هو فيه من العافية . والله أعلم . وهذا كله تحذير مما كان أهل الجاهلية يصنعونه من تعليق التمائم والقلائد، ويظنون أنها تقيهم وتصرِف عنهم البلاء، وذلك لا يصرفه إلا الله عز وجل، وهو المعافى والمبتلى، لا شريك له . فنهاهم رسول الله صـلى الله عليه وسلم عما كانوا يصنعون من ذلك فى جاهليتهم . وعن عائشة قالت : ما تعلق بعـد نزول البلاء فليس من التمـائم . وقد كره بعض أهل العلم تعليق التميمة على كل حال قبل نزول البلاء وبعده . والقول الأوّل أصح فى الأثر والنظر إن شاء الله تعالى . وما روى عن ابن مسعود يجوز أن يريد بما كره تعليقه غير القرآن أشياء مأخوذة عن العراقيين والكُهّان؛ إذ الاستشفاء بالقرآن معلّقا وغير معلق لا يكون شِرْكا، وقوله عليه السلام : "من علّق شيئا وُكِل إليه" فمن علّق القرآن ينبغى أن يتولاه الله ولا يَكله إلى غيره؛ لأنه تعـالى هو المرغوب إليـه والمتوكّل عليـه فى الاستشفاء بالقرآن . وسئل ابن المسيِّب عن التعويذ أيعلّق ؟ قال : إذا كان فى قصبة أو رقعة يحرز فلا بأس به . وهـذا على أن المكتوب قرآن . وعن الضحاك أنه لم يكن يرى بأسا أن يعلّق الرجل الشيءَ من كتاب الله إذا وضعه عند الجماع وعند الغائط . ورخص أبو جعفر محمد بن علىّ فى التعويذ يعلق على الصبيان . وكان ابن سِيرين لا يرى بأسا بالشىء من القرآن يعلّقه الإنسان .

السادســة — قوله تعـالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تفـريج الكروب وتطهير العيوب وتكفير الذنوب مع ما تفضّل به تعالى من الثواب فى تلاوته؛ كما روى الترمذىّ عن عبد الله ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالهـا لا أقول الٓمٓ حرف بل أَلِفٌ حرفٌ ولامٌ حرفٌ وميمٌ حرفٌ". قال هذا حديث حسن صحيح غريب . وقد تقدّم . ﴿ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ لتكذيبهم . قال

قتادة : ماجالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، ثم قرأ « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ » الآية . ونظير هذه الآية قوله : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى[1] » . وقيل : شفاء فى الفرائض والأحكام لما فيه من البيان .

قوله تعالى : وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ أى هؤلاء الذين يزيدهم القرآن خسارا صفتهم الإعراض عن تدبر آيات الله والكفران لنعمه . وقيل : نزلت فى الوليد ابن المغيرة . ومعنى « نأى بجانبه » أى تكبر وتباعد . وناء مقلوب منه؛ والمعنى : بَعُد عن القيام بحقوق الله عز وجل ؛ يقال : نأى الشئ أى بعد . ونأيته ونأيت عنه بمعنًى، أى بَعُدت . وأنأيته فانتأى ؛ أى أبعدته فبعُد . وتناءَوْا تباعدوا . والمُنْتَأَى : الموضع البعيد . قال النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مُدركى * وإن خِلْتُ أن المنتأى عنك واسعُ

وقرأ ابن عامر فى رواية ابن ذكوان « ناء » مثل باع ، الهمزة مؤخرة، وهو على طريقة القلب من نأى؛ كما يقال : راء ورأى . وقيل : هو من النَّوء وهو النهوض والقيام . وقد يقال أيضا للوقوع والجلوس نوء ؛ وهو من الأضداد . وقرئ « ونِئى » بفتح النون وكسر الهمزة . والعامة « نأى » فى وزن رأى . ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ أى إذا ناله شدة من فقر أو سقم أو بؤس يئس وقنط ؛ لأنه لايثق بفضل الله تعالى .

قوله تعالى : قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

---

(١) آية ٤٤ سورة فصلت .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِـهِ ﴾ قال ابن عبـاس : ناحيتـه . وقاله الضحاك . مجاهد : طبيعته . وعنه : حِدته . ابن زيد : على دينه . الحسن وقتادة : نيته . مقاتل : جِبلته . الفراء : على طريقته ومذهبه الذى جُبِل عليه . وقيل : قل كلٌّ يعمل على ما هو أشـكل عنده وأَوْلى بالصواب فى اعتقاده . وقيل : هو مأخوذ من الشكل ؛ يقال : لستَ على شَكْلِى ولا شاكلتى . قال الشاعر :

كل آمرئ يشبهه فعله ＊ ما يفعل المرء فهو أهله

فالشَّكل هو المثل والنظير والضّرب . كقوله تعـالى : « وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ »(١) . والشِّكل ( بكسر الشـين ) : الهيئة . يقال : جارية حسنة الشِّكل . وهـذه الأقوال كلّها متقاربة . والمعنى : أن كل أحد يعمل على مايشاكل أصله وأخلاقه التى ألفها ، وهذا ذمٌّ للكافر ومدح للؤمن . والآية والتى قبلها نزلتا فى الوليد بن المغيرة؛ ذكره المهدوىّ . ﴿ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً ﴾ أى بالمؤمن والكافر وما سيحصل من كل واحد منهم . وقيل : « اهدى سبيلا » أى أسرع قبولا . وقيـل : أحسن دينا . وحكى أن الصحابة رضوان الله عليهم تذاكروا القرآن فقال أبو بكر الصـديق رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى : «قلْ كلٌّ يعمل على شَاكِلتِهِ» فإنه لايشاكل بالعبد إلا العصيان ولا يشاكل بالرب إلا الغفران . وقال عمـر بن الخطاب رضى الله عنه : قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر فيـه آية أرجى وأحسن من قوله تعـالى : « بِسمِ اللهِ الرحمنِ الرحِيم . حمٓ . تنزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ العزيزِ العليم . غافِرِ الذنبِ وقابِلِ التوبِ شدِيدِ العِقابِ ذِى الطَّول »(٢) قدم غفران الذنوب على قبول التوبة ، وفى هذا إشارة للؤمنين . وقال عثمان آبن عفان رضى الله عنه : قرأت جميع القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ »(٣) . وقال علىّ بن أبى طالب رضى اللهعنه :

---

(١) آية ٥٨ سورة ص . (٢) أول سورة غافر . (٣) آية ٤٩ سورة الحجر .

قرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى: « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [(١)] » .

قلت : وقرأت القرآن من أوله إلى آخره فلم أر آية أحسن وأرجى من قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ [(٢)] » .

قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

روى البخاريّ ومسلم والترمذيّ عن عبد الله قال : بينا أنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في حَرْث وهو متّكئ على عسيب إذ مَرّ اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح . فقال: ما رابكم [(٣)] إليه ؟ وقال بعضهم : لايستقبلكم بشيء تكرهونه . فقالوا : سلوه . فسألوه عن الروح فأمسك النبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يردّ عليهم شيئا؛ فعلمتُ أنه يوحَى إليه ، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » لفظ البخاريّ . وفي مسلم : فأسكتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم . وفيه : وما أوتوا . وقد ٱختلف الناس في الروح المسئول عنه، أيّ الروح هو؟ فقيل : هو جبريل؛ قاله قتادة . قال : وكان ابن عباس يكتمه . وقيل هو عيسى . وقيل القرآن ، على ما يأتي بيانه في آخر الشُّورَى . وقال عليّ بن أبي طالب : هو مَلَك من الملائكة له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، في كل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله تعالى بكل تلك اللغات، يخلق الله تعالى من كل تسبيحة مَلَكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة . ذكره الطبريّ . قال ابن عطية : وما أظن القول يصحّ عن عليّ رضي الله عنه .

قلت : أسند البيهقي أخبرنا أبو زكريا عن أبي إسحاق أخبرنا أبو الحسن الطرائفي حدّثنا عثمان بن سعيد حدّثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن

(١) آية ٥٣ سورة الزمر . (٢) آية ٨٢ سورة الأنعام . (٣) أي ما دعاكم الى سؤال تخشون عاقبته بأن يستقبلكم بشيء تكرهونه .

عباس فى قوله : « ويسألونك عن الروح » يقول : الروح مَلَك . وبإسناده عن معاوية بن صالح حدّثنى أبو هِران (بكسر الهاء) يزيد بن سَمُرة عمن حدّثه عن علىّ بن أبى طالب أنه قال فى قوله تعالى : «ويسئلونك عن الروح» قال : هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه... الحـديث بلفظه ومعناه . وروى عطاء عن ابن عباس قال : الروح ملك له أحد عشر ألف جناح وألف وجه ، يسبح الله إلى يوم القيامة ؛ ذكره النحاس . وعنه : جند من جنود الله لهم أيد وأرجل يأكلون الطعام ؛ ذكره الغَزْنَوِىّ . وقال الخطابى : وقال بعضهم ، هو ملك من الملائكة بصفة وضعوها من عظم الخلقة . وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذى يكون به حياة الجسد . وقال أهل النظر منهم : إنما سـألوه عن كيفية الروح ومسلكه فى بدن الإنسان ، وكيف ٱمتزاجه بالجسم وٱتصال الحياة به ، وهـذا شىء لا يعلمه إلا الله عز وجل . وقال أبو صالح : الروح خلق كخـلق بنى آدم وليسوا ببنى آدم ، لهم أيد وأرجل . والصحيح الإبهام لقوله : « قُـلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » ...(1) أى هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعـالى ، مُبْهِمًا له وتاركا تفصيله ؛ ليعرف الإنسان على القطع عجـزه عن علم حقيقةِ نفسه مع العلم بوجودها . وإذا كان الإنسان فى معرفة نفسه هكذا كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى . وحكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له ، دلالةً على أنه عن إدراك خالقه أعجز .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِـلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ٱختلف فيمن خُوطب بذلك ؛ فقالت فرقة : السائلون فقط . وقال قوم : المراد اليهود بجملتهم . وعلى هـذا هى قراءة ابن مسعود « وما أوتوا » ورواها عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم . وقالت فرقة : المراد العَالَم كله . وهو الصحيح ، وعليه قراءة الجمهور « وما أوتِيتم » . وقد قالت اليهود للنبىّ صلى الله عليه وسلم : كيف لم نُؤت من العلم إلا قليلا وقد أوتينا التوراة وهى الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فعارضهم رسول الله صلى الله عليه وسـلم بعلم الله فغُلِبـوا . وقد نص رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله فى بعض الأحاديث : "كُلًّا" يعنى أن المراد بـ « ـما أوتِيتم » جميع

(1) مكان هذه الأصفار فى جميع نسخ الأصل : «دليل على خلق الروح» . ولم نر لهذه الجملة فى سياق الكلام معنى .

العالم . وذلك أن يهود قالت له : نحن عنيت أم قومك . فقال : "كُلًّا" . وفي هذا المعنى نزلت « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي ٱلْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ »(١) . حكى ذلك الطبريّ رحمه الله ! وقد قيل : إن السائلين عن الروح هم قريش ، قالت لهم اليهود : سلوه عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين وعن الروح فإن أخبركم عن آثنين وأمسك عن واحدة فهو نبيّ ؛ فأخبرهم خبر أصحاب الكهف وخبر ذي القرنين على ما يأتي . وقال في الروح : « قل الروح من أمر ربّي » أي من الأمر الذي لا يعلمه إلا الله . ذكره المهدويّ وغيره من المفسرين عن ابن عباس .

قوله تعالى : وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يعني القرآن . أي كما قدرنا على إنزاله نقدر على إذهابه حتى ينساه الخلق . ويتّصل هذا بقوله : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أي ولو شئتُ أن أذهب بذلك القليل لقدرت عليه . ﴿ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ أي ناصرا يردّه عليك . ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ يعني لكن لا نشاء ذلك رحمة من ربك ؛ فهو استثناء ليس من الأوّل . وقيل : إلا أن يرحمك ربّك فلا يذهب به . ﴿ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ إذ جعلك سيّد ولد آدم ، وأعطاك المقام المحمود وهذا الكتابَ العزيز . وقال عبد الله بن مسعود : أوّل ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وأن هذا القرآن كأنه قد نُزع منكم ، تُصبحون يوما وما معكم منه شيء . فقال رجل : كيف يكون ذلك يا أبا عبد الرحمن ! وقد ثبّتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا ، نعلّمه أبناءنا ويعلمه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ! قال : يسرى به في ليلة فيذهب بما في المصاحف وما في القلوب ، فتصبح الناس كالبهائم . ثم قرأ عبد الله « ولئن شئنا لنذهبنّ بالذي أوحينا إليك » الآية . أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة بمعناه قال : أخبرنا أبو الأحوص عن عبد العزيز بن رُفيع عن

(١) آية ٢٧ سورة لقمان .

شدّاد بن مَعْقِل قال قال عبد الله — يعني ابن مسعود — : إن هذا القرآن الذى بين أظهركم يوشك أن يُنزع منكم . قال : قلت كيف ينزع منا وقد أثبته الله فى قلوبنا وثبتناه فى مصاحفنا ! قال : يسرى عليه فى ليلة واحدة فينزع ما فى القلوب ويذهب ما فى المصاحف و يصبح الناس منه فقراء . ثم قرأ « ولئِن شِئنا لنذهبن بِالذى أَوْحينا إليك » وهذا إسناد صحيح . وعن ابن عمر : لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل، له دَوِىٌّ كدوىّ النحل، فيقول الله ما بالك . فيقول : يارب منك خرجت و إليك أعود، أُتْلَى فلا يُعمل بى، أُتْلَى ولا يعمل بى.

قلت : قد جاء معنى هـذا مرفوعا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وحذيفة . قال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يدرس الإسلام كما يدرس وَشْيُ الثوب حتى لا يُدْرَى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة فيسرى على كتاب الله تعالى فى ليلة فلا يبقى منه فى الأرض آية وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إلٰه إلا الله . وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة" . قال له صِلة(1) : ما تغنى عنهم لا إلٰه إلا الله ! وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة ؛ فأعرض عنه حذيفة ؛ ثم ردّدها ثلاثا، كل ذلك يُعرِض عنه حذيفة . ثم أقبل عليه حذيفة فقال : يا صلة ! تنجيهم من النار ، ثلاثا . خرجه ابن ماجه فى السنن . وقال عبد الله بن عمر : خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو معصوب الرأس من وجع فضحك ، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "أيها الناس ما هذه الكتب التى تكتبون أكتاب غير كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فلا يَدَع ورقا ولا قلبا إلا أخذ منه" قالوا : يا رسول الله، فكيف بالمؤمنين والمؤمنات يومئذ ؟ قال : "من أراد الله به خيرا أبقى فى قلبه لا إلٰه إلا الله" ذكره الثعلبيّ والغَزْنَوِىّ وغيرهما فى التفسير .

قوله تعالى : قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(1) هو صلة بن زفر العبسى، أحد رجال سند الحديث .

أى عوينا ونصيرا؛ مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر فيقيمونه. نزلت حين قال الكفار: لو نشاء لقلنا مثل هذا؛ فأكذبهم الله تعالى. وقد مضى القول فى إعجاز القرآن فى أوّل الكتاب[1]. والحمد لله. و ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ جواب القسم فى «لئن» وقد يجزم على إرادة الشرط. قال الشاعر:

لئن كان ما حُدِّثتــه اليوم صادقا * أَقُمْ[2] فى نهـار القَيْظ للشمس باديَا

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّـاسِ فِي هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَقَـدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أى وجهنا القول فيه بكل مثل يجب به الاعتبار؛ من الآيات والعبر والترغيب والترهيب، والأوامر والنواهى وأقاصيص الأوّلين، والجنـة والنار والقيامة. ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يريد أهـل مكة، بيّن لهم الحقّ وفتـح لهم وأمهلهم حتى تبيّن لهم أنه الحق، فأبَوْا إلا الكفر وقت تبيّن الحق. قال المهدوىّ: ولا حجة للقدرىّ فى قولهم: لا يقال أبى إلا لمن أبَى فِعْل ما هو قادر عليه؛ لأن الكافر وإن كان غير قادر على الإيمـان بحكم الله عليه بالإعراض عنه وطبعه على قلبه، فقد كان قادرا وقت الفسحة والمهلة على طلب الحق وتمييزه من الباطل.

قوله تعـالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٦٩ طبعة ثانية أو ثالثة.

(٢) رواية خزانة الأدب فى الشاهد الرابع والثلاثين بعد التسعمائة: «أصم فى نهار القيظ ...» الخ.

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَـا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً ﴾ الآية نزلت فى رؤساء قريش مثل عتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان والنضر بن الحارث ، وأبى جهل وعبد الله بن أبى أمية ، وأمية بن خلف وأبى البَخْتَرِى ، والوليد بن المغيرة وغيرهم . وذلك أنهم لمـا عجزوا عن معارضـة القرآن ولم يرضَوْا به معجزة ، اجتمعوا — فيما ذكر ابن إسحاق وغيره — بعـد غروب الشمس عند ظهـر الكعبة ، ثم قال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد — صـلى الله عليه وسـلم — فكلّموه وخاصموه حتى تُعْذَروا فيـه ، فبعثوا إليـه أن أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فأتهم ، فجاءهم رسـول الله صلى الله عليه وسـلم وهو يظن أن قد بدَا لهم فيما كلمهم فيه بَدْو ، وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم حريصا يحبّ رشدهم ويَعِزّ عليه عَنَتُهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعـلم رجلا من العـرب أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك ، لقـد شتمتَ الاباء وعِبْت الدين وشتمت الآلهـة وسفّهت الأحلام وفرّقت الجماعة ، فمـا بَقِيَ أمر قبيح إلا قـد جئته فيما بيننا وبينـك ، أوكما قالوا له . فإن كنت إنمـا جئت بهـذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنمـا تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا تراه قد غَلَب عليك — وكانوا يسمّون التابع من الجن رَئِيًّا — فربمـا كان ذلك بذلنا أموالنـا فى طلب الطب لك حتى نُبْرِئك منـه أو نُعذر فيك . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مابى ماتقولون ماجئتُ بمـا جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثـنى إليكم رسولا وأنزل علىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشـيرا ونذيرا فبلّغتكم رسالات ربى ونصحتُ لكم فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة وإن تردّوه علىّ أصبرْ لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم" أوكما قال صلى الله عليه وسلم . قالوا : يامحمد ، فإن كنت غير قابل منا شيئا ممـا عرضناه عليـك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدا ولا أقلّ ماء ولا أشـدّ عيشا منا ، فسَلْ لنا ربّك الذى بعثك بمـا بعثك به ، فليسيّر

عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا، وليَبْسُط لنا بلادنا وليخْرِق لنا فيها أنهارا كأنهار الشأم، وليبعث لنا مَن مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا قُصيّ بن كلاب؛ فإنه كان شيخَ صِدْق فنسألهم عما تقول، أحقٌّ هو أم باطل، فإن صدّقوك وصنعت ماسألناك صدّقناك، وعرفنا به منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك رسولا كما تقول . فقال لهم صلوات الله عليه وسلامه : " مابهذا بُعثت إليكم إنما جئتكم من الله تعالى بما بعثني به وقد بلّغتكم ماأرسلتُ به إليكم فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبِرْ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ". قالوا : فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك! سَلْ ربك أن يبعث معك مَلَكا يصدّقك بما تقول ويراجعنا عنك، وآسأله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عمّا نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه ، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنا بفاعل وما أنا بالذي يسأل ربّه هذا وما بعثت بهذا إليكم ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا — أو كما قال — فإن تقبلوا مني ماجئتكم به فهو حظّكم في الدنيا والآخرة وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " قالوا : فأسْقِط السماء علينا كِسَفًا كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل؛ فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل . قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ذلك إلى الله عز وجل إن شاء أن يفعله بكم فعل " قالوا : يا محمد ، فما عَلِم ربّك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدّم إليك فيعلمك بما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع في ذلك بنا إذ لم نقبل منك ماجئتنا به . إنه قد بلغنا أنك إنما يعلّمك هذا رجل من اليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا ، فقد أعذرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا . وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قَبِيلا . فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، هو لعاتكةَ بنت عبد المطلب، فقال له : يامحمد! عرض عليك

قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألوك لأنفسهم أمورا ليعرفوا بهـا منزلتك من الله كما تقول، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ! ثم سألوك أن تأخذ لنفسك مايعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ! ثم سألوك أن تعجّل لهم بعض ماتخوفهم به من العذاب فلم تفعل ! — أوكما قال له — فوالله لا أومن بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سُلَّمًا ، ثم تَرْقَى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، ثم تأتى معك بصَكٍّ معه أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وَأَيْمُ اللهِ لو فعلت ذلك ماظننت أنى أصدقك! ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانصرف رســول الله صلى الله عليه وسـلم إلى أهله حزينا آسِفًا لِما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه؛ كلّه لفظ ابن إسحاق . وذكر الواحدىّ عن عكرمة عن ابن عباس : فأنزل الله تعالى « وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » . ﴿ يَنْبُوعًا ﴾ يعنى العيون ؛ عن مجاهد . وهى يفعول، من نَبَع يَنْبَع . وقرأ عاصم وحمزة والكسائىّ « تَفْجُرَ لنـا » مخففة؛ وآختاره أبو حاتم لأن الينبوع واحد . ولم يختلفوا فى تفجّر الأنهار أنه مشدّد . قال أبو عبيد : والأولى مثلها . قال أبو حاتم . ليست مثلها؛ لأن الأولى بعدها ينبوع وهو واحد، والثانيـة بعدها الأنهار وهى جمع ، والتّشديد يدل على التكثير . أجيب بأن « ينبوعا » وإن كان واحدا فالمراد به الجمع ؛ كما قال مجاهد . الينبوع عين المـاء، والجمع الينابيع . وقرأ قتادة « أو يكون لك جنة » . ﴿ خِلَالَهَا ﴾ أى وسطها . ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ ﴾ قراءة العامة . وقرأ مجاهـد « أو يَسْقُطَ السماءُ » على إسناد الفعل إلى السماء . ﴿ كِسَفًا ﴾ قطعا؛ عن ابن عباس وغيره . والكِسَف (بفتح السين) جمع كِسفة، وهى قراءة نافع وابن عامر وعاصم . الباقون « كِسْفًا » بإسكان السين . قال الأخفش : من قرأ كِسْفًا من السماء جعله واحدا، ومن قرأ كِسَفًا جعـله جمعا . قال المهدَوىّ : ومن أسـكن السين جاز أن يكون جمـع كِسْفة وجاز أن يكون مصدرا ؛ من كسفت الشىء إذا غطّيته . فكأنهم قالوا : أسقطها طبقا علينا . وقال الجوهرىّ : الكِسْفة القطعة من الشىء؛ يقال: أعطنى كِسْفة من ثوبك ، والجمـع كِسْف وكِسَف . ويقال : الكِسْف والكِسْفة واحد .

﴿ أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾ أي معاينــة؛ عن قتادة وابن جريج . وقال الضحاك وابن عباس : كفيلا . قال مقاتل : شهيدا . مجاهــد : هو جمع القبيلة ؛ أي بأصناف الملائكة قبيلةً قبيلةً . وقيل : ضمناء يضمنون لنا إتيانك به . ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ ﴾ أي من ذهب ؛ عن ابن عبــاس وغيره . وأصله الزينــة . والمُزَخْرَف المزيَّن . وزخارف المــاء طرائقه . وقال مجاهــد : كنت لا أدرى ما الزُّخْرُف حتى رأيته فى قراءة ابن مسعود « بيتٌ من ذَهَبٍ » أى نحن لا ننقاد لك مع هذا الفقر الذى نرى . ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أى تصعد؛ يقال : رَقيت فى السُّلَّم أرْقَى رَقْيًا ورُقِيًّا إذا صعِدت . وٱرتقيت مثله . ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ ﴾ أى من أجل رُقِيِّك ، وهو مصدر؛ نحو مضى يمضى مُضِيًّا، وهوى يهوى هُوِيًّا، كذلك رقى يرقى رُقِيًّا . ﴿ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ ﴾ أى كتابا من الله تعالى إلى كل رجل منا؛ كما قال تعالى : « بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةً »[1] . ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي ﴾ وقرأ أهل مكة والشام « قال سبحان ربى » يعنى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ أى قال ذلك تنزيها لله عز وجل عن أن يعجز عن شيء وعن أن يُعترض عليــه فى فعل . وقيل : هــذا كله تعجب عن فرط كفرهم واقتراحاتهم . الباقون «قل» على الأمر؛ أى قل لهم يامحمد ﴿هَلْ كُنْتُ﴾ أى ما أنا ﴿ إِلَّا بَشَرًا رَسُــولًا ﴾ أتبع ما يوحى إلىّ من ربّى، ويفعل الله ما يشاء من هــذه الأشياء التى ليست فى قدرة البشر، فهل سمعتم أحدا من البشر أتى بهذه الآيات ! وقال بعض الملحدين : ليس هذا جوابا مقنعا، وغلطوا؛ لأنه أجابهم فقال : إنما أنا بشر لا أقدر على شيء مما سألتمونى، وليس لى أن أتخــيّر على ربى ، ولم تكن الرســل قَبْلى يأتون أممهم بكل ما يريدونه ويبغونه ، وسبيلى سبيلهم، وكانوا يقتصرون على ما آتاهم الله من آياته الدالة على صحة نبوّتهم، فإذا أقاموا عليهم الحجة لم يجب لقومهم أن يقترحوا غيرها، ولو وجب على الله أن يأتيهم بكل مايقترحونه من الآيات لوجب عليه أن يأتيهم بمن يختارونه من الرسل، ولوجب لكل إنسان أن يقول : لا أُومن حتى أُوتَى بآية خلاف ماطلب غيرى . وهذا يئـول إلى أن يكون التدبير إلى الناس . وإنما التدبير إلى الله تعالى .

(١) آية ٥٢ سورة المدثر .

قوله تعـالى : وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ يعنى الرسل والكتب من عنـد الله بالدعاء إليـه . ﴿ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ جهلا منهم . ﴿ أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُـولًا ﴾ أى الله أجل من أن يكون رســوله من البشر . فبيّن الله تعالى فرط عنادهم لأنهم قالوا : أنت مثلنا فلا يلزمنا الانقياد ، وغفلوا عن المعجزة . فـ«أَنْ» الأولى فى محـل نصب بإسـقاط حرف الخفض . و« أنْ » الثانية فى محل رفع بـ « ـمنع » أى وما منع الناسَ من أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا قولهم أبعث الله بشرا رسولا .

قوله تعـالى : قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

أعلم الله تعـالى أن المَلَك إنمـا يرسَل إلى الملائكة؛ لأنه لو أرسـل ملكا إلى الآدميّين لم يقدروا أن يروه على الهيئة التى خُلق عليها ، و إنما أقدر الأنبياء على ذلك وخَلق فيهم ما يقدرون به ؛ ليكون ذلك آية لهم ومعجزة . وقد تقدّم فى « الأنعام » نظير هـذه الآية ؛ وهو قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ . وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا » (١) وقد تقدّم الكلام فيه .

قوله تعـالى : قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

يروى أن كفار قريش قالوا حين سمعوا قوله « هل كنتُ إلا بشرا رسولا » : فمن يشهد لك أنك رسول الله . فنزل « قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً » .

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٩٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعـالى : وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي ﴾ أى لو هداهم الله لاهتدوا . ﴿ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى لا يهديهم أحد . ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ﴾ فيه وجهان : أحدهما — أن ذلك عبارة عن الإسراع بهم إلى جهنم ؛ من قول العرب : قَدِم القوم على وجوههم إذا أسرعوا . الثاني — أنهم يسحبون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم كما يُفعل فى الدنيا بمن يبالَغ فى هَوانه وتعذيبه . وهـذا هو الصحيح ؛ لحديث أنس أن رجلا قال : يا رسـول الله ، الذين يحشرون على وجوههم ، أيحشر الكافر على وجهـه ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أليس الذى أمشاه على الرجلين قادرا على أن يُمْشِيَه على وجهـه يوم القيامة" : قال قتادة حين بلغه : بَلَى وعِزّةِ رَبِّنا . أخرجه البخارى ومسلم . وحسـبك . ﴿ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ قال ابن عباس والحسن : أى عُمْيٌ عمّا يسرّهم، بُكْمٌ عن التكلم بحجة، صُمٌّ عما ينفعهم؛ وعلى هـذا القول حواسهم باقية على ما كانت عليه . وقيل : إنهم يحشرون على الصفة التى وصفهم الله بها ؛ ليكون ذلك زيادة فى عذابهم، ثم يخلق ذلك لهم فى النار، فأبصروا ؛ لقوله تعالى : «وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا»[(١)]، وتكلموا؛ لقوله تعالى : « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا »[(٢)]، وسمعوا ؛ لقوله تعالى : « سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »[(٣)] . وقال مقاتل بن سليمان : إذا قيل لهم « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ »[(٤)] صاروا عُمْيًا لا يبصرون صُمًّا لا يسمعون بُكْمًا لا يفقهون . وقيل : عموا حين دخلوا النار لشدّة سوادها، وانقطع كلامهم حين قيل لهم : اخسئوا فيها ولا تكلمون . وذهب الزفير والشهيق بسمعهم فلم يسمعوا شيئا . ﴿ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أى مستقرُّهم ومقامهـم . ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ ﴾ أى سكنت ؛ عن الضحاك

(١) آية ٥٣ سورة الكهف .　　(٢) آية ١٣ سورة الفرقان .　　(٣) آية ١٢ سورة الفرقان .
(٤) آية ١٠٨ سورة المؤمنون .

وغيره . مجاهد طفئت . يقال : خبت النار تخبو خبوا أى طفئت، وأخبيتها أنا . ﴿ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ أى نارا تتلهب . وسكون التهابها من غير نقصان فى آلامهم ولا تخفيف عنهـم من عذابهم . وقيل : إذا أرادت أن تخبو . كقوله : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ »[1] .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى ذلك العـذاب جزاء كفرهم . ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾ أى ترابا . ﴿ أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ فأنكروا البعث فأجابهم الله تعالى فقال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيـهِ ﴾ قيل : فى الكلام تقـديم وتأخير، أى أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض، وجعل لهم أجلا لا ريب فيه قادر على أن يخلق مثلهم . والأجل : مدّة قيامهم فى الدنيا ثم موتهـم، وذلك ما لا شك فيـه إذ هو مشاهد . وقيل : هو جواب قولهم : « أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا » . وقيل : هو يوم القيامة . ﴿ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ أى المشركون إلا جحودا بذلك الأجل وبآيات الله . وقيل : ذلك الأجل هو وقت البعث، ولا ينبغى أن يُشَكّ فيه .

قوله تعـالى : قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

(١) آية ٤٥ من هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي ﴾ أي خزائن الأرزاق. وقيل: خزائن النّعم، وهذا أعم . ﴿ إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ من البخل، وهو جواب قولهم : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا » حتى نتوسّع في المعيشة . أي لو توسعتم لبخلتم أيضا . وقيل : المعنى لو ملك أحد المخلوقين خزائن الله لما جاد بها كجود الله تعالى؛ لأمرين : أحدهما — أنه لا بد أن يمسك منها لنفقته وما يعود بمنفعته . الثاني — أنه يخاف الفقر ويخشى العدم . والله تعالى يتعالى في وجوده عن هاتين الحالتين . والإنفاق في هذه الآية بمعنى الفقر؛ قاله ابن عباس وقتادة . وحكى أهل اللغة أنفق وأصرم وأعدم وأقتر إذا قلّ ماله . ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ أي بخيلا مضيقا . يقال : قتر على عياله يقتِر ويقتُر قترًا وقتورا إذا ضيق عليهم في النفقة، وكذلك التقتير والإقتار، ثلاث لغات . واختلف في هذه الآية على قولين : أحدهما — أنها نزلت في المشركين خاصّة؛ قاله الحسن . والثاني — أنها عامة، وهو قول الجمهور؛ وذكره الماوردي .

قوله تعالى : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ اختلف في هذه الآيات؛ فقيل : هي بمعنى آيات الكتاب؛ كما روى الترمذيّ والنسائيّ عن صفوان بن عسّال المُرادي أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا النبيّ نسأله؛ فقال : لا تقل له نبيّ فإنه إن سمعنا كان له أربعة أعين؛ فأتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ولا تسرقوا ولا تسحروا ولا تمشوا ببرىء إلى سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا محصنة ولا تفرّوا من الزحف — شك شعبة — وعليكم [يا معشر] اليهود خاصّةً ألا تعدوا في السبت" فقبلا يديه ورجليه وقالا : نشهد أنك نبيّ . قال :

"فمـا يمنعكما أن تُسلما" قالا : إن داود دعا الله ألا يزال فى ذريته نبىّ وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وقد مضى فى البقرة (١) . وقيل : الآيات بمعنى المعجزات والدلالات . قال ابن عباس والضحاك : الآيات التسع العصا واليد واللسان والبحر والطوفان والجراد والقُمّل والضفادع والدم؛ آيات مفصّلات . وقال الحسن والشعبىّ : الخمس المذكورة فى «الأعراف» (٢)؛ يعنيان الطوفان وما عطف عليه، واليد والعصا والسنين والنقص من الثمرات . وروى نحوه عن الحسن؛ إلا أنه يجعل السنين والنقص من الثمرات واحدة، وجعل التاسعة تلقّف العصا ما يأفكون . وعن مالك كذلك؛ إلا أنه جعل مكان السنين والنقص من الثمرات : البحر والجبل . وقال محمد بن كعب : هى الخمس التى فى « الأعراف » والبحر والعصا والحجر والطمس على أموالهم . وقد تقدّم شرح هذه الآيات مستوفًى والحمد لله .

﴿ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ ﴾ أى سـلهم يا محمد إذ جاءهم موسى بهـذه الآيات، حسبما تقدّم بيانه فى يونس . وهذا سؤال استفهام ليعرف اليهود صحة مايقول محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا ﴾ أى ساحرا بغرائب أفعالك؛ قاله الفراء وأبو عبيدة . فوضع المفعول موضـع الفاعل؛ كما تقول : هـذا مشئوم وميمون، أى شائم ويامن . وقيل مخدوعا . وقيل مغلوبا؛ قاله مقاتل . وقيل غير هذا؛ وقد تقدّم . وعن ابن عباس وأبى نَهِيـك أنهما قرآ « فَسَأَلَ بَنِي إِسرائيل » على الخبر؛ أى سأل موسى فرعونَ أن يخلى بنى إسرائيل ويطلق سبيلهم ويرسلهم معه .

قوله تعـالى : قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ ﴾ يعنى الآيات التسع . و « أنزل » بمعنى أوجد . ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ أى دلالات يستدل بها على قدرته ووحدانيته .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٦٧

وقراءة العامة « علمتَ » بفتح التاء ، خطابا لفرعون . وقرأ الكسائى بضم التاء ، وهى قراءة علىّ رضى الله عنــه ؛ وقال : والله ما علم عدوّ الله ولكن موسى هو الذى علم ، فبلغت ابنَ عباس فقال : إنها « لقد علمتَ » ، واحتج بقوله تعالى : « وَجَحَدُوا بِهَـا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًـا وَعُلُوًّا »(١) . ونسب فرعون إلى العناد . وقال أبو عبيد : والمأخوذ به عندنا فتح التاء ، وهو الأصح للمعنى الذى احتج به ابن عباس ؛ ولأن موسى لا يحتج بقوله : علمت أنا ، وهو الرسول الداعى ، ولو كان مع هذا كلّه تصح به القراءة عن علىّ لكانت حجة ، ولكن لا تثبت عنه ، إنما هى عن كُلثوم المرادِىّ وهو مجهول لا يعرف ، ولا نعلم أحدا قرأ بها غير الكسائى. وقيل : إنما أضاف موسى إلى فرعون العلم بهذه المعجزات ؛ لأن فرعون قد علم مقدار ما يتهيأ للسحرة فعله ، وأن مثل ما فعل موسى لا يتهيأ لساحر ، وأنه لا يقدر على فعله إلا من يفعل الأجسام ويملك السموات والأرض . وقال مجاهد : دخل موسى على فرعون فى يوم شاتٍ وعليه قطيفة له ، فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان ، فرأى فرعون جانبى البيت بين فُقْمَيها ، ففـزع وأحدث فى قطيفته . ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ الظن هنا بمعنى التحقيق . والثبور : الهلاك والخسران أيضا . قال الكُمَيْت :

ورأتْ قُضاعة فى الأيَا * مِن رأىَ مَثْبُورٍ وثابر

أى مخسور وخاسر ، يعنى فى انتسابها إلى اليمـن . وقيل : ملعونا . رواه المِنْهال عن سعيد ابن جُبير عن ابن عباس . وقاله أبان بن تَغْلِب . وأنشد :

ياقومنا لا تَرُومُوا حَرْبَنَا سَفَهًا * إنّ السَّـفاه وإن البَغْىَ مثبورُ

أى ملعون . وقال ميمون بن مِهران عن ابن عباس : « مثبورا » ناقص العقل . ونظر المأمون رجلا فقال له : يامثبور ؛ فسئل عنه قال : قال الرشيد قال المنصور لرجل : مثبور ؛ فسألته فقال : حدثنى ميمون بن مِهران ... فذكره . وقال قتادة هالكا . وعنه أيضا والحسن ومجاهد : مهلكا . والثُّبور : الهلاك ؛ يقال : ثَبَرَ الله العدوّ ثبورا أهلكه . وقيـل : ممنوعا

(١) آية ١٤ سورة النمل .

من الخير . حكى أهل اللغة : ما ثبرك عن كذا أى ما منعك منه . وثبره الله يَثْبُرُه ثَبْراً . قال ابن الزِّبَعْرَى :

إذ أُجارِى الشيطان فى سَنَن الغَـ * ـىِّ ومن مال مَيْـلَه مثبور

الضحاك : «مثبورا» مسحورا . ردّ عليه مثل ما قال له بآختلاف اللفظ . وقال ابن زيد : «مثبورا» مخبولا لا عقل له .

قوله تعـالى : فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أى أراد فرعون أن يخـرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بالقتل أو الإبعاد؛ فأهلكه الله عز وجل . ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى من بعد إغراقه ﴿ لِبَنِى إِسْرَائِيلَ ٱسْكُنُوا الْأَرْضَ ﴾ أى أرض الشأم ومصر . ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ﴾ أى القيامة ﴿ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أى من قبوركم مختلطين من كل موضـع ، قد اختلط المؤمن بالكافر لا يتعارفون ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته وحَيّه . وقال ابن عباس وقتادة : جئنا بكم جميعا من جهات شتّى . والمعنى واحد . قال الجوهرى : واللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى؛ يقـال : جاء القوم بلَفّهم ولفيفهم، أى وأخلاطهم . وقوله تعـالى « جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا » أى مجتمعين مختلطين . وطعام لَفِيف إذا كان مخلوطا من جنسين فصاعدا . وفلان لفيف فلان أى صديقـه . قال الأصمعى : اللفيف جمعٌ وليس له واحد ، وهو مثل الجميع . والمعنى : أنهم يخرجون وقت الحشر من القبور كالجراد المنتشر ، مختلطين لا يتعارفون . وقال الكلبى : «فإذا جاء وعد الآخرة» يعنى مجىء عيسى عليه السلام من السماء .

قوله تعـالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ هذا متصل بما سبق من ذكر المعجزات والقرآن . والكناية ترجع الى القرآن . ووجه التكرير فى قوله « وبالحق نزل » يجوز أن يكون معنى الأوّل : أوجبنا إنزاله بالحق . ومعنى الثانى : ونزل وفيه الحق؛ كقوله خرج بثيابه، أى وعليه ثيابه . وقيل الباء فى «وبالحق» الأول بمعنى مع، أى مع الحق؛ كقولك ركب الأمير بسـيفه أى مع سـيفه . « وبالحق نزل » أى بمحمد صـلى الله عليه وسلم ، أى نزل عليه؛ كما تقول نزلت بزيد . وقيل : يجوز أن يكون المعنى وبالحق قدرنا أن ينزل، وكذلك نزل .

قوله تعـالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ﴾ مذهب سيبويه أن «قرآنا» منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر . وقرأ جمهور الناس « فَرَقناه » بتخفيف الراء، ومعناه بيناه وأوضحناه، وفرقنا فيه بين الحق والباطل؛ قاله الحسن . وقال ابن عباس : فصلناه . وقرأ ابن عباس وعلىّ وابن مسعود وأُبَىّ بن كعب وقَتادة وأبو رجاء والشّعْبِىّ « فرّقناه » بالتشديد، أى أنزلناه شيئا بعد شىء لا جملةً واحدة؛ إلا أن فى قراءة ابن مسعود وأُبَىّ «فرقناه عليك» .

واختلف فى كم نزل القرآن من المدّة؛ فقيل : فى خمس وعشرين سنة . ابن عبـاس : فى ثلاث وعشرين . أنس : فى عشرين . وهذا بحسب الخلاف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا خلاف أنه نزل إلى السماء الدنيا جملة واحدة . وقد مضى هذا فى «البقرة» . ﴿عَلَى مُكْثٍ﴾ أى تطاولُ فى المدّة شيئا بعد شىء. ويتناسق هذا القرآن على قراءة ابن مسعود، أى أنزلناه آية آية وسورةً سورة . وأمّا على القول الأوّل فيكون «عَلَى مُكْث» أى على ترسّل فى التلاوة وترتيـل؛ قاله مجاهد وابن عباس وابن جريج . فيعطى القـارئ القراءة حقّها من

ترتيلها وتحسينها وتطييبها بالصوت الحسن ما أمكن من غير تلحين ولا تطريب مؤدٍ[1] إلى تغيير لفظ القرآن بزيادة أو نقصان فإن ذلك حرام على ما تقدم أول الكتاب . وأجمع القراء على ضم الميم من « مُكْث » إلا ابن مُحَيْصِن فإنه قرأ « مَكْث » بفتح الميم . ويقال . مَكْث ومُكْث ومِكْث؛ ثلاث لغات . قال مالك : « على مُكْث » على تثبّت وترسّل .

قوله تعـالى : ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ مبالغة وتأكيد بالمصدر للمعنى المتقدم، أى أنزلناه نَجْمًا بعد نجم؛[2] ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا .

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ ءَامِنُوا بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ﴾ يعنى القرآن . وهذا من الله عز وجل على وجه التبكيت لهم والتهديد لا على وجه التخيير . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل نزول القرآن وخروج النبيّ صلى الله عليه وسلم، وهم مؤمنو أهل الكتاب ؛ فى قول ابن جُرَيج وغيره . قال ابن جُرَيج : معنى « إذا يتلى عليهم » كتابهم . وقيــل القرآن .﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ وقيل: هم قوم من ولد إسماعيل تمسّكوا بدينهم إلى أن بعث الله تعالى النبيّ عليه السلام، منهم زيد بن عمرو بن نُفَيل وورقة بن نَوْفل . وعلى هــذا ليس يريد أوتوا الكتاب بل يريد أوتوا علم الدِّين . وقال الحسن : الذين أوتوا العلم أمةُ محمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : إنهم ناس من اليهود؛ وهو أظهر لقوله « مِنْ قَبْلِه » . ﴿ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ ﴾ يعنى القرآن فى قول مجـاهد . كانوا إذا سمعوا ما أنزل الله تعالى من القرآن سجدوا وقالوا : «سبحان ربِّنا إن كان وعد ربِّنا لمفعولا» . وقيل : كانوا إذا تلَوْا كتابهم وما أنزل عليــه من القرآن خشعوا وسجدوا وسبحوا، وقالوا : هذا هو المذكور فى التوراة، وهذه صفته، ووعد الله به واقع لامحـالة، وجنحوا إلى الإسلام؛ فنزلت الآية فيهم . وقالت فرقة : المراد بالذين أوتوا العلم من قبــله

(١) فى نسخ الأصل : « المؤدى » . (٢) أى نزل آية آية .

محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، والضمير فى « قَبْله » عائد على القرآن حسب الضمير فى قوله « قل آمنوا به » . وقيل : الضميران لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وآستأنف ذكر القرآن فى قوله : « إذا يتلى عليهم » .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾

دليل على جواز التسبيح فى السجود . وفى صحيح مسـلم وغيره عن عائشة رضى الله عنهـا قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى سجوده و ركوعه "سبحانك اللّهُمّ و بحمدك اللّهُمّ آغفر لى" .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ هذه مبالغة فى صفتهم ومدح لهم . وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئا أن يجرى إلى هذه المرتبة ، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع ويَذِل . وفى مسند الدّارمىّ أبى محمد عن التَّيْمىّ قال : من أُوتِىَ من العلم ما لم يبكّه لخليق ألا يكون أوتى علما ؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ، ثم تلا هذه الآية . ذكره الطبرى أيضا . والأذقان جمع ذقن ، وهو مجتمع اللَّحْيين . وقال الحسن : الأذقان عبارة عن اللِّحَى ؛ أى يضعونها على الأرض فى حال السجود ، وهو غاية التواضع . واللام بمعنى على ؛ تقول سقط لِفيه أى على فيه . وقال ابن عباس : «ويخرون للأذقان سُجّدًا » أى للوجوه ، وإنمـا خص الأذقان بالذكر لأن الذقن أقرب شىء من وجه الإنســان . قال ابن خُوَيْزِمنداد : ولا يجوز السجود على الذقن ؛ لأن الذقن ها هنا عبارة عن الوجه ، وقد يعبّر بالشىء عما جاوره وببعضه عن جميعه ؛ فيقال : خر لوجهــه ساجدا و إن كان لم يسجد على خدّه ولا عينه . ألا ترى إلى قوله :

* فخــرّ صَرِيعا لليدين ولِلفَم *

فإنمــا أراد : خر صريعا على وجهه و يديه .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ يَبْكُونَ ﴾ دليـــل على جواز البكاء فى الصـــلاة من خوف الله تعالى ، أو على معصيته فى دين الله ، وأن ذلك لا يقطعها ولا يضرها . ذكر ابن المبارك عن حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِىّ عن مُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّير عن أبيه قال : أتيت النبىّ صـــلى الله عليه وسلم وهو يصـــلى ولجوفه أزِيز كأزيز المِرْجل من البكاء . وفى كتاب أبى داود : وفى صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء .

الثالثـــة ــ واختلف الفقهاء فى الأنين؛ فقال مالك : الأنين لا يقطع الصلاة للريض، وأكرهه للصحيح؛ وبه قال الثورى . وروى ابن الحكم عن مالك : التنحنحُ والأنين والنفخ لا يقطع الصـــلاة . وقال ابن القاسم : يقطع . وقال الشـــافعىّ : إن كان له حروف تُسمع وتُفهم يقطع الصـــلاة . وقال أبو حنيفة : إن كان من خوف الله لم يقطع ، وإن كان من وجع قطع . وروى عن أبى يوسف أن صـــلاته فى ذلك كلّه تامةٌ؛ لأنه لا يخـــلو مريض ولا ضعيف من أنين .

الرابعـــة ــ قوله تعـــالى : ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُـوعاً ﴾ تقـــدّم القـــول فى الخشـــوع فى « البقرة »(1) ويأتى .

قوله تعـــالى : قُـلِ ٱدْعُوا ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَـلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَـرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَـبِيلًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ سبب نزول هـــذه الآية أن المشركين سمعوا رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم يدعو "يا ألله يا رحمن" فقالوا : كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد وهو يدعو إلهين؛ قاله ابن عباس . وقال مكحول : تهجّد رسول الله صـــلى الله عليه وسلم ليلةً فقال فى دعائه : "يا رحمن يا رحيم" فسمعه رجل

(1) راجع جـ ١ ص ٣٧٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

من المشركين ، وكان باليمـامة رجل يسمى الرحمن ، فقال ذلك السـامع : ما بال محمد يدعو رحمان اليمـامة . فنزلت الآية مبيّنة أنهما اسمان لمسمًّى واحد ؛ فإن دعوتموه بالله فهو ذاك ، وإن دعوتموه بالرحمن فهو ذاك . وقيـل : كانوا يكتبون فى صدر الكتب : باسمك اللهم ؛ فنزلت « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »[(1)] فكتب رسول الله صـلى الله عليه وسلم « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال المشركون : هـذا الرحيم نعرفه فما الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقيل : إن اليهود قالت : ما لنا لا نسمع فى القرآن اسما هو فى التوراة كثير ؛ يعنون الرحمن ؛ فنزلت الآية . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « أيًّا مَنْ تدعو فله الأسماء الحسنى » أى التى تقتضى أفضـل الأوصاف وأشرف المعانى . وحسنُ الأسماء إنمـا يتوجه بتحسين الشرع ؛ لإطلاقها والنّص عليها . وانضاف إلى ذلك أنها تقتضى معانى حسانا شريفة ، وهى بتوقيف لا يصح وضع آسم لله بنظر إلا بتوقيف من القرآن أو الحديث أو الإجماع . حسبما بيناه فى ( الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى ) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى ــ اختلفوا فى سبب نزولها على خمسة أقوال :

الأول ــ ما روى ابن عباس فى قوله تعالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا » قال : نزلت ورسول الله صلى الله عليه وسـلم مُتَوارٍ بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سَـبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به ؛ فقال الله تعـالى : « وَلَا تَجْهَرْ بِصَـلَاتِكَ » فيسمع المشركون قراءتك . « وَلَا تُخَافِتْ بِهَـا » عن أصحابك . أسمعهـم القرآن ولا تجهـر ذلك الجهر . ﴿ وَٱبْتَـغِ بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلًا ﴾ قال : يقول بين الجهر والمخافتة ؛ أخرجه البخارىّ ومسلم والترمذىّ وغيرهم . واللفظ لمسلم . والمخافتة : خفض الصوت والسكون ؛ يقال للميت إذا بَرَد : خفت . قال الشاعر :

لم يبـق إلا نَفَس خافت * ومُقْـلَةٌ إنسانهـا باهت
رَثَى لهـا الشامت مما بها * ياوَيْحَ من يَرْثِى له الشّامت

---

(1) آية ٣٠ سورة النمل .

الثـانى — ما رواه مسـلم أيضا عن عائشة فى قوله عز وجل : « ولا تجهر بصـلاتك ولا تخافت بها » قالت : أنزل هذا فى الدعاء .

الثـالث — قال ابن سيرين : كان الأعراب يجهرون بتشهّدهم فنزلت الآية فى ذلك .

قلت : وعلى هـذا فتكون الآية متضمنة لإخفاء التشهد ، وقـد قال ابن مسعود : من السّنة أن تخفى التشهد ؛ ذكره ابن المنذر .

الرابـــع — ما روى عن ابن سيرين أيضا أن أبا بكر رضى الله عنـه كان يُسر قراءته ، وكان عمر يجهر بها ، فقيل لهما فى ذلك ؛ فقال أبو بكر : إنمـا أناجى ربى ، وهو يعـلم حاجتى إليه . وقال عمر : أنا أطرد الشيطان وأوقظ الوَسْنان ؛ فلما نزلت هـذه الآية قيل لأبى بكر : ارفع قليلا ، وقيل لعمر اخفض أنت قليلا ؛ ذكره الطبرى وغيره .

الخامس — ما روى عن ابن عباس أيضا أن معناها ولا تجهر بصلاة النهار ، ولا تخافت بصلاة الليل ؛ ذكره يحيى بن سلام والزهراوىّ . فتضمنت أحكام الجهر والإسرار بالقراءة فى النوافل والفرائض ، فأما النوافل فالمصلى مخير فى الجهر والسر فى الليل والنهار ، وكذلك روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يفعل الأمرين جميعا . وأما الفرائض فحكمها فى القراءة معلوم ليلا ونهارا .

وقول سادس — قال الحسن : يقول الله لا ترائى بصلاتك تحسّنها فى العلانية ولا تسيئها فى السر . وقال ابن عباس : لا تصلّ مرائيا للناس ولا تدعها مخافة الناس .

الثانيـــة — عبّر تعـالى بالصلاة هنا عن القراءة كما عبر بالقراءة عن الصـلاة فى قوله : « وقرآن الفجـر إن قرآن الفجـر كان مشهودا » لأن كل واحد منهما مرتبط بالآخر ؛ لأن الصلاة تشتمل على قراءة وركوع وسجود فهى من جملة أجزائها ؛ فعبر بالجزء عن الجملة و بالجملة عن الجزء على عادة العرب فى المجاز وهو كثير ؛ ومنه الحديث الصحيح : "قسَمتُ الصلاة بينى و بين عبدى" أى قراءة الفاتحة على ما تقدّم .

قوله تعـالى : وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْـدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب فى قولهم أفذاذا : عزير وعيسى والملائكة ذرية الله سبحانه ؛ تعالى الله عن أقوالهم ! ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ ﴾ لأنه واحد لا شريك له فى ملكه ولا فى عبادته . ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ ﴾ قال مجاهد : المعنى لم يحالف أحدا ولا ابتغى نصر أحد ؛ أى لم يكن له ناصر يجيره من الذل فيكون مدافعا . وقال الكلبي : لم يكن له ولِيٌّ من اليهود والنصارى ؛ لأنهم أذل الناس ، ردا لقولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه . وقال الحسن بن الفضل : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ » يعنى لم يُذَلّ فيحتاج إلى وَلِىّ ولا ناصر لعزته وكبريائه . ﴿ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ أى عظّمه عظمة تامة . ويقال : أبلغ لفظة للعرب فى معنى التعظيم والإجلال : الله أكبر ؛ أى صفه بأنه أكبر من كل شيء . قال الشاعر :

رأيتُ الله أكبر كل شيء * محاولة وأكثرهم جنودا

وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا دخل فى الصلاة قال : " الله أكبر " وقد تقدّم أوّل الكتاب . وقال عمر بن الخطاب . قول العبد الله أكبر خير من الدنيا وما فيها . وهذه الآية هى خاتمة التوراة . روى مُطَرِّف عن عبدالله بن كعب قال : افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام وختمت بخاتمة هذه السورة . وفى الخبر أنها آية العز ؛ رواه معاذ بن جبل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب علمه « وقل الحمد لله الذى » الآية . وقال عبد الحميد بن واصل : سمعت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ وقل الحمد لله الآية كتب الله له من الأجر مثل الأرض والجبال لأن الله تعالى يقول فيمن زعم أن له ولدا تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا " . وجاء فى الخبر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر رجلا شكا إليه بالدَّين بأن يقرأ « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » — إلى آخر السورة ثم يقول — توكلت على الحى الذى لا يموت ؛ ثلاث مرات .

تمت سورة الإسراء ، والحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده .

# تفســـير ســـورة الكـهف

وهى مكية فى قول جميع المفسرين . وروى عن فرقة أن أوّل السورة نزل بالمدينة إلى قوله « جُرُزًا »(١)، والأوّل أصح . وروى فى فضلها من حديث أنس أنه قال : من قرأ بها أُعْطِىَ نورا بين السماء والأرض ووُقِىَ بهـا فتنة القبر . وقال إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ألا أَدُلُّكم على سورة شيّعها سبعون ألف مَلَك مَلأَ عِظَمُها ما بين السماء والأرض لتاليها مثل ذلك" . قالوا : بلى يا رسول الله؟ قال : "سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام وأعطى نورا يبلغ السماء ووُقِىَ فتنة الدجال" ذكره الثعلبى"، والمهدوى أيضا بمعناه . وفى مسند الدّارِمِىّ عن أبى سعيد الخُدْرِى قال : من قرأ سورة الكهف ليـلة الجمعة أضـاء له من النور فيما بينـه وبين البيت العتيق . وفى صحيح مسلم عن أبى الدَّرْدَاء أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال : "من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف عُصم من الدجال" . وفى رواية "من آخر الكهف" . وفى مسلم أيضا من حديث النواس بن سِمْعان "فمن أدركه — يعنى الدجال — فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف" . وذكره الثعلبىّ . قال : سَمُرة بن جُنْدُب قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "من قرأ عشر آيات من سـورة الكهف حِفْظًا لم تضره فتنة الدجال" . ومن قرأ السورة كلهـا دخل الجنـــة .

قوله تعـالى : ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣)

قوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا . قَيِّمًا ﴾ ذكر ابن إسحاق أن قريشا بعثوا النضر بن الحارث وعُقبة بن أبى مُعَيْط إلى أحبار يهودَ وقالوا لهما :

(١) آيـــة ٨

تَسالاهم عن محمد وصِفَا لهم صِفَتَه وأخبراهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأوّل ، وعندهم علمٌ ليس عندنا من علم الأنبياء ؛ فخرجا حتى قدما المدينة ، فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووَصَفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله ، وقالا لهم : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا . فقالت لهما أحبار يهود : سَلُوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبيّ مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم ؛ سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ، ما كان أمرهم ؛ فإنه قد كان لهم حديثٌ عَجَب . وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نَبَؤه . وسلوه عن الروح ، ما هي ؛ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبيّ ، وإن لم يفعل فهو رجل متقوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيط حتى قدما مكة على قريش فقالا : يا معشر قريش! قد جئناكم بفَصْل ما بينكم وبين محمد — صلى الله عليه وسلم — قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أَمَرُونا بها ، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ ، وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل ، فرَوْا فيه رأيكم . فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا محمد ، أخبرنا عن فِتية ذهبوا في الدهر الأوّل ، قد كانت لهم قصة عجب ، وعن رجل كان طوّافا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وأخبرنا عن الروح ما هي؟ قال فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أخبركم بما سألتم عنه غدا" ولم يستثن (١) . فانصرفوا عنه ، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ، لا يُحدث الله إليه في ذلك وَحْياً ولا يأتيه جبريل ، حتى أرجف (٢) أهل مكة وقالوا : وَعَدَنا محمد غدا ، واليوم خمس عشرة ليلة ، وقد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه ؛ وحتى أحزن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مُكْثُ الوحي عنه ، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكة ، ثم جاءه جبريل عليه السلام من عند الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجلِ الطواف والروح . قال ابن إسحاق : فذُكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : " لقد احتبست عني

(١) أي لم يقل — صلى الله عليه وسلم — إن شاء الله . (٢) أرجف القوم : خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن .

يا جبريل حتى سُؤت ظنًّا " فقال له جبريل : « وما نتنزّلُ إلّا بأمْرِ ربِّك له ما بيْنَ أيدينا وَمَا خَلْفَنَا وما بيْنَ ذلك وما كانَ رَبُّك نَسِيًّا »[1] . فافتتح السورة تبارك وتعالى بحمده ، وذِكْر نبوّة رسوله صلى الله عليه وسلم لما أنكروا عليه من ذلك فقال : « الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب» يعنى محمدا ، إنك رسول منّى ، أى تحقيق لما سألوا عنه من نبوّتك . « وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا » أى معتدلًا لا اختلاف فيه . « لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ » أى عاجل عقوبته فى الدنيا ، وعذابا أليما فى الآخرة ، أى من عند ربك الذى بعثك رسولا . « وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا » أى دار الخلد لا يموتون فيها ، الذين صدّقوك بما جئتَ به مما كذّبك به غيرهم ، وعملوا بما أمرتهم به من الأعمال . « ويُنْذِرَ الذين قالوا اتّخذ اللهُ وَلَدًا » يعنى قريشا فى قولهم : إنا نعبد الملائكة وهى بنات الله . « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ » الذين أعظموا فراقهم وعَيْبَ دينهم . « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ » أى لقولهم إن الملائكة بنات الله . « إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » لحزنه عليهم حين فاته ما كان يرجوه منهم ، أى لا تفعل . قال ابن هشام : « باخع نفسك » مُهْلك نفسك ، فيما حدّثنى أبو عبيدة . قال ذو الرُّمّة :

ألا أيّهذا الباخعُ الوَجْدُ نفسَه * بشىء نَحَتْه عن يَدَيْه المَقادِرُ

وجمعها باخعون وبَخَعة . وهذا البيت فى قصيدة له[2] . وتقول العرب : قد بَخَعْتُ له نُصْحِى ونَفْسِى ، أى جَهَدت له . « إنّا جعلنا ما على الأرض زِينَةً لها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » قال ابن إسحاق : أى أيّهم أتبع لأمرى وأعمل بطاعتى . « وإنّا لجاعلون ما عليها صَعِيدًا جُرُزًا » أى الأرض ، وإن ما عليها لفانٍ وزائل ، وإن المرجع إلىّ فأجْزِى كلًّا بعمله ؛ فلا تأس ولا يَحْزُنْك ما ترى وتسمع فيها . قال ابن هشام : الصّعيد وجه الأرض ، وجمعه صُعُد . قال ذو الرُّمّة يصف ظَبْيًا صغيرا :

---

(١) آية ٦٤ سورة مريم . (٢) مطلعها :

لمَيّة أطلال بحُزْوَى دواثر * عَفَتْها السوافى بعدنا والمواطر

كأنه بالضُّحَا تَرمِى الصعيدَ به * دبَّابَةٌ فى عِظام الرأس خُرْطومُ (١)

وهذا البيت فى قصيدة له (٢). والصعيد أيضا : الطريق ؛ وقد جاء فى الحديث : " إياكم والقعودَ على الصُّعُدات " يريد الطرق . والجُرُز : الأرض التى لا تنبت شيئا ؛ وجمعها أجراز . ويقال : سَنَةٌ جُرُز وسِنُون أجراز ؛ وهى التى لا يكون فيها مطر . وتكون فيها جُدوبة ويبس وشدّة . قال ذو الرمّة يصف إبلا :

طَوَى النَّحْزُ والأجراز ما فى بطونها * فما بقيتْ إلا الضّلوع الجراشِعُ (٣)

قال ابن إسحاق : ثم استقبل قصة الخبر فيما سألوه عنه من شأن الفتية فقال : « أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصحابَ الْكَهْفِ والرَّقِيم كانوا مِن آياتِنا عَجَبًا » أى قد كان من آياتى فيما وضعت على العباد من حججى ما هو أعجب من ذلك . قال ابن هشام : والرقيم الكتاب الذى رُقِم بخبرهم ؛ وجمعه رُقُم . قال العجّاج :

* ومُسْتَقَرِّ المصحف المُرَقَّمِ *

وهذا البيت فى أُرْجوزة له (٤). قال ابن إسحاق : ثم قال « إِذْ أَوَى الفِتْيَةُ إلى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا . فَضَرَبْنَا على آذانِهِمْ فِى الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا . ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا » . ثم قال : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ » أى بصدق الخبر « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا » أى لم يشركوا بى كما أشركتم بى ما ليس لكم به علم . قال ابن هشام : والشَّطَطُ الغُلُوّ ومجاوزة الحق . قال أعشى بن قيس بن ثعْلبة :

أتنتهون ولا يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ * كالطعن يذهب فيه الزَّيْت والفُتُلُ

(١) يعنى بالدبابة : الخمر . والخرطوم : الخمر وصفوتها .　(٢) مطلعها :

أعن ترَسَّمتَ من خرقاء منزلة * ماء الصبابة من عينيك مسجوم

(٣) النحز : الضرب والدفع . والجراشع : الغلاظ ؛ الواحد جرشع .　(٤) مطلعها :

يا دار سَلْمَى يا اسْلمى ثم اسْلَمِى * بسَمْسَم أو عن يمين سَمْسَمِ

وهذا البيت فى قصيدة له (١) . قال ابن إسحاق : « هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ » . قال ابن إسحاق : أى بحجة بالغة . « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا . وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا . وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ » . قال ابن هشام : تزاور تميل؛ وهو من الزَّوَر . وقال أبو الزحف الكُلَيْبِىّ (٢) يصف بلدا :

جَذْبُ (٣) المُنَدَّى عن هَوانا أَزْوَرُ * يُنْضِى المطايا خِمْسُه العَشَنْزَرُ

وهذان البيتان (٤) فى أرجوزة له . و« تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ » تجاوزهم وتتركهم عن شمالها . قال ذو الرُّمَّة :

إلى ظُعُن يَقْرِضن أقواز مُشْرِف * شِمالا وعن أيمانهن الفوارسُ (٥)

وهذا البيت فى قصيدة له (٦) . والفَجْوة : السَّعة، وجمعها الفجاء . قال الشاعر :

ألبسْتَ قومك مَخْزاة ومنقصةً * حتى أُبيحُوا وخَلُّوا فَجْوَة الدار

« ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ » أى فى الحجة على من عرف ذلك من أمورهم من أهل الكتاب ممن أمر هؤلاء بمسئلتك عنهم فى صدق نبوّتك بتحقيق الخبر عنهم . « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا . وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ

---

(١) مطلعها : ودّع هريرة إن الركب مرتحل * وهل تطيق وداعا أيها الرجل

(٢) فى اللسان مادة « سمهدر » أنه أبو الزحف الكلينى . واستدرك عليه مصحح اللسان بقوله : « قوله الكلينى نسبة لكلين كأمير بلدة بالرى » . ومما يقوى أنه الكليبى ( بالباء ) ما ذكره ابن قتيبة فى كتابه الشعر والشعراء أنه أبو الزحف بن عطاء بن الخطفى ابن عم جرير الشاعر . ومن البين أن جريرا من بنى كليب . (٣) قبله :

* ودون لَيْلَى بلد سَمَهْدَرُ *

و بلد سمهدر : بعيد مضلة واسع . والمندى : حيث يرتع ساعة من النهار . والأزور : الطريق المعوج . وأنضى البعير : هزله بكثرة السير . والخمس (بكسر السين) من أظماء الإبل ، أن ترعى ثلاثة أيام وترد اليوم الرابع . والعشنزر : الشديد .

(٤) يعنى بالبيتين هنا شطرى الرجز .

(٥) القوز ( بالفتح ) : العالى من الرمل كأنه جبل . والفوارس : رمال بالدهناء . (٦) مطلعها :

ألم تسأل اليوم الرسوم الدوارس * بحُزْوَى وهل تدرى القفار البسابسُ

الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ » قال ابن هشام : الوصيد الباب . قال العبسى وآسمه عبد بن وهب [(1)] :

بأرض فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها * علىّ ومعـروفى بها غير مُنْـكَرِ

وهـذا البيت فى أبيات له . والوصيد أيضا الفناء ، وجمعه وصائد ووُصُـد ووُصْدان . « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا — إلى قوله — الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ » أهل السلطان والملك منهـم . « لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا . سيقولون » يعنى أحبـار اليهود الذين أمروهم بالمسئلة عنهم . « ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ » أى لا تكابرهم . « إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا » فإنهم لا علم لهم بهم . « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَٱذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْـدِيَنِى رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـذَا رَشَدًا » أى لا تقولنّ لشىء سألوك عنه كما قلت فى هـذا إنى مخبركم غدا ، واستثن مشيئة الله ، وآذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهـدينى ربّى لخبر ما سألتمونى عنه رَشَدا ، فإنك لا تدرى ما أنا صانع فى ذلك . « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » أى سيقولون ذلك . « قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِ أَحَدًا » أى لم يخف عليه شىء مما سألوك عنه .

قلت : هـذا ما وقع فى السيرة من خبر أصحاب الكهف ذكرناه على نَسَقه [(2)] . ويأتى خبر ذى القرنين ، ثم نعود إلى أول السورة فنقول :

قد تقدّم معنى الحمد لله . وزعم الأخفش والكسائىّ والفرّاء وأبو عبيد وجمهور المتأولين أن فى أوّل هذه السورة تقديما وتأخيرا ، وأن المعنى : الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قَيِّماً ولم يجعل له عوجا . و « قَيِّماً » نصب على الحال . وقال قتادة : الكلام على سياقه من غير تقديم ولا تأخير ، ومعناه : ولم يجعل له عوجا ولكن جعلناه قَيِّماً . وقول الضحاك فيه حُسْن ، وأن

(١) فى سيرة ابن هشام : « عبيد بن وهب » .
(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ١٩٢ طبع أوربا ، ج ١ ص ٣٢١ طبع مطبعة الحلبى .

المعنى : مستقيم[1] ، أى مستقيم الحكمة لا خطأ فيه ولا فساد ولا تناقض . وقيل : « قيما » على الكتب السابقة يصدّقها . وقيل : « قَيِّمًا » بالحجج أبدا . « عِوَجًا » مفعول به ؛ والعِوَج (بكسر العين) فى الدّين والرأى والأمر والطريق . وبفتحها فى الأجسام كالخشب والجدار؛ وقد تقدّم[2] . وليس فى القرآن عِوج، أى عيب، أى ليس متناقضا مختلفا ؛ كما قال تعـالى : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافًا كَثِيرًا[3] » وقيل : أى لم يجعله مخلوقا؛ كما روى عن ابن عباس فى قوله تعالى «قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ[4]» قال : غير مخلوق . وقال مقاتل : « عِوَجًا » اختلافا . قال الشاعر :

أدوم بودّى للصـــديق تكرُّمًا * ولا خير فيمن كان فى الودّ أعْوَجَا

﴿ لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَـدِيدًا ﴾ أى لينذر محمد أو القرآن . وفيه إضمار، أى لينذر الكافرين عقـاب الله . وهـذا العذاب الشديد قد يكون فى الدنيا وقد يكون فى الآخرة . ﴿ مِنْ لَدُنْهُ ﴾ أى من عنده . وقرأ أبو بكر عن عاصم « من لدْنه » باسكان الدال وإشمامها الضم وكسر النون ، والهاء موصولة بياء . الباقون « لدُنْهُ » بضم الدال وإسكان النون وضم الهـاء . قال الجوهرى : وفى « لدن » ثلاث لغات : لَدُن، ولَدَى ، ولَدُ . وقال :

* مِن لَدُ لَحْيَيْهِ إلى مُنْحُورِه[5] *

المُنْحُور لغة فى المَنْحَر .

قوله تعـالى : ﴿ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أى بأن لهم . ﴿ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ وهى الجنة . ﴿ مَاكِثِينَ ﴾ دائمين . ﴿ فِيـهِ أَبَدًا ﴾ لا إلى غاية . وإن حملتَ التبشير على البيان لم يحتج إلى الباء فى « بأن » . والأجر الحسن : الثواب العظيم الذى يؤدّى إلى الجنة .

---

(١) أى معنى قوله «قيما» . (٢) راجع جـ ٤ ص ١٥٤ طبعة أولى أو ثانية . (٣) آية ٨٢ سورة النساء راجع جـ ٥ ص ٢٨٨ (٤) آية ٢٨ سورة الزمر . (٥) هذا عجز بيت لغيلان بن حريث . وصدره كما فى اللسان :

* يستوعب البوعين من جريره *

والمنحور ( بالحاء المهملة وضم الميم ) لغة فى النحر ، وهو الصدر . وقد وردت هذه الكلمة فى الأصول وصحاح الجوهرى واللسان مادة « نخر، ولدن » بالخاء المعجمة ، وهو الأنف . وقد اسـتدرك عليه ابن برى فقال : وصواب إنشاده كما أنشده سيبويه « الى منحوره » بالحاء . وصف الشاعر بعيرا أو فرسا بطول العنق ؛ فجعله يستوعب من حبـله الذى يوثق به مقدار باعين فيما بين لحييه ونحره . والبوع : الباع . والجرير : الحبل .

قوله تعالى : ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً ﴾ وهم اليهود ، قالوا عزير ابن الله ، والنصارى قالوا المسيح ابن الله ، وقريش قالت الملائكة بنات الله . فالإنذار في أوّل السورة عام ، وهذا خاص فيمن قال لله ولد . ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ «من» صلة ، أي مالهم بذلك القول علم ؛ لأنهم مقلدة قالوه بغير دليل . ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أي أسلافهم . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً ﴾ « كلمة » نصب على البيان ؛ أي كبرت تلك الكلمة كلمةً . وقرأ الحسن ومجاهد ويحيى بن يَعْمَر وابن أبي إسحاق « كلمةٌ » بالرفع ؛ أي عظمت كلمة ؛ يعني قولهم اتخذ الله ولدا . وعلى هذه القراءة فلا حاجة إلى إضمار . يقال : كبر الشيء إذا عظم . وكبر الرجل إذا أسنّ . ﴿ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ في موضع الصفة . ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ أي ما يقولون إلا كذبا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ « باخع » أي مُهلك وقاتل ؛ وقد تقدّم . « آثارِهِمْ » جمع أَثَر ، ويقال إِثْر . والمعنى : على أثر تولّيهم و إعراضهم عنك ؛ ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ أي القرآن . ﴿ أَسَفاً ﴾ أي حزنا وغضبا على كفرهم ؛ وانتصب على التفسير .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ « ما » و « زينةً » مفعولان . والزينة كل ما على وجه الأرض ؛ فهو عموم لأنه دال على بارئه . وقال ابن جُبير عن ابن عباس : أراد بالزينة الرجال ؛ قال مجاهد . وروى عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والأمراء . وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها » قال : العلماء زينة الأرض . وقالت فرقة : أراد النِّعم والملابس والثمار والخضرة والمياه، ونحو هذا مما فيه زينة؛ ولم يدخل فيه الجبال الصم وكل ما لا زينة فيه كالحيات والعقارب . والقول بالعموم أوْلى، وأن كل ما على الأرض فيه زينة من جهة خلقه وصنعه وإحكامه . والآية بسط في التسلية؛ أي لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإنا إنما جعلنا ذلك آمتحانا واختبارا لأهلها؛ فمنهم من يتدبّر ويؤمن، ومنهم من يكفر، ثم يوم القيامة بين أيديهم؛ فلا يعظُمنّ عليك كفرهم فإنا نجازيهم .

الثانيــة — معنى هــذه الآية ينظر إلى قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إن الدنيا خضرة حُلوة والله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون" . وقوله صلى الله عليه وسلم : "إن أخوف ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من زَهرة الدنيا" قال : وما زهرة الدنيا ؟ قال : "بركات الأرض" خرجهما مسلم وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ . والمعنى : أن الدنيا مستطابة في ذوقها معجبة في منظرها كالثمر المُسْتَحْلَى المُعْجِب المرأى ؛ فآبتلى الله بها عباده لينظر أيّهم أحسن عملا . أي من أزهد فيها وأترك لها ؛ ولا سبيل للعباد إلى معصية ما زيّنه الله إلا [ أن ] يعينه على ذلك . ولهذا كان عمر يقول فيما ذكر البخاري : اللّهمّ إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا ، اللّهمّ إني أسألك أن أنفقه في حقه . فدعا الله أن يعينه على إنفاقه في حقه . وهذا معنى قوله عليه السلام : "فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه ومن أخذه بإشراف نفس كان كالذي يأكل ولا يشبع" . وهكذا هو المكثر من الدنيا لا يقنع بما يحصل له منها بل همّته جمعها ؛ وذلك لعدم الفهم عن الله تعالى ورسوله ؛ فإن الفتنة معها حاصلةٌ وعدمَ السلامة غالبة، وقد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه

الله بمـا آتاه . وقال ابن عطية : كان أبى رضى الله عنـه يقول فى قوله « أحسن عملا » : أحسن العمل أخذٌ بحقّ و إنفاقٌ فى حق مع الإيمان، وأداء الفرائض واجتنابُ المحارم والإكثارُ من المندوب إليه .

قلت : هـذا قول حسن ، وجيز فى ألفاظه بليغ فى معناه ، وقـد جمعه النبىّ صـلى الله عليه وسلم فى لفظ واحد وهو قوله لسفيان بن عبد الله الثّقفىّ لمـا قال : يارسول الله، قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك — فى رواية : غيرك . قال : " قل آمنت بالله ثم استقم " خرّجه مسلم . وقال سفيان الثّورىّ : « أحسن عملا » أزهدهم فيهـا . وكذلك قال أبو عصام العسقلانى : « أحسن عمـلا » أترك لها . وقـد اختلفت عبارات العلمـاء فى الزهد؛ فقال قوم : قصرُ الأمل وليس بأكل الخشن ولبس العباء؛ قاله سفيان الثّورىّ . قال علماؤنا : وصدق رضى الله عنـه ! فإن من قَصُر أملُه لم يتأنّق فى المطعومات ولا يتفنّن فى الملبوسات، وأخذ من الدنيا ما تيسّر، واجتزأ منها بمـا يُبَلِّغ . وقال قوم : بُغْضُ المحمدة وحُبّ الثناء . وهو قول الأوزاعىّ ومن ذهب إليه . وقال قوم : ترك الدنيا كلها هو الزهد؛ أَحَبَّ تَرْكَها أم كَرِه . وهو قول فُضيل . وعن بشر بن الحارث قال : حُبُّ الدنيا حبُّ لقاء الناس، والزهدُ فى الدنيا الزهد فى لقاء الناس . وعن الفضيل أيضا : علامة الزهـد فى الدنيا الزهد فى الناس . وقال قوم : لا يكون الزاهد زاهدا حتى يكون ترك الدنيا أحبَّ إليـه من أخذها؛ قاله إبراهيم بن أدهم . وقال قوم : الزهد أن تزهد فى الدنيا بقلبك؛ قاله ابن المبارك . وقالت فرقة : الزهد حبّ الموت . والقول الأول يعم هذه الأقوال بالمعنى فهو أولى .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (٨)

تقـدّم بيانه[(١)] . وقال أبو سهل : ترابا لا نبات به؛ كأنه قُطع نباته . والجَرْز : القطع؛ ومنه سنة جُرُز . قال الراجز :

* قد جَرفَتْهنّ السّنونُ الأَجْرَاز *

(١) ص ٣٤٨ من هذا الجزء .

والأرض الجُرُز التي لا نبات فيها ولا شيء من عمارة وغيرها ؛ كأنه قطع وأزيل . يعني يوم القيامة ، فإن الأرض تكون مستوية لا مستتر فيها . النحاس : والجرز في اللغــة الأرض التي لا نبات بها . قال الكسائي : يقال جَرِزَت الأرضُ تَجْرَز ، وجرزها القوم يَجْرُزونها إذا أكلوا كل ما جاء فيها من النبات والزرع فهي مجروزة وجُرُز .(١)

قوله تعـالى : أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

مذهب سيبويه أن « أم » إذا جاءت دون أن يتقدمها ألف استفهام أنهـا بمعنى بل وألف الاستفهام ، وهي المنقطعة . وقيل : « أم » عطف على معنى الاستفهام في لعلك ، أو بمعنى ألف الاستفهام على الإنكار . قال الطبري : وهو تقرير للنبيّ صـلى الله عليه وسـلم على حسابه أن أصحاب الكهف كانوا عجبا ، بمعنى إنكار ذلك عليه ؛ أي لا يعظم ذلك بحسب ما عظمه عليك السائلون من الكفرة ، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم وأشيع ؛ هذا قول ابن عباس ومجاهـد وقتادة وابن إسحاق . والخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسـلم ؛ وذلك أن المشركين سألوه عن فِتْية فُقِدوا ، وعن ذي القرنين وعن الروح ، وأبطأ الوَحْيُ على ما تقدّم . فلمـا نزل قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا من آياتنا عجبا ؛ أي ليسوا بعجب من آياتنا ، بل في آياتنا ما هو أعجب من خبرهم . الكلبي : خَلْقُ السموات والأرض أعجبُ من خبرهم . الضحاك : ما أطلعتك عليه من الغيب أعجب . الجُنيد : شأنك في الإسراء أعجب . المـاورديّ : معنى الكلام النفي ؛ أي ما حسبت لولا إخبارنا . أبو سهل : استفهام تقرير ؛ أي أحسبت ذلك فإنهم عجب . والكهف : النَّقْب المتّسـع في الجبـل ؛ وما لم يتّسع فهـو غار . وحكى النقاش عن أنس بن مالك أنه قال : الكهف الجبل ؛ وهذا غير شهير في اللغة .

واختلف الناس في الرقيم ؛ فقال ابن عباس : كل شيء في القـرآن أعلمه إلا أربعـة : غِسْـلين وحَنَان والأوّاه والرقيم . وسئل مرة عن الرقيم فقـال : زعم كعب أنها قرية خرجوا

---

(١) في الكلمة أربع لغات : جُرُز ، جُرْز ، جَرْز ، جَرَز .

منها . وقال مجاهد : الرقيم وادٍ . وقال السّدّى : الرقيم الصخرة التى كانت على الكهف .
وقال ابن زيد : الرقيم كتاب غَمّ الله علينا أمره، ولم يشرح لنا قصته . وقالت فرقة : الرقيم
كتاب فى لوح من نُحاس . وقال ابن عباس : فى لوح من رَصاص كَتب فيه القوم الكفارُ
الذين فر الفتية منهم قصتهم وجعلوها تاريخا لهم ، ذكروا وقت فقدهم، وكم كانوا، و بين من
كانوا . وكذا قال الفراء، قال : الرقيم لوح من رَصاص كتب فيه أسماؤهم وأنسابهم ودينهم
وممن هربوا . قال ابن عطية : ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا قوما مؤرّخين للحوادث،
وذلك من نبل المملكة ؛ وهو أمر مفيد . وهذه الأقوال مأخوذة من الرَّقْم ؛ ومنه كتاب
مرقوم . ومنه الأرقم لتخطيطه . ومنه رَقْمة الوادى ؛ أى مكان جَرْىِ الماء وانعطافه .
وما روى عن ابن عباس ليس بمتناقض؛ لأن القول الأول إنما سمعه من كَعْب . والقول الثانى
يجوز أن يكون عرف الرقيم بعده ، وروى عنه سعيد بن جُبير قال : ذكر ابن عباس أصحاب
الكهف فقال : إن الفتية فُقِدوا فطلبهم أهلوهم فلم يجدوهم فرُفع ذلك إلى الملك فقال :
ليكونن لهم نبأ، وأحضر لوحا من رصاص فكتب فيه أسماءهم وجعله فى خزانته ؛ فذلك اللوح
هو الرقيم . وقيل : إن مؤمنَيْن كانا فى بيت الملك فكتبا شأن الفتية وأسماءهم وأنسابهم فى لوح
من رصاص ثم جعلاه فى تابوت من نُحاس وجعلاه فى البنيان ؛ فالله أعلم . وعن ابن عباس أيضا :
الرقيم كتاب مرقوم كان عندهم فيه الشرع الذى تمسكوا به من دين عيسى عليه السلام .
وقال النقاش عن قَتادة : الرقيم دراهمهم . وقال أنس بن مالك والشَّعْبِىّ : الرقيم كلبهم .
وقال عكرمة : الرقيم الدواة . وقيل : الرقيم اللوح من الذهب تحت الجدار الذى أقامه الخَضِر .
وقيل : الرقيم أصحاب الغار الذى انطبق عليهم ؛ فذكر كلُّ واحد منهم أصلح عمله .

قلت : وفى هذا خبر معروف أخرجه الصحيحان[1] ، وإليه نحا البخارى . وقال قوم :
أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرقيم بشىء . وقال الضحاك : الرقيم بلدة
بالروم فيها غار فيه أحد وعشرون نفسا كأنهم نيام على هيئة أصحاب الكهف، فعلى هذا هم

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٨ ص ٨٩ طبع الآستانة . وشرح القسطلانى على صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١٧ ،
جـ ٥ ص ٥٠٩ وجـ ٩ ص ٥ طبع بولاق .

فتية آخرون جرى لهم ما جرى لأصحاب الكهف. والله أعلم . وقيل : الرقيم وادٍ دون فلسطين فيه الكهف؛ مأخوذ من رَقْمة الوادي وهي موضع الماء؛ يقال : عليك بالرَّقْمة ودع الضِّفّة؛ ذكره الغزنوى . قال ابن عطية : وبالشام على ماسمعت به من ناس كثير [ كهف ] فيه موتى، يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف وعليهم مسجد وبناء يسمى الرقيم ومعهم كلبٌ رِمّة . وبالأندلس في جهة غَرْناطة بقرب قرية تسمى لَوْشة كهف فيه موتى ومعهم كلبٌ رِمّة ، وأكثرهم قد تجرّد لحمه وبعضهم متماسك؛ وقد مضت القرون السالفة ولم نجد من علم شأنهم أثارة[1] . ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف؛ دخلتُ إليهم ورأيتُهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة؛ وعليهم مسجد؛ وقريب منهم بناء رُومى يسمى الرقيم؛ كأنه قصر مُخْلَق قد بقى بعض جدرانه؛ وهو في فلاة من الأرض خَرِبة؛ وبأعلى غَرناطة مما يلى القبلة آثار مدينة قديمة رومية يقال لها مدينة دَقْيُوس؛ وجدنا في آثارها غرائب من قبور ونحوها .

قلت : ماذكر من رؤيته لهم بالأندلس فإنما هم غيرهم؛ لأن الله تعالى يقول في حق أصحاب الكهف : « لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا » . وقال ابن عباس لمعاوية لما أراد رؤيتهم : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك؛ وسيأتى في آخر القصة . وقال مجاهد في قوله « كانوا من آياتنا عَجَباً » قال : هم عَجَبٌ . كذا روى ابن جُريج عنه؛ يذهب إلى أنه ليس بإنكار على النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يكون عنده أنهم عَجَب . وروى ابن نجيح عنه قال : يقول ليس بأعجب آياتنا .

قوله تعالى : إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ رُوى أنهم قوم من أبناء أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر؛ ويقال فيه دقينوس . وروى أنهم كانوا مطوّقين مسوّرين

(١) الأثارة : البقية .

بالذهب ذوى ذوائب، وهم من الروم واتبعـوا دين عيسى . وقيـل : كانوا قبـل عيسى؛ والله أعلم . وقال ابن عباس : إن ملكا من الملوك يقال له دقيانوس ظهر على مدينة من مدائن الروم يقال لها أُفْسُوس . وقيل هى طَرَسوس وكان بعد زمن عيسى عليه السلام فأمر بعبادة الأصنام فدعا أهلها إلى عبادة الأصنام، وكان بها سبعة أحداث يعبدون الله سرًّا، فرُفع خبرهم إلى الملك وخافوه فهربوا ليلا، ومرُّوا براع معه كلب فتبعهم فآووْا إلى الكهف فتبعهم الملك إلى فم الغار، فوجد أثر دخولهم ولم يجد أثر خروجهم، فدخلوا فأعمى الله أبصارهم فلم يروا شيئا؛ فقال الملك: سُدُّوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعا وعطشا. وروى مجاهد عن ابن عباس أيضا أن هؤلاء الفتية كانوا فى دين ملك يعبد الأصنام ويذبح لها ويكفر بالله، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين — حسبما ذكر النقاش أو من مؤمنى الأمم قبلهم — فآمنوا بالله ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالتزام الدين وعبادة الله؛ فرُفع أمرهم إلى الملك وقيل له : إنهـم قد فارقوا دينك واستخفُّوا آلهتك وكفروا بها؛ فاستحضرهم الملك إلى مجلســه وأمرهم باتباع دينه والذبح لآلهتـه، وتوعّدهم على فراق ذلك بالقتل؛ فقالوا له فيما روى: « رَبُّنَا رَبُّ السموات والأرض — إلى قوله — وإذ اعتزلتموهم ». وروى أنهم قالوا نحو هذا الكلام وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شبان أغمار لاعقول لكم، وأنا لاأعجل بكم بل أستأنى فاذهبوا إلى منازلكم ودبّروا رأيكم وارجعوا إلى أمرى، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، ثم إنه سافر خلال الأجل فتشاور الفتيـة فى الهروب بأديانهم ، فقال لهم أحدهم : إنى أعرف كهفا فى جبل كذا ، كان أبى يُدخل فيه غنمه فلنذهب فلنختفِ فيـه حتى يفتح الله لنـا ؛ فخرجوا فيما روى يلعبون بالصَّوْلجان والكُرَة ، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئـلا يشعر الناس بهم . وروى أنهـم كانوا مُثقّفين فحضر عيد خرجوا إليه فركبوا فى جملة الناس، ثم أخذوا باللعب بالصَّوْلجان حتى خلَصوا بذلك . وروى وهب بن منبّه أن أول أمرهم إنما كان حوارىّ لعيسى بن مريم جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجّر نفسه من صاحب الحمام وكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام فى أعماله بركة عظيمة ،

فألقى إليه بكل أمره، وعرف ذلك الرجلَ فتيانٌ من المدينة فعرفهم الله تعالى فآمنوا به واتبعوه على دينه، وآشتهرت خلطتهم به؛ فأتى يوما إلى ذلك الحمام وَلَدُ الملك بآمرأة أراد الخلْوة بها، فنهاه ذلك الحوارِىُّ فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاه فشتمه، وأمضى عزمه فى دخول الحمام مع البَغِيّ، فدخل فماتا فيه جميعا؛ فآتُّهِم ذلك الحوارىّ وأصحابه بقتلهما، ففروا جميعا حتى دخلوا الكهف. وقيل فى خروجهم غير هذا.

وأما الكلب فروى أنه كان كلبَ صيد لهم، وروى أنهم وجدوا فى طريقهم راعيا له كلب فاتبعهم الراعى على رأيهم وذهب الكلب معهم؛ قاله ابن عباس. واسم الكلب حمران وقيل قطمير.

وأما أسماء أهل الكهف فأعجمية، والسند فى معرفتها واه. والذى ذكره الطبرى هى هذه: مكسلمينا وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، ومحسيميلنينا ويمليخا، وهو الذى مضى بالوَرِق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم، ومرطوس وكشوطوش وديموس ويطونس وبيرونس. قال مقاتل: وكان الكلب لمكسلمينا، وكان أسنَّهم وصاحبَ غنم.

الثانيـــة — هـذه الآية صريحـة فى الفرار بالدِّين وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة. وقد خرج النبىّ صلى الله عليه وسلم فارًّا بدينه، وكذلك أصحابه، وجلس فى الغار حسبما تقدم فى سورة «النحل»[1]. وقد نص الله تعالى على ذلك فى «براءة» وقد تقدم[2]. وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين. فسُكْنَى الجبال ودخول الغِيران، والعزلة عن الخلق والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم هى سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء. وقد فضّل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزلة، وفضّلها جماعة العلماء لا سيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: «فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ».

---

(١) راجع ص ١٥٩ من هذا الجزء. (٢) راجع جـ ٨ ص ١٤٣ وما بعدها.

قال العلماء . الاعتزال عن الناس يكون مرّة فى الجبال والشّعاب ، ومرة فى السواحل والرّباط ، ومرة فى البيوت ؛ وقد جاء فى الخبر : "إذا كانت الفتنة فأخف مكانك وكُفّ لسانك" . ولم يخصّ موضعا من موضع . وقد جعلت طائفة من العلماء العزلةَ اعتزالَ الشر وأهله بقلبك وعملك ، إن كنت بين أظهرهم . وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة : أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فخض معهم ، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت . وروى البَغَوِىّ عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم" . وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "نعم صوامع المؤمنين بيوتهم" من مراسل الحسن وغيره . وقال عقبة بن عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما النجاة يارسول الله ؟ فقال : "ياعقبة أمسك عليك لسانك ولْيَسَعْكَ بيتُك وٱبْكِ على خطيئتك" . وقال صلى الله عليه وسلم : "يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنمُ يتبع بها شَعَف الجبال ومواقع القطر يفرّ بدينه من الفتن" . خرّجه البخارى . وذكر علىّ بن سعد عن الحسن ابن واقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كانت سنة ثمانين ومائة فقد حلّت لأمتى العزبة والعزلة والترهّب فى رؤوس الجبال" . وذكر أيضا على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يأتى على الناس زمان لا يسلم لذى دين دينُه إلا من فرّ بدينه من شاهق إلى شاهق أو جُحْر إلى جُحر[(١)] فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلّت العُزْبة" . قالوا : يارسول الله ، كيف تحلّ العزبة وأنت تأمرنا بالتزويج ؟ قال : "إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدى أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدى زوجته فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدى ولده فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدى القرابات والجيران" . قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال : "يعيّرونه بضيق المعيشة ويكلّفونه ما لا يُطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التى يهلك فيها" .

---

(١) الجحر : الموضع . وكل ما جحرته من حائط فهو جحر .

قلت : أحوال الناس فى هـذا الباب تختلف ، فرُبّ رجلٍ تكون له قوّة على سكنى الكهوف والغيران فى الجبال ، وهى أرفع الأحوال لأنها الحالة التى آختارها الله لنبيّه صلى الله عليه وسلم فى بداية أمره ، ونص عليها فى كتابه مخبرا عن الفتية ، فقال : « وإذ آعتزلتموهم وما يعبـدون إلّا الله فأْوُوا إلى الكهف » . ورُبّ رجل تكون العزلة له فى بيته أخف عليه وأسهل؛ وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا إلى قبورهم . ورُبّ رجلٍ متوسّط بينهما فيكون له من القوّة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم فى الظاهر ومخالف لهم فى الباطن . وذكر ابن المبارك حدّثنا وُهَيب بن الوَرْد قال : جاء رجل إلى وهب بن منبِّه فقال : إن الناس وقعوا فيما فيه وقعوا ! وقد حدّثت نفسى ألا أخالطهـم . فقال : لا تفعل ! إنه لا بدّ لك من الناس ، ولا بدّ لهم منك ، ولك إليهـم حوائج ، ولهم إليك حوائج ، ولكن كن فيهـم أصمَّ سميعا ، أعمَى بصـيرًا ، سَكوتاً نَطُوقاً . وقد قيل : إن كل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معنى الجبال والشِّعاب؛ مثل الآعتكاف فى المساجد، ولزوم السواحل للرّباط والذكر، ولزوم البيوت فرارا عن شرور الناس . وإنما جاءت الأحاديث بذكر الشعاب والجبال واتباع الغنم — والله أعلم — لأن ذلك هو الأغلب فى المواضع التى يُعتزل فيها؛ فكل موضع يبعد عن الناس فهو داخل فى معناه؛ كما ذكرنا ، والله الموفق وبه العصمة . وروى عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يَعْجَب[1] ربُّك من راعى غنم فى رأس شَظِيَّة[2] الجبل يؤذِّن بالصلاة ويصلى فيقول الله عز وجل انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة". خرجه النَّسائىّ .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ لما فرّوا ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : « رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً » أى مغفرة ورزقا . « وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » توفيقا للرشاد . وقال ابن عباس : مخرجا من الغار فى سلامة . وقيل صوابا . ومن هذا المعنى أنه عليه السلام كان إذا حَزَبَه[3] أمر فَزِع إلى الصلاة .

(١) يعجب : كيسمع؛ أى يرضى منه ويثيبه . (٢) الشظية (بفتح الشين وكسر الظاء) : قطعة مرتفعة فى رأس الجبل (٣) أى إذا نزل به مُهِمّ أو أصابه غم . وفى الأصول : «اذا أحزنه» والتصويب عن كتب الحديث .

قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾

عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم . وهذه من فصيحات القرآن التى أقرّت العرب بالقصور عن الإتيان بمثله . قال الزجاج : أى منعناهم عن أن يسمعوا ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه . وقال ابن عباس : ضربنا على آذانهم بالنوم ؛ أى سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها . وقيل : المعنى « فضربنا على آذانهم » أى فاستجبنا دعاءهم، وصرفنا عنهم شرّ قومهم، وأنمناهم . والمعنى كلّه متقارب . وقال قُطْرُب : هذا كقول العرب ضرب الأمير على يد الرعيّة إذا منعهم الفساد ، وضرب السيد على يد عبده المأذون له فى التجارة إذا منعه من التصرف . قال الأسود بن يَعْفُر وكان ضَرِيرا :

ومن الحوادث لا أبالك أننى * ضُرِبتْ علىّ الأرضُ بالأسدادِ (١)

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التى منها عظم فساد النوم ، وقلّما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه ، ولا يُستحكم نوم إلا من تَعَطُّل السمع . ومن ذِكْر الأذن فى النوم قوله صلى الله عليه وسلم : " ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه " خرّجه الصحيح . أشار عليه السلام إلى رجل طويل النوم ، لا يقوم الليل . و « عَدَدًا » نعت للسنين ؛ أى معدودة ، والقصد به العبارة عن التكثير ؛ لأن القليل لا يحتاج إلى عدد لأنه قد عُرِف . والعدّ المصدر ، والعدد اسم المعدود كالنَّفَض والخَبَط . وقال أبو عبيدة : «عددا» نصب على المصدر . ثم قال قوم : بيّن الله تعالى عدد تلك السنين من بعدُ فقال : « وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا » .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى من بعد نومهم . ويقال لمن أُحْيِىَ أو أُقِيم من نومه مبعوث ؛ لأنه كان ممنوعا من الانبعاث والتصرف .

---

(١) واحد الأسداد : سَدّ ، وهو ذهاب البصر ؛ يقول : سُدّت علىّ الطريق ؛ أى عَمِيت علىّ مذاهبى .

قوله تعالى : ﴿ لِنَعْلَمَ أَىُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى ﴾ « لنعلم » عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود ومشاهدته ؛ وهذا على نحو كلام العرب ، أى لنعلم ذلك موجودا ، وإلا فقد كان الله تعالى علم أىّ الحزبين أحصى الأمد . وقرأ الزُّهْرِىّ « ليعلم » بالياء . والحزبان الفريقان . والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلا . والحزب الثانى أهل المدينة الذين بُعث الفِتْية على عهدهم ، حين كان عندهم التاريخ لأمر الفتية . وهذا قول الجمهور من المفسرين . وقالت فرقة : هما حزبان من الكافرين ، آختلفا فى مدّة أصحاب الكهف . وقيل : هما حزبان من المؤمنين . وقيل غير ذلك مما لا يرتبط بألفاظ الآية . و « أحصى » فعل ماض . و « أمدا » نصب على المفعول به ؛ قاله أبو علىّ . وقال الفرّاء : نصب على التمييز . وقال الزجاج : نصب على الظرف ، أى أىّ الحزبين أحصى للبثهم فى الأمد ، والأمد الغاية . وقال مجاهد : « أمدا » معناه عددا ، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب . وقال الطبرى : « أمدا » منصوب بـ « لبثوا » . ابن عطية : وهذا غير متّجه ، وأما من قال إنه نصب على التفسير فيلحقه من الاختلال أن أفعل لا يكون من فعل رباعى إلا فى الشاذ ، و « أحصى » فعل رباعى . وقد يحتج له بأن يقال : إن أفعل فى الرباعى قد كثر ؛ كقولك : ما أعطاه للمال وآتاه للخير . وقال فى صفة حوضه صلى الله عليه وسلم : " ماؤه أبيض من اللبن " . وقال عمر بن الخطاب : فهو لما سواها أضيع .

قوله تعالى : نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ ﴾ لما اقتضى قوله تعالى « لنعلم أى الحزبين أحصى » اختلافا وقع فى أمد الفِتْية ، عقّب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع . وقوله تعالى « إنّهم فِتيةٌ » أى شباب وأحداث حكم لهم بالفتوّة حين آمنوا بلا واسطة ؛ كذلك قال أهل اللسان : رأس الفتوّة الإيمان . وقال الجُنيد : الفتوّة بذل النّدى وكفّ الأذى وترك الشكوى . وقيل : الفُتوّة اجتناب المحارم واستعجال المكارم . وقيل غير هذا . وهذا القول حسن جدا ؛ لأنه يعمّ بالمعنى جميع ما قيل فى الفتوّة .

قوله تعالى : ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ أى يسّرناهم للعمل الصالح، من الانقطاع إلى الله تعالى، ومباعدة الناس ، والزهد فى الدنيا . وهذه زيادة على الإيمان . وقال السُّدِّى : زادهم هُدًى بكلب الراعى حين طردوه ورجموه مخافة أن يَنْبَح عليهم ويُنَبِّه بهم ؛ فرفع الكلب يديه إلى السماء كالداعى فأنطقه الله ، فقال : ياقوم ! لِمَ تطردوننى ، لم ترجموننى ! لم تضربوننى ! فوالله لقد عرفت الله قبل أن تعرفوه بأربعين سنة ؛ فزادهم الله بذلك هُدًى .

قوله تعالى : وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ عبارة عن شدّة عزْم وقُوّة صبر ، أعطاها الله لهم حتى قالوا بين يدى الكفار : « رَبُّنَا رَبُّ السمواتِ والأرض لن نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلٰهًا لقد قلنا إذًا شَطَطًا » . ولما كان الفزع وخَوَر النفس يُشْبِه بالتناسب الانحلال حَسُن فى شدة النفس وقوة التصميم أن يُشْبِه الربط ؛ ومنه يقال : فلان رابط الجأش ، إذا كان لا تَفْرَق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها . ومنه الربط على قلب أمّ موسى . وقولُه تعالى : « وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأقدامَ » وقد تقدّم[1] .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إذ قَامُوا فَقَالُوا ﴾ يحتمل ثلاثة معان : أحدها — أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدى الملك الكافر — كما تقدّم، وهو مَقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه ، ورفضوا فى ذات الله هيبته . والمعنى الثانى فيما قيل : إنهم أولاد عظماء تلك المدينة ، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد ؛ فقال أسنّهم : إنى أجد فى نفسى أن ربّى ربُّ السموات والأرض ؛ فقالوا ونحن كذلك نجد فى أنفسنا . فقاموا جميعا فقالوا : « رَبُّنَا ربُّ السموات والأرض لن نَدْعُوَ من دونه إلٰها لقد قلنا إذًا شَطَطًا » .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى لئن دعونا إلها غيره فقد قلنا إذا جوراً ومحالا . والمعنى الثالث — أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة النـاس ؛ كما تقول : قام فلان إلى أمر كذا إذا عزم عليه بغاية الجد .

الثانيـة — قال ابن عطية : تعلقت الصوفية فى القيام والقول بقوله « إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض » .

قلت : وهذا تعلق غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته ، وشكروا لمـا أولاهم من نعمه ونعمته ، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم ؛ وهذه سنة الله فى الرسل والأنبياء والفضلاء الأولياء . أين هـذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام ! وخاصة فى هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان ؛ هيهات ! بينهما والله ما بين الأرض والسماء . ثم هـذا حرام عنـد جماعة العلماء ، على ما يأتى بيـانه فى سـورة لقمان إن شاء الله تعالى . وقد تقـدم فى « سبحان » عند قوله : « وَلَا تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحًا »[(1)] ما فيه كفاية . وقال الامام أبو بكر الطرسوسى وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى ؛ لمـا اتخذ لهم عجلا جسدا له خوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون ؛ فهو دين الكفار وعباد العجل ، على ما يأتى .

قوله تعـالى : هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا ، أى أهل عصرنا وبلدنا ، عبدوا الأصنام تقليدا من غير حجة . ﴿ لَّوْلَا ﴾ أى هلا . ﴿ يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ﴾ أى بحجة على عبادتهم الصنم . وقيل : « عليهم » راجع إلى الآلهة ؛ أى هلا أقاموا بينة على الأصنام فى كونها آلهة ؛ فقولهم «لولا» تحضيض بمعنى التعجيز ، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم .

(١) راجع ص ٢٦٠ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ (١٦)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ ﴾ قيل : هو من قول الله لهم . أى وإذ اعتزلتموهم فأووا إلى الكهف . وقيل : هو من قول رئيسهم يمليخا ؛ فيما ذكر ابن عطية . وقال الغزنوى : رئيسهم مكسلمينا ، قال لهم ذلك ؛ أى إذ اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون . ثم استثنى وقال ﴿ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أى إنكم لم تتركوا عبادته ؛ فهو استثناء منقطع . قال ابن عطية : وهذا على تقدير إن الذين فر أهلُ الكهف منهم لا يعرفون الله، ولا علم لهم به ؛ وإنما يعتقدون الأصنام فى ألوهيتهم فقط . وإن فرضنا أنهم يعرفون الله كما كانت العرب تفعل لكنهم يشركون أصنامهم معه فى العبادة فالاستثناء متصل ؛ لأن الاعتزال وقع فى كل ما يعبد الكفار إلا فى جهة الله . وفى مصحف عبد الله بن مسعود « وما يعبدون من دون الله » . قال قتادة هذا تفسيرها .

قلت : ويدل على هذا ما ذكره أبو نُعيم الحافظ عن عطاء الخُراسانى فى قوله تعالى « وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله » قال : كان فِتية من قوم يعبدون الله ويعبدون معه آلهة فاعتزلت الفتية عبادة تلك الآلهة ولم تعتزل عبادةَ الله .

ابن عطية : فعلى ما قال قتادة تكون « إلّا » بمنزلة غير، و « ما » من قوله « وما يعبدون إلا الله » فى موضع نصب ، عطفا على الضمير فى قوله « اعتزلتموهم » . ومُضَمَّن هذه الآية أن بعضهم قال لبعض : إذا فارقْنا الكفارَ وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوًى ونتكلْ على الله ؛ فانه سيبسط لنا رحمته ، وينشرها علينا ، ويهيئ لنا من أمرنا مِرْفَقًا . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا ، وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم . وقال أبو جعفر محمد بن على ابن الحسين رضى الله عنه : كان أصحاب الكهف صياقلة، واسم الكهف حيوم . ﴿ مِرْفَقًا ﴾ قرئ بكسر الميم وفتحها، وهو ما يُرتفق به . وكذلك مِرْفَق الإنسان ومَرْفِقه ؛ ومنهم من يجعل « المَرْفق » بفتح الميم الموضع كالمسجد، وهما لغتان .

قوله تعالى : وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى ترى أيها المخاطَب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم . والمعنى : إنك لو رأيتهم لرأيتهم كذا ؛ لا أنّ المخاطَب رآهم على التحقيق . و« تزاور » تتنحّى وتميل ؛ من الازورار . والزَّوَر الميَل . والأزور فى العين المائل النظر إلى ناحية ، ويستعمل فى غير العين ؛ كما قال ٱبن أبى ربيعة :

* وجَنْبِي خِيفـةَ القوم أزْوَرُ (١) *

ومن اللفظة قول عنترة :

* فٱزْوَرّ من وَقْع القَنَا بلبَانه (٢) *

وفى حديث غَزْوة مُؤْتَة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى سرير عبد الله بن رواحة ٱزورارا عن سرير جعفر وزيد بن حارثة . وقرأ أهل الحَرَمين وأبو عمرو « تزّاور » بإدغام التاء فى الزاى، والأصل « تتزاور » . وقرأ عاصم وحمزة والكسائى « تزاور » مخففة الزاى .

(١) والبيت بتمامه كما فى ديوانه :

وخفّض عنى الصوت أقبلت مِشية الـ * ـحُباب وشخصى خشية الحى أزور

والحباب (بالضم) : الحية . وقبل هذا البيت :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت * مصابيح شبت بالعشاء وأنْؤُر

وغاب قُمَير كنت أهوى غيوبه * وروّح رعيان ونـوّم سُمّـر

(٢) وتمامه : * وشكا إلىّ بعبرة وتحمحم *

واللبان (بالفتح) : الصدر . والتحمحم : صوت مقطع ليس بالصهيل .

وقرأ ابن عامر « تَزْوَرّ » مثل تحمر . وحكى الفراء « تزوارّ » مثل تحمار ؛ كلُّها بمعنًى واحد .
﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ قرأ الجمهور بالتاء على معنى تتركهم ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : تدعهم . النحاس : وهذا معروف في اللغة ، حكى البصريون أنه يقال : قرضه يقرضه إذا تركه ؛ والمعنى : أنهم كانوا لا تصيبهم شمس ألبتة كرامةً لهم ؛ وهو قول ابن عباس . يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، أى يمين الكهف ، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال ، أى شمال الكهف ، فلا تصيبهم في ابتداء النهار ولا في آخر النهار . وكان كهفهم مستقبِل بنات نَعْش في أرض الروم ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعةً وغاربة وجارية لا تبلغهم لتؤذيهم بحرّها ، وتغيّر ألوانهم وتُبْلِى ثيابهم . وقد قيل : إنه كان لكهفهم حاجب من جهة الجنوب ، وحاجب من جهة الدَّبور وهم في زاويته . وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله ، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك . وقرأت فرقة « يقرضهم » بالياء من القرض وهو القطع ، أى يقطعهم الكهف بظلّه من ضوء الشمس . وقيل : « وإذا غربت تقرضهم » أى يصيبهم يسير منها ، مأخوذ من قُراضة الذهب والفضة ، أى تعطيهم الشمس اليسير من شعاعها . وقالوا : كان في مَسِّها لهم بالعَشِيّ إصلاح لأجسادهم . وعلى الجملة فالآية في ذلك أن الله تعالى آواهم إلى كهف هذه صفته لا إلى كهف آخر يتأذَّوْن فيه بانبساط الشمس عليهم في معظم النهار . وعلى هذا فيمكن أن يكون صرف الشمس عنهم بإظلال غمام أو سبب آخر . والمقصود بيان حفظهم عن تطرّق البلاء وتغيّر الأبدان والألوان إليهم ، والتأذّى بحر أو برد . ﴿ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى من الكهف . والفَجْوَة المتّسع ، وجمعها فَجَوات وفِجَاء ؛ مثل رَكْوة ورِكاء ورَكَوات . وقال الشاعر :

ونحن ملأنا كلّ واد وفجوة * رجالا وخيلا غيرَ ميل ولا عُزْلِ

أى كانوا بحيث يصيبهم نسيم الهواء . ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ لطف بهم ، وهذا يقوّى قول الزجاج . وقال أهل التفسير : كانت أعينهم مفتوحة وهم نائمون ؛ فكذلك كان الرائى يحسبهم أيقاظا . وقيل : تحسبهم أيقاظا لكثرة تقلّبهم كالمستيقظ في مضجعه . و﴿ أيقاظا ﴾

جمع يقظ و يقظان، وهو المنتبـه . ﴿ وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ كقولهم : وهم قوم ركوع وسجود وقعود؛ فوصف الجمع بالمصدر . ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال ابن عباس : لئلا تأكل الأرض لحومهم . قال أبو هريرة : كان لهم فى كل عام تقليبتان . وقيل : فى كل سنة مرة . وقال مجاهد : فى كل سبع سـنين مرة . وقالت فـرقة : إنمـا قُلبوا فى التسع الأواخر، وأما فى الثلثمائة فلا . وظاهر كلام المفسرين أن التقليب كان من فعل الله؛ ويجوز أن يكون من مَلَك بأمر الله، فيضاف إلى الله تعالى .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : ﴿ وَكَلْبُهُمْ ﴾ قال عمرو بن دينار : إن ممـا أخذ على العقـرب ألا تضر أحدا [ قال[1] ] فى ليله أو فى نهاره : صلى الله على نوح[2] . و إن ممـا أخذ على الكلب ألا يضر من حمل عليه [ إذا قال ] : وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد .

أكثر المفسرين على أنه كلب حقيقةً ، وكان لصيد أحدهم أو لزرعه أو غنمه، على ما قال مقاتل . واختُلف فى لونه اختلافا كثيرا، ذكره الثعلبيّ . تحصيله : أيّ لون ذكرتَ أصبت؛ حتى قيل لون الحجر وقيل لون السماء . واختلف أيضا فى اسمه؛ فعن عليّ : ريان . ابن عباس : قطمير . الأوزاعى : مشير . عبد الله بن سَلَام : بسيط . كعب : صهيا . وهب : نقيا . وقيل قطمير ؛ ذكره الثعلبى . وكان اقتناء الكلب جائزا فى وقتهم ، كما هو عندنا اليوم جائز فى شرعنا . وقال ابن عباس : هربوا ليلا ، وكانوا سـبعة فمّروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم . وقال كعب : مرّوا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مرارا، فقـام الكلب على رجليه ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعى، فنطق فقال : لا تخافوا منى ! أنا أحِبّ أحبّاء الله تعالى فناموا حتى أحرسكم .

الثانيـــة — ورد فى الصحيح عن ابن عمر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من اقتنى كلبا إلا كلبَ صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان " . وروى الصحيح أيضا عن

(١) زيادة من كتاب حياة الحيوان . (٢) فى حياة الحيوان : « سلام على نوح » .

أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من اتخذ كلبا إلا كلبَ ماشية أو صيد أو زرع انتُقِص من أجره كل يوم قيراط " . قال الزهرى : وذُكر لابن عمر قولُ أبى هريرة فقال : يرحم الله أبا هريرة ! كان صاحبَ زرع . فقد دلّت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد والزرع والماشية . وجعل النقص فى أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة ؛ إما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه ، أو لمنع دخول الملائكة البيت ، أو لنجاسته ، على مايراه الشافعى ، أو لاقتحام النهى عن اتخاذ مالا منفعة فيه ؛ والله أعلم . وقال فى إحدى الروايتين "قيراطان" وفى الأخرى "قيراط" . وذلك يحتمل أن يكون فى نوعين من الكلاب أحدهما أشدّ أذًى من الآخر، كالأسود الذى أمر عليه السلام بقتله ، ولم يُدخله فى الاستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص فى حديث جابر ؛ أخرجه الصحيح . وقال: "عليكم بالأسود البَهيم ذى النقطتين فإنه شيطان". ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع ، فيكون ممسكه بالمدينة مثلا أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص ؛ كالفرس والهِرّة . والله أعلم .

الثالثة — وكلب الماشية المباح اتخاذه عند مالك هو الذى يسرح معها ، لا الذى يحفظها فى الدار من السرّاق . وكلب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لا من السراق . وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع . وقد تقدّم فى «المائدة»[1] من أحكام الكلاب مافيه كفاية ، والحمد لله .

الرابعة — قال ابن عطية : وحدّثنى أبى رضى الله عنه قال سمعت أبا الفضل الجوهرى فى جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة : إن مَن أحبَّ أهل الخير نال من بركتهم ؛ كلبٌ أحبّ أهل فضلٍ وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٦٥

المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأُنْس للؤمنين المقصّرين عن درجات الكمال ، المحبين للنبيّ صلى الله عليه وسلم وآله خيرآل . روى الصحيح عن أنس بن مالك قال : بينا أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارجان من المسجد فلقِيَنا رجل عند سُدّة المسجد فقال : يارسول الله ، متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أعددتَ لها " قال : فكأنّ الرجل آستكان، ثم قال : يارسول الله ، ما أعددتُ لها كثيرَ صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكنى أحبّ الله ورسوله . قال : " فأنت مع من أحببت " . فى رواية قال أنس بن مالك : فما فَرِحنا بعد الإسلام فرحا أشدّ من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " فأنت مع من أحببت " . قال أنس : فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم .

قلت : وهذا الذى تمسّك به أنس يشمل من المسلمين كلّ ذى نفس ، فكذلك تعلقت أطماعنا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلبٌ أحب قوما فذكره الله معهم ! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام ، وحبّ النبيّ صلى الله عليه وسلم، « ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلَقنا تفضيلا » .

وقالت فرقة : لم يكن كلبا حقيقة، وإنما كان أحدَهم ، وكان قد قعد عند باب الغار طليعةً لهم؛ ...(١) كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا؛ لأنه منها كالكلب من الإنسان؛ ويقال له : كلب الجبّار(٢). قال ابن عطية : فسُمِّىَ باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع أمّا إنّ هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها فى العرف من صفة الكلب حقيقة؛ ومنه قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : "ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب" . وقد حكى أبو عمر المطرّز فى كتاب اليواقيت

(١) فى بعض نسخ الأصل بعد قوله «طليعة لهم» : «قال ابن عطية : فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع» . ونراها غير لازمة . والذى فى حياة الحيوان للدميرى فى اسم الكلب : « وقال فرقة : كان أحدهم وكان قد قعد عند باب الغار طليعة لهم؛ فسمى باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس كما سمى النجم التابع للجوزاء كلبا لأنه منها كالكلب من الإنسان، وهذا القول يضعفه ... » الخ . (٢) الجبار : اسم الجوزاء .

أنه قرئ « وكالبهــم باسط ذراعيه بالوصيــد » . فيحتمل أن يريد بالكالب هــذا الرجل على ما روى ؛ إذ بسط الذراعين واللصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلع هى هيئة الريبــة المستخفى بنفســه . ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب . وقــرأ جعفر بن محمــد الصادقُ « وكالبهم » يعنى صاحب الكلب .

قوله تعالى : ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضى ؛ لأنها حكاية حال ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب . والذراع من طرف المرفق إلى طرف الأصبع الوسطى . ثم قيل : بسط ذراعيه لطول المدّة . وقيل : نام الكلب، وكان ذلك من الآيات . وقيل : نام مفتوح العين . والوصيد : الفِناء؛ قاله ابن عباس ومجاهد وابن جُبَير، أى فناء الكهف، والجمع وصائد ووُصُد . وقيل الباب . وقاله ابن عباس أيضا . وأنشد :

بأرض فضاءٍ لا يُسَدّ وصِيدُها * علىّ ومعروفى بهــا غير منكر

وقد تقدّم . وقال عطاء : عتبة الباب ، والباب الموصد هو المغلق . وقــد أوصدت الباب وآصدته أى أغلقته . والوصيد : النبات المتقارب الأصول، فهو مشترك، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ قرأ الجمهور بكسر الواو . والأعمش ويحيى بن وَثّاب بضمها . ﴿ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ﴾ أى لو أشرفت عليهم لهربت منهم . ﴿ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ أى لمــا حفهم الله تعالى من الرُّعب وا كتنفهم من الهيبة . وقيل : لوحشة مكانهم ؛ وكأنهم آواهم الله إلى هذا المكان الوَحْشِ (١) فى الظاهر لينفر الناس عنهم . وقيل : كان الناس محجوبين عنهــم بالرعب، لا يَجْسُر أحد منهم على الدنو إليهــم . وقيل : الفرار منهــم لطول شعورهم وأظفارهم؛ ذكره المهدوىّ والنحاس والزجاج والقشيرى . وهذا بعيد؛ لأنهم لمــا استيقظوا قال بعضهم لبعض : لبثنا يوما أو بعض يوم . ودلّ هــذا على أن شعورهم وأظفارهم كانت بحالها؛ إلا أن يقال : إنما قالوا ذلك قبل أن ينظروا إلى أظفارهم وشعورهم . قال ابن عطية : والصحيح فى أمرهم أن الله عز وجل حفِظ لهم الحالة التى ناموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيهم

(١) مكان وحش : خالٍ .

آية ، فلم يُبْلَ لهم ثوب ولم تغيّر صفة، ولم يُنكِر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت فى نفسه حالة ينكرها لكانت عليـه أهم . وقرأ نافع وابن كثير وابن عباس وأهـل مكة والمدينة « وَلَمُلِّئْتَ منهم» بتشديد اللام على تضعيف المبالغة؛ أى ملئت ثم ملئت . وقرأ الباقون « لملئت » بالتخفيف ، والتخفيف أشهر فى اللغة . وقد جاء التثقيل فى قول المُخَبَّل السـعدىّ :

وإذ فَتَكَ النُّعمان بالناس مُحْـرِمًا * فمُلِّئ من كعب بن عوف سلاسله

وقرأ الجمهور « رُعْبًا » بإسكان العين . وقرأ بضمها أبو جعفر . قال أبو حاتم : هما لغتان . و « فرارا » نصب على الحال و « رعبا » مفعول ثان أو تمييز .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

قوله تعـالى : ﴿ وكذلك بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُـمْ ﴾ البعث : التحريك عن سـكون . والمعنى : كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلّبناهم بعثناهم أيضا؛ أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيئتهم فى ثيابهم وأحوالهم . قال الشاعر :

وفِتْيَانِ صِدْقٍ قد بَعَثْتُ بسُحْرَةٍ * فقاموا جميعا بين عاثٍ ونَشْوانِ (١)

أى أيقظت . واللام فى قوله «ليتساءلوا» لام الصيرورة وهى لام العاقبة؛ كقوله « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » فبعثُهم لم يكن لأجل تساؤلهم .

(١) البيت لامرئ القيس . والسحرة (بالضم) : السحر . وقيل أعلى السحر . وقيل : هو من ثلث الليل الآخر الى طلوع الفجر .

قوله تعـالى : ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وذلك أنهـم دخلوه غُدوةً و بعثهم الله فى آخر النهار ؛ فقال رئيسهم تمليخا أو مكسلمينا : الله أعلم بالمدّة .

قوله تعالى : ﴿ فَٱبْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قال ابن عبـاس : كانت ورقهم كأخفاف الرُّبَع(1) ؛ ذكره النحاس . وقرأ ابن كَثير ونافع وابن عامر والكسائى وحفص عن عاصم « بورِقكم » بكسر الراء . وقرأ أبو عمرو وحمـزة وأبو بكر عن عاصم « بوَرْقكم » بسكون الراء ، حذفوا الكسرة لثقلها ، وهمـا لغتان . وقرأ الزجاج « بوِرْقكم » بكسر الواو وسكون الراء . ويروى أنهم انتبهوا جياعا ، وأن المبعوث هو تمليخا ، كان أصغرهم ؛ فيما ذكر الغَزْنوى . والمدينـة : أَفْسُوس ويقال هى طَرسوس ، وكان اسمها فى الجاهلية أفسوس ؛ فلمـا جاء الاسلام سمّوها طرسوس . وقال ابن عباس : كان معهم دراهمُ عليها صورة الملك الذى كان فى زمانهم .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا ﴾ قال ابن عباس : أحلّ ذبيحةً ؛ لأن أهل بلدهم كانوا يذبحون على اسم الصنم ، وكان فيهم قوم يُخفون إيمانَهم . ابن عباس : كان عامّتهم مجوسا . وقيـل « أزكى طعاما » أى أكثر بركة . قيل : إنهم أمروه أن يشترى ما يُظن أنه طعام اثنين أو ثلاثة لئلا يُطّلع عليهم ، ثم إذا طُبخ كفى جماعة ؛ ولهـذا قيل ذلك الطعام الأرز . وقيل : كان زبيبا . وقيـل تمرا ؛ فالله أعلم . وقيـل : « أزكى » أطيب . وقيل أرخص . ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْـهُ ﴾ أى بقُوت . ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى دخول المدينة وشراء الطعام . ﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ أى لا يخبرنّ . وقيـل : إن ظُهِر عليـه فلا يوقعنّ إخوانه فيما وقع فيه . ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ قال الزجاج : معناه بالحجارة ، وهو أخبث القتل . وقيل : يرموكم بالسب والشتم ؛ والأوّل أصح ، لأنه كان عازما على قتلهم كما تقدّم فى قَصصهم . والرجم فيما سـلف هى كانت على ما ذكر قبـلَه [ عقوبة(2) ] مخالفة دين النـاس إذ هى أشفى لجملة أهل ذلك الدِّين من حيث إنهم يشتركون فيها .

(1) الربع (كصُرَد) : الفصيل ينتج فى الربيع .	(2) زيادة يقتضيها السياق .

الثالثـــة ــ فى هذه البِعْثة بالوَرِق دليل على الوَكالة وصحتها . وقد وكّل علىّ بن أبى طالب أخاه عَقيلا عند عثمان رضى الله عنه ؛ ولا خلاف فيها فى الجملة . والوَكالة معروفة فى الجاهلية والإســلام ؛ ألا ترى إلى عبــد الرحمن بن عَوف كيف وكّل أميّــة بن خلف بأهله وحاشيته بمكة ؛ أى يحفظهم ، وأمية مشرك ، والتزم عبدالرحمن لأمية من حَفِظ حاشيته بالمدينة مثـل ذلك مجازاةً لصنعه . روى البخارىّ عن عبد الرحمن بن عوف قال : كاتبت أمية بن خلف كتابا بأن يحفظنى فى صاغيَتى بمكة وأحفظه فى صاغيته بالمدينة ؛ فلما ذكرت الرحمن ؛ قال : لا أعرف الرحمن ! كاتِبْنى بآسمك الذى كان فى الجاهلية ، فكاتبته عبد عمرو ... وذكر الحديث . قال الأصمعى : صاغية الرجل الذين يميلون إليه و يأتونه ؛ وهو مأخوذ من صغا يَصْغُو و يَصْغَى إذا مال ، وكلّ مائل إلى الشيء أو معه فقد صغا إليه وأصغى ؛ من كتاب الأفعال .

الرابعـــة ــ الوكالة عقدُ نيابةٍ ، أذِن الله سبحانه فيه للحاجة إليه وقيام المصلحة فى ذلك ، إذ ليس كل أحد يقدر على تنـاول أموره إلا بمعونة من غيره أو يترفه فيستنيب من يريحه .

وقد استدل علمـاؤنا على صحتها بآيات من الكتاب ، منها هــذه الآية ، وقولُه تعالى : « والعاملين عليهـا » وقوله « آذْهَبُوا بقَمِيصِى هــذا » . وأما من الســنة فأحاديث كثيرة ؛ منها حديث عروة البارِقِىّ ، وقد تقــدّم فى آخر الأنعام[1] . روى جابر بن عبــد الله قال أردت الخروج إلى خَيْبرَ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له : إنى أردت الخروج إلى خيبر ؛ فقال : "إذا أتيتَ وكيلى فخذ منه خمسة عشر وَسْقًا فإن آبتغى منك آيةً فضع يدك على تَرْقُوته[2]" خرجه أبو داود . والأحاديث كثيرة فى هذه المعنى ، وفى إجماع الأمة على جوازها كفاية .

الخامســـة ــ الوكالة جائزة فى كل حق تجوز النيـابة فيه ، فلو وكل الغاصبُ لم يجـز ، وكان هو الوكيل ؛ لأن كل محرَّم فعله لا تجوز النيابة فيه .

السادســـة ــ فى هذه الآية نُكْتة بديعة ، وهى أن الوكالة إنما كانت مع التَّقيّة خوف أن يشعر بهم أحد لمـا كانوا عليه من الخوف على أنفسهم . وجواز توكيل ذوى العــذر متفق

(١) راجع جـ ٧ ص ١٥٦ طبعة أولى أو ثانية . (٢) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق .

عليــه ؛ فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها . وقال أبو حنيفة وسُحْنون : لا تجوز . قال ابن العربي : وكأن سُحنونَ تلقّفه من أسد بن الفُرات فحكم به أيام قضائه ، ولعله كان يفعل ذلك بأهل الظلم والجبروت ؛ إنصافا منهم و إذلالا لهم ، وهو الحق ؛ فإن الوكالة معونة ولا تكون لأهل الباطل .

قلت : هــذا حسن ؛ فأما أهــل الدين والفضــل فلهم أن يوكّلوا و إن كانوا حاضرين أصحّــاء . والدليل على صحة جواز الوكالة للشاهــد الصحيح ما خرّجه الصحيحان وغيرهما عن أبي هريرة قال : كان لرجل على النبيّ صلى الله عليه وسلم سِنّ من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : "أعطوه" فطلبوا له سِنّه فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها؛ فقال : "أعطوه" فقال : أوفَيْتَنِي أوْفَى الله لك . قال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : "إن خيركم أحسنُكم قضاء" . لفظ البخاري . فدل هذا الحديث مع صحته على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن يُعطوا عنه السنّ التي كانت عليــه ؛ وذلك توكيل منه لهم على ذلك، ولم يكن النبيّ صلى الله عليه وسلم مريضا ولا مسافرا . وهذا يرد قول أبي حنيفة وسُحنون في قولهما : انه لا يجوز توكيل الحاضر الصحيح البدن إلا برضا خصمه؛ وهذا الحديث خلاف قولهما .

السابعــــة — قال ابن خُوَيْزِ مَنْداد : تضمّنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورِق كان لجميعهم . وتضمنت جواز الوكالة لأنهـــم بَعثوا من وكّلوه بالشراء . وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معا ، و إن كان بعضهم أكثرَ أكْلًا من الآخر؛ ومثله قوله تعالى : « و إن تُخالطوهم فإخوانكُم » حسبما تقدم بيانه في «البقرة»(1) . ولهذا قال أصحابنا في المسكين يُتصدّق عليه فيخلطه بطعام لغنيّ ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد قالوا في المضارِب يَخلط طعامه بطعام غيره ثم يأكل معه : إن ذلك جائز . وقد كان رسول الله صلى الله عليــه وسلم وكّل من اشترى له أُضْحية . قال ابن العربي : ليس في الآية دليل على ذلك؛ لأنه يحتمل أن يكون كل واحد منهم قــد أعطاه منفردا فلا يكون فيــه آشتراك . ولا مُعَوَّل في هذه المسئلة

(1) راجع جـ ٣ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

إلا على حديثين : أحدهما — أن ابن عمر مَرّ بقوم يأكلون تمرا فقال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسـلم عن الاقتران إلا أن يستأذن الرجل أخاه . الثانى — حديث أبى عبيدة فى جيش الخَبَط[1] . وهـذا دون الأول فى الظهور ؛ لأنه يحتمل أن يكون أبو عبيـدة يعطيهم كفافا من ذلك القوت ولا يجمعهم عليه .

قلت : ومما يدل على خلاف هذا من الكتاب قولُه تعالى : «وإن تخالطوهم فإخوانكُم» وقوله « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أَشْتَاتًا[2] » على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١)

قوله تعـالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ أى أطلعنا عليهم وأظهرناهم . و « أَعْثَر » تعدية عثر بالهمزة ، وأصل العِثار فى القدم . ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ﴾ يعنى الأمة المسلمة الذين بُعث أهل الكهف على عهدهم . وذلك أن دقيانوس مات ومضت قرون ومَلَكَ أهل تلك الدار رجلٌ صالح ، فآختلف أهل بلده فى الحشر و بعث الأجساد من القبور ، فشك فى ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنمـا تحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض . وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعا ؛ فكبُر ذلك على الملك و بقى حيران لايدرى كيف يتبيّن أمره لهم ، حتى لبس المُسُوح وقعد على الرَّماد وتضرّع إلى الله تعـالى فى حجة و بيان ، فأعثر الله على أهل الكهف ؛ فيقال : إنهم لمـا بعثوا أحدهم بوَرِقهم إلى المدينة ليأتيهم برزق منها آسْتُنْكِر شخصه وآسْتُنْكِرت دراهمـه لبعد العهد ، فحُمل إلى الملك وكان صالحا قد آمن وآمن من معه ، فلما

---

(١) سموا جيش الخبط لانهـم خرجوا فى سرية الى أرض جهينة فأصابهم جوع فأكلوا الخبط ؛ فسموا به .

(٢) آية ٦١ سورة النور .

نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك ، فقد كنت أدعو الله أن يُرِيَنِيهم ، وسأل الفتى فأخبره؛ فسُرّ الملك بذلك وقال : لعل الله قد بعث لكم آية ، فلْنَسِرْ إلى الكهف معه ، فركب مع أهل المدينة إليهم ، فلما دنَوْا إلى الكهف قال تمليخا : أنا أدخل عليهم لئلا يُرْعَبُوا فدخل عليهم فأعلمهم الأمر وأن الأمة أمّةُ إسلام ، فرُوِى أنهم سُرّوا بذلك وخرجوا إلى الملك وعظّموه وعظّمهم ثم رجعوا إلى كهفهم . وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدّثهم تمليخا ميتة الحق، على ما يأتى . ورجع من كان شكّ فى بَعْث الأجساد إلى اليقين . فهذا معنى «أعثرنا عليهم» . « لِيعلموا أن وعد اللهِ حق » أى ليعلم الملك و رعيته أن القيامة حق والبعث حق « إذ يتنازعون بينهم أمرهم » . و إنما استدلوا بذلك الواحد على خبرهم وهابوا الدخول عليهم فقال الملك : ابنوا عليهم بنيانا ؛ فقال الذين هم على دين الفتية : اتخذوا عليهم مسجدا . وروى أن طائفة كافرة قالت : نبنى بِيعة أو مضيفا، فمانعهم المسلمون وقالوا لنتخذّن عليهم مسجدا . وروى أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيّبين . وروى عن عبد الله بن عمر[(1)] أن الله تعالى أعمى على الناس حينئذ أثرهم وحجبهم عنهم، فلذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون مَعْلَمًا لهم . وقيل : إن الملك أراد أن يدفنهم فى صندوق من ذهب فأتاه آتٍ منهم فى المنام فقال : أردتَ ان تجعلنا فى صندوق من ذهب فلا تفعل؛ فإنا من التراب خُلقنا و إليه نعود، فدَعْنا .

وتنشأ هنا مسائل ممنوعة وجائزة؛ فاتخاذ المساجد على القبور والصلاة فيها والبناء عليها، إلى غير ذلك مما تضمّنته السنة من النهى عنه ممنوع لا يجوز؛ لما روى أبو داود والترمذىّ عن ابن عباس قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج . قال الترمذىّ : وفى الباب عن أبى هريرة وعائشة حديث ابن عباس حديث حسن . وروى الصحيحان عن عائشة أن أم حبيبة وأمّ سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ أولئك إذا كان فيهم

(1) فى بعض الأصول : « عن عبيد بن عمير » .

الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور أولئك شرارُ الخلق عند الله تعـالى يوم القيامة" . لفظ مسلم . قال علماؤنا : وهـذا يحرم على المسلمين أن يتّخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد . وروى الأئمة عن أبي مَرْثَد الغَنَوِيّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها" لفظ مسلم . أي لا تتخذوها قبلة فتصلّوا عليهـا أو إليها كما فعل اليهود والنصارى ، فيؤدى إلى عبادة من فيهـا كما كان السبب في عبادة الأصـنام . فحذّر النبيّ صلى الله عليه وسلم عن مثل ذلك ، وسَدَّ الذرائعَ المؤدّية إلى ذلك فقال : "اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد" . وروى الصحيحان عن عائشة وعبد الله بن عباس قالا : لمـا نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه فإذا اغتمّ[1] بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك[2] : "لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد" يحذّر[3] ما صنعوا . وروى مسلم عن جابر قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُجَصَّص القبر وأن يُقعد عليه وأن يُبنى عليه . وخرّجه أبو داود والترمذي أيضا عن جابر قال : نهى رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أن تُجَصَّص القبور وأن يكتب عليها وأن يُبْنَى عليها وأن توطأ . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى الصحيح عن أبي الهَيّاج الأسـدي قال قال لي عليّ بن أبي طالب : ألا[4] أبعثُـك على ما بعثني عليه رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : ألّا تَدَعَ تمثـالا إلا طَمَسته ولا قبرا مُشْرِفا إلا سـوّيته — في رواية — ولا صـورة إلا طمستها . وأخرجه أبو داود والترمذيّ . قال علماؤنا : ظاهره منع تسنيم القبور ورفعها وأن تكون لاطئة . وقد قال به بعض أهل العلم . وذهب الجمهـور إلى أن هـذا الارتفاع المأمور بإزالتـه هو ما زاد على التسنيم ، ويبقى للقـبر ما يعرف به ويحترم ، وذلك صفة قبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقبرِ صاحبيه رضي الله عنهما — على ما ذكر مالك في الموطأ — وقبر أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ؛ على ما رواه الدارقطنيّ

(١) قوله «إذا اغتم» أي تسخن بالخميصة وأخذ بنفسه من شدة الحر. (٢) أي في حالة الطرح والكشف.
(٣) أي يحذر أمته أن يصنعوا بقبره مثل صنيع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهـم . (٤) قوله « الا » بتشديد اللام للتحضيض . وقيل بفتحها للتنبيه .

من حديث ابن عباس . وأما تعلية البناء الكثير على نحو ما كانت الجاهلية تفعله تفخيما وتعظيما فذلك يهدم ويزال؛ فإن فيه استعمال زينة الدنيا فى أوّل منازل الآخرة، وتشبّهاً بمن كان يعظّم القبور ويعبدها . وباعتبار هــذه المعانى وظاهر النهى ينبغى أن يقال : هو حرام . والتسنيم فى القبر : ارتفاعه قدر شبر؛ مأخوذ من سَــنام البعير . ويُرَشّ عليه بالمــاء لئلا ينتثر بالريح . وقال الشافعىّ لا بأس أن يطيّن القبر . وقال أبو حنيفة : لا يجصص القبر ولا يطين ولا يرفع عليه بنــاء فيسقط . ولا بأس بوضع الأحجار لتكون علامة ؛ لمــا رواه أبو بكر الأثرم قال : حدّثنا مُسدّد حدّثنا نوح بن دُرّاج عن أبان بن تغْلِب عن جعفر بن محمد قال : كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تزور قبر حمزة بن عبد المطلب كل جمعة وعلّمته بصخرة؛ ذكره أبو عمر .

وأما الجائزة — فالدفن فى التــابوت؛ وهو جائز لا سيما فى الأرض الرّخْوة . وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان فى تابوت من حجر، وأن يوسف عليه السلام أوصى بأن يتخذ له تابوت من زجاج ويلقى فى رَكِيّة [1] مخافة أن يُعبد، وبقى كذلك إلى زمان موسى صلوات الله عليهم اجمعين؛ فدلّته عليه عجوز فرفعه ووضعه فى حظيرة إسحاق عليه السلام . وفى الصحيح عن سعد ابن أبى وَقّاص أنه قال فى مرضه الذى هلك فيه : اتخذوا لى لَحْدًا وآنصبوا علىّ اللّبِن نَصْبًا؛ كما صنع برسول الله صلى الله عليه وســلم . اللحد : هو أن يشــقّ فى الأرض ثم يُحفر قبر آخر فى جانب الشق من جانب القبلة إن كانت الأرض صُلْبة يُدخَل فيه الميت ويُسَدّ عليه باللّبِن . وهو أفضل عندنا من الشق ؛ لأنه الذى اختاره الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم . وبه قال أبو حنيفة قال : السنة اللحد . وقال الشافعى : الشق . ويكره الآجُرّ فى اللحد . وقال الشافعى : لا بأس به لأنه نوع من الحجر . وكرهه أبو حنيفة وأصحابه ؛ لأن الآجر لإحكام البناء ، والقبر وما فيه للبِلَى، فلا يليق به الإحكام . وعلى هــذا يسوّى بين الحجر والآجر . وقيل : إن الآجر أثر النار فيكره تفاؤلا ؛ فعلى هــذا يفرق بين الحجر والآجر . قالوا : ويستحب اللّبِن والقَصَب لمــا روى أنه وضع على قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم حُزْمة من قصب . وحكى عن الشيخ الإمام

---
(١) الركية : البئر .

أبى بكر محمد بن الفضل الحنفىّ رحمه الله أنه جوّز اتخاذ التابوت فى بلادهم لرخاوة الأرض .
وقال : لو اتُّخذ تابوت من حديد فلا بأس به ؛ لكن ينبغى أن يفرش فيه التراب وتطيّن
الطبقة العليا مما يلى الميت ، ويُجعل اللّبِن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

قلت : ومن هذا المعنى جَعْل القطيفة فى قبر النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإن المدينة سَبِخة[1] ،
قال شُقْران : أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القبر . قال
أبو عيسى الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب .

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٢٢)

قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ الضمير فى « سيقولون » يراد به أهل
التوراة ومعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك أنهم اختلفوا فى عدد أهل الكهف هذا
الاختلاف المنصوص . وقيل : المراد به النصارى ؛ فإن قوما منهم حضروا النبىّ صلى الله
عليه وسلم من نَجْران فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليَعْقُوبِيّة : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم .
وقالت النَّسْطورية : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة ثامنهم كلبهم .
وقيل : هو إخبار عن اليهود الذين أمروا المشركين بمسألة النبىّ صلى الله عليه وسلم عن أصحاب
الكهف . والواو فى قوله « وثامنهم كلبهم » طريق النحويين أنها واو عطف دخلت فى آخر
إخبارٍ عن عددهم ؛ لتفصّل أمرهم ، وتدلّ على أن هذا غاية ماقيل ، ولو سقطت لصح الكلام .
وقالت فرقة منها ابن خَالَوْيه : هى واو الثمانية . وحكى الثعلبىّ عن أبى بكر بن عيّاش أن قريشا
كانت تقول فى عددها ستة سبعة وثمانية ؛ فتُدخل الواو فى الثمانية . وحكى نحوه القفّال ، فقال :

---

(١) أرض سبخة : ذات ملح ونَزّ .

إن قوما قالوا العدد ينتهى عند العرب إلى سبعة ، فإذا احتيج إلى الزيادة عليها استؤنف خبر آخر بإدخال الواو ، كقوله « التّائبون العابدون — ثم قال — والناهون عن المنكر والحافظون » . يدلّ عليه أنه لما ذكر أبواب جهنم « حتّى إذا جاءوها فُتِحت أبوابُها » بلا واو ، ولما ذكر الجنة قال : « وفُتِحت أبوابها » بالواو . وقال « خيرا منكنّ مسلماتٍ » ثم قال « وأبكارا » فالسبعة نهاية العدد عندهم كالعشرة الآن عندنا . قال القُشيرى أبو نصر : ومثل هذا الكلام تحكُّم ، ومن أين السبعة نهاية عندهم ! ثم هو منقوض بقوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر » ولم يذكر الاسم الثامن بالواو . وقال قوم ممن صار إلى أن عددهم سبعة : إنما ذكر الواو فى قوله « سبعة وثامنهم » لينبّه على أن هذا العدد هو الحق ، وأنه مباين للأعداد الأُخَر التى قال فيها أهل الكتاب ؛ ولهذا قال تعالى فى الجملتين المتقدّمتين « رَجْمًا بالغيب » ولم يذكره فى الجملة الثالثة ولم يقدح فيها بشىء ؛ فكأنه قال لنبيّه هم سبعة وثامنهم كلبهم . والرجم : القول بالظن ؛ يقال لكل ما يُخرص : رَجَم فيه ومرجوم ومُرْجَم ؛ كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتُمُ　＊　وما هو عنها بالحديث المُرَجَّمِ(1)

قلت : قد ذكر الماوردى والغَزْنَوِىّ : وقال ابن جريج ومحمد بن إسحاق كانوا ثمانية ، وجعلا قوله تعالى « وثامنهم كلبهم » أى صاحب كلبهم . وهذا مما يقوّى طريق النحويين فى الواو ، وأنها كما قالوا . وقال القُشيرىّ : لم يذكر الواو فى قوله : رابعهم سادسهم ، ولو كان بالعكس لكان جائزا ، فطلبُ الحكمة والعلة فى مثل هذه الواو تكلّفٌ بعيد ، وهو كقوله فى موضع آخر « وما أهلكنا مِن قَرْيةٍ إلّا ولها كِتابٌ معلوم »(2) . وفى موضع آخر : « إلّا لَهَا مُنْذِرون . ذِكْرَى »(3) .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ﴾ أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام فى هذه الآية أن يردّ علم عدّتهم إليه عز وجل . ثم أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل . والمراد به قوم من

(1) البيت من معلقة زهير .　(2) آية ٤ سورة الحجر .　(3) آية ٢٠٨ سورة الشعراء .

أهـل الكتاب ؛ في قول عطاء . وكان ابن عباس يقول : أنا من ذلك القليل، كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، ثم ذكر السبعة بأسمائهم ، والكلب اسمه قطمير كلب أنمر ، فوق القلطي[1] ودون الكردي . وقال محمد بن سعيد بن المسيب : هو كلب صيني . والصحيح أنه زبيري . وقال : ما بقي بنيسابور محدث إلا كتب عني هذا الحديث إلا من لم يقدر له . قال : وكتبه أبو عمرو الحيري عني .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أي لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحيناه إليك ؛ وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى . وقيل : معنى المراء الظاهر أن تقول : ليس كما تقولون ، ونحو هذا ، ولا تحتج على أمر مقدر في ذلك . وفي هذا دليل على أن الله تعالى لم يبين لأحد عددهم فلهذا قال « إلا مراء ظاهرا » أي ذاهبا ؛ كما قال :

* وتلك شكاة ظاهر عنك عارها[2] *

ولم يبح له في هذه الآية أن يماري ؛ ولكن قوله « إلا مراء » استعارة من حيث يماريه أهل الكتاب . سميت مراجعته لهم مراء ثم قيد بأنه ظاهر ؛ ففارق المراء الحقيقي المذموم . والضمير في قوله « فيهم » عائد على أهل الكهف . وفي قوله « منهم » عائد على أهل الكتاب المعارضين . وقوله : «فلا تمار فيهم» يعني في عدتهم ؛ وحذفت العدة لدلالة ظاهر القول عليها .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهي عن السؤال . وفي هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب في شيء من العلم .

قوله تعالى : وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤)

(١) القلطي ( كعربي ) : القصير من الناس والسنانير والكلاب . قال الدميري : « والقلطي : كلب صيني » .

(٢) هذا عجز بيت لأبي ذؤيب ، وصدره :

* وعيرها الواشون أني أحبها *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى — قال العلماء : عاتب الله تعالى نبيّه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذى القرنين : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ؛ ولم يستثن فى ذلك . فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوما حتى شقّ ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرّجة . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غدا كذا وكذا ، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل حتى لا يكون محقّقا لحكم الخبر ؛ فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذبا ، و إذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محقّقا للخبر عنه . واللام فى قوله « لشيء » بمنزلة فى ، أو كأنه قال لأجل شيء .

الثانيـــة — قال ابن عطية : وتكلّم الناس فى هذه الآية فى الاستثناء فى اليمين ، والآية ليست فى الأيمان و إنما هى فى سُنّة الاستثناء فى غير اليمين . وقوله « إلا أن يشاء الله » فى الكلام حذف يقتضيه الظاهر ويحسّنه الإيجاز ؛ تقديره : إلا أن تقول إلا أن يشاء الله ؛ أو إلا أن تقول إن شاء الله . فالمعنى : إلا أن تذكر مشيئة الله ؛ فليس « إلا أن يشاء الله » من القول الذى نُهِى عنه .

قلت : ما اختاره ابن عطية وارتضاه هو قول الكسائى والفرّاء والأخفش . وقال البصريون : المعنى إلا بمشيئة الله . فإذا قال الإنسان أنا أفعل هذا إن شاء الله فمعناه بمشيئة الله . قال ابن عطية : وقالت فرقة « إلا أن يشاء الله » استثناء من قوله « ولا تقولنّ » . قال : وهذا قول حكاه الطبرى وردّ عليه ، وهو من الفساد بحيث كان الواجب ألا يُحكَى . وقد تقدّم القول فى الاستثناء فى اليمين وحكمه فى « المائدة »[1] .

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ فيه مسألة واحدة ، وهو الأمر بالذكر بعد النسيان — واختلف فى الذكر المأمور به ؛ فقيل : هو قوله « وقل عسى أن يهدينِ ربى لأقربَ من هذا رَشَدًا » . قال محمد الكوفى المفسر : إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٦٤ طبعة أولى أو ثانية .

من لم يَستثن ، و إنها كفارة لنسيان الأستثناء . وقال الجمهور : هو دعاء مأمور به دون هـذا التخصيص . وقيل : هو قوله «إن شاء الله» الذى كان نَسِيَه عند يمينه . حُكى عن ابن عباس أنه إن نسى الاستثناء ثم ذَكَر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفا . وهو قول مجاهد . وحكى إسماعيـل بن إسحاق ذلك عن أبى العاليـة فى قوله تعالى « وآذكر ربك إذا نسيت » قال : يستثنى إذا ذكره . الحسن : ما دام فى مجلس الذكر . ابن عباس : سنتين؛ ذكره الغزنوىّ قال : فيحمل على تدارك التبرك بالأستثناء للتخلّص عن الإثم . فأما الأستثناء المفيـد حكما فلا يصح إلا متصلا . السُّدِّى : أى كل صلاة نسيها إذا ذكرها . وقيل : استثن باسمه لئلا تنسى . وقيل : آذكره متى ما نسيته . وقيل : إذا نسيت شيئا فآذكره يُذَكِّرْكَه . وقيل : آذكره إذا نسيت غيره أو نسيت نفسك؛ فذلك حقيقـة الذكر . وهـذه الآية مخاطبة للنبىّ صلى الله عليه وسـلم، وهى استفتاح كلام على الأصح، وليست من الأستثناء فى اليمين بشىء، وهى بعدُ تعمّ جميع أمته؛ لأنه حكم يتردّد فى الناس لكثرة وقوعه . والله الموفق .

قوله تعـالى : وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾

هذا خبر من الله تعـالى عن مدّة لَبْثهم . وفى قراءة ابن مسعود « وقالوا لبثوا » . قال الطبرى : إن بنى إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدّة بعد الإعثار عليهم إلى مدّة النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : إنهم لبثوا ثلثمائة سنة وتسع سنين، فأخبر الله تعالى نبيَّه أن هـذه المدّة فى كونهم نياما، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر . فأمر الله تعالى أن يردّ علم ذلك إليه . قال ابن عطية : فقوله على هذا « لبثوا » الأوّل يريد فى نوم الكهف ، و « لبثوا » الثانى يريد بعـد الإعثار إلى مدة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو إلى وقت عدمهم بالبِلَاء . مجاهد : إلى وقت نزول القرآن . الضحاك : إلى أن ماتوا . وقال بعضهم : إنه لمـا قال « وازدادوا تسعا » لم يدر الناس أهى ساعات أم أيام أم جمع أم شهور أم أعوام . واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمر الله تعالى برد العلم إليه فى التسع ، فهى على هـذا مبهمة . وظاهر كلام العرب المفهوم منه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعـد عيسى

بيسير وقد بقيت من الحواريين بقية . وقيل غير هذا على ما يأتى . قال القشيرى : لا يفهم من التسع تسع ليال وتسع ساعات لسبق ذكر السنين؛ كما تقول : عندى مائة درهم وخمسة؛ والمفهوم منه خمسة دراهم . وقال أبو على « وازدادوا تسعا » أى ازدادوا لبث تسع؛ فحذف . وقال الضحاك : لما نزلت « ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة » قالوا سنين أم شهور أم جمع أم أيام؛ فأنزل الله عز وجل « سنين » . وحكى النقاش ما معناه أنهم لبثوا ثلثمائة سنة شمسية بحساب الأيام؛ فلما كان الإخبار هنا للنبيّ العربى ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية ، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين . ونحوه ذكر الغزنوى . أى باختلاف سنى الشمس والقمر؛ لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة سنة فيكون فى ثلثمائة تسع سنين . وقرأ الجمهور « ثلثمائةٍ سنينَ » بتنوين مائة ونصب سنين ، على التقديم والتأخير؛ أى سنين ثلثمائة فقدم الصفة على الموصوف، فتكون « سنين » على هذا بدلا أو عطف بيان . وقيل: على التفسير والتمييز . و « سنين » فى موضع سنة . وقرأ حمزة والكسائى بإضافة مائة إلى سنين ، وترك التنوين؛ كأنهم جعلوا سنين بمنزلة سنة إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علىّ: هذه الأعداد التى تضاف فى المشهور إلى الآحاد نحو ثلثمائة رجل وثوب قد تضاف إلى الجموع . وفى مصحف عبد الله « ثلثمائة سنة » . وقرأ الضحاك « ثلثمائة سنون » بالواو . وقرأ أبو عمرو بخلاف « تَسْعًا » بفتح التاء . وقرأ الجمهور بكسرها . وقال الفراء والكسائى وأبو عبيدة : التقدير ولبثوا فى كهفهم سنين ثلثمائة .

قوله تعالى : قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ﴾ قيل بعد موتهم إلى نزول القرآن فيهم، على قول مجاهد . أو إلى أن ماتوا؛ على قول الضحاك . أو إلى وقت تغيّرهم بالبِلَى؛ على ما تقدم . وقيل : بما لبثوا فى الكهف ، وهى المدة التى ذكرها الله تعالى عن اليهود وإن ذكروا زيادة ونقصانا . أى لا يعلم علم ذلك إلا الله أو من علّمه ذلك «له غَيْبُ السموات والأرض» .

قوله تعالى : ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ أى ما أبصره وأسمعه . قال قتادة : لا أحد أبصر من الله ولا أسمع . وهذه عبارات عن الإدراك . ويحتمل أن يكون المعنى « أبصر به » أى بوحيه وإرشاده هداك وحججك والحقّ من الأمور ، وأسمع به العالم ؛ فيكونان أمرين لا على وجه التعجب . وقيل : المعنى أبصرهم وأسمعهم ما قال الله فيهم . ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أى لم يكن لأصحاب الكهف وليّ يتولّى حفظهم دون الله . ويحتمل أن يعود الضمير فى « لهم » على معاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من الكفار . والمعنى : ما لهؤلاء المختلفين فى مدة لُبثهم وليّ دون الله يتولى تدبير أمرهم ؛ فكيف يكونون أعلمَ منه ، أو كيف يتعلمون من غير إعلامه إيّاهم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ قرئ بالياء ورفع الكاف ، على معنى الخبر عن الله تعالى . وقرأ ابن عامر والحسن وأبو رَجاء وقتادة والجَحْدَرِىّ « ولا تُشْرِكْ » بالتاء من فوق وإسكان الكاف على جهة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون قوله « ولا تشرك » عطفا على قوله « أبصر به وأسمع » . وقرأ مجاهد « يُشْرِكْ » بالياء من تحت والجزم . قال يعقوب : لا أعرف وجهه .

مسـألة — اختلف فى أصحاب الكهف هل ماتوا وفَنُوا ، أو هم نيام وأجسادهم محفوظة ؛ فروى عن ابن عباس أنه مرّ بالشأم فى بعض غزواته مع ناس على موضع الكهف وجبله ، فمشى الناس معه إليه فوجدوا عظاما فقالوا : هذه عظام أهل الكهف . فقال لهم ابن عباس : أولئك قوم فَنُوا وعُدِموا منذ مدّة طويلة ؛ فسمعه راهب فقال : ما كنت أحسب أن أحدا من العرب يعرف هذا ؛ فقيل له : هذا ٱبن عم نبيّنا صلى الله عليه وسلم . وروت فرقة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ليحجّنّ عيسى بن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجّوا بعدُ " . ذكره ابن عطية .

قلت : ومكتوب فى التوراة والإنجيل أن عيسى بن مريم عبدُ الله ورسولُه ، وأنه يمر بالرَّوْحاء حاجًّا أو معتمرا أو يجمع الله له ذلك فيجعل الله حوارِيّه أصحاب الكهف والرقيم ، فيمرّون حجاجا فإنهم لم يحجوا ولم يموتوا . وقد ذكرنا هذا الخبر بكماله فى كتاب « التذكرة » . فعلى هذا هم نيام ولم يموتوا إلى يوم القيامة ، بل يموتون قبيل الساعة .

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ قيل : هو من تمام قصة أصحاب الكهف ؛ أى اتبع القرآن فلا مبدّل لكلمات الله ولا خُلف فيما أخبر به من قصة أصحاب الكهف . وقال الطبري : لا مغيّر لما أوعد بكلماته أهلَ معاصيه والمخالفين لكتابه . ﴿ وَلَنْ تَجِدَ ﴾ أنت ﴿ مِنْ دُونِهِ ﴾ إن لم تتبع القرآن وخالفته . ﴿ مُلْتَحَدًا ﴾ أى ملجأ . وقيل موئلا . وأصله الميل ؛ ومَن لجأت إليه فقد مِلْت إليه . قال القُشَيْرِيّ أبو نصر عبد الرحيم : وهذا آخر قصة أصحاب الكهف . ولما غزا معاوية غزوة المضيق نحو الروم وكان معه ابن عباس فانتهى إلى الكهف الذى فيه أصحاب الكهف ؛ فقال معاوية : لو كُشف لنا عن هؤلاء فننظر إليهم ؛ فقال ابن عباس : قد منع الله من هو خير منك عن ذلك ، فقال : « لو ٱطلعتَ عليهم لولّيْتَ منهم فرارا » فقال : لا أنتهى حتى أعلم علمهم ، وبعث قوما لذلك ؛ فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحا فأخرجتهم ؛ ذكره الثعلبي أيضا . وذكر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سأل الله أن يريَه إياهم ، فقال إنك لن تراهم فى دار الدنيا ولكن ٱبعث إليهم أربعة من خيار أصحابك ليبلغوهم رسالتك ويدعوهم إلى الإيمان ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام : كيف أبعثهم ؟ فقال : ابسط كساءك وأجلس على طرف من أطرافه أبا بكر وعلى الطرف الآخر عمر وعلى الثالث عثمان وعلى الرابع عليّ ابن أبى طالب ، ثم ٱدع الريح الرُّخاء المسخرة لسليمان فإن الله تعالى يأمرها أن تطيعك ؛ ففعل فحملتهم الريح إلى باب الكهف ، فقلعوا منه حجرا ، فحمل الكلبُ عليهم فلما رآهم حرك رأسه وبصبص بذَنَبه وأومأ إليهم برأسه أن ٱدخلوا فدخلوا الكهف فقالوا : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ؛ فردّ الله على الفتية أرواحهم فقاموا بأجمعهم وقالوا : عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ؛ فقالوا لهم : معشرَ الفِتْية ، إن النبيّ محمد بن عَبد الله صلى الله عليه وسلم يقرأ عليكم السلام ؛ فقالوا : وعلى محمد رسول الله السلام ما دامت السموات والأرض ، وعليكم بما أبلغتم ، وقَبِلوا

دينــه وأسلموا، ثم قالوا : أقرئوا محمدا رسول الله منّا السلام ، وأخذوا مضاجعهم وصاروا إلى رقدتهم إلى آخر الزمان عند خروج المهدى . فيقال : إن المهدى يسلم عليهم فيُحييهم الله ثم يرجعــون إلى رقدتهم فلا يقومون حتى تقوم الساعة ، فأخبر جبريل رســولَ الله صلى الله عليه وسلم بمــا كان منهم، ثم ردّتهم الريح فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كيف وجدتموهم"؟ فأخبروه الخبر، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهُمّ لا تفرق بيني و بين أصحابي وأصهارى وآغفر لمن أحبّني وأحبّ أهــل بيتى وخاصّتى وأصحابى" . وقيــل : إن أصحاب الكهف دخلوا الكهف قبــل المسيح ، فأخبر الله تعــالى المسيح بخــبرهم ثم بُعثوا فى الفَتْرة بين عيسى ومحمد صــلى الله عليه وســلم . وقيل : كانوا قبــل موسى عليه الســلام وأن موسى ذكرهم فى التوراة ؛ ولهذا سألت اليهود رسولَ الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : دخلوا الكهف بعد المسيح ؛ فالله أعلم أىّ ذلك كان .

قوله تعــالى : وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ هذا مثلُ قوله : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » فى سورة « الأنعــام »[1] وقد مضى الكلام فيه . وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : جاءت المؤلّفة قلوبهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عُيينة بن حِصْن والأقْرع بن حابس فقالوا : يا رسول الله ، إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحّيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم — يعنون سلمان وأباذرّ وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك ، فأنزل الله تعالى « وآتلُ ما أُوحِىَ إليك من كتاب ربّك لا مبدّلَ لكلماته ولن تجِــدَ من دونه مُلْتَحَدًا . وآصْبر

(١) راجع جـ ٦ ص ٤٣٢ طبعة أولى أو ثانية .

نفسَك مع الذين يَدْعُون ربَّهم بالغَداة والعَشِيّ يريدون وجهه – حتى بلغ – إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادِقها » . يتهدّدهم بالنار . فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم يلتمسهم حتى إذا أصابهم فى مؤخر المسجد يذكرون الله قال : "الحمد لله الذى لم يُمِتْنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى، معكم المَحْيَا ومعكم المَمات" . ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى طاعته . وقرأ نصر بن عاصم ومالك بن دينار وأبو عبد الرحمن « ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغُدْوة والعَشِيّ » وحجتهم أنها فى السواد بالواو . وقال أبو جعفر النحاس : وهذا لا يلزم لكتبهم الحياة والصلاة بالواو، ولا تكاد العرب تقول الغدوة لأنها معروفة . وروى عن الحسن « ولا تُعَدّ[1] عينيك عنهم » أى لا تُتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلبا لزينتها؛ حكاه اليزيدى . وقيل : لا تحتقرهم عيناك؛ كما يقال فلان تَنْبُو عنه العين؛ أى مستحقرا .

﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى تتزين بمجالسة هؤلاء الرؤساء الذين اقترحوا إبعاد الفقراء من مجلسك؛ ولم يُرِد النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يفعل ذلك، ولكنّ الله نهاه عن أن يفعله، وليس هذا بأكثر من قوله « لئن أشركتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُك »[2] . وإن كان الله أعاذه من الشرك . و« تريد » فعل مضارع فى موضع الحال؛ أى لا تعد عيناك مريدا؛ كقول آمرئ القيس :

فقلتُ له لا تبْكِ عَيْنُك إنما * نحاول مُلْكا أو نموتَ فنُعْذَرَا

وزعم بعضهم أن حق الكلام : لا تعد عينيك عنهم ؛ لأن « تَعْدُ » متعدٍّ بنفسه . قيل له : والذى وردت به التلاوة من رفع العينين يئول إلى معنى النصب فيهما، إذ كان لا تعد عيناك عنهم بمنزلة لا تنصرف عيناك عنهم، ومعنى لا تنصرف عيناك عنهم لا تصرف عينيك عنهم؛ فالفعل مسند إلى العينين وهو فى الحقيقة موجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ كما قال تعالى :

---

(١) فى كتاب روح المعانى : « وقرأ الحسن (ولا تعد عينيك) بضم التاء، وسكون العين وكسر الدال المخففة، من أعداه، ونصب العينين . وعنه وعن عيسى والأعمش أنهم قرءوا (ولا تعد عينيك) بضم التاء وفتح العين وتشديد الدال المكسورة، من عداه يعديه، ونصب العينين أيضا .

(٢) آية ٦٥ سورة الزمر .

« فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم »[1] فأسند الإعجاب إلى الأموال ، والمعنى : لا تعجبك يا محمد أموالهم .
ويزيدك وضوحا قول الزجاج : إن المعنى لا تصرف بصرك عنهم إلى غيرهم من ذوى الهيئات والزينة .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ روى جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى « ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبَه عن ذكرنا » قال : نزلت فى أميّـة بن خلف الجُمَحِىّ ، وذلك أنه دعا النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى أمر كرهه من تجرّد الفقراء عنه وتقريب صناديد أهل مكة ؛ فأنزل الله تعالى : « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا » يعنى من ختمنا على قلبـه عن التوحيد . ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ يعنى الشرك . ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ قيل هـو من التفريط الذى هـو التقصير وتقـديم العجز بترك الإيمـان . وقيل : من الإفراط ومجاوزة الحدّ ، وكان القوم قالوا : نحن أشراف مُضَرَ إن أسـلمنا أسلم الناس ؛ وكان هـذا من التكبر والإفراط فى القول . وقيل : « فُرُطًا » أى قدما فى الشر ؛ من قولهم : فَرَط منه أمر أى سبق . وقيل : معنى « أغفلنا قلبـه » وجدناه غافلا ؛ كما تقول : لقيت فلانا فأحمدته ؛ أى وجدته محمودا . وقال عمرو بن معديكَرِب لبنى الحارث بن كعب : والله لقد سألناكم فما أبخلناكم ، وقاتلناكم فما أجبناكم ، وهاجيناكم فما أفحمناكم ؛ أى ما وجدناكم بخلاء ولا جبناء ولا مُفْحَمين . وقيــل : نزلت « ولا تطع من أغفلنا قلبـه عن ذكرنا » فى عُيينة بن حِصن الفزارى ؛ ذكره عبد الرزاق ، وحكاه النحاس عن سفيان الثورى . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ « الحقُّ » رفع على خبر الابتداء المضمر ؛ أى قل هو الحق . وقيل : هو رفع على الابتداء ، وخبره فى قوله

(١) آية ٥٥ سورة التوبة .

«مِن رَبِكم» . ومعنى الآية : قل يا محمد لهؤلاء الذين أغفلنا قلوبهم عن ذكرنا : أيها الناس ! من ربكم الحق فإليه التوفيق والخذلان، وبيده الهُدَى والضلال ، يهدى من يشاء فيؤمن ، ويضل من يشاء فيكفر؛ ليس إلىّ من ذلك شيء ، فالله يؤتى الحق من يشاء وإن كان ضعيفا ، ويحرمه من يشاء وإن كان قويًا غنيًا ، ولست بطارد المؤمنين لهواكم ؛ فإن شئتم فآمنوا، وإن شئتم فاكفروا . وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنما هو وعيد وتهديد . أى إن كفرتم فقد أعدّ لكم النار، وإن آمنتم فلكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا ﴾ أى أعددنا . ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى للكافرين الجاحدين . ﴿ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ قال الجوهرى : السُّرادِق واحد السُّرادِقات التى تُمَدّ فوق صحن الدار . وكل بيت من كُرْسُف[1] فهو سرادق . قال رؤبة[2] :

يا حَكَمُ بنَ المنذر بن الجارُودْ * سُرادِقُ المجد عليك مَمْدُودْ

يقال : بيت مُسَرْدَق . وقال سلامة بن جندل يذكر أبرويز[3] وقتله النعمانَ بن المنذر تحت أرجل الفِيَلة :

هو المُدْخِل النعمانَ بيتًا سماؤه * صُدورُ الفُيولِ بعد بَيتٍ مُسَرْدَقِ

وقال ابن الأعرابى : « سرادقها » سورها . وعن ابن عباس : حائط من نار . الكلبى : عنق تخرج من النار فتحيط بالكفار كالحظيرة . القُتَبِىّ : السرادق الحُجْرة التى تكون حول الفسطاط . وقاله ابن عَزِيز . وقيل : هو دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى ذكره الله تعالى فى سورة «والمرسلات» حيث يقول : « انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ»[4] وقوله : «وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ»[5] قاله قتادة . وقيل : إنه البحر المحيط بالدنيا . وروى يَعْلَى بن أمية قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "البحر هو جهنم — ثم تلا — نارًا أحاط بهم سُرادقها —

---

(١) الكرسف : القطن . (٢) كذا فى الأصل واللسان، واستدرك عليه صاحب اللسان بأنه للكذاب الحِرْمازى، وتابعه على هذا سيبويه والأعلم الشنتمرى . مدح الراجز أحد بنى المنذر بن الجارود العبدى، وحَكَمٌ هذا أحد ولاة البصرة لهشام بن عبد الملك . وسمى جده الجارود لأنه أغار على قوم فاكتسح أموالهم؛ فشبه بالسيل الذى يجرد ما مر به .

(٣) بفتح الواو وكسرها، ملك من ملوك الفرس . (٤) آية ٣٠ (٥) آية ٤٣ سورة الواقعة .

ثم قال — والله لا أدخلها أبدا مادمت حيًّا ولا يصيبنى منها قطرة" ذكره المـاوردى . وخرج ابن المبارك من حديث أبى سعيد الخُدْرى عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : " لسرادق النـار أربع جُدُر كُثُف[1] كل جدار مسيرة أربعين سـنة" . وخرجه أبو عيسى الترمذى، وقال فيه : حديث حسن صحيح غريب .

قلت : وهذا يدل على أن السرادق ما يملو الكفار من دخان أو نار، وجُدُره ما وُصف .

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَـاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ ﴾ قال ابن عباس : المُهْل ماء غليظ مثل دُرْدِىّ[2] الزيت . مجاهـد : القَيْح والدّم . الضحاك : ماء أسود، وإن جهنم لسوداء، وماؤها أسود وشجرها أسود وأهلها سُود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورَصاص ونُحاس وقَزْدير ، فتموج بالغليان، فذلك المهل . ونحوه عن ابن مسعود . قال سعيد بن جُبير : هو الذى قد انتهى حَرّه . وقال : المهل ضرب من القَطِران ؛ يقال : مَهلت البعير فهو ممهول . وقيل : هو السم . والمعنى فى هذه الأقوال متقارب . وفى الترمذى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله « كالمهل » قال : " كعَكَر الزيت فإذا قرّبه إلى وجهه سقطت فَروة وجهه" قال أبو عيسى : هذا حديث إنما نعرفه من حديث رِشْـدِين بن سعد ورِشْدِين قد تُكُلِّم فيه من قبـل حفظه . وخرج عن أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : "وَيُسْقَى مِن ماءٍ صَدِيدٍ يتجرعه" قال : "يقرّب إلى فيه فيكرهه فإذا أُدْنِىَ منه شوَى وجهه ووقعت فَروة رأسه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره . يقول الله تعالى « وسُقُوا ماءً حَمِيًا فقطّع أمعاءهم »[3] يقول « وإن يستغيثوا يُغاثوا بمـاء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشرابُ وساءت مُرْتَفَقًا » " قال : حديث غريب .

قلت : وهذا يدل على صحة تلك الأقوال، وأنها مرادة، والله أعلم . وكذلك نص عليها أهل اللغة . فى الصحاح « المهـل » النحاس المُذاب . ابن الأعرابى : المهل المذاب من

---

(١) الكُثف : جمع كثيف، وهو الثخين الغليظ . (٢) الدّردى (بالضم) : ما يبقى فى الأسفل .

(٣) آية ١٥ سورة محمد .

الرصاص . وقال أبو عمرو . المهل دردىّ الزيت . والمهل أيضا القيح والصديد . وفى حديث أبى بكر : ٱدفنونى فى ثَوْبَىّ هـذين فإنهما للمهل والتراب . و ﴿ مُرْتَفَقًا ﴾ قال مجاهد : معناه مجتمعا؛ كأنه ذهب إلى معنى المرافقة . ٱبن عباس : منزلا . عطاء : مقرا . وقيل مهادا . وقال القتبىّ : مجلسا . والمعنى متقارب؛ وأصله من المتّكأ، يقال منه : ٱرتفقت أى ٱتكأت على المرفق . قال الشاعر :

قالت له وٱرتفقتْ ألّا فـتًى * يسوق بالقوم غَزالاتِ الضُّحا (١)

ويقال : ارتفق الرجل إذا نام على مِرفقه لا يأتيه نوم . قال أبو ذُؤيب الهُذَلىّ :

نام الخَلِىّ وبِتُّ الليـل مُرْتَفقا (٢) * كأنّ عَيْنِىَ فيها الصّاب مَذْبُوحُ

الصاب : عصارة شجر مرّ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾

لما ذكر ما أعدّ للكافرين من الهوان ذكر أيضا ما للؤمنين من الثواب . وفى الكلام إضمار؛ أى لا نضيع أجر من أحسن منهم عملا، فأما من أحسن عملا من غير المؤمنين فعمله مُحْبَط . و « عملا » نصب على التمييز، وإن شئت بإيقاع « أحسن » عليه . وقيل :

---

(١) غزالة الضحا وغزالاته : بعد ما تنبسط الشمس وتُضْحِى . وقيل : هو أول الضحا الى مدّ النهار الأكبر حتى يمضى من النهار نحوٌ من خمسه .

(٢) زواية الديوان : « مُشْتَجِراً » والمشتجر : الذى قد شجر نفسه ووضع يده تحت شجره على حنكه أو على فه . والشَّجْر : ما بين اللحيين . ومذبوح؛ مشقوق .

« إنا لا نضيع أجر من أحسن عمــلا » كلام معترض ، والخــبر قوله « أولئـك لهم جنات عدن » و ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ سُرَّةُ الجنة ، أي وسطها وسائر الجنات مُحْدِقَة بها . وذكرت بلفظ الجمع لسَعتها ؛ لأن كل بُقعة منها تصلح أن تكون جنة . وقيــل : العَدْن الإقامة ، يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به . وعَدَنْت البــلد توطنته . وعَدَنَت الإبلُ بمكان كذا لزمته فلم تبرح منه ؛ ومنــه « جناتُ عَدْن » أي جنات إقامة . ومنــه سُمِّيَ المَعْدِن ( بكسر الدال ) ؛ لأن الناس يقيمون فيه بالصيف والشتاء . ومركز كلّ شيء مَعدنه . والعادن : الناقة المقيمة في المرعى . وعَدَن بلد ؛ قاله الجوهري . ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ تقدّم في غير موضع (١) . ﴿يُحَــلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو جمع سِوار . قال سعيد بن جُبَير : على كل واحد منهم ثلاثة أسورة : واحد من ذهب ، وواحد من ورق ، وواحد من لؤلؤ .

قلت : هــذا منصوص في القرآن ، قال هنــا « من ذهب » وقال في الحج (٢) وفاطر (٣) « مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا » وفي الإنسان « مِن فِضةٍ » (٤) . وقال أبو هريرة : سمعت خليلي صلّى الله عليه وسلم يقول : " تبلغ الحلْية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء " خرّجه مسلم . وحكى الفرّاء : « يَحْلَوْن » بفتح الياء وسكون الحاء وفتح اللام خفيفة ؛ يقال : حَلِيت المرأة تَحْلَى فهي حالية إذا لبست الحَلْي . وحَلِيَ الشيء بعيني يَحْلَى ؛ ذكره النحاس . والسِّوار سِوار المرأة ، والجمع أسورة ، وجمع الجمع أساورة . وقرئ « فلولا أُلْقِيَ عليه أساورة من ذهب » (٥) وقد يكون الجمع أساور . وقال الله تعالى « يُحَــلَّوْن فيها من أساور من ذهب » قاله الجوهري . وقال ابن عَزيز : أساور جمع أسورة ، وأسورة جمع سِوار وسُــوار ، وهو الذي يلبس في الذراع من ذهب ، فإن كان من فضــة فهو قُلْب وجمعه قِلَبَــة ؛ فإن كان من قَرْن أو عاج فهي مَسَكة وجمعه مَسَك . قال النحاس : وحكى قُطْرب في واحد الأساور إسوار ، وقُطْرب صاحب شذوذ ، قد تركه يعقوب وغيره فلم يذكره .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٩ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) آية ٢٣ (٣) آية ٣٣
(٤) آية ٢١ (٥) آية ٥٣ سورة الزخرف .

قلت : قد جاء فى الصحاح وقال أبو عمرو بن العلاء : واحدها إسوار . وقال المفسرون : لمـا كانت الملوك تلبس فى الدنيا الأساور والتِّيجان جعل الله تعالى ذلك لأهل الجنة .

قوله تعالى : ﴿ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ السُّنْدُس : الرقيق النحيف ، واحده سندسة ؛ قاله الكسائى . والإستبرق : ما ثخُن منه — عن عكرمة — وهو الحرير . قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مَرّة * وإستبرقُ الديباج طَوْراً لباسُهَا

فالإستبرق الديباج . ابن بحر : المنسوج بالذهب . القُتَبِيّ : فارسى معرب . الجوهرى : وتصغيره أُبَيْرِق . وقيل : هو استفعل من البريق . والصحيح أنه وفاق بين اللغتين ؛ إذ ليس فى القرآن ما ليس من لغة العرب ، على ما تقدّم ، والله أعلم .

وخص الأخضر بالذكر لأنه الموافق للبصر ؛ لأن البياض يبدّد النظر ويؤلم ، والسواد يذّم ، والخضرة بين البياض والسواد ، وذلك يجمع الشعاع . والله أعلم . روى النسائىّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : بينما نحن عنـد رسول الله صلى الله عليـه وسلم إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أخبرنا عن ثياب الجنـة ، أَخَلْقٌ يُخلَق أم نسج ينسج؟ فضحك بعض القوم . فقال لهم : " مِمّ تضحكون من جاهل يسأل عالمـا " فجلس يسـيرا أو قليـلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أين السائل عن ثياب الجنة"؟ فقال : ها هو ذا يا رسول الله ؛ قال " لا بل تشقّق عنهـا ثمر الجنـة " قالها ثلاثا . وقال أبو هريرة : دار المؤمن درّة مجوّفة فى وسطها شجـرة تنبت الحُلَل ويأخذ بأصبعه أو قال بأصبعيه سبعين حُلّة منظمة بالدرّ والمَرْجان . ذكره يحيي بن سـلام فى تفسيره وابن المبـارك فى رقائقه . وقـد ذكرنا إسناده فى كتاب التذكرة . وذُكر فى الحديث أنه يكون على كل واحد منهم الحلة لهـا وجهان لكل وجه لون ، يتكلمان بصوت يستحسنه سامعه ، يقول أحد الوجهين للآخر : أنا أكرم على وَلِيّ الله منك ، أنا أَلِي جسده وأنت لا تلِي . ويقول الآخر : أنا أكرم على ولِيّ الله منك ، أنا أبصر وجهه وأنت لا تبصر .

قوله تعـالى : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ « الأرائك » جمع أَرِيكة، وهى السرر فى الحِجال[1] . وقيـل الفرش فى الحجـال ؛ قاله الزجاج . ابن عباس : هى الأسرّة من ذهب، وهى مكلّلة بالدُّر والياقوت عليها الحجـال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أَيْلة وما بين عدن إلى الجابية . وأصـل متكئين مُوْتَكِئين، وكذلك اتكأ أصله اوتكأ، وأصـل التُّكَأة وُكَأة ؛ ومنـه التوكّأ للتحامل على الشيء ، فقلبت الواو تاء وأدغمت . ورجل وُكَأة كثير الاتّكاء .
﴿ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ يعنى الجنات، عكس « وساءت مرتفقا » . وقد تقدّم . ولو كان « نِعْمَتْ » لجـاز لأنه اسم للجنة . وعلى هذا « وحسنت مرتفقا » . وروى البرَاء ابن عازِب أن أعرابيًّا قام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته العَضْباء فقال : إنى رجل مسلم فأخبرنى عن هـذه الآية « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » الآية ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أنت منهم ببعيد ولا هم ببعيد منك هم هؤلاء الأربعة أبو بكر وعمـر وعثمان وعليّ فأَعْلِم قومك ان هذه الآية نزلت فيهم " ذكره المـاوردىّ، وأسنده النحاس فى كتاب معانى القرآن ، قال : حدّثنا أبو عبد الله أحمد بن عليّ بن سهل قال حدّثنا محمد بن حميد قال حدّثنا يحيى بن الضُّرَيْس عن زهير بن معاوية عن أبى إسحـاق عن البراء بن عازِب قال : قام أعرابى ... ؛ فذكره . وأسنده السُّهَيْلِى فى كتاب الاعلام . وقـد روّيْنا جميع ذلك بالإجازة، والحمد لله .

قوله تعـالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾

(١) الحجال : جمع الحجلة ( بفتحتين ) كالقبة ، وموضع يزين بالثياب والستور والأسرة للعروس .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ ﴾ هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا و يستنكف عن مجالسة المؤمنين ، وهو متّصل بقوله « وآصبر نفسك » . واختلف فى اسم هذين الرجلين وتعيينهما ؛ فقال الكلبى : نزلت فى أخوين من أهل مكة مخزوميين ، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، زوجُ أمّ سلمة قبل النبىّ صلى الله عليه وسلم . والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد ، وهما الأخوان المذكوران فى سورة « الصافات » فى قوله «قال قائل منهم إنى كان لى قرين»[1] ، وَرِث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار ، فأنفق أحدُهما مالَه فى سبيل الله وطلب من أخيه شيئا فقال ما قال ... ؛ ذكره الثعلبىّ والقُشَيرِىّ . وقيل : نزلت فى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأهل مكة . وقيل : هو مَثَل لجميع مَن آمن بالله و جميع مَن كفر . وقيل : هو مَثَل لعُيَيْنة بن حِصْن وأصحابه مع سلمان وصُهيب وأصحابه ؛ شبّههم الله برجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا ؛ فى قول ابن عباس . وقال مقاتل : اسمه تمليخا . والآخر كافر واسمه قرطوش . وهما اللذان وصفهما الله تعالى فى سورة الصافات . وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال : اسم الخَيِّر منهما تمليخا ، والآخر قرطوش ، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثةُ آلاف دينار ، فاشترى المؤمن منهما عبيدا بألف وأعتقهم ، وبالألف الثانية ثيابا فكسا العُراة ، و بالألف الثالثة طعاما فأطعم الجُوّع ، و بنى أيضا مساجد ، وفعل خيرا . وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار ، واشترى دواب و بقرا فاستنتجها فنمَت له نماء مُفْرِطًا ، وآتّجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غِنًى ؛ وأدركت الأوّلَ الحاجةُ ، فأراد أن يستخدم نفسه فى جنة يخدمها فقال : لو ذهبت لشريكى وصاحبى فسألته أن يستخدمنى فى بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بى ، فجاءه فلم يَكَد يصل إليه من غِلَظ الحجاب ، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له : ألم أكن قاسمتك المال نصفين ! فما صنعتَ بمالك ؟ قال : اشتريت به من الله تعالى ما هو خير منه وأبقى . فقال : أئنك

(١) آية ٥١

لمن المصدّقين، ما أظن الساعة قائمة ! وما أراك إلا سفيها، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان ، أو ما ترى ما صنعتُ أنا بمالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كَسَبْت وسفهت أنت ، اخرج عنى . ثم كان من قصة هذا الغنىّ ما ذكره الله تعالى فى القرآن من الإحاطة بثمره وذهابها أصلا بما أرسل عليها من السماء من الحُسْبان .

وقد ذكر الثعلبيّ هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب . قال عطاء : كانا شريكين لهما ثمانية آلاف دينار . وقيل : ورِثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشترى أحدهما أرضا بألف دينار، فقال صاحبه : اللهم إن فلانا قد اشترى أرضا بألف دينار و إنى اشتريت منك أرضا فى الجنة بألف دينار فتصدقَ بها، ثم إن صاحبه بنى دارا بألف دينار فقال : اللهم إن فلانا بنى دارا بألف دينار و إنى أشترى منك دارا فى الجنة بألف دينار، فتصدّق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار، فقال : اللهم إن فلانا تزوج امرأة بألف دينار و إنى أخطب إليك من نساء الجنة بألف دينار، فتصدّق بألف دينار . ثم اشترى خدما ومتاعا بألف دينار، و إنى أشترى منك خَدَمًا ومتاعا من الجنة بألف دينار ، فتصدّق بألف دينار . ثم أصابته حاجة شديدة فقال : لعلّ صاحبى ينالُنى معروفه فأتاه فقال : ما فعل مالُك ؟ فأخبره قصته فقال : وإنك لمن المصدّقين بهذا الحديث ! والله لا أعطيك شيئا ! ثم قال له : أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنما؛ فقال صاحبه : والله لأعِظَنّه، فوعظه وذكّره وخوّفه . فقال : سِرْ بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق ؛ فقال له : يا أخى ! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثوابا لمحسن أوعقابا لكافر . قال : فأكرهه على الخروج معه، فابتلاهما الله، فجعل الكافرُ يرمى شبكته ويسمّى باسم صنمه ، فتطلع متدفّقة سمكا . وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى باسم الله فلا يطلُع له فيها شىء؛ فقال له : كيف ترى ! أنا أكثر منك فى الدنيا نصيبا ومنزلة ونَفَرًا، كذلك أكون أفضلَ منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك حقًّا . قال : فضَجّ المَلَك الموكّل بهما، فأمر الله تعالى جبريلَ أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريَه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال : وعزّتك لا يضرّه ما ناله من

الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هـذا ؛ وأراه منازل الكافر فى جهنم فقال : وعزّتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا . ثم إن الله تعالى توفّى المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن فى الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال : « إنى كان لى قَرِينٌ . يقول أئنّك لمِن المصَدِّقين » الآية ؛ فنادى منادٍ : يأهل الجنة! هل أنتم مطَّلِعون فٱطلع إلى جهنم فرآه فى سواء الجحيم ؛ فنزلت « واضرب لهم مَثَلًا » .

بيّن الله تعالى حال الأخوين فى الدنيا فى هذه السورة ، وبين حالهما فى الآخرة فى سورة « الصافات » فى قـوله « إنى كان لى قرين . يقول أئنك لمن المصدقين — إلى قوله — لمثل هـذا فليعمل العاملون »[1] . قال ابن عطيـة : وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب فى كتابه فى عجائب البـلاد أن بحيرة تِنّيس كانت هاتين الجنتين ، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق فى طاعة الله حتى عيّره الآخر، وجرت بينهما المحاورة فغرقها الله تعالى فى ليلة، وإياها عنى بهذه الآية . وقد قيل : إن هذا مَثَل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهـد فى الدنيا وترغب فى الآخرة، وجعله زجرا وإنذارا؛ ذكره الماوردى . وسياق الآية يدلّ على خلاف هذا، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ ﴾ أى أطفناهما من جوانبهما بنخل . والحِفاف الجانب، وجمعه أحِفّة؛ ويقال : حَفَّ القوم بفلان يَحُفُّون حَفًّا، أى طافوا به؛ ومنه «حافّين مِن حَوْلِ العرش»[2] . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ أى جعلنا حول الأعناب النخل، ووسط الأعناب الزرع . ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ﴾ أى كلّ واحدة من الجنتين ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا ﴾ تاما، ولذلك لم يقـل آتتا . وٱختُلف فى لفظ « كِلتا وكِلَا » هل هو مفرد أو مثنّى؛ فقال أهل البصرة : هو مفرد؛ لأن كِلا وكلتا فى توكيد الاثنين نظير«كُلٍّ» فى المجموع، وهو اسم مفرد غير مثنى؛ فإذا ولِى[3] اسما ظاهرا كان فى الرفع والنصب والخفض على حالة واحدة، تقول: رأيت كِلا الرجلين وجاءنى كِلا الرجلين ومررت بكلا الرجلين؛ فإذا اتصل بمضمر قلبت الألف ياء فى موضع الجر والنصب، تقول:

(١) آية ٥١ وما بعدها . (٢) آخر سورة الزمر . (٣) كذا فى الأصول والصحاح للجوهرى وقد نقله عنه صاحب اللسان . وكان الأولى أن يقال : « فاذا وليه اسم ظاهر ... » .

رأيت كِلَيْهِما ومررت بكليهما، كما تقول عليهما . وقال الفراء : هو مثنًّى، وهو مأخوذ من كُلٍّ فخففت اللام وزيدت الألف للتثنية . وكذلك كلتا للؤنث، ولا يكونان إلا مضافين ولا يتكلم بواحد، ولو تكلم به لقيل : كِلْ وكِلْت وكِلان وكِلْتان . واحتج بقول الشاعر :

في كِلْتِ رِجْلَيها سُلَامَى واحدَهْ (١) * كِلتاهما مَقْـــرونةٌ بزائـدهْ

أراد في إحدى رجليها فأفرد . وهـذا القول ضعيف عنـد أهل البصرة؛ لأنه لو كان مثنى لوجب أن تكون ألفه في النصب والجر ياءً مع الاسم الظاهر، ولأن معنى «كِلا» مخالف لمعنى «كل» لأن «كُلًّا» للإحاطة و«كِلَا» يدل على شيء مخصوص، وأما هذا الشاعر فإنما حذف الألف للضرورة وقدّر أنها زائدة ، وما يكون ضرورة لا يجوز أن يجعل حجة ، فثبت أنه اسم مفـرد كمِعَى ، إلا أنه وُضـع ليدل على التثنية، كما أن قولهم « نحن » اسم مفرد يدل على اثنين فما فوقهما، يدل على ذلك قول جرير :

كِلَا يَوْمَيْ أُمامةَ يومُ صَدٍّ (٢) * وإن لم نأتهـا إلا لِمـامَا

فأخبر عن « كلا » بيوم مفرد، كما أفرد الخبر بقوله «آتت» ولو كان مثنى لقال آتتا، ويوما . واختلف أيضا في ألف « كلتا »؛ فقال سيبويه : ألف « كلتا » للتأنيث والتاء بدل من لام الفعل وهي واو والأصل كِلْوا، وإنما أبدلت تاء لأن في التاء علَمَ التأنيث، والألف «في كلتا» قد تصير ياء مع المضمر فتخرج عن علم التأنيث ، فصار في إبدال الواو تاء تأكيدٌ للتأنيث . وقال أبو عمر الجَرْميّ: التاء ملحقة والألف لام الفعل، وتقديرها عنده: فِعْتَلٌ، ولو كان الأمر على ما زعم لقالوا في النسبة إليها كِلْتَوِيّ، فلما قالوا كِلَوِيّ وأسقطوا التاء دلّ على أنهم أجروها مُجْرى التاء في أخت إذا نسبت إليها قلت أَخَوِيّ؛ ذكره الجوهري . قال أبو جعفر النحاس : وأجاز النحويون في غير القرآن الحمل على المعنى ، وأن تقول : كلتا الجنتين آتتا أكلهما ؛ لأن المعنى المختار كلتاهما آتتا . وأجاز الفـراء : كلتـا الجنتين آتى أكله، قال : لأن المعنى كل

(١) السلامى (كحبارى) : عظام الأصابع في اليد والقدم . (٢) كذا في الأصول واللسان مادة « كلا » . وفي ديوانه المطبوع : « يوم صدق » . والبيت من قصيدة مطلعها :

ألا حي المنـازل والخيـاما * وسكنا طـال فيهـا ما أقاما

الجنتين . قال : وفى قراءة عبد الله « كلّ الجنتين آتى أكله » . والمعنى على هذا عند الفراء : كل شيء من الجنتين آتى أكله . والأُكُل (بضم الهمزة) ثمر النخل والشجر . وكل ما يؤكل فهو أُكُل؛ ومنه قوله تعالى : «أُكُلُهَا دَائِمٌ»(1) وقد تقدم . ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أى لم تنقص .

قوله تعالى : ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا﴾ أى أجرينا وشققنا وسط الجنتين بنهر . ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قرأ أبو جعفر وشَيْبَة وعاصم ويعقوب وابن أبى إسحاق « ثَمَر » بفتح الثاء والميم، وكذلك قوله « وأحيط بثَمَره » جمع ثمرة . قال الجوهرى : الثمرة واحدة الثمر والثمرات ، وجمع الثمر ثمار؛ مثل جبل وجبال . قال الفراء : وجمع الثمار ثُمُر؛ مثل كتاب وكتب، وجمع الثمر أثمار؛ مثل أعناق وعنق . والثمر أيضا المال المُثَمَّر؛ يخفف ويثقّل . وقرأ أبو عمرو « وكان له ثُمْر » بضم الثاء وإسكان الميم، وفسره بأنواع المال . الباقون بضمها فى الحرفين . قال ابن عباس : ذهب وفضة وأموال . وقد مضى فى « الأنعام »(2) نحو هذا مبيّناً . وذكر النحاس : حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرنى عمران بن بكار قال حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى قال حدثنا شعيب بن إسحاق قال هارون قال حدثنى أبان عن ثعلب عن الأعمش أن الحجاج قال : لو سمعت أحدا يقرأ «وكان له ثُمُر» لقطعت لسانه؛ فقلت للأعمش : أتأخذ بذلك؟ فقال: لا ! ولا نُعْمَةَ عينٍ(3) . فكان يقرأ « ثُمُر » ويأخذه من جمع الثمر . قال النحاس : فالتقدير على هذا القول أنه جمع ثمرة على ثمار، ثم جمع ثمار على ثمر؛ وهو حسن فى العربية إلا أن القول الأول أشبه والله أعلم؛ لأن قوله « كلتا الجنتين آتت أكلها » يدل على أن له ثمرا .

قوله تعالى : ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى يراجعه فى الكلام ويجاوبه . والمحاورة المجاوبة، والتحاورُ التجاوب . ويقال : كلمته فما أحار إلىّ جوابا ، وما رجع إلىّ حَويرا ولا حَويرة ولا مَحُورة ولا حِوَارا؛ أى ما ردّ جوابا . ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر : الرهط وهو ما دون العشرة . وأراد هاهنا الأتباع والخدم والولد، حسبما تقدّم بيانه .

(1) راجع جـ ٩ ص ٣٢٤	(2) راجع جـ ٧ ص ٤٩	(3) فى هذه الكلمة اثنتا عشرة لغة : نَعَمَ عَيْنٍ ونَعْمَةَ ونَعَامَ ونَعِيمَ (بفتحهن) ونُعْمَى ونُعَامَى ونُعَامَ ونُعْمَ ونُعْمَةَ (بضمهن) ونِعْمَةَ ونِعَامَ (بكسرها) . وتنصب الكل بإضمار الفعل؛ أى أفعل ذلك إنعاما لعينك وإكراما .

قوله تعـالى : وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ ﴾ قيل : أخذ بيد أخيه المؤمن يُطيف به فيها ويُرِيه إيّاها . ﴿ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى بكفره، وهو جملة فى موضع الحال . ومن أدخل نفسه النار بكفره فهو ظالم لنفسه . ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ﴾ أنكر فناء الدار . ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ أى لا أحسب البعث كائنا . ﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى ﴾ أى وإن كان بعثٌ فكما أعطانى هـذه النعم فى الدنيا فسيعطينى أفضل منه لكرامتى عليه؛ وهو معنى قوله : ﴿ لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ وإنما قال ذلك لما دعاه أخوه إلى الإيمان بالحشر والنشر . وفى مصاحف مكة والمدينة والشام « منهما » . وفى مصاحف أهل البصرة والكوفة « منها » على التوحيد، والتثنية أولى؛ لأن الضمير أقرب إلى الجنتين .

قوله تعـالى : قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ ﴾ يهوذا أو تمليخا؛ على الخلاف فى ٱسمه . ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ وعظه وبيّن له أن ما اعترف به من هذه الأشياء التى لا ينكرها أحد أبدع من الإعادة . و « سوّاك رجلا » أى جعلك معتدل القامة والخَلْق، صحيحَ الأعضاء ذكرا . ﴿ لَـٰكِنَّا هُوَ اللّٰهُ رَبِّى ﴾ كذا قرأه أبو عبد الرحمن السُّلَمى وأبو العالية . وروى عن الكسائى « لكن هو الله » بمعنى لكن الأمر هو الله ربى ، فأضمر اسمها فيها . وقرأ الباقون « لكنا » بإثبات الألف . قال الكسائى : فيه تقديم وتأخير،

تقديره: لكن الله هو ربى أنا، فحذفت الهمزة من «أنا» طلبا للخفة لكثرة الاستعمال وأدغمت إحدى النونين فى الأخرى وحذفت ألف «أنا» فى الوصل وأثبتت فى الوقف. وقال النحاس: مذهب الكسائى والفرّاء والمازِنِىّ أن الأصل لكن أنا فألقيت حركة الهمزة على نون لكن وحذفت الهمزة وأدغمت النون فى النون فالوقف عليها لكنّا وهى ألف أنا لبيان الحركة. وقال أبو عبيد: الأصل لكن أنا، فحذفت الألف فالتقت نونان فجاء بالتشديد لذلك، وأنشدنا الكسائى:

لَهِنَّكِ من عَبْسِيَّةٍ لَوَسِيمَةٌ * على هَنَوَاتٍ كاذب من يقولها

أراد: لله إنك، فأسقط إحدى اللامين من «لله» وحذف الألف من إنك. وقال آخر فجاء به على الأصل:

وترمينى بالطَّرْف أى أنت مذنب * وتَقْلِينَنِى لكنّ إيّاكِ لَا أَقْلِى

أى لكن أنا. وقال أبو حاتم: ورَوَوْا عن عاصم «لكنّا هو الله ربى» وزعم أن هذا لحن، يعنى إثبات الألف فى الإدراج. قال الزجاج: إثبات الألف فى «لكنا هو الله ربى» فى الإدراج جيد؛ لأنه قد حذفت الألف من أنا فجاءوا بها عوضا. قال: وفى قراءة أُبَىّ «لكن أنا هو الله ربى». وقرأ ابن عامر والمَسِيلِىّ (١) عن نافع ورُوَيس عن يعقوب «لكنّا» فى حال الوقف والوصل معا بإثبات الألف. وقال الشاعر:

أنا سيف العشيرة فاعرفونى * حُمَيْدًا قد تَذَرَّيْتُ السَّناما

وقال الأعشى:

فكيف أنا وانتحال القوافى * بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولا خلاف فى إثباتها فى الوقف. ﴿ هُوَ اللَّهُ رَبِّى ﴾ «هو» ضمير القصة والشأن والأمر؛ كقوله «فإذا هِىَ شاخِصَةٌ أبْصَارُ الذين كفروا» (٢) وقوله «قل هو الله أحد». ﴿ وَلَا أُشْرِكُ

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد. وهذه النسبة إلى مسيلة (كسفينة) بلدة بالمغرب.

(٢) آية ٩٧ سورة الأنبياء.

رَبِّى أَحَدًا ﴾ دلّ مفهومه على أن الأخ الآخر كان مشركا بالله تعالى يعبد غيره . ويحتمل أنه أراد لا أرى الغنى والفقر إلا منه، وأعلم أنه لو أراد أن يسلُب صاحب الدنيا دنياه قَدَر عليه؛ وهو الذى آتانى الفقر . ويحتمل أنه أراد بجحودك البعث مصيره إلى أن الله تعالى لا يقـدر عليه، وهو تعجيز الرب سبحانه وتعالى، ومَن عجّزه سبحانه وتعالى شبّهه بخلقه؛ فهو إشراك .

قوله تعالى : وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ فيه مسألتان :

الأولى ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَاشَاءَ اللهُ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى بالقلب، وهو توبيخ ووصية من المؤمن للكافر وردّ عليه، إذ قال « مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هٰذِهِ أَبَدًا » و« ما » فى موضع رفع، تقديره : هذه الجنة هى ماشاء الله . وقال الزجاج والفراء : الأمر ما شاء الله، أو هو ما شاء الله؛ أى الأمر مشيئة الله تعالى . وقيل : الجواب مضمر، أى ماشاء الله كان ، وما لا يشاء لا يكون . ﴿ لَاقُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ أى ما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله تعالى وقوته لا بقدرتك وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع .

الثانيـة ـ قال أشهب قال مالك : ينبغى لكل من دخل منزله أن يقول هـذا . وقال ابن وهب قال لى حفص بن مَيْسرة : رأيت على باب وهب بن منبّه مكتوبا « ما شاء الله لاقوة إلا بالله » . وروى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبى هريرة : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة ـ أو قال كنز من كنوز الجنـة" قلت : بلى يارسول الله، قال "لاحول ولا قوة إلا بالله إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدى واستسلم" أخرجه مسلم

فى صحيحه من حديث أبى موسى. وفيه : فقال " ياأبا موسى أو ياعبد الله بن قيس ألا أدُلُّك على كلمة من كنز الجنة — فى رواية على كنز من كنوز الجنة — " قلت : ما هى يارسول الله، قال : "لاحول ولا قوة إلا بالله". وعنه قال قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا أدلك على كلمة من كنوز الجنة أو قال كنز من كنوز الجنة" قلت : بلى ؛ فقال "لا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم". وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال : بآسم الله ماشاءالله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه وأنزل الله تعالى عليه البركات . وقالت عائشة : إذا خرج الرجل من منزله فقال باسم الله قال المَلَك هُديت ، و إذا قال ما شاء الله قال المَلك كُفيت ، و إذا قال لا قوة إلا بالله قال المَلك وُقيت . خرجه الترمذىّ من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال — يعنى إذا خرج من بيته — بآسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله يقال كُفيت ووُقيت وتنحّى عنه الشيطان " هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . خرجه أبو داود أيضا وزاد فيه — فقال له : " هُديت وكُفيت ووُقيت". وأخرجه ابن ماجه من حديث أبى هريرة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال . "إذا خرج الرجل من باب بيته أو باب داره كان معه ملَكان موكَّلان به فإذا قال باسم الله قالا هُديت و إذا قال لاحول ولا قوة إلا بالله قالا وُقيت و إذا قال توكّلت على الله قالا كفيت قال فيلقاه قَريناه فيقولان ماذا تريدان من رجل قد هُدِىَ ووُقِى وكُفِى". وقال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : سئل محمـد بن إسحاق بن خزيمة عن قول النبىّ صلى الله عليه وسـلم : "تحاجّت الجنة والنار فقالت هذه — يعنى الجنة — يدخلنى الضعفاء" مَن الضعيف ؟ قال : الذى يبرئ نفسه من الحول والقوّة يعنى فى اليوم عشرين مرة أو خمسين مرة . وقال أنس بن مالك قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " من رأى شيئا فأعجبه فقال ما شاء الله لا قوة إلا بالله لم يضره عين" . وقد قال قوم : ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شىء إلا رَضِىَ به . وروى أن من قال أربعا أمِنَ من أربع : من قال هـذه أمِن من العين ، ومن قال حسبنا الله ونعم الوكيل أمن من كيد الشيطان ، ومن قال وأفوض أمرى إلى الله أمن من مكر الناس ، ومن قال لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين أمن من الغم .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَـلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴾ « إِنْ » شرط « تَرَنِ » مجزوم به ، والجواب « فعسى رَبِّى » و « أنا » فاصـلة لا موضع لها من الإعراب . ويجوز أن تكون فى موضع نصب توكيدا للنون والياء . وقرأ عيسى بن عمر « إن ترنِ أنا أقل منك » بالرفع ؛ يجعل « أنا » مبتدأ و «أقل» خبره، والجملة فى موضع المفعول الثانى، والمفعول الأول النون والياء؛ إلا أن الياء حذفت لأن الكسرة تدل عليها، و إثباتها جيّد بالغ وهو الأصل لأنها الاسم على الحقيقة . و ﴿ فعسى ﴾ بمعنى لعل ، أى فلعلّ ربى . ﴿ أَنْ يُؤْتِيَنِى خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ أى فى الآخرة . وقيل فى الدنيا . ﴿ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا ﴾ أى على جنتك . ﴿ حُسْبَانًا ﴾ أى مرامى من السماء، واحدها حُسْبانة ؛ قاله الأخفش والقُتَبِىّ وأبو عبيدة . وقال ابن الأعرابى : والحسبانة السحابة ، والحسبانة الوِسادة ، والحسبانة الصّاعقة . وقال الجوهرى : والحسبان (بالضم) : العـذاب . وقال أبو زياد الكلابى : أصاب الأرض حسبان أى جراد . والحسبان أيضا الحساب، قال الله تعالى : « الشّمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ »[1] . وقد فُسِّر الحُسْبان هنا بهذا . قال الزجاج : الحسبان من الحساب؛ أى يرسل عليها عذاب الحساب، وهو حساب ما اكتسبت يداك؛ فهو من باب حذف المضاف . والحسبان أيضا : سهام قصار يرمى بها فى طَلْق واحد، وكان من رَمْى الأكاسرة . والمرامى من السماء عذاب . ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ يعنى أرضا بيضاء لا ينبت فيها نبات ولا يثبت عليها قـدم ، وهى أضَرّ أرض بعد أن كانت جنة أنفع أرض؛ و « زلقا » تأكيد لوصف الصعيد؛ أى تزلّ عنهـا الأقدام لملاستها . يقال : مكان زَلَق ( بالتحريك ) أى دَحْض ، وهو فى الأصل مصدر قولك : زلِقت رجله تَزْلَق زَلَقا ، وأزلقها غيره . والزلق أيضا عجز الدابة . قال رُؤْبة :

* كأنها حَقْباءُ بَلْقاء الزَّلَق *

والمَزْلَقة والمَزْلَقة : الموضع الذى لايثبت عليه قدم . وكذلك الزّلّاقة . والزّلْق الحَلْق، زَلَق رأسَه يَزْلِقُـه زَلْقا حلقه ؛ قاله الجوهرى . والزّلَق المحلوق ، كالنَّقْض والنَّقَض . وليس المراد

---

(١) آية ٥ سورة الرحمن .

أنها تصير مزلقة ، بل المراد أنها لا يبقى فيها نبات كالرأس إذا حُلق لا يبقى عليه شعر؛ قاله القشيري . ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً ﴾ أي غائرا ذاهبا ، فتكون أعدمَ أرض للماء بعد أن كانت أوجدَ أرض للماء . والغَوْر مصدر وضع موضع الاسم؛ كما يقال : رجلٌ صَوْمٌ وفِطْرٌ وعَدْلٌ ورِضًا وفَضْلٌ وزَوْرٌ ونساءٌ نَوحٌ؛ ويستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع . قال عمرو بن كلثوم :

تظَلّ جياده نَوْحا عليه ＊ مقلَّدة أعنّتها صُفُونا

آخر :

هَرِيقي من دموعهما سِجَاما ＊ ضُبَاع وجاوِبى نوحا قِياما

أي نائحات . وقيل : أو يصبح ماؤها ذا غَوْر؛ فحذف المضاف؛ مثلُ « واسأل القَرْيَةَ » ذكره النحاس . وقال الكسائي : ماءٌ غَوْرٌ . وقد غار الماء يَغُور غَوْرا وغُؤورا ، أي سفَل في الأرض، ويجوز الهمز لانضمام الواو . وغارت عينه تَغُور غَوْرا وغُؤُورا؛ دخلت في الرأس . وغارت تَغار لغة فيه . وقال :

＊ أغارتْ عينُه أم لم تَغَارَا ＊

وغارت الشمس تغور غِيارا، أي غربت . قال أبو ذُؤَيب :

هل الدهر إلّا ليلة ونهارُها ＊ وإلا طلوعُ الشمس ثم غيارها

﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴾ أي لن تستطيع ردّ الماء الغائر، ولا تقدر عليه بحيلة . وقيل : فلن تستطيع طلب غيره بدلا منه . وإلى هذا الحديث انتهت مناظرة أخيه وإنذاره .

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ اسم ما لم يسم فاعله مضمر، وهو المصدر . ويجوز أن يكون المخفوض في موضع رفع . ومعنى « أُحيط بثمره » أي أهلك مالُه كله . وهذا أول ما حقق الله تعالى به إنذار أخيه . ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ أي فأصبح الكافر يضرب إحدى

يديه على الأخرى ندما؛ لأن هذا يصدر من النادم . وقيل : يقلِّب ملكه فلا يرى فيه عوض ما أنفق؛ وهذا لأن الملك قد يعبَّر عنه باليد، من قولهم : فى يده مال ، أى فى ملكه مال . ودلّ قوله « فأصبح » على أن هـذا الإهلاك جرى بالليل ؛ كقوله « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وهم نائمون . فأصْبَحَتْ كَالصَّرِيم » [(١)] ويقال : أنفقتُ فى هذه الدار كذا وأنفقت عليها . ﴿وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَـا﴾ أى خالية قد سـقط بعضها على بعض ؛ مأخـوذ من خَوَت النجوم تخوى خَيًّا أمْحَلَتْ ، وذلك إذا سقطت ولم تُمْطر فى نَوْئها . وأخْوَت مثله . وخَوَت الدار خَواء أقْوَت ، وكذلك إذا سقطت ؛ ومنه قوله تعالى : « فتلْكَ بيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَـا ظَلَمُوا » [(٢)] ويقـال ساقطة ؛ كما يقال فهى خاوية على عروشها أى ساقطة على سقوفها ؛ فجمع عليـه بين هلاك الثمـر والأصل ، وهذا من أعظم الجوائح ، مقابلةً على بَغْيه . ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا﴾ أى يا ليتنى عرفت نعم الله علىّ ، وعرفت أنهـا كانت بقدرة الله ولم أكفر به . وهذا ندم منه حين لا ينفعه الندم .

قوله تعـالى : وَلَمْ تَـكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِـرًا ﴿٤٣﴾

قوله تعـالى : ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ « فِئَةٌ » اسم «تكن» و «له» الخـبر . « يَنْصُرونه » فى موضع الصفة ، أى فئـة ناصرة . ويجوز أن يكون « ينصرونه » الخبر . والوجه الأول عند سيبويه أوْلى لأنه قد تقدّم «له » . وأبو العباس يخالفه ، ويحتج بقول الله عز وجل « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » . وقد أجاز سيبويه الآخَر . و « ينصرونه » على معنى فئة ؛ لأن معناها أقوام ، ولو كان على اللفظ لقال ولم تكن له فئـة تنصره ؛ أى فرقة وجماعة يلتجئ إليهم . ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ أى ممتنعا ؛ قاله قتادة . وقيـل : مستردًّا بدل ما ذهب منه . وقد تقدم آشتقاق الفئة فى «آل عمران» [(٣)] . والهاء عوض من الياء التى نقصت

---

(١) آية ١٩ سورة ن . (٢) آية ٥٢ سورة النمل . (٣) راجع جـ ٤ ص ٢٤

من وسطه، أصله فِيءٌ مثلُ فِيع؛ لأنه من فاء، ويجمع على فِئون وفِئات، مثل شِيَات ولِدَات ومئات . أى لم تكن له عشيرة يمنعونه من عذاب الله، وضلّ عنه مَن افتخر بهم من الخدم والولد .

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (٤٤)

قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ اختلف فى العامل فى قوله « هنالك » وهو ظرف؛ فقيل : العامل فيه « ولم تكن له فئة » ولا كان هنالك؛ أى ما نُصر ولا انتصر هنالك ، أى لما أصابه من العذاب . وقيل : تم الكلام عند قوله « منتصرا » . والعامل فى قوله « هنالك » : « الولاية »، وتقديره على التقديم والتأخير : الولاية لله الحقّ هنالك ، أى فى القيامة . وقرأ أبو عمرو والكسائى « الحقُّ » بالرفع نعتا للولاية . وقرأ أهل المدينة وحمزة « الحقِّ » بالخفض نعتا لله عز وجل، والتقدير : لله ذى الحق . قال الزجاج : ويجوز « الحقَّ » بالنصب على المصدر والتوكيد؛ كما تقول : هذا لك حقا . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى « الوِلاية » بكسر الواو ، الباقون بفتحها ، وهما بمعنًى واحد كالرِّضاعة والرَّضاعة . وقيل : الوَلاية بالفتح من الموالاة؛ كقوله « اللهُ وَلِيُّ الذين آمنوا »[(١)] . « ذَلِك بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الذين آمنوا »[(٢)] . وبالكسر يعنى السلطان والقدرة والإمارة؛ كقوله « والأَمْرُ يومئذٍ لله »[(٣)] أى له الملك والحكم يومئذ، أى لا يُرَدُّ أمره إلى أحد؛ والملك فى كل وقت لله ولكن تزول الدعاوى والتّوَهّمات يوم القيامة . وقال أبو عبيد : إنها بفتح الواو للخالق ، وبكسرها للمخلوق . ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا ﴾ أى الله خير ثوابا فى الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وليس ثَمّ غير يُرْجى منه، ولكنه أراد فى ظن الجهال؛ أى هو خير مَن يُرجى . ﴿ وَخَيْرٌ عُقُبًا ﴾ قرأ عاصم والأعمش وحمزة ويحيى « عُقْبا » ساكنة القاف، الباقون بضمها، وهما بمعنًى واحد؛ أى هو خير عاقبة لمن رجاه وآمن به . يقال : هذا عاقبة أمر فلان وعقباه وعُقْبُه، أى آخره .

---

(١) آية ٢٥٧ سورة البقرة . (٢) آية ١١ سورة محمد . (٣) آخر سورة الانفطار .

قوله تعـالى : وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أى صف لهؤلاء المتكبرين الذين سألوك طرد فقراء المؤمنين مَثَل الحياة الدنيا، أى شبهها . ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ ﴾ أى بالماء . ﴿ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ حتى استوى . وقيل : إن النبات اختلط بعضه ببعض حين نزل عليه الماء؛ لأن النبات إنما يختلط ويكثر بالمطر . وقد تقدّم هذا المعنى فى « يونس »[1] مبيّنًا . وقالت الحكماء : إنما شبّه تعالى الدنيا بالماء لأن الماء لايستقر فى موضع، كذلك الدنيا لاتبقى على واحد، ولأن الماء لا يستقيم على حالة واحدة كذلك الدنيا، ولأن الماء لا يبقى ويذهب كذلك الدنيا تفنى، ولأن الماء لايقدر أحد أن يدخله ولا يبتلّ كذلك الدنيا لا يسلم أحد دخلها من فتنتها وآفتها، ولأن الماء إذا كان بقدرٍ كان نافعا مُنْبِتًا ، وإذا جاوز المقدار كان ضارا مهلكا، وكذلك الدنيا الكفافُ منها ينفع وفضولها يضرّ . وفى حديث النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له رجل : يارسول الله، إنى أريد أن أكون من الفائزين؛ قال : " ذَرِ الدنيا وخُذ منها كالماء الراكد فإن القليل منها يكفى والكثير منها يُطغى " . وفى صحيح مسلم عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : " قد أفلح من أسلم ورُزق كفافا وقنعه الله بما آتاه " . ﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ أى النبات ﴿ هَشِيمًا ﴾ أى متكسّرا من اليُبس متفتّتا، يعنى بانقطاع الماء عنه، فحذف ذلك إيجازا لدلالة الكلام عليه . والهَشْم : كسر الشىء اليابس . والهشيم من النبات اليابس المتكسر، والشجرة البالية يأخذها الحاطب كيف يشاء . ومنه قولهم : ما فلانٌ إلا هشيمةُ كَرْمٍ؛ إذا كان سَمْحا . ورجل هَشِيم : ضعيف البدن . وتهشّم عليه فلان إذا تعطّف . واهتشم

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٦

ما فى ضرع الناقة إذا احتلبه . ويقال : هَشَمَ الثَّرِيد؛ ومنه سُمِّيَ هاشم بن عبد مناف واسمه عمرو، وفيه يقول عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

عَمْرُو العُلَا هَشَم الثريدَ لقومه * ورجالُ مكّةَ مُسْنِتُون عِجافُ

وكان سبب ذلك أن قريشا أصابتهم سنونَ ذهبْن بالأموال فخرج هاشم إلى الشأم فأمر بخبز كثير فخبز له ، فحمله فى الغرائر على الإبل حتى وافى مكة، وهشم ذلك الخبز، يعنى كسره وثَرَدَه، ونحر تلك الإبل، ثم أمر الطُّهاة فطبخوا، ثم كفأ القدور على الجفان فأشبع أهل مكة؛ فكان ذلك أول الحِباء بعد السنة التى أصابتهم؛ فسمِّيَ بذلك هاشما .﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ أى تفرقه؛ قاله أبو عبيدة . ابن قتيبة : تنسفه . ابن كَيْسان : تذهب به وتجىء . ابن عباس : تديره؛ والمعنى متقارب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « تذريه الريح » . قال الكسائى : وفى قراءة عبد الله «تُذريه» . يقال : ذَرَتْه الريح تَذْرُوه ذَرْوًا و[تَذريه] ذَرْيا وأذرته تُذْريه إذْراء إذا طارت به . وحكى الفراء : أذريت الرجل عن فرسه أى قلبته . وأنشد سيبويه والفراء :

فقلت له صَوِّبْ ولا تَجْهَدَنَّهُ * فيُذْرِكَ(1) من أُخْرَى القَطاةِ فَتَزْلَقِ

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ من الإنشاء والإفناء والإحياء، سبحانه!

قوله تعالى : ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

قوله تعالى : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ويجوز « زينتا » وهو خبر الابتداء فى التثنية والإفراد . وإنما كان المال والبنون زينة الحياة الدنيا لأن فى المال جمالا ونفعا، وفى البنين قوة ودفعا ، فصارا زينة الحياة الدنيا ، لكن معه قرينة الصفة للمال

(1) فى كتاب سيبويه : «فيذنك » وهى رواية أخرى فى البيت . وقد نسبه سيبويه إلى عمرو بن عمار الطائى . ومعنى صوب : خذ القصد فى السير وارفق بالفرس ولا تجهد . وأخرى القطاة : آخرها ؛ والقطاة : مقعد الردف . (أى مؤخر الظهر حيث يكون ردف الراكب) . يقول هذا لغلامه وقد حمله على فرسه ليصيد له . (راجع الشنتمرى على كتاب سيبويه) .

والبنين ؛ لأن المعنى : المــال والبنون زينــة هذه الحياة المحتقرة فلا تُتبعوها نفوسكم . وهو رَدٌّ على عُيينــة بن حِصْن وأمثاله لمــا افتخروا بالغنى والشرف، فأخبر تعــالى أن ما كان من زينــة الحياة الدنيا فهو غرور يمر ولا يبقى، كالهشيم حين ذرته الريح ؛ إنمــا يبقى ما كان من زاد القبر وعُدد الآخرة . وكان يقال : لا تعقد قلبك مع المــال لأنه فَيْءٌ ذاهب ، ولا مع النساء لأنهــا اليوم معــك وغدًا مع غيرك، ولا مع السـلطان لأنه اليوم لك وغدًا لغــيرك . ويكفى فى هذا قول الله تعالى : « إِنَّمَــا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ »(١) . وقال تعالى : « إِنَّ مِن أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ أى ما يأتى به سَلْمان وصُهيب وفقراء المســلمين من الطاعات ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أى أفضل ﴿ وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ أى أفضل أملا من ذى المــال والبنين دون عمل صالح، وليس فى زينة الدنيا خير، ولكنه خرج مخرج قوله « أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا »(٣) . وقيل : خير فى التحقيق مما يظنّه الجهال أنه خير فى ظنّهم .

واختلف العلماء فى «الباقيات الصالحات» ؛ فقال ابن عباس وابن جُبير وأبو مَيْسرة وعمرو ابن شُرَحْبِيل : هى الصلوات الخمس . وعن ابن عباس أيضا : أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة . وقاله ابن زيد ورجّحه الطبرى . وهو الصحيح إن شاء الله؛ لأن كل ما بقى ثوابه جاز أن يقال له هذا. وقال علىّ رضى الله عنه : الحرث حرثان فحرث الدنيا المــال والبنون، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات، وقد يجمعهن الله تعالى لأقوام . وقال الجمهور: هى الكلمات المأثور فضــلها : سبحانَ الله والحمــد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . خرّجه مالك فى موطئه عن عمارة بن صياد عن سعيد بن المسيِّب أنه سمعه يقول فى الباقيات الصالحات: إنها قول العبد الله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . أسنده النَّسائىّ عن أبى سعيد الخُــدْرىّ أن رسول الله

---

(١) آية ١٥ سورة التغابن . (٢) آية ١٤ سورة التغابن . (٣) آية ٢٤ سورة الفرقان .

صلى الله عليه وسلم قال : "استكثروا من الباقيات الصالحات" قيل : وما هي يارسول الله؟ قال : " التكبير والتهليل والتسبيح والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله" ، صححه أبو محمد عبد الحق رحمه الله . وروى قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ غُصْنًا نخرطه حتى سقط ورقه وقال : " إن المسلم إذا قال سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر تحاتّت خطاياه كما تحات هذا خذهن إليك أبا الدرداء قبل أن يحال بينك و بينهن فإنهن من كنوز الجنة وصفايا الكلام وهن الباقيات الصالحات". ذكره الثعلبي ، وخرجه ابن ماجه بمعناه من حديث أبي الدرداء قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عليك بسبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر فإنهن يعني يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها " . وأخرجه الترمذي من حديث الأعمش عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بشجرة يابسة الورقة فضربها بعصاة فتناثر الورق فقال : " إن الحمد لله وسبحان الله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر لتساقط من ذنوب العبد كما تساقط ورق هذه الشجرة". قال : هذا حديث غريب ولا نعرف للأعمش سماعا من أنس ، إلا أنه قد رآه ونظر إليه . وخرج الترمذي أيضا عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لَقِيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسْرِيَ بي فقال يامحمد أقرئْ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التُّربة عذبة الماء وأنها قِيعان وأن غِراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" قال : حديث حسن غريب ، خرّجه الماوردي بمعناه . وفيه — فقلت : وما غِراس الجنة؟ قال : "لا حول ولا قوة إلا بالله". وخرّج ابن ماجه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ به وهو يَغْرِس غَرْسا فقال : " يا أبا هريرة ما الذي تغرس" قلت غِراسا . قال "ألا أدُلّك على غِراس خير من هذا سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه الا الله والله أكبر يُغرس لك بكل واحدة شجرة في الجنة" . وقد قيل : إن الباقيات الصالحات هي النيات والهمّات ؛ لأن بها تقبل الأعمال وترفع ؛ قاله الحسن . وقال عُبيد ابن عُمير : هن البنات ؛ يدل عليه أوائل الآية ؛ قال الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ثم قال « والباقيات الصالحات » يعني البنات الصالحات هنّ عند الله لآبائهن خير ثوابا ،

وخير أملا فى الآخرة لمن أحسن إليهن. يدل عليه ما روته عائشة رضى الله عنها قالت: دخلتْ علىّ امرأة مسكينة ... الحديث، وقد ذكرناه فى سورة النحل فى قوله «يَتَوارَى مِنَ الْقَوْمِ» الآية(1).
وروى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لقد رأيت رجلا من أمتى أمر به إلى النار فتعلق به بناته وجعلن يصرخن ويقلن ربِّ إنه كان يحسن إلينا فى الدنيا فرحمه الله بهن".
وقال قتادة فى قوله تعالى: «فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً» قال: أبدلهما منه ابنة فتزوجها نبىّ فولدت له اثنى عشر غلاما كلهم أنبياء.

قوله تعالى: وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ قال بعض النحويين: التقدير والباقيات الصالحات خير عند ربك يوم نسيّر الجبال. قال النحاس: وهذا غلط من أجل الواو. وقيل: المعنى واذكر يوم نسيّر الجبال، أى نزيلها من أماكنها من على وجه الأرض، ونسيرها كما نسير السحاب؛ كما قال فى آية أخرى «وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ». ثم تكسر فتعود إلى الأرض؛ كما قال «وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا». وقرأ ابن كثير والحسن وأبو عمرو وابن عامر «ويوم تُسَيَّر» بتاء مضمومة وفتح الياء. و«الجبالُ» رفعا على الفعل المجهول. وقرأ ابن مُحَيْصن ومجاهد «ويوم تَسير الجبال» بفتح التاء مخففا من سار. «الجبال» رفعا. دليل قراءة أبى عمرو «وإذا الجبال سُيِّرت». ودليل قراءة ابن محيصن «وتَسير الجبال سَيْرا». واختار أبو عبيد القراءة الأولى «نسيّر» بالنون لقوله «وحشرناهم». ومعنى ﴿بارِزَةً﴾ ظاهرة، وليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان؛ أى قد اجتثت ثمارها وقلعت جبالها، وهدم بنيانها؛ فهى بارزة ظاهرة. وعلى هذا القول أهل التفسير. وقيل: «وترى الأرض بارزة» أى برز ما فيها من الكنوز والأموات؛ كما قال «وألقتْ ما فيها

---

(1) راجع ص ١١٧ من هذا الجزء.

وتخلّت » (١) وقال « وأخرجت الأرض أثقالها » (٢) وهذا قول عطاء . ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ ﴾ أى إلى الموقف . ﴿ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى لم نترك؛ يقال : غادرت كذا أى تركته . قال عنترة :

غادرتُه متعفِّرا أوصالُه * والقومُ بين مُجرَّح ومُجدَّل

أى تركته . والمغادرة الترك؛ ومنه الغَدْر؛ لأنه ترك الوفاء . وإنما سمى الغدير من الماء غديرا لأن الماء ذهب وتركه . ومنه غدائر المرأة لأنها تجعلها خلفها . يقول: حشرنا برّهم وفاجرهم وجنّهم وإنسهم .

قوله تعالى : وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا ﴾ « صفًّا » نصب على الحال . قال مقاتل : يعرضون صفًّا بعد صفّ كالصفوف فى الصلاة، كل أمة وزمرة صفا؛ لا أنهم صفّ واحد. وقيل جميعا؛ كقوله « ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا » (٣) أى جميعا . وقيل قياما . وخرّج الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْدَه فى كتاب التوحيد عن معاذ بن جبل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تبارك وتعالى ينادى يوم القيامة بصوت رفيع غير فظيع يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ياعبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون أَحْضِروا حجتكم ويسّروا جوابا فإنكم مسئولون محاسبون . يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب " .

قلت : هذا الحديث غاية فى البيان فى تفسير الآية، ولم يذكره كثير من المفسرين، وقد كتبناه فى كتاب التذكرة، ومنه نقلناه والحمد لله .

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أى يقال لهم : لقد جئتمونا حُفاةً عُراة، لا مالَ معكم ولا ولدا . وقيل فرادَى؛ دليله قوله « ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّلَ مرةٍ » (٤) . وقد تقدم . وقال الزجاج : أى بعثناكم كما خلقناكم . ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ ﴾ هذا خطاب لمنكرى

(١) آية ٤ سورة الانشقاق .	(٢) آية ٢ سورة الزلزلة .	(٣) آية ٦٤ سورة طه .
(٤) آية ٩٤ سورة الأنعام . راجع جـ ٧ ص ٤٢ طبعة أولى أو ثانية .

البغث؛ أى زعمتم فى الدنيا أن لن تُبعثوا وأن لن نجعل لكم موعدا للبعث . وفى صحيح مسلم عن عائشــة رضى الله عنها قالت : سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "يُحشر الناس يوم القيـامة حُفاةً عُراة غُرْلًا" قلت : يا رسول الله ! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال : "يا عائشة ، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض" . « غُرْلًا » أى غير مختونين . وقد تقدم فى « الأنعام »[1] بيانه .

قوله تعـالى : وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ « الكتاب » اسم جنس، وفيه وجهان : أحدهما — أنها كتب الأعمال فى أيدى العباد؛ قاله مُقاتل . الثـانى — أنه وضْـع الحساب؛ قاله الكَلْبِىّ ، فعبّر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة . والقول الأول أظهر؛ ذكره ابن المبارك قال : أخبرنا الحكم أو أبو الحكم — شكّ نُعيم — عن إسماعيل بن عبد الرحمن عن رجل من بنى أسد قال قال عمر لكَعْب : وَيْحك يا كعب ! حدِّثنا من حديث الآخرة؛ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا كان يوم القيامة رُفع اللوح المحفوظ فلم يبق أحد من الخلائق إلا وهو ينظر إلى عمله — قال — ثم يؤتى بالصحف التى فيهـا أعمال العباد فتنثر حول العرش، وذلك قولُه تعالى « ووُضع الكتاب فترى المجرمين مُشْفِقين ممـا فيه ويقولون يا وَيْلَتَنا ما لهـذا الكتاب لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها — قال الأسدى : الصغيرة ما دون الشرك ، والكبيرة الشرك، إلا أحصاها — قال كعب : ثم يدعى المؤمن فيُعطى كتابه بيمينه فينظر فيــه فإذا حسناته باديات للنـاس وهو يقرأ سيئاته لكيلا يقـول كانت لى حسنات فلم تذكر فأحبّ الله أن يُريه عمله كلّه حتى إذا استنقص ما فى الكتاب وجد فى آخر

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٢

ذلك كله أنه مغفور وأنك من أهل الجنة؛ فعند ذلك يقبل إلى أصحابه ثم يقول «هَاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ»[1] ثم يدعى بالكافر فيعطى كتابه بشماله ثم يلف فيجعل من وراء ظهره ويلوى عنقه؛ فذلك قوله «وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ»[2] فينظر فى كتابه فإذا سيئاته باديات للناس وينظر فى حسناته لكيلا يقول أفأثاب على السيئات. وكان الفُضيل بن عِيَاض إذا قرأ هذه الآية يقول : ياويلتاه ! ضِجُّوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر . قال ابن عباس : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ؛ يعنى ما كان من ذلك فى معصية الله عز وجل؛ ذكره الثعلبي . وحكى الماوردي عن ابن عباس أن الصغيرة الضحك .

قلت فيحتمل أن يكون صغيرة إذا لم يكن فى معصية، فإن الضحك من المعصية رضًا بها والرضا بالمعصية معصية ، وعلى هذا تكون كبيرة ، فيكون وجه الجمع هذا والله أعلم . أو يُحمل الضحك فيما ذكر الماوردي على التبسم ، وقد قال تعالى : «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا» . وقال سعيد بن جبير : إن الصغائر اللَّمَمُ كالمَسِيس والقُبَل ، والكبيرة المواقعة والزِّنى . وقد مضى فى «النساء»[3] بيان هذا . قال قتادة : اشتكى القوم الإحصاء، وما اشتكى أحد ظلما، فإياكم ومحقَّرات الذنوب فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه . وقد مضى . ومعنى «أحصاها» عدّها وأحاط بها؛ وأضيف الإحصاء إلى الكتاب توسُّعاً . ﴿ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ﴾ أى وجدوا إحصاء ما عملوا حاضرا . وقيل : وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا . ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ أى لا يأخذ أحدا بجُرم أحد، ولا يأخذه بما لم يعمله؛ قاله الضحاك . وقيل : لا ينقص طائعا من ثوابه ولا يزيد عاصيا فى عقابه .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾

(١) آية ١٩ سورة الحاقة . (٢) آية ١٠ سورة الانشقاق . (٣) راجع جـ ٥ ص ١٥٨ .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ تقـدم فى « البقرة » هذا مستوفى[1]. قال أبو جعفر النحاس : وفى هـذه الاية سؤال، يقال : ما معنى « فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » ففى هذا قولان : أحدهما — وهو مذهب الخليل وسيبويه أن المعنى أتاه الفسق لما أُمر فعصى، فكان سببَ الفسـق أمْرُ ربه ؛ كما تقول : أطعمته عن جوع . والقول الآخر — وهو مذهب محمد بن قُطْرب أن المعنى : ففسق عن ردّ أمر ربه . ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي ﴾ وقّف عز وجل الكفرة على جهـة التوبيخ بقـوله أفتتخذونه يا بنى آدم وذرّيتـه أولياء وهم لكم عدوّ، أى أعداء، فهو اسم جنس . ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ أى بئس عبادة الشـيطان بدلا عن عبـادة الله . أو بئس إبليس بدلا عن الله . واختلف هل لإبليس ذرية من صلبه ؛ فقال الشعبيّ : سألنى رجل فقال هل لإبليس زوجة؟ فقلت : إن ذلك عُرْس لم أشهده، ثم ذكرت قوله «أفتتخذونه وذريته أولياء» فعلمت أنه لا تكون ذرية إلا من زوجة فقلت نعم . وقال مجاهد : إن إبليس أدخل فرجه فى فرج نفسه فباض خمس بيضات؛ فهذا أصل ذريته . وقيل : إن الله تعالى خلق له فى فخـذه اليمنى ذكرا وفى اليسرى فرجا؛ فهو ينكح هـذا بهذا ، فيخرج له كل يوم عشر بيضات ، يخرج من كل بيضة سبعون شيطانا وشيطانة ، فهو يَخْرج وهو يطير ، وأعظمهم عند أبيهم منزلة أعظمهم فى بنى آدم فتنة . وقال قوم : ليس له أولاد ولا ذرية، وذرّيته أعوانه من الشياطين . قال القشيرى أبو نصر : والجملة أن الله تعالى أخبر أن لإبليس أتباعا وذرّية، وأنهـم يوسوسون إلى بنى آدم وهم أعداؤهم ، ولا يثبت عندنا كيفية فى كيفية التوالد منهم وحدوث الذرية عن إبليس، فيتوقّف الأمر فيه على نقل صحيح .

قلت : الذى ثبت فى هذا الباب من الصحيح ما ذكره الحميدى فى الجمع بين الصحيحين عن الإمام أبى بكر البَرْقانى أنه خرج فى كتابه مسندا عن أبى محمد عبد الغنى بن سعيد الحافظ من رواية عاصم عن أبى عثمان عن سلمان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تكن

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ طبعة ثانية أو ثالثة .

أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فيها باض الشيطان وفرّخ" . وهذا يدل على أن للشيطان ذرية من صلبه، والله أعلم . قال ابن عطية : وقوله «وذريّته» ظاهر اللفظ يقتضى الموسوسين من الشياطين، الذين يأتون بالمنكر و يحملون على الباطل . وذكر الطبرى وغيره أن مجاهدا قال : ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدّهم : زَلَنْبُور صاحبُ الأسواق، يضع رايته فى كل سوق بين السماء والأرض، يجعل تلك الراية على حانوت أوّل من يفتح وآخر من يغلق. وثبر صاحب المصائب ، يأمر بضرب الوجوه وشق الجيوب، والدعاء بالويل والحرب . والأعور صاحب أبواب الزنى . ومسوط صاحب الأخبار، يأتى بها فيلقيها فى أفواه الناس فلا يجدون لها أصلا . وداسم الذى إذا دخل الرجل بيته فلم يسلّم ولم يذكر اسم الله بصّره من المتاع ما لم يُرفع وما لم يُحسَن موضعه ، وإذا أكل ولم يذكر اسم الله أكل معه . قال الأعمش : وإنى ربما دخلت البيت فلم أذكر الله ولم أسلّم ، فرأيت مطهرة فقلت : ارفعوا هذه! وخاصمتهم، ثم أذكر فأقول : داسم داسم! أعوذ بالله منه! زاد الثعلبى وغيره عن مجاهد : والأبيض ، وهو الذى يوسوس للأنبياء . وصخر وهو الذى اختلس خاتم سليمان عليه السلام. والولهان وهو صاحب الطهارة يوسوس فيها . والأقيس وهو صاحب الصلاة يوسوس فيها . ومُرّة وهو صاحب المزامير وبه يُكْنَى . والهفاف يكون بالصحارى يُضلّ الناس ويتيههم . ومنهم الغيلان . وحكى أبو مطيع مكحول بن الفضل النسفى فى كتاب اللؤلؤيات عن مجاهد أن الهفاف هو صاحب الشراب ، ولقوس صاحب التحريش، والأعور صاحب أبواب السلطان . قال وقال الدّارانِيّ : إن لإبليس شيطانا يقال له المتقاضى، يتقاضى ابن آدم فيخبر بعمل كان عمله فى السرّ منذ عشرين سنة، فيحدّث به فى العلانية . قال ابن عطية : وهذا وما جانسه مما لم يأت به سند صحيح، وقد طوّل النقاش فى هذا المعنى وجلب حكايات تبعد عن الصحة، ولم يمر بى فى هذا صحيح إلا ما فى كتاب مسلم من أن للصلاة شيطانا يسمى خُنْزَب . وذكر الترمذى أن للوضوء شيطانا يسمى الولهان .

قلت : أما ما ذُكر من التعيين فى الاسم فصحيح؛ وأما أن له أتباعا وأعوانا وجنودا فمقطوع به ، وقد ذكرنا الحديث الصحيح فى أن له أولادا من صلبه، كما قال مجاهد وغيره .

وفى صحيح مسـلم عن عبـد الله بن مسعود قال : إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل فيأتى القوم فيحدّثهم بالحديث من الكذب فيتفرّقون فيقول الرجل منهم سمعت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى ما آسمه يحدّث . وفى مسند البّزّار عن سلمان الفارسى قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " لا تكونن إن استطعت أوّل من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته " . وفى مسند أحمد بن حنبل قال : أنبأنا عبـد الله بن المبارك قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن السُّلَمِىّ عن أبى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بثّ جنوده فيقول من أضل مسلما ألبسْتُه التاج قال فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلّق زوجته، قال : يوشك أن يتزوّج . ويقول آخر : لم أزل بفلان حتى عقّ؛ قال : يوشك أن يَبَرّ . قال ويقول القائل : لم أزل بفلان حتى شَرِب؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى زنى؛ قال : أنت ! قال ويقول : لم أزل بفلان حتى قتل؛ قال : أنت أنت ! وفى صحيح مسلم عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن إبليس يضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنـة يجىء أحدهم فيقول فعلتُ كذا وكذا فيقول ما صنعتَ شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركتُه حتى فرّقتُ بينه و بين أهله قال فيُدنيه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت " . وقد تقدّم . وسمعت شيخنا الإمام أبا محمد عبد المعطى بثَغْر الإسكندرية يقول : إن شـيطانا يقال له البيضاوى يتمثـل للفقراء المواصلين فى الصيـام فإذا استحكم منهم الجوع وأضر بأدمغتهم يكشف لهم عن ضياء ونور حتى يملأ عليهم البيوت فيظنّون أنهم قد وصلوا وأن ذلك من الله وليس كما ظنوا .

⁂

تم الجزء العاشر من تفسير القرطبى

يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الحادى عشر، وأوّله قوله تعـالى :

« ما أشهدتهم خلق السموات والأرض »

# إصلاح خطأ

| ج | ص | س | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|---|
| ١ | ٣٦٧ | ٢ | لا تنهى | لا تنــه |
| ٣ | ٥٩ | ١ | وكانهن رِباية | وكانهن رِبابة |
| ٣ | ٩٨ | ١٢ | أوس بن حُجْر | أوس بن حَجَر |
| ٣ | ٢٨٩ | ١٧ | دير هِرَقْل | دير هِزْقِل |
| ٣ | ٣٠٧ | ١٠ | أُكْسُ بنَاتِيَ | أُكْسُ بُنَيَّاتِي |
| ٣ | ٣٠٧ | ١٥ | يوم نكون | يوم تكون |
| ٤ | ٦٠ | ١٣ | مع البـاء | مع اليـاء |
| ٤ | ١٢٨ | ١٣ | فلن يُقْبَـلُ | فلن يُقْبَـلَ |
| ٥ | ١٨٩ | ١٦ | أو ما ملكت | وما ملكت |
| ٦ | ٣٦٣ | ٢٠ | ج ٢ ص ٤٤ | ج ٢ ص ٢٤ |
| ٦ | ٤٠١ | ١٥ | فاذا رأوا المشركين | فإذا رأى المشركون |
| ٧ | ١ | ١٢ | جمع مَفْتَح | جمع مِفْتَح |
| ٧ | ٢ | ١٣ | وأنه سبب المـاءَ | وأنه سبب المـاءِ |
| ٧ | ١٧٢ | ١١ | فلا نرضـاك | أفلا نرضـاك |
| ٨ | م | ٢٥ | ٣٥٢ | ٢٥٢ |
| ٨ | ٢٥٥ | ٣ | أو بَيعــة | أو بِيعــة |
| ١٠ | ٢٣١ | ١٧ | فى حكم لدنيـا | فى حكم الدنيـا |
| ١٠ | ٢٢١ | ٧ | فـلم يَبْرَد | فـلم يَبْرُد |
| ١٠ | ٢٢١ | ٨ | أصدقونى | أصْدُقونى |

وقفنا أثناء التصحيح على هذه الأخطاء المطبعية فى الأجزاء المـاضية أثبتناها هنا للفائدة ،

أحمد عبد العليم البردونى
المصحح بالقسم الأدبى
بدار الكتب المصرية

* * *

كمل طبع الجزء العاشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الثلاثاء ٢٥ ذو القعدة سنة ١٣٥٩
( ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٠ ) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٩/٣٥/٢٠٠٠)

